UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234266

UNIVERSAL
LIBRARY

(فهرست الجزء الثانى من تفسير القرآن الجليل للامام على بن محمد الخازن)

صحيفة

٢ (تفسير سورة الانعام)

٣٦ ذكر قصة مولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ودعائه قومه وما وقع بينه وبين نمرود

٤٣ فصل احتج العلماء بقوله تعالى فبهداهم اقتده على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام

٥٤ فصل يتعلق بقوله تعالى لا تدركه الأبصار

٦٤ فصل اختلف العلماء فى ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها

٨٤ فصل فى احتجاج القدرية والمعتزلة بقوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا الخ

٩٦ (تفسير سورة الاعراف)

١٠٧ فصل فى الاستدلال على صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عنه

١٣٩ ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن اسحق وأصحاب السير والاخبار

١٤٤ ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن اسحق الخ

١٥٨ فصل فى بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل

١٧١ فصل فى احتجاج من نفى الرؤية بظاهر قوله تعالى لن ترانى والرد عليهم فى ذلك

١٨٧ شرح غريب ألفاظ الحديث فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم المذكورة فى التوراة

٢٠٦ ذكر أسماء الله الحسنى

٢١٧ فصل فى احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عن ذلك

٢٢٢ (تفسير سورة الانفال)

٢٣٥ فصل فى حكم الفرار عند الزحف

٢٦٧ فصل فى استدلال من يقدح فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والرد عليهم فى ذلك

٢٧٢ (تفسير سورة التوبة)

٢٧٢ فصل فى بيان سبب ترك كتابة التسمية فى أول هذه السورة

٢٧٥ فصل قد يتوهم متوهم أن فى بعث على بن أبى طالب بقراءة أول براءة عزل أبى بكر عن الامارة وتفضيله على أبى بكر وذلك جهل الخ

٢٩٣ فصل فى بيان أحكام قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ

صحيفة

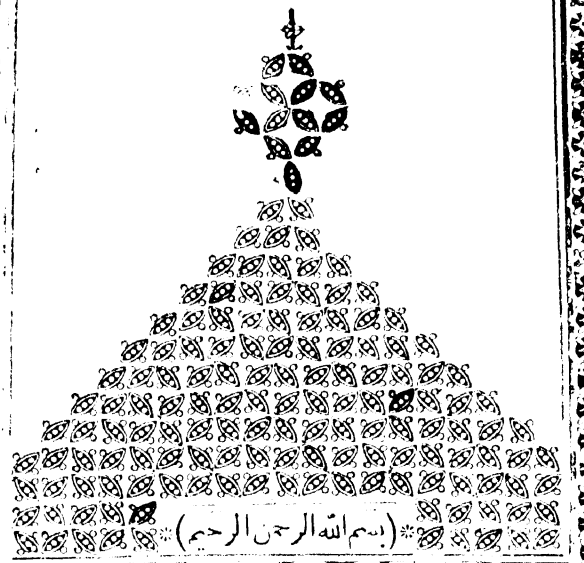
٣٠٧ ذكر سياق حديث الهجرة
٣١١ فصل فى الوجوه المستنبطة من قوله تعالى فانزل الله سكينته عليه الخ الدالة على فضل سيدى ابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه
٣١٤ فصل استدل بقوله تعالى عفا الله عنك الخ من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عن ذلك
٣٢٠ فصل فى بيان حكم قوله تعالى انما الصدقات للفقراء والمساكين الخ وفيه مسائل
٣٤٢ فصل قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات الخ
٣٨٢ (تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام)
٤٢٠ فصل فى الكلام على هذا الحديث (أى قوله صلى الله عليه وسلم لما أغرق الله فرعون قال آمنت الخ لانه فى الظاهر مشكل)
٤٢١ فصل فى وجه اشكال الحديث المذكور
٤٣٠ (تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام)
٤٤٣ فصل فى الرد على من استدل بقوله تعالى ولا أقول انى ملك على تفضيل الملائكة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام
٤٥١ فصل فى الرد على من لا يرى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مستدلا بقوله تعالى انه عمل غير صالح الخ

(تمت)

الجزء الثانى من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى
التنزيل تأليف الشيخ الامام الحجة المقدم العلامة قدوة الامة
وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيى السنة علاء
الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى
الصوفى المعروف بالخازن
تغمده الله برحمته
آمين
م

وقد حلى هامش هذا الكتاب بالتفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل
تأليف الشيخ الامام الجليل القدوة السند العلامة أبى البركات عبد الله

ابن أحمد بن محمود النسفى عليه سحائب الرحمة والرضوان



(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تفسير سورة الانعام)

(فصل فى ذكر نزولها) روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الانعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الانعام جملة للملائكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال هى مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فانها مدنيات وهى قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى وما قدروا الله حق قدره الآية وقوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شئ الى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق الآية وقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية وروى عن ابن عباس أيضا وقتادة أنهما فالا هى مكية الا آيتين نزلتا بالمدينة قوله وما قدروا الله حق قدره وقوله وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات الآية ولما نزلت سورة الانعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد فقال النبى صلى الله عليه وسلم سبحان ربى العظيم سبحان ربى العظيم وخر ساجدا قال البغوى وروى عنه مرفوعا من قرأ سورة الانعام

(سورة الانعام مكية وهي مائة وخمس وستون آية كوفي أربع وستون بصري)

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله) تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء اى الحمد له وان لم تحمدوه (الذى خلق السموات والارض) جمع السموات لانها اطباق بعضها فوق بعض والارض ٣ وان كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال لبعض جعل يتعدى الى مفعول واحد اذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله (وجعل الظلمات والنور) والى مفعولين ان كان بمعنى صير كقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وفيه رد قول الثنوية بقدم النور والظلمة وأفرد النور لارادة الجنس ولان ظلمة كل شئ تختلف باختلاف ذلك الشئ تظيره ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموضع المظلم يخالف كل واحد منها صاحبه والنور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات وقدم الظلمات لقوله عليه السلام خلق الله خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ذكره البغوى بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعني والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشئ بالشئ والمعنى انهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بأن الله خلق السموات والارض وقال النضر بن شميل الباء في قوله بربهم بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشئ وقيل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على انكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك أن تقول لرجل اكرمتك وأحسنت اليك وأنت تشكرنى وتحمد احسانى اليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله قوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعني انه تعالى خلق آدم من طين وانما خاطب ذريته بذلك لانه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيي العظام وهى رميم أعلمهم بهذه الآية انه خلقهم من شئ وهو القادر على اعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت قال السدى لما أراد الله عز وجل

صلى عليه أو لئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل (الحمد لله الذى خلق السموات والارض) قال كعب الاحبار هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية في التوراة قوله تعالى وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية وفي رواية عنه ان آخر آية في التوراة آخر سورة هود قال ابن عباس افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذى خلق السموات والارض وختمه بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وفي قوله الحمد لله تعليم لعباده كيف يحمدونه أى قولوا الحمد لله وقال أهل المعانى لفظه خبر ومعناه الامر أى احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ في البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد في تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذى خلق السموات والارض أى احمدوا الله الذى خلق السموات والارض وانما خصهما بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما ترى العباد لان السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلق وفيها أيضا العبر والمنافع (وجعل الظلمات والنور) الجعل هنا بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور قال السدى يريد بالظلمات ظلمات الليل وبالنور نور النهار وقال الحسن يعني بالظلمات الكفر وبالنور الايمان وقيل يعني بالظلمات الجهل وبالنور العلم وقيل الجنة والنار قال قتادة خلق الله السموات قبل الارض وخلق الظلمة قبل النور وخلق الجنة قبل النار روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ذكره البغوى بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعني والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشئ بالشئ والمعنى انهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بأن الله خلق السموات والارض وقال النضر بن شميل الباء في قوله بربهم بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشئ وقيل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على انكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك أن تقول لرجل اكرمتك وأحسنت اليك وأنت تشكرنى وتحمد احسانى اليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله قوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعني انه تعالى خلق آدم من طين وانما خاطب ذريته بذلك لانه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيي العظام وهى رميم أعلمهم بهذه الآية انه خلقهم من شئ وهو القادر على اعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت قال السدى لما أراد الله عز وجل

معنى ان الله حقيق بالحمد على ما خلق لانه ما خلقه الا نعمة ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته أو على خلق السموات على معنى انه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شئ منه ومعنى ثم استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته (هو الذى خلقكم من طين) من لابتداء الغاية اى ابتدأ خلق اصلكم يعني آدم منه

أن يخلق آدم بعث جبريل الى الارض ليأتيه بقبضة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تقبض منى فرجع ولم يأخذ منها شيأ فقال يارب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله ان أخالف أمره وأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت اخلاقهم ثم قال الله للملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها الاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبى موسى الاشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب أخرجه أبو داود والترمذى وأما قوله تعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فاختلف العلماء فى معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك الاجل الاول من وقت الولادة الى وقت الموت والاجل الثانى من وقت الموت الى البعث وهو البرزخ وروى نحو ذلك عن ابن عباس قال لكل أحد أجلان أجل الى الموت وأجل من الموت الى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث الى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب وقال مجاهد وسعيد بن جبير الاجل الاول أجل الدنيا والاجل الثانى أجل الآخرة وقيل الاجل هو الوقت المقدر فاجل كل انسان مقدر معلوم عند الله لا يزيد ولا ينقص والاجل الثانى هو أجل القيامة وهو أيضا معلوم مقدر عند الله لا يعلمه الا الله تعالى وقال ابن عباس فى رواية عطاء عنه ثم قضى أجلا يعنى النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلا يعنى قدر مدة لاعماركم تنتهون اليها وهو أجل مسمى عنده يعنى ان ذلك الاجل عنده لا يعلمه الا هو والمراد بقوله عنده يعنى فى اللوح المحفوظ الذى لا يطلع عليه غيره (ثم أنتم تمترون) يعنى ثم أنتم تشكون فى البعث قوله عز وجل (وهو الله فى السموات وفى الارض) يعنى وهو اله السموات واله الارض وقيل معناه وهو المعبود فى السموات وفى الارض وقال محمد بن جرير الطبرى معناه وهو الله فى السموات (يعلم سركم وجهركم) فى الارض وقال الزجاج فيه تقديم وتاخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الارض وقيل معناه وهو المنفرد بالتدبير فى السموات وفى الارض لا شريك له فيهما والمراد بالسر ما يخفيه الانسان فى ضميره فهو من أعمال القلوب وبالجهر ما يظهره الانسان فهو من أعمال الجوارح والمعنى ان الله لا يخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الارض (ويعلم ما تكسبون) يعنى من خير أو شر بقى فى الآية سؤال وهو ان الكسب اما ان يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالافعال لا تخرج عن هذين النوعين يعنى السر والجهر فقوله ويعلم ما تكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وذلك غير جائز فما معنى

(ثم قضى أجلا) اى حكم أجل الموت (وأجل مسمى عنده) أجل القيامة أو الاول ما بين ان يخلق الى ان يموت والثانى ما بين الموت والبعث وهو البرزخ او الاول النوم والثانى الموت أو الثانى هو الاول وتقديره وهو أجل مسمى اى معلوم واجل مسمى مبتدأ والخبر عنده وقدم المبتدا وان كان نكرة والخبر ظرفا وحقه التأخير لانه تخصص بالصفة فقارب المعرفة (ثم أنتم تمترون) تشكون من المرية أو تجادلون من المراء ومعنى ثم استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت انه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) مبتدأ وخبر (فى السموات وفى الارض) متعلق بمعنى اسم الله كانه قيل وهو المعبود فيهما كقوله وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله أو هو المعروف بالالهية فيهما أو هو الذى يقال له الله فيهما والاول تفريع على انه مشتق وغيره على انه غير مشتق (يعلم سركم وجهركم) خبر بعد خبر أو كلام مبتدأ أى وهو يعلم سركم وجهركم (ويعلم ما تكسبون) من الخير والشر ويثيب عليه ويعاقب ومن فى

(وما تأتيهم من آية) للاستغراق وفي (من آيات ربهم) للتبعيض أي وما يظهر لهم دليل قط من الادلة التي يجب فيها

ذلك وأجيب عنه بانه يجب حمل قوله ويعلم ما تكسبون على ما يستحقه الانسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه انه محمول على المكتسب فهو كما يقال هذا المال كسب فلان أي مكتسب به ولا يجوز حمله على نفس الكسب والا لزم عطف الشئ على نفسه ذكره الامام فخر الدين (وما تأتيهم) يعني لاهل مكة (من آية من آيات ربهم) يعني من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) يعني الا كانوا لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) يعني بآيات القرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (لما جاءهم) يعني لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) يعني فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم اذا عذبوا في الآخرة قوله تعالى (ألم يروا) الخطاب لكفار مكة يعني ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) يعني مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الامم الماضية والقرون الخالية والقرن الامة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان وقيل سمي قرنا لانه زمان يزمان وأمة بامة واختلفوا في مقدار القرن فقيل ثمانون سنة وقيل ستون سنة وقيل أربعون سنة وقيل مائة وعشرون سنة وقيل مائة سنة وهو الاصح لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازني انك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن أهل الدين وجد وافيه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني أصحابي وتابعيهم وتابعي التابعين (مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم) يعني أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم في العمر والبسطة في الاجسام والسعة في الارزاق مثل اعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) مفعال من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعا في أوقات الحاجة اليه والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها (وجعلنا الانهار تجري من تحتهم) يعني وفجرنا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه كثرة الساتين (فاهلكناهم بذنوبهم) يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يعني وخلقنا من بعدهلاك أولئك أهل قرن آخرين وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الامم السالفة والقرون الخالية فانهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الاتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة قوله عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس) الآية قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن لك حتى تاتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه انه من عند الله وانك رسوله فانزل الله تعالى هذه الآية ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس يعني من عندي يعني مكتوبا في قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التي يكتب فيها

النظر والاعتبار (الا كانوا عنها معرضين) تاركين للنظر لا يلتفتون اليه لقلة خوفهم وتدبرهم في العواقب (فقد كذبوا) مردود على كلام محذوف كانه قيل ان كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا (بالحق لما جاءهم) أي بما هو أعظم آية وأكبرها وهو القرآن الذي تحدوا به فعجزوا عنه (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) أي أنباء الشئ الذي كانوا به يستهزؤن وهو القرآن أي أخباره وأحواله يعني سيعلمون بأي شئ استهزؤا وذلك عند ارسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الاسلام وعلو كلمته (ألم يروا) يعني المكذبين (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) هو مدة انقضاء أهل كل عصر وهو ثمانون سنة أو سبعون (مكناهم) في موضع الصفة لقرن وجمع على المعنى (في الارض ما لم نمكن لكم) التمكين في البلاد اعطاء المكنة والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة في الاجسام والسعة في الاموال والاستظهار بأسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدرارا) كثيرا وهو حال من السماء (وجعلنا الانهار تجري من تحتهم) من تحت

أشجارهم والمعنى عاشوا في الخصب بين الانهار والثمار وستيا الغيث المدرار (فاهلكناهم بذنوبهم) ولم يغن ذلك عنهم شيأ (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (ولو نزلنا عليك كتابا) مكتوبا (في قرطاس) في ورق

(فلمسوه بأيديهم) هو لئلا يقولوا سكرت أبصارنا ومن المحتج عليهم العمى (لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره (وقالوا لولا) هلا (أنزل عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا انه نبي فقال الله (ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) لقضى ٦ أمر هلاكهم (ثم لا ينظرون) لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين لانهم اذا شاهدوا ملكا

(فلمسوه بأيديهم) يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وانما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لانه أبلغ في ايقاع العلم بالشئ من الرؤية لان المرئيات قد يدخلها التخيلات كالسحر ونحوه بخلاف الملموس (لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعني لو أنزلنا عليهم كتابا كما سألوا لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وانه لا ينفع معهم شئ لما سبق فيهم من علمي بهم (وقالوا) يعني مشركي مكة (لولا) يعني هلا (أنزل عليه) يعني على محمد (ملك) يعني نراه عيانا (ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) يعني لفرغ الامر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار انهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لا ينظرون) يعني انهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يعني ولو أرسلنا اليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل وذلك ان البشر لا يستطيعون ان ينظروا الى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر الى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الانبياء في صورة الانس كما جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان الى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة الى ابراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه وقوله تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) يقال لبست الامر على القوم اذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلا ولبست عليه الامر اذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته ومعنى الآية وخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية انا لو جعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشرا فتعود المسئلة بحالها انا لا نرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وانما كان تلبيسا لانهم يظنون انه ملك وليس بملك أو يظنون انه بشر وليس هو بشرا وانما كان فعلهم تلبيسا لانهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يعني كما استهزؤا بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين اياه واستهزائهم به اذ جعل له اسوة في ذلك بالانبياء الذين كانوا قبله (فحاق) أي فنزل وقيل حاط وقيل حل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم وفي هذه الآية تحذير للمشركين ان يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم

في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ومعنى ثم بعد ما بين الامرين قضاء الامر وعدم الانظار جعل عدم الانظار أشد من قضاء الامر لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة (ولو جعلناه ملكا) ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لانهم كانوا يقولون تارة لولا انزل على محمد ملك وتارة يقولون ما هذا الا بشر مثلكم ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لجعلناه رجلا) لارسلناه في صورة رجل كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الاحوال في صورة دحية لانهم لا يقوون مع رؤية الملائكة في صورهم (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره اذا كان سبيله كسبيلك يا محمد فانهم يقولون اذا رأوا الملك في صورة الانسان هذا انسان وليس بملك يقال لبست الامر على القوم وألبسته اذا أشبهته وأشكلته عليهم ثم سلى نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) فاحاط بهم الشئ الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل استهزائهم ومنهم متعلق بسخروا كقوله بأنبيائهم فسخرون منهم والضمير للرسل والدال مكسورة عند أبي عمرو وعاصم لالتقاء الساكنين وضمها غيرهما اتباعا لضم التاء

بانبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم (قل سيروا في الارض) أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الارض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الاقدام (ثم انظروا) فعلى القول الاول يكون النظر نظر فكر وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا باعينكم الى آثار الامم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى (كيف كان عاقبة المكذبين) يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف اورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الامم الخالية قوله عز وجل (قل لمن ما في السموات والارض قل لله) هذا سؤال وجواب والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والارض فان أجابوك والا فأخبرهم ان ذلك لله الذي قهر كل شئ وملك كل شئ واستعبد كل شئ لا للاصنام التي تعبدونها أنتم فانها موات لا تملك شيأ ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا وانما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته واحسانه اليهم فقال تعالى (كتب على نفسه الرحمة) يعني انه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الى الاقبال عليه واخبار بانه رحيم بعباده وانه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والانابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي البخاري ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق ان رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش وفي رواية لهما ان الله لما خلق الخلق وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده وزاد البخاري على العرش ثم اتفقا ان رحمتي تغلب غضبي (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فامسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الارض جزأ واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية ان تصيبه زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم ان لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق يوم خلق السموات والارض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والارض فجعل منها في الارض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة (ق) عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي فاذا امرأة من السبي تبتغي اذ وجدت صبيا في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر أن لا تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم لله ارحم

(قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) والفرق بين فانظروا وبين ثم انظروا أن النظر جعل مسببا عن السير في فانظروا فكانه قيل سيروا لاجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ومعنى سيروا في الارض ثم انظروا اباحة السير في الارض للتجارة وغيرها وايجاب النظر في آثار الهالكين وتبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح

(قل لمن ما في السموات والارض) من استفهام وما بعدي الذي في موضع الرفع على الابتداء ولمن خبره (قل لله) تقريرهم أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم ولا تقدرون ان تضيفوا منه شيأ الى غيره (كتب على نفسه الرحمة) أصل كتب أوجب ولكن لا يجوز الاجراء على ظاهره اذ لا يجب على الله شئ للعبد فالمراد به أنه وعد ذلك وعدا مؤكدا وهو منجزه لا محالة وذكر النفس للاختصاص ورفع الوسائط ثم أوعدهم على اخفائهم النظر واشراكهم به من لا يقدر على خلق شئ بقوله

(ليجمعنكم الى يوم القيامة) فيجازيكم على اشراككم (لا ريب فيه) فى اليوم أو فى الجمع (الذين خسروا أنفسهم) نصب على الذم أى أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر (فهم لا يؤمنون) وقال الاخفش الذين بدل من كم فى ليجمعنكم أى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم والوجه هو الاول لان سيبويه قال لا يجوز مررت بى المسكين ولابك المسكين فتجعل المسكين بدلا من الياء ٨ أو الكاف لانهما فى غاية الوضوح فلا يحتاجان الى البدل والتفسير

(وله) عطف على الله (ما سكن فى الليل والنهار) من السكنى حتى يتناول الساكن والمتحرك أو من السكون ومعناه ما سكن وتحرك فيهما فاكتفى باحد الضدين عن الآخر كقوله تقيكم الحر أى الحر والبرد وذكر السكون لانه أكثر من الحركة وهو احتجاج على المشركين لانهم لم ينكروا انه خالق الكل ومدبره (وهو السميع العليم) يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شئ مما يشتمل عليه الملوان (قل أغير الله أتخذ وليا) ناصرا ومعبودا وهو مفعول ثان لاتخذ والاول غير وانما أدخل همزة الاستفهام على مفعول أتخذ لا عليه لان الانكار فى اتخاذ غير الله وليا لا فى اتخاذ الولى فكان أحق بالتقديم (فاطر السموات والارض) بالجر صفة لله أى مخترعهما وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم الى اعرابيان فى بئر فقال أحدهما انا فطرتها أى ابتدأتها (وهو يطعم ولا يطعم) وهو يرزق ولا يرزق أى المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع من

(قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) لان النبى سابق أمته فى الاسلام كقوله وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (ولا تكونن من المشركين) وقيل لى لا تكونن من المشركين ولو عطف على ما قبله لفظا لقيل وأن لا أكون والمعنى أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك (قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى انى أخاف عذاب يوم عظيم وهو القيامة ان عصيت ربى فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به محذوف الجواب (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ فقد رحمه) الله الرحمة العظمى وهى النجاة من يصرف حمزة وعلى وأبو بكر أى من يصرف الله عنه العذاب

وعباده من هذه المرأة بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام فى قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) يعنى فى يوم القيامة وقيل معناه فى قبوركم الى يوم القيامة (لا ريب فيه) أى لا شك فيه انه آت (الذين خسروا أنفسهم) يعنى بالشرك بالله وغبنوا أنفسهم باتخاذهم الاصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيأ وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل اذا غبن فى بيعه (فهم لا يؤمنون) يعنى لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذى حملهم على الامتناع من الايمان قوله تعالى (وله ما سكن فى الليل والنهار) يعنى وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل انما خص السكون بالذكر لان النعمة فيه أكثر وقال ابن جريج كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل فى الارض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما فى البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى ان جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره (وهو السميع) لاقوالهم واصواتهم (العليم) بسرائرهم واحوالهم قوله عز وجل (قل أغير الله أتخذ وليا) قال مقاتل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ وليا يعنى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار أى لا أتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) أى خالق السموات والارض ومبدعهما ومبتدئهما (وهو يطعم ولا يطعم) يعنى وهو يرزق ولا يرزق ووصف الله عز وجل نفسه بالغنى عن الخلق وباحتياج الخلق اليه لان من كان من صفته ان يطعم الخلق لاحتياجهم اليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الاطعام فهو غنى عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا ومعبودا (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) يعنى من هذه الامة والاسلام بمعنى الاستسلام يعنى أمرت أن أستسلم لامر الله وأنقاد الى طاعته (ولا تكونن من المشركين) يعنى وقيل لى يا محمد لا تكونن من المشركين (قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى عبادة غير ربى ان ربى أمرنى ان أكون أول من أسلم ونهانى عن عبادة شئ سواه وانى أخاف ان عصيت ربى فعبدت شيأ سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعنى العذاب (يومئذ) يعنى يوم القيامة (فقد رحمه) يعنى بان أنجاه

من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لا محالة وانما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم أنه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة مع صرف العذاب عنه (وذلك الفوز المبين) يعني ان صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه (فلا كاشف له الا هو) يعني فلا يدفع ذلك الضر الا هو الله عز وجل (وان يمسسك بخير) يعني بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك (فهو على كل شئ قدير) يعني من دفع الضر وجلب الخير وهذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى لا تتخذوا وليا سوى الله لانه هو القادر على أن يمسسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على ايصال الخير اليك وانه لا يقدر على ذلك الا هو فاتخذه وليا وناصرا ومعينا وهذا الخطاب وان كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو عام لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شئ قدير من دفع الضر وايصال الخير عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال لي ياغلام اني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعت على ان يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف أخرجه الترمذي زاد فيه رزين تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وفيه وان استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان الصبر على ما تكره خير كثير واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين قال ابن الاثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في مسند أحمد بن حنبل قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لانه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شئ أراده ومعنى فوق عباده هنا ان قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئا فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة وقال ابن جرير الطبري معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وانما قال فوق عباده لانه تعالى وصف نفسه بقهره اياهم ومن صفة كل قاهر شيئا أن يكون مستعليا عليه فمعنى الكلام اذا والله الغالب عباده المذل لهم العالي عليهم بتذليله اياهم فهو فوقهم بقهره اياهم وهم دونه وقيل فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عز وجل (وهو الحكيم) يعني في أمره وتدبيره عباده (الخبير) يعني باعمالهم وما يصلحهم قوله عز وجل (قل أي شئ أكبر شهادة) قال الكلبي أتى أهل

(وذلك الفوز المبين) النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) من مرض أو فقر او غير ذلك من بلاياه (فلا كاشف له الا هو) فلا قادر على كشفه الا هو (وان يمسسك بخير) من غنى أو صحة (فهو على كل شئ قدير) فهو قادر على ادامته وازالته (وهو القاهر) مبتدأ وخبر أي الغالب المقتدر (فوق عباده) خبر بعد خبر أي عال عليهم بالقدرة والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه (وهو الحكيم) في تنفيذ مراده (الخبير) باهل القهر من عباده (قل أي شئ أكبر شهادة) أي شئ مبتدأ وأكبر خبره وشهادة تمييز وأي كلمة يراد بها بعض ما تضاف اليه فاذا كانت استفهاما كان جوابها مسمى باسم ما أضيفت اليه

مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فأما الآخرى أحدا يصدقك واقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عز وجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فان هم أجابوك والا (قل) أنت يا محمد (الله شهيد بيني وبينكم) قال مجاهد أمر محمد صلى الله عليه وسلم ان يسأل قريشا أي شيء أكبر شهادة ثم أمر أن يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل انهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد له بالنبوة فبين الله تعالى بهذه الآية ان أكبر الاشياء شهادة هو الله تعالى ثم بين أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله (وأوحي الى هذا القرآن لانذركم به) يعني ان الله عز وجل يشهد لي بالنبوة لانه أوحى الى هذا القرآن وهو معجزة لانكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزا واذا كان معجزا كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لانذركم به يعني أوحي الى هذا القرآن لانذركم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل (ومن بلغ) يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي الى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الامم فكل من بلغ اليه القرآن وسمعه فالنبي صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله عز وجل (ح) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي معتمدا فليتبوأ مقعده من النار شرح ما يتعلق بهذا الحديث فيه الامر بالابلاغ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم الى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والاثم ومعنى الحديث انهم ما أتوا عن بني اسرائيل فيهم كانوا في حل أكثر مما تأتوا وأنتم وليس هذا فيه اباحة الكذب والاخبار عن بني اسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض الوجوه ثم يحمل ذلك بدليل لانه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا شيأ فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع مقالتي فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليبلغ شاهدكم غائبكم أخرجه أبو داود موقوفا وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري أئنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الاصنام التي كانوا يعبدونها وانما قال أخرى لان الجميع لجنس الاناث كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى وأبال القرون الاولى ولم يقل الاول ولا الاولين (قل لا أشهد) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون

وقوله (قل الله) جواب أي الله أكبر شهادة فالله مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلا على أنه يجوز اطلاق اسم الشيء على الله تعالى وهذا الان الشيء اسم للموجود ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيأ ولذا تقول الله تعالى شيء لا كالاشياء ثم ابتدأ (شهيد بيني وبينكم) أي هو شهيد بيني وبينكم ويجوز أن يكون الجواب الله شهيد بيني وبينكم لانه اذا كان الله شهيدا بينه وبينهم فاكبر شيء شهادة شهيد له (وأوحي الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أي ومن بلغه القرآن الى قيام الساعة في الحديث من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم ومن في محل النصب بالعطف على كم والمراد به أهل مكة والعائد اليه محذوف أي ومن بلغه وقاعل بلغ ضمير القرآن (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) استفهام انكار وتكيت (قل لا أشهد) بما تشهدون وكرر

به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) يعنى قل لهم انما الله اله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد (وانني برىء مما تشركون) يعنى وأنا برىء من كل شئ تعبدونه سوى الله وفى هذه الآية دليل على اثبات التوحيد لله عز وجل وابطال كل معبود سواه لان كلمة انما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح فى التوحيد ونفى الشريك فثبت بذلك ايجاب التوحيد وسلب كل شريك وانبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتى بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الاسلام لقوله تعالى وانني برىء مما تشركون قوله عز وجل (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان كفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم انا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا انه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفتك بين الله عز وجل ان شهادتهم له كافية على صحة نبوته وبين فى هذه الآية أنهم يعرفونه وأنهم كذبوا فى قولهم انهم لا يعرفونه وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب ان الله عز وجل أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولانا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى بابنى فقال عمر وكيف ذاك قال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدرى ما صنع النساء وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) يعنى أهلكوا أنفسهم ومنعوها وأوبوها فى نار جهنم بانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الذين خسروا أنفسهم قولان أحدهما أنه صفة للذين الاولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين (فهم لا يؤمنون) يعنى به القول الثانى أنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالاول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر وا فى معنى الخسار وجهين أحدهما أنه الهلاك الدائم الذى حصل لهم بسبب كفرهم وانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والوجه الثانى أنه جعل لكل واحد من بنى آدم منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التى فى الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التى فى النار فذلك هو الخسران لقوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى ومن أشد عنادا وأخطأ فعلا وأعظم كفرا ممن اختلق على الله كذبا فزعم أنه له شريك من خلقه والها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الاصنام أو ادعى ان له صاحبة وولدا كما قالت النصارى (أو كذب بآياته) يعنى كذب بحجته وأعلام أدلته التى أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الانبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (انه لا يفلح الظالمون) يعنى انه لا يفلح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل (ويوم نحشرهم جميعا) أى اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا

فى محل النصب بان وهو مبتدأ واله خبره والجملة صلة الذى وواحد خبر ان وهذا الوجه أوقع (وانني برىء مما تشركون) به (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى اليهود والنصارى والكتاب التوراة والانجيل (يعرفونه) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت فى الكتابين (كما يعرفون أبناءهم) بحلاهم ونعوتهم وهذا استشهاد لاهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته ثم قال (الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين (فهم لا يؤمنون) به (ومن أظلم) استفهام يتضمن معنى النفى أى لا أحد أظلم لنفسه والظلم وضع الشئ فى غير موضعه وأشنعه اتخاذ المخلوق معبودا (ممن افترى) اختلق (على الله كذبا) فيصفه بما لا يليق به (أو كذب بآياته) بالقرآن والمعجزات (انه) ان الامر والشأن (لا يفلح الظالمون) جمعوا بين أمرين باطلين فكذبوا على الله مالاحجة عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا الملائكة بنات الله وسموا القرآن والمعجزات سحرا (ويوم نحشرهم) هو مفعول به والتقدير واذكر يوم نحشرهم (جميعا) حال من ضمير المفعول (ثم نقول للذين أشركوا) مع الله غيره توبيخا وبالياء فيهما يعقوب

(من قبل) فى الدنيا من قبائحهم وفضائحهم فى صحفهم وقيل هو فى المنافقين وانه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه أو فى أهل الكتاب وانه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولو ردوا) الى الدنيا بعد وقوفهم على النار (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر (وانهم لكاذبون) ١٤ فيما وعدوا من أنفسهم لا يوفون به (وقالوا) عطف على لعادوا أى ولو ردوا والكفر واولتالوا (ان هى الا حياتنا الدنيا) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة أو على قوله وانهم لكاذبون أى وانهم لتوم كاذبون فى كل شئ وهم الذين قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وهى كناية من الحياة او هو ضمير القصة (وما نحن بمبعوثين ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده ليعاتبه أو وقفوا على جزاء ربهم (قال) جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا قال لهم ربهم اذ وقفوا عليه فقيل قال (أليس هذا) أى البعث (بالحق) بالكائن الموجود وهذا تعيير لهم على التكذيب للبعث وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث ما هو بحق (قالوا بلى وربنا) أقروا وأكدوا الاقرار باليمين (قال) الله تعالى (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفركم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يلوغ الآخرة وما يتصل بها أو هو مجرى على ظاهره لان منكر البعث منكر للرؤية (حتى) غاية كذبوا لا الخسران لان خسرانهم لا غاية له (اذا جاءتهم الساعة) أى القيامة لان مدة تأخرها مع تأبد ما بعدها كساعة واحدة (بغتة) فجأة وانتصابها على الحال يعنى باغتة او على المصدر كأنه قيل بغتتهم الساعة بغتة وهى ورود الشئ على صلحبه من غير تهيؤ له (قالوا يا حسرتنا) نداء نحضر منادى يا حسرة احضرى فهذا اوانك

من قبل) يعنى ليس الامر كما قالوا لو ردوا الى الدنيا لآمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون فى الدنيا من الكفر والمعاصى وقيل ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين اخفوا شركهم وكتموه فاظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما اخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية فى المنافقين (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) يعنى فى قولهم لو رددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وهذا خبر عن حال منكرى البعث وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله فى الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا يعنى الكفار ان هى أى ما هى الا حياتنا الدنيا أى ليس لنا غير هذه الدنيا التى نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعنى بعد الموت وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار انهم لو ردوا الى الدنيا لقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين قوله عز وجل (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) يعنى على حكم ربهم وقضائه ومسئلته وقال مقاتل عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أى يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقا (قالوا بلى وربنا) يعنى أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فاجابوا وقالوا بلى والله انه لحق وقيل تقول لهم خزنة النار بأمر الله أليس هذا بالحق يعنى البعث حقا فاجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس للقيامة مواقف ففى موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفى موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه فى الدنيا (قال فذوقوا العذاب) أى يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى وانما خص لفظ الذوق لانهم فى كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق فى شدة الاحساس (بما كنتم تكفرون) يعنى هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير الى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم فى دار النعيم المقيم وحصول العذاب الاليم فى دركات الجحيم (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) يعنى جاءتهم القيامة فجاءة وسميت القيامة ساعة لانها تقع فى أسرع الناس فى ساعة لا يعلمها أحد الا الله تبارك وتعالى وقيل سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون فى ساعة او اقل من ذلك (قالوا) يعنى منكرى البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد (يا حسرتنا) يعنى يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه

الخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة (على ما فرطنا) يعنى قصرنا (فيها) يعنى فى الدنيا لانها موضع التفريط فى الاعمال الصالحة والمعنى يا حسرتنا على الاعمال الصالحة التى فرطنا فيها فى دار الدنيا وقال محمد بن جرير الطبرى الهاء والالف فى قوله فيها تعود الى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها اذ كان معلوما ان الخسران لا يكون الا فى صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الايمان الذى يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذى يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة فاذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم قالوا حينئذ يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبرى بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله يا حسرتنا قال يرى أهل النار منازلهم فى الجنة فيقولون يا حسرتنا وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) يعنى أثقالهم (على ظهورهم) والاوزار الخطايا والذنوب وأصل الوزر الثقل والحمل يقال وزرته اذا حملته وانما قيل للذنوب أوزار لانها تثقل ظهر من يحملها قال قتادة والسدى ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شئ صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبنى فقد طال ما ركبتك فى الدنيا فذلك قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا يعنى ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفنى فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتنى فى الدنيا فانا اليوم أركبك فذلك معنى قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال عمر بن هانئ يحشر مع كل كافر عمله فى صورة رجل قبيح كلما رأى هول صورته وقبح زاده خوفا فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتنى فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رؤس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدى ربه تعالى فذلك قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال الزجاج الثقل كما ذكر فى الوزن فقد يذكر فى الحال والصفة يقال ثقل على كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى انهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مجازا عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل فى معنى الآية ان أوزارهم لازمة لهم كما تقول تختصه نصب عينى أى ذكره ملازم لى (ألا ساء ما يزرون) يعنى بئس الشئ شيأ يحملونه وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا وقوله عز وجل (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) أى باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكرى البعث فى قولهم ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين فقال الله رد اعليهم ومكذبا لهم وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان أحدهما ان المراد بها حياة الكافر لان المؤمن لا يراد بحياته فى الدنيا الا الخير لانه يحصل فى أيام حياته من الاعمال الصالحة والطاعة ما يكون سببا لحصول السعادة فى الآخرة وأما الكافر فان كل حياته فى الدنيا وبال عليه قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق والقول الثانى

(على ما فرطنا) قصرنا (فيها) فى الحياة الدنيا أو فى الساعة أى قصرنا فى شأنها وفى الايمان بها (وهم يحملون أوزارهم) آثامهم (على ظهورهم) خص الظهر لان المعهود حمل الاثقال على الظهور كما عهد الكسب بالايدى وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم وقيل ان الكافر اذا خرج من قبره استقبله أقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول أنا عملك الشئ فطالما ركبتنى فى الدنيا وانا اركبك اليوم (ألا ساء ما يزرون) بئس شيأ يحملونه وأفاد الاتعظيم ما يذكر بعده (وما الحيوة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل عن الحد الى الهزل قيل ما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو وقيل ما اعمال الحياة الدنيا الا لعب ولهو لانها لا تبقى منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة

(وللدار) مبتدأ (الآخرة) صفتها لاضافتها الى صفته وخبر المبتدأ على القراءتين (خير للذين يتقون) وفيه دليل على ان ماسوى اعمال المتقين لعب ولهو (أفلا يعقلون) بالتاء مدنى وحفص ولما قال أبوجهل ما نكذبك يا محمد وانك عندنا لمصدق وانما نكذب ما جئتنا به نزل (قد نعلم انه) الهاء ضمير الشان (ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك) لا ينسبونك الى الكذب وبالتخفيف نافع وعلى من أكذبه اذا وجده كاذبا (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) من اقامة الظاهر مقام المضمر وفيه دلالة على انهم ظلموا فى جحودهم والباء يتعلق بيجحدون أو بالظالمين كقوله فظلموا بها والمعنى ان تكذيبك أمر راجع الى الله لان رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك فى الحقيقة وانما يكذبون الله لان تكذيب الرسل تكذيب المرسل (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل على ان قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفى للتكذيب به فلا لانك اذا اهانك بعض الناس انهم لم يهينوك وانما اهانونى (فصبروا) والصبر حبس النفس على المكروه (على ما كذبوا وأوذوا) على تكذيبهم وايذائهم (حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) لمواعيده من قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون انا لننصر رسلنا

ان هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لان الانسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لان الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لابقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وانه عام فيهما وانما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشئ الذى يلعب به وقيل معناه ان أمر الدنيا واهل العمل لها لعب ولهو فاما فاعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وان كان وقوعه فى الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو لانه لا يجدى شيأ ولا تشغالهم عما أمروا به نسبوا الى اللعب واللهو وقوله تعالى (وللدار الآخرة) يعنى الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله لدار الآخرة (خير) يعنى من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) يعنى الشرك وقيل يتقون اللعب واللهو (أفلا يعقلون) ان الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها قوله تعالى (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون) يعنى قد نعلم يا محمد انه ليحزنك الذى يقوله المشركون لك قال السدى التقى الاخنس بن شريق وأبوجهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيرى فقال أبوجهل والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فانزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب قال أبوجهل للنبى صلى الله عليه وسلم ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به فانزل الله هذه الآية عن على بن أبى طالب ان أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فانزل الله فيهم فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون أخرجه الترمذى من طريقين وقال فى أحدهما هذا أصح وفى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يراجعه به قومه لانهم كانوا يعتقدون صدقه وانه ليس بكذاب وانما حملهم على تكذيبه فى الظاهر الحسد والظلم (فانهم لا يكذبونك) يعنى انهم لا يكذبونك فى السر لانهم قد عرفوا انك صادق (ولكن الظالمين) يعنى الكافرين (بآيات الله يجحدون) يعنى فى العلانية وذلك انهم جحدوا القرآن بعد معرفة صدق الذى أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال تعالى فى حق غيرهم وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقيل ظاهر الآية يدل على انهم لم يكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وانما جحدوا آيات الله وهى القرآن الدال على صدقه فعلى هذا يكون المعنى فانهم لا يكذبونك لانهم قد عرفوا صدقك وانما جحدوا وجحودهم تكذيبك رسالتك قوله عز وجل (ولقد كذبت رسل من قبلك) يعنى ولقد كذبت الامم الخالية رسلهم كما كذبك قومك (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) يعنى ان الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم اياهم وصبروا على أذاهم فاصبر أنت يا محمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر من كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن على تكذيب قومه له وأذاهم اياه (حتى اتاهم نصرنا) يعنى باهلاك من كذبهم (ولا مبدل لكلمات الله) يعنى ولا ناقض لما حكم الله به من

(ولقد جاءك من نبأ المرسلين) بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين وأجاز الأخفش أن تكون من زائدة والفاعل نبأ المرسلين وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب كان يكبر على ١٧ النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه

اهلاك المكذبين ونصر المرسلين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال الله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ولا خلف فيما وعد الله به وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) يعني ولقد أنزلت عليك في القرآن من أخبار المرسلين ما فيه تسلية لك وتسكين لقلبك وقال الاخفش من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هي للتبعيض لان الواصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصص بعض الانبياء وأخبارهم كما قال تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم) ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية ان الحرث بن عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقال ائتنا بآية كما كانت الانبياء تأتي قومها بالآيات فان فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس ومعنى الآية وان كان عظم عليك يا محمد اعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والايمان بك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على ايمان قومه أشد الحرص وكان اذا سألوه آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعا في ايمانهم فقال الله عز وجل (فان استطعت أن تبتغي) يعني تطلب وتتخذ (نفقا في الارض) يعني سربا في الارض والنفق سرب في الارض تخلص منه الى مكان آخر (أو سلما في السماء) يعني أو تتخذ مصعدا الى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) يعني بالآية التي سألوا عنها ومعنى الآية وان كان كبر وعظم عليك اعراض قومك عن الايمان بك فان قدرت أن تذهب في الارض أو تصعد الى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك فافعل وانما حسن حذف جواب الشرط لانه معلوم عند السامع والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعه عن ايمانهم ولا يتأذى بسبب اعراضهم عنه وعن الايمان به ويدل عليه قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم انما تركوا الايمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكونن من الجاهلين) يعني بان لو شاء الله لجمعهم على الهدى وانه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم اياك ولا تجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وانما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة قوله عز وجل (انما يستجيب الذين يسمعون) يعني المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) يعني الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون (يبعثهم الله) يعني يوم القيامة (ثم اليه يرجعون) فيجزيهم باعمالهم (وقالوا) يعني رؤساء كفار قريش (لولا) يعني هلا (نزل عليه آية من ربه) يعني الملك

واعراضهم ويجب مجيء الآيات ليسلموا فنزل (وان كان كبر عليك) عظم وشق (اعراضهم) عن الاسلام (فان استطعت أن تبتغي نفقا) منفذا تنفذ فيه الى ما تحت الارض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها (في الارض) صفة لنفقا (أو سلما في السماء فتأتيهم) منها (بآية) فافعل وهو جواب فان استطعت وان استطعت وجوابها جواب وان كان كبر والمعنى انك لا تستطيع ذلك والمراد بيان حرصه على اسلام قومه وانه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الارض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء ايمانهم (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) لجعلهم بحيث يختارون الهدى ولكن لما علم انهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك كذا قاله الشيخ أبو منصور رحمه الله (فلا تكونن من الجاهلين) من الذين يجهلون ذلك ثم أخبر أن حرصه على هداية هم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله (انما يستجيب الذين يسمعون) أي انما يجيب دعاءك الذين يسمعون دعاءك بقلوبهم (والموتى) مبتدأ أي الكفار (يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) حينئذ يسمعون وأما

٣ ن ني قبل ذلك فلا (وقالوا لولا نزل عليه) هلا أنزل عليه (آية من ربه) كما نقترح من

جعل الصفا ذهبا وتوسيع أرض مكة وتفجير الانهار خلالها

ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الانبياء (قل) يعنى قل لهم يا محمد (ان الله قادر على أن ينزل آية) يعنى انه تعالى قادر على ايجاد ما طلبوه وانزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعنى ماذا عليهم فى انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها وقيل معناه انهم لا يعلمون ان الله قادر على انزال الآيات وقيل انهم لا يعلمون وجه المصلحة فى انزالها قوله تعالى (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) قال العلماء جميع ما خلق الله عز وجل لا يخرج عن هاتين الحالتين اما ان يدب على الارض أو يطير فى الهواء حتى الحشرات من الحيوان الماء بالطير لان الحيتان تسبح فى الماء كما أن الطير يسبح فى الهواء وانما خص ما فى الارض بالذكر دون ما فى السماء وان كان ما فى السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد وانما ذكر الجناح فى قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدى ونظرت بعينى الا أمم أمثالكم قال مجاهد أى أصناف مصنفة تعرف باسمائها يريد أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة تعرف باسمائها مثل بنى آدم يعرفون باسمائهم كما يقال الانس والناس ويدل على ان كل جنس من الدواب أمة ما روى عن عبد الله بن مغفل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الكلاب أمة من الامم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى فان قلت ثبت بالآية والحديث ان الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة قلت اختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقيل ان هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلى له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له وقيل انها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل انها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضا كما أن جنس الانسان يألف بعضهم بعضا ويفهم بعضهم عن بعض وقيل أمثالكم فى طلب الرزق وتوقى المهالك ومعرفة الذكر والانثى وقيل أمثالكم فى الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) يعنى فى اللوح المحفوظ لانه يشمل جميع أحوال المخلوقات وقيل ان المراد بالكتاب القرآن يعنى ان القرآن مشتمل على جميع الاحوال (ثم الى ربهم يحشرون) يعنى الدواب والطير قال ابن عباس حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شئ فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا (م) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء قوله عز وجل (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده (صم) يعنى عن سماع الحق (وبكم) يعنى عن النطق به والمعنى انهم فى حال كفرهم وتكذيبهم كمن لا يسمع ولا يتكلم ولهذا شبه الكفار بالموتى لان الميت لا يسمع ولا يتكلم (فى الظلمات) يعنى فى ظلمات الكفر حائرين مترددين فيها لا يهتدون سبيلا

الآية أولا يعلمون ما عليهم فى الآية من البلاء لو أنزلت (وما من دابة) هى اسم لما يدب ويقع على المذكر والمؤنث (فى الارض) فى موضع جر صفة لدابة (ولا طائر يطير بجناحيه) قيد الطيران بالجناحين لنفى المجاز لان غير الطائر قد يقال فيه طار اذا أسرع (الا أمم أمثالكم) فى الخلق والموت والبعث والاحتياج الى مدبر يدبر أمرها (ما فرطنا) ما تركنا (فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (من شئ) من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب ان يثبت أو الكتاب القرآن وقوله من شئ أى من شئ يحتاجون اليه فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة واشارة ودلالة واقتضاء (ثم الى ربهم يحشرون) يعنى الامم كلها من الدواب والطيور فيقتص بعضها من بعض كما روى أنه يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا وانما قال الا أمم مع افراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال (والذين كذبوا بآياتنا صم) لا يسمعون كلام المنبه (وبكم) لا ينطقون بالحق خائضون (فى الظلمات) أى ظلمة الجهل والحيرة والكفر غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه صم وبكم خبر الذين ودخول الواو لا يمنع من ذلك وفى الظلمات خبر آخر ثم قال ايذانا بانه فعال لما يريد

(من يشأ الله يضلله) أى من يشأ الله ضلاله يضلله (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وفيه دلالة خلق الافعال وارادة المعاصى ونفى الاصلح (قل أرأيتكم) وبتليين الهمزة مدنى وبتركه على ومعناه هل علمتم أن الامر كما يقال لكم فاخبرونى بما عندكم والضمير الثانى لا محل له من الاعراب والتاء ضمير الفاعل ١٩ ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره أرأيتكم (ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) من تدعون ثم يكتهم بقوله (أغير الله تدعون) أى اتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم اذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها (ان كنتم صادقين) فى ان الاصنام آلهة فادعوها لتخلصكم (بل اياه تدعون) بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة (فيكشف ما تدعون اليه) أى ما تدعونه الى كشفه (ان شاء) ان أراد أن يتفضل عليكم (وتنسون ما تشركون) وتتركون آلهتكم أو لا تذكرون آلهتكم فى ذلك الوقت لان أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده اذ هو القادر على كشف الضر دون غيره ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون كأنه قيل أرأيتكم أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله (ولقد أرسلنا الى امم من قبلك) رسلا فالمفعول محذوف فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء والضراء) بالبؤس والضر والاول القحط والجوع والثانى المرض ونقصان الانفس والاموال (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم فالنفوس تخشع عند نزول الشدائد (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى هلا تضرعوا بالتوبة ومعناه نفى التضرع كأنه قيل فلم يتضرعوا اذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد انه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع الا عنادا (ولكن قست قلوبهم) فلم ينزجروا بما ابتلوا به (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وصاروا معجبين بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم

(من يشأ الله يضلله) يعنى عن الايمان (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يعنى ومن يشأ يجعله الله على دين الاسلام وفى هذا دليل على ان الهادى والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله واحسانه للايمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لانه تعالى هو الفاعل المختار لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله تعالى (قل أرأيتكم) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الاصنام اخبرونى تقول العرب ارأيتك بمعنى اخبرنا بحالك واصله ارأيت والكاف فيه للتأكيد (ان أتاكم عذاب الله) يعنى قبل الموت مثل ما نزل بالامم الماضية الكافرة من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) يعنى القيامة (أغير الله تدعون) يعنى فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) يعنى فى دعواكم ومعنى الآية ان الكفار كانوا اذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا الى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الاصنام فقيل لهم أترجعون الى الله فى حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه فى حال اليسر والرخاء (بل اياه تدعون) يعنى بل تدعون الله ولا تدعون غيره فى كشف ما نزل بكم (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) يعنى فيكشف الضر الذى من أجله دعوتموه انما قيد الاجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وان كانت الامور كلها بمشيئة الله تعالى (وتنسون ما تشركون) يعنى وتتركون دعاء الاصنام التى تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم انها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه انكم فى تركم دعاء الاصنام بمنزلة من قد نسيها وهذا معنى قول الحسن لانه قال وتعرضون عنها اعراض الناسى لها قوله تعالى (ولقد أرسلنا الى امم من قبلك) فى الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا الى امم من قبلك يا محمد رسلا فكذبوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع (فأخذناهم بالبأساء) يعنى بالفقر الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل البأساء شدة الجوع (والضراء) يعنى الامراض والاوجاع والزمانة (لعلهم يتضرعون) يعنى يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد واصله من الضراعة وهى الذلة ومقصود الآية أن الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم انه قد أرسل من قبله رسلا الى اقوام بلغوا فى القسوة الى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهى الشدة فى النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فلولا) يعنى فهلا (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفى التضرع فلم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم) يعنى ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل اقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) يعنى من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان اغواؤه بما فى المعصية من

اللذة قال ابن عباس يريد زين الشيطان الضلالة التي كانوا عليها فاصروا على معاصي الله عز وجل قوله عز وجل (فلما نسوا ما ذكروا به) أي تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) يعني بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الابدان والاجسام وذلك استدراج منه لهم وقيل فتحنا عليهم أبواب كل شئ من الخير كان مغلقا عنهم (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) يعني فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة في الابدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فانهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتي من الدنيا (أخذناهم بغتة) يعني جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة وقال أهل المعاني انما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة فاخذناهم في آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا اليهم (فاذا هم مبلسون) أي آيسون من كل خير وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم الحزين والابلاس هو الاطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به الآية ذكره البغوي بغير سند واسناده الطبري وقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أي آخرهم الذي يدبرهم يقال دبر فلان القوم اذا كان آخرهم والمعنى أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية (والحمد لله رب العالمين) قال الزجاج حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا أن قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا اليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليما للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايته اياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم اذ أهلك المشركين المكذبين وقيل معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على انعامه على رسله وأهل طاعته باظهار حجتهم على من خالفهم واهلاك اعدائهم واستئصالهم بالعذاب قوله تعالى (قل أرأيتم) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (ان أخذ الله سمعكم) يعني الذي تسمعون به فأصمكم حتى لا تسمعوا شيأ (وأبصاركم) يعني وأخذ أبصاركم التي تبصرون بها فأعماكم حتى لا تبصروا شيأ أصلا (وختم على قلوبكم) يعني حتى لا تفقهوا شيأ أصلا ولا تعرفوا شيأ مما تعرفون من امور الدنيا وانما ذكر هذه الاعضاء الثلاثة لانها اشرف اعضاء الانسان فاذا تعطلت هذه الاعضاء اختل نظام الانسان وفسد امره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره ان القادر على ايجاد هذه الاعضاء

(فلما نسوا ما ذكروا به) من البأساء والضراء أي تركوا الاتعاظ به ولم يرجوهم (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) من الصحة والسعة وصنوف النعمة فتحنا شامى (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) من الخير والنعمة (أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) آيسون متحسرون واصله الاطراق حزنا لما اصابه اوندما على ما فاته واذا للمفاجأة (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) اى اهلكوا عن آخرهم ولم يترك منهم احد (والحمد لله رب العالمين) ايذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وانه من اجل النعم واجزل القسم أو احمدوا الله على اهلاك من لم يحمد الله ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله (قل أرأيتم ان اخذ الله سمعكم وابصاركم) بان اصمكم واعماكم (وختم على قلوبكم) مسالب العقول والتمييز

(من اله غير الله يأتيكم به) بما أخذ وختم عليه من رفع بالابتداء واله خبره وغير صفة لاله وكذا يأتيكم والجملة فى موضع مفعولى أرأيتم وجواب الشرط محذوف (أنظر كيف نصرف) لهم (الآيات) ٢١ نكررها (ثم هم يصدفون) يعرضون عن

واتخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الاصنام التى تعبدونها وهو قوله تعالى (من اله غير الله يأتيكم به) يعنى يأتيكم بما أخذ الله منكم لان الضمير فى به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذى ذكرا ولا يندرج تحته غيره (أنظر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره أى انظر يا محمد (كيف نصرف الآيات) يعنى كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعنى يعرضون عنها مكذبين لها (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغته) يعنى فجأة (أو جهرة) يعنى معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس ليلا أو نهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) يعنى المشركين لانهم ظلموا أنفسهم بالشرك قوله عز وجل (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) يعنى لمن آمن بالثواب (ومنذرين) يعنى لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس فى ارسالهم ان يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات انما ارسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن وأصلح) يعنى آمن بهم وأصلح العمل لله (فلا خوف عليهم) يعنى حين يخاف أهل النار (ولا هم يحزنون) أى اذا حزن غيرهم (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) يعنى يصيبهم العذاب (بما كانوا يفسقون) يعنى بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة قوله تعالى (قل لا أقول لكم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم (عندى خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فامره الله تعالى أن يقول لهم انى بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندى خزائن الله جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ وخزن الشئ احرازه بحيث لا تناله الايدى والمعنى ليس عندى خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لانهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغنى فقرنا فاخبر ان ذلك بيد الله لا بيدى (ولا أعلم الغيب) يعنى فاخبركم بما مضى وما سيقع فى المستقبل وذلك انهم قالوا له أخبرنا بما ضا وما ضارنا فى المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فاجابهم بقوله ولا اعلم الغيب فاخبركم بما تريدون (ولا أقول لكم انى ملك) وذلك انهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ويتزوج النساء فاجابهم بقوله ولا أقول لكم انى ملك لان الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيأ من ذلك ولا ادعيه فتنكرون قولى وتجحدون أمرى وانما نفى عن نفسه الشريفة هذه الاشياء تواضعا لله تعالى واعترافا له بالعبودية وان لا يقترحوا عليه الآيات العظام (ان أتبع الا ما يوحى الى) يعنى ما أخبركم الا بوحى من الله انزله على ومعنى الآية ان النبى صلى الله عليه وسلم اعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التى منها رزق ويعطى وانه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر انما يتبع ما يوحى اليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب يوحى الله اليه وظاهر الآية يدل على ان الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد فى شئ من الاحكام بل جميع أوامره

الآيات بعد ظهورها والصدوف الاعراض عن الشئ (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغته) بان لم تظهر امارا ته (أو جهرة) بان ظهرت امارا ته وعن الحسن ليلا أو نهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) ما يهلك هلاك تعذيب وسخط الا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم برسلهم (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار ولن نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والادلة الساطعة (فمن آمن وأصلح) أى داوم على ايمانه (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) جعل العذاب ماسا كأنه حى يفعل بهم ما يريد من الآلام (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) أى قسمه بين الخلق وارزاقه ومحل (ولا أعلم الغيب) النصب عطفا على محل عندى خزائن الله لانه من جملة المقول كانه قال لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول (ولا أقول لكم انى ملك) أى لا ادعى

ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى الملكية وانما أدعى ما كان لكثير من البشر وهو النبوة (ان أتبع الا ما يوحى الى) أى ما أخبركم الا بما انزل الله على

(قل هل يستوى الاعمى والبصير) مثل للضال والمهتدى أولمن اتبع مايوحى اليه ومن لم يتبع أولمن يدعى المستقيم وهو النبوة والحال وهو الالهية (أفلا تتفكرون) ٢٢ فلا تكونوا ضالين اشباه العميان أوفتعلموا انى ما ادعيت مالا يليق بالبشر أوفتعلموا

وتواهيه انما كانت بوحى من الله اليه (قل هل يستوى الاعمى والبصير) يعنى المؤمن والكافر والضال والمهتدى والعالم والجاهل (أفلا تتفكرون) يعنى انهما لا يستويان قوله عزوجل (وأنذر به) يعنى وخوف بالقرآن والانذار اعلام مع تخويف (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) قال ابن عباس يريد المؤمنين لانهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الاهوال وقيل معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابى وانما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وان كان انذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الخلائق لان الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر وقيل المراد بهم الكفار لانهم لا يعتقدون صحته ولذلك قال يخافون ان يحشروا الى ربهم وقيل المراد بالانذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لانه ليس أحد الا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أوكان يشك فيه ولان دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وانذاره تجميع الخلق (ليس لهم من دونه) يعنى من دون الله (ولى) أى قريب ينفعهم (ولا شفيع) يعنى يشفع لهم ثم ان فسرنا الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ان المراد بهم الكفار فلا اشكال فيه لقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وان فسرنا الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ان المراد بهم المؤمنون ففيه اشكال لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الاشكال ان الشفاعة لا تكون الا باذن الله لقوله عزوجل من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع يعنى حتى يأذن الله لهم فى الشفاعة فاذا اذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) يعنى ما نهيتهم عنه قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال سلمان وخباب بن الارت وبلال وعمار وصهيب فى نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا يا رسول الله لو جلست فى صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جباههم وكانت علينا جباب صوف فاذا أتيناك ليس علينا غيرها فجالسناك وأخذنا عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فان أحببت أن نجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحى ان ترانا العرب مع هؤلاء الاعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فأتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قال وقعدنا نحوا فى ناحية اذ نزل جبريل عليه السلام بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الى قوله الليس الله باعلم بالشاكرين فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على

نفسه الرحمة فاذا الجهل منا بوما وطلبنا بذلك كتابا قد دعا علينا رضى الله عنه ليكتب فقام الفقراء وجلسنا ناحية فنزلت فدعى عليه الصلاة والسلام بالصحيفة وأتى الفقراء فجالسهم

نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فانزل الله تبارك وتعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبتنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات وروى عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فانزل الله عز وجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه أخرجه مسلم وقال الكلبي قالوا له يعني أشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل المجلس واحدا وأقبل علينا وول ظهرك اليهم فانزل الله هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني ابن مسعود لبايعناك فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود مر ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعا لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية وقال عكرمة جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر الى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقه فاتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون والى ماذا يصيرون فانزل الله عز وجل هذه الآية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم الى قوله ألبس الله باعلم بالشاكرين فجاء عمر فاعتذر من مقالته قلت بين هذه الروايات والرواية الاولى التي عن سلمان وخباب بن الارت فرق كثير وبعد عظيم وهو ان اسلام سلمان كان بالمدينة وكان اسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الانعام مكية والصحيح ما روى عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك ويعضده حديث سعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء يعني ضعفاء المسلمين والله أعلم وأما معنى الآية فقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولا تبعدهم عن مجلسك لاجل ضعفهم وفقرهم ثم وصفهم فقال تعالى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي قال ابن عباس يعني يعبدون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه ان المراد منه الصلوات الخمس وانما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ولانهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ولان الصلاة تشتمل على

(ما عليك من حسابهم من شئ) كقوله ان حسابهم الا على ربى (وما من حسابك عليهم من شئ) وذلك أنهم طعنوا فى دينهم واخلاصهم فقال حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم اليك كما ان حسابك عليك لا يتعداك اليهم (فتطردهم) جواب النفى وهو ما عليك من حسابهم (فتكون من الظالمين) جواب النهى وهو ولا تطرد ويجوز أن يكون عطفا على فتطردهم على وجه التسبيب لان كونه ظالما مسبب عن طردهم (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) ومثل ذلك الفتن العظيم ابتلينا الاغنياء بالفقراء (ليقولوا) أى الاغنياء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) أى أنعم الله عليهم بالايمان ونحن المقدمون والرؤساء وهم الفقراء انكارا لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير ونحوه لو كان خيرا ما سبقونا اليه (أليس الله باعلم بالشاكرين) بمن يشكر نعمته (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) اما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله اليهم واما أن يكون أمرا بان يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم وكذا قوله

القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى قال مجاهد صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الامام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب ما أسرع الناس الى هذا المجلس فقال مجاهد يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشى قال أوفى هذا انما هو فى الصلاة التى انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس ان ناسا من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك واذا صلينا فاخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا وقيل المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفى النهار يريدون وجهه يعنى يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين فى عبادتهم له وقال ابن عباس يطلبون ثواب الله تعالى (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) يعنى لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك وقيل ما عليك حساب رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم انما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك (فتطردهم فتكون من الظالمين) يعنى بطردهم عنك وعن مجلسك فقوله فتطردهم جواب النفى وهو قوله ما عليك من حسابهم من شئ وقوله فتكون من الظالمين جواب النهى وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل الاشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح فى العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج ان النبى صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم بطردهم لاجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهى التلطف بهؤلاء الاشراف فى ادخالهم فى الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فاعلمه الله تعالى ان ادناء هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فان الظلم فى اللغة وضع الشئ فى غير موضعه فيكون المعنى أن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشئ فى غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم قوله عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعنى وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير بالغنى والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الاغنياء الشرفاء حسدهم الفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم الى الاسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول فى الاسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالاغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم (ليقولوا) يعنى الاغنياء والاشراف والرؤساء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعنى من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فاجابهم بقوله (أليس الله باعلم بالشاكرين) يعنى انه تعالى أعلم بخلقه وباحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين قوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت فى الذين نهى

(كتب ربكم على نفسه الرحمة) من جملة ما يقول لهم ليبشرهم بسعة رحمة ٢٥ الله وقبوله التوبة منهم ومعناه وعدكم بالرحمة وعدا مؤكدا (انه) الضمير للشان (من عمل منكم سوأ) ذنبا (بجهالة) في موضع الحال أي عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة أو جعل جاهلا لايثاره المعصية على الطاعة (ثم تاب من بعده) من بعد السوء أو العمل (وأصلح) وأخلص توبته (فانه غفور رحيم) أنه فأنه شامي وعاصم الاول بدل الرحمة والثاني خبر مبتدا محذوف أي فشانه أنه غفور رحيم انه فانه مدني الاول بدل الرحمة والثاني مبتدأ انه فانه غيرهم على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل انه من عمل منكم (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين) وبالياء حمزة وعلي وأبو بكر (سبيل المجرمين) بالنصب مدني غيره بالرفع فرفع السبيل مع التاء واليا لانها تذكر وتؤنث ونصب السبيل مع التاء على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بمعنى استبان الامر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه ومن يرجى اسلامه ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب ان يعامل به فصلنا ذلك التفصيل (قل اني نهيت ان أعبد الذين تدعون من دون الله) أي صرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله

الله نبيه عن طردهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن أبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والارقم بن أبي الارقم وأبي سلمة بن عبد الاسد وقيل ان الآية على اطلاقها في كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال ما أردت الا الخير نزلت واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (كتب ربكم) يعني فرض ربكم وقضى ربكم (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا انه تعالى يتصرف في عباده كيف شاء وأراد فاوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لانه أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين (انه من عمل منكم سوأ بجهالة) قال مجاهد كل من عمل ذنبا أو خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لانه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب وقيل انه وان علم ان عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة الا انه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل انه لما فعل فعل الجهال نسب الى الجهل وان لم يكن جاهلا (ثم تاب من بعده) يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه (وأصلح) يعني أصلح العمل في المستقبل وقيل أخلص توبته وندم على فعله (فانه غفور) يعني لمن تاب من ذنوبه (رحيم) بعباده قال خالد بن دينار كنا اذا دخلنا على أبي العالية قال واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية عن أبي سعيد الخدري قال جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ علينا اذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان قارئ لنا يقرأ علينا وكنا نستمع الى كتاب الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من امتي من أمرت أن اصبر نفسي معهم وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم قال فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف منهم أحدا غيري ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود وقوله عز وجل (وكذلك نفصل الآيات) يعني وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وابطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حجتنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وليظهر لك الحق يا محمد وتبين لك (سبيل المجرمين) يعني طريق هؤلاء المجرمين وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار قوله تعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعني نهيت ان أعبد الاصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند

(قل لا أتبع اهواءكم) أى لا اجرى فى طريقتكم التى سلكتموها فى دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل وهو بيان للسبب الذى منه وقعوا فى الضلال ٢٦ (قد ضللت اذا) اى ان اتبعت أهواءكم فانا ضال (وما أنا من المهتدين) وما انا

شدائدكم من دون الله لان الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وانما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) يعنى فى عبادة الاصنام وطرد الفقراء (قد ضللت اذا) يعنى اذ عبدتها (وما أنا من المهتدين) يعنى لو عبدتها (قل) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (انى على بينة من ربى) قال ابن عباس يعنى على يقين من ربى وقيل البينة الدلالة التى تفصل بين الحق والباطل والمعنى انى على بيان وبصيرة فى عبادة ربى (وكذبتم به) يعنى وكذبتم بالبيان الذى جئت به من عند ربى وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التى تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك (ما عندى ما تستعجلون به) يعنى العذاب وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاء وكانوا يقولون يا محمد ائتنا بما تعدنا يعنى من نزول العذاب فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ما عندى ما تستعجلون به لان انزال العذاب لا يقدر عليه الا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التى طلبوها واقترحوها فأعلم الله ان ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها (ان الحكم الا لله) يعنى الحكم الذى يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصى اى ما الحكم المطلق الا لله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضى بانزال العذاب اذا شاء (يقص الحق) قرئ بالصاد المهملة ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق وقرئ يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعنى انه تعالى يقضى القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) يعنى وهو خير من بين وفصل وميز بين الحق والمبطل لانه لا يقع فى حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه (قل لو أن عندى ما تستعجلون به) يعنى من انزال العذاب والاستعجال المطالبة بالشئ قبل وقته فلذلك كانت العجلة مذمومة والاسراع تقديم الشئ فى وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندى ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة وقوله تعالى (لقضى الامر بينى وبينكم) يعنى لانفصل ما بينى وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب (والله أعلم بالظالمين) يعنى أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم وقال والله أعلم بالظالمين ولم يأخذهم قوله عز وجل (وعنده مفاتح الغيب) المفتاح الذى يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه مفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهى مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل ان يكون المراد منه المفاتيح التى يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن فعلى التفسير الاول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح هى التى يتوصل بها الى مال الخزائن المستوثق منها بالاغلاق فمن علم كيف يفتح

من المهتدين فى شئ يعنى انكم كذلك وما ينبغى ان يكون الهوى متبعا انبه على ما يجب اتباعه بقوله (قل انى على بينة من ربى) أى انى من معرفة ربى وانه لا معبود سواه على حجة واضحة (وكذبتم به) حيث اشركتم به غيره وقيل على بينة من ربى على حجة من جهة ربى وهو القرآن وكذبتم به بالبينة وذكر الضمير على تأويل البرهان او البيان او القرآن ثم عقبه بما دل على انهم احقاء بان يعاقبوا بالعذاب فقال (ما عندى ما تستعجلون به) يعنى العذاب الذى استعجلوه فى قولهم فامطر علينا حجارة من السماء (ان الحكم الا لله) فى تأخير عذابكم (يقص الحق) مجازى وعاصم أى يبين الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره الباقون يقض الحق فى كل ما يقضى من التأخير والتعجيل فالحق اى القضاء الحق صفة لمصدر يقضى وقوله (وهو خير الفاصلين) اى القاضين بالقضاء الحق اذ الفصل هو القضاء وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين (قل لو ان عندى) اى فى قدرتى وامكانى (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضى الامر بينى وبينكم) لاهلكتكم عاجلا غضبا لربى (والله اعلم بالظالمين) فهو ينزل عليكم العذاب فى وقت يعلم انه اردع (وعنده مفاتح الغيب

بها ويتوصل الى ما فيها فهو عالم وكذلك ههنا لان الله تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة وعلى التفسير الثانى يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين فى قوله وعنده مفاتح الغيب (لا يعلمها الا هو) فقيل مفاتح الغيب خمس وهى ما روى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمها الا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون فى غد الا الله ولا يعلم أحد ما يكون فى الارحام الا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يدرى أحد متى يجىء المطر وفى رواية اخرى لا يعلم أحد ما تغيض الارحام الا الله ولا يعلم ما فى غد الا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد الا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت الا الله ولا يعلم متى الساعة الا الله أخرجه البخارى وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الارض وعلم نزول العذاب وقال عطاء وما غاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هو علم ما لم يكن بعد ان يكون اذ يكون كيف يكون وما لا يكون ان لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود اوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شئ الا مفاتح الغيب وقال ابن عباس انها خزائن غيب السموات والارض من الاقدار والارزاق (ويعلم ما فى البر والبحر) قال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار لا يحدث فيها شئ الا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر المعروفان لان جميع الارض اما بر واما بحر وفى كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) يريد ساقطة وثابتة والمعنى انه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقى على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهرا لبطن الى أن تسقط على الارض (ولا حبة فى ظلمات الارض) قيل هو الحب المعروف يكون فى بطن الارض قبل ان ينبت وقيل هى الحبة التى فى الصخرة التى فى أسفل الارضين (ولا رطب ولا يابس) قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحى واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة فان قلت ان جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر وما فائدة ذلك قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الاجمال ذكر من بعد ذلك الاجمال ما يدل على التفصيل فذكر هذه الاشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن ادراكها ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لان الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها الا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهى الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الاشياء وانه لا يخرج شئ منها عن علمه

(لا يعلمها الا هو) المفاتح جمع مفتح وهو المفتاح وهى خزائن العذاب والرزق او ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والاحوال جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لان المفاتح يتوصل بها الى ما فى الخزائن المستوثق منها بالاغلاق والاقفال ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل اليها فاراد انه هو المتوصل الى المغيبات وحده لا يتوصل اليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال الخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل الى ما فى الخازن قيل عنده مفاتح الغيب وعنده مفاتح العيب فمن آمن بغيبه أسبل الله الستر على عيبه (ويعلم ما فى البر) من النبات والدواب (والبحر) من الحيوان والجواهر وغيرهما (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) ما للنفى ومن للاستغراق أى يعلم عددها وأحوالها قبل السقوط وبعده (ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس) عطف على ورقة ودخل فى حكمها وقوله

(الا في كتاب مبين) كالتكرير لقوله الا يعلمها الا ان معنى الا يعلمها ومعنى الا في كتاب مبين واحد وهو علم الله أو اللوح ثم خاطب الكفرة بقوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل) أي يقبض أنفسكم عن التصرف بالتمام في المنام (و يعلم ما جرحتم بالنهار) كسبتم فيه من الآثام (ثم يبعثكم فيه) ثم يوقظكم ٢٨ في النهار أو التقدير ثم يبعثكم في النهار و يعلم ما جرحتم فيه فقدم المكسب لانه أهم وليس فيه انه لا يعلم ما جرحنا بالليل ولا انه لا يتوفانا بالنهار فدل ان تخصيص الشئ بالذكر لا يدل على نفي ما عداه (ليقضى أجل مسمى) لتوفى الآجال على الاستكمال (ثم اليه مرجعكم) رجوعكم بالبعث بعد الموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) في ليلكم ونهاركم قال بعض أهل الكلام ان لكل حاسة من هذه الحواس روحا تقبض عند النوم ثم ترد اليها اذا ذهب النوم فاما الروح التي تحيا بها النفس فانها لا تقبض الا عند انقضاء الاجل والمراد بالارواح المعاني والقوى التي تقوم بالحواس ويكون بها السمع والبصر والاخذ والمشي والشم ومعنى ثم يبعثكم فيه أي يوقظكم ويرد اليكم أرواح الحواس فيستدل به على منكري البعث لانه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس ثم يردها اليها فكذا يحيي الانفس بعد موتها (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ملائكة حافظين لاعمالكم وهم الكرام الكاتبون ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد اذا تفكروا ان صحائفهم تقرأ على رؤس الاشهاد (حتى اذا جاء أحدكم الموت) حتى لغاية حفظ الاعمال أي وذلك دأب الملائكة هذه مع المكلف مدة الحياة الى ان يأتيه الممات (توفته رسلنا) أي استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه توفيه واستوفيه بالامالة حمزة رسلنا أبو عمرو

سبحانه وتعالى فصارت هذه الامثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير قوله تعالى (الا في كتاب مبين) فيه قولان أحدهما ان الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل والثاني ان المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ لان الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل ان يخلق السموات والارض وفائدة احصاء الاشياء كلها في هذا الكتاب لتقف الملائكة على اتقان علمه وتنبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده انه لا يفوته شئ مما يصنعونه لان من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتاب فهو الى اثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع قوله تعالى (وهو الذي يتوفاكم بالليل) يعني يقبض أرواحكم اذا نمتم (بالليل و يعلم ما جرحتم) ما كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) أي يوقظكم فيه أي في النهار (ليقضى أجل مسمى) يعني أجل الحياة الى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم اليه مرجعكم في الآخرة (ثم ينبئكم) أي يخبركم (بما كنتم تعملون) قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) يعني وهو العالي عليهم بقدرته لان كل من قهر شيأ وغلبه فهو مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان يعني انه اقدر منه وأغلب هذا مذهب أهل التأويل في معنى الفوقية في قوله وهو القاهر فوق عباده وأما مذهب السلف فيها فامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا اطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شئ بضده فقهر الحياة بالموت والايجاد بالاعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة وقوله تعالى (و يرسل عليكم حفظة) يعني ان من جملة قهره لعباده ارسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الاقوال والافعال قيل ان مع كل انسان ملكين ملكا عن يمينه وملكا عن شماله فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فان لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة جعل الملائكة موكلين بالانسان انه اذا علم ان له حافظا من الملائكة موكلا به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤس الاشهاد كان ذلك زاجرا له عن فعل السيئ وتركه المعاصي وقيل المراد بقوله و يرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم و يحفظون أجسادهم قال قتادة حفظة يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) يعني اعوان ملك الموت الموكلين بقبض أرواح البشر فان قلت قال الله تعالى في آية الله يتوفى الانفس حين موتها وقال في آية اخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت وجه الجمع بين

(وهم لا يفرطون) لا يتوانون ولا يؤخرون (ثم ردوا الى الله) الى حكمه وجزائه أى رد الموتون برد الملائكة

هذه الآيات ان المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى فاذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه وملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وانما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له وقال مجاهد جعلت الارض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له أعوان ينزعون الانفس ثم يقبضها منهم وقال أيضا ما من أهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين وقيل ان الارواح اذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له وقوله (وهم لا يفرطون) يعنى الرسل لا يقصرون فيما أمروا به ولا يضيعونه قوله عز وجل (ثم ردوا الى الله مولاهم الحق) يعنى ثم رد العباد بالموت الى الله فى الآخرة وانما قال مولاهم الحق لانهم كانوا فى الدنيا تحت أيدى موال باطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق (ألا له الحكم) يعنى لا حكم الا له (وهو أسرع الحاسبين) يعنى انه تعالى أسرع من حسب لانه لا يحتاج الى فكر ورؤية وعقد يد فى حساب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض قوله تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يعنى يا محمد قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام من دون الله من ذا الذى ينجيكم من ظلمات البر اذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذى ينجيكم من ظلمات البحر اذا ركبتم فيه فاخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والاهوال وقيل الحمل على الحقيقة أولى فظلمات البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى الطريق والصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والامواج الحائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله سبحانه وتعالى لانه هو القادر على كشف الكروب وازالة الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا وخفية) يعنى فاذا اشتد بكم الامر مخلصون له الدعاء تضرعا منكم اليه واستكانة جهرا وخفية يعنى سرا حالا وحالا (لئن أنجيتنا من هذه) يعنى قائلين فى حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها من أدائها (قل الله ينجيكم منها) يعنى من الظلمات والشدائد التى أنتم فيها (ومن كل كرب) يعنى وهو الذى ينجيكم من كل كرب أيضا والكرب هو الغم الشديد الذى يأخذ بالنفس (ثم أنتم تشركون) يريد انهم يقرون بان الذى أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم انهم بعد ذلك الاقرار يشركون معه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع قوله عز وجل (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم) أى قل يا محمد لقومك ان الله هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط (أو من تحت أرجلكم) يعنى الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب

(مولاهم) مالكهم الذى يلى عليهم أمورهم (الحق) العدل الذى لا يحكم الا بالحق وهما صفتان لله (ألا له الحكم) يومئذ لا حكم فيه لغيره (وهو أسرع الحاسبين) لا يشغله حساب عن حساب يحاسب جميع الخلق فى مقدار حلب شاة وقيل الرد الى من ربك خير من البقاء مع من آذاك (قل من ينجيكم) يخلصكم عباس (من ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق والبحر الامواج وكلاهما فى الغيم والليل (تدعونه) حال من ضمير المفعول فى ينجيكم (تضرعا) معلنين الضراعة وهو مصدر فى موضع الحال وكذا (وخفية) أى مسرين فى أنفسكم خفية حيث كان أبو بكر وهما الفتيان (لئن أنجانا) عاصم وبالامالة حمزة وعلى الباقون أنجيتنا والمعنى يقولون لئن خلصنا (من هذه) الظلمات (لنكونن من الشاكرين) لله تعالى (قل الله ينجيكم) بالتشديد كوفى (منها) من الظلمات (ومن كل كرب) وغم وحزن (ثم أنتم تشركون) ولا تشكرون (قل هو القادر) هو الذى عرفتموه قادرا أو هو الكامل القدرة فاللام يحتمل العهد والجنس (على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة (أو من تحت أرجلكم) كما غرق فرعون وخسف بقارون أو من قبل سلاطينكم وسفلتكم أو هو حبس المطر والنبات

وقارون وقال ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعني أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعني عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعني من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعني السفلة (أو يلبسكم شيعا) الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمرهم شيعة وأشياع وأصله من الشيوع ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وقيل الشيعة هم الذين يتقوى بهم الانسان قال الزجاج في قوله أو يلبسكم شيعا يعني يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس قوله أو يلبسكم شيعا يعني الاهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعني انه يقتل بعضكم بيد بعض وقال مجاهد يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف وقال ابن زيد هو الذي فيها الناس اليوم من الاختلاف والاهواء وسفك بعضهم دماء بعض ثم اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية فقال قوم عنى بها المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية قال أبو العالية في قوله قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية قال هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فالبسوا شيعا واذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لابد واقعتان يعني الخسف والمسخ وعن أبي بن كعب نحو هذا وعن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعا واذيق بعضهم بأس بعض وثنتان واقعتان لامحالة الخسف والرجم وقال مجاهد في قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لامة محمد فاعماهم منه أو يلبسكم شيعا اما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعني ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر (م) عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى اذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال سألت ربي ثلاثا فاعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ان لا يهلك أمتي بالسنة فاعطانيها وسألت ربي ان لا يهلك أمتي بالغرق فاعطانيها وسألت ربي ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها عن خباب بن الارت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فاطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل انها صلاة رغبة ورهبة اني سألت الله فيها ثلاثا فاعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته ان لا يهلك أمتي بسنة فاعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فاعطانيها وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها أخرجه الترمذي وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحجتنا لهؤلاء المكذبين (لعلهم يفقهون) يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا

أو يلبسكم شيعا) أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى كل فرقة منكم مشايعة لامام ومعنى خلطهم ان يشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال (ويذيق بعضكم بأس بعض) يقتل بعضكم بعضا والباس السيف ومنه عليه الصلاة والسلام سألت الله تعالى ان لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فاعطاني ذلك وسألته ان لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني واخبرني جبريل ان فناء أمتي بالسيف (انظر كيف نصرف الآيات) بالوعد والوعيد (لعلهم يفقهون)

وكذب به) بالقرآن أو بالعذاب (قومك) قريش (وهو الحق) أى الصدق
عما هم عليه من الكفر والتكذيب قوله تعالى (وكذب به قومك) يعنى بالقرآن (وهو الحق) يعنى فى كونه كتابا منزلا من عند الله وقيل الضمير فى به يرجع الى العذاب وهو الحق يعنى أنه نازل بهم ان أقاموا على كفرهم وتكذيبهم وقيل الضمير يرجع الى تصريف الآيات وهو الحق لانهم كذبوا كونها من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) أى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الحق بل انما أنا منذر والله هو المجازى لكم على أعمالكم وقيل معناه انى انما أدعوكم الى الله والى الايمان به ولم أومر بحربكم فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وقيل فى معنى الآية قل لست عليكم بوكيل يعنى حفيظا انما أطالبكم بالظاهر من الاقرار والعمل لا بما تحويه الضمائر والاسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهى اليه اما فى الدنيا واما فى الآخرة وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب فى الدنيا وقع يوم بدر (وسوف تعلمون) يعنى صحة هذا الخبر اما فى الدنيا واما فى الآخرة قوله تعالى (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) الخطاب فى واذا رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى واذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون فى آياتنا يعنى القرآن الذى أنزلناه اليك والخوض فى اللغة هو الشروع فى الماء والعبور فيه ويستعار للاخذ فى الحديث والشروع فيه يقال تخاوضوا فى الحديث وتفاوضوا فيه لكن أكثر ما يستعمل الخوض فى الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله وكنا نخوض مع الخائضين وقيل الخطاب فى واذا رأيت لكل فرد من الناس والمعنى واذا رأيت أيها الانسان الذين يخوضون فى آياتنا وذلك ان المشركين كانوا اذا جالسوا المؤمنين وتعاطوا الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه فنهاهم الله أن يقعدوا معهم فى وقت الاستهزاء بقوله (فأعرض عنهم) يعنى فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) يعنى حتى يكون خوضهم فى غير القرآن والاستهزاء به (واما ينسينك الشيطان) يعنى فقعدت معهم (فلا تقعد بعد الذكرى) يعنى اذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد (مع القوم الظالمين) يعنى المشركين قوله تعالى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم قال المسلمون كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا وفى رواية قال المسلمون اذا خفنا الاثم حين نتركهم ولا ننهاهم فانزل الله هذه الآية وما على الذين يتقون يعنى يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شئ يعنى ليس عليهم شئ من حسابهم ولا آثامهم (ولكن ذكرى) يعنى ولكن ذكروهم ذكرى وقيل معناه ولكن عليكم ان تذكروهم (لعلهم يتقون) يعنى لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء * (فصل) * قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى وقد نزل عليكم فى الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم

أولا بد أن ينزل بهم (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل الى أمركم انما أنا منذر (لكل نبأ) لكل شئ ينبأ به يعنى أنباءهم بانهم يعذبون وايعادهم به (مستقر) وقت استقرار وحصول لا بد منه (وسوف تعلمون) تهديد (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى القرآن يعنى يخوضون فى الاستهزاء بها والطعن فيها وكانت قريش فى أنديتهم يفعلون ذلك (فأعرض عنهم) ولا تجالسهم وقم عنهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) غير القرآن مما يحل حينئذ يجوز أن تجالسهم (واما ينسينك الشيطان) ما نهيت عنه ينسينك شامى نسى وأنسى واحد (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكر (مع القوم الظالمين وما على الذين يتقون من حسابهم) من حساب هؤلاء الذين يخوضون فى القرآن تكذيبا واستهزاء (من شئ) أى وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شئ مما يحاسبون عليه من ذنوبهم (ولكن) عليهم أن يذكروهم (ذكرى) اذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم واظهار الكراهة لهم وموعظتهم ومحل ذكرى نصب اى ولكن يذكرونهم ذكرى أى تذكيرا أو رفع والتقدير ولكن عليهم

ذكرى فذكرى مبتدأ والخبر محذوف (لعلهم يتقون) لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم

(وذر الذين اتخذوا دينهم) الذى كلفوه ودعوا اليه وهو دين الاسلام (لعبا ولهوا) سخروا به واستهزؤا ومعنى ذرهم أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم والله ما يشغل الانسان من هوى أو طرب (وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به) وعظ بالقرآن (ان تبسل نفس بما كسبت) مخافة ان تسلم الى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الابسال المنع (ليس لها من دون الله ولى) ينصرها بالقوة (ولا شفيع) يدفع عنها بالمسئلة ولا وقف على كسبت فى الصحيح لان قوله ليس لها صفة لنفس والمعنى وذكر بالقرآن كراهة ان تبسل نفس عادمة وليا وشفيعا بكسبها (وان تعدل كل عدل) تصب على المصدر وان تفد كل فداء والعدل الفدية لان الفادى يعدل المفدى بمثله وفاعل (لا يؤخذ منها) لاضمير العدل لان العدل هنا مصدر فلا يسند اليه الاخذ واما فى قوله ولا يؤخذ منها عدل فبمعنى المفدى به فصح اسناده اليه (أولئك) اشارة الى المتخذين دينهم لعبا ولهوا وهو مبتدأ والخبر (الذين أبسلوا بما كسبوا) وقوله (لهم شراب من حميم) أى ماء سخين حار خبر ثان لاولئك والتقدير أولئك المبسلون ثابت لهم شراب من حميم أو مستأنف (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) بكفرهم (قل) لابى بكر يقل لانه عبد الرحمن وكان يدعو أباه الى عبادة الاوثان (أندعوا) أنعبد (من دون الله) الضار النافع (ما لا ينفعنا) مما لا يقدر على نفعنا ان دعوناه يعنى (ولا يضرنا) ان تركناه (ونرد) ونرجع (على أعقابنا) راجعين الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) للاسلام وانقذنا من عبادة الاصنام

الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ لانها انما دلت على ان كل انسان انما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره وقيل انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة قوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وذر يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذى أمر وابه ودعوا اليه وهو دين الاسلام لعبا ولهوا وذلك حيث سخروا به واستهزؤا به وقيل انهم اتخذوا عبادة الاصنام لعبا ولهوا وقيل ان الكفار كانوا اذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه وقيل ان الله جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم يعنى عيدهم لعبا ولهوا ويلعبون ويلهون فيه الا المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيرا وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لاجل انهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ومعنى الآية وذر يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا واتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الاعراض عنهم ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدى وقيل انه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ذرنى ومن خلقت وحيدا وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة وقيل المراد بالاعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الانذار والتخويف ويدل عليه قوله (وذكر به) يعنى وذكر بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين (ان تبسل نفس بما كسبت) أى لئلا تبسل نفس وأصل البسل فى اللغة التحريم ومنه الشئ المبسل ومنعه وهذا على بسل أى حرام ممنوع فمعنى تبسل نفس بما كسبت ترتهن وتحبس فى جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام وقال ابن عباس تسلم للهلاك وقال قتادة تحبس يعنى فى جهنم وقال الضحاك تحرق بالنار وقال ابن زيد تؤخذ يعنى بما كسبت وقيل تفضح والمعنى وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكى لا تهلك نفس وترتهن فى جهنم بسبب الجنايات التى اكتسبت فى الدنيا وتحرم الثواب فى الآخرة (ليس لها) يعنى لتلك النفس التى هلكت (من دون الله ولى) أى قريب يلى أمرها (ولا شفيع) يعنى يشفع لها فى الآخرة (وان تعدل كل عدل) يعنى وان تفتد بكل فداء والعدل الفداء (لا يؤخذ منها) يعنى ذلك العدل وتلك الفدية (أولئك الذين) اشارة الى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا (أبسلوا بما كسبوا) يعنى أسلموا الى الهلاك بسبب ما اكتسبوا (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ذلك لهم بسبب كفرهم قوله تعالى (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائك أندعو يعنى أنعبد من دون الله يعنى الاصنام التى لا تنفع من عبدها ولا تضر من ترك عبادتها (ونرد على أعقابنا) يعنى ونرد الى الشرك (بعد اذ هدانا الله)

(كالذي استهوته الشياطين) كالذى ذهبت به الغيلان ومردة الجن والكاف فى محل النصب على الحال من الضمير فى نرد على اعقابنا اى انتكص مشبهين من استهوته الشياطين وهو استفعال من هوى فى الارض اذا ذهب فيها كأن معناه طلبت هويه (فى الارض) فى المهمه (حيران) حال من مفعول استهوته اى تائها ٣٣ ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع (له) لهذا المستهوى (أصحاب) رفقة (يدعونه الى الهدى) الى أن يهدوه الطريق سمى الطريق المستقيم بالهدى يقولون له (ائتنا) وقد اعتسف المهمه تابعا الجن لا يجيبهم ولا يأتيهم وهذا مبنى على ما يقال ان الجن تستهوى الانسان والغيلان تستولى عليه فشبه به الضال عن طريق الاسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه اليه فلا يلتفت اليهم (قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وحده وما وراءه ضلال (وامرنا) محله النصب بالعطف على محل ان هدى الله هو الهدى على انهما مقولان كأنه قيل قل هذا القول وقل امرنا (لنسلم لرب العالمين وان أقيموا الصلوة) والتقدير وامرنا لان نسلم ولان اقيموا أى للاسلام ولاقامة الصلاة (واتقوه وهو الذى اليه تحشرون) يوم القيامة (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) بالحكمة أو محقا (ويوم يقول كن فيكون) على الخبر دون الجواب (قوله الحق) مبتدأ ويوم يقول خبره مقدما عليه كما تقول يوم الجمعة قولك الصدق اى قولك الصدق كائن يوم الجمعة واليوم بمعنى الحين والمعنى انه خلق السموات والارض بالحق والحكمة وحين يقول لشئ من الاشياء كن فيكون ذلك الشئ قوله الحق والحكمة اى لا يكون شئ من السموات والارض وسائر المكونات الا عن حكمة وصواب (وله الملك) مبتدا وخبر (يوم ينفخ) ظرف لقوله وله الملك (فى الصور) هو القرن بلغة اليمن او جمع صورة

يعنى الى دين الاسلام والتوحيد (كالذى استهوته الشياطين فى الارض) يعنى كالذى ذهبت به الشياطين فالقته فى هوية من الارض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى الى اسفل (حيران) يقال حار فلان فى الامر اذا تردد فيه فلم يهتد الى الصواب ولا المخرج منه (له اصحاب يدعونه الى الهدى) يعنى لهذا المتحير الذى استهوته الشياطين اصحاب على الطريق المستقيم (ائتنا) يعنى يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ولمن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل اصحابه ورفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه اليهم فبقى حيران لا يدرى اين يذهب فان اجاب الغيلان ضل وهلك وان اجاب اصحابه اهتدى وسلم (قل ان هدى الله هو الهدى) يعنى ان طريق الله الذى اوضحه لعباده ودينه الذى شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الاصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لا تفعل ذلك فان هدى الله هو الهدى لا هدى غيره (وامرنا لنسلم) اى وامرنا أن نسلم ونخلص العبادة (لرب العالمين) لانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) يعنى وامرنا باقامة الصلاة والتقوى لان فيهما ما يقرب اليه (وهو الذى اليه تحشرون) يعنى فى يوم القيامة فيجزيكم باعمالكم قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) يعنى اظهار الحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لانه جعل صنعه دليلا على وحدانيته وقيل خلقها بكمال قدرته وشمول علمه واتقان صنعه وكل ذلك حق وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قوله كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لا يخلق مخلوق بمخلوق (ويوم يقول كن فيكون) وقيل انه راجع الى خلق السموات والمعنى اذكر يوم قال للسموات والارض كن فيكون وقيل يرجع الى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون احياء (قوله الحق) يعنى أن قول الله تبارك وتعالى للشئ اذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) انما اخبر عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى خالصا فى كل وقت فى الدنيا والآخرة لانه لا منازع له يومئذ يدعى الملك وأنه المنفرد بالملك يومئذ وان من كان يدعى الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا فى الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بان الملك لله الواحد القهار وانه لا منازع له فيه وعلموا أن الذى كانوا يدعونه من الملك فى الدنيا باطل وغرور واختلف العلماء

ه ن ى

فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن قال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ماروى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور قال قرن ينفخ فيه أخرجه أبو داود والترمذى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته واصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه فقالوا كيف نفعل يارسول الله وكيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وروى عما قال توكلنا على الله اخرجه الترمذى وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها بنفخ الروح فيها وهذا قول الحسن ومقاتل والقول الاول أصح لما تقدم فى الحديث ولقوله تعالى فى آية أخرى ثم نفخ فيه أخرى ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعنى انه تعالى يعلم ماغاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم) يعنى فى جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) يعنى بكل مايفعلونه من خير أو شر قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) اختلف العلماء فى لفظ آزر فقال محمد بن اسحق والكلبى والضحاك آزر اسم أبى ابراهيم وهو تارح فضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لابى ابراهيم اسمان آزر وتارح مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الاصلى آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح لمعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى وهى قرية من سواد الكوفة وقال سلمان التيمى آزر سب وعيب ومعناه فى كلامهم المعوج وقيل الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن فى القرآن الفاظا قليلة فارسية وقيل هو اسم صنم فكان ابراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيأ أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسما له فهو كقوله يوم ندعو كل أناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه ياعابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه والصحيح هو الاول ان آزر اسم لابى ابراهيم لان الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين ان اسمه تارح ففيه نظر لانهم انما نقلوه عن أصحاب الاخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم وقد أخرج البخارى فى أفراده من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة الحديث فسماه النبى صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارح فثبت بهذا أن اسمه الاصلى آزر لا تارح والله أعلم وقوله تعالى (أتتخذ أصناما آلهة) معناه اذكر لقومك ياحمد قول ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذى خلقك ورزقك والاصنام جمع صنم وهو التمثال الذى يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة

(عالم الغيب) هو عالم الغيب
(والشهادة) أى السر والعلانية
(وهو الحكيم) فى الافناء
والاحياء (الخبير) بالحساب
والجزاء (واذ قال ابراهيم لابيه
آزر) هو اسم أبيه أو لقبه لانه
خلاف بين النسابين أن اسم
أبيه تارح وهو عطف بيان
لابيه وزنه فاعل (أتتخذ أصناما
آلهة) استفهام توبيخ أى
اتتخذها آلهة وهى لا تستحق
الالهية

الانسان وهو الوثن أيضا (انى أراك وقومك فى ضلال مبين) يعنى يقول ابراهيم لابيه آزر انى أراك وقومك الذين يعبدون الاصنام معك ويتخذونها آلهة فى ضلال يعنى عن طريق الحق مبين يعنى بين لمن أبصر ذلك فانه لا يشك أن هذه الاصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركى العرب باحوال ابراهيم ومحاجته لابيه وقومه لانهم كانوا يعظمون ابراهيم صلى الله عليه وسلم ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر الله قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه فى معرض الاحتجاج على المشركين قوله عز وجل (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض) معناه وكما أرينا ابراهيم البصيرة فى دينه والحق فى خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال فى عبادة الاصنام نريه ملكوت السموات والارض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل فى قوله وكذلك نرى ابراهيم لانه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن اباه وقومه على غير الحق فلما فهم فجزاه الله بان أراه بعد ذلك ملكوت السموات والارض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحوت من الرهبة والرغبة والرحمة قال ابن عباس يعنى خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب وحتى رأى مكانه فى الجنة فذلك قوله وآتيناه أجره فى الدنيا يعنى اريناه مكانه فى الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر الى أسفل الارضين ورأى ما فيها من العجائب قال البغوى وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن على قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض ابصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم ابصر آخر فدعا عليه فهلك ثم ابصر آخر فاراد ان يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى يا ابراهيم انت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانما أنا من عبدى على ثلاث خلال اما أن يتوب الى فاتوب عليه واما ان أخرج منه نسمة تعبدنى واما ان يعيش الى فان شئت عفوت وان شئت عاقبت وفى رواية وان تولى فان جهنم من ورائه قال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار واختلف فى هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين أحدهما انها كانت بعين البصر الظاهر فشق لابراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الارض حتى رأى ما فى بطنها والقول الثانى أن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ملكوت السموات والارض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف الا بالعقل فبان بهذا أن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة الا أن يقال المراد ملكوت السموات والارض نفس السموات والارض وقوله تعالى (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ليستدل به وليكون من الموقنين واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التامل بعد زوال الشبهة لان الانسان فى أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمانينة فى

(انى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك) أى وكما أريناه قبح الشرك (نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض) أى نرى بصيرته لطائف خلق السموات والارض ونرى حكاية حال ماضية والملكوت أبلغ من الملك لان الواو والتاء تزادان للمبالغة قال مجاهد فرجت له السموات السبع فنظر الى ما فيهن حتى انتهى نظره الى العرش وفرجت له الارضون السبع حتى نظر الى ما فيهن (وليكون من الموقنين) فعلنا ذلك أو ليستدل وليكون من الموقنين عيانا كما أيقن بيانا

القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلاله الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شئ من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لا تستطيع هذا فرده الله كما كان قبل ذلك فعنى الآية على هذا القول وكذلك اريناه ملكوت السموات والارض ليكون ممن يوقن علم كل شئ حساوخبرا قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) يقال جن الليل واجن اذا أظلم وغطى كل شئ وأجنه الليل وجن عليه اذا ستره بسواده (رأى كوكبا قال هذا ربي)

(ذكر القصة في ذلك) قال أهل التفسير وأصحاب الاخبار والسير ولد ابراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك في كتب الانبياء وقال السدى رأى نمرود في منامه كان كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك اهل دينك على يديه فامر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لانهم كانوا لا يجامعون في الحيض فاذا طهرت من الحيض حالوا بينهما قالوا فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بابراهيم وقال محمد ابن اسحق بعث نمرود الى كل امرأة حبلى بقرية فحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها وقال السدى خرج نمرود بالرجال الى العسكر وعزلهم عن النساء فحرقا من ذلك المولود فهلك بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة الى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه الا آزر فبعث اليه فاحضره عنده وقال له ان لي اليك حاجة أحب ان اوصيك بها ولم أبعث فيها الا الثقتي بك فقد صمت عليك أن لا تدنو من اهلك فقال آزر أنا اضيع على ديني من ذلك فاوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت اليهم فلما دخل على أم ابراهيم ونظر اليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم قال الكهان انه مولود ان الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة فامر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم ابراهيم وأخذها الخاض خرجت هاربة مخافة ان يطلع عليها فتقتل ولدها فالوافوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بانها ولدت وان الولد في موضع كذا فانطلق اليه أبوه فاخذه من ذلك المكان وحفر له سربا في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف اليه فترضعه وقال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة كانت قريبا منها فولدت فيها ابراهيم واصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه تنظر

(فلما جن عليه الليل) أي أظلم وهو عطف على قال ابراهيم لابيه وقوله وكذلك نرى ابراهيم جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه (رأى كوكبا) أي الزهرة أو المشترى وكان أبوه وقومه يعبدون الاصنام والشمس والقمر والكواكب فاراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وان يرشدهم الى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد الى ان شيأ منها ليس بالله لقيام دليل الحدوث فيها ولان لها محدثا أحدثها ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه (قال هذا ربي) أي قال لهم هذا ربي في زعمكم أو المراد اهذا استهزاء بهم وانكارا عليهم والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت والصحيح ان هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لانه أدعى الى الحق وانجى من الشغب ثم يركب عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة

ما فعل فتجده حيا وهو يمص ابهامه قال أبو روق قالت ام ابراهيم لا تنظرن الى أصابعه فوجدته يمص من اصبع ماء ومن اصبع لبنا ومن اصبع سمنا ومن اصبع عسلا ومن اصبع تمرا وقول محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها وكان ابراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال أخرجيني فاخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والارض وقال ان الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي اله غيره ونظر في السماء فرأى كوكبا قال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي وأتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا الى آخره ثم رجعت به الى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه الا أنه لم ينادهم بذلك فلما رجعت به أمه اخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحا شديدا وقيل انه مكث في السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قالوا فلما شب ابراهيم وهو في السرب قال لامه من ربي قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال فمن رب أبي قالت اسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث انه يغير دين أهل الارض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فاتاه أبوه آزر فقال ابراهيم يا أبتاه من ربي قال امك قال فمن رب امي قال أنا قال فمن ربك قال نمرود قال فمن رب نمرود فلطمه لطمة وقال اسكت فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر في خلال الصخرة فابصر كوكبا قال هذا ربي ويقال انه قال لابويه أخرجاني فاخرجاه من السرب حين غابت الشمس فنظر ابراهيم الى الابل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه قال ابل وخيل وغنم فقال ابراهيم ما لهذه بد من أن يكون لها اله وهو ربها وخالقها ثم نظر فاذا المشتري قد طلع ويقال انها الزهرة وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل فلما جن عليه الليل يعني ستره بظلامه رأى كوكبا قال هذا ربي ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين أحدهما انه كان قبل البلوغ في حال طفولته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذي صدر من ابراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لان الاحكام انما تثبت بعد البلوغ وقيل ان ابراهيم لما خرج من السرب في حال صغره ونظر الى السماء وما فيها من الكواكب ونظر الى الارض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر في نفسه وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو الله الخلق ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر فقال هذا ربي على ما سبق الى وهمه وذلك في حال طفولته وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لا يكون الا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مرضي لان

الانبياء معصومون فى كل حال من الاحوال وانه لايجوز ان يكون لله عزوجل رسول
يأتى عليه وقت من الاوقات الاوهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن
كل معبود سواه برىء وكيف يتوهم هذا على ابراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده
من قبل وأراه ملكوت السموات والارض أفبرؤية الكوكب يقول معتقدا هذا
ربى حاشا ابراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لان منصبه أعلى وأشرف من ذلك صلى
الله عليه وسلم والقول الثانى الذى عليه جمهور المحققين أن هذه الرؤية وهذا القول
كان بعد بلوغ ابراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا
القول فى تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوها الوجه الاول ان ابراهيم عليه السلام
أراد ان يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم فى تعظيم النجوم وعبادتها
لانهم كانوا يرون ان كل الامور اليها فأراهم ابراهيم انه معظم ما عظموه فلما أفل الكوكب
والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والافول ليثبت
خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الالوهية ومثل هذا كمثل الحوارى الذى ورد على قوم
كانوا يعبدون صنما فاظهر تعظيمه فاكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه فى كثير
من امورهم الى ان دهمهم عدو لا قبل لهم به فشاوروه فى أمر هذا العدو فقال الرأى عندى
ان ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون اليه فلم
يغن شيأ فلما تبين لهم أنه لاينفع ولا يضر ولا يدفع دعاهم الحوارى وأمرهم أن يدعوا الله
عزوجل ويسألوه أن يكشف عنهم ما نزل بهم فدعوا الله مخلصين فصرف عنهم ما كانوا
يحذرون فاسلموا جميعا الوجه الثانى ان ابراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل
الاستفهام وهو استفهام انكار وتوبيخ لقومه تقديره أهذا ربى الذى تزعمون واسقاط
حرف الاستفهام كثير فى كلام العرب ومنه قوله تعالى أفان مت فهم الخالدون يعنى
أفهم الخالدون والمعنى ليكون هذا رباود لائل النقص فيه ظاهرة الوجه الثالث ان
ابراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربى بزعمكم فلما
غاب قال لو كان الها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم يعنى عند
نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى انظر الى الملك الذى ظلت
عليه عاكفا يريد الملك بزعمك الوجه الرابع ان فى هذه الآية اضمارا تقديره يقولون هذا
ربى واضمار القول كثير فى كلام العرب ومنه قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من
البيت واسمعيل ربنا تقبل منا أى يقولان ربنا تقبل منا الوجه الخامس ان الله تعالى
قال فى حقه وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال
بعده فلما جن عليه الليل والفاء تقتضى التعقيب فدل هذا أن هذه الواقعة كانت بعد ان
أراه الله ملكوت السموات والارض وبعد الايقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية
الشريفة لايليق بحاله ان يعبد الكواكب ويتخذها ربا فاما الجواب عن قوله لئن لم يهدنى
ربى لاكونن من القوم الضالين فان الانبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت
ومنه قوله واجنبنى وبنى ان نعبد الاصنام واما قوله تعالى (فلما أفل) يعنى غاب والافول

(قال لا أحب الآفلين) اى لا احب عبادة الارباب المتغيرين عن حال الى حال لان ذلك من صفات الاجسام (فلما رأى القمر بازغا) مبتدئا فى الطلوع (قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى ٣٩ لأكونن من القوم الضالين) نبه قومه على ان

غيبة النيرات (قال) يعنى ابراهيم (لا أحب الآفلين) يعنى لا أحب ربا يغيب ويطلع لان امارات الحدوث فيه ظاهرة قوله تعالى (فلما رأى القمر بازغا) يعنى طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربى) معناه ما تقدم من الكلام فى الكوكب (فلما أفل) يعنى غاب (قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) يعنى ان لم يثبتنى ربى على الهدى وليس المراد انه لم يكن مهتديا لان الانبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفى الآية دليل على ان الهداية من الله تعالى لان ابراهيم أضاف الهداية لله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) يعنى طالعة (قال هذا ربى) يعنى هذا الطالع وانه أشار الى الضياء والنور لانه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل انما قال هذا ولم يقل هذه لان تأنيث الشمس غير حقيقى فلهذا أتى بلفظ التذكير (هذا أكبر) يعنى من الكوكب والقمر (فلما أفلت) يعنى فلما غابت الشمس (قال يا قوم انى برىء مما تشركون) يعنى انه لما أثبت ابراهيم عليه السلام بالدليل القاطع ان هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه انه برىء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم اظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال (انى وجهت وجهى) يعنى انى صرفت وجه عبادتى وقصرت توحيدى (للذى فطر السموات والارض) يعنى للذى خلقهما وابتدعهما (حنيفا) يعنى مائلا عن عبادة كل شئ سوى الله تعالى وأصل الحنف الميل وهو ميل عن طريق الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذى يستقبل الكعبة فى صلاته (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذى كان عليه قومه قوله عز وجل (وحاجه قومه) يعنى وخاصمه قومه وذلك لما أظهر ابراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التى كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه فى ذلك فقال اتحاجونى فى الله يعنى اتجادلونى فى توحيدى لله وقد هدانى وقد تبين لى طريق الهداية الى توحيده ومعرفته وقال البغوى لما رجع ابراهيم الى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنده طمع الداجنين وضمه آزر الى نفسه جعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها فيذهب ابراهيم وينادى من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بار عليه ذهب بها الى نهر فصوب فيه رؤسها وقال اشربى استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة حتى فشا استهزؤه بها فى قومه وأهل قريته فحاجه قومه يعنى خاصمه وجادله قومه فى دينه (قال) يعنى ابراهيم (اتحاجونى فى الله وقد هدان) يعنى الى توحيده ومعرفته (ولا أخاف ما تشركون به) وذلك انهم قالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بجنون لعيبك اياها فاجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فانها جماد لا تضر ولا تنفع وانما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله (الا أن يشاء ربى شيأ) يعنى لكن ان يشأ ربى شيأ كان ما يشاء لانه قادر على النفع

من اتخذ القمر الها فهو ضال وانما احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال لان الاحتجاج به ظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) وانما ذكره لانه أراد الطالع أولانه جعل المبتدأ مثل الخبر لانهما شئ واحد معنى وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث ولهذا قالوا فى صفات الله تعالى علام ولم يقولوا علامة وان كان الثانى أبلغ تفاديا من علامة التانيث (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة بضامع خصومه (فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون) من الاجرام التى تجعلونها شركاء لخالقها وقيل هذا كان نظره واستدلاله فى نفسه فحكاه الله تعالى والاول أظهر لقوله يا قوم انى برىء مما تشركون (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض) أى للذى دلت هذه الحدثات على انه منشئها (حنيفا) حال أى مائلا عن الاديان كلها الا الاسلام (وما أنا من المشركين) بالله شيأ من خلقه (وحاجه قومه) فى توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه قال

(أتحاجونى فى الله) فى توحيده أتحاجونى مدنى وابن ذكوان (وقد هدان) الى التوحيد وبالياء فى الوصل أبو عمرو والمحذوف أن معبوداتهم تصيبه بسوء قال (ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيأ) أى لا أخاف معبوداتكم فى وقت قط لانها لا تقدر على منفعة ولا مضرة الا اذا شاء ربى ان يصيبنى منها بضر فهو قادر على ان يجعل فيما شاء نفعا وفيما شاء ضرا الا الاصنام

والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه فى بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه الى الاصنام ففى هذه الشبهة بقوله الا ان يشاء ربى شيأ هذا استثناء منقطع وليس هو من الاول فى شئ والمعنى ولكن ان شاء ربى شيأ كان (وسع ربى كل شئ علما) يعنى أحاط علمه بكل شئ فلا يخرج شئ عن علمه (أفلا تتذكرون) يعنى أفلا تعتبرون ان هذه الاصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وان النافع الضار هو الذى خلق السموات والارض ومن فيهما (وكيف أخاف ما أشركتم) يعنى وكيف أخاف الاصنام التى أشركتم بها الا انها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون انكم أشركتم بالله) يعنى وأنتم لا تخافون وقد أشركتم بالله وهو من أعظم الذنوب (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) يعنى ما ليس لكم فيه حجة وبرهان (فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون) يعنى يقول من أولى بالامن من العذاب فى يوم القيامة الموحد أم المشرك (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وهذا فصل قضاه الله بين ابراهيم وبين قومه يعنى ان الذين يستحقون الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وقيل هو من تمام كلام ابراهيم فى المحاجة لقومه والمعنى ان الذين يحصل لهم الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعنى آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيأ ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا ايمانهم بشرك (ق) عن ابن مسعود قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وفى رواية ليس هو كما تظنون انما هو كما قال لقمان لابنه وذكره وقيل فى معنى قوله ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعنى ولم يخلطوا ايمانهم بشئ من معانى الظلم وذلك بان يفعل بعض ما نهى الله عنه أو يترك ما أمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لان الله لم يخص به معنى من معانى الظلم دون غيره والصحيح ان الظلم المذكور فى هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر الظلم هنا بالشرك وفى الآية دليل على ان من مات لا يشرك بالله شيأ كانت عاقبته الامن من النار لقوله (أولئك) يعنى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم (لهم الامن) يوم القيامة من عذاب النار (وهم مهتدون) يعنى الى سبيل الرشاد وقوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) يعنى ما جرى بين ابراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكواكب والقمر والشمس بالافول وقيل لما قالوا لابراهيم انا نخاف عليك من آلهتنا لسبك اياها قال أفلا تخافون أنتم منها لاشراككم بينها بين الصغير والكبير فى العبادة ان يغضب الكبير عليكم وقيل انه خاصم قومه المشركين فقال أى الفريقين أحق بالامن من يعبد الها واحدا مخلصا له الدين والعبادة أم من يعبد أربابا كثيرة فقالوا الامن يعبد الها واحدا فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة ابراهيم عليهم (نرفع درجات من نشاء) يعنى بالعلم والفهم والعقل والفضيلة كما رفعنا درجات ابراهيم حتى اهتدى الى محاجة قومه وقيل نرفع درجات من نشاء فى الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفى الآخرة

(وسع ربى كل شئ علما) فلا يصيب عبدا شئ من ضر أو نفع الا بعلمه (أفلا تتذكرون) فتميزوا بين القادر والعاجز (وكيف أخاف ما أشركتم) معبوداتكم وهى مأمونة الخوف (ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به) بانزاله (اليكم سلطانا) حجة اذ الاشراك لا يصح أن يكون عليه حجة والمعنى وما لكم تشركون على الامن فى موضع الامن ولا تشركون على أنفسكم الامن فى موضع الخوف (فأى الفريقين) أى فريقى الموحدين والمشركين (أحق بالامن) من العذاب (ان كنتم تعلمون) ولم يقل فاينا احتراز امن تزكية نفسه ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) بشرك عن الصديق رضى الله عنه (أولئك لهم الامن وهم مهتدون) تم كلام ابراهيم عليه السلام (وتلك حجتنا) اشارة الى جميع ما احتج به ابراهيم عليه السلام على قومه من قوله فلما جن عليه الليل الى وهم مهتدون (آتيناها ابراهيم على قومه) وهو خبر بعد خبر (نرفع درجات من نشاء) فى العلم والحكمة وبالتنوين كوفى وفيه نقض قول المعتزلة فى الاصلح

بالثواب على الاعمال الصالحة (ان ربك حكيم عليم) يعنى انه تعالى حكيم فى جميع افعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيأ الا بحكمة وعلم قوله عز وجل (ووهبنا له اسحق و يعقوب) لما أظهر ابراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التى فهمه الله تعالى اياها وهداه اليها عدد الله نعمه عليه واحسانه اليه بان رفع درجته فى عليين وابقى النبوة فى ذريته الى يوم الدين فقال تعالى ووهبنا له يعنى لابراهيم اسحق يعنى ابنا لصلبه و يعقوب يعنى ابن اسحق وهو ولد الولد (كلا هدينا) يعنى هدينا جميعهم الى سبيل الرشاد ووفقناهم الى طريق الحق و الصواب (ونوحا هدينا من قبل) يعنى من قبل ابراهيم أرشدنا نوحا ووفقناه للحق والصواب ومننا عليه بالهداية (ومن ذريته) اختلفوا فى هذا الضمير الى من يرجع فقيل يرجع الى ابراهيم يعنى ومن ذرية ابراهيم (داود وسليمان) وقيل يرجع الى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين لان الضمير يرجع الى أقرب مذكور ولان الله ذكر فى جملة هذه الذرية لوطا وهو ابن أخى ابراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا ان هاء الكناية ترجع الى نوح وقال الزجاج كلا القولين جائز لان ذكرهما جميعا قد جرى وداود هو ابن يشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود (وأيوب) هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة (وكذلك نجزى المحسنين) يعنى وكما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزى المحسنين على احسانهم (وزكريا) هو ابن آذن بن برخيا (ويحيى) هو ابن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل وقال محمد بن اسحق هو الياس ابن سنان بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران وهذا هو الصحيح لان أصحاب الانساب يقولون ان ادريس جد نوح لان نوحا ابن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس ولان الله تعالى نسب الياس فى هذه الآية الى نوح وجعله من ذريته (كل من الصالحين) يعنى ان كل من ذكرنا وسميناه من الصالحين (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن أخى ابراهيم (وكلا فضلنا على العالمين) يعنى على عالمى زمانهم و يستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة لان العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضى ان الانبياء أفضل من الملائكة * واعلم ان الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيا من الانبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لان الواو لا تقتضى الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهى ان الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الانبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولا نوحا وابراهيم واسحق و يعقوب لانهم أصول الانبياء واليهم ترجع

(ان ربك حكيم) بالرفع (عليم) بالاهل (ووهبنا له) لابراهيم (اسحق ويعقوب كلا هدينا) أى كلهم وانتصب كلا بهدينا (ونوحا هدينا) أى وهدينا نوحا (من قبل) من قبل ابراهيم (ومن ذريته) الضمير لنوح أو لابراهيم والاول أظهر لان يونس ولوطا لم يكونا من ذرية ابراهيم (داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون) والتقدير وهدينا من ذريته هؤلاء (وكذلك نجزى المحسنين) ونجزى المحسنين جزاء مثل ذلك فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف (وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل) أى كلهم (من الصالحين) وذكر عيسى معهم دليل على ان النسب يثبت من قبل الام أيضا لانه جعله من ذرية نوح عليه السلام وهو لا يتصل به الا بالام وبذا أجيب الحجاج حين أنكر ان يكون بنو فاطمة أولاد النبى عليه السلام (واسمعيل واليسع) واليسع حيث كان بلامين حمزة وعلى (ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) بالنبوة والرسالة

أنسابهم جميعا ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظا وافرا ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فانه صبر على البلاء والشدة الى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الانبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا والاعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بانهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الانبياء من لم يبق له اتباع ولا شريعة وهم اسمعيل واليسع ويونس ولوط فاذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شئ يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه قوله تعالى (ومن آبائهم) يعنى ومن آباء الذين سميناهم ومن هنا للتبعيض لان من آبائهم من لم يكن مسلما (وذرياتهم) يعنى ومن ذرياتهم أى بعضهم لان عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح (واخوانهم) يعنى ومن اخوانهم والمعنى ان الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن اخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى (واجتبيناهم) يعنى اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) يعنى وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) أى الى دين الحق (ذلك هدى الله) قال ابن عباس ذلك دين الله الذى كان عليه هؤلاء الانبياء وقيل المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والاضداد والانداد (يهدى به من يشاء من عباده) يعنى يوفق من يشاء من عباده ويرشده الى دينه وطاعته وخلع الاضداد والشركاء (ولو أشركوا) يعنى هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) يعنى لبطل وذهب (عنهم ما كانوا يعملون) من الطاعات قبل ذلك لان الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الاعمال شيأ قوله عز وجل (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) يعنى أولئك الذين سميناهم من الانبياء أعطيناهم الكتب التى أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وانما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وان كانت النبوة هى الاصل لان منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكر أولا الكتاب والحكم لانهما يدلان على النبوة (فان يكفر بها هؤلاء) يعنى فان يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقيل هم المهاجرون والانصار وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال رجاء العطاردى هم الملائكة وفيه بعد لان اسم القوم لا ينطلق الا على بنى آدم وقيل هم الفرس قال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أو نبيا أو من الصحابة أو التابعين وفى الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوى دينه ويجعله عاليا على الاديان كلها وقد جعل ذلك فيها وهو اخبار عن الغيب قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله) يعنى النبيين الذين تقدم ذكرهم لانهم

(ومن آبائهم) فى موضع النصب عطفا على كلا أى وفضلنا بعض آبائهم (وذرياتهم واخوانهم) واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك) أى ما دان به هؤلاء المذكورون (هدى الله) دين الله (يهدى به من يشاء من عباده) فيه نقض قول المعتزلة لانهم يقولون ان الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا (ولو أشركوا) مع فضلهم وتقدمهم وارتفاع درجاتهم من الدرجات العلى (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لبطلت أعمالهم كما قال لئن أشركت ليحبطن عملك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) يريد الجنس (والحكم) والحكمة أو فهم الكتاب (والنبوة) وهى أعلى مراتب البشر (فان يكفر بها) بالكتاب والحكم والنبوة أو بآيات القرآن (هؤلاء) أى أهل مكة (فقد وكلنا بها قوما) هم الانبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده أو أصحاب النبى عليه السلام أو كل من آمن به أو العجم ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للايمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه والباء فى (ليسوا بها) صلة كافرين وفى (بكافرين) تأكيد النفى (أولئك الذين هدى الله) أى الانبياء الذين مر ذكرهم

هم المخصوصون بالهداية (فبهداهم اقتده) اشارة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للاول في فعله وقيل أمره أن يقتدي بهم في أمر الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الاسماء والصفات والافعال وقيل أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الاخلاق الحميدة والافعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم وقيل أمره أن يقتدي بشرائعهم الا ما خصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون في الآية دليل على ان شرع من قبلنا شرع لنا

* (فصل) * اجمع العلماء بهذه الآية على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبيانه ان جميع خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود عليه السلام وسليمان من اصحاب الشكر على النعمة قال الله فيهم اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء قال الله فيه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين يعني الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزة الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من أصحاب الزهد في الدنيا وكان اسمعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واخبات ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان انه صلى الله عليه وسلم كان أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم وقوله تعالى (قل لا أسئلكم عليه أجرا) يعني قل يا محمد لا أطلب على تبليغ الرسالة تجعلا قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الاجر على ايصال الدين وابلاغ الشريعة لازم اقتدى بهم فقال لا أسألكم عليه أجرا (ان هو) يعني ما هو يعني القرآن (الا ذكرى للعالمين) يعني ان القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والانس وفيه دليل على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى جميع الخلق من الجن والانس وان دعوته عمت جميع الخلائق قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) قال ابن عباس معناه ما عظموا الله حق عظمته وعنه ان معناه ما آمنوا أن الله على كل شئ قدير وقال أبو العالية ما وصفوا الله حق صفته وقال الاخفش ما عرفوا الله حق معرفته يقال قدر الشئ اذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدرا ثم يقال لمن عرف شيأ هو يقدر قدره واذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه انه لا يقدر قدره فقوله وما قدروا الله حق قدره يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه (اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) يعني الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته اذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه

(فبهداهم اقتده) فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد الا بهم وهذا معنى تقديم المفعول والمراد بهداهم طريقتهم في الايمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فهي مختلفة والهاء في اقتده للوقف تسقط في الوصل ويستحسن اثبات الوقف لثبات الهاء في المصحف ويحذفها حمزة وعلي في الوصل ويختلسها هشام (قل لا اسئلكم عليه) على الوحي أو على تبليغ الرسالة والدعاء الى التوحيد (أجرا) جعلا وفيه دليل على ان اخذ الاجر على تعليم القرآن ورواية الحديث لا يجوز (ان هو الا ذكرى للعالمين) ما القرآن الا عظة للجن والانس (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شئ) أي ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل والوحي اليهم وذلك من أعظم رحمته وما أرسلناك الا رحمة للعالمين روي ان جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف كانوا يجادلون النبي عليه السلام فقال النبي عليه السلام له أليس في التوراة ان الله يبغض الحبر السمين قال نعم قال فانت الحبر السمين فغضب وقال ما أنزل الله على بشر من شئ وحق قدره منصوب نصب المصدر

المقالة ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين أحدهما انها نزلت في كفار قريش وهذا على قول من يقول ان جميع هذه السورة مكية وهو قول السدي ويروى ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال لان من أول السورة الى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الاصنام وكان قوله وما قدروا الله حق قدره موصولا بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ خبرا عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازي على هذا القول اشكالا وهو ان كفار قريش ينكرون نبوة جميع الانبياء فكيف يمكن الزامهم بنبوة موسى وأيضا فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش انما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بان كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وانما أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن الزامهم بقوله قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وأجاب عن كون سياق الآية لا يليق الا بحال اليهود بان كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يبعد ان بعض الآية يكون خطابا لكفار قريش وبعضها خطابا لليهود والقول الثاني في سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول ان هذه الآية نزلت بالمدينة وانها من الآيات المدنيات التي في السور المكية قال ابن عباس نزلت سورة الانعام بمكة الا ست آيات منها قوله وما قدروا الله حق قدره فانها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة ان الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب وقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس الآية قال البغوي وفي القصة ان مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عنفوا عليه وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ما أنزل الله على بشر من شئ فقال مالك بن الصيف اغضبني محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت اذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدي نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وهو القائل هذه المقالة وقال ابن عباس قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتابا قال نعم فقالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى الآية وقال محمد بن كعب القرظي جاء ناس من يهود الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتب فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى الواحا يحملها من عند الله فأنزل الله يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء الآية التي في سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال ما أنزل الله عليك ولا على

موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيأ فانزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ وأورد الرازى على هذا القول اشكالا أيضا وهو انه قال ان اليهود مقرون بانزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شئ مع اعترافهم بانزال التوراة ولم يجب عن هذا الاشكال بشئ وأجيب عنه بان مراد اليهود انكار انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقط ولهذا الزموا بالابد لهم من الاقرار به من انزال التوراة على موسى وفى هذا الالزام توبيخ لليهود بسوء جهلهم واقدامهم على انكار الحق الذى لا ينكر (نورا وهدى للناس) يعنى التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبيانا يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير (يجعلونه قراطيس) يكتبونه فى قراطيس متقطعة (يبدونها) يعنى القراطيس المكتوبة (ويخفون كثيرا) يعنى ويخفون كثيرا مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى التوراة ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أكثر المفسرين على ان هذا خطاب لليهود ومعناه انكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل قال الحسن جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل الله) هذا راجع الى قوله قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى فان أجابوك يا محمد والا فقل أنت الله الذى أنزله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) يعنى دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله ومعنى يلعبون يستهزؤن ويسخرون وقيل معناه يا محمد انك اذا أقمت الحجة عليهم وبلغت فى الاعذار والانذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شئ فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لانه مذكور لاجل التهديد والوعيد قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يشهد المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) يعنى من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء يعنى انه موافق لما فى التوراة والانجيل وسائر الكتب لانها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصة وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة (ولتنذر) قرئ بالتاء يعنى ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه وليتذر الكتاب (أم القرى) يعنى مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل أم القرى وسميت مكة أم القرى لان الارض دحيت من تحتها قاله ابن عباس وقيل لانها أقدم القرى وأعظمها بركة وقيل لانها قبلة أهل الارض (ومن حولها) يعنى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين

(قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا) حال من الضمير فى به أو من الكتاب (وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) مما فيه نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى بعضوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الابداء والاخفاء وبالياء فى الثلاثة مكى وأبو عمرو (وعلمتم) يا أهل الكتاب بالكتاب (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من أمور دينكم ودنياكم (قل الله) جواب أى أنزله الله فانهم لا يقدرون أن ينازعوك (ثم ذرهم فى خوضهم) فى باطلهم الذى يخوضون فيه (يلعبون) حال من ذرهم أو من خوضهم (وهذا كتاب أنزلناه) على نبينا عليه السلام (مبارك) كثير المنافع والفوائد (مصدق الذى بين يديه) من الكتب (ولتنذر) وبالياء أبو بكر أى الكتاب وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كانه قيل أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب ولانذار (أم القرى) مكة وسميت أم القرى لانها سرة الارض وقبلة أهل القرى وأعظمها شانا ولان الناس يؤمونها (ومن حولها) أهل الشرق والغرب (والذين

يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) يعني والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بهذا الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل يصدقون ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك ان الذي يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فانه يرغب في تحصيل الثواب ودرء العقاب عنه وذلك لا يحصل الا بالنظر التام فاذا نظر وتفكر علم بالضرورة ان دين محمد أشرف الاديان وشريعته أعظم الشرائع (وهم على صلاتهم يحافظون) يعني يداومون عليها في أوقاتها والمعنى ان الايمان بالآخرة يحمل على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الايمان بالله تعالى فاذا حافظ العبد عليها يكون محافظا على جميع العبادات والطاعات قوله عز وجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان الله بعثه نبيا وهو في زعمه كذاب مبطل (أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب ابن ثمامة وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم ان الله أوحى اليه وكان قد أرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم رسولين فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبي فالا نعم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم لولا ان الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا علي وأهماني فأوحي الي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وفي لفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء قوله فأوحي الي أن انفخهما يروى بالحاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها اذا دفعت ورمحت ويروى بالجاء المعجمة من النفخ بريد انه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الاول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قومه من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك وقتل مسيلمة الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الاسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الخمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل والنبي صلى الله عليه وسلم حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعني بقتله الاسود العنسي فمن قال ان هذه الآية يعني قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الى ولم يوح اليه شئ أنزلت في مسيلمة الكذاب والاسود العنسي يقول ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال ان هذه الآية مكية وقال

يؤمنون بالآخرة) يصدقون بالعاقبة ويخافونها (يؤمنون به) بهذا الكتاب فاصل الدين خوف العاقبة فمن خافها اهتم له الخوف حتى يؤمن (وهم على صلاتهم يحافظون) خصت الصلاة بالذكر لانها علم الايمان وعماد الدين فمن حافظ عليها حافظ على أخواتها ظاهرا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) هو مالك ابن الصيف (أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شئ) هو مسيلمة الكذاب

أ(ومن قال) فى موضع جر عطف على من افترى أى ومن قال (نزل مثل ما أنزل الله) أى سأقول وأملى هو عبد الله بن سعد ابن أبى سرح كاتب الوحى وقد أملى النبى عليه السلام عليه ولقد خلقنا الانسان الى خلقا آخر فجرى على لسانه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال عليه السلام اكتبها فكذلك نزلت فشك وقال ان كان محمد صادقا فقد أوحى الى كما أوحى اليه وان كان كاذبا فقد قلت كما قال فارتد ولحق بمكة أو النضر بن الحرث كان يقول والطاحنات طحنا فالعاجنات عجنا فالخابزات خبزا كأنه يعارض (ولو ترى) جوابه محذوف أى لرأيت أمرا عظيما (اذ الظالمون) يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتراكهم (فى غمرات الموت) شدائده وسكراته (والملائكة باسطوا أيديهم) أى يبسطون اليهم أيديهم يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها الينا من أجسادكم وهذه عبارة عن التشديد فى الازهاق من غير تنفيس وامهال (اليوم تجزون عذاب الهون) أرادوا وقت الامانة وما يعذبون به من شدة النزع والهون الهوان الشديد واضافة العذاب اليه كقولك رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن

أنها نزلت فى شأنهما يقول انها خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم وقوله تعالى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) الى قال السدى نزلت فى عبد الله بن أبى سرح القرشى وكان قد أسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبى سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى مثل ما أوحى اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك الى الاسلام فاسلم قبل فتح مكة والنبى صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله فى المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده لانه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت) يعنى ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين اذ نزل بهم الموت لرأيت أمرا عظيما وغمرات شدائده وسكراته وغمرة كل شئ معظمه وأصلها الشئ الذى يغمر الاشياء فيغطيها ثم وضعت فى موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا أيديهم) يعنى بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم (أخرجوا أنفسكم) يعنى يقولون لهم أخرجوا أنفسكم فان قلت انه لا قدرة لاحد على اخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام قلت معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرها الان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب فى ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) يعنى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) يعنى ذلك العذاب الذى تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) يعنى وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الايمان بالقرآن ولا تصدقونه قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) يعنى وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون اليه وما ذا يقول لهم فى ذلك اليوم وفى قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لانهم صرفوا همومهم فى الدنيا الى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم فى عبادة الاصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيأ فى يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) يعنى جئتمونا حفاة عراة غرلا يعنى

فيه (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) من أن له شريكا وصاحبة وولدا وغير الحق مفعول تقولون أو وصف لمصدر محذوف أى قولا غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب والجزاء (فرادى) منفردين بلا مال ولا معين وهو جمع فريد كأسير وأسارى (كما خلقناكم) فى محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أى مجيئا مثل ما خلقناكم (أول مرة) على الهيئات التى ولدتم عليها فى الانفراد

(وتركتم ماخولناكم) ملكناكم (وراء ظهوركم) ولم تحتملوا منه نقيرا (ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) في استعبادكم (لقد تقطع بينكم) وصلكم عن الزجاج والبين الوصل والهجر قال فوالله لولا البين لم يكن الهوى ولولا الهوى ماحن للبين آلف بينكم مدني وعلي وحفص أي وقع التقطع بينكم (وضل عنكم) وضاع وبطل (ما كنتم تزعمون) انها شفعاؤكم عند الله (ان الله فالق الحب والنوى) بالنبات والشجر أي فلق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة والفلق الشق وعن مجاهد أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة

فرادى كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شيء عليهم ولا معهم (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر أشد من ان يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة انها قرأت قول الله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فقالت يارسول الله واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سوءة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال شغل بعضهم عن بعض وقوله تعالى (وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) يعني وتركتم الذي اعطيناكم وملكناكم من الاموال والاولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعني في الدنيا (ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) يعني ان المشركين زعموا انهم انما عبدوا هذه الاصنام لانها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لانها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فاذا كان يوم القيامة ويخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرئ بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون معناه لقد تقطع الامر بينكم وقرئ بينكم برفع النون ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يعني وذهب وبطل ما كنتم تكذبون في الدنيا قوله عز وجل (ان الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة اردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيها بذلك على ان المقصود الاعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وافعاله وانه مبدع الاشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التي كانوا يعبدونها وتعريفا منه خطأ ما كانوا عليه من الاشراك الذي كانوا عليه والمعنى ان الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة وفي معنى فلق قولان أحدهما أنه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول ان الله خالق الحب والنوى وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه قال الضحاك ومقاتل قال الواحدي ذهبوا بفالق مذهب فاطر وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق ونقل الازهري عن الزجاج جوازه فقال وقيل الفالق الخالق واذا تأملت الخلق تبين لك ان أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام ان جميع الاشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أوجدها الله تعالى واخرجها من العدم الى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها والقول الثاني وهو قول الاكثرين ان الفلق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين أحدهما وهو مروي عن ابن عباس قال فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد قال الزجاج يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج

منها ورقا أخضر والقول الثانى وهو قول مجاهد أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى والحب هو الذى ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهى ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله فالق الحب والنوى أنه اذا وقعت الحبة أو النواة فى الارض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقا أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب و يظهر من النواة شجرة صاعدة فى الهواء وعروقا ضاربة فى الارض فسبحان من أوجد جميع الاشياء بقدرته وابداعه وخلقه وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) قال ابن عباس فى رواية عنه يخرج من النطفة بشرا حيا ويخرج النطفة الميتة من الحى وهذا قول الكلبى ومقاتل قال الكلبى يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحى وقال ابن عباس فى رواية أخرى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الايمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن وقيل معناه يخرج الدائع من العاصى والعاصى من الدائع وقال السدى يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبرى لانه قال عقب قوله ان الله فالق الحب والنوى فان قلت كيف قال ومخرج الميت من الحى بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحى من الميت وما السبب فى عطف الاسم على الفعل قلت قوله ومخرج الميت من الحى عطف على قوله فالق الحب والنوى وقوله يخرج الحى من الميت كالبيان والتفسير لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى اليابس واخراج النبات والشجر منه من جنس اخراج الحى من الميت لان النامى من النبات فى حكم الحيوان وقوله (ذلكم الله) يعنى ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الاشياء المحيى المميت لها (فانى تؤفكون) يعنى فانى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الاشياء كلها وفيه دليل أيضا على صحة البعث بعد الموت لان القادر على اخراج البدن من النطفة قادر على اخراجه من التراب للحساب قوله تعالى (فالق الاصباح) أى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والاصباح مصدر سمى به الصبح وقال الزجاج الاصباح والصبح واحد وهما أول النهار فان قلت ظاهر الآية يدل على انه تعالى فلق الصبح والظلمة هى التى تنفلق بالصبح فما معنى ذلك قلت ذكر العلماء فيه وجوها الاول أن يكون المراد فالق ظلمة الصباح وذلك لان الصبح صبحان فالصبح الاول هو البياض المستطيل الصاعد فى الافق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لانه يبدو فى الافق الشرقى ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثانى وهو الضوء المستطير فى جميع الافق الشرقى ويسمى الفجر الصادق لانه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى فالق ظلمة الصبح الاول بنور الصبح الثانى الوجه الثانى انه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله فالق الاصباح أى فالق الصباح بنور النهار الوجه الثالث أن يراد فالق ظلمة الاصباح وهى الغبش فى آخر الليل

(يخرج الحى من الميت) النبات الغض النامى من الحب اليابس (ومخرج الميت من الحى) الحب اليابس من النبات النامى أو الانسان من النطفة والنطفة من الانسان أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه لانهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه الذى خلق هذه الاشياء فهو يقدر على بعثهم وانما قال ومخرج الميت بلفظ اسم الفاعل لانه معطوف على فالق الحب لا على الفعل ويخرج الحى من الميت موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين من جنس اخراج الحى من الميت لان النامى فى حكم الحيوان دليله قوله ويحيى الارض بعد موتها (ذلكم الله) ذلكم المحيى والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية لا الاصنام (فانى تؤفكون) فكيف تصرفون عنه وعن توليه الى غيره بعد وضوح الامر بما ذكرنا (فالق الاصباح) هو مصدر سمى به الصبح أى شاق عمود الصبح عن سواد الليل أو خالق نور النهار

(وجاعل الليل) وجعل الليل كوفى لان اسم الفاعل الذى قبله بمعنى المضى فلما كان فالق بمعنى فلق عطف عليه

جعل لتوافقهما معنى (سكنا) مسكونا فيه من قوله لتسكنوا فيه أى ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة الى نوم الغفلة أو عن وحشة الخلق الى الانس بالحق (والشمس والقمر) انتصبا باضمار فعل يدل عليه جاعل الليل أى وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أى جعلهما على حسبان لان حساب الاوقات يعلم بدورهما وسيرهما والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب (ذلك) اشارة الى جعلهما حسبانا أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) الذى قهرهما وسخرهما (العليم) بتدبيرهما وتدويرهما (وهو الذى جعل لكم النجوم) خلقها (لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليل بالبر وبالبحر وأضافها اليهما للابستها لهما أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) هى آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) فمستقر بالكسر مكى وبصرى فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول يعنى فلكم مستقر فى الرحم ومستودع فى الصلب او مستقر فوق الارض ومستودع تحتها أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع

الذى يلى الصبح الوجه الرابع أن يكون المعنى فالق الاصباح الذى هو عمود الفجر اذا انصدع الفجر وانفلق وسمى الفجر فلقا بمعنى مفلوق الوجه الخامس الفلق بمعنى الخلق يعنى خالق الاصباح وعلى هذا القول يزول الاشكال والصبح هو الضوء الذى يبدو أول النهار والمعنى انه تعالى مبدى ضوء الصبح وخالقه ومنوره وقوله تعالى (وجاعل الليل سكنا) السكن ما سكنت اليه واستريحت يريد أن الناس يسكنون فى الليل سكون راحة لان الله جعل الليل لهم كذلك قال ابن عباس ان كل ذى روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه فى النهار فاحتاج الى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة وذلك هو الليل (والشمس والقمر حسبانا) يعنى انه تعالى قدر حركة الشمس والقمر فى الفلك بحسبان معين قال ابن عباس يجريان الى أجل جعل لهما يعنى عدد الايام والشهور والسنين وقال الكلبى منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا الى أقصى منازلهما (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره فى هذه الآية من الاشياء التى خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه قوله عز وجل (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) جعل هنا بمعنى خلق يعنى والله الذى خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها اذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه فامتن الله على عباده بان جعل لهم النجوم ليهتدوا بها فى المسالك والطرق فى البر والبحر الى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضا على القبلة فيستدلون على ما يريدون فى النهار بحركة الشمس وفى الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضا انه تعالى خلقها زينة للسماء ورجوما للشياطين كما قال ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا الآيات) يعنى قد بينا لآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا (لقوم يعلمون) أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته قوله تعالى (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) يعنى والله الذى ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا الا ان ابتداء خلقه من مريم وهى من بنات آدم فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها يقال قر فى مكانه واستقر فمن كسر القاف قال المستقر بمعنى القار والمعنى منكم مستقر يعنى فى الارحام ومن فتح القاف جعله مكانا فالمستقر نفس المقر فيكون المعنى لكم مقر وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسما للانسان الذى استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكانا والمعنى فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعنى منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب الى الثبات من المستودع لان المستقر من القرار والمستودع معرض لأن يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذين اللفظين فروى عن ابن عباس انه قال المستقر فى ارحام الامهات والمستودع فى أصلاب الآباء ثم قرأ ونقر فى الارحام ما نشاء ويؤيد هذا القول أن النطفة

لا تبقى في صلب الاب زمانا طويلا والجنين يبقى في بطن الام زمانا طويلا ولما كان المكث في بطن الام أكثر من صلب الاب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وروى عنه انه قال بالعكس يعنى أن المستقر صلب الاب والمستودع رحم الام ووجه هذا القول ان النطفة حصلت في صلب الاب قبل رحم الام فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم وقال ابن مسعود المستقر في الرحم الى أن يولد والمستودع في القبر الى أن يبعث وقال مجاهد المستقر على ظهر الارض في الدنيا لقوله ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين والمستودع عند الله في الآخرة وقال الحسن المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك الى أن تلحق بصاحبك يعنى القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر اما في الجنة أو النار لان المقام فيهما يقتضى الخلود والتأبيد (قد فصلنا الآيات) قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة (لقوم يفقهون) يعنى لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لان الفقه هو الفهم قوله عز وجل (وهو الذى أنزل من السماء ماء) يعنى المطر وقيل ان الله ينزل المطر من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض (فاخرجنا به) يعنى بالماء الذى أنزلناه من السماء (نبات كل شئ) يعنى كل شئ ينبت وينمو من جميع أصناف النبات وقيل معناه أخرجنا بالماء الذى أنزلناه من السماء غذاء كل شئ من الانعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بنى آدم وأقواتهم مما يتعذون به فينبتون عليه وينمون (فاخرجنا منه خضرا) يريد أخضر مثل عورو أعورو الاخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعنى نخرج من ذلك الاخضر سنابل فيها الحب تركب بعضها فوق بعض مثل سنبل القمح والشعير والارز والذرة وسائر الحبوب وفى تقديم الزرع على النخل دليل على الافضلية ولان حاجة الناس اليه أكثر لانه القوت المألوف (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعنى من ثمرها يقال أطلعت النخلة اذا أخرجت طلعها وطلعها كفراخها قبل أن ينشق عن الاغريض والاغريض يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيها العذق فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان دانية أى قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتصقة بالارض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هى بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولانها اسهل تناولا من البعيدة لان البعيدة تحتاج الى كلفة (وجنات من أعناب) يعنى وأخرجنا جنات من ذلك بساتين من أعناب (والزيتون والرمان) يعنى وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها) قال قتادة مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (غير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه في الورق والطعم واعلم ان الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وانما قدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم

الانس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق (وهو الذى أنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فاخرجنا به) بالماء (نبات كل شئ) نبت كل صنف من أصناف النامى أى السبب وهو الماء واحد والمسببات صنوف مختلفة (فاخرجنا منه) من النبات (خضرا) أى شيأ غضا أخضر يقال أخضر وخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا) وهو السنبل الذى تراكب حبه (ومن النخل من طلعها قنوان) هو رفع بالابتداء ومن النخل خبره ومن طلعها بدل منه كأنه قيل وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنو وهو العذق نظيره صنو وصنوان (دانية) من الجنى لانجنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها وفيه اكتفاء أى وغير دانية أطولها كقوله سرابيل تقيكم الحر (وجنات) بالنصب عطفا على نبات كل شئ أى وأخرجنا به جنات (من أعناب) أى مع النخل وكذا (والزيتون والرمان) وجنات بالرفع الاعشى أى وثم جنات من أعناب أى مع

النخل (مشتبها وغير متشابه) يقال اشتبه الشيئان وتشابها نحو استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا وتقديره والزيتون متشابها وغير متشابه والرمان كذلك يعنى بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم

على الفواكه وانما قدم النخلة على غيرها لان ثمرتها تجرى مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها من الاشجار وانما ذكر العنب عقب النخلة لانهما من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقيبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة فى الاكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضا لانه فاكهة ودواء ثم قال تعالى (انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه) يعنى ونضجه وادراكه والمعنى انظروا وانظروا استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون أن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى و يبعثهم وانما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال الى حال وهو ما يعلمونه قطعا و يشاهدونه من احياء الارض بعد موتها واخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وانه لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم و يبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الاشياء لانهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) قال الحسن معناه أطاعوا الجن فى عبادة الاوثان وهو اختيار الزجاج قال معناه انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله وقال الكلبى نزلت فى الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزى عن ابن السائب ونقله الرازى عن ابن عباس قال الامام فخر الدين وهذا مذهب المجوس وانما قال ابن عباس هذا لقول الزنادقة لان المجوس يلتبسون بالزنادقة لان الكتاب الذى زعم زردشت انه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب اليه زندى ثم عرب فقيل زنديق فاذا جمع قيل زنادقة ثم ان المجوس قالوا كل ما يكون فى هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعنى النور وجميع ما فى العالم من الشر فهو من الظلمة يعنى ابليس ثم اختلف المجوس فالاكثرون منهم على ان ابليس محدث ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة والاقلون منهم قالوا انه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على انه شريك الله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا فان قلت فعلى هذا القول انما أثبتوا لله شريكا واحدا وهو ابليس فكيف حكى الله انهم جعلوا لله شركاء قلت ان ابليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من انهم جعلوا لله شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاء لله واختلفوا فى معنى هذه الشركة فمن قال ان الآية فى كفار العرب قال انهم لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الاصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال انها فى المجوس قال انهم أثبتوا الهين اثنين النور والظلمة وقيل ان كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لانهم مستورون عن الاعين وقوله (وخلقهم) فى معنى الكناية قولان أحدهما انها تعود الى الجن فيكون المعنى والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق والقول الثانى ان الكناية تعود

الى

(انظروا الى ثمره اذا أثمر) اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفا لا ينتفع به (وينعه) ونضجه أى انظروا الى حال نضجه كيف يعود شيأ جامعا لمنافع نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال الى حال (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ثمره وكذا ما بعده حمزة وعلى جمع ثمار فهو جمع الجمع يقال ثمرة وثمر وثمار وثمر (وجعلوا لله شركاء الجن) ان جعلت لله شركاء مفعولى جعلوا كان الجن بدلا من شركاء والا كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على الاول وفائدة التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنيا أو غير ذلك والمعنى انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله (وخلقهم) أى وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكا لخالقه والجملة حال أو خالق الجماعلين لله شركاء فكيف يعبدون غيره

(وخرقوا له) أى اختلقوا يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى أو هو من خرق الثوب اذا شقه اى اشتقوا له (بنين) كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير (وبنات) كقول بعض العرب فى الملائكة وخرقوا بالتشديد للتكثير مدنى لقوله بنين وبنات (بغير علم) من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب ولكن رميا بقول عن جهالة وهو حال من فاعل خرقوا أى جاهلين بما قالوا (سبحانه وتعالى عما يصفون) من الشريك والولد (بديع السموات والارض) يقال بدع الشئ فهو بديع وهو من اضافة الصفة المشبهة الى فاعلها يعنى بديع سمواته وأرضه ٥٣ أو هو بمعنى المبدع أى مبدعها وهو خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ وخبره (أنى يكون له ولد) اوهو فاعل تعالى (ولم تكن له صاحبة) أى من أين يكون له ولد والولد لا يكون الا من صاحبة ولا صاحبة له ولان الولادة من صفات الاجسام ومخترع الاجسام لا يكون جسما حتى يكون له ولد (وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) أى مامن شئ الا وهو خالقه وعالمه ومن كان كذلك كان غنيا عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما تقدم من الصفات وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهى (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) وقوله (فاعبدوه) مسبب عن مضمون الجملة اى من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه (وهو على كل شئ وكيل) اى هو مع تلك الصفات مالك لكل شئ من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال

الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بان المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى اختلقوا واكذبوا يقال اختلق واخترق على فلان اذا كذب عليه وذلك أن النصارى وطائفة من اليهود ادعوا أن لله ابنا وكفار العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعا فيما ادعوه وقوله بغير علم كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لان الولد جزء من الاب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعى أن لله ولدا ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الاقاويل الفاسدة فقال تعالى (سبحانه وتعالى عما يصفون) فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعنى هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد أو يكون المعنى المتعالى عن اتخاذ الولد والشريك وقوله عما يصفون يعنى عما يصفونه به من الكذب قوله عز وجل (بديع السموات والارض) الابداع عبارة عن تكوين الشئ على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والارض على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) يعنى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) لان الولد لا يكون الا من صاحبة أنثى ولا ينبغى أن تكون لله صاحبة لانه ليس كمثله شئ (وخلق كل شئ) يعنى أن الصاحبة والولد فى جملة من خلق لانه خالق كل شئ وليس كمثله شئ فكيف يكون الولد لمن لا مثل له واذا انسد الولد والصاحبة اليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى (وهو بكل شئ عليم) يعنى انه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شئ وعلمه محيط بكل شئ قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعنى ذلكم الله الذى من صفته انه خالق السموات والارض وأبدعها على غير مثال سبق وانه بكل شئ عليم هو ربكم الذى يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الاصنام لانها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع (لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه) يعنى انه هو الذى يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه (وهو على كل شئ وكيل) يعنى انه هو تعالى على كل شئ خلق رقيب حفيظ يقوم بارزاق جميع خلقه قوله عز وجل (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) قال جمهور المفسرين (لا تدركه الابصار) لا تحيط به أو ابصار من سبق ذكرهم وتثبت المعتزلة بهذه الآية لا يستدل لان المنفى هو الادراك لا الرؤية والادراك هو الوقوف على جوانب المرئى وحدوده وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل ادراكه لا رؤيته فنزل الادراك من الرؤية منزلة الاحاطة من العلم ونفى الاحاطة التى تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضى نفى العلم به فكذا هذا على أن مورد الآية وهو التمدح يوجب ثبوت الرؤية اذ نفى ادراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه لان كل ما لا يرى لا يدرك وانما التمدح بنفى الادراك مع تحقق الرؤية اذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهى والمحدودية عن الذات فكانت الآية حجة لنا عليهم

معنى الادراك الاحاطة بكنه الشئ وحقيقته فالابصار ترى الباري جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله لا تدركه الابصار لا تحيط به الابصار وقال ابن عباس كلت ابصار الخلوقين عن الاحاطة به

*(فصل) *تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيته مستحيلة عقلا لان الله أخبر ان الابصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الابصار يعني لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وان رؤيته غير مستحيلة عقلا واحتجوا لصحة مذهبهم بظاهر أدلة الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الامة على اثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعي رحمه الله حجب قوما بالسخط فدل على أن قوما يرونه بالطاعة وهي الايمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وفسروا هذه الزيادة بالنظر الى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة وأما دلائل السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب اخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون في القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله أن ناسا سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك في خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله أعظم انما هو وخلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية فقد احتج أهل السنة أيضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وتقريره أنه تعالى مدح بقوله لا تدركه الابصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لان المعدوم لا يصح التمدح به فثبت أن قوله لا تدركه الابصار يفيد المدح وهذا يدل على انه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا أن الشئ اذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم اما اذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم انه قدر على حجب الابصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على انه

ولو امعنوا النظر فيها لاعتنوا التقصي عن عهدتها ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي انه معلوم موجود والا فكما يعلم موجودا بلا كيفية وجهة بخلاف كل موجود لم يجز ان يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كل مرئي وهذا الان الرؤية تحقق الشئ بالبصر كما هو وان كان المرئي في الجهة يرى فيها وان كان لا في الجهة يرى لا فيها

تعالى

تعالى جائز الرؤية واذا ثبت هذا وجب القطع بان المؤمنين يرونه يوم القيامة لان موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله أرني أنظر اليك وذلك يدل على جواز الرؤية اذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فان استقر مكانه فسوف تراني واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية فاعلم ان الادراك غير الرؤية لان الادراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته والرؤية المعاينة للشيء من غير احاطة وقد تكون الرؤية بغير ادراك كما قال تعالى في قصة موسى قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا ادراكهم اياهم فنفى موسى الادراك مع اثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير ادراك ولا احاطة لان الادراك هو الاحاطة بالمرئي وهو ما كان محدودا وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لانه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا انه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم ان الآية مخصوصة بالدنيا قال ابن عباس في معنى الآية لا تدركه الابصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الادراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله يومئذ ناضرة مقيد بيوم القيامة وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي البصر بصران بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله لا تدركه الابصار لا يدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علما وهذا وجه حسن أيضا والله أعلم وقوله تعالى وهو يدرك الأبصار يعني انه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه ابصار المبصرين وهو يدركها (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهري معنى اللطيف الرفيق بعباده وقيل هو الموصل الشيء اليك برفق ولين وقيل هو الذي يتسبب عباده ذنوبهم لئلا يحملوا واصل اللطف دقة النظر في الاشياء وقال أبو سليمان الخطابي اللطيف هو الذي يعامل عباده بلطفه بهم من حيث لا يعلمون ويوصل اليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقال الازهري اللطيف في اسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده وقيل هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره واحسانه عند المعصية وقيل هو الذي لطف عن أن تدركه الابصار وهو يدركها كما قوله تعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع البصيرة وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به والمعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل وقيل ان الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر الا انها لقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسبابا لحصول البصائر سميت بصائر (فمن أبصر) يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها الى الحق (فلنفسه) يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لانه يعود نفع ذلك عليه (ومن عمي) يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات

(وهو اللطيف) أي العالم بدقائق الامور ومشكلاتها (الخبير) العليم بظواهر الاشياء وخفياتها وهو من قبيل اللف والنشر (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصيرة نور القلب الذي به يستبصر القلب كما ان البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر (فمن أبصر) الحق وآمن (فلنفسه) أبصر وإياها نفع (ومن عمي) عنه وضل

ولم يستدل بها الى الطريق (فعليها) يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لان الله تعالى غني عن خلقه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم اعمالكم وأفعالكم انما أنا رسول من ربكم اليكم ابلغكم ما أرسلت به اليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شئ من أعمالكم وأحوالكم وقيل معناه لا أقدر أن ادفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالايمان أخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الامر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الاول ليست منسوخة والله أعلم قوله عز وجل (وكذلك نصرف الآيات) يعني وكذلك نبين الآيات ونفصلها في كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل (وليقولوا درست) يعني وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست وقيل معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك يقال درس الكتاب يدرسه دراسة اذا أكثر قراءته وذلله للحفظ قال ابن عباس وليقولوا يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعني تعلمت من يسار وخبر وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء معناه تعلمت من اليهود وقرئ دارست بالالف بمعنى قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل الكتاب وقرؤا عليك وقرئ درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه ان هذه الاخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت من قولهم درس الاثر اذا محي وذهب أثره (ولنبينه لقوم يعلمون) يعني القرآن وقيل معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد أولياءه الذين هداهم الى سبيل الرشاد وقيل معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال للنبي صلى الله عليه وسلم درست أو درست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو اسحق ان السبب الذي أداهم الى ان قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام سميها أهل اللغة لام الصيرورة يعني صار عاقبة أمرهم ان قالوا درست فصار ذلك سببا لشقاوتهم وفي هذا دليل على ان الله تعالى جعل تصريف الآيات سببا لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهداية هم قوله تعالى (اتبع ما أوحي اليك من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه اليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه الى عبادي ولا تلتفت الى قول من يقول دارست أو درست وفي قوله اتبع ما أوحي اليك من ربك تعزية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى (لا اله الا هو) انه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له واذا كان كذلك فانه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى (وأعرض عن المشركين) قيل المراد منه في الحال لا الدوام واذا كان كذلك لم يكن نسخا وقيل المراد ترك مقاتلتهم فعلى هذا

(فعليها) فعلى نفسه عمى وايا هاضر منذر والله هو الحفيظ عليكم الكاف في (وكذلك نصرف الآيات) في موضع نصب صفة المصدر المحذوف أي نصرف الآيات تصريفا مثل ما تلونا عليك (وليقولوا) جوابه محذوف أي وليقولوا (درست) نصرفها ومعنى درست قرأت كتب أهل الكتاب دارست مكي وأبو عمرو أي دارست أهل الكتاب درست شامي أي قدمت هذه الآية ومضت كما قالوا أساطير الاولين (ولنبينه) أي القرآن وان لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الآيات لانها في معنى القرآن قيل اللام الثانية حقيقة والاولى لام العاقبة والصيرورة أي لتصير عاقبة أمرهم الى ان يقولوا درست وهو كقولك فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم لم يلتقطوه للعداوة وانما التقطوه ليصير لهم قرة عين ولكن صارت عاقبة أمرهم الى العداوة فكذلك الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين فشبه به وقيل ليقولوا كما قيل لنبينه وعندنا ليس كذلك لما عرف (لقوم يعلمون) الحق من الباطل (اتبع ما أوحي اليك من ربك) ولا تتبع أهواءهم (لا اله الا هو) اعتراض أكد به ايجاب اتباع الوحي لا محل له من الاعراب أو حال من ربك مؤكدة (وأعرض عن المشركين) في الحال الى أن يرد الامر بالقتال

يكون الامر بالاعراض منسوخا بآية القتال قوله عزوجل (ولوشاء الله ما أشركوا) قال الزجاج معناه لوشاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) يعني وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبا ولا حافظا تحفظ عليهم أعمالهم وقال ابن عباس في رواية عطاء وما جعلناك عليهم حفيظا تمنعهم منا ومعناه انك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وانما بعثت مبلغا فلا تهتم بشركهم فان ذلك بمشيئة الله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) يعني وما أنت عليهم بقيم تقوم بارزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر فعلى التفسير الاول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس لا تكون منسوخة قوله عزوجل (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الآية قال ابن عباس لما نزلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله ان يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال قتادة كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لانهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عزوجل وقال السدي لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا الى الرجل فلنأمره ان ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحيي ان نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي ابنا خلف وعتبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والاسود ابن أبي البختري الى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فحب ان تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب ان هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريدون قالوا نريد ان تدعنا وآلهتنا وندعك والهك فقال له أبو طالب قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا فهل أنتم معطي كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج فقال ابو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي فقال قولوا لا اله الا الله فابوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فقال يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو اتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها ارادة أن يؤيسهم فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك أو لنشتمن من يأمرك فانزلت ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الاصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم يعني فيسبوا الله ظلما بغير علم لانهم جهلة بالله عزوجل قال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال ان يلعنوا الاصنام التي كانت تعبدها المشركون وقال ابن الانباري هذه الآية منسوخة انزلها الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقيل انما نهوا عن سب الاصنام وان كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من

(ولو شاء الله) اى ايمانهم فالمفعول محذوف (ما أشركوا) بين انهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الايمان لهداهم اليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فاشركوا بمشيئته (وما جعلناك عليهم حفيظا) مراعيا لاعمالهم مأخوذا باجرامهم (وما أنت عليهم بوكيل) بمسلط وكان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله بقوله (ولا تسبوا آلهة (الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله) منصوب على جواب النهى (عدوا) ظلما وعدوانا (بغير علم) على جهالة بالله وبما يجب ان يذكر به

المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الاصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لتسبوا آلهتهم فيسبوا ربكم فامسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وان كان نهيا عن سب الاصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لانه سبب لذلك وقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم) يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الاصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا الا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه وقوله تعالى (ثم الى ربهم مرجعهم) يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي (فينبئهم بما كانوا يعملون) يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك قوله عز وجل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال محمد بن كعب القرظي والكلبي قالت قريش يا محمد انك تخبرنا ان موسى كانت له عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شئ تحبون فقالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ما تقولون اتصدقوني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل فقال ما شئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوك لنعذبنهم وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فانزل الله عز وجل وأقسموا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما قدروا عليه من الايمان وأشدها قال الكلبي ومقاتل اذا حالف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) يعني كما جاءت من قبلهم من الامم (ليؤمنن بها) يعني ليصدقن بها (قل) يعني قل يا محمد (انما الآيات عند الله) يعني ان الله تعالى قادر على انزالها (وما يشعركم) يعني وما يدريكم ثم اختلف العلماء في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله (انها اذا جاءت لا يؤمنون) فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم انها بكسر الالف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعركم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون انها يعني الآيات انها اذا جاءت آمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون اذا جاءت آمنوا لان المؤمنين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يدعو الله ان يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله وما يشعركم ثم ابتدأ فقال تعالى انها اذا جاءت لا يؤمنون وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بانهم لا يؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون انها بفتح الالف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين

(كذلك) مثل ذلك التزيين (زينا لكل أمة) من أمم الكفار (عملهم) وهو كقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو حجة لنا في الاصلح (ثم الى ربهم مرجعهم) مصيرهم (فينبئهم بما كانوا يعملون) فيخبرهم بما عملوا ويجزيهم عليه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) جهد مصدر وقع موقع الحال أي جاهدين في الايمان باوكد الايمان (لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم (ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله) وهو قادر عليها لا عندي فكيف آتيكم بها (وما يشعركم) وما يدريكم (انها) ان الآية المقترحة (اذا جاءت لا يؤمنون) بها يعني أنا أعلم انها اذا جاءت لا يؤمنون بها وانتم لا تعلمون ذلك وكان المؤمنون يطمعون في ايمانهم اذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها فقال الله تعالى وما يدريكم انهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق على به من أنهم لا يؤمنون انها بالكسر مكي وبصري وأبو بكر على ان الكلام تم قبله أي وما يشعركم ما يكون منهم ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون البتة ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح كقوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون لا تؤمنون شامي وحمزة

لان المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها اذا رأوها الان المشركين كانوا حلفوا أنهم اذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات لذلك فقال الله تعالى وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات اذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم أنها اذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها اذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل أن بمعنى لعل في قوله أنها اذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبي بن كعب لعلها اذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيأ بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد

اعاذل ما يدريك أن منيتي * الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال ابن عباس يعني ونحول بينهم وبين الايمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه الى وجه آخر لان الله تعالى اذا صرف القلوب والابصار عن الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات وقيل أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الانبياء وقال ابن عباس المرة الاولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة الى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وان القلوب والابصار بيده وفي نصر يفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فمعنى قوله نقلب أفئدتهم نزيغها عن الايمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وان جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الايمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها وقوله تعالى (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق في علم الله انهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون الى الحق قوله عز وجل (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) قال ابن جريج نزلت في المستهزئين وذلك انهم أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقالوا يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وارنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت هذه الآية جوابا لهم والمعنى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة (وكلمهم الموتى) يعني كما سألوا (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبيلا قبيلا قبيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله (ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) يعني الا أن يشاء الله

(ونقلب أفئدتهم) عن قبول الحق (وأبصارهم) عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها فلا يؤمنون بها قيل هو عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم انهم لا يؤمنون وما يشعركم انا نقلب أفئدتهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق (كما لم يؤمنوا به أول مرة) كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) قيل وما يشعركم انا نذرهم في طغيانهم يعمهون يتحيرون (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) كما قالوا لولا انزل علينا الملائكة (وكلمهم الموتى) كما قالوا فأتوا بآبائنا (وحشرنا عليهم) جمعنا (كل شيء قبلا) كفلاء بصحة ما بشرنا به وانذرنا جمع قبيل وهو الكفيل قبلا مدني وشامي أي عيانا وكلاهما نصب على الحال (ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) ايمانهم فيؤمنوا وهذا جواب لقول المؤمنين لعلهم يؤمنون بنزول الآية

الايمان منهم وفيه دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله تعالى حتى الايمان والكفر وموضع المعجزة ان الاشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فاذا أنطق الله الكل حتى يشهد وله بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الاعجاز وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة والمعنى وحشرنا عليهم كل شئ مواجهة ومعاينة ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله أخبر الله أن الايمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا لم يؤمنوا وقال ابن عباس ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء الا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الايمان وصحح الطبري قول ابن عباس قال لان الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الايمان قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الايمان اليهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا كفروا وليس الامر كذلك بل الايمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة ان الاشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم ان الله أراد الايمان من جميع الكفار قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) قيل هو منسوق على قوله تعالى وكذلك زينا لكل أمة عملهم أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا وقيل معناه كما جعلنا لمن قبلك من الانبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدوا لعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء (شياطين الانس والجن) اختلف العلماء في معنى شياطين الانس والجن على قولين أحدهما أن المراد شياطين من الانس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والانس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء وهو قول مجاهد وقتادة قالوا وشياطين الانس أشد تمردا من شياطين الجن لان شيطان الجن اذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على اغوائه بشيطان الانس ليفتنه ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شيطان الجن والانس قلت يا رسول الله وهل للانسان من شيطان قال نعم هم شر من شياطين الجن ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري وقال مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد علي من شيطان الجن وذلك أني اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الانس يجيئني فيجرني الى المعاصي القول الثاني أن الجميع من ولد ابليس وأضيف الشياطين الى الانس على معنى انهم يغوونهم وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي ورواية عن ابن عباس قالوا والمراد بشياطين الانس التي مع الانس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن ابليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم الى الجن وفريقا منهم الى الانس فالفريقان شياطين الجن والانس بمعنى انهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولاوليائه من المؤمنين

(ولكن أكثرهم يجهلون) ان هؤلاء لا يؤمنون اذا جاءتهم الآية المقترحة (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) وكما جعلنا لك أعداء من المشركين جعلنا لمن تقدمك من الانبياء اعداء لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والاجر وانتصب (شياطين الانس والجن) على البدل من عدوا أو على انه من المفعول الاول وعدوا مفعول ثان

والصالحين

والصالحين ومن ذهب الى هذا القول قال يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي اضافة الشياطين الى الانس والجن والاضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للانس والجن وهم أولاد ابليس وقوله تعالى (يوحي بعضهم الى بعض) يعني يلقي ويسر بعضهم الى بعض ويناجي بعضهم بعضا وهو الوسوسة التي يلقيها الى من يريد اغواءه فعلى القول الاول ان شياطين الانس والجن يسر بعضهم الى بعض ما يقتنون به المؤمنين والصالحين وعلى القول الثاني ان أولاد ابليس يلقي بعضهم بعضا في كل حين فيقول شيطان الانس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فاضل أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الانس كذلك فذلك وحي بعضهم الى بعض وقوله (زخرف القول) يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شئ حسن مموه فهو زخرف (غرورا) يعني ان الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك ان الشياطين يزينون الاعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غرورا (ولو شاء ربك ما فعلوه) يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم والمعنى ان الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من القاء الوسوسة الى الانس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم انه الاجزل له في الثواب اذا صبر على المحنة (فذرهم وما يفترون) يعني فخلهم يا محمد وما زين لهم ابليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فاني من ورائهم قوله تعالى (ولتصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) قال ابن عباس ولتميل اليه وأصل الصغو في اللغة الميل يقال أصغى الى كذا مال اليه ويقال صغت اصغو وصغيت أصغى لغتان قال ابن الانباري اللام في ولتصغى متعلقة بفعل مضمر معناه وفعلنا بهم ذلك لكي تصغى الى الباطل افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحي تقديره يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في اليه يرجع الى زخرف القول والمعنى ان قلوب الكفار تميل الى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به وهو قوله (وليرضوه) يعني يرضون ذلك القول المزخرف الباطل (وليقترفوا ما هم مقترفون) يعني وليكتسبوا من الاعمال الخبيثة ما هم مكتسبون قوله عز وجل (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكما فاصل بيني وبينكم وذلك انهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما فامره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة غير أن بعض أهل المعاني قال الحكم أكمل من الحاكم لان الحاكم من شأنه ان يحكم والحكم أهل ان يتحاكم اليه وهو الذي لا يحكم الا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم الا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا) يعني مبينا فيه أمره ونهيه ووعده ووعيده وفيه الحكم بيني وبينكم (والذين آتيناهم الكتاب) يعني علماء اليهود والنصارى (يعلمون انه منزل من ربك بالحق) يعني

الى بعض وعن مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد على من شيطان الجن لاني اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عني وشيطان الانس يجيئني فيجرني الى المعاصي عيانا وقال عليه السلام قرناء السوء شر من شياطين الجن (زخرف القول) ما زينوه من القول والوسوسة والاغراء على المعاصي (غرورا) خدعا وأخذا على غرة وهو مفعول له (ولو شاء ربك ما فعلوه) أي الايحاء يعني ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة ولكنه امتحن بما يعلم انه أجزل في الثواب (فذرهم وما يفترون) عليك وعلى الله فان الله يحرزهم وينصرك ويحرزهم (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) ولتميل الى زخرف القول قلوب الكفار وهي معطوفة على غرورا أي ليغروه ولتصغى اليه (وليرضوه) لانفسهم (وليقترفوا ما هم مقترفون) من الآثام (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد أفغير الله اطلب حاكما يحكم بيني وبينكم ويفصل الحق منا من المبطل (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب) المعجز (مفصلا) حال من الكتاب أي مبينا فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ثم عضد الدلالة على ان القرآن حق بعلم أهل الكتاب انه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له بقوله (والذين آتيناهم الكتاب) أي عبد الله بن سلام وأصحابه (يعلمون أنه منزل) شامي وحفص (من ربك بالحق)

يشهدون ان هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون ان هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه (فلا تكونن من الممترين) يعني فلا تكونن يا محمد من الشاكين ان علماء أهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك انه حق وصدق فهو من باب التهييج لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم الا ان المراد به غيره والمعنى فلا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن في شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذي لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى قوله تعالى (وتمت كلمات ربك) وقرئ كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة اذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته وكذلك القرآن كلمة واحدة لانه شيء واحد في الاعجاز النظم وكونه حقا وصدقا ومعجزا ومن قرأ بالجمع قال لان الله قال في سياق الآية لا مبدل لكلماته فوجب الجمع في اللفظ الاول اتباعا للثاني (صدقا وعدلا) يعني صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم وقيل ان القرآن مشتمل على الاخبار والاحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والامم الخالية وعما هو كائن الى قيام الساعة وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الامر والنهي والحلال والحرام وسائر الاحكام (لا مبدل لكلماته) يعني لا مغير لقضائه ولا راد لحكمه ولا خلف لمواعيده وقيل لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمات ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل قال الله تعالى لا مبدل لكلماته لانها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية الى يوم القيامة وفي قوله لا مبدل لكلماته دليل على ان السعيد لا ينقلب شقيا ولا الشقي ينقلب سعيدا فالسعيد من سعد في الازل والشقي من شقي في الازل وأورد على هذا ان الكافر يكون شقيا بكفره فيسلم فينقلب سعيدا باسلامه وأجيب عنه بان الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيدا في الازل ومن ختم له بالشقاوة كان شقيا في الازل والله أعلم وقوله تعالى (وهو السميع) يعني لما يقوله العباد (العليم) يعني بأحوالهم قوله عز وجل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) قال المفسرون ان المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أكل الميتة وذلك انهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وان تطع أكثر من في الارض في أكل الميتة وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الارض يضلوك عن سبيل الله يعني يصدوك عن دين الله الذي شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لا تطعهم في معتقداتهم الباطلة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعني يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى (ان يتبعون الا الظن) يعني ان هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون في دينهم الذي هم عليه الا الظن وليسوا على بصيرة وحق في دينهم وليسوا بقاطعين انهم على حق لانهم

فلا تكونن من الممترين) الشاكين فيه أيها السامع أو فلا تكونن من الممترين في ان أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يربك جحودا كثرهم وكفرهم به (وتمت كلمات ربك) أي ما تكلم به كلمات ربك مجازي وشامي وأبو عمرو أي تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد (صدقا) في وعده ووعيده (وعدلا) في أمره ونهيه وانتصبا على التمييز أو على الحال (لا مبدل لكلماته) لا أحد يبدل شيأ من ذلك (وهو السميع) لاقوالهم أو أقوالهم (العليم) بأضمارهم أو أصواتهم (وان تطع أكثر من في الارض) أي الكفار لانهم الاكثرون (يضلوك عن سبيل الله) دينه (ان يتبعون الا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم

اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل (وان هم الا يخرصون) يعنى يكذبون وأصل لخرص الحرز والتخمين ومنه خرص النخلة اذا حزر كمية ثمرتها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل ان كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لان قائله لم يقله عن علم ويقين (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد ان ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أى الناس يضل عن سبيله (وهو أعلم بالمهتدين) يعنى وهو أعلم أيضا بمن كان على هدى واستقامة وسداد لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه فاخبر تعالى أنه أعلم بالفريقين الضال والمهتدى وانه يجازى كلا بما يستحق قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح (ان كنتم بآياته مؤمنين) وقيل كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويجعلون الميتة فقيل أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله فعلى هذا القول تكون الآية خطابا للمشركين وعلى القول الاول تكون الآية خطابا للمسلمين وهو الاصح لقوله فى آخر الآية ان كنتم بآياته مؤمنين (ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعنى وأى شئ لكم فى ألا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد فى اباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) يعنى وقد بين لكم الحلال من الحرام فمما تطعمون وقال جمهور المفسرين المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات المذكورة فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وأورد الامام فخر الدين الرازى ههنا اشكالا فقال فى سورة الانعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة وقوله وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدما على هذا المجمل والمدنى متأخر عن المكى فيمتنع كونه متقدما ثم قال بل الاولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير وهذه الآية وان كانت مذكورة بعد هذه الآية فيقال الا أن هذا القدر من المتأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو ان الله لما علم ان سورة المائدة متقدمة على سورة الانعام فى الترتيب لا فى النزول حسن عود الضمير فى قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم الى ما هو متقدم فى الترتيب وهو قوله حرمت عليكم الميتة الآية والله أعلم بمراده وقوله تعالى (الا ما اضطررتم اليه) يعنى الا أن تدعوكم الضرورة الى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار (وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم) يعنى وان كثيرا من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم أتأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله وانما قالوا هذه المقالة جهلا منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك وقيل المراد به عمرو بن لحى من دونه من المشركين لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة

أعلم بالمهتدين) أى هو يعلم الكفار والمؤمنين من رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام والخبر يضل وموضع الجملة نصب بيعلم المقدر لا بأعلم لان أفعل لا يعمل فى الاسم الظاهر النصب ويعمل الجر وقيل تقديره أعلم بمن يضل بدليل ظهور الباء بعده فى بالمهتدين (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) هو مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال وذلك انهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين ان كنتم متحققين بالايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه خاصة أى على ذبحه دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه (ومالكم ألا تأكلوا) ما استفهام فى موضع رفع بالابتداء ولكم الخبر أى وأى غرض لكم فى أن لا تأكلوا (مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم) بين لكم (ما حرم عليكم) مما لم يحرم بقوله حرمت عليكم الميتة فصل وحرم كوفى غير حفص وبفتحهما مدنى وحفص وبضمهما غيرهم (الا ما اضطررتم اليه) مما حرم عليكم فانه حلال لكم فى حال الضرورة أى شدة المجاعة الى أكله (وان كثيرا ليضلون) ليضلون كوفى (باهوائهم بغير علم) أى يضلون فيحرمون ويحللون باهوائهم وشهواتهم من غير تعلق بشريعة

وغيرهم من ابراهيم عليه السلام (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) يعني ان ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فاحل ما حرم الله وحرم ما أحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم قوله عز وجل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) يعني وذروا أيها الناس ما يوجب الاثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها قال الربيع بن أنس نهى الله عن ظاهر الاثم وباطنه أن يعمل به سرا وعلانية وقال سعيد بن جبير في هذه الآية الظاهر منه قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ونكاح المحارم من الامهات والبنات والاخوات والباطن الزنا وقال السدي أما الظاهر فالزواني في الحوانيت ومن أصحاب الرايات واما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا وقال الضحاك كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ان ذلك حلال ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية وقال ابن زيد ظاهر الاثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا وقال الكلبي ظاهر الاثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك الى أن جاء الاسلام فنهى الله عن ذلك كله وقيل ان هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الاصح لان تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز وعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها قال ابن الانباري وذروا الاثم من جميع جهاته وقيل المراد بظاهر الاثم الاقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا لخوف الناس وقيل المراد بظاهر الاثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب وارادة السوء للمسلمين ونحو ذلك وقوله تعالى (ان الذين يكسبون الاثم) يعني ان الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها (سيجزون) يعني في الآخرة (بما كانوا يقترفون) يعني بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب انه مخصوص بمن لم يتب لان المسلمين أجمعوا على انه اذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة في ذلك فقالوا المذنب اذا لم يتب فهو في خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله وكرمه قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المخنقة وغيرها وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الاصنام انتهى

(فصل) اختلف العلماء في ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء تركها عامدا أو ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبي ونقله الامام فخر الدين الرازي عن مالك ونقل عن عطاء أنه قال كل مما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام واحتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية وقال الثوري وأبو حنيفة من ترك التسمية عامدا لا تحل وان تركها ناسيا تحل وقال الشافعي تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا ونقله البغوي عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزي عن احمد روايتين فيما اذا ترك التسمية عامدا وان تركها ناسيا حلت فمن أباح أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها

(ان ربك هو أعلم بالمعتدين) بالمجاوزين من الحق الى الباطل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) علانيته وسره أو الزنا في الحوانيت والصديقة في السر أو الترك الجلي والخفي (ان الذين يكسبون الاثم سيجزون) يوم القيامة (بما كانوا يقترفون) يكتسبون في الدنيا (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) عند الذبح

قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الاصنام بدليل أنه قال تعالى في سياق الآية (وانه لفسق) واجمع العلماء على ان آكل ذبيحة المسلم التي ترك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا أيضا في اباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قلت يارسول الله ان هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فما ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا قالوا لو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك في وجودها مانعا من أكلها كالشك في أصل الذبح وقول الشافعي في أول الآية وان كان عاما بحسب الصيغة الا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهي قوله وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون علمنا ان المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله في الذبح كما قال في آخر السورة قل لا أجد فيما أوحي الى محرما على طاعم يطعمه الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار هذا الفسق الذي أهل لغير الله به مفسرا لقوله وانه لفسق واذا كان كذلك كان قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق مخصوصا بما أهل لغير الله به والله أعلم وقوله تعالى (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم) يعني ان الشياطين يوسوسون الى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك ان المشركين قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا فتزعم ان ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية في تحريم الميتة كتبت فارس وهم المجوس الى مشركي قريش أن خاصموا محمدا وقولوا له ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبحه الله فهو حرام فانزل الله وان الشياطين يعني مردة الانس وهم المجوس ليوحون الى أوليائهم يعني مشركي قريش وكان بين فارس والعرب موالاة ومكاتبة على الروم فعلى هذا يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية (وان أطعتموهم) يعني في أكل الميتة وما حرم الله عليكم (انكم لمشركون) يعني انكم اذا مثلهم في الشرك قال الزجاج فيه دليل على ان كل من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك وانما سمي مشركا لانه أثبت حاكما غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه) يعني أو من كان ميتا بالكفر فأحييناه بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل الايمان حياة لان الحي صاحب بصر يهتدي به الى رشده ولما كان الايمان يهدي الى الفوز العظيم والحياة الابدية شبهه بالحياة (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) يعني وجعلنا له نورا يستضيء به في الناس ويهتدي به الى قصد السبيل قيل النور هو الاسلام لانه يخلص من ظلمات الكفر لقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وقال قتادة هو كتاب الله القرآن لانه بينة من الله مع المؤمن يعمل به (كمن مثله في الظلمات) يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة (ليس بخارج منها)

لا تأكلون مما قتله الله وتأكلون مما تذبحون بأيديكم والآية تحرم متروك التسمية وخصت حالة النسيان بالحديث أو بجعل الناسي ذاكرا تقديرا (وان أطعتموهم) في استحلال ما حرمه الله (انكم لمشركون) لان من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به ومن حق المتدين ان لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لما في الآية من التشديد العظيم ومن أول الآية بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه لقوله أو فسقا أهل لغير الله به وقال ان الواو في وانه لفسق للحال لان عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن فيكون التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه فسقا والفسق مجمل فبين بقوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه مهلا لغير الله به فيكون مساويا حلالا بالعمومات المحللة منها قوله قل لا أجد الآية فقد عدل عن ظاهر اللفظ (أو من كان ميتا فأحييناه) أي كافرا فهديناه لان الايمان حياة القلوب ميتا مدنى (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) مستضيئا به والمراد به اليقين (كمن مثله) أي صفته (في الظلمات) أي خابطا فيها (ليس بخارج منها)

٩ ن في لا يفارقها ولا يتخلص منها وهو حال قيل المراد بهما حمزة وأبو جهل والاصح ان الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله فبين ان مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس نورا الحكمة والايمان ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها

يعنى من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين ان المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدى به فى مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو فى ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على الدوام ثم اختلف المفسرون فى هذين المثالين هل هما مخصوصان بانسانين معينين أو هما عامان فى كل مؤمن وكافر فذكروا فى ذلك قولين أحدهما ان الآية فى رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس فى قوله وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس يريد حمزة ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم لكن مثله فى الظلمات يريد بذلك أبا جهل ابن هشام وذلك ان أبا جهل رمى النبى صلى الله عليه وسلم بفرث فاخبر حمزة بما فعل أبو جهل وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس وجعل أبو جهل يتضرع الى حمزة ويقول يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم عقولا تعبدون الحجارة من دون الله اشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فاسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل وقال عكرمة والكلبى نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل وقال مقاتل نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل وذلك ان أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا نحن وهم كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت هذه الآية والقول الثانى وهو قول الحسن فى آخرين ان هذه الآية عامة فى حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لان المعنى اذا كان حاصلا فى الكل دخل فيه كل أحد وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينا لهم أعمالهم ولان حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعى وحصوله لا يكون الا بخلق الله تعالى فدل ذلك على ان المزين هو الله تعالى وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم وقوله تعالى (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) يعنى وكما جعلنا فى مكة أكابر وعظماء جعلنا فى كل قرية أكابر وعظماء وقيل هو معطوف على ما قبله ومعناه كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية أكابر جمع الاكبر ولا يجوز ان يكون مضافا لانه لا يتم المعنى بل فى الآية تقديم وتاخير تقديره وكذلك جعلنا فى كل قرية مجرميها أكابر وانما جعل المجرمين أكابرلانهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم وانما حصل ذلك لاجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل فى كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة المكر الخديعة والحيلة والغدر والفجور زاد بعضهم والغيبة والنميمة والايمان الكاذبة وترويج الباطل قال ابن عباس معناه ليقولوا فيها الكذب وقال مجاهد جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم

(كذلك) أى كما زين للمؤمن ايمانه (زين للكافرين) بتزيين الله تعالى كقوله زينا لهم أعمالهم (ما كانوا يعملون) اى اعمالهم (وكذلك) أى وكما جعلنا فى مكة صناديدها ليمكروا فيها (جعلنا) صيرنا (فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها) ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصى واللام على ظاهرها عند اهل السنة وليست بلام العاقبة وخص الاكابر وهم الرؤساء لان ما فيهم من الرياسة والسعة ادعى لهم الى المكر والكفر من غيرهم دليله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ثم صلى الله على رسوله عليه السلام ودعدل النصرة بقوله

(وما

(ومايمكرون الا بانفسهم) لان مكرهم يحيق بهم (ومايشعرون) انه يحيق بهم أكابر مفعول أول والثانى فى كل قرية ومجرميها بدل من أكابر أو الاول مجرميها والثانى أكابر والتقدير مجرميها أكابر ولما قال أبو جهل زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لانرضى به الا أن يأتينا وحى كما يأتيه نزل (واذا جاءتهم) أى الاكابر (آية) معجزة أو آية من القرآن تأمرهم بالايمان (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى نعطى من الآيات مثل ما أعطى الانبياء فأعلم الله تعالى أنه أعلم بمن يصلح للنبوة فقال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) مكى وحفص رسالاته غيرهما حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته (سيصيب الذين أجرموا) من أكابرها (صغار) ذل وهوان (عند الله) فى القيامة (وعذاب شديد) فى الدارين من القتل والاسر وعذاب النار (بما كانوا يمكرون) فى الدنيا (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) يوسعه وينور قلبه قال عليه السلام اذا دخل النور فى القلب انشرح وانفتح قيل وما علامة ذلك قال الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت

(ومايمكرون الا بانفسهم) يعنى مايحيق هذا المكر الا بهم لان وبال مكرهم يعود عليهم (ومايشعرون) يعنى ان وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم قوله عز وجل (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) يعنى النبوة وذلك ان الوليد ابن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لانى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل وذلك انه قال زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا الا أن يأتينا وحى كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية واذا جاءتهم آية يعنى حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا يعنى الوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التى قبلها وهى قوله وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا ان نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله يعنى النبوة وانما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسدا منهم للنبى صلى الله عليه وسلم وفى قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله قولان أحدهما وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبى صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين القول الثانى وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس ان المعنى واذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن لك يعنى لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله يعنى حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل يصدقك بانك رسول الله فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وانما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من الله تعالى وعلى القول الاول انهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) يعنى أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس باهل لها وأنتم لستم لها باهل وان النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقال أهل المعانى الابلغ فى تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين فى قومهم لان الطعن كان يتوجه عليهم فيقال انما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لاجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها لليتيم أبى طالب دون أبى جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار) أى ذلة وهوان وقيل الصغار هو الذل الذى تصغر الى المرء نفسه فيه (عند الله) يعنى هذا من عند الله وقيل ان هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول انما يحصل لهم الصغار فى الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم فى الدنيا (وعذاب شديد) يعنى فى الآخرة (بما كانوا يمكرون) يعنى انما حصل لهم هذا الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) أى الايمان يقال شرح الله صدره فانشرح أى وسعه لقبول الايمان والخير فتوسع وذلك أن

الانسان اذا اعتقد فى عمل من الاعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه اليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر وقيل الشرح الفتح والبيان يقال شرح فلان أمره اذا أوضحه وأظهره وشرح المسئلة اذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها فقد ثبت ان للشرح معنيين أحدهما الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدرا أى فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا وقوله أفمن شرح الله صدره للاسلام يعنى فتحه ووسعه لقبوله والثانى أن الشرح نور يقذفه الله فى قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق فيقبله ويشرح صدره له ومعنى الآية فمن يرد الله أن يهديه للايمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به واحسانه اليه فعند ذلك يستنير الاسلام فى قلبه فيضىء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت وأسنده الطبرى عن ابن مسعود قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام قال اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها قال الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت وقوله تعالى (ومن يرد) أى الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) يعنى يجعل صدره ضيقا حتى لا يدخله الايمان وقال الكلبى ليس للخير فيه منفذ وقال ابن عباس اذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه واذا سمع ذكر الاصنام ارتاح الى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده أعرابى من كنانة فقال له ما الحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الاشجار التى لا تصل اليها راعية ولا وحشية ولا شىء فقال عمر كذلك قلب المنافق لا يصل اليه شىء من الخير وأصل الحرج الضيق وهو ماخوذ من الحرجة وهى الاشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل اليها شىء وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال هل هنا أحد من بنى بكر قال رجل نعم قال ما الحرجة فيكم قال الوادى الكثير الشجر المستمسك الذى لا طريق فيه فقال ابن عباس كذلك قلب الكافر قال أهل المعانى لما كان القلب محلا للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح نور يقبل ما أودعه من الايمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذى هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على ان الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعى علما ولا استدلالا على توحيد الله تعالى والايمان به وفى الآية دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر وقوله تعالى (كأنما يصعد فى السماء) يعنى ان الكافر اذا دعى الى الاسلام كانه قد كلف أن يصعد الى السماء ولا يقدر على ذلك وقيل يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد الى السماء نبوا عن الاسلام وتكبرا وقيل ضاق عليه المذهب

(ومن يرد) أى الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا) ضيقا مكى (حرجا) صفة لضيقا مدنى وأبو بكر بالكسر فى الضيق حرجا غيرهما وصفا بالمصدر (كأنما يصعد فى السماء) كأنه كلف ان يصعد الى السماء اذا دعى الى الاسلام من ضيق صدره عنه اذا ضاقت عليه الارض فطلب مصعدا فى السماء أو كعاذب الرأى طائر القلب فى الهواء يصعد مكى يصاعد أبو بكر وأصله يتصاعد الباقون يصعد وأصله يتصعد

فلم يجد الا أن يصعد الى السماء وليس يقدر على ذلك وقيل هو من المشقة وصعوبة الامر فيكون المعنى ان الكافر اذا دعى الى الاسلام فانه يتكلف مشقة وصعوبة فى ذلك كمن يتكلف الصعود الى السماء وليس يقدر على ذلك (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) الكاف فى كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان الاول معناه ان جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم الوجه الثانى قال الزجاج أى مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس قال ابن عباس الرجس الشيطان أى يسلطه الله عليهم وقال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وفى رواية عن ابن عباس ان الرجس العذاب وقال الزجاج الرجس فى الدنيا اللعنة وفى الآخرة العذاب قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) يعنى وهذا الذى بينا لك يا محمد فى هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعنى دينه الذى شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه قال ابن عباس فى قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعنى الاسلام وقال ابن مسعود يعنى القرآن لانه يؤدى من تبعه وعمل به الى طريق الاستقامة والسداد (قد فصلنا الآيات) يعنى قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والامر والنهى وغير ذلك من أحكام القرآن (لقوم يذكرون) يعنى لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر قال عطاء يعنى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان (لهم دار السلام عند ربهم) يعنى الجنة فى قول جميع المفسرين قال الحسن والسدى السلام هو الله تعالى وداره الجنة ومعنى السلام فى اسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لانه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول اضيفت الدار الى السلام الذى هو اسم الله تعالى اضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبى صلى الله عليه وسلم عبد الله فى قوله وانه لما قام عبد الله يدعوه واحتج لصحة هذا بان فى اضافة الدار الى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الاضافة مبالغة فى تعظيم أمرها وقيل ان السلام صفة للدار لانها دار السلامة الدائمة التى لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كانه قال لهم دار السلامة التى لا يلقون فيها شيأ يكرهونه وقيل سميت بذلك لان جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى فى وصفها ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تحيتهم فيها سلام وقال سلام قولا من رب رحيم لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما وقوله عند ربهم يعنى ان الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم اليها (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعنى انه تعالى يتولى أمرهم وايصال المنافع اليهم ويدفع المضار عنهم وقيل معناه انه يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق والهداية وفى الآخرة بالجزاء والجنة وقيل الولى هو الناصر والقريب يعنى انه تعالى ينصرهم فى الدنيا ويقربهم فى الآخرة بسبب اعمالهم الصالحة التى كانوا يتقربون بها اليه فى الدنيا قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) أى اذكر يا محمد يوم نحشر

(كذلك يجعل الله الرجس) العذاب فى الآخرة واللعنة فى الدنيا (على الذين لا يؤمنون) والآية حجة لنا على المعتزلة فى ارادة المعاصى (وهذا صراط ربك) أى طريقه الذى اقتضته الحكمة وسنته فى شرح صدر من أراد هدايته وجعله ضيقا لمن أراد ضلاله (مستقيما) عادلا مطردا أو هو حال مؤكدة (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) يتعظون (لهم) أى لقوم يذكرون (دار السلام) دار الله يعنى الجنة أضافها الى نفسه تعظيما لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر أو السلام التحية سميت دار السلام لقوله تحيتهم فيها سلام الا قيلا سلاما سلاما (عند ربهم) فى ضمانه (وهو وليهم) محبهم أو ناصرهم على أعدائهم (بما كانوا يعملون) باعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون أو هو ولينا فى الدنيا بتوفيق الاعمال وفى العقبى بتحقيق الآمال (ويوم نحشرهم جميعا) وبالياء حفص أى واذكر يوم نحشرهم أو ويوم نحشرهم قلنا

المعادلين بالله الاصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة (يامعشر الجن) فيه حذف تقديره يقول لهم يامعشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) يعني من اضلالهم واغوائهم وقال ابن عباس معناه أضللتم كثيرا من الانس وهذا التفسير لابد له من تأويل آخر لان الجن لا يقدرون على اضلال الانس واغوائهم بانفسهم لانه لا يقدر على الاجبار أحد الا الله لانه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعني قد استكثرتم من الدعاء الى الاضلال مع مصادفة القبول من الانس (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني استمتع الجن بالانس والانس بالجن فاما استمتاع الانس بالجن فقال الكلبي كان الرجل في الجاهلية اذا سافر فنزل بارض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم، وأما استمتاع الجن بالانس فهو أنهم قالوا سدنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا في قومهم وعظما في أنفسهم وقيل استمتاع الانس بالجن هو ما كانوا يلقون اليهم من الاراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الامور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالانس طاعة الانس للجن فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي وقيل استمتاع الانس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالانس هي طاعة الانس للجن فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للانس والانس كالاتباع وقيل ان قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الانس خاصة لان استمتاع الجن بالانس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر أما استمتاع الانس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعني أن ذلك الاستمتاع كان الى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن والسدي الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة (قال) يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) يعني ان النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم اليها (خالدين فيها) يعني مقيمين في نار جهنم أبدا (الا ماشاء الله) اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل معناه خالدين فيها الا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب الى حين دخولهم الى النار فان هذا الوقت ليسوا بخالدين فيه في النار وقيل المراد من هذا الاستثناء هو أوقات نقلتهم من عذاب الى عذاب آخر وذلك انهم يستغيثون من النار فينقلون الى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون الى النار فكانت مدة نقلتهم هي المراد من هذا الاستثناء ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس انه قال ان هذا الاستثناء يرجع الى قوم سبق في علم الله انهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما في قوله الا ما شاء الله بمعنى من يعني الا من شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس انه كان يتأول هذا الاستثناء بان الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم الى مشيئته وقال في هذه الآية انه لا ينبغي لاحد أن يحكم

(يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس) أضللتم منهم كثيرا وجعلتموهم اتباعكم كما تقول استكثر الامير من الجنود (وقال أولياؤهم من الانس) الذين أطاعوهم واستمعوا الى وسوستهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أي انتفع الانس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل اليها وانتفع الجن بالانس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في اغوائهم (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعنون يوم البعث وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث وتحسر على حالهم (قال النار مثواكم) منزلكم (خالدين فيها) حال والعامل معنى الاضافة كقوله تعالى ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فمصبحين حال من هؤلاء والعامل في الحال معنى الاضافة اذ معناه المجازية والمضامة والمشار اليه ليس بعامل لان المكان لا يعمل في شئ (الا ماشاء الله) أي يخلدون في هذا النار الابد كله الا ماشاء الله الا الاوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير الى عذاب الزمهرير

على الله فى خلقه ان لا يزلهم جنة ولا نارا قال الزجاج والقول الاول أولى لان معنى الاستثناء انما هو من يوم القيامة لان قوله ويوم نحشرهم جميعا هو يوم القيامة ثم قال خالدين فيها منذ يبعثون الا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم (ان ربك حكيم) يعنى فى تدبير خلقه وتصريفه اياهم فى مشيئته من حال الى حال وغير ذلك من أفعاله وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصى وفى سائر وجوه المجازاة (عليم) يعنى بعواقب أمور خلقه وما هم اليه صائرون كانه قال انما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود فى النار لعلمى بانهم يستحقون ذلك قوله عز وجل (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) الكاف فى وكذلك كاف التشبيه تقتضى شيأ تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والانس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولى بعض الظالمين بعضا أى نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء فى الاثر من أعان ظالما سلطه الله عليه وقال قتادة نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولى المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولى الكافر حيث كان وأين كان وفى رواية أخرى عن قتادة قال يتبع بعضهم بعضا فى النار من الموالاة وقيل معناه نولى ظلمة الانس ظلمة الجن وظلمة الجن ظلمة الانس يعنى نكل بعضهم الى بعض وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية هو ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى عليهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول ان الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالما مثلهم فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم وقوله تعالى (بما كانوا يكسبون) يعنى يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التى اكتسبوها قوله تعالى (يا معشر الجن والانس) المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر (ألم يأتكم رسل منكم) اختلف العلماء فى معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء الى أنه لم يكن من الجن رسول وانما كانت الرسل من الانس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعنى من أحدكم وهم الانس فحذف المضاف فهو كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وانما جاز ذلك لان ذكرهما قد جمع فى قوله مرج البحرين وهو جائز فى كل ما اتفق فى أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الانس جاز مخاطبتهما بما ينصرف الى أحد الفريقين وهم الانس وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم قال الواحدى وعليه دل كلام ابن عباس لانه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم الى انه أرسل الى الجن رسلا منهم كما أرسل الى الانس رسلا منهم قال الضحاك من الجن رسل كما من الانس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لانه تعالى قال ألم يأتكم رسل منكم فخاطب الفريقين جميعا وأجيب عن ذلك بان الله تعالى قال يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وهذا يقتضى كون الرسل بعضا من ابعاض هذا المجموع واذا كان الرسل من الانس كان الرسل بعضا من ابعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الانس

(ان ربك حكيم) فيما يفعل باوليائه وأعدائه (عليم) باعمالهم فيجزى كلا على وفق عمله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) نتبع بعضهم بعضا فى النار أو نسلط بعضهم على بعض أو نجعل بعضهم أولياء بعض (بما كانوا يكسبون) بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصى ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) عن الضحاك بعث الى الجن رسلا منهم كما بعث الى الانس رسلا منهم لانهم به آنس وعليه ظاهر النص وقال آخرون الرسل من الانس خاصة وانما قيل رسل منكم لانه لما جمع الثقلين فى الخطاب صح ذلك وان كان من أحدهما كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أو رسلهم رسل نبينا كقوله ولوا الى قومهم منذرين

لا من الجن ويحتمل أيضا ان يقال ان كافة الرسل كانوا من الانس لكن الله تعالى يلقى الداعية فى قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الانس ثم يأتوا قومهم من الجن فينبروهم بما سمعوا من الرسل وينذروهم به كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومهم وهذا مذهب مجاهد فانه قال الرسل من الانس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة وقيل كانت الرسل يبعثون الى الجن من الجن ولكن بواسطة رسل الانس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتى) يعنى يخبرونكم بما أوحى اليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعنى ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء هذا يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك ان الله تعالى يقول يوم القيامة للكفار الجن والانس على سبيل التقريع والتوبيخ مما أخبر فى كتابه وهو قوله تعالى يا معشر الجن والانس الآية فيجيبون بما أخبر عنهم فى قوله تعالى (قالوا) يعنى كفار الجن والانس (شهدنا على أنفسنا) اعترفوا بان الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وانذروهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) فى الدنيا فان قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر فى قوله والله ربنا ما كنا مشركين ذلك يوم القيامة يوم طويل والاحوال فيه مختلفة فاذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة انكروا الشرك لعل ذلك الانكار ينفعهم وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين حينئذ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين فان قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم قلت شهادتهم الاولى اعتراف منهم بما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفى قوله وشهدوا على أنفسهم ذم لهم وتجهيل لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لانفسهم وانهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وزجرهم عن الكفر والمعاصى قوله عز وجل (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل اليهم وانذارهم سوء العاقبة وقال الزجاج معناه ذلك الذى قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم (أن لم يكن ربك) يعنى لانه لم يكن ربك (مهلك القرى بظلم) قال الكلبى معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل ان تأتيهم الرسل فتنهاهم فان رجعوا والا أتاهم العذاب وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء يجوز ان يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه (وأهلها غافلون) أى وهم غافلون فعلى قول الجمهور يكون الظلم فعلا للكفار وهو شركهم وذنوبهم التى عملوها

(يقصون عليكم آياتى) يقرؤن كتبى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعنى يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل الينا (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) بالرسل (ذلك) اشارة الى ما تقدم من بعثة الرسل اليهم وهو خبر مبتدا محذوف أى الامر ذلك (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) تعليل أى الامر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم على أن ان مصدرية ويجوز ان تكون مخففة من الثقيلة والمعنى لان الشان والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم بسبب ظلم أقدموا عليه أو ظالما على انه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظالما وهو متعال عنه

وعلى قول الفراء انه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالما والله عز وجل يتعالى عن الظلم والقول الاول أصح لانه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله غير انه أخبر انه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلما منه قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) يعنى ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات يعنى منازل يبلغها بعمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها فى الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا انما يكون فى الثواب والعقاب على قدر أعمالهم فى الدنيا فمنهم من هو أعظم ثوابا ومنهم من هو أشد عقابا وهو قول جمهور المفسرين وقيل ان قوله تعالى ولكل درجات مما عملوا مختص باهل الطاعة لان لفظ الدرجة لا يليق الا بهم وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما يعملون) مختص باهل الكفر والمعاصى ففيه وعيد وتهديد لهم والقول الاول أصح لان علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخل فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصى وانه عالم باعمالهم على التفصيل التام فيجزى كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب قوله عز وجل (وربك الغنى) يعنى عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بين ان لكل عامل بطاعة أو معصية درجات على قدر عمله بين ان تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لانه محتاج الى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصى بل هو الغنى على الاطلاق وان جميع الخلق فقراء اليه (ذو الرحمة) قال ابن عباس يا وليائه وأهل طاعته وقال الكلبى بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تاخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يعنى يهلككم الخطاب لاهل مكة وفيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعنى وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعنى من بعد اهلاككم (ما يشاء) يعنى خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) اختلفت عبارات المفسرين فى هذه اللفظة فقال البغوى يعنى آباءهم الماضين قرنا بعد قرن ونحوه قال الواحدى وصاحب الكشاف يعنى من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام وقال الامام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى ويستخلف من بعدكم يعنى من بعد اذهابكم لان الاستخلاف لا يكون الا على طريق البدل من فائت واما قوله ما يشاء فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه فقال بعضهم خلقا آخر من أمثال الجن والانس قال القاضى وهو الوجه الاقرب لان القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على انشاء أمثال هذا الخلق فى كل خلق ثالث ورابع يكون أقوى فى دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على ان قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التى هى الثواب فبين بهذا الطريق انه تعالى لرحمته لهؤلاء الاقوام الحاضرين أبقاهم وأبقاهم ولو شاء لاماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بين الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لان المرء اذا تفكر علم انه تعالى خلق الانسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب ان يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة واذا كان كذلك فكما قدر على تصوير

(ولكل) من المكلفين (درجات) منازل (مما عملوا) من جزاء أعمالهم وبه استدل أبو يوسف ومحمد رحمهما الله على ان للاجير الثواب بالطاعة لانه ذكر عقيب ذكر الثقلين (وما ربك بغافل عما يعملون) بساه عنه وبالتاء شامى (وربك الغنى) عن عباده وعن عبادتهم (ذو الرحمة) عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة (ان يشأ يذهبكم) أيها الظلمة (ويستخلف من بعدكم) من الخلق المطيع (كما ما يشاء) من ذرية قوم آخرين) من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام

هذه الاجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقا آخر مخالفا لها هذا آخر كلامه وقال الطبرى فى قوله كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من فى هذا الموضع التعقيب كما يقال فى الكلام أعطيتك من دينارك ثوبا يعنى مكان الدينار ثوبا لأن الثوب من الدينار بعض كذلك الذين خوطبوا بقوله كما أنشأكم لم يرد بأخبارهم هذا الخبر انهم انشؤا من اصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ماذكرنا انهم انشؤا مكان قوم آخرين قد اهلكوا قبلهم قوله تعالى (ان ماتوعدون) به من مجىء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) يعنى انه كائن قريب (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين حيثما كنتم يدركم الموت (قل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يا محمد (ياقوم) أى قل لقومك من كفار قريش (اعملوا على مكانتكم) وقرئ مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن ابلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل ان يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانتكم ويحتمل ان يكون معناه اعملوا على حالتكم التى أنتم عليها كما يقال للرجل اذا أمر أن يثبت على حاله مكانتك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم (انى عامل) يعنى انى عامل على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فانى ثابت على الاسلام والمصابرة فان قلت ظاهر الآية يدل على أمر الكفار بالاقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لا يجوز قلت معنى هذا الامر الوعيد والتهديد والمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر ان رضيتم لانفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى اعملوا ما شئتم ففيه تفويض أمر العمل اليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه اطلاق لهم فى عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصى وقوله تعالى (فسوف تعلمون) يعنى لمن تكون العاقبة المحمودة لنا أو لكم وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق فى عمله نحن أم أنتم (من تكون له عاقبة الدار) يعنى فسوف تعلمون غدا فى القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهى الجنة (انه لا يفلح الظالمون) قال ابن عباس معناه انه لا يسعد من كفر بى واشرك ثم فى هذه الآية قولان أحدهما انها محكمة وهذا على قول من يقول ان المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد والتهديد والقول الثانى أنها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول ان المراد بها ترك القتال قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقة الكفار وما كانوا عليه من انكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه فى الجاهلية فقال تعالى وجعلوا لله مما ذرأ يعنى مما خلق من الحرث يعنى الزرع والثمر والانعام يعنى ومن الانعام وهى الابل والبقر والغنم نصيبا يعنى قسما وجزأ قال المفسرون كان المشركون فى الجاهلية

(ان ما) ما بمعنى الذى (توعدون) من البعث والحساب والثواب والعقاب (لآت) خبر ان أى لكائن (وما أنتم بمعجزين) بفائتين ردا لقولهم من مات فقد فات المكانة تكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانتكم واعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ويقال للرجل اذا أمر ان يثبت على حاله على مكانتك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه (انى عامل) على مكانتى التى أنا عليها أى اثبتوا على كفركم وعداوتكم فانى ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم وهو أمر تهديد ووعيد دليله قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة وهذا طريق لطيف فى الانذار (انه لا يفلح الظالمون) أى الكافرون مكانتكم حيث كان أبو بكر يكون حمزة وعلى ووضع من رفع اذا كان بمعنى أى وعلق عنه فعل العلم أو نصب اذا كان بمعنى الذى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) أى وللاصنام نصيبا فاكتفى بدلالة قوله تعالى

يجعلون

(فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم على وكذا من بعده أى زعموا انه لله

يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللاصنام نصيبا فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فان سقط شئ مما جعلوه لله فى نصيب الاوثان تركوه وقالوا ان الله غنى عن هذا وان سقط شئ من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة اليه وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا انتقص شئ مما جعلوه للاوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وللاصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة لان معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجئ الا فى موضع ذم لقائليه وانما نسبوا الى الكذب فى قولهم هذا لله بزعمهم وان كانت الاشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله وهو قولهم (وهذا لشركائنا) يعنى الاصنام وانما سموا الاصنام شركاء لانهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى أنهم كانوا يتقربون ما جعلوه للاصنام مما جعلوه لله ولا يتقربون ما جعلوه لله مما جعلوه للاصنام وقال قتادة كانوا اذا أصابتهم سنة أى قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيأ وقال الحسن والسدى كانوا اذا هلك ما جعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال (ساء ما يحكمون) يعنى بئس ما يحكمون ويقضون وذلك انهم رجحوا جانب الاصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم وقيل ان الاشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للاصنام جزأ من المال وهى لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا الى الاساءة فى الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من هذه الاحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عاقل قوله عز وجل (وكذلك) عطف على قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا يعنى كما فعلوا ذلك جهلا منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم والمعنى ان جعلهم لله نصيبا من أموالهم ولشركائهم نصيبا فى غاية الجهل بمعرفة الخالق المنعم لانهم جعلوا الاصنام مثله فى استحقاق النصيب وكذلك اقدامهم على قتل أولادهم فى نهاية الجهالة أيضا فكأنه قال ومثل ذلك الذى فعلوه فى القسم جهلا وخطأ وضلالا كذلك (زين) يعنى حسن (لكثير من المشركين قتل أولادهم) يعنى به وأد البنات أحياء مخافة الفقر والعيلة (شركاؤهم) يعنى شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لانهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الاولاد فاشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم وأضيف الشركاء الى المشركين لانهم أطاعوهم واتخذوهم أربابا وقال الكلبى شركاؤهم سدنة آلهتهم يعنى خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الاولاد وكان

والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة (فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله) أى لا يصل الى الوجوه التى كانوا يصرفونه اليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) من انفاقهم عليها والاجراء على سدنتها روى أنهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ما جعلوه لله زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للاصنام واذا زكا ما جعلوه للاصنام تركوه لها وقالوا ان الله غنى وانما ذلك لحبهم آلهتهم وايثارهم لها وفى قوله مما ذرأ اشارة الى ان الله كان أولى بان يجعل له الزاكى لانه هو الذى ذرأه ثم ذم صنيعهم بقوله (ساء ما يحكمون) فى ايثار آلهتهم على الله وعملهم على ما لم يشرع لهم وموضع ما رفع أى ساء الحكم حكمهم أو نصب أى ساء حكما حكمهم (وكذلك زين لكثير من المشركين) أى كما زين لهم تجزئة المال زين وأد البنات (قتل) مفعول زين (أولادهم شركاؤهم) هو فاعل زين زين بالضم قتل بالرفع أولادهم بالنصب شركائهم بالجر شامى على اضافة القتل الى الشركاء أى الشياطين والفصل بينهما بغير الظرف وهو المفعول وتقديره زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم

ليردوهم) ليهلكوهم بالاغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ويشوبوه ودينهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل حتى

يفترون) وما يفترونه من الافك أو وافتراءهم لان ضرر ذلك الافتراء عليهم لا عليك ولا علينا (وقالوا هذه انعام وحرث) للاوثان (حجر) حرام فعل بمعنى المفعول كالذبح والطحن ويستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع لان حكمه حكم الاسماء غير الصفات وكانوا اذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الاوثان والرجال دون النساء والزعم قول بالظن يشوبه الكذب (وانعام حرمت ظهورها) هى البحائر والسوائب والحوامى (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) حالة الذبح وانما يذكرون عليها أسماء الاصنام (افتراء عليه) هو مفعول له أو حال أى قسموا أنعامهم قسم حجر وقسم لا يركب وقسم لا يذكر اسم الله عليها ونسبوا ذلك الى الله افتراء عليه (سيجزيهم بما كانوا يفترون) وعيد (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) كانوا يقولون فى أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا يأكل منه الاناث وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والاناث وانث خالصة وهو خبر

الرجل فى الجاهلية يقوم فيحلف ان ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول الشركاء هم السدنة وخدام الاصنام سموا شركاء لانهم أشركوهم فى الطاعة (ليردوهم) يعنى ليهلكوهم بذلك الفعل الذى أمروهم به والارداء فى اللغة الاهلاك قال ابن عباس ليردوهم فى النار (وليلبسوا عليهم دينهم) يعنى وليخلطوا عليهم دينهم قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم وكانوا على دين اسمعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين وانما فعلوا ذلك ليزيلوهم عن الدين الحق الذى كان عليه اسمعيل وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الاوضاع الفاسدة وزينوها لهم (ولو شاء الله ما فعلوه) يعنى ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذى زين لهم من تحريم الحرث والانعام وقيل الاولاد أخبر الله عز وجل أن جميع الاشياء بمشيئته وارادته اذ لو لم يشأ ما فعلوا ذلك (فذرهم) يعنى فاتركهم يا محمد (وما يفترون) يعنى وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد قوله تعالى (وقالوا) يعنى المشركين (هذه أنعام وحرث حجر) أى حرام وأصله المنع لانه منع من الانتفاع منه بتحريمه وقيل هو من التضييق والحبس لانهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم قال مجاهد يعنى بالانعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى (لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم) يعنى يأكلها خدام الاصنام والرجال دون النساء (وأنعام حرمت ظهورها) يعنى الحوامى وهى الانعام التى حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها (وانعام لا يذكرون اسم الله عليها) يعنى لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وانما كانوا يذكرون عليها أسماء الاصنام وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها الفعل الخبر لانه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير (افتراء عليه) يعنى انهم كانوا يفعلون هذه الافعال ويزعمون ان الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل (سيجزيهم بما كانوا يفترون) فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب قوله عز وجل (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) يعنى نساءنا قال ابن عباس وقتادة والشعبى أراد أجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وما ولد منها ميتا أكله الرجال والنساء جميعا وهو قوله تعالى (وان يكن ميتة فهم فيه شركاء) ودخلت الهاء فى خالصة للتأكيد والمبالغة كقولهم رجل علامة ونسابة وقال الفراء دخلت الهاء لتأنيث الانعام لان ما فى بطونها مثلها فانث بتأنيثها وقال الكسائى خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل اذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما فى هذه الآية

فانه

فالعمل على المعنى لان ما فى معنى الاجنة وذكر ومحرم حملا على اللفظ أو التاء للمبالغة كنسابة (وان يكن ميتة) أى وان يكن ما فى بطونها ميتة وان تكن ميتة أبو بكر أى وان تكن الاجنة ميتة وان تكن ميتة شامى على كان التامة يكن ميتة مكى لتقدم الفعل وتذكير الضمير فى (فهم فيه شركاء) لان الميتة اسم لكل ميت ذكر أو انثى فكانه قيل وان يكن ميت فهم فيه شركاء

فانه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ (سيجزيهم وصفهم) يعنى سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب (انه حكيم عليم) فيه وعيد وتهديد يعنى انه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم قوله تعالى (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) قال عكرمة نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضى الرجل على ان يستحيى جارية ويئد أخرى فاذا كانت الجارية التى تواد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها أنت على كظهر أمى ان رجعت اليك ولم تئديها فتخذلها فى الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها بينهن حتى اذا أبصرته راجعا دستها فى حفرتها ثم سوت عليها التراب وقال قتادة هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبى والفاقة ويقدو كليه أما سبب الخسران المذكور فى قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم ان الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فاذا تسبب الرجل فى ازالة هذه النعمة عنه وابطالها فقد استوجب الذم وخسر فى الدنيا والآخرة أما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وازالة ما أنعم الله به عليه وأما خسارته فى الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم وقوله سفها بغير علم يعنى فعلوا ذلك لسفاهة وهى الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لان الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا الجاهلية وقوله تعالى (وحرموا ما رزقهم الله) يعنى البحائر والسوائب والحامى وبعض الحروث وبعض ما فى بطون الانعام وهذا أيضا من أعظم الجهالة (افتراء على الله) يعنى انهم فعلوا هذه الافعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) يعنى فى فعلهم عن طريق الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) يعنى الى طريق الحق والصواب فى فعلهم (خ) عن ابن عباس قال اذا سرك ان تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم الى قوله قد ضلوا وما كانوا مهتدين قوله عز وجل (وهو الذى انشأ جنات معروشات) يعنى والله الذى ابتدع وخلق جنات يعنى بساتين معروشات (وغير معروشات) يعنى مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش فى اللغة شئ مستف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم اعرشه عرشا وعرشته تعريشا اذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش اذا علاه وركبه واختلفوا فى معنى قوله معروشات وغير معروشات فقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الارض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لان منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش بل يبقى على وجه الارض منبسطا وقيل المعروشات ما غرسه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم أو شجر (والنخل والزرع) يعنى

(سيجزيهم وصفهم) جزاء وصفهم الكذب على الله فى التحليل والتحريم (انه حكيم) فى جزائهم (عليم) باعتقادهم (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر فقتلوا بكى وشامى (سفها) لخفة أحلامهم وجهلهم بان الله هو رازق أولادهم لا هم (وحرموا ما رزقهم الله) من البحائر والسوائب وغيرها (افتراء على الله) مفعول له (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) الى الصواب (وهو الذى أنشأ) خلق (جنات) من الكروم (معروشات) مسموكات مرفوعات (وغير معروشات) متروكات على وجه الارض لم تعرش يقال عرشت الكرم اذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه الغصبان

وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر (مختلفا اكله) يعني به اختلاف الطعوم في الثمار كالحلو والحامض والجيد والردىء ونحو ذلك (والزيتون والرمان متشابها) يعني في المنظر (وغير متشابه) يعني في المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل ان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم (كلوا من ثمره اذا أثمر) لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلي وهو الانتفاع بها فقال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وهذا اباحة وتمسك بهذا بعضهم فقال الامر قد يرد الى غير الوجوب لان هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقال بعضهم المقصود منه اباحة الاكل قبل اخراج الحق لانه تعالى لما أوجب الزكاة في الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيأ قبل اخراج الواجب فيها المكان شركة الفقراء والمساكين معه فاباح الله أن يأكل قبل اخراجه لان رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل انما قال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر بصيغة الامر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الاشياء التي أنعم الله بها على عباده هو الاكل (وآتوا حقه يوم حصاده) يعني يوم جذاذه وقطعه واختلفوا في هذا الحق المأمور باخراجه فقال ابن عباس وأنس بن مالك هو الزكاة المفروضة وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة قال قتادة في قوله وآتوا حقه يوم حصاده أي من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه الفيل والندى أو كان بعلا العشر كاملا وان سقي بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع وبلغ خمسة أوسق وذلك ثلثمائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفي رواية عن ابن عباس في قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده قال هو العشر ونصف العشر فان قلت على هذا التفسير اشكال وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا حقه يوم حصاده على الزكاة المفروضة قلت ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس وقتادة أن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة وان قلنا ان هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة لانه قد روي عن ابن عباس أنه قال نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن وقيل في قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده انه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو اطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر وهذا قول علي ابن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد قال ابراهيم هو الضغث وقال الربيع هو لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يجيؤن بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وقال يزيد بن الاصم كان أهل المدينة اذا صرموا النخل يجيؤن بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الامر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان أحدهما انه أمر وجوب فيكون منسوخا بآية الزكاة وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الاعرابي هل علي غيرها قال لا الا ان تطوع

(والنخل والزرع مختلفا) في اللون والطعم والحجم والرائحة وهو حال مقدرة لان النخل وقت خروجه لا اكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله فادخلوها خالدين (اكله) اكله حجازي وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لانه معطوف عليه اولكل واحد (والزيتون والرمان متشابها) في اللون (وغير متشابه) في الطعم (كلوا من ثمره) من ثمر كل واحد وفائدة (اذا أثمر) أن يعلم ان اول وقت الاباحة وقت اطلاع الثمر ولا يتوهم انه لا يباح الا اذا ادرك (وآتوا حقه) عشره وهو حجة لابي حنيفة رحمه الله في تعميم العشر (يوم حصاده) بصري وشامي وعاصم وبكسر الحاء غيرهم وهما لغتان

والقول الثانى انه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باخراجه فى ابتداء الاسلام ثم صار منسوخا بايجاب العشر والقول ابن عباس نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن واختار هذا القول الطبرى وصححه واختار الواحدى والرازى القول الاول وصححاه فان قلت فعلى القول الاول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب فى السنبل وانما يجب الاخراج بعد التصفية والجفاف قلت معناه قدروا أداء اخراج الواجب منه يوم الحصاد فانه قريب من زمان التنقية والجفاف ولان النخل يجب اخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه الا أنه لا يمكن اخراج الحق منه الا بعد التصفية وقيل معناه وآتوا حقه الذى وجب يوم حصاده بعد التصفية وقيل ان فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وبلوغه انما يجب يوم حصاده وحصوله فى يد مالكه لانه قبل ذلك قد يتلف من الزرع قبل حصوله فى يد مالكه وقوله تعالى (ولا تسرفوا) الاسراف تجاوز الحد فيما يفعله الانسان وان كان فى الانفاق أشهر وقيل السرف تجاوز ما حد لك وسرف المال انفاقه فى غير منفعة ولهذا قال سفيان ما أنفقت فى غير طاعة الله فهو سرف وان كان قليلا قال ابن عباس فى رواية عنه عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها فى يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فانزل الله هذه الآية ولا تسرفوا قال السدى معناه لا تعطوا أموالكم ثم تقعدوا فقراء قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الانسان كل ماله ولم يوصل الى عياله شيأ فقد أسرف لانه قد صح فى الحديث ابدأ بمن تعول وقال سعيد بن المسيب معناه لا تمنعوا الصدقة فتاويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا الحد فى البخل والامساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان فى أن المراد من الاسراف تجاوز الحد الا أن الاول فى البذل والاعطاء والثانى فى الامساك والبخل وقال مقاتل معناه لا تشركوا الاصنام فى الحرث والانعام وهذا القول أيضا يرجع الى مجاوزة الحد لان من شرك الاصنام فى الحرث والانعام فقد جاوز ما حد له وقال الزهرى معناه لا تنفقوا فى معصية الله عز وجل وقال مجاهد الاسراف ما قصرت به فى حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهبا فانفقته فى طاعة الله لم تكن مسرفا ولو أنفقت درهما أو مدا فى معصية الله كنت مسرفا وقال ابن زيد انما خوطب بهذا السلطان نهى أن يأخذ من رب المال فوق الذى الزم الله ماله يقول الله عز وجل للسلاطين لا تسرفوا أى لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس وقوله تعالى (انه لا يحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ لان من لا يحبه الله فهو من أهل النار قوله تعالى (ومن الانعام) يعنى وأنشأ من الانعام (حمولة) وهى كل ما يحمل عليها من الابل (وفرشا) يعنى صغار الابل التى لا تحمل قال ابن عباس الحمولة هى الكبار من الابل والفرش هى الصغار من الابل وقال فى رواية أخرى عنه ذكرها الطبرى أما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شئ يحمل عليه وأما الفرش فالغنم وقال الربيع بن أنس الحمولة الابل والبقر والفرش المعزى والضان فالحمولة كل ما يحمل عليها من الانعام

(ولا تسرفوا) باعطاء الكل وتضييع العيال وقوله كلوا الى (انه لا يحب المسرفين) اعتراض (ومن الانعام حمولة وفرشا) عطف على جنات أى وأنشأ من الانعام ما يحمل الاثقال وما يفرش للذبح أو الحمولة الكبار التى تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لانها دانية من الارض مثل الفرش المفروش عليها

(كلوا مما رزقكم الله) أى ما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما فى الجاهلية (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) طرقه فى التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية (انه لكم عدو مبين) ٨٠ فانهموه على دينكم (ثمانية أزواج) بدل من حمولة وفرشا (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) زوجين اثنين يريد الذكر والانثى والواحد اذا كان وحده فهو فرد واذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منهما زوجا وهما زوجان بدليل قوله خلق الزوجين الذكر والانثى و بدل عليه قوله ثمانية أزواج ثم فسرها بقوله من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين والضان والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر وفتح عين المعز مكى وشامى وأبو عمرو وهما لغتان والهمزة فى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) للانكار والمراد بالذكرين الذكر من الضان والذكر من المعز وبالانثيين الانثى من الضان والانثى من المعز والمعنى انكار أن يحرم الله من جنسى الغنم ضانها ومعزها شيأ من نوعى ذكورها واناثها ولا ما تحمل الاناث وذلك انهم كانوا يحرمون ذكورة الانعام تارة واناثها طورا وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة وكانوا يقولون قد حرمها الله فانكر ذلك عليهم وانتصب آلذكرين بحرم وكذا أم الانثيين أى أم حرم الانثيين وكذا ما فى أم ما اشتملت (نبئونى بعلم) أخبرونى بأمر معلوم البعض من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) فى أن الله حرمه (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين) منهما (حرم أم الانثيين) منهما (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم ما تحمل اناثها

والفرش ما لا يصلح للحمل سمى فرشا لانه يفرش للذبح ولانه قريب من الارض لصغره (كلوا مما رزقكم الله) يعنى كلوا مما أحله الله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى لا تسلكوا طريقه وآثاره فى تحريم الحرث والانعام كما فعله أهل الجاهلية (انه) يعنى الشيطان (لكم عدو مبين) يعنى انه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل (ثمانية أزواج) يعنى وأنشأ من الانعام ثمانية أزواج يعنى ثمانية أصناف والزوج فى اللغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن اثنين) يعنى الذكر والانثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) يعنى الذكر والانثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين) استفهام انكار أى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة آلذكرين من الضان والمعز حرم عليكم أم الانثيين منهما فان كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وان كان حرم الانثيين منهما فكل اناثهما حرام (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) يعنى أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضان والمعز فانها لا تشتمل الا على ذكر أو أنثى (نبئونى) أى اخبرونى وفسروا لى ما حرمتم (بعلم ان كنتم صادقين) يعنى ان الله حرم ذلك عليكم (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين) وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفى هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لاهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك انهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر وها لاما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم فى كتابه فلما جاء الاسلام وثبت الاحكام جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف النصرى فقال يا محمد بلغنا انك تحرم أشيا، مما كان آباؤنا يفعلونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمنا أصنافا من النعم على غير أصل وانما خلق الله هذه الازواج الثمانية للاكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الانثى فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لما لك يا مالك ألا تتكلم فقال بل أنت تتكلم وأسمع منك قال المفسرون فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الاناث وان كان باشتمال الرحم عليه فينبغى أن يحرم الكل لان الرحم لا يشتمل الا على ذكر أو أنثى وأما تخصيص التحريم بالولد الحامس أو السابع أو البعض دون

(أم كنتم شهداء) ام منقطعة أي بل كنتم شهداء (اذ وصاكم الله بهذا) يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم ولما كانوا لا يؤمنون برسول الله وهم يقولون الله حرم هذا الذي نحرمه نحن ٨١ بهم في قوله أم كنتم شهداء على معنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لانكم لا تؤمنون بالرسل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب اليه تحريم ما لم يحرم (ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) اي الذين في علمه انهم يختمون على الكفر ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضا غير اجنبي من المعدود وذلك ان الله تعالى من على عباده بانشاء الانعام لمنافعهم وباباحتها لهم فالاعتراض بالاحتجاج على من حرمها يكون تاكيدا للتحليل والاعتراضات في الكلام لاتساق الا للتوكيد (قل لا اجد فيما أوحي الي) أي في ذلك الوقت او في وحي القرآن لان وحي السنة قد حرم غير أو من الانعام لان الآية في رد الجيرة واخواتها واما الموقوذة والمتردية والنطيحة فمن الميتة وفيه تنبيه على ان التحريم انما يثبت بوحي الله وشرعه لا بهوى الانفس (محرما) حيوانا حرم اكله (على طاعم يطعمه) على آكل يأكله (الا أن يكون ميتة) الا أن يكون الشيء المحرم ميتة ان تكون مكي وشامي وحمزة ميتة شامي (او دما مسفوحا) مصبوبا سائلا فلا يحرم الدم الذي في

البعض فمن أين ذلك التحريم فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن كل ما قالوه من ذلك واضافوه الى الله فهو كذب على الله وانه لم يحرم شيأ من ذلك وانهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم وذكر الامام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما الى نفسه فقال ان هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الانكار يعني انكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بان هذا يحل وهذا يحرم والوجه الثاني انكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوصا بالابل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الانواع الاربعة وهي الضأن والمعز والبقر والابل فلما لم تحكموا بهذه الاحكام في هذه الانواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الابل بهذا الحكم دون هذه الانواع الثلاثة قوله تعالى (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الانعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فانكم لا تقرون بنبوة أحد من الانبياء فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله عز وجل ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) يعني فمن أشد ظلما وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله الى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلا منه اذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه الى الله ويقول ان الله أمرنا بهذا قيل أراد به عمرو بن لحي لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته او ابتدع شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) يعني ان الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله وأضاف اليه ما لم يشرعه لعباده قوله عز وجل (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه) اعلم انه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبين أن التحريم والتحليل لا يكون الا بوحي سماوي وشرع نبوي فقال تعالى قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لا اجد فيما أوحي الي وقيل انهم قالوا لما حرم اذا نزل قل لا اجد فيما اوحي الى محرما يعني شيئا محرما على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله (الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا) يعني سائلا مصبوبا (او لحم خنزير فانه رجس) اي نجس (او فسقا اهل لغير الله به) يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية ان التحريم

١١ ن في اللحم والكبد والطحال (او لحم خنزير فانه رجس) نجس (أو فسقا) عطف على المنصوب قبله وقوله فانه رجس اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه (اهل لغير الله به) منصوب المحل صفة لفسقا اي رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله وسمي بالفسق لتوغله في باب الفسق

والتحليل لا يكون الا بوحي منه وان المحرمات محصورة في الاربعة الاشياء المذكورة في هذه الآية وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الاربعة وذلك أنه ثبت انه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الاربعة الاشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم الى ظاهرها وانه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوان الا ما ذكر في هذه الآية يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بان هذه الآية محكمة لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وان كانت مكية لكن بعضها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وكلمة انما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم وذهب جمهور العلماء الى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الاشياء المنصوص عليها في هذه الآية فان المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها منها تحريم الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير عن المقدام بن معدي كرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وانما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ولابي داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الاهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا وما كان ربك نسيا لم أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (م) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الاهلية (ق) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله والاصل في ذلك عند الشافعي أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والغارة

والحداة

والحدأة والكلب العقور وروى عن سعد بن أبي وقاص ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ أخرجه البخاري ومسلم وسماه فويسقا وعن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك فالمرجع فيه الى الاغلب من عادة العرب فما يستطيبه الاغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الاغلب منهم ولا يأكونه فهو حرام لان الله تعالى خاطبهم بقوله احل لكم الطيبات فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه أحدها أن يكون المعنى لا أجد محرما مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها الا ما أوحي الي في هذه الآية الوجه الثاني أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر الوجه الثالث يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر وهو ما ورد في السنة الوجه الرابع ان ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم * (بقي) * في الآية احكام في قوله تعالى أو دما مسفوحا وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فان ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فانهما حلال لانهما دمان جامدان وقد ورد الحديث باباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لانه غير سائل قال عمران بن جندب سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا باس بذلك انما نهى عن الدم المسفوح وقال ابراهيم النخعي لا باس بالدم في عرق أو مخ الا المسفوح وقال عكرمة لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان وفي قوله (فان ربك غفور رحيم) دليل على الرخصة والاباحة عند الاضطرار قوله تعالى (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا كل ذي ظفر) قال ابن عباس هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب وقيل كل ما لم يكن منشق الاصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والاوز والبط قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفرا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين (الا ما حملت ظهورهما) يعني الا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فانه غير محرم عليهم وقال السدي وأبو صالح الالية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لان البقر ليس لها الية (أو الحوايا) وهي المباعر في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية وقيل الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بعض الشاة والمعنى ان الشحم الملتصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود (أو ما اختلط بعظم) يعني من شحم الالية لانه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا ان الذي حرم عليهم

(فمن اضطر) فمن دعته الضرورة الى أكل شئ من هذه المحرمات (غير باغ) على مضطر مثله (ولا عاد) متجاوز تارك لمواساته (ولا عاد) متجاوز قدر حاجته من تناوله (فان ربك غفور رحيم) لا يؤاخذه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) أي ماله اصبع من دابة أو طائر ويدخل فيه الابل والنعام (ومن البقر والغنم) أي حرمنا عليهم شحومهما) أي حرمنا عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شئ منه ولم يحرم من البقر والغنم الا الشحوم وهي الثروب وشحوم الكلى (الا ما حملت ظهورهما) الا ما اشتمل على الظهور والجنوب من الصفحة (أو الحوايا) أو ما اشتمل على الامعاء واحدها حاوياء أو حوية (أو ما اختلط بعظم) وهو الالية أو المخ

(ذلك) مفعول ثان لقوله (جزيناهم) والتقدير جزيناهم ذلك (ببغيهم) بسبب ظلمهم (وانا لصادقون) فيما أخبرنا به

شحم الثروب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم (ق) عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فاكلوا ثمنه قوله جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته اذا أذبته وجملته أكثر وأفصح وقوله تعالى (ذلك جزيناهم) أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة (ببغيهم) يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الانبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل (وانا لصادقون) يعني في الاخبار عن بغيهم وفي الاخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم (فان كذبوك) يعني فان كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك انا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيناه في هذه الآية المتقدمة (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يعني بتأخير العقوبة عنكم فان رحمته تسع المسيء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به وعصاه (ولا يرد بأسه) يعني ولا يرد عذابه ونقمته اذا جاء وقتهما (عن القوم المجرمين) يعني الذين كذبوا الانبياء وهم الكفار واليهود وقوله عز وجل (سيقول الذين أشركوا) الما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله اخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى سيقول الذين أشركوا يعني مشركي قريش والعرب (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) يعني من قبل قال المفسرون جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على افاتهم على الكفر والشرك وقالوا ان الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمر نابه لحال بيننا وبين ذلك (ولا حرمنا من شيء) يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك فقال الله عز وجل ردا وتكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني من كفار الامم الخالية الذين كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء (حتى ذاقوا بأسنا) يعني عذابنا

* (فصل) * استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا ان القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله كذلك كذب الذين من قبلهم وأيضا فان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا ان لا نشرك لم نشرك ولما منعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت انه مريد له واذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار انهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبه كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم ان الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فرد الله تعالى عليهم بقوله قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل ان التكذيب في قولهم ان الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله

وكيف نشكر من سبب معصيتهم لتحريم الحلال ومعصيتنا لتحليل الحرام حيث قال وعفا عنكم فالآن باشروهن (فان كذبوك) فيما أوحيت اليك من هذا (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) بها يمهل المكذبين ولا يعاجلهم بالعقوبة (ولا يرد بأسه) عذابه مع سعة رحمته (عن القوم المجرمين) اذا جاء فلا تغتر بسعة رحمته عن خوف نقمته (سيقول الذين أشركوا) اخبارا بما سوف يقولونه (لو شاء الله) ان لا نشرك (ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) ولكن شاء فهذا عذرنا يعنون ان شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته ولو لا مشيئته لم يكن شيء من ذلك (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي كتكذيبهم اياك كان تكذيب المتقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك اذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ولانهم جعلوا مشيئته حجة لهم على أنهم معذورون به وهذا مردود لان الاقرار بالمشيئة أو معنى المشيئة هنا الرضا كما قال الحسن أي ما رضي الله منا ومن آبائنا الشرك والشرك مراد لكنه غير مرضي ألا ترى أنه قال فلو شاء لهداكم أجمعين أخبر أنه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الايمان بل شاء من البعض الايمان ومن البعض الكفر فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعا للتناقض (حتى ذاقوا بأسنا) حتى أنزلنا عليهم العذاب

كذلك

كذلك كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان خبرا من الله عن كذبهم فى قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسن بن الفضل لو قالوا هذه المقالة تعظيما لله واجلالا له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون وقيل فى معنى الآية انهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله لو شاء الله ما أشركنا الا أنهم كانوا يعدونه عذرا لانفسهم ويجعلونه حجة لهم فى ترك الايمان والرد عليهم فى ذلك ان أمر الله بمعزل عن مشيئته وارادته فان الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له ان يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد عليه فى فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فبعث الرسل الى العبد وبأمره بالايمان وورود الامر على خلاف الارادة غير ممتنع فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار انهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم فاخبر الله تعالى ان هذا التمسك فاسد باطل فانه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كل الامور دفع دعوة الانبياء عليهم السلام والله أعلم وقوله تعالى (قل هل عندكم من علم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضى ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعنى بدعواكم ما تدعون من علم يعنى من جهة وكتاب يوجب اليقين من العلم (فتخرجوه لنا) يعنى فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واضمحلاله فى العقول (ان تتبعون الا الظن) يعنى فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وانما هو باطل (وان أنتم الا تخرصون) يعنى وما أنتم فى ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله الباطل وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن اظهار علم الله أو حجة لهم فلله الحجة البالغة يعنى التامة على خلقه بانزال الكتاب وارسال الرسل قال الربيع بن أنس لاحجة لاحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء لهداكم أجمعين) يعنى فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ ايمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون) يعنى هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة الى الشئ يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والانثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللانثى هلمى واللغة الاولى أفصح (أن الله حرم هذا) وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا ان الله أمرنا به ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك وانما اختلقوه من عند أنفسهم (فان شهدوا فلا تشهد معهم) وهذا تنبيه أيضا على كونهم كاذبين فى شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لانهم فى شهادتهم كاذبون (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) يعنى ان وقع منهم شهادة فانما هى باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحى اليك من كتابى الذى لا يأتيه الباطل

(قل هل عندكم من علم) من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم (فتخرجوه لنا) فتظهروه (ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) تكذبون (قل فلله الحجة البالغة) عليكم بأوامره ونواهيه ولا حجة لكم على الله بمشيئته (فلو شاء لهداكم أجمعين) أى فلو شاء هدايتكم وبه تبطل صولة المعتزلة (قل هلم شهداءكم) هاتوا شهداءكم وقربوهم ويستوى فى هذه الكلمة الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وبنو تميم تؤنث وتجمع (الذين يشهدون ان الله حرم هذا) أى زعموه محرما (فان شهدوا فلا تشهد معهم) فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم لانه اذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم فكان واحدا منهم (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ان من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى اذ لو تبع الدليل لم يكن الا مصدقا بآيات موحد الله

من بين يديه ولا من خلفه (والذين لا يؤمنون بالآخرة) أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم بربهم يعدلون) يعني يشركون قوله عز وجل (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا ان الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا تعال من الخاص الذي صار عاما وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل أصله أن تدعو الانسان الى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه الى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعني اقرأ ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقا يقينا لا شك فيه ولا ظنا ولا كذبا كما تزعمون أنتم بل هو ووحي أوحاه الله الي (أن لا تشركوا به شيئا) فان قلت ترك الاشراك واجب فما معنى قوله أن لا تشركوا به شيئا لانه كالتفصيل لما أجمله في قوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز قلت الجواب عنه من وجوه الوجه الاول أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا الوجه الثاني أن يكون محله النصب واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة وقيل ان حرف لا على أصلها ويكون المعنى اتل عليكم تحريم الشرك أي لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا الان قوله وبالوالدين احسانا محمول على أوصيكم بالوالدين احسانا الوجه الثالث أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم ان لا تشركوا على الاغراء أو بمعنى فرض عليكم ان لا تشركوا به شيئا ومعنى هذا الاشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو ان يجعل لله شريكا من خلقه او يطيع مخلوقا في معصية الخالق او يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقوله عز وجل (وبالوالدين احسانا) اي وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين احسانا وانما أتى بالوصية بالاحسان الى الوالدين لان أعظم النعم على الانسان نعمة الله لانه هو الذي أخرجه من العدم الى الوجود وخلقه وأوجده بعد ان لم يكن شيئا ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لانهما السبب في وجود الانسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) يعني من خوف الفقر والاملاق الافتقار والمراد بالقتل وأد البنات وهن احياء فكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم (نحن نرزقكم وإياهم) يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فاني رازقكم واياهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل (ولا تقربوا الفواحش) يعني الزنا (ما ظهر منها وما بطن) يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستحبون الزنا في العلانية ولا يرون به باسا في السر فحرم الله تعالى الزنا في السر والعلانية وقيل ان الاولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لان المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على

العموم

(والذين لا يؤمنون بالآخرة) هم المشركون (وهم بربهم يعدلون) يسوون الاصنام (قل) للذين حرموا الحرث والانعام (تعالوا) هو من الخاص الذي صار عاما وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر حتى عم (أتل ما حرم ربكم) الذي حرم ربكم (عليكم) ٣ ما من صلة حرم (ان لا تشركوا به شيأ) ان مفسرة لفعل التلاوة ولا للنهي (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بالوالدين احسانا ولما كان ايجاب الاحسان تحريما لترك الاحسان ذكر في المحرمات وكذا حكم ما بعده من الاوامر (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله خشية املاق (نحن نرزقكم واياهم) لان رزق العبيد على مولاهم (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها) ما بينك وبين الخلق (وما بطن) ما بينك وبين الله ما ظهر بدل من الفواحش

٣ قوله في الهامش ما من صلة حرم هذا بالاصل الذي بايدينا ولعله سقط منه لفظة أو قبل ما فانه اشارة الى وجه ثان وهو ان ما استفهامية تدل عليه عبارة الكشاف وليراجع

العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وأضاف ان السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفى قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهى أن الانسان اذا احترز عن المعاصى فى الظاهر ولم يحترز منها فى الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لاجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه ولكن لاجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا لاجل خوف الله وتعظيما لامره استوجب رضوان الله وثوابه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) حرم الله تعالى قتل النفس الا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المقدم ذكرها فى قوله تعالى ولا تقربوا الفواحش وانما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما لامر القتل وانه من أعظم الفواحش والكبائر وقيل انما أفرده بالذكر لانه تعالى أراد أن يستثنى منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش الا بالافراد فلذلك قال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق وهى التى أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وقوله تعالى (ذلكم) يعنى ما ذكر من الاوامر والنواهى المحرمات (وصاكم به) يعنى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) يعنى لكى تفهموا ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها قوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) يعنى ولا تقربوا مال اليتيم الا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه وقال الضحاك هو أن يسعى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيأ هذا اذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصى فقيرا فله أن يأكل بالمعروف (حتى يبلغ أشده) يعنى احفظوا مال اليتيم الى أن يبلغ اشده فاذا بلغ اشده فادفعوا اليه ماله فاما الاشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى ينتهى فى الشباب الى حد الرجال قال الشعبى وما لك الاشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات وقال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبى الاشد هو ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين سنة وقال الضحاك الاشد عشرون سنة وقال السدى الاشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الاشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الاقوال التى نقلت عن المفسرين فى هذه الآية انما هى نهاية الاشد لا ابتداؤه والمراد بالاشد فى هذه الآية هو ابتداء بلوغ الحلم مع ايناس الرشد وهذا هو المختار فى تفسير هذه الآية وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يعنى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان (لا نكلف نفسا الا وسعها) يعنى ما كلفتها وما يسعها فى ايفاء الكيل والميزان واتمامه لم يكلف المعطى ان يعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه بل امر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه (واذا قلتم فاعدلوا) يعنى فى الحكم والشهادة (ولو كان ذا قربى) يعنى المحكوم عليه وكذا المشهود عليه وقيل ان الامر بالعدل فى القول هو اعم من الحكم والشهادة

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) كالقصاص والقتل على الردة والرجم (ذلكم وصاكم به) أى المذكور مفصلا أمركم به بحفظه (لعلكم تعقلون) لتعقلوا عظمها عند الله (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) الا بالخصلة التى هى أحسن وهى حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) أشده مبلغ حمله فادفعوه اليه وواحده شد كفلس وأفلس (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالسوية والعدل (لا نكلف نفسا الا وسعها) الا ما يسعها ولا تعجز عنه وانما أتبع الامر بايفاء الكيل والميزان ذلك لان مراعاة الحد من القسط الذى لا زيادة فيه ولا نقصان مما فيه حرج فامر ببلوغ الوسع وان ما وراءه معفو عنه (واذا قلتم فاعدلوا) فاصدقوا (ولو كان ذا قربى) ولو كان المقول له أو عليه فى شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل كقوله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين

(وبعهد الله) يوم الميثاق أوفى الامر والنهى والوعد والوعيد والنذر واليمين (أوفوا ذلكم) أى ما مر (وصاكم به لعلكم تذكرون) بالتخفيف حيث كان حمزة وعلى وحفص ٨٨ على حذف احدى التاءين غيرهم بالتشديد أصله تتذكرون فادغم التاء الثانية فى الذال أى أمركم به لتتعظوا (وان هذا صراطى) ولان هذا صراطى فهو علة للاتباع بتقدير اللام وان بالتخفيف شامى وأصله وانه على أن الهاء ضمير الشأن والحديث وان على الابتداء حمزة وعلى (مستقيما) حال (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) الطرق المختلفة فى الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات (فتفرق بكم عن سبيله) فتفرقكم أيادى سبا عن صراط الله المستقيم وهو دين الاسلام روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطا مستويا ثم قال هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه ثم خط على كل جانب منه خطوطا عما لة ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه فاجتنبوها وتلا هذه الآية ثم يصير كل واحد من الاثنى عشر طريقا منه طرق فتكون اثنين وسبعين وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شئ من جميع الكتب وعن كعب ان هذه الآيات لأول شئ فى التوراة (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) لتكونوا على رجاء اصابة التقوى ذكر أولا لا تعقلون ثم تذكرون ثم تتقون لانهم اذا عقلوا اتعظوا واذا اتعظوا اتقوا فاتقوا المحارم (ثم آتينا موسى الكتاب)

بل يدخل فيه كل قول حق الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان واداء الامانة وغير ذلك من جميع الاقوال التى يعتمد فيها العدل والصدق (وبعهد الله أوفوا) يعنى ما عهد الى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الانسان على نفسه كالنذر ونحوه فيجب الوفاء به (ذلكم) يعنى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم به) يعنى بالعمل به (لعلكم تذكرون) يعنى لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمركم به قوله عز وجل (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) يعنى وان هذا الذى وصيتكم به وأمركم به فى هاتين الآيتين هو صراطى يعنى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى مستقيما يعنى قويما لا اعوجاج فيه فاتبعوه يعنى فاعملوا به وقيل ان الله تعالى لما بين فى الآيتين المتقدمتين ما وصى به مفصلا اجمله فى هذه الآية اجمالا يقتضى دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضا جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الاسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأمرهم باتباعه جملة وتفصيلا (ولا تتبعوا السبل) يعنى الطرق المختلفة والاهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل والاديان المخالفة لدين الاسلام (فتفرق بكم عن سبيله) يعنى فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذى ارتضاه لعباده روى البغوى باسناده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية (ذلكم وصاكم به) يعنى باتباع دينه وصراطه الذى لا اعوجاج فيه (لعلكم تتقون) يعنى الطرق المختلفة والسبل المضلة قال ابن عباس هذه الآيات محكمات فى جميع الكتب لم ينسخهن شئ وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن ترك منهن دخل النار وعن ابن مسعود قال من سره أن ينظر الى الصحيفة التى عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا الى ما حرم ربكم عليكم الآيات الى قوله لعلكم تتقون أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة فان قلت اتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك قلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم وهو كذا وكذا الى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم اناآتينا موسى الكتاب وقيل ان المحرمات المذكورة فى قوله تعالى قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم محرمات على جميع الامم وجميع الشرائع فتقدير الكلام ذلكم وصاكم به يا بنى آدم قديما وحديثا ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعنى بعد ما يجاب هذه المحرمات وقيل معناه قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ثم قل بعد ذلك يا محمد انا آتينا

ثماما) أى ثم أخبركم اناآ تينا أوهو عطف على قل أى ثم قل آ تينا أوتم مع الجملة تأتى بمعنى الواو كقوله ثم الله شهيد (على الذى أحسن) على من كان محسنا صالحا يريد جنس المحسنين دليله قراءة

آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها وقوله تعالى (تماما على الذى أحسن) اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماما على المحسنين من قومه فيكون الذى بمعنى من أى تماما على من أحسن من قومه لانه كان منهم محسن ومسىء وعلى قراءة ابن مسعود تماما على الذين أحسنوا وقيل معناه تماما على كل من أحسن أى أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الانبياء والمؤمنون أى أتممنا فضله عليهم بالكتاب وقيل الذى أحسن هو موسى فيكون الذى بمعنى ما أى على ما أحسن وتقديره وآ تينا موسى الكتاب اتماما للنعمة عليه لاحسانه فى الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الامر وقيل الاحسان بمعنى العلم وتقديره آ تينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماما منى على احسانى الى موسى (وتفصيلا لكل شئ) يعنى وفيه بيان لكل شئ يحتاج اليه من شرائع الدين وأحكامه (وهدى) يعنى وفيه هدى من الضلالة (ورحمة) يعنى انزاله عليهم رحمة منى عليهم (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس لكى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب قوله عزوجل (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى القرآن لانه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق اليه نسخ (فاتبعوه) يعنى فاعملوا بما فيه من الاوامر والنواهى والاحكام واتقوا) يعنى مخالفته (لعلكم ترحمون) يعنى ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكى ترحموا على جزاء التقوى (أن تقولوا) يعنى لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعنى أنزلنا اليكم الكتاب كراهية أن تقولوا (انما أنزل الكتاب) وقيل يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لاهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا انما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لان المراد به التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) يعنى اليهود والنصارى (وان كنا) أى وقد كنا وقيل وانه كنا (عن دراستهم) يعنى قراءتهم (لغافلين) يعنى لا علم لنا بما فيها لانها ليست بلغتنا والمراد بهذه الآية اثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم والمعنى وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بانزال القرآن عليهم بلغتهم (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وذلك أن جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزله على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم وأهدى وانما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنتهم وذهنهم قال الله عزوجل (فقد جاءكم بينة من ربكم) يعنى هذا القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها (وهدى) يعنى من الضلالة (ورحمة) يعنى وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم (فمن أظلم) أى

موسى عليه السلام أى تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ فى كل ما أمر به (وتفصيلا لكل شئ) وبيانا مفصلا لكل ما يحتاجون اليه فى دينهم (وهدى ورحمة لعلهم) أى بنى اسرائيل (بلقاء ربهم يؤمنون) يصدقون أى بالبعث والحساب وبالرؤية (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) كثير الخير (فاتبعوه واتقوا) مخالفته (لعلكم ترحمون) لترحموا (أن تقولوا) كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا (انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) أى أهل التوراة وأهل الانجيل وهذا دليل على ان المجوس ليسوا بأهل كتاب (وان كنا عن دراستهم) عن تلاوة كتبهم (لغافلين) لا علم لنا بشئ من ذلك ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والاصل وانه كنا عن دراستهم غافلين على ان الهاء ضمير الشان والخطاب لاهل مكة والمراد اثبات الحجة عليهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كيلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل

١٢ ن فى انزالا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما (أو تقولوا) كراهة أن تقولوا (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدة اذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا لايام العرب (فقد جاءكم بينة من ربكم) أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع والبرهان القاطع فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف (وهدى ورحمة فمن أظلم

لا أحد أظلم وأكفر (ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) يعني وأعرض عنها (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) يعني أسوء العذاب وأشده (بما كانوا يصدفون) أي ذلك العذاب جزاؤهم بسبب اعراضهم وتكذيبهم بآيات الله قوله تعالى (هل ينظرون) يعني هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وانكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفي وتقدير الآية انهم لا يؤمنون بك الا اذا جاءتهم احدى هذه الامور الثلاث فاذا جاءتهم احداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم ايمانهم (الا أن تأتيهم الملائكة) يعني لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب (أو يأتي ربك) يعني للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام بما فيه كفاية وان المجيء والذهاب على الله محال فيجب امرارها بلا تكييف (أو يأتي بعض آيات ربك) قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها ويدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله أو يأتي بعض آيات ربك قال طلوع الشمس من مغربها أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه عن صفوان بن عسال المرادي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والارض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها وفي رواية فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا (م) عن حذيفة بن أسد الغفاري قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قلنا الساعة فقال انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس الى محشرهم (م) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة (م) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال

(ممن كذب بآيات الله) بعد ما عرف صحتها وصدقها (وصدف عنها) أي أعرض (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) وهو النهاية في النكاية (بما كانوا يصدفون) باعراضهم (هل ينظرون) أي أفنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة فما ينتظرون في ترك الايمان بعدها (الا أن تأتيهم الملائكة) أي ملائكة الموت لقبض أرواحهم يأتيهم جزة وعلى (أو يأتي ربك) أي أمر ربك وهو العذاب أو القيامة وهذا لان الاتيان متشابه واتيان أمره منصوص عليه محكم فيرد اليه (أو يأتي بعض آيات ربك) أي اشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك

تصبحون

تصبحون والشمس والقمر من ههنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين زاد في
رواية عنه فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا
وبسنده عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أتدرون أين تذهب هذه
الشمس قالوا الله ورسوله اعلم قال انها تذهب الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا
تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى
تنتهي الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي
فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيأ حتى تنتهي
فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من
مغربها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال
ذلك يوم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وبسنده
عن أبي ذر قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار فنظر الى الشمس
حين غربت فقال انها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش
حتى يأذن لها فاذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يا رب ان مسيري بعيد
فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت
من قبل وروى بسنده عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من
العشيات فقال لهم عباد الله توبوا الى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فانكم توشكون أن
تروا الشمس من قبل المغرب فاذا فعلت حيست التوبة وطوى العمل فقال الناس
هل لذلك من آية يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آية تلك الليلة أن
تطول قدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم
والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى اذا استيقظوا والليل مكانه
فاذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فاذا اصبحوا فطال عليهم رأت
أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها اذ طلعت عليهم من قبل المغرب فاذا فعلت
ذلك لم ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل قال ابن عباس لا ينفع مشركا ايمانه عند
الآيات وينفع أهل الايمان عند الآيات ان كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك وقال ابن
الجوزي قيل ان الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ان الملحدة والمنجمين
زعموا ان ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق
فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاث الدابة ويأجوج ومأجوج
وطلوع الشمس من مغربها يروى عن ابن مسعود أنه قال التوبة معروضة على ابن
آدم ان قبلها ما لم تخرج احدى ثلاث الدابة أو طلوع الشمس من مغربها أو يأجوج
ومأجوج ويروى عن عائشة قالت اذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست
الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض
آيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة
الارض ورواه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا

ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض وأصح الاقوال فى ذلك ما تظاهرت عليه الاحاديث الصحيحة وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) يعنى لا ينفع من كان مشركا ايمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم الى الايمان والتوبة (أو كسبت فى ايمانها خيرا) يعنى أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق قال الضحاك من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع ايمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فاما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لانها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فانهم لا ينفعهم ايمانهم ذلك لمعاينتهم الاهوال والشدائد التى تضطرهم الى الايمان والتوبة وقوله (قل انتظروا) يعنى ما وعدتم به من مجىء الآية ففيه وعيد وتهديد (انا منتظرون) يعنى ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله فى الدنيا قال بعض المفسرين وهذا انما ينتظره من تأخر فى الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم الى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين انما يمهلون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الايمان وحلت بهم العقوبة اللازمة ابدا وقيل ان قوله قل انتظروا انا منتظرون المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الاول تكون الآية محكمة قوله عز وجل (ان الذين فرقوا) وقرئ فارقوا (دينهم وكانوا شيعا) يعنى احزابا متفرقة فى الضلالة ومعنى فرقوا دينهم انهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ فرقوا دينهم يعنى جعلوا دينهم وهو دين ابراهيم الحنيفية السهلة أديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الاصنام ونحو ذلك من الاديان المختلفة ومن قرأ فارقوا دينهم قال معناه بانوه وتركوه من المفارقة للشئ وقيل ان معنى القراءتين يرجع الى شئ واحد فى الحقيقة وهو ان من فرق دينه فأقر ببعض وأنكر بعضا فقد فارق دينه فى الحقيقة ثم اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فقال الحسن هم جميع المشركين لان بعضهم عبدوا الاصنام وقالوا هذه شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا انهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم وقال مجاهد هم اليهود وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك هم اليهود والنصارى لانهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة وقال أبو هريرة فى هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الامة وروى ذلك مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ وليس منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الامة أسنده الطبرى فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا فى الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة وروى عن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة

(يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها) لانه ليس بايمان اختيارى بل هو ايمان دفع العذاب والباس عن أنفسهم (لم تكن آمنت من قبل) صفة نفسا (أو كسبت فى ايمانها خيرا) أى اخلاصا كما لا يقبل ايمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل اخلاص المنافق أيضا أو توبة وتقديره لا ينفع ايمان من لم يؤمن ولا توبة من لم يتب قبل (قل انتظروا) احدى الآيات الثلاث (انا منتظرون) بكم احداها (ان الذين فرقوا دينهم) اختلفوا فيه وصاروا فرقا كما اختلفت اليهود والنصارى وفى الحديث افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وهى الناجية وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وتفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الهاوية الا واحدة وهى السواد الاعظم وفى رواية وهى ما أنا عليه وأصحابى وقيل فرقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض فارقوا دينهم حزقا وعلى أى تركوا (وكانوا شيعا) فرقا كل فرقة تشيع اماما لها

ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والاهواء من هذه الامة ذكره البغوى بغير سند عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماتعهد الينا فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشى فانه من يعيش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وايا كم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة أخرجه أبو داود والترمذى *عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة زاد فى رواية وانه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله أخرجه أبو داود *عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بنى اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار الا ملة واحدة قالوا من هى يا رسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابى أخرجه الترمذى قال الخطابى فى هذا الحديث دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من امته وقوله تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه التجارى تفاعل من الجرى وهو الوقوع فى الاهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيها بجرى الفرس والكلب قال ابن مسعود ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها ورواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا وقوله تعالى (لست منهم فى شئ) يعنى فى قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول ان المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ومن قال المراد من الآية أهل الاهواء والبدع من هذه الامة قال معناه لست منهم فى شئ أى أنت منهم برىء وهم منك برآء تقول العرب ان فعلت كذا فلست منك ولست منى أى كل واحد منا برى من صاحبه (انما أمرهم الى الله) يعنى فى الجزاء والمكافأة (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) يعنى اذا وردوا القيامة قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) يعنى عشر حسنات أمثالها (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) يعنى مثلها فى مقابلتها واختلفوا فى هذه الحسنة والسيئة على قولين احدهما ان الحسنة قول لا اله الا الله والسيئة هى الشرك بالله وأورد على هذا القول ان كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها واجيب عنه بان جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهو يجازى على قدر ايمان المؤمن بما شاء من الجزاء وانما قال عشر أمثالها للترغيب فى الايمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها والقول الثانى ان اللفظ عام فى كل حسنة يعملها العبد أو سيئة وهذا أولى لان حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم التقدير

(لست منهم فى شئ) أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم أو من عقابهم (انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم على ذلك (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) تقديره عشر حسنات أمثالها الا انه اقيم صفة الجنس المميز مقام الموصوف (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم

يا العشرة ليس للتحديد لان الله يضاعف لمن يشاء فى حسناته الى سبعمائة ويعطى من يشاء بغير حساب واعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصى (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى (م) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وازيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها او أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الارض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيأ لقيته بمثلها مغفرة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى واذا أراد عبدى ان يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة واذا أراد ان يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها الى سبعمائة لفظ البخارى وفى لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى اذا تحدث عبدى بان يعمل حسنة فانا اكتبها له حسنة ما لم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بعشر أمثالها واذا تحدث عبدى بان يعمل سيئة فانا اغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بمثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة فانما تركها من جرائى زاد الترمذى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها قوله عز وجل (قل) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (انى هدانى ربى الى صراط مستقيم) يعنى قل لهم انى أرشدنى ربى الى الطريق القويم وهو دين الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين (دينا قيما) يعنى هدانى صراطا مستقيما دينا قيما وقيل يحتمل ان يكون محمولا على المعنى تقديره وعرفنى دينا قيما يعنى دينا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ وقيل قيما ثابتا مقوما لامور معاشى ومعادى وقيل هو من قام وهو أبلغ من القائم (ملة ابراهيم) والملة بالكسر الدين والشريعة يعنى هدانى وعرفنى دين ابراهيم وشريعته (حنيفا) الاصل فى الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمى كل من اختتن او حج حنيفا تنبيها على انه على دين ابراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعنى ابراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه رد على كفار قريش لانهم يزعمون انهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين ومن يعبد الاصنام (قل ان صلاتى) أى قل يا محمد ان صلاتى (ونسكى) قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدى أراد بالنسك فى هذا الموضع الذبيحة فى الحج والعمرة وقيل

لا يظلمون) ينقص الثواب وزيادة العقاب (قل انى هدانى ربى) ربى ابو عمر وومدنى (الى صراط مستقيم دينا) نصب على البدل من محل الى صراط مستقيم لان معناه هدانى صراطا بدليل قوله ويهديكم صراطا مستقيما (قيما) فيعل من قام كسيد من ساد وهو ابلغ من القائم قيما كوفى وشامى وهو مصدر بمعنى القيام وصف به (ملة ابراهيم) عطف بيان (حنيفا) حال من ابراهيم (وما كان من المشركين) بالله ما مشركو قريش (قل ان صلاتى ونسكى) اى عبادتى والناسك العابد اوذبحى اوحجى

النسك العبادة والناسك العابد وقيل المناسك أعمال الحج وقيل النسك كل ما يتقرب به الى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة ونقل الواحدى عن ابن الأعرابى قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لانه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة الخالصة من الخبث وفى قوله ان صلاتى ونسكى دليل على أن جميع العبادات يؤديها العبد على الاخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لاشريك له وفيه دليل على أن جميع العبادات لاتؤدى الا على وجه التمام والكمال لان ما كان لله لاينبغى أن يكون الا كاملا تاما مع اخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولا (ومحياى ومماتى) أى حياتى وموتى بخلق الله وقضائه وقدره أى هو يحيينى ويميتنى وقيل معناه ان محياى بالعمل الصالح ومماتى اذا مت على الايمان لله وقيل معناه ان طاعتى فى حياتى لله وجزائى بعد مماتى من الله وحاصل هذا الكلام ان الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين أن صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله (لله رب العالمين لاشريك له) يعنى فى العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لاشريك فيها أحد من خلقه (وبذلك أمرت) يعنى قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) قال قتادة يعنى من هذه الامة وقيل معناه أنا اول المستسلمين لقضائه وقدره قوله عز وجل (قل أغير الله أبغى ربا) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله اطلب سيدا أو الها (وهو رب كل شئ) يعنى وهو سيد كل شئ ومالكه لاشريك له فيه أحد وذلك أن الكفار قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ارجع الى ديننا قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل رادا عليه (ولا تكسب كل نفس الا عليها) يعنى أن اثم الجانى عليه لا على غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يعنى لا تؤاخذ نفس آثمة باثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر (ثم الى ربكم مرجعكم) يعنى يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا من الاديان والملل قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) يعنى والله الذى جعلكم يا أمة محمد خلائف فى الارض فان الله أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم فى الارض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وهو آخرهم وأمته آخر الامم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) يعنى انه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض فى الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغنى والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوى والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق فى الدرجات ليس لاجل العجز أو الجهل أو البخل فان الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وانما هو لاجل الابتلاء والامتحان وهو قوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) يعنى يعاملكم معاملة المبتلى والمختبر وهو

(ليبلوكم فيما آتاكم) فيما اعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة وكيف يصنع الشريف بالوضيع والغنى بالفقير والمالك بالمملوك

(لله رب العالمين) خالصة لوجهه محياى ومماتى بسكون الياء الاول وفتح الثانى مدنى وبعكسه غيره (لاشريك له) فى شئ من ذلك (وبذلك) الاخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) لان اسلام كل نبى متقدم على اسلام أمته (قل أغير الله أبغى ربا) جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار أى منكر أن اطلب ربا غيره وتقديم المفعول للاشعار بانه اهم (وهو رب كل شئ) وكل من دونه مربوب ليس فى الوجود من له الربوبية غيره (ولا تكسب كل نفس الا عليها) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ولا تزر وازرة وزر اخرى) اى لا تؤاخذ نفس آثمة بذنب نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) من الاديان التى فرقتموها (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فامته قد خلفت سائر الامم اولان بعضهم يخلف بعضا اوهم خلفاء الله فى ارضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض) فى الشرف والرزق وغير ذلك (درجات) مفعول ثان او التقدير الى درجات اوهى واقعة موقع المصدر كانه قيل رفعة بعد رفعة

(ان ربك سريع العقاب) لمن كفر نعمته (وانه لغفور رحيم) لمن قام بشكرها ووصف العقاب بالسرعة لان ما هو آت قريب وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ٩٦ عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ ثلاث آيات من أول الانعام حين يصبح وكل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه وكتب له مثل أعمالهم الى يوم القيامة

(سورة الاعراف مكية وهي مائتان وخمس آيات بصري وست كوفي ومدني)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المص) قال الزجاج المختار في تفسيره ما قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا الله أعلم وأفصل (كتاب) خبر مبتدا محذوف اى هو كتاب (انزل اليك) صفته والمراد بالكتاب السورة (فلا يكن في صدرك حرج منه) شك فيه وسمي الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر حرجه كما ان المتيقن منشرح الصدر منفسحه اى لا شك في انه منزل من الله او حرج منه بتبليغه لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه واذاهم فكان يضيق صدره من الاذى ولا ينشط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم والنهي متوجه الى الحرج وفيه من المبالغة ما فيه والفاء للعطف اى هذا الكتاب انزلناه اليك فلا يكن بعد انزاله حرج في صدرك واللام في (لتنذر به) متعلق بانزل اى انزل اليك لانذارك به أو بالنهي لانه اذا لم يخفهم أنذرهم وكذا اذا أيقن انه من عند الله شجعه اليقين على الانذار به لان صاحب اليقين انه جسور متوكل على ربه (وذكرى للمؤمنين) في محل النصب باضمار فعلها اى لتنذر به وتذكر تذكيرا فالذكرى اسم بمعنى التذكير أو الرفع بالعطف على كتاب أى هو كتاب وذكرى للمؤمنين أو بانه خبر مبتدا محذوف أو الجر بالعطف على محل لتنذر اى للانذار

أعلم بأحوال عباده والمعنى يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لان العبد اما أن يكون مقصرا فيما كلف به واما أن يكون موفيا ما أمر به فان كان مقصرا كان نصيبه التخويف والترغيب وهو قوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) يعني لاعدائه بأهلاكهم في الدنيا وانما وصف العقاب بالسرعة لان كل ما هو آت فهو قريب وان كان العبد موفيا حقوق الله تعالى فيما أمر به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم وهو قوله تعالى (وانه لغفور) يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته (رحيم) يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الاعراف)

نزلت بمكة روى ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس أيضا انها مكية الا خمس آيات أولها واسألهم عن القرية التي كانت وبه قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات في سورة الاعراف مدنية أولها واسألهم عن القرية الى قوله واذ أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشر ألف حرف وعشرة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (المص) قال ابن عباس معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله اعلم وافصل وعنه أن المص قسم أقسم الله به وهو اسم من اسماء الله تعالى وقال قتادة المص اسم من أسماء القرآن وقال الحسن هو اسم للسورة وقال السدي هو بعض اسمه تعالى المصور وقال أبو العالية الالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور وقيل هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز وقيل هي حروف اسمه الاعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة وقوله تعالى: (كتاب أنزل اليك) يعني هذا كتاب انزله الله اليك يا محمد وهو القرآن (فلا يكن في صدرك حرج منه) يعني فلا يضق صدرك بالابلاغ وتأدية ما أرسلت به الى الناس (لتنذر به) يعني أنزلت اليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بانذاره (وذكرى للمؤمنين) يعني ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه قال ابن عباس فلا تكن

في شك منه لان الشك لا يكون الا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له
قوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أى قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس
ما أنزل اليكم من ربكم يعنى من القرآن الذى فيه الهدى والنور والبيان قال الحسن
يا ابن آدم امرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية الا ويحب
أن تعلم فيم انزلت وما معناها وبنحو هذا قال الزجاج أى اتبعوا القرآن وما أتى به النبى
صلى الله عليه وسلم فانه مما أنزل اليكم لقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه
فانتهوا ومعنى الآية ان الله تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار فى قوله لتنذر
به كان معنى الكلام انذر القوم وقل لهم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم واتركوا
ما أنتم عليه من الكفر والشرك وقيل معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم
اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وقيل هو خطاب للكفار أى اتبعوا أيها المشركون ما أنزل
اليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبعوا
من دونه أولياء) يعنى ولا تتخذوا الذين يدعونكم الى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم
والمعنى ولا تتولوا من دونه شياطين الانس والجن فيأمروكم بعبادة الاصنام واتباع
البدع والاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) يعنى ما تتعظون الا قليلا قوله تعالى
(وكم من قرية أهلكناها) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار والابلاغ وأمر
أمته باتباع ما أنزله اليهم حذرهم نقمته وبأسه ان لم يتبعوا ما أمروا به فذكر فى هذه الآية
ما فى ترك المتابعة والاعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى وكم من قرية أهلكناها
قيل فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لان المقصود بالاهلاك أهل القرية لا القرية
وقيل ليس فيه حذف لان اهلاك القرية اهلاك لاهلها (فجاءها بأسنا) يعنى عذابنا
فان قلت مجىء البأس وهو العذاب انما يكون قبل الاهلاك فكيف قال اهلكناها
فجاءها بأسنا قلت معناه وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا وقال الفراء
الهلاك والبأس قد يقعان معا كما يقال أعطيتنى فاحسنت الى فلم يكن الاحسان قبل
الاعطاء ولا بعده وانما وقعا معا وقال غيره لا فرق بين قولك اعطيتنى فاحسنت الى
أو احسنت الى فاعطيتنى فيكون أحدهما بدلا من الآخر (بياتا) يعنى فجاءها عذابنا
ليلا قبل أن يصبحوا (أوهم قائلون) من القيلولة وهى نوم نصف النهار أو استراحة
نصف النهار وان لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم
نائمون أو نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة ومقصود الآية أنه
جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب
وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا باسباب الامن والراحة فان عذاب
الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) يعنى فما كان دعاء أهل القرية التى
جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب
اللهم أشركنا فى صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم (اذ
جاءهم بأسنا) يعنى عذابنا (الا أن قالوا انا كنا ظالمين) يعنى انهم لم يقدروا على رد العذاب

بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك ودعواهم اسم كان وأن قالوا الخبر ويجوز العكس

ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والانس فيحملوكم على عبادة الاوثان والاهواء والبدع (قليلا ما تذكرون) حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره وقليلا نصب بتذكرون أى تذكرون تذكرا قليلا وما مزيدة لتوكيد القلة تتذكرون شامى (وكم) مبتدأ (من قرية) تبيين والخبر (أهلكناها) أى أردنا اهلاكها كقوله اذا قمتم الى الصلاة (فجاءها) جاء أهلها (بأسنا) عذابنا (بياتا) مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين يقال بات بياتا حسنا (أوهم قائلون) حال معطوفة على بياتا كأنه قيل فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين وانما قيل هم قائلون بلا واو ولا يقال جاءنى زيد هو فارس بغير واو لانه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالا لاجتماع حرفى عطف لان واو الحال هى واو العطف استعيرت للوصل وخص هذان الوقتان لانهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع وقوم لوط عليه السلام اهلكوا بالليل وقت السحر وقوم شعيب عليه السلام وقت القيلولة وقيل بياتا ليلا أى ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم قائلون (فما كان دعواهم) دعاؤهم وتضرعهم (اذ جاءهم بأسنا) لما جاءهم أوائل العذاب (الا ان قالوا انا كنا ظالمين) اعترفوا

عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) يعني نسأل الامم الذين أرسلت اليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل (ولنسئلن المرسلين) يعني ولنسئلن الرسل الذين أرسلناهم الى الامم هل بلغتم رسالاتنا وادّيتم الى الامم ما أمرتم بتاديته اليهم أم قصرتم في ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه انه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وقال السدي يسئل الامم ما عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به فان قلت قد أخبر عنهم في الآية الاولى بانهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم في قوله انا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك قلت لما اعترفوا بانهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار فان قلت فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بانهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليهم من الامم * قلت اذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسئلة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا اليهم من الامم انهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليه من الامم فتكون هذه المسئلة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لانهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم وقوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم) يعني فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا اليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا (وما كنا غائبين) يعني عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الامم فيما أجابوا فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين واذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال قلت فائدة سؤال الامم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التقريع والتوبيخ للكفار لانهم اذا أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود فاما سؤال الاسترشاد والاستثبات فهو منفي عن الله عز وجل لانه عالم بجميع الاشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات وعلمه بظاهر الاشياء كعلمه بباطنها وقوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعني والوزن يوم سؤال الامم والرسل وهو يوم القيامة العدل وقال مجاهد المراد بالوزن هنا القضاء ومعنى الحق العدل وذهب جمهور المفسرين الى أن المراد بالوزن وزن الاعمال بالميزان وذلك ان الله عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة قدر ما بين المشرق والمغرب قال ابن الجوزي جاء في الحديث ان داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فاراه اياه فقال الهي من يقدر ان يملأ كفته حسنات فقال يا داود اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة وقال حذيفة جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم وورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فان لم يكن له حسنة اخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل فان قلت أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة

(فلنسئلن الذين أرسل اليهم) أرسل مسند الى اليهم أي فلنسألن المرسل اليهم وهم الامم عما أجابوا به رسلهم (ولنسئلن المرسلين) عما أجيبوا به (فلنقصن عليهم) على الرسل والمرسل اليهم ما كان منهم (بعلم) عالمين باحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم (وما كنا غائبين) عنهم وعما وجد منهم ومعنى السؤال التوبيخ والتقريع والتقدير اذا فاهوا بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم (والوزن) أي وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وهو مبتدأ وخبره (يومئذ) أي يوم يسأل الله الامم ورسلهم حذفت الجملة وعوض عنها التنوين (الحق) أي العدل صفته ثم قيل توزن صحف الاعمال ميزان له لسان وكفتان اظهارا للنصفة وقطعا للمعذرة وقيل هو عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل والله أعلم بكيفيته

في وزنها قلت فيه حكم منها اظهار العدل وان الله عز وجل لا يظلم عباده ومنها امتحان الخلق بالايمان بذلك في الدنيا واقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها اظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره انه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الاعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيأ أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تبارك وتعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول احضروزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل وقال ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس ان الاعمال تتصور صورا وتوضع تلك الصور في الميزان ويخلق الله تعالى في تلك الصور ثقلا وخفة ونقل البغوي عن بعضهم انها توزن الاشخاص واستدل لذلك بما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الاشخاص في الميزان لان المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال ان صحائف الاعمال توزن أو نفس الاعمال تجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان واورد على هذا انه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بان العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت اعماله بالحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر (فأولئك هم المفلحون) يعني هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله تعالى وكرامته (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يعني بسبب ذلك الخسران انهم كانوا يجحدون الله وادلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها روى عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه انه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم

(فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان أو موزون أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات أو ما توزن به حسناتهم (فأولئك هم المفلحون) الفائزون (ومن خفت موازينه) هم الكفار فانه لا ايمان لهم ليعتبر معه عمل فلا يكون في ميزانهم خير فتخف موازينهم (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) يجحدون فالآيات الحجج والظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الانقياد لها

الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا قوله عز وجل (ولقد مكناكم فى الارض) يعنى ولقد ملكناكم أيها الناس فى الارض والمراد من التمكين التمليك وقيل معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا واقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة يعنى به جميع وجوه المنافع التى تحصل بها الارزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهى على قسمين أحدهما ما انعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب والثانى ما يتحصل من المكاسب والارباح فى أنواع التجارات والصنائع وكلا القسمين فى الحقيقة انما يحصل بفضل الله وانعامه واقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك ان جميع معايش العالم انعام من الله تعالى على عباده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عباده وانعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغى فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) يعنى على ما صنعت اليكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو فى بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها واضداده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعنى ولقد خلقنا كم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله فى ظهر أبيكم آدم ثم صورنا كم فى أرحام النساء صورا مختلفة فان قلت على هذا التفسير يكون قوله ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم يقتضى ان الامر بالسجود لآدم كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لان كلمة ثم للتراخى ومعلوم أن الامر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته قلت يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقنا كم ثم صورنا كم أيها المخاطبون ثم أخبرنا كم انا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على المخبر وقيل فى معنى الآية ولقد خلقنا كم يعنى آدم ثم صورنا كم يعنى ذريته وهذا قول ابن عباس وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعنى آدم ثم صورناكم يعنى فى ظهره وعلى هذين القولين انما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لانه أبو البشر فكان فى خلقه خلق من خرج من صلبه وقيل ان الخلق والتصوير يرجع الى آدم عليه الصلاة والسلام وحده والمعنى ولقد خلقنا كم يعنى آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعنى آدم صورة من طين (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يعنى بعد اكمال خلقه وقد تقدم فى سورة البقرة الكلام فى معنى هذا السجود وانه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود وقيل بل كان حقيقة السجود وان المسجود له هو الله تعالى وانما كان آدم كالقبلة للساجدين وقيل بل كان المسجود له وكان ذلك بامر الله تعالى وهل كان هذا الامر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره فى سورة البقرة وقوله تعالى (فسجدوا) يعنى الملائكة (الا ابليس) يعنى فسجد الملائكة لآدم

(ولقد مكناكم فى الارض) جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو مكناكم فيها واقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما والوجه تصريح الياء لانها أصلية بخلاف جمع صحيفة فالياء فيها زائدة وعن نافع أنه همز تشبيها بجمع صحيفة (قليلا ما تشكرون) مثل (قليلا ما تذكرون) (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أى خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينا غير مصور ثم صورناه بعد ذلك دليله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس)

لم يكن من الساجدين) ممن سجد لآدم عليه السلام (قال مامنعك أن لا تسجد)

ولا زائدة بدليل مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدى ومثلها لئلا يعلم أهل الكتاب أى ليعلم (اذ أمرتك) فيه دليل على ان الامر للوجوب والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم عليه السلام (قال أنا خير منه خلقتنى من نار) وهى جوهر نورانى (وخلقته من طين) وهو ظلمانى وقد أخطأ الخبيث بل الطين أفضل لرزانته ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر وذلك دعاه الى التوبة والاستغفار وفى النار الطيش والحدة والترفع وذلك دعاه الى الاستكبار والتراب عدة الممالك والنار عدة الممالك والنار مظنة الخيانة والافناء والتراب مئنة الامانة والابقاء والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لا تتلفه وهذه فضائل غفل عنها ابليس حتى زل بفاسد من المقاييس وقول نافى القياس أول من قاس ابليس قياس على ان القياس عند مثبته مردود عند وجود النص وقياس ابليس عناد للامر المنصوص فكان الجواب لما منعك أن يقول منعنى كذا وانما قال انا خير منه لانه لما استأنف قصة وأخبر فيها عن

الا ابليس (لم يكن من الساجدين) يعنى له وظاهر الآية يدل على ان ابليس كان من الملائكة لان الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول ان ابليس لم يكن من الملائكة لانه خلق من نار والملائكة من نور وانما استثناه من الملائكة لانه كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه أنه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم قوله تعالى (قال مامنعك أن لا تسجد اذ أمرتك) يعنى قال الله عز وجل لابليس أى شئ منعك من السجود لآدم اذ أمرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلة لا فى قوله أن لا تسجد صلة زائدة وانما دخلت للتوكيد والتقدير مامنعك أن تسجد فهو كقوله لا أقسم أى اقسم وقوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون أى يرجعون وقوله لئلا يعلم أهل الكتاب أى ليعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائى والفراء والزجاج والاكثرين وقيل ان كلة لا هنا على أصلها مفيدة وليست بزائدة لانه لا يجوز أن يقال ان كلة من كتاب الله زائدة اولا معنى لها وعلى هذا القول حكى الواحدى عن أحمد بن يحيى ان لا فى هذه الآية ليست زائدة ولا توكيد الان معنى قوله مامنعك أن لا تسجد من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء وقال الطبرى الصواب فى ذلك أن يقال ان فى الكلام محذوفا تقديره مامنعك من السجود فاحوجك أن لا تسجد فترك ذكر أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الامام فخر الدين الرازى عن القاضى قال ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعى فكأنه قال مادعاك الى ان لا تسجد لان مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ولا يسئل عن الداعى اليها فان قلت لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به قلت انما سأله للتوبيخ والتقريع له ولاظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يثب الله عليه (قال) يعنى قال ابليس مجيبا الله تعالى عما سأله عنه (أنا خير منه) فان قلت قوله انا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه فى قوله تعالى مامنعك أن لا تسجد فلم يجب بما منعه من السجود فانه كان ينبغى له أن يقول منعنى كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه قلت استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار خير من الطين وأنور وانما قال أنا خير منه لما رأى انه أشد منه قوة وأفضل منه أصلا وذلك ان أفضل الجنس الذى خلق منه وهو النار على الطين الذى خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله ابليس وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لان من المعلوم ان من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب وهذا الذى حمل الخبيث ابليس مع الشقاء الذى سبق له من الله تعالى فى الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بأمر ربه فاورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم ان فى جوهر الطين الرزانة والاناة والصبر والحلم والحياء والتثبت وهذا كان الداعى لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التى سبقت له من الله تعالى

نفسه بالفضل على آدم عليه السلام وبقلة فضله عليه فعلم منها الجواب كانه قال منعنى من السجود فضلى عليه وزيادة عليه وهى انكار الامر واستبعاد ان يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله اذ السجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب

في الكتاب السابق الى التوبة من خطيئته ومسئلته ربه العفو عنه والمغفرة ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان أول من قاس ابليس فاخطأ وقال ابن سيرين أيضا ما عبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه ابليس لعنه الله تعالى لما رأى ان النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم ير أن الفضل لمن جعله الله فاضلا وان الافضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الاصل والجوهر وأيضا الفضيلة انما تحصل بسبب الطاعة وقبول الامر فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام باشياء لم يخص بها غيره وهو انه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وامر له ملائكته وعلمه اسماء كل شئ وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية الى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التي سبقت له في القدم وأورث ابليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التي سبقت له في القدم وقوله تعالى (قال فاهبط منها) يعني قال الله تعالى لابليس لعنه الله اهبط من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون لك أن تتكبر فيها) يعني فليس لك ان تستكبر في الجنة عن أمري وطاعتي لانه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف لامر الله عز وجل فاما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون في الارض (فاخرج انك من الصاغرين) يعني انك من الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فأخرجه الله تعالى منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ علية اطمار رثة روع فيها حتى يخرج منها (قال) يعني قال ابليس عند ذلك (أنظرني) يعني أخرني وأمهلني فلا تمتني (الى يوم يبعثون) يعني من قبورهم وهي النفخة الاخيرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث ابليس لعنه الله لانه سال ربه الامهال وقد علم أنه لا سبيل لاحد من خلق الله تعالى الى البقاء في الدنيا ولكنه كره ان يكون ذائقا للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب الى ما سأل بل (قال) الله تعالى له (انك من المنظرين) يعني من المؤخرين المهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى حين يموت الخلق كلهم فان قلت فما وجه قوله انك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه قلت معناه ان الذين تقوم عليهم الساعة منظرون الى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم (قال) يعني ابليس (فبما أغويتني) يعني فبأي شئ أضللتني فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتني ثم ابتدأ فقال (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) وقيل هي باء القسم تقديره فباغوائك اياي وقيل معناه فبما أوقعت في قلبي الغي الذي كان سبب هبوطي الى الارض من السماء وأضللتني عن الهدى لاقعدن لهم صراطك المستقيم يعني لاجلسن على طريقك القويم وهو طريق الاسلام وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذي

جواب لقوله أنا خير منه أي ان كنت تتكبر فاهبط (فما يكون لك) فما يصح لك (ان تتكبر فيها) وتعصي (فاخرج انك من الصاغرين) من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه يدمك كل انسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم ان الصغار لازم للاستكبار (قال أنظرني الى يوم يبعثون) أمهلني الى يوم البعث وهو وقت النفخة الاخيرة (قال انك من المنظرين) الى النفخة الاولى وانما أجيب الى ذلك لما فيه من الابتلاء وفيه تقريب لقلوب الاحباب أي هذا ربي كيف يعيش فاكف عن يعيش وانما حيره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال ما سمع لذي الجلال (قال فبما أغويتني) أضللتني أي فبسبب اغوائك اياي والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف تقديره فبسبب اغوائك أقسم أو تكون الباء للقسم أي فاقسم باغوائك (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) لاعترضن لهم على طريق الاسلام مرصدا للرد معترضا للصد كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف كقولك ضرب زيد الظهر اى على الظهر ومن طاوس انه كان في المسجد الحرام فجاء رجل قدري فقال له طاوس تقوم أو تقام فقام الرجل فقيل له أتقول هذا لرجل فقيه فقال ابليس أفقه منه قال رب بما أغويتني وهو يقول أنا أغوي نفسي يسلكونه

يسلكونه الى الجنة وذلك بان أوسوس اليهم وأزين لهم الباطل ومايكسبهم الاثم وقيل المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعني يمنعهم من الهجرة وقيل المراد به الحج والقول الاول أولى لانه يعم الجميع ومعنى الآية لأقعدن بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولاغوينهم ولاضلنهم كما أضللتني عن سبرة بن أبي الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قعد لابن آدم باطرقة فعدله في طريق الاسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه واسلم وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وانما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة وان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة أخرجه النسائي وقوله تعالى اخبارا عن ابليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) قال ابن عباس من بين أيديهم يعني من قبل الآخرة فاشككهم فيها ومن خلفهم يعني من قبل الدنيا فارغبهم فيها وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهى لهم المعاصي وانما جعل الآخرة من بين أيديهم في هذا القول لانهم مقبلون اليها وصائرون اليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لانهم خلفوها وراء ظهورهم وقال ابن عباس في رواية عنه من بين أيديهم من قبل دنياهم يعني أزينها في قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاقول لابعث ولانشور ولاجنة ولانار وعن أيمانهم من قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيآتهم وانما جعل الدنيا من بين أيديهم في هذا القول لان الانسان يسعى فيها ويشاهدها فهي حاضرة بين يديه والآخرة غائبة عنه فهي خلفه وقال الحكم بن عتبة من بين أيديهم يعني من قبل الدنيا فازينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاثبطهم عنها وعن أيمانهم يعني من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم وقال قتادة أتاهم من بين أيديهم فاخبرهم انه لابعث ولاجنة ولانار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم اليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم فبطاهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم اليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك فلم يستطع ان يحول بينك وبين رحمة الله تعالى وقال مجاهد يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لايبصرون ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون انهم يخطئون ومن حيث لايبصرون انهم يخطئون ولايعلمون انهم يخطئون وقيل من بين أيديهم يعني فيما بقي من أعمارهم فلايقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعني ماضى من أعمارهم فلايتوبون عما أسلفوا فيه من معصية وعن أيمانهم يعني من قبل الغنى فلاينفقون ولايشكرون ومن خلفهم يعني من قبل الفقر فلايمتنعون فيه من محظور نالوه وقال شقيق البلخي مامن صباح الا ويأتيني الشيطان من الجهات الاربع من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أمامن بين يدي فيقول لاتخف

(ثم لآتينهم من بين أيديهم) أشككهم في الآخرة (ومن خلفهم) أرغبهم في الدنيا (وعن أيمانهم) من قبل الحسنات (وعن شمائلهم) من قبل السيئات وهو جمع شمال يعني ثم لآتينهم من الجهات الاربع التي يأتي منها العدو في الاغلب وعن شقيق مامن صباح الا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي فيقول لاتخف فان الله غفور رحيم وأقرأ داني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ومن خلفي فيخوفني الضيعة على عيالي وأقرأ ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها ومن يميني فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين مايشتهون ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة وقال في الاولين من لابتداء الغاية وفي الآخرين عن لان عن تدل على الانحراف

فان الله غفور رحيم فاقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى من وقوع أولادى فى الفقر فأقرأ ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل ان ذكر هذه الجهات الاربع انما أريد بها التأكيد والمبالغة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم وانه لا يقصر فى ذلك ومعنى الآية على هذا القول ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله (ولا تجد أكثرهم شاكرين) يعنى ولا تجد يارب أكثر بنى آدم شاكرين لك على نعمك التى أنعمت بها عليهم وقال ابن عباس معناه ولا تجد أكثرهم موحدين فان قلت كيف علم الخبيث ابليس ذلك حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين قلت قاله ظنا فاصاب ومنه قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه وقيل انه كان عازما على المبالغة فى تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بنى آدم الى ذلك فقال هذه المقالة وقيل انه رآه مكتوبا فى اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده قوله عز وجل (قال اخرج منها) أى قال الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه اخرج منها يعنى من الجنة فانه لا ينبغى أن يسكن فيها العصاة (مذؤما) يعنى معيبا والذأم أشد العيب (مدحورا) يعنى مطرودا مبعودا وقال ابن عباس صغيرا حقيرا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبى ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير (لمن تبعك منهم) يعنى من بنى آدم (لأملأن جهنم منكم أجمعين) اللام لام القسم اقسم الله تعالى ان من تبع ابليس من بنى آدم وأطاعه منهم ان يملأ جهنم منه ومن كفر من بنى آدم وابليس وذريته ومن تبعه منهم قوله تعالى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد ان اهبط منها ابليس وأخرجه وطرده من الجنة (فكلا من حيث شئتما) يعنى فكلا من ثمار الجنة من أى مكان شئتما فان قلت قال فى سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق قلت قال الامام فخر الدين الرازى ان الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) تقدم فى سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى فى قوله تعالى (فوسوس لهما الشيطان) يعنى فوسوس اليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان فى قلب الانسان يقال وسوس اذا تكلم كلاما خفيا مكررا وأصله من صوت الحلى ومعنى وسوس لهما فعل الوسوسة والقاها اليهما فان قلت كيف وسوس اليهما وآدم وحواء فى الجنة وابليس قد أخرج منها قلت ذكر الامام فخر الدين الرازى فى الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال كان يوسوس فى الارض الى السماء الى الجنة بالاذن القوية التى جعلها الله تعالى له وقال أبو مسلم الاصبهانى بل كان آدم وابليس

(ولا تجد أكثرهم شاكرين) مؤمنين قاله ظنا فأصاب لقوله ولقد صدق عليهم ابليس ظنه أو سمعه من الملائكة باخبار الله تعالى اياهم (قال اخرج منها) من الجنة أو من السماء (مذؤما) معيبا من ذأمه اذا ذمه والذأم والذم العيب (مدحورا) مطرودا مبعدا من رحمة الله واللام فى (لمن تبعك منهم) موطئة للقسم وجوابه (لأملأن جهنم) وهو ساد مسد جواب الشرط (منكم) منك ومنهم فغلب ضمير المخاطب (أجمعين) ويا آدم) وقلنا يا آدم بعد اخراج ابليس من الجنة (اسكن أنت وزوجك الجنة) اتخذها مسكنا (فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا) فتصيرا (من الظالمين فوسوس لهما الشيطان) ووسوس اذا تكلم كلاما خفيا يكرره وهو غير متئد ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس اليه وهو الذى يلقى اليه الوسوسة ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لاجله ووسوس اليه ألقاها اليه

في الجنة لان هذه الجنة كانت بعض جنات الارض والذي يقوله بعض الناس من ان ابليس دخل في جوف الحية فدخلت به الحية الى الجنة فقصة مشهورة تركيكة وقال آخرون ان آدم وحواء بعيدا قريبا من باب الجنة وكان ابليس واقفا من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فخصلت الوسوسة هنالك * فان قلت ان آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله * قلت يحتمل ان يقال ان ابليس لقي آدم مرارا كثيرة ورغبه في اكل هذه الشجرة بطرق كثيرة فمهما جاء نزيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فلاجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام ابليس في آدم حتى أكل من الشجرة (ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) يعني ليظهر لهما ما غطي وستر من عوراتهما وقوله ما ووري ماخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوءة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لان ظهوره يسوء الانسان وفي الآية دليل على ان كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدى لهما لام العاقبة وذلك لان ابليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وانما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما ان بدت عوراتهما (وقال) يعني وقال ابليس لآدم وحواء (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة) يعني عن الاكل من هذه الشجرة (الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يعني انما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وانما أطمع ابليس آدم بهذه الآية لانه علم ان الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب ان يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون مع الخالدين الذين لا يموتون ابدا * فان قلت ظاهر الآية يدل على أن الملك أفضل من الانبياء لان آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه * قلت ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لان آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل ان يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقدير أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد أن شرف بها آدم انما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لانهم افضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل لانه طلب اما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون ابدا وقوله تعالى (وقاسمهما) أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد (انى لكما لمن الناصحين) قال قتادة حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال انى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء من خادع عنا بالله خدعناه (فدلاهما بغرور) يعني فخدعهما بغرور يقال مازال فلان يدلي فلانا بغرور يعني مازال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل قال الازهري وأصله ان الرجل العطشان يتدلى في البئر لأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش

ما ستر عنهما من عوراتهما وفيه دليل على ان كشف العورة من عظائم الامور وانه لم يزل مستقبحا في الطباع والعقول فان قلت ما الواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة كما في أويصل تصغير واصل واصله ووي صل فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين قلت لان الثانية مدة كالف واري فكما لم يجب همزها في واعد لم يجب في ووري وهذا لان الواوين اذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما اذا كانت الثانية ساكنة وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا ابدالها في موضع الثقل لا في غيره وقرأ عبد الله أوري بالقلب (وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين) الا كراهة ان تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء وقرئ ملكين لقوله وملك لا يبلى (أو تكونا من الخالدين) من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين (وقاسمهما) وأقسم لهما (انى لكما لمن الناصحين) وأخرج قسم ابليس على زنة المفاعلة لانه لما كان منه القسم ومنهما التصديق فكانهما من اثنين (فدلاهما) فنزلهما الى الاكل من الشجرة (بغرور) بما غرهما به من القسم بالله وانما يخدع المؤمن بالله وعن ابن عمر رضي الله عنهما من خدعنا بالله انخدع له

وهو أن ابليس حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية لان التدلى لا يكون الا من علو الى اسفل ومعنى الآية أن ابليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن ان أحدا لا يحلف بالله كاذبا وابليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف ابليس ظن آدم انه صادق فاغتر به (فلما ذاقا الشجرة) يعنى طعما من ثمرة الشجرة وفيه دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى معرفة طعمه لان الذوق يدل على الاكل اليسير (بدت لهما سوآتهما) يعنى ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ورى عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وقيل كان لباسهما من جنس الاظفار أى كالظفر بياضا فى غاية اللطف واللين فبقى عند الاظفار تذكيرا للنعم وتجديدا للندم (وطفقا) وجعلا يقال طفق يفعل كذا أى جعل (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز ورقة فوق ورقة ليستترا بها كما تخصف النعل (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطاء روى انه قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى ولكن ما ظننت ان أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا بكد يمين وعرق جبين فاهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وطحن وخبز (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا

(فلما ذاقا الشجرة) وجدا طعمها آخذين فى الاكل منها وهى السنبلة أو الكرم (بدت لهما سوآتهما) ظهرت لهما عوراتهما التهافت اللباس عنهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وقيل كان لباسهما من جنس الاظفار أى كالظفر بياضا فى غاية اللطف واللين فبقى عند الاظفار تذكيرا للنعم وتجديدا للندم (وطفقا) وجعلا يقال طفق يفعل كذا أى جعل (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز ورقة فوق ورقة ليستترا بها كما تخصف النعل (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطاء روى انه قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى ولكن ما ظننت ان أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا بكد يمين وعرق جبين فاهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وطحن وخبز (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا

على ذلك والمعنى قالا يا ربنا اذا فعلنا بانفسنا من الاساءة اليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك مالم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التى نهيتنا عن أكلها (وان لم تغفر لنا) يعنى وأنت يا ربنا ان لم تستر علينا ذنبنا (وترحمنا) يعنى وتتفضل علينا برحمتك (لنكونن من الخاسرين) يعنى من الهالكين قال قتادة قال آدم يارب أرأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال اذا أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد منهما ما سأل وقال الضحاك فى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا قال هى الكلمات التى تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عزوجل

(فصل) وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية واجيب عنه بان درجة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله عزوجل مما حملهم على الخوف منه والاشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا باموروصدرت منهم على سبيل التأويل والسهو وفهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم وسيآت بالنسبة الى كمال طاعتهم لانها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصى غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم وزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحى السماوى والذكر القدسى وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عزوجل ذنوبا وهى حسنات بالنسبة الى غيرهم كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين يعنى انهم يرونها بالنسبة الى أحوالهم كالسيآت وهى حسنات لغيرهم وقد تقدم فى سورة البقرة أن آكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها والخلاف فيه فأغنى عن الاعادة والله اعلم قوله تعالى (قال اهبطوا) قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله ان الذى تقدم ذكره هو آدم وحواء وابليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة وقال الطبرى قال الله تعالى لآدم وحواء وابليس والحية اهبطوا يعنى من السماء الى الارض قال السدى رحمه الله قوله تعالى اهبطوا يعنى الى الارض آدم وحواء وابليس والحية (بعضكم لبعض عدو) يعنى ان العداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذرية كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض مستقر) يعنى موضع قرار تستقرون فيه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ولكم فى الارض مستقر يعنى القبور (ومتاع الى حين) يعنى ولكم فيها متاع تستمتعون به الى انقطاع الدنيا أو الى انقضاء آجالكم ومعنى الآية ان الله عزوجل اخبر آدم وحواء وابليس والحية انه اذا أهبطهم الى الارض فان بعضهم لبعض عدو وان لهم فى الارض موضع قرار يستقرون فيه الى انقضاء آجالهم ثم يستقرون فى قبورهم الى انقطاع الدنيا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ومتاع الى حين يعنى الى يوم القيامة والى انقطاع الدنيا (قال فيها تحيون) يعنى قال الله عزوجل لآدم وذريته وابليس وأولاده فيها تحيون يعنى فى الارض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعنى وفى الارض تكون وفاتكم وهو وضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعنى ومن

وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فيه دليل لنا على المعتزلة لان الصغائر عندهم مغفورة (قال اهبطوا) الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع لان ابليس هبط من قبل و يحتمل انه هبط الى السماء ثم هبطوا جميعا الى الارض (بعضكم لبعض عدو) فى موضع الحال أى متعادين يعاديهما ابليس و يعاديانه (ولكم فى الارض مستقر) استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) وانتفاع بعيش (الى حين) الى انقضاء آجالكم ومن ثابت البنانى لما اهبط آدم عليه السلام وحضرته الوفاة وأحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها خلى ملائكة ربى فانما أصابنى ما أصابنى فيك فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وترمن الثياب وحفروا له قبرا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم بعده (قال فيها تحيون) فى الارض (وفيها تموتون ومنها تخرجون) للثواب والعقاب تخرجون حزة وعلى

الارض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة قوله عز وجل (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط الى الارض وجعلها مستقر الهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون اليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذى يحتاج اليه فى الدين والدنيا فاما منفعته فى الدين فانه يستر العورة وستر ها شرط فى صحة الصلاة وأما منفعته فى الدنيا فانه يمنع الحر والبرد فامتن الله على عباده بان أنزل عليهم لباسا يوارى سوآتهم فقال تعالى يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم يعنى لباسا تستترون به عوراتكم * فان قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباسا * قلت ذكر العلماء فيه وجوها أحدها انه بمعنى خلق أى خلقنا لكم لباسا أو بمعنى رزقنا كم لباسا الوجه الثانى أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكانه أنزله عليهم الوجه الثالث أن جميع بركات الارض تنسب الى السماء والى الانزال كما قال تعالى وأنزلنا الحديد (وريشا) الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لان التزين غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال واختلفوا فى معنى الريش المذكور فى الاية فقال ابن عباس رضى الله عنهما وريشا يعنى مالا وهو قول مجاهد والضحاك والسدى لان المال مما يتزين به ويقال تريش الرجل اذا تمول وقال ابن زيد الريش الجمال وهو يرجع الى الزينة أيضا وقيل ان الرياش فى كلام العرب الاثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضا المتاع والاموال عندهم وربما استعملوه فى الثياب والكسوة دون سائر المال يقال انه لحسن الريش أى لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضا فى الخصب ورفاهية العيش (ولباس التقوى) اختلف العلماء فى معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته ومنهم من حمله على المجاز اما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضا فى معناه فقال ابن الانبارى لباس التقوى هو اللباس الاول وانما أعاده اخبارا أن ستر العورة من التقوى وذلك خير وقيل انما أعاده لاجل أن يخبر عنه بانه خير لان العرب فى الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعرى وخلع الثياب فى الطواف بالبيت فاخبر أن ستر العورة فى الطواف هو لباس التقوى وذلك خير وقال زيد بن على رحمه الله تعالى لباس التقوى آلات الحرب التى يتقى بها فى الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التى يلبسها اهل الزهد والورع وقيل هو ستر العورة فى الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا فى معناه فقال قتادة والسدى لباس التقوى هو الايمان لان صاحبه يتقى به من النار وقال ابن عباس رضى الله عنهما لباس التقوى هو العمل الصالح وقال الحسن رضى الله عنه هو الحياء لانه يحث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لباس التقوى هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير رضى الله عنه لباس التقوى خشية الله وقال الكلبى هو العفاف فعلى هذه الاقوال أن لباس التقوى خير

(يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) جعل ما فى الارض منزلا من السماء لان أصله من الماء وهو منها (يوارى سوآتكم) يستر عوراتكم (وريشا) لباس الزينة استعير من ريش الطير لانه لباسه وزينته أى أنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا يزينكم (ولباس التقوى) ولباس الورع الذى يبقى العقاب وهو مبتدأ وخبره الجملة وهى

(ذلك خير) كانه قيل ولباس التقوى هو خير لان اسماء الاشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع الى عود الذكر او ذلك صفة للمبتدا وخير خبر المبتدا كانه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير اولباس التقوى خبر مبتدا محذوف اى وهو لباس التقوى أى ستر العورة لباس المتقين ثم قال ذلك خير وقيل ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن ولباس التقوى مدنى وشامى وعلى عطفا على لباسا أى وأنزلنا عليكم لباس التقوى (ذلك من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته على عباده يعنى انزال اللباس (لعلهم يذكرون) فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها اظهار المنة فيما خلق من اللباس ولما فى العرى من الفضيحة واشعارا بان الستر من التقوى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) لا يخدعنكم ولا يضلنكم بان لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم بان أخرجهما منها (ينزع عنهما لباسهما) حال أى أخرجهما نازعا لباسهما بان كان سببا فى أن نزع عنهما والنهى فى الظاهر للشيطان وفى المعنى لبنى آدم أى لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم (ليريهما سوآتهما) عوراتهما (انه) الضمير للشان والحديث (يراكم هو) تعليل للنهى وتحذير من فتنته بانه بمنزلة العدو المداجى بكيد كم من حيث لا تشعرون (وقبيله) وذريته أو جنوده من الشياطين وهو عطف على الضمير فى يراكم المؤكد بهو ولم يعطف عليه لان معمول الفعل هو والمستكن دون هذا البارز وانما يعطف على ما هو معمول الفعل (من حيث لا ترونهم) قال ذو النون ان كان هو يراك من حيث لا ترى فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه وهو الله الكريم الستار الرحيم الغفار

لصاحبه اذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى (ذلك خير) يعنى أن لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا فى المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

وقوله تعالى (ذلك من آيات الله) يعنى انزال اللباس عليكم يابنى آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده (لعلهم يذكرون) يعنى لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها قوله تعالى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم فى الطواف وانما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة ابليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يعنى آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى أن من قدر على اخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الاولى فحذر الله عز وجل بنى آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الافعال الرديئة فى قلوب بنى آدم فهذه فتنته التى نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) انما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لأن نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما فقال ابن عباس رضى الله عنهما كان لباسهما النور فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى كان لباس آدم وحواء نورا وقال مجاهد كان لباسهما التقى وفى رواية عنه التقوى وقيل ان لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس (ليريهما سوآتهما) يعنى ليرى آدم عورة حواء ويرى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوأة بعض (انه يراكم هو وقبيله) يعنى أن ابليس يراكم يابنى آدم هو وقبيله انما أعاد الكناية فى قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهى الجماعة المجتمعة التى يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن أو انس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أى من هو من نسله وحكى أبو عبيد عن أبى زيد القبيل ثلاثة فصاعدا من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد وقال الطبرى قبيلة يعنى صنفه وجيله الذى هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيله نسله وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو ولده وقوله (من حيث لا ترونهم) يعنى أنتم يابنى آدم قال العلماء رحمهم الله ان الله تعالى خلق فى عيون الجن ادراكا يرون بذلك الادراك الانس ولم يخلق فى عيون الانس هذا الادراك فلم يروا الجن وقالت المعتزلة الوجه فى أن الانس لا يرون الجن رقة أجسام

الجن ولطافتها والوجه فى رؤية الجن للانس كثافة أجسام الانس والوجه فى رؤية الجن بعضهم بعضا أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضا ولو جعل فى أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها الناوحكى الواحدى وابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بنى آدم مساكن لهم الامن عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس فهم يرون بنى آدم وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد قال ابليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى (١) و يعود شيخنا فيما وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى ان عدو ابرائى ولا تراه لشديد المؤنة الامن عصمه الله تعالى (انا جعلنا الشياطين أولياء) يعنى أعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) قال الزجاج يعنى سلطناهم عليهم يزيدون فى غيهم قوله عز وجل (واذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد هى طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء وقال عطاء هى الشرك والفاحشة اسم لكل فعل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصى والكبائر فيمكن حملها على الاطلاق وان كان السبب مخصوصا بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الافعال التى كان أهل الجاهلية يفعلونها و يعتقدون أنها طاعات وهى فى نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الافعال بما أخبر الله عنهم وهو قوله تعالى (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فذكروا لانفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لانه لا أصل له والعذر الثانى قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضا باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) والمعنى ان هذه الافعال التى كان أهل الجاهلية يفعلونها هى فى أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى ردا عليهم (أتقولون على الله مالا تعلمون) يعنى انكم ما سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا أخذتموه عن الانبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى و بين عباده فى تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لانكم تنكرون نبوة الانبياء فكيف تقولون على الله مالا تعلمون قوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله مالا تعلمون أمر ربى بالقسط يعنى بالعدل وهذا قول مجاهد والسدى وقال ابن عباس رضى الله عنهما بلا اله الا الله فالامر بالقسط فى هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وانه واحد لا شريك له (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فان قلت قل أمر ربى بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الامر على الخبر لا يجوز فما معناه * قلت فيه اضمار وحذف تقديره قل أمر ربى بالقسط وقال وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد فحذف قال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية فى قول مجاهد والسدى وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة الى الكعبة وقال الضحاك معناه اذا حضرت الصلاة وانتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلى فى مسجدى

(انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) فيه دلالة خالق الافعال (واذا فعلوا فاحشة) ما يبالغ فى قبحه من الذنوب وهو طوافهم بالبيت عراة وشركهم (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أى اذا فعلوها اعتذروا بان آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم وبان الله أمرهم بان يفعلوها حيث اقترنا عليها اذ لو كرهها انقلنا عنها وهما باطلان لان أحدهما تقليد للجهال والثانى افتراء على ذى الجلال (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) اذ المأمور به لابد أن يكون حسنا وان كان فيه على مراتب على ما عرف فى أصول الفقه (أتقولون على الله مالا تعلمون) استفهام انكار وتوبيخ (قل أمر ربى بالقسط) بالعدل وهو الحسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وقل أقيموا وجوهكم أى اقصدوا عبادته مستقيمين اليها غير عادلين الى غيرها فى كل وقت مسجود أو فى كل مكان مسجود

(قوله أربعة الخ كذا بالاصل والمعدود ثلاثة كما ترى اه مصححه

أو فى مسجد قومى وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا (وادعوه مخلصين له الدين) أى واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره (كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله عز وجل بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا وحجة هذا القول قوله فى سياق الآية فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة فانه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ماروى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات عليه أخرجه مسلم زاد البغوى فى روايته المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقال محمد بن كعب من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار الى ما ابتدئ عليه خلقه وان عمل باعمال أهل السعادة كما ان ابليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدئ خلقه على السعادة صار اليها وان عمل باعمال أهل الشقاوة كما ان السحرة كانوا يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا الى السعادة ويصحح هذا القول ماروى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد فى معنى الآية كما بدأكم خلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيأ فاحيا كم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لصحة هذا القول ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين أخرجه البخارى ومسلم وقوله تعالى (فريقا هدى) يعنى هداهم الله الى الايمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته (وفريقا حق عليهم الضلالة) يعنى وخذل فريقا حتى وجبت عليهم الضلالة السابقة التى سبقت لهم فى الازل بانهم أشقياء وفيه دليل على ان الهدى والضلالة من الله عز وجل وماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل أخرجه الترمذى وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) يعنى ان الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعوانا أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى والمعنى ان الداعى الذى دعاهم الى الكفر والمعاصى هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لان الشياطين لا يقدرون على اضلال أحد وقوله (ويحسبون انهم مهتدون) يعنى أنهم مع ضلالهم يظنون ويحسبون انهم على هداية وحق وفيه دليل على ان الكافر الذى يظن انه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء قوله عز وجل (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة فتقول من يعيرنى تطوافا تجعله على

(وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) اى الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تعودون) كما أنشأكم ابتداء يعيدكم احتج عليهم فى انكارهم الاعادة بابتداء الخلق والمعنى انه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فاخلصوا له العبادة (فريقا هدى) وهم المسلمون (وفريقا) أى أضل فريقا (حق عليهم الضلالة) وهم الكافرون (انهم) ان الفريق الذين حق عليهم الضلالة (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) أى انصارا (ويحسبون انهم مهتدون) والآية حجة لنا على أهل الاعتزال فى الهداية والاضلال (يا بنى آدم خذوا زينتكم) لباس زينتكم (عند كل مسجد) كما صليتم وقيل الزينة المشط والطيب والسنة ان يأخذ الرجل أحسن هيأته للصلاة لان الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر

فرجها وهي تقول

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية خذوا زينتكم عند كل مسجد أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وذكر الحديث زاد في رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى ان يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا وقال مجاهد كان حي من أهل اليمن كان أحدهم اذا قدم حاجا أو معتمرا يقول لا ينبغي لي ان أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرني متزرا فان قدر عليه والا طاف عريانا فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد وقال الزهري ان العرب كانت تطوف بالبيت عراة الا الحمس وهم قريش واحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف في ثوب أحمسي ويرى انه لا يحل له أن يلبس ثيابه فان لم يجد من يعيره من الحمس فانه يلقي ثيابه ويطوف عريانا وان طاف في ثياب نفسه ألقاها اذا قضى طوافه وحرمها أي جعلها حراما عليه فلذلك قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة قال مجاهد ما يواري عوراتكم ولو عباءة وقال الكلبي الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى خذوا زينتكم أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على ان ستر العورة واجب في الصلاة والطواف وفي كل حال وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) قال الكلبي كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق ان نفعل ذلك يا رسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعني الدسم واللحم (ولا تسرفوا) يعني بتحريم ما لم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال علي بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال وكلوا واشربوا ولا تسرفوا وفي الآية دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات حلال الا ما خصه الشرع بدليل في التحريم لان الاصل في جميع الاشياء الاباحة الا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل (انه لا يحب المسرفين) يعني ان الله تعالى لا يحب من أسرف في الماكول والمشروب والملبوس وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الاشياء لان محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وايصال الثواب اليه واذا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راضيا عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الاسراف (قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) يعني قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده ان تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره ثم في تفسير الزينة قولان * أحدهما وهو قول جمهور المفسرين ان المراد من الزينة هنا اللباس الذي يستر العورة * والقول الثاني ذكره الامام فخر الدين الرازي انه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس

(وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا ولا تسرفوا) بالشروع في الحرام أو في مجاوزة الشبع (انه لا يحب المسرفين) وعن ابن عباس رضي الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال له علي بن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان علم الابدان وعلم الاديان فقال له علي قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فقال النصراني ولم يروعن رسولكم شئ في الطب فقال قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله عليه السلام المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا ثم استفهم انكارا على محرم الحلال بقوله (قل من حرم زينة الله) من الثياب وكل ما يتجمل به (التي أخرج لعباده) أي أصلها يعني القطن من الارض والقز من الدود

والحلى

والحلى ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلوا فى هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء (والطيبات من الرزق) يعنى ومن حرم الطيبات من الرزق التى أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا فى معنى الطيبات فى هذه الآية أقوالا أحدها ان المراد بالطيبات اللحم والدسم الذى كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثانى وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقتادة ان المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب قال ابن عباس رضى الله عنهما ان أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثالث ان الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه (قل هى للذين آمنوا) يعنى قل يا محمد ان الطيبات التى أخرج الله من رزقه للذين آمنوا (فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لانه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) يعنى لا يشركهم فيها أحد لانه لا حظ للمشركين يوم القيامة فى الطيبات من الرزق وقيل معناه خالصة لهم يوم القيامة من التكدر والتنغيص والغم لانه قد يقع لهم فى الحياة الدنيا فى تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم انها خالصة لهم فى الآخرة من ذلك كله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا أنى أنا الله وحدى لا شريك لى فأحلوا حلالى وحرموا حرامى قوله عز وجل (قل انما حرم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ما قبح وفحش من قول أو فعل والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم ان الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وانما حرم ربى الفواحش من الافعال والاقوال (ما ظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره (ق) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الانسان ومنه غيرة أحد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره واما الغيرة فى وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم وقوله تعالى (والاثم) يعنى وحرم الاثم واختلفوا فى الفرق بين الفاحشة والاثم فقيل الفواحش الكبائر لانه قد تفاحش قبحها وتزايد والاثم عبارة عن الصغائر

(والطيبات من الرزق) والمستلذات من المآكل والمشارب وقيل كانوا اذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لان المشركين شركاؤهم فيها (خالصة يوم القيامة) لا يشركهم فيها أحد ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم لينبه على انها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة والكفار تبع لهم خالصة بالرفع نافع فهى مبتدأ خبره للذين آمنوا وفى الحياة الدنيا ظرف للخبر أو خالصة خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أى هى خالصة وغيره نصبها على الحال من الضمير الذى فى الظرف الذى هو الخبر أى هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها يوم القيامة (كذلك نفصل الآيات) نميز الحلال من الحرام (لقوم يعلمون) انه لا شريك له (قل انما حرم ربى الفواحش) ربى حرمة الفواحش ما تفاحش قبحه أى تزايد (ما ظهر منها وما بطن) سرها وعلانيتها (والاثم) أى شرب الخمر أو كل ذنب

من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية قل انما حرم ربى الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والاثم اسم لما لا يجب فيه الحد وهذا القول قريب من الاول واعترض على هذين القولين بان الاثم فى أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل ان الفاحشة اسم للكبيرة والاثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أو صغيرا والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله قل انما حرم ربى الفواحش أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل ان الفاحشة وان كانت بحسب اللغة اسما لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار فى العرف مخصوصا بالزنا لانه اذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه الا ذلك فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الاثم فقد قيل انه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء قال الجوهرى وقد تسمى الخمر اثما واستدل عليه بقول الشاعر

شربت الاثم حتى ضل عقلى * كذاك الاثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم وعندى أن تسمية الخمر بالاثم صحيح لان شربها اثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الانبارى تسمية الخمر بالاثم قال لان العرب ما سمته اثما قط فى جاهلية ولا فى اسلام ولكن قد يكون الخمر داخلا تحت الاثم لقوله قل فيهما اثم كبير وقوله تعالى (والبغى) أى وحرم البغى (بغير الحق) والبغى هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد فى ذلك كله ومعنى البغى بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فاذا طلب ماله بحق خرج من أن يكون بغيا (وأن تشركوا) أى وحرم أن تشركوا (بالله ما لم ينزل به سلطانا) هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لانه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهانا بان يشرك به غيره لان الاقرار بشئ ليس على ثبوته حجة ولا برهان ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلا على الاطلاق فان قلت البغى والاشراك داخلان تحت الفاحشة والاثم لان الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الاثم وكذا البغى أيضا من الفواحش والاثم * قلت انما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما كأنه قال من الفواحش المحرمة البغى والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) تقدم تفسيره قوله تعالى (ولكل أمة أجل) الاجل الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة * ثم فى هذا الاجل المذكور فى الآية قولان أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى ان لكل أمة كذبت رسلها وقتا معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله الى ذلك الوقت (فاذا جاء أجلهم) يعنى فاذا حل وقت عذابهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وانما ذكرت الساعة لانها أقل أسماء الاوقات فى العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فاخبرهم الله تعالى ان لهم وقتا اذا جاء ذلك الوقت وهو وقت اهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون والقول الثانى ان المراد بهذا الاجل هو أجل الحياة والعمر فاذا انقضى ذلك الاجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون

(والبغى) والظلم والكبر (بغير الحق) متعلق بالبغى ومحل (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) جهة النصب كانه قال حرم الفواحش وحرم الشرك بانزال بالتخفيف مكى وبصرى وفيه تهكم اذ لا يجوز أن ينزل برهانا على ان يشرك به غيره (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وان تتقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره (ولكل امة اجل) وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال ان لم يؤمنوا وهو وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل فى اجل معلوم عند الله كما نزل بالامم (فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) قيد بساعة لانها اقل ما يستعمل فى الامهال

الكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وانما قال تعالى لكل أمة لتقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد في مقدار العمر وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول ميتا بأجله خلافا لمن يقول القاتل قطع عليه أجله قوله عز وجل (يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم) هي ان الشرطية ضمت اليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعني منكم وانما قال رسل بلفظ الجمع وان كان المراد به واحدا وهو النبي صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء وهو مرسل الى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب في قوله يا بني آدم لاهل مكة ومن يلحق بهم وقيل أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب في قوله يا بني آدم عام في كل بني آدم وانما قال منكم يعني من جنسكم ومثلكم من بني آدم لان الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لانهم يعرفونه ويعرفون أحواله فاذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذي أتى به معجزة له وحجة على من خالفه (يقصون عليكم آياتي) يعني يقرؤن عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي (فمن اتقى) يعني فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلي (وأصلح) يعني العمل الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه (فلا خوف عليهم) يعني حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) يعني على مفاقتهم من دنياهم التي تركوها (والذين كذبوا بآياتنا) يعني ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا (واستكبروا عنها) يعني واستكبروا عن الايمان بها وما جاءت به رسلنا (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني لا يخرجون منها أبدا قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني فمن أعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكا من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد (أو كذب بآياته) يعني أو كذب بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعني ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب في اللوح المحفوظ واختلفوا في ذلك النصيب على قولين أحدهما ان المراد به هو العذاب المعين لهم في الكتاب ثم اختلفوا فيه فقال الحسن والسدي ما كتب لهم من العذاب وقضي عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون وقال ابن عباس في رواية عنه كتب لمن يفتري على الله كذبا أن وجهه أسود وقال الزجاج هو المذكور في قوله فأنذرتكم نارا تلظى وفي قوله اذا الاغلال في أعناقهم فهذه الاشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم والقول الثاني أن المراد بالنصيب المذكور في الكتاب هو شيء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية في قوله ينالهم نصيبهم من الكتاب قالوا هو السعادة والشقاوة وقال ابن عباس ما كتب عليهم من الاعمال وقال في رواية أخرى عنه من عمل خيرا جوزي به ومن عمل شرا جوزي به وقال قتادة جزاء أعمالهم التي عملوها وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا وقال

(يا بني آدم اما يأتينكم) هي ان الشرطية ضمت اليها ما مؤكدة لمعنى الشرط لان ما للشرط ولذا لزمت فعلها النون الثقيلة او الخفيفة (رسل منكم يقصون عليكم آياتي) يقرؤن عليكم كتبي وهو في موضع رفع صفة لرسل وجواب الشرط (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اصلا فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا) منكم (بآياتنا واستكبروا عنها) تعظموا عن الايمان بها (اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فمن اظلم) فمن اشنع ظلما (ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته) ممن تقول على الله ما لم يقله او كذب ما قاله (اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) ما كتب لهم من الارزاق والاعمار .

الربيع بن أنس ينالهم ما كتب لهم في الكتاب من الرزق وقال محمد بن كعب القرظي عمله ورزقه وعمره وقال ابن زيد ينالهم نصيبهم من الكتاب من الاعمال والارزاق والاعمار فاذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم وصحح الطبري هذا القول الاخير وقال لان الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فأبان ان الذي ينالهم هو ما قدر لهم في الدنيا فاذا فرغ توفتهم رسل ربهم قال الامام فخر الدين رحمه الله تعالى وانما حصل الاختلاف لان لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه وقال بعض المحققين حمله على العمر والرزق أولى لانه تعالى بين أنهم وان بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم فانه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلا من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا و يتوبوا قوله تعالى (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) يعني حتى اذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعني ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لان لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى (قالوا) يعني قال الرسل وهم الملائكة للكفار (أينما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى اذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عدد هم عند حشرهم الى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله (قالوا) يعني الكفار مجيبين للرسل (ضلوا عنا) يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب انهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك قوله عز وجل (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس) يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكا من خلقه ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد مضت وسلفت وانما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لانه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم من الجن والانس (في النار) أي ادخلوا جميعا في النار التي هي مستقركم ومأواكم وانما عنى بالامم الجماعات والاحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والانس (كلما دخلت أمة) يعني كلما دخلت جماعة النار (لعنت أختها) يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب قال السدي كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الاولى (حتى اذا ادارکوا) يعني تداركوا وتلاحقوا (فيها جميعا) يعني تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعا وأدرك بعضهم بعضا واستقروا في النار (قالت أخراهم لاولاهم) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني قال آخر كل أمة لاولها وقال السدي قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقال مقاتل يعني قال آخرهم

(حتى اذا جاءتهم رسلنا) حتى التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام هنا الجملة الشرطية وهي اذا جاءتهم رسلنا (يتوفونهم) يقبضون ارواحهم وهو حال من الرسل اى متوفيهم ومافى (قالوا اينما كنتم تدعون) في خط المصحف موصولة باين وحقها ان تكتب مفصولة لانها موصولة والمعنى اين الآلهة الذين تعبدون (من دون الله) ليذبوا عنكم (قالوا ضلوا عنا) غابوا عنا فلا نراهم (وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين) اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق الخبر (قال ادخلوا) أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار ادخلوا (في امم) في موضع الحال اى كائنين في جملة امم مصاحبين لهم (قد خلت) مضت (من قبلكم من الجن والانس) من كفار الجن والانس (في النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت امة) النار (لعنت اختها) شكلها في الدين اى التي ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا ادارکوا فيها) اصله تدارکوا اى تلاحقوا واجتمعوا في النار فابدلت التاء دالا وسكنت للادغام ثم ادخلت همزة الوصل (جميعا) حال (قالت اخراهم) منزلة وهي الاتباع والسفلة (لاولاهم) منزلة وهي القادة والرؤس ومعنى لاولاهم لاجل اولاهم لان خطابهم مع الله لا معهم

دخولا النار وهم الاتباع لأنهم دخولا وهم القادة لان القادة يدخلون النار أولا (ربنا هؤلاء اضلونا) يعني تقول الاتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء اضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان وقيل انما قال المتأخرون ذلك لانهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من اسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لانا اتبعنا سبيلهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) أي أضعف عليهم العذاب قال أبو عبيدة الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة قال الازهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره الى موضوع كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لان الضعف في الاصل زيادة غير محصورة وأولى الاشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فاقل الضعف محصور وهو المثل وا كثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية فآتهم عذابا ضعفا أي مضاعفا لان الضعف في كلام العرب على ضربين أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته (قال) يعني قال الله تعالى (لكل ضعف) يعني لاولا كم ضعف ولاخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لانهم قد دخلوا في الكفر جميعا (ولكن لا تعلمون) يعني ما أعد الله لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر (وقالت أولاهم) يعني في الكفر وهم القادة (لاخراهم) يعني الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لاخراها الذين جاؤا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا اياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم (فذوقوا العذاب) وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والامة الاولى للاخرى التي بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعني يقول الله للجميع فذوقوا العذاب (بما كنتم تكسبون) يعني بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والاعمال الخبيثة قوله عز وجل (ان الذين كذبوا بآياتنا) يعني كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا (واستكبروا عنها) أي وتكبروا عن الايمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبرا (لا تفتح لهم أبواب السماء) يعني لا تفتح لارواحهم اذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم الى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل لان أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وانما يصعد الى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تفتح أبواب السماء لارواح الكفار وتفتح لارواح المؤمنين وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال لا يصعد لهم قول ولا عمل وقال ابن جرير لا تفتح أبواب السماء لاعمالهم ولا لارواحهم وروى الطبري بسنده

(ربنا) يا ربنا (هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا) مضاعفا (من النار قال لكل ضعف) للقادة بالغواية والاغواء وللاتباع بالكفر والاقتداء (ولكن لا تعلمون) ما لكل فريق منكم من العذاب لا يعلمون أبو بكر أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر (وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة لكل ضعف أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا مستاوون في استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة ولا وقف على فضل أو من قول الله لهم جميعا والوقف على فضل (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) أي لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة اذ هي في السماء أولا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة أولا تصعد ارواحهم اذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين الى السماء وبالتاء مع التخفيف ابو عمرو وبالياء معه حمزة وعلي

عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وانه يصعد بها الى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان باقبح اسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها الى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقيل فى معنى الآية لا تنزل عليهم البركة والخير لان ذلك لا ينزل الا من السماء فاذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شئ وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) الولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الابل وسم الخياط ثقب الابرة قال الفراء الخياط والخيط ما يخاط به والمراد به الابرة فى هذه الآية وانما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لانه اكبر من سائر الحيوانات جسما عند العرب قال الشاعر

* جسم الجمال واحلام العصافير * وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل

فجسم الجمل من أعظم الاجسام وثقب الابرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الابرة الضيق محالا فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالا ثبت ان الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مايوس منه قطعا وقال بعض أهل المعانى لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل فى سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لان العرب اذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر

اذا شاب الغراب أتيت أهلى * وصار القار كاللبن الحليب

قوله تعالى (وكذلك نجزى المجرمين) أى ومثل الذى وصفنا نجزى المجرمين يعنى الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على انهم الكفار ولما بين الله عز وجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا بين انهم من أهل النار ووصف ما أعدلهم بها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) يعنى لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد الممهد الذى يتعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط (ومن فوقهم غواش) جمع غاشية وهى الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية أن النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم قال محمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى المهاد الفراش والغواشى اللحف (وكذلك نجزى الظالمين) يعنى وكذلك نكافئ ونجازى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها قوله عز وجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها) لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعدلهم فى الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعدلهم فى الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله اليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) حتى يدخل البعير فى ثقب الابرة أى لا يدخلون الجنة أبدا لانه علقه بما لا يتكون والخياط والخيط ما يخاط به وهو الابرة (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذى وصفنا (نجزى المجرمين) أى الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها (لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم غواش) أغطية جمع غاشية (وكذلك نجزى الظالمين) أنفسهم بالكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها) لا نكلف نفسا الا طاقتها والتكليف الزام ما فيه كلفة أى مشقة

في ذلك وتجنبوا مانهاهم عنه لا نكلف نفسا الا وسعها يعني لا نكلف نفسا الا ما يسعها من الاعمال وما يسهل عليها ويدخل في طوقها وقدرتها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق قال الزجاج الوسع ما يقدر عليه وقال مجاهد معناه الا ما افترض عليها يعني الذي افترض عليها من وسعها الذي تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال ان الوسع بذل المجهود قال أكثر أصحاب المعاني ان قوله تعالى لا نكلف نفسا الا وسعها اعتراض وقع بين المبتدا والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا نكلف نفسا الا وسعها وانما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدا والخبر لانه من جنس هذا الكلام لانه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر ان ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على ان الجنة مع عظم قدرها ومحلها يتوصل اليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة وقال قوم من أصحاب المعاني هو من تمام الخبر موضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفسا منهم الا وسعها فحذف العائد للعلم به قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) يعني وقلعنا وأخرجنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الاحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم اخوانا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضا على شئ خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع واسقاط الوساوس ودفعها عن ان تردعلى القلب روى عن علي رضي الله عنه قال فينا والله أهل بدر نزلت ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين وروى عنه أيضا انه قال اني لأرجو ان أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ونزعنا ما في صدورهم من غل وقيل ان الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم اهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا وقال السدي في هذه الآية ان أهل الجنة اذا سبقوا الى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الاخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يشحنوا بعدها أبدا وقيل ان درجات أهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وازاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الانسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل اليها ولا يميل بطبعه اليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وان كان في لذة ونعيم وأجيب عن هذا بان الله تعالى قد وعد بازالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى ان أحدهم لا يرى نفسه الا في كمال وزيادة في النعيم الذي هو فيه

(أولئك) مبتدأ والخبر (أصحاب الجنة) والجملة خبر الذين ولا نكلف نفسا الا وسعها اعتراض بين المبتدا والخبر (هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل) حقد كان بينهم في الدنيا فلم يبق بينهم الا التوادد والتعاطف وعن علي رضي الله عنه اني لأرجو ان أكون انا وعثمان وطلحة والزبير منهم

فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحدا أبدا وبهذا تم نعمه ولذته وكمل سروره وبهجته وقوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار) لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من ازالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبر بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) يعنى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) يعنى وما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله اليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفى الآية دليل على ان المهتدى من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) يعنى أن أهل النعيم اذا دخلوها ورأوا ما أعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعنى انهم رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا (ونودوا ان تلكم الجنة) يعنى ونادى منادٍ يا أهل الجنة ان هذه الجنة التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا واختلفوا فى المنادى فقيل هو الله عزوجل وقيل الملائكة ينادون بأمر الله عزوجل وقيل هذا النداء يكون فى الجنة (م) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ ان لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم ان تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عزوجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون وقوله تعالى (أورثتموها بما كنتم تعملون) روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد الا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار فاما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة زاد فى رواية فذلك قوله تعالى أورثتموها بما كنتم تعملون قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتا بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حيا بقوله لينذر من كان حيا وفى الشرع ان الاحياء يرثون الاموات فعال أورثتموها يعنى ان المؤمن حى وهو يرث الكافر منزله من الجنة لانه فى حكم الميت وقيل معناه ان أمرهم يؤل الى الجنة كما أن الميراث يؤل الى الوارث وقيل أورثتموها عن الاعمال الصالحة التى عملتموها الان الجنة جعلت لهم جزاء وثوابا على الاعمال ولا يعارض هذا القول ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة أحد بعمله وانما يدخلها برحمة الله فان دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالاعمال وقيل ان العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه الا برحمة الله تعالى وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة فى الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التى عملوها فى دار الدنيا والله أعلم قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) يعنى ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار تقول

أهل

أهل الجنة يا أهل النار (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) يعني ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الايمان به وبرسله وطاعته حقا (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) يعني من العذاب على الكفر (قالوا نعم) يعني قال أهل النار مجيبين لاهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا فان قلت هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض قلت ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع اذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا فان قلت اذا كانت الجنة في السماء والنار في الارض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح ان يقع قلت ان الله تعالى قادر على أن يقوى الاصوات والاسماع فيصير البعيد كالقريب وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) يعني نادى منادٍ وأعلم لان اصل الاذان في اللغة الاعلام والمعنى نادى منادٍ أسمع الفريقين وهذا المنادي من الملائكة وقيل انه اسرافيل صاحب الصور ذكره الواحدي (أن لعنة الله على الظالمين) يعني يقول المؤذن ان لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الاسلام (ويبغونها عوجا) يعني ويحاولون ان يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها وقيل معناه انهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك أنهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فاخطؤا الطريق وضلوا عن السبيل (وهم بالآخرة كافرون) يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها قوله عز وجل (وبينهما حجاب) يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب قال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار وقال السدي وبينهما حجاب هو السور وهو الاعراف وقوله (وعلى الاعراف رجال) الاعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض وقال السدي انما سمي الاعراف لان أصحابه يعرفون الناس وقال ابن عباس رضي الله عنهما الاعراف الشئ المشرف وعنه قال الاعراف سور كعرف الديك وعنه ان الاعراف جبل بين الجنة والنار يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله عنهم انهم على الاعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروى عن حذيفة انه سئل عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم قال بعضهم انما جعلوا على الاعراف لانها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لانه ليس في الآخرة دار الا الجنة أو النار وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر

ان قد وجدنا) ان مخففة من الثقيلة أو مفسرة وكذلك ان لعنة الله على الظالمين (ما وعدنا ربنا) من الثواب (حقا) حال (فهل وجدتم ما وعد ربكم) من العذاب (حقا) وتقديره وعد ربكم فحذف كم لدلالة وعد نار بنا عليه وانما قالوا لهم ذلك شماتة باصحاب النار واعترافا بنعم الله تعالى (قالوا نعم) وبكسر العين حيث كان على (فأذن مؤذن بينهم) نادى منادٍ وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار (ان لعنة الله على الظالمين) ان لعنة مكي وشامي وحمزة وعلى (الذين يصدون) يمنعون (عن سبيل الله) دينه (ويبغونها عوجا) مفعول ثان ليبغون أي يطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالدار الآخرة (كافرون وبينهما) وبين الجنة والنار أو بين الفريقين (حجاب) وهو السور المذكور في قوله فضرب بينهم بسور (وعلى الاعراف) على اعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك (رجال) من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولا في الجنة لاستواء حسناتهم وسيآتهم أو من لم يرض عنه أحد أبويه أو أطفال المشركين

بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر بواحدة دخل النار وان الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الاعراف فاذا نظروا الى أهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا نظروا الى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر واذا عمل سيئة لم تكتب له الا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته وقال ابن عباس رضى الله عنهما الاعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الاعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فهم بذلك المكان حتى اذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم الى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فالقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى اذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى اذا انقطعت امنيتهم قال لهم لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير فى تفسيره وقال شهر جبيل بن سعد اصحاب الاعراف قوم خرجوا فى الغزو من غير اذن آبائهم ورواه الطبرى بسنده الى يحيى بن غيلان مولى لبنى هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم فى سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة زاد فى رواية فهم آخر من يدخل الجنة وذكر ابن الجوزى انهم قوم رضى آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم ورواه عن ابراهيم وذكر عن أبى صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم أولاد الزنا وقيل انهم الذين ماتوا فى الفترة وفيه بعد لان آخر أمر اصحاب الاعراف الى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا فى الفترة الله اعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل انهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالا وهذا القول يرجع معناه الى القول الذى قبله لانه داخل فى حكمه فهذه الاقوال تدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة فى الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وقال مجاهد اصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة اولهى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل انهم انبياء حكاه ابن الانبارى وانما اجلسهم الله على ذلك المكان العالى تمييزا لهم على سائر أهل القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب اهل الجنة وعقاب اهل النار وقال أبو مجلز اصحاب الاعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعنى يعرفون اهل الجنة وأهل النار فقيل لابى مجلز ان الله تعالى يقول وعلى الاعراف رجال وانت تقول انهم ملائكة فقال ان الملائكة ذكور ليسوا باناث وضعف الطبرى قول ابى مجلز قال لان لفظ الرجال فى لسان العرب لا يطلق الا على الذكور من بنى آدم

دون اناتهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الاقوال ان اصحاب الاعراف أفضل من أهل الجنة لانهم أعلى منهم منزلة وأفضل وقيل انما أجلسهم الله في ذلك المكان العالي ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده واسراره كتابه قوله عز وجل (يعرفون كلا بسيماهم) يعني ان أصحاب الاعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشيء وأصله من السمة قال ابن عباس رضي الله عنهما اصحاب الاعراف اذا رأوا أصحاب الجنة عرفوهم ببياض الوجوه واذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه فان قلنا ان أصحاب الاعراف من استوت حسناتهم وسيآتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الاعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فاذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى (ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم) يعني نادى أصحاب الاعراف أصحاب الجنة ان سلام عليكم يعني سلمتم من الآفات وحصل لكم الامن والسلامة واذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وان قلنا ان أصحاب الاعراف هم الاشراف والافاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الاعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل الى الدرجات العلية في الجنة وقوله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) يعني في دخول الجنة قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم قوله تعالى (واذا صرفت أبصارهم تلقاء اصحاب النار) يعني واذا صرفت أبصار اصحاب الاعراف تلقاء أصحاب النار يعني وجاههم وحيالهم فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) يعني الذين ظلموا انفسهم بالشرك وقال ابن عباس رضي الله عنهما ان اصحاب الاعراف اذا نظروا لاهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى أن اصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وما هم فيه من العذاب تضرعوا الى الله تعالى وسألوه ان لا يجعلهم منهم قوله تعالى (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) يعني ونادى اصحاب الاعراف رجالا كانوا عظماء في الدنيا وهم من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم) يعني بسيما أهل النار (قالوا) يعني اصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار (ما أغنى عنكم جمعكم) يعني ما كنتم تجمعون من الاموال والعدد في الدنيا (وما كنتم تستكبرون) يعني وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبي ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لأولئك الكفار (اهؤلاء) لفظ استفهام يعني اهؤلاء الضعفاء (الذين اقسمتم) بالله (لا ينالهم الله برحمة) يعني انكم حلفتم انهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله

وسيما الكافرين سواد الوجوه وزرقة العيون (ونادوا) أي اصحاب الاعراف (اصحاب الجنة أن سلام عليكم) انه سلام أو اى سلام وهو تهنئة منهم لاهل الجنة (لم يدخلوها) أي أصحاب الاعراف ولا محل له لانه استئناف كان سائلا سأل عن اصحاب الاعراف فقيل لم يدخلوها (وهم يطمعون) في دخولها اوله محل وهو صفة لرجال (واذا صرفت أبصارهم) أبصار أصحاب الاعراف وفيه أن صار فايصرف ابصارهم لينظروا فاستعيذوا (تلقاء) ظرف أي ناحية (أصحاب النار) ورأوا ما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فاستعاذوا بالله وفزعوا الى رحمته ان لا يجعلهم معهم (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) من رؤس الكفرة (يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) المال أو كثرتكم واجتماعكم وما كنتم فيه (وما كنتم تستكبرون) واستكباركم على الحق وعلى الناس ثم يقولون لهم (أهؤلاء) مبتدأ (الذين) خبر مبتدا مضمر تقديره هؤلاء هم الذين (اقسمتم) حلفتم في الدنيا والمشار اليهم فقراء المؤمنين كصهيب وسلمان ونحوهما (لا ينالهم الله برحمة) جواب أقسمتم وهو داخل في صلة

الذين تقديره اقسمتم على يمين بان لا ينالهم الله برحمة أي لا يدخلهم الجنة يحتقرونهم لفقرهم فيقال لاصحاب الاعراف

تعالى لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) بفضلى ورحمتى (لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل ان أصحاب الاعراف اذا قالوا لاصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم اهل النار ان أولئك دخلوا الجنة وانتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لاهل النار اهؤلاء يعنى اصحاب الاعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون قوله عز وجل (ونادى اصحاب النار أصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما صاروا اصحاب الاعراف الى الجنة طمع أهل النار فى الفرج فقالوا يا ربنا ان لنا قرابات من أهل الجنة فائذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون الى قراباتهم فى الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة الى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أى أصحاب النار أصحاب الجنة باسمائهم فينادى الرجل اباه وأخاه فيقول قد احترقت أفض علينا من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون ان الله حرمهما على الكافرين ومعنى الآية ان أهل النار يستغيثون باهل الجنة اذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء باهل النار وهم يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم فى الدنيا من الكفر والمعاصى يقول أهل النار لاهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعنى صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعنى وأطعمونا مما رزقكم الله وصبوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم (ان الله حرمهما على الكافرين) وهذا الجواب يفيد الحرمان قال بعضهم لما كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الاكل والشرب عذبهم الله فى الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه فى الدنيا من طلب الاكل والشرب فاجيبوا بان الله حرمهما على الكافرين يعنى طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) يعنى انهم تلاعبوا بدينهم الذى شرع لهم ولهوا عنه واصل اللهو ما يشغل الانسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أى اشتغلت عنه قال ابن عباس رضى الله عنهما هم المستهزؤن وذلك انهم كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم اليه وهزؤا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسله وعن الاخذ بنصيبهم من الآخرة حتى ماتوا عليه وهم على ذلك والغرة غفلة فى اليقظة وهو طمع الانسان فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق فى الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم)

(ادخلوا الجنة) وذلك بعد أن نظروا الى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا (لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون ونادى أصحاب النار اصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) ان مفسرة وفيه دليل على ان الجنة فوق النار (او مما رزقكم الله) من غيره من الاشربة لدخوله فى حكم الافاضة اوريدوا القوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقولك علفتها تبنا وماء باردا أى وسقيتها واغما سألوا ذلك مع يأسهم عن الاجابة لان التحضيض يتضمن بما يفيد وبما لا يفيد (قالوا ان الله حرمهما على الكافرين) هو تحريم منع كما فى وحرمنا عليه المراضع وتقف هنا ان رفعت او نصبت ما بعده ذما وان جررته وصفا للكافرين فلا (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) خبره واو أحلوا ما تأولوا أو دينهم عيدهم (وغرتهم الحياة الدنيا) اغتروا بطول البقاء (فاليوم)

يعنى يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) يعنى فاليوم نتركهم فى العذاب المهين جياعا عطاشا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدى قال ابن عباس رضى الله عنهما ننسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسى فنتركهم فى النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الايمان اعراض الناسى سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لا ينسى شيأ فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان ان الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلتهم بل يتركهم فى النار كما تركوا الايمان والعمل (وما كانوا بآياتنا يجحدون) يعنى وتركهم فى النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب) يعنى ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه على علم) أى بينا معانيه على علم منا بما نفصله ونبينه (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة لقوم يؤمنون (هل ينظرون) يعنى هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها (الا تأويله) يعنى هل ينتظرون ويتوقعون الا ما وعد وابه على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم الى النار والتأويل ما يؤل اليه الشئ (يوم يأتى تأويله) يعنى يوم القيامة لانه يوم الجزاء وما تؤل اليه أمورهم (يقول الذين نسوه من قبل) يعنى يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والاقرار والمعنى ان الكفار أقروا بان الذى جاءت به الرسل من الايمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وانما أقروا بهذه الاشياء لانهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) يعنى انه ليس لنا طريق الى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد الى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والايمان والمعاصى بالطاعة والانابة (قد خسروا أنفسهم) يعنى ان الذى طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم واهلاكهم أنفسهم لانهم كانوا فى الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون فى الدنيا من أن الاصنام تشفع لهم فلما أفضوا الى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا أنهم كانوا فى دعواهم كاذبين قوله عز وجل (ان ربكم الله) يعنى ان سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات اليكم والذى يدفع عنكم المكاره هو الله (الذى خلق السموات والارض) أصل الخلق فى اللغة التقدير ويستعمل فى ابداع الشئ من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم فقوله خلق السموات والارض يعنى أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما (فى ستة أيام) فان قلت اليوم عبارة عن

تنساهم) نتركهم فى العذاب (كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى كنسيانهم وجحودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه (على علم) عالمين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من مفعوب فصلناه كما ان على علم حال من مرفوعه (لقوم يؤمنون هل ينظرون) ينتظرون (الا تأويله) الا عاقبة أمره وما يؤل اليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل) تركوه وأعرضوا عنه (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى تبين وصح أنهم جاؤا بالحق فاقروا حين لا ينفعهم (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) جواب الاستفهام (أو نرد) جملة معطوفة على جملة قبلها داخلة معها فى حكم الاستفهام كانه قيل فهل لنا من شفعاء أو هل نرد ورافعه وقوعه موقعا يصلح للاسم كقولك ابتداء هل يضرب زيد أو عطف على تقدير هل يشفع لنا شافع أو هل نرد (فنعمل) جواب الاستفهام أيضا (غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ما كانوا يعبدونه من الاصنام (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أراد السموات الارض وما بينهما وقد فصلها فى حم السجدة أى من الاحد الى الجمعة لاعتبار الملائكة شيأ فشيأ وللاعلام بالتأنى فى الامور ولان لكل عمل يوما ولان انشاء شئ بعد شئ أدل على عالم مدبر يريد يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته

مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس الى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا يعني على مقادير البكر والعشي في الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الاشياء فيه فقيل في يوم السبت وهو قول محمد بن اسحق وغيره ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم في افراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وهذا الحديث وان كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لان الله تعالى يقول خلق السموات والارض في ستة أيام وقال في آية أخرى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على ان جميع الخلق تم وكمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في سبعة أيام وذلك مجموع أيام الاسبوع فلهذا السبب أنكره من أنكره من العلماء وقد ذكر الازهري في كتابه تهذيب اللغة ما يقوي الحديث فقال وقال ابن الانباري السبت القطع وسمي يوم السبت لان الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والارض وقيل ان ابتداء الخلق كان يوم الاحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الاحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري قال الطبري خلق الله السموات والارض في ستة أيام وذلك يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وروى بسنده عن مجاهد قال بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الارض من الماء وبدأ الخلق يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الايام كالف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال وسمي سابع الاسبوع سبتا لان ابتداء الخلق كان من يوم الاحد الى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق قال أصحاب الاخبار والسير واتوا بخبر ان الله تعالى خلق التربة التي هي الارض بلا دحو ولا بسط في يوم الاحد والاثنين ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والاربعاء ثم دحا الارض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقيل خلق الله عز وجل التربة يوم الاحد ثم استوى الى السماء فخلقهن وجميع ما فيهن يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الارض ودحاها يوم الاربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما الى الارض في آخر ساعة من يوم الجمعة وقيل أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما يكون وما خلق وما هو خالق الى يوم القيامة ثم خلق الظلمة

والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيهما من نجوم وشمس وقمر ثم مد الارض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط الى الارض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا فان قلت ان الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر فما الفائدة في خلق السموات والارض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك قلت ان الله سبحانه وتعالى وان كان قادرا على خلق جميع الاشياء في لحظة واحدة الا انه تعالى جعل لكل شئ حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل في الوجود الا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الامور وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض في لحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الامور كما في الحديث التأني من الله والعجلة من الشيطان وقيل ان الشئ اذا حدث دفعة واحدة فلعله ان يخطر ببال بعضهم ان ذلك الشئ انما وقع على سبيل الاتفاق فاذا احدث شيأ بعد شئ على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة وقيل ان الله تعالى أراد ان يوقع في كل يوم أمرا من أموره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده وقيل ان التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى اظهار حكمته في خلق الاشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الاشياء بكن فيكون وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) العرش في اللغة السرير وقيل هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه قال الراغب في كتابه مفردات القرآن وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر الا بالاسم على الحقيقة وليس كما هو يذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسي فلك الكواكب واما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الاسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وقال أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك وروى بسنده عن عبد الله بن وهب انه قال كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه قال فاطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل وفي رواية يحيى بن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه فاطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب

(ثم استوى) استولى (على العرش) أضاف الاستيلاء الى العرش وان كان سبحانه وتعالى مستوليا على جميع المخلوقات لان العرش أعظمها وأعلاها وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل لانه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان لان التغير من صفات الاكوان والمنقول عن الصادق والمحسن وأبي حنيفة ومالك رضي الله عنهم ان الاستواء معلوم والتكييف فيه مجهول والايمان به واجب

والسؤال عنه بدعة وما أراك الا مبتدعا فأمر به ان يخرج وروى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه قال البيهقي والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه واليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلي ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي قال البغوي أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم به الى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم وروى عن سفيان الثوري والاوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة اقروها كما جاءت بلا كيف وقال الامام فخر الدين الرازي رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية انه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الاول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى وهو الذي قررناه في تفسير قوله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثاني أنا نخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان الاول ما ذكره القفال فقال العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقص الملك يقال ثل عرشه أي انتقص ملكه واذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذي قاله القفال حق وصواب ثم قال والله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم تنبيها على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة قال ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر الامر فقوله يدبر الامر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول ان الله تعالى لم يكن مستوليا على الملك قبل خلق السموات والارض والله تعالى منزه عن ذلك واجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والارض مالكها لكن لا يصح ان يقال شبع زيد الا بعد أكله الطعام فاذا فسر العرش بالملك صح أن يقال انه تعالى انما استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض والقول الثاني ان يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا القول انما خص العرش بالاخبار عنه بالاستيلاء عليه لانه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بان العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وانما يقال استولى فلان على كذا اذا لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها

ومستوليا

ومستولياعليهافاى تخصيص للعرش هنادون غيره من المخلوقات ونقل البيهقى عن أبى الحسن الاشعرى أن الله تعالى فعل فى العرش فعلاسماه استواء كما فعل فى غيره فعلاسماه رزقا ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء الا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى ثم استوى على العرش وثم للتراخى والتراخى انما يكون فى الافعال وأفعال الله تعالى توجد بلامباشرة منه اياها ولاحركة وحكى الاستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا انه قال استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون فى المكان متمكنا فيه ولكن يريد معنى نفى التحيز عنه وانه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقه الخبر لا يتعدى ماورد به الخبر قال البيهقى رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلها ثم تعلقت بالمستوى عليه لا بالاستواء قال وقد أشار أبو الحسن الاشعرى الى هذه الطريقة حكاية فقال قال بعض أصحابنا انه صفة ذات قال وجوابى هو الاول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الاشياء بائن منها بمعنى أنه لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا وقد قال بعض أصحابنا ان الاستواء صفة لله تعالى نفى الاعوجاج عنه وروى أن ابن الاعرابى جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى قال انه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل انما معنى قوله استوى أى استولى فقال له ابن الاعرابى مايدريك ان العرب لا تقول استولى فلان على الشئ حتى يكون له فيه مضاد فايهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم وقوله تعالى (يغشى الليل النهار) يعنى انه تعالى يأتى بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشى النهار الليل وانما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه (يطلبه حثيثا) يعنى سريعا وذلك أنه اذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه حكى الامام فخر الدين الرازى عن القفال انه قال ان الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها ليتم العيان الى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات قال الامام واعلم انه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لان تعاقب الليل والنهار انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وتلك الحركة اشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان فى أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الاعظم ثلاثة آلاف ميل وهى ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثا لسرعة حركته (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الاشياء جارية فى مجاريها بامره وقال المفسرون يعنى بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منهن من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس هى قادرات بانفسهن وانما هن يتصرفن فى متصرفاتهن على ارادة المدبر لهن الحكيم فى تدبيرهن وتصريفهن على ما اراد منهن والمراد بالامر فى قوله بامره نفاذ ارادته لان الغرض من هذه الآية تبيين

والجحود له كفروا السؤال عنه بدعة (يغشى الليل النهار) يغشى حمزة وعلى وأبو بكر أى يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل (يطلبه حثيثا) حال من الليل أى سريعا والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار (والشمس والقمر والنجوم) أى وخلق الشمس والقمر والنجوم (مسخرات) حال أى مذللات والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى والشمس مبتدا والبقية معطوفة عليها والخبر مسخرات (بامره) هو أمر تكوين ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بامره قال

عظمة قدرته ومنهم من حمل الامر على الامر الذي هو الكلام وقال انه تعالى أمر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة الى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم فان قلت ان الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم قلت انما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الاشراق والنور وسيرهما في المنازل لتعرف الاوقات فهو كقوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وان كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة وقوله تعالى (ألا له الخلق والامر) يعني له الخلق لانه خالقهم وله أن يأمرهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الامر هنا الذي هو نقيض النهي واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى ان كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني أن من جعل الامر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لان المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله وقيل معناه ان جميع ما في العالم لله عز وجل والمخلوق له لانه خلقهم وجميع الامور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا الأحد شيء وقيل المراد بالامر هنا الارادة لان الغرض من الآية تعظيم القدرة وفي الآية دليل على أنه لا خالق الا الله عز وجل ففيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم فأخبر الله انه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه (تبارك الله) يعني تمجد وتعظم وارتفع وقال الزجاج تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله (رب العالمين) يعني انه هو الذي يستحق التعظيم وذلك أن الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض وذكر أشياء من عظيم خلقه وان له الخلق والامر والنهي والقدرة عليهم ختم الآية بالثناء عليه لانه هو المستحق للحمد المطلق والثناء والتعظيم وقال ابن عباس رضي الله عنهما معناه جاء بكل بركة وقيل تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة وقيل معناه يتبرك في كل شيء وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لانه لم يرد به التوقيف قوله عز وجل (ادعوا ربكم) قيل معناه اعبدوا ربكم لان معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه صفة العبادة ولانه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه وقيل المراد به حقيقة الدعاء وهو الصحيح لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لان الداعي لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعي فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) يعني

(ألا له الخلق والامر) أي هو الذي خلق الاشياء وله الامر (تبارك الله) كثر خيره أو دام برهمن البركة النماء أو من البروك الثبات ومنه البركة (رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا

ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل الذى فى النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع وقال الزجاج تضرعا يعنى تملقا وحقيقته أن تدعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى (وخفية) يعنى سرا فى أنفسكم وهو ضد العلانية والأدب فى الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وان الله تعالى ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال تعالى اذ نادى ربه نداء خفيا (ق) وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم والذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته قال أبو موسى رضى الله عنه وانا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فى نفسى فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم قوله صلى الله عليه وسلم اربعوا على أنفسكم يعنى ارفقوا بها واقصروا عن الصياح فى الدعاء وقوله تعالى (انه لا يحب المعتدين) يعنى فى الدعاء وقال أبو مجلز هم الذين يسألون منازل الانبياء عن عبد الله بن مغفل انه سمع ابنه يقول اللهم انى أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها قال أى بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء أخرجه أبو داود وقال ابن جريج الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء وقيل الاعتداء مجاوزة الحد فى كل شئ فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى انه لا يحب المعتدين وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية هل الافضل اظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم الى أن اخفاء الطاعات والعبادات أفضل من اظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم الى ان اظهارها أفضل ليقتدى به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن على الحكيم الترمذى فقال ان كان خائفا على نفسه من الرياء فالاولى اخفاء العبادات صونا لعمله عن البطلان وان كان قد بلغ فى الصفاء وقوة اليقين الى التمكين بحيث صار مباينا شائبة الرياء كان الاولى فى حقه الاظهار لتحصل فائدة الاقتداء به وذهب بعضهم الى أن اظهار العبادات المفروضات أفضل من اخفائها فالصلاة المكتوبة فى المسجد أفضل من صلاته فى بيته وصلاة النفل فى البيت أفضل من صلاته فى المسجد وكذا اظهار الزكاة أفضل من اخفائها واخفاء صدقة التطوع أفضل من اظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) يعنى ولا تفسدوا أيها الناس فى الارض بالمعاصى والكفر والدعاء الى غير طاعة الله بعد اصلاح الله اياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء الى طاعة الله تعالى وهذا معنى قول الحسن

وخفية) نصب على الحال أى ذوى تضرع وخفية والتضرع تفعل من الضراعة وهى الذل أى تذللا وتملقا قال عليه السلام انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا انه معكم أينما كنتم عن الحسن بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفا (انه لا يحب المعتدين) المجاوزين ما أمروا به فى كل شئ من الدعاء وغيره وعن ابن جريج الرافعين أصواتهم بالدعاء وعنه الصياح فى الدعاء مكروه وبدعة وقيل هو الاسهاب فى الدعاء وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) أى بالمعصية بعد الطاعة أو بالشرك بعد التوحيد أو بالظلم بعد العدل

والسدى والضحاك والكلبي وقال ابن عطية لا تعصوا في الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد اصلاحها يعني بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وقيل معنى الآية ولا تفسدوا في الارض شيأ بعد أن أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من اتلاف النفس بالقتل أو افسادها بقطع بعض الاعضاء وافساد الاموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وافساد الاديان بالكفر واعتقاد البدع والاهواء المضلة وافساد الانساب بالاقدام على الزنا وافساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لان المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة فمنع الله من ادخال الفساد في ماهيتها وقوله تعالى (وادعوه خوفا وطمعا) أصل الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفا منه ومن عقابه وطمعا فيما عنده من جزيل ثوابه وقال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل معناه ادعوه خوفا من الرياء في الذكر والدعاء وطمعا في الاجابة فان قلت قال في أول الآية ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشيء على نفسه فما فائدة ذلك قلت الفائدة فيه ان المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أي ليكن الدعاء مقرونا بالتضرع والاخبات وقوله وادعوه خوفا وطمعا ان فائدة الدعاء أحد هذين الامرين فكانت الآية الاولى في بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ولا تضمعوا انفسكم وفيم حق الله في العبادة والدعاء وان اجتهدتم فيهما (ان رحمت الله) أصل الرحمة رقة تقتضي الاحسان الى المرحوم وتستعمل تارة في الرقة المجردة عن الاحسان وتارة في الاحسان المجرد عن الرقة واذا وصف بها الباري جل وعز فليس يراد بها الا الاحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الافضال والانعام على عباده وايصال الخير اليهم وقيل هي ارادة ايصال الخير والنعمة الى عباده فعلى القول الاول تكون الرحمة من صفات الافعال وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تأنيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لان الانسان في كل ساعة من الساعات في ادبار عن الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك كان الموت أقرب اليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان قوله عز وجل (وهو الذي يرسل الرياح) هذا عطف على ما قبله والمعنى ان ربكم الذي خلق السموات والارض وهو الذي يرسل الرياح (بشرا) قرئ نشرا بالنون أراد جمع نشور وهي الريح الطيبة الهبوب التي تهب من كل ناحية وقيل هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها وقال الفراء النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب وقال ابن الانباري النشر المنتشرة الواسعة الهبوب وقيل النشر خلاف الطي فيحتمل انها كانت

(وادعوه خوفا وطمعا) حالان أي خائفين من الرد طامعين في الاجابة أو من النيران وفي الجنان أو من الفراق وفي التلاق أو من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية أو من العدل وفي الفضل

(ان رحمت الله قريب من المحسنين) ذكر قريب على تاويل الرحمة بالرحم أو الترحم أو لانه صفة موصوف محذوف أي شيء قريب أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول أو لان تأنيث الرحمة غير حقيقي أو للاضافة الى المذكر (وهو الذي يرسل الرياح) الريح وهي وحمزة وعلي (نشرا) حمزة وعلي مصدر نشر وانتصابه اما لان أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل ينشرها نشرا واما على الحال أي منشورات بشرا عاصم تخفيف بشرا جمع بشير لان الرياح تبشر بالمطر نشرا شامي تخفيف نشر كرسل ورسل وهو قراءة الباقين جمع نشور أي ناشرة للمطر

بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت وقرئ نشرا بالباء جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهى الشرقية والدبور وهى الغربية والشمال وهى التى تهب من تحت القطب الشمالى والجنوب وهى القبلية وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان الرياح ثمان أربع منها عذاب وهى القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهى الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات (بين يدى رحمته) يعنى أمام المطر الذى هو رحمته وانما سماه رحمة لانه سبب لحياة الارض الميتة قال أبو بكر بن الانبارى رحمه الله تعالى اليدان تستعملهما العرب فى المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون فى الفتن بين يدى الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيها وتمثيلا بما اذا كانت بدا الانسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به * عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بالكم فى الريح فلم يرجعوا اليه شيأ وبلغنى الذى سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتى حتى ادركت عمر وكنت فى مؤخر الناس فقلت يا أمير المؤمنين أخبرت انك سألت عن الريح فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الريح من روح الله تعالى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه الشافعى رضى الله عنه بطوله واخرجه أبو داود فى المسند عنه وقال كعب الاحبار لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الارض وقوله تعالى (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) يقال أقل فلان الشئ اذا احمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء والمعنى حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا ثقالا بما فيه من الماء قال السدى ان الله تبارك وتعالى يرسل الريح فتأتى بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم ثم تنشره فتبسطه فى السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك وقيل ان ان الله تعالى دبر بحكمته ان الرياح تحرك تحريكا شديدا فتثير السحاب ثم ينضم بعضه الى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه الى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى (سقناه لبلد ميت) يعنى الى بلد فتكون اللام بمعنى الى وقيل معناه لاجل حياة بلد ميت وانما قال سقناه لان لفظ السحاب مذكر وان كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزا نظرا الى اللفظ قال الازهرى رحمه الله تعالى قال الليث البلد كل موضع من الارض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد زاد غيره والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن قال الاعشى

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة * للجن بالليل فى حافاتها زجل

ومعنى الآية انا سقنا السحاب الى بلد ميت محتاج لانزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة (فانزلنا به الماء) اختلفوا فى الضمير فى قوله تعالى به الى ماذا يعود

(بين يدى رحمته) أمام نعمته وهو الغيث الذى هو من أجل النعم
(حتى اذا أقلت) حملت ورفعت واشتقاق الاقلال من القلة لان الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلا
(سحابا ثقالا) بالماء جمع سحابة
(سقناه) الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث كما حمل الوصف على اللفظ لتقيل ثقيلا
(لبلد ميت) لاجل بلد ليس فيه مطر ولسقيه ميت مدنى وحمزة وعلى وحفص
(فأنزلنا به الماء) بالسحاب أو بالسوق وكذلك

فقال الزجاج رحمه الله وابن الانباري جائز أن يكون المعنى فانزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وانزلنا بالسحاب الماء لان السحاب آلة لنزول الماء (فاخرجنا به) يعني بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات وقيل يحتمل أن يكون المعنى فأخرجنا بذلك الميت (من كل الثمرات) يعني واخرجنا بذلك البلد بعد موته وجدبه من أصناف الثمار والزروع (كذلك نخرج الموتى) يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه فقيل ان الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة انزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة أنزال المطر أيضا قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما ان الناس اذا ماتوا في النفخة الاولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء وفي رواية أربعين يوما فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يأتي عليهم النوم فينامون في قبورهم فاذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فينادي بهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون قال مجاهد اذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى امطر السماء حتى تشق الارض ثم يرسل الارواح فتعود كل روح الى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كما يحيا به الارض به وقيل انما وقع التشبيه بأصل الاحياء والمعنى انه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فانبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد ان كانوا أمواتا ورمما بالية لان من قدر على اخراج الثمر الرطب من الحشب اليابس قادر على ان يحييهم ويخرجهم من قبورهم الى حشرهم ونشرهم (لعلكم تذكرون) الخطاب لمنكري البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهي مرهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الازهار والاوراق والثمار ثم ان الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على احيائها بعد موتها قادر على أحياء الاجساد بعد موتها والمعنى انما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا ان من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي قوله تعالى (والبلد الطيب) يعني والارض الطيبة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) يعني اذا أصابه المطر أخرج نباته باذن الله عز وجل (والذي خبث لا يخرج) يعني والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا يخرج يعني لا يخرج نباته (الا نكدا) يعني عسرا عديمة وكلمة قال الشاعر في المعنى يذم انسانا

لا تنجز الوعد ان وعدت وان ... أعطيت اعطيت تافها نكدا

يعني بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه انك ان أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة قال المفسرون هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الارض

(فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك) مثل ذلك الاخراج وهو اخراج الثمرات (نخرج الموتى لعلكم تذكرون) فتؤدي بكم التذكر الى الايمان بالبعث اذ لا فرق بين الاخراجين لان كل واحد منهما اعادة الشيء بعد انشائه (والبلد الطيب) الارض الطيبة التربة (يخرج نباته باذن ربه) بتيسيره وهو موضع الحال كأنه قيل يخرج نباته حسنا وافيا لانه واقع في مقابلة نكدا (والذي خبث) صفة للبلد أي والبلد الخبيث (لا يخرج) أي نباته فحذف للاكتفاء (الا نكدا) هو الذي لا خير فيه وهذا مثل لمن يسمع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر وهذا التمثيل واقع على أثر تمثيل دلائل القدرة وانزاله بالبلد الميت واخراج الثمرات به على طريق الاستطراد

الصيبة

الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الازهار والثمار وكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت عشقة وكافقة ولا ينتفع بها في الآخرة قال ابن عباس رضي الله عنهما هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على انعامه عليهم بالهداية وحيث جنبهم سبيل الضلالة وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا باسماع القرآن قوله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) اعلم ان الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده ودور بوبيته وأتم الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت الى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة الى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الامم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والاخبار عن القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك أنه انما أتى به من عند الله عز وجل وأنه أوحى اليه ذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى لقد أرسلنا نوحا الى قومه لقد أرسلنا نوحا جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو ادريس عليه الصلاة والسلام ومعنى أرسلنا بعثناه وهو أول نبي بعثه

(كذلك) مثل ذلك التصريف (نصرف الآيات) نرددها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها (لقد أرسلنا) جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا (نوحا الى قومه) أرسل وهو ابن خمسين سنة وكان نجارا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام

(فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) غيره على فالرفع على المحل كانه قيل مالكم اله غيره فلا تعبدوا معه غيره والجر على اللفظ (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان (قال الملأ) أى الاشراف والسادة (من قومه انا لنراك فى ضلال مبين) أى بين فى ذهاب عن طريق الصواب والرؤية رؤية القلب (قال يا قوم ليس بى ضلالة) ولم يقل ضلال كما قالوا لان الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كانه قال ليس بى شئ من الضلال ثم استدرك لما أكد نفى الضلالة فقال (ولكنى رسول من رب العالمين) لان كونه رسولا من الله مبلغا لرسالاته فى معنى كونه على الصراط المستقيم فكان فى الغاية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربى) ما أوحى الى فى الاوقات المتعاقبة أو فى المعانى المختلفة من الاوامر والنواهى والمواعظ والبشائر والنذائر أبلغكم أبو عمرو وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين (وأنصح لكم) وأصدصلاحكم باخلاص يقال نصحته ونصحت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على اخلاص النصيحة وحقيقة النصح ارادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك أو النهاية فى صدق العناية (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى من صفاته يعنى قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين (أوعجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم)

الله تعالى بعد ادريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجارا وقيل معنى الارسال ان الله تعالى حمله رسالة ليؤديها الى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضا ويكون البعث كالتابع لا أنه أصل قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لما رأجعته ربه فى شان ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعبتنى أم عبت الكلب (فقال) يعنى نوحا لقومه (يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى اعبدوا الله تعالى فانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره فانه ليس لكم اله معبود سواه فانه هو الذى يستوجب أن يعبد (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يعنى ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذى خافه عليهم هو اما يوم الطوفان واما يوم القيامة أو يوم القيامة واما قال خاف على الشك وان كان على يقين من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة (قال الملأ) وهم الجماعة الاشراف (من قومه انا لنراك) يعنى يا نوح (فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ وزوال عن الحق بين (قال) يعنى نوحا (يا قوم ليس بى ضلالة) يعنى ما بى ما تظنون من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى هو أرسلنى اليكم لانذركم وأخوفكم ان لم تؤمنوا به وهو قوله (أبلغكم رسالات ربى) يعنى تحذيرى اياكم عقابه على كفركم ان لم تؤمنوا به (وأنصح لكم) يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحرى قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع حلوص النية من شوائب المكروه والمعنى انه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم الى الوجه الاصلح والاصوب لكم وأدعوكم الى ما دعانى اليه وأحب لكم ما أحب لنفسى قال بعضهم والفرق بين ابلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهو أن يرغبهم فى قبول تلك الاوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى وأعلم انكم ان عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق فى الدنيا ويعذبكم فى الآخرة عذابا عظيما وقيل أعلم ان مغفرة الله تعالى لمن تاب وعفو بته ان أصر على الكفر وقيل لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله مالا تعلمون (أوعجبتم) الالف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام انكار معناه أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر من ربكم) يعنى وحيا من ربكم (على رجل

منكم) على لسان رجل منكم أى من جنسكم وذلك انهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (ولتتقوا) منكم تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لان كونه منهم يزيل التعجب وقيل المراد بالذكر الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمى القرآن ذكرا وقيل المراد بالذكر المعجزة التى جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أى مع رجل منكم قال الفراء على هنا بمعنى مع (لينذركم) يعنى جاءكم لاجل ان ينذركم (ولتتقوا) أى ولاجل أن تتقوا (ولعلكم ترحمون) لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل ما لا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة (فكذبوه) يعنى فكذبوا نوحا (فأنجيناه) يعنى من الطوفان والغرق (والذين معه) يعنى من آمن من قومه معه (فى الفلك) يعنى فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) قال ابن عباس رضى الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى وقال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر وأنشدوا قول زهير

واعلم ما فى اليوم والامس قبله * ولكننى عن علم ما فى غد عمى

قال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق قوله تعالى (والى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهى عاد الاولى أخاهم هودا يعنى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وقال ابن اسحق هو هود بن شالخ بن ارخشد بن سام بن نوح واتفقوا على ان هودا عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم فى الدين ثم اختلفوا فى سبب الاخوة من اين حصلت فقيل انه كان واحدا من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لانه واحد منهم وقيل انه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا فى تفسير هذه الاخوة وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفى هذا القدر فى تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن والثانى أنه أخاهم يعنى صاحبهم والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذى عند عمان وحضرموت (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) أى اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه الها آخر فانه ليس لكم اله غيره والفرق بين قوله فى قصة نوح فقال وهنا قال أن نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح فى المبالغة فى الدعاء فاخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون يعنى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شئ حسن نحو يفهم من العذاب فقال هناك انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه) وانما وصف الملا بالذين كفروا دون الملا من قوم نوح لان فى اشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد فاريدت التفرقة بالوصف ولم يكن فى اشراف قوم نوح عليه السلام مؤمن ولتوجد منكم التقوى وهى الخشية بسبب الانذار (ولعلكم ترحمون) ولترجوا بالتقوى ان وجدت منكم (فكذبوه) فنسبوه الى الكذب (فأنجيناه والذين معه) وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به (فى الفلك) يتعلق بمعه كانه قيل والذين صحبوه فى الفلك (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) عن الحق يقال أعمى فى البصر وعم فى البصيرة (والى عاد) وأرسلنا الى عاد وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم من قولك يا أخا العرب للواحد منهم وانما جعل واحدا منهم لانهم عن رجل منهم أفهم فكانت الحجة عليهم ألزم (هودا) عطف بيان لأخاهم وهو هود بن شالخ بن ارخشد بن سام بن نوح (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) وانما لم يقل فقال كما فى قصة نوح عليه السلام لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل قال ياقوم اعبدوا الله وكذلك (قال الملأ الذين كفروا من قومه) وانما وصف الملا بالذين كفروا دون الملا من قوم نوح لان فى اشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد فاريدت

(انا لنراك في سفاهة) يعني انا لنراك ياهود في حق وجهالة وضلالة عن الحق والصواب أخبر الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا له انا لنراك في ضلال مبين وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا له انا لنراك في سفاهة والفرق بينهما ان نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة قال له قومه عند ذلك انا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في اصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء واما هود عليه السلام فانه لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك في سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) يعني في ادعائك انك رسول من عند الله (قال) يعني قال هود لهؤلاء الملا الذين نسبوه الى السفه (يا قوم ليس بي سفاهة) يعني ليس الامر كما تدعون ان بي سفاهة (ولكني رسول من رب العالمين) يعني اليكم (أبلغكم رسالات ربي) يعني أؤدي اليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) يعني فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه (أمين) يعني على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما أئتمن عليه حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام انه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام انه قال وأنا لكم ناصح فالاول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما ان صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله عنه بقوله قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وانما فعل هود ذلك وقال هذا القول لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) يعني أعجبتم ان انزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم وتخوفكم عقابه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) يعني واذكروا نعمة الله عليكم اذ أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم في الارض (وزادكم في الخلق بسطة) يعني طولا وقوة قال الكلبي والسدي كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقيل سبعين ذراعا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ثمانين ذراعا وقال مقاتل اثني عشر ذراعا وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة (فاذكروا آلاء الله) يعني نعم الله وفيه اضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا أعمالا تليق بذلك الانعام وهو ان تؤمنوا به وتشكروا ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) يعني لكي تفوزوا بالفلاح وهو البقاء في الآخرة (قالوا) يعني قال قوم هود مجيبين له (أجئتنا) ياهود

من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح) فيما أدعوكم اليه (أمين) على ما أقول لكم وانما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم وانا لنظنك من الكاذبين أي ليقابل الاسم الاسم وفي اجابة الانبياء عليهم السلام من ينسبهم الى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بان خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم واخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسألون أذيالهم على ما يكون منهم (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي خلفتموهم في الارض أو في مساكنهم واذ منصوب به وليس بظرف أي اذكروا وقت استخلافكم (وزادكم في الخلق بسطة) طولا وامتدادا فكان أقصرهم ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع بصطة جازى وعاصم وعلى (فاذكروا آلاء الله) في اسباغ نعمه عليكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه وواحد الآلاء الى فحراني والآناء (لعلكم تفلحون) رمعنى النجاء في (قالوا أجئتنا) أن يكون لهود عليه السلام

(لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يعني من الاصنام (فائتنا بما تعدنا) يعني من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعني في قولك انك رسول الله (قال) يعني قال هود مجيبا لهم (قد وقع) يعني نزل ووجب (عليكم من ربكم رجس وغضب) أي عذاب وسخط (أتجادلونني) يعني اتخاصمونني (في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها (ما نزل الله بها من سلطان) يعني من حجة وبرهان على هذه التسمية وانما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل (فانتظروا) يعني العذاب (اني معكم من المنتظرين) يعني نزول العذاب بكم (فانجيناه) يعني فانجيناه وحده عند نزول العذاب بقومه (والذين معه برحمة منا) يعني وانجينا اتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لانهم كانوا مستحقين للرحمة (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) يعني وأهلكنا الذين كذبوا هودا من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعا ولم يبق منهم واحد (وما كانوا مؤمنين) يعني لانهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام

(ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن اسحق وأصحاب السير والاخبار)

قالوا جميعا كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الاحقاف والاحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فشوا في الارض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه الها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فابوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس قليل وهم يسيرون يكتمون ايمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم ايمانه فلما عتوا على الله وكذبوا نبيهم وأكثروا في الارض الفساد وغمروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان اذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم وكافرهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل وكان البيت معروفا مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وانما سموا العماليق لان أباهم كان عملیق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كاهدة بنت الخيبري وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقل عنهم المطر قالوا جهزوا منكم وفدا الى مكة ليستسقوا لكم فانكم قد هلكتم

وسلم بحراء قبل المبعث فلما أوحى اليه جاء قومه يدعوهم (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) انكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الاصنام شركاء معه جهلا منهم فأشار اليه (فائتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) أن العذاب نازل بنا (قال قد وقع) أي قد نزل (عليكم) جعل المتوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع كقولك لمن طلب اليك بعض المطالب قد كان (من ربكم رجس) عذاب (وغضب) سخط (أتجادلونني في اسماء سميتموها) في أشياء ما هي الا أسماء ليس تحتها مسميات لانكم تسمون الاصنام آلهة وهي خالية عن معنى الالوهية (أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حجة (فانتظروا) نزول العذاب (اني معكم من المنتظرين) ذلك (فانجيناه والذين معه) أي من آمن به (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الاصل أو الذي خلف الشيء وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) فائدة نفي الايمان عنهم مع اثبات التكذيب بآيات الله الاشعار بان الهلاك خص المكذبين وقصتهم أن عادا قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها اصداء وصمود والهبا فبعث الله اليهم هودا فكذبوه فامسك القطر عنهم ثلاث سنين وكانوا اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى

فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هذيل وعقيل بن صندين بن عاد الاكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم اسلامه وجلهمة بن الخيبرى خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فانزلهم وأكرمهم وكانوا اخواله وأصهاره فاقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك اخوالى واصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى نازلون على والله ما أدرى كيف اصنع فانى استحى ان آمرهم بالخروج لما بعثوا اليه فيظنوا أنه ضيق منى بمكانهم عندى وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا قال وشكا ذلك من أمرهم الى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك ان يحركهم فقال معاوية

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ✻ لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا ✻ قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ✻ به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ✻ فقد امست نساؤهم أيامى
وان الوحش تأتيهم جهارا ✻ ولا تخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ✻ نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ✻ ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به فقال بعضهم لبعض يا قوم انما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد ابطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير انكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان اطعتمونى تبتم الى ربكم فتستغفروه وأظهر اسلامه عند ذلك وقال فى ذلك

عصت عاد رسولهم فاضوا ✻ عطاشا ما تبلهم السماء
فهم ضنوا بقال لا صمود ✻ يقابله صداء والهباء
فصرنا الرسول سبيل رشد ✻ فابصرنا الهدى وجلى العماء
وان الله هود هو الهى ✻ عليه التوكل والرجاء

زاد فى رواية

لقد حكم الاله وليس جورا ✻ وحكم الله ان غلب الهواء
على عاد وعاد شر قوم ✻ فقد هلكوا وليس لهم بقاء
وانى ان أفارق دين هود ✻ طوال الدهر أو يأتى الفناء

فقال جلهمة بن الخيبرى عجبا لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف انه اتبع دين

هود وآمن به

ألا ياسعد انك من قبيل * ذوى كرم وأمك من ثمود
فانا لا نطيعك ما بقينا * ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفد * ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام * ذوى رأى ونتبع دين هود

لا يخفى ما فى قافية البيت الثانى

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا الى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا الى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشئ مما خرجوا اليه فلما انتهى اليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فيما يدعوك به وفد عاد وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال اللهم أعط قيلا ما سألك وقال الوفد معه واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى اذا فرغوا من دعوتهم قام لقمان فقال اللهم انى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤلى وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا الهنا ان كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا فانشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل قد اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فنادا ه مناد اخترت رمادا رمددا لا يبقى من آل عاد أحدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التى اختارها قيل بما فيها من النقمة الى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ أى كل شئ مرت به بامر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف انها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أن أفاقت قالوا لها ما ذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من آل عاد أحدا الا أهلكته واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبهم ومن معهم من الريح الا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الانفس وانها لتمر بالظعن من عاد فتحملهم بين السماء والارض وبدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده اذ أقبل اليه رجل على ناقة فى ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فاخبرهم الخبر فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه فقال فارقتهم بساحل البحر وكانهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر صدق ورب الكعبة وقال السدى بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا الى الابل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والارض فلما رأوها تبادروا الى البيوت فدخلوها وأغلقوا الابواب فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فاهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم

الله الفرج منه عند بيته الحرام فاوفدوا اليه قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد وكان يكتم ايمانه بهود عليه

السلام وأهل مكة اذ ذاك العمالية أولاد عملين بن لاوذ ابن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه بظاهر مكة فقال لهم مرثد ان تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخلفوا مرثدا وخرجوا فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فانشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء على ظن انها أكثر ماء فخرجت على عاد من وادهم فاستبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم وضاهود والمؤمنون معه فوتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا (والى ثمود) وارسلنا الى ثمود ويصرف والى ثمود بتاويل الحى أو باعتبار الاصل لانه اسم أبيهم الاكبر ومنع الصرف بتاويل القبيلة وانما قيل سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام (أخاهم صالحا) قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الهة غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتى فما تلك البينة فقال (هذه ناقة الله) وهذه اضافة تخصيص وتفخيم لانها بتكوينه تعالى بلا اصلاب ولا رحم (لكم آية) حال من الناقة والعامل معنى الاشارة في هذه كانه قيل اشير اليها آية وانما بين لمن هي له آية وهن ثمود لانهم عاينوها

أرسل الله تعالى عليهم طيرا أسود فنقلهم الى البحر فالقاهم فيه وقيل ان الله تعالى أمر الريح فاماتت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط الا بمكيال الا يومئذ فانها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفي الحديث انما خرجت على مثل خرق الخاتم وقيل ان مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم قد أعطيتم منا كم فاختاروا لانفسكم غير انه لا سبيل الى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد اللهم أعطني براوصدقا فاعطى ذلك وقال لقمان اللهم أعطني عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فاذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه وأما قيل فانه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له انه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فاصابه الذي أصاب عادا فهلك ومن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فاتت الريح لما خرجوا من الحرم فاهلكتهم جميعا فلما أهلك الله عادا ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه الى موضع يقال له الشحر من أرض اليمن فنزل هنالك ثم أدركه الموت فدفن بارض حضرموت يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب احمر وقال عبد الرحمن بن شيبة بين الركن والمقام وزمزم قبر سبعة وسبعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم الصلاة والسلام في ثلاث البقعة ويروى ان كل نبي من الانبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه الى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها وقوله عز وجل (والى ثمود أخاهم صالحا) يعني وأرسلنا الى ثمود وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام والى بني ثمود أخاهم صالحا لان ثمود قبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لانه ماء لها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذي ينسبون اليه أخاهم صالحا يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) يعني قال لهم صالح حين ارسله الله تعالى اليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيأ ما لكم من اله يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو اليه من عبادة الله تعالى وان لا تشركوا به شيأ وعلى تصديقي بأني رسول الله اليكم ثم فسر تلك البينة فقال (هذه ناقة الله لكم آية) يعني علامة على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة لعادتها انها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من انثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لانها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لانه كان لها شرب

(فذروها تأكل فى أرض الله) أى الارض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل فى أرضه برهان ربانى ظاهر عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) ولا تضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها اكراما لآية الله (فيأخذكم) جواب النهى (عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم) ونزلكم والمباءة النزل (فى الارض) فى أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتخذون من سهولها قصورا) غرفا للصيف (وتنحتون الجبال بيوتا) للشتاء و بيوتا حال مقدرة تخوطط هذا الثوب قميصا اذا الجبل لا يكون بيتا فى حال النحت ولا الثوب قميصا فى حال ١٤٣ الخياطة (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين) روى ان عاد الما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها فى الارض وعمروا اعمارا طوالا فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات وكانوا فى سعة من العيش فعتوا على الله وافسدوا فى الارض وعبدوا الاوثان فبعث الله اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله فلم يتبعه الا القليل منهم مستضعفون فانذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة يعينها ناقة عشراء فصلى ودعا ربه فتمخضت تمخض النتوج بولدها فخرجت منها ناقة كما شاؤا فآمن به جندع ورهط من قومه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقال شامى (للذين استضعفوا) للذين استضعفهم رؤساء الكفار (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا باعادة الجار وفيه دليل ان البدل حيثما كان فى تقدير اعادة العامل والضمير فى منهم راجع الى قومه وهو يدل على ان استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين اوالى الذين استضعفوا وهو يدل على ان المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوه على سبيل السخرية (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) وانما صار هذا جوابا لهم لانهم سألوهم عن العلم بارساله فجعلوا ارساله أمرا معلوما مسلما كانهم قالوا العلم بارساله وبما أرسل به لا شبهة فيه وانما الكلام فى وجوب الايمان به فخبرهم انا به مؤمنون (قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون) فرضعوا آمنتم به موضع ارسل به ردا لما جعله المؤمنون معلوما مسلما (فعقروا الناقة) اسند العقر الى جميعهم وان كان العاقر قدار بن سالف لانه كان برضاهم

يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضا لان ناقة تشرب ما تشرب به قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها فى يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا أيضا معجزة وقيل ان سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء فى يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء فى غير يوم الناقة وهذا أيضا معجزة وانما أضافها الى الله تعالى فى قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لان الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لانه لم يملكها أحد الا الله تعالى وقيل لانها كانت حجة الله على قوم صالح (فذروها تأكل فى أرض الله) يعنى فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فان الارض لله والناقة أيضا لله وليس لكم فى أرض الله شئ لانه هو الذى أنبت العشب فيها (ولا تمسوها بسوء) يعنى ولا تطردوها ولا تعقروها بشئ من أنواع الاذى ولا تعقروها (فيأخذكم عذاب أليم) يعنى بسبب عقرها وأذاها (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) يعنى أن الله أهلك عادا وجعلكم خلفاءهم فى الارض وتعمرونها (وبوأكم) يعنى وأسكنكم وأنزلكم (فى الارض تتخذون من سهولها قصورا) يعنى تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين (وتنحتون الجبال بيوتا) يعنى وتنقبون بيوتا من الجبل وقيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين (فاذكروا آلاء الله) أى فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) قال قتادة معناه ولا تسيروا فى الارض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهى عن جميع أنواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الاشراف الذين تعظموا عن الايمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى المساكين (لمن آمن منهم) يعنى قال الاشراف المتعظمون فى أنفسهم لاتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) يعنى أن الله أرسله الينا واليكم (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) يعنى قال الضعفاء انا بما أرسل الله به صالحا من الدين والهدى والحق مصدقون (قال الذين استكبروا) يعنى عن أمر الله والايمان به وبرسوله صالح (انا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون منكرون (فعقروا الناقة) يعنى فعقرت

وكان قدار أحمر أزرق قصيرا كما كان فرعون كذلك وقال عليه السلام يا علي أشقى الاولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك (وعتوا عن أمر ربهم) وتمردوا عنه واستكبروا وامر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء وهو دينه (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة) الصيحة التي زلزلت لها الارض واضطربت لها (فأصبحوا في ديارهم) في بلادهم أو مساكنهم (جاثمين) ميتين قعودا يقال للناس جثم أي قعود الاحراك بهم ولا يتكلمون (فتولى عنهم) لما عقروا الناقة (وقال يا قوم) عند فراقها إياهم (لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) الآمرين بالهدى لاصغاء الهوى والصيحة صيحة تدر الصحيحة وتكهاوحمة تورث السخيمة روى ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء فقال صالح تعيشون بعده ثلاثة ايام تصفر وجوهكم أول يوم وتحمر في الثاني وتسود في الثالث ويصيبكم العذاب في الرابع وكان كذلك روى انه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فلما علم انهم هلكوا رجع بمن معه فسكنوا ديارهم

ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلو في الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم صالحا عليه الصلاة والسلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) يعني من العذاب (ان كنت من المرسلين) يعني ان كنت كما تزعم أنك رسول الله فان الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين في كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة وقال مجاهد والسدي هي الصيحة فيحتمل انهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني فاصبحوا في أرضهم وبلادهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أي بلد الحرب ودار بني فلان يعني موضعهم ومجتمعهم وجمع في آية أخرى فقال في ديارهم لانه أراد مال كل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعني باركين على الركب واجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالارض في حال نومه وسكونه بالليل والمعنى انهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون (فتولى عنهم) يعني فأعرض عنهم صالح وفي وقت هذا التولي قولان أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله فأصبحوا في ديارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولي بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثاني انه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه انه خاطبهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء وعلى هذا القول يحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الاول عن هذا الخطاب بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث في الصحيح وفيه فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أقواما قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فيتزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها

* (ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن اسحق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والاخبار) * قالوا جميعا ان عاد الما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الارض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى ان أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعتوا وأفسدوا في الارض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى اليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وافضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى اليهم وهو

غلام فلم يزل يدعوهم الى الله تعالى والى عبادته حتى شمط و كبر فلم يتبعه منهم الا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول فقال صالح اى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم وذلك فى يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا باصنامهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شئ مما يدعوه به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة المنفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت من الابل فان فعلت آمنا بك وصدقناك فاخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنى ولتؤمنن بى قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبيها الا الله عز وجل عظما وهم ينظرون اليها ثم تحبجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية اشراف ثمود أن يؤمنوا به و يصدقوه فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبى أوثانهم ورباب بن صميروكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فكنت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فاذا كان يوم ورودها وضعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع نطفة ثم ترفع رأسها فتفج لهم فيحلبون ما شاؤا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذى وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى اذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربون ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤا لليوم الثانى لهم على ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف اذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم الابل والبقر والغنم فتهبط الى بطن الوادى فتكون فى حره وجدبه واذا كان الشتاء فتشتو الناقة فى بطن الوادى فتهرب المواشى الى ظهره فتكون فى البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للامر الذى يريده الله بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لاحداهما عنيزة بنت غانم بن مخلد وتكنى بام غنم وكانت عجوزا مسنة وهى امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من ابل وبقر وغنم والمرأة الاخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا فى عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل فابى عليها فدعت ابن عم لها يقال له

مصدع بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن
الناس وجها وأكثرهم مالا فاجابها الى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف
وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على
فراشه فقالت عنيزة لقدار أي بنات شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار
عزيزا منيعا في قومه (ق) عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه انه سمع النبي صلى
الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ
انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة قوله انبعث
أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع
الممتنع ممن أراده قال أصحاب الاخبار فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج
فاستنفروا غواة عمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع
وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على
طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة اخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم في
عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من احسن
الناس وجها ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته به فشد قدار على الناقة بالسيف
فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فتمخض رسقها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها
فنحرها فخرج اهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربا حتى اتى جبلا
منيعا يقال له صور وقيل قارة وانى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له ادرك الناقة
فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يعتذرون اليه ويقولون يا نبي الله
انما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان ادركتموه فعسى
أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله
تعالى الى الجبل ان تطاول فتطاول حتى ما نالته الطير وجاء صالح عليه الصلاة والسلام
فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال
صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن
اسحق تبع السقب اربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن
مهرج واخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فاصاب قلبه ثم جذبه فانزله وألقوا لحمه مع لحم
امه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله
ونقمته قالوا وهم يهزؤن به ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الايام في ذلك
الوقت الاحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والاربعاء جبار والخميس مؤنس
والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الاربعاء فقال لهم صالح عليه
الصلاة والسلام حين قالوا ذلك تصبحون غدا يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون
يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم
العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل
صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فاتوه ليلا
ليقتلوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح

عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبدا فانه قد وعدكم العذاب انه نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا بكم الا غضبا عليكم وان كان كاذبا فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وانثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فمنع صالحا فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا الى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يا نبي الله انهم يعذبوننا لندلهم عليك افندلهم عليك قال نعم فدلوهم عليه فاتوا أبا هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم اليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الاجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني اذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا انه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الاجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث اذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الاحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم الى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم الى الارض يتلبون أبصارهم الى السماء مرة والى الارض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الاحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ له صوت في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعا الا جارية متعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فاطلق الله تعالى رجليها بعدما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال وذكر السدي في عقر الناقة فقال أوحى الله عز وجل الى صالح عليه الصلاة والسلام ان قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح انه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاكم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد الا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فابى أن يذبحه لانه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتا سريعا فكان اذا مر بالتسعة فرأوه قالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لانه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس انا قد خرجنا الى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى اذا كان الليل وخرج صالح الى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع الى الغار فنكون فيه حتى ننصرف الى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك

أهله وانا لصادقون فيصدقونه فيظنون انا قد خرجنا الى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فاذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فاذا أمسى خرج الى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة الى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلهم فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم رضخ فرجعوا الى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة وقال ابن اسحق كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة وقال السدي وغيره لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعا فلما كبر جلس مع الناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا أخذنا هذا الماء الذي تشربه الناقة فسقيه لانعامنا وزروعنا كان خيرا لنا وقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم الا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي وفي رواية لمسلم لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ثم ذكر مثله ولهما عنه ان الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يهريقوا ما استقوه ويعلفوا الابل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترده الناقة وللبخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ان لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء وفي بعض الاحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فاهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الارض ومغاربها الا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبي رغال فنزل القوم وابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء وقال قوم من أهل العلم توفي صالح عليه الصلاة والسلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة قوله تعالى (ولوطا) يعني وأرسلنا لوطا وقيل معناه واذكر يا محمد لوطا وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخي ابراهيم وابراهيم عمه (اذ قال لقومه) يعني أهل سدوم واليهم كان قد أرسل وذلك ان لوطا عليه الصلاة والسلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الى

(ولوطا اذ قال لقومه) أي واذكر لوطا واذ بدل منه

(أتأتون الفاحشة) اتفعلون السيئة المتمادية فى القبح (ماسبقكم بها) ماعملها قبلكم والباء للتعدية ومنه قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة (من احد) من زائدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق (من العالمين) من للتبعيض وهذه جملة مستأنفة انكر عليهم اولا بقوله أتأتون الفاحشة ثم وبخهم عليها فقال انتم اول من عملها وقوله تعالى (أئنكم لتأتون الرجال) بيان لقوله أتأتون الفاحشة والهمزة مثلها فى أتأتون للانكار انكم على الاخبار مدنى وحفص يقال أتى المرأة اذا غشيها (شهوة) مفعول له أى للاشتهاء لا حامل لكم عليه الا مجرد الشهوة ولا ذم أعظم منه لانه وصف لهم بالبهيمة (من دون النساء) أى لا من النساء (بل أنتم قوم مسرفون) اضرب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح وهو انهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحدود فى كل شئ فمن ثم اسرفوا فى باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد الى غير المعتاد (وما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم) اى لوطا ومن آمن معه يعنى ما اجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط من انكار الفاحشة ووصفهم بصفة الاسراف الذى هو أصل الشر ولكنهم جاؤا بشئ آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الامر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم (انهم أناس يتطهرون) يدعون الطهارة ويدعون فعلنا الخبيث عن ابن عباس رضى الله عنهما عابوهم بما يتمدح به (فانجيناه واهله) ومن يختص به من دونه من المؤمنين (الا امرأته كانت من الغابرين) من الباقين فى العذاب والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكانت كافرة موالية

الشام فنزل ابراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الاردن أرسله الله تعالى الى أهل سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) يعنى أتفعلون الفعلة الخسيسة التى هى غاية فى القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران فى أدبارهم (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) من الاولى زائدة لتوكيد النفى وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والمعنى ماسبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفى هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا الا كان من قوم لوط (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) يعنى ان أدبار الرجال اشهى عندكم من فروج النساء (بل أنتم) يعنى أيها القوم (قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال الى الحرام واغماذهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تبارك وتعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلا للشهوة وموضع النسل فاذا تركن الانسان وعدل عنهن الى غيرهن من الرجال فكأنما قد اسرف وجاوز واعتدى لانه وضع الشئ فى غير محله وموضعه الذى خلق له لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة المركبة فى الانسان وكانت قصة قوم لوط على ماذكره محمد بن اسحق وغيره من أهل الاخبار والسير انه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن فى الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ وقال لهم اذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فابوا فلما لح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا حسانا صباحا فاخبثوا واستحكم ذلك فيهم قال الحسن كانوا لا ينكحون الا الغرباء وقيل استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضا وقال الكلبى ان أول من عمل به عمل قوم لوط ابليس وذلك لان بلادهم اخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس فى صورة شاب أمرد فدعا الى نفسه فكان أول من نكح فى دبره فامر الله تعالى السماء ان تخسف بهم والارض أن تخسف بهم قوله عز وجل (وما كان جواب قومه) يعنى وما كان جواب قوم لوط للوط اذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ماحرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) يعنى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) يعنى أخرجوا لوطا وأتباعه وأهل دينه من بلدكم (انهم أناس يتطهرون) يعنى أنهم اناس يتنزهون عن فعلكم وعن ادبار الرجال لانها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر وقيل ان البعد عن المعاصى والاثم يسمى طهارة فمن تباعد عنها فقد تطهر فلهذا قال انهم اناس يتطهرون اى من فعل المعاصى والاثم (فانجيناه واهله) يعنى فانجينا لوطا ومن آمن به واتبعه على دينه وقيل المراد باهله المتصلون به بسبب النسب او المراد باهله ابنتاه (الا امرأته) يعنى زوجته (كانت من الغابرين) يعنى كانت من الباقين فى العذاب لانها كانت كافرة

لاهل سدوم وروى انها التفتت فأصابها حجر ٥٠ فماتت (وامطرنا عليهم مطرا) وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا قالوا أمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت حجارة على مسافريهم وقال ابو عبيدة أمطر في العذاب ومطر في الرحمة (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) الكافرين (والى مدين) وأرسلنا الى مدين وهو اسم قبيلة (أخاهم شعيبا) يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للكايل والموازين (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) أي معجزة وان لم تذكر في القرآن (فأوفوا الكيل والميزان) أمرهما والمراد فاوفوا الكيل ووزن الميزان أو يكون الميزان كالميعاد بمعنى المصدر (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن وكانوا يبخسون الناس كل شئ في مبايعتهم وبخس يتعدى الى مفعولين وهما الناس وأشياءهم تقول بخست زيدا حقه أي نقصته اياه (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) بعد الاصلاح فيها أي لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الانبياء والاولياء واضافته كاضافة بل مكر الليل والنهار أي بل مكركم في الليل والنهار (ذلكم) اشارة الى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والافساد في الارض (خير لكم) في الانسانية وحسن المروءة (ان كنتم مؤمنين) مصدقين لي في نبوتي (ولا تقعدوا بكل صراط) بكل طريق (توعدون) من آمن بشعيب بالعذاب

وقيل معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وانما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب ذكر الرجال فقال من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) يعني حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال ابو عبيدة يقال في العذاب أمطرت وفي الرحمة مطرت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يعني انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم قال مجاهد نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها اسفلها ثم أتبعوا بالحجارة وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وان كان هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الافعال القبيحة والفواحش الخبيثة قوله عز وجل (والى مدين أخاهم شعيبا) يعني وارسلنا الى مدين أكثر المفسرين على ان مدين اسم رجل وهو مدين بن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا الى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم وبنو عدي وبنو أسد وقيل مدين اسم للماء الذي كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى وأرسلنا الى أهل مدين والصحيح هو الاول لقوله أخاهم شعيبا يعني في النسب لا في الدين وشعيب هو ابن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن اسحق هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام وقيل هو شعيب بن يثرون بن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان (قال) يعني شعيب (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يعني قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقية ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة اليكم لانه لابد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير أن تلك المعجزة التي كانت لشعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الانبياء مذكورة في القرآن وقيل أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة اليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهي قوله (فأوفوا الكيل والميزان) يعني فاتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم وهو قوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يعني لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم اياها فطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان في الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) يعني بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل واقامة العدل وكل نبي يبعث الى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) يعني الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من الايمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بما أقول (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) يعني ان شعيبا قال لقومه الكفار

(وتصدون عن سبيل الله) عن العبادة (من آمن به) بالله وقيل كانوا يقطعون الطرق وقيل كانوا عشارين (وتبغونها) وتطلبون لسبيل الله (عوجا) أى تصفونها للناس بانها سبيل معوجة غير مستقيمة لتمنعوهم عن سلوكها ومحل توعدون وما عطف عليه النصب على الحال أى لا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغين عوجا (واذكروا اذ كنتم قليلا) اذ مفعول به غير ظرف أى واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم (فكثركم) الله ووفر عددكم وقيل ان مدين ابن ابراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها بالبركة والنماء فكثروا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) آخر أمر من أفسد قبلكم من الامم كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا) أى بين الفريقين بان ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم أو هو حث للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين الى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم أو هو خطاب للفريقين أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار والكافرون على ما يسوءهم من ايمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب (وهو خير الحاكمين) لان حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) أى ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم واما عودكم فى الكفر

ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الايمان بالله وبرسوله شعيبا وهو قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) يعنى وتمنعون من يريد الايمان بالله وتقولون ان شعيبا كذاب وتخوفونه بالقتل قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم (وتبغونها عوجا) يعنى وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد وقيل معناه وتبغون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد (واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم) يعنى ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم قال الزجاج يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف وجه ذلك أنهم اذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى انه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) يعنى وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الامم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) يعنى وان اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت رسالتى (فاصبروا) فيه وعيد وتهديد (حتى يحكم الله بيننا) يعنى حتى يقضى الله ويفصل بيننا فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم (وهو خير الحاكمين) يعنى انه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف فى حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الجماعة من اشراف قومه الذين تكبروا عن الايمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) يعنى أن قوم شعيب أجابوه بان قالوا لابد من أحد أمرين اما اخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن الى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه اشكال وهو أن شعيبا عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن فى ملتنا واجيب عن هذا الاشكال بان أتباع شعيب كانوا قبل الايمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط وقيل معناه لتصيرن الى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد على من فلان مكروه بمعنى قد لحقنى منه ذلك وان لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر

فان تكن الايام أحسن مدة * الى فقد عادت لهن ذنوب

اراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد ان ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان وقوله تعالى (قال أولو كنا كارهين) اى لا نعود فى ملتكم وان اكرهتمونا واجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) يعنى ان شعيبا أجاب قومه اذ دعوه ومن آمن به الى العود الى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعنى قد اختلقنا على الله كذبا وتخرصنا عليه من القول باطلا ان نحن رجعنا الى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأ هارهذا ايضا فيه من الاشكال مثل ما فى الاول وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ما كان فى ملتهم قط حتى يقول ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الاشكال الاول وهو ان نقول ان الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة الا ان شعيبا نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريئا مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب وقيل معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها وقوله تعالى اخبارا عنه (وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا) يعنى وما يكون لنا ان نرجع الى ملتكم ونترك الحق الذى نحن عليه الا أن يشاء الله ربنا يعنى الا ان يكون قد سبق لنا فى علم الله ان نعود فيها فحينئذ يمضى قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدى معنى العود هنا الابتداء والذى عليه أهل العلم والسنة فى هذه الآية أن شعيبا وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع الى ملتكم بعد أن وفقنا الله لدينه وخلصنا منه الا ان تكسب دخول النار الا ان يريد الله اهلاكنا فامورنا راجعة الى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقى من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الانبياء والاكابر يخافون العاقبة وانقلاب الامر الا ترى الى قول الخليل عليه الصلاة والسلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يكون قد سبق فى علم الله ومشيئته ان نعود فيها وتصديق ذلك قوله (وسع ربنا كل شئ علما) يعنى انه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وانه تعالى كان عالما فى الازل بجميع الاشياء فالسعيد من سعد فى علم الله تعالى والشقى من شقى فى علم الله تعالى (على الله توكلنا) أى على الله نعتمد واليه نستند فى أمورنا كلها فانه الكافى لمن توكل عليه والمعنى على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الاسباب ونظر الى مسبب الاسباب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) لما أيس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أى اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعنى بالعدل الذى لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) يعنى خير الحاكمين قال الفراء ان أهل عمان يسمون القاضى الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هى لغة مراد وأنشد لبعضهم فى ذلك

ألا أبلغ بنى عصم رسولا * فانى عن فتى حكم غنى

(قال) شعيب (أولو كنا كارهين) الهمزة للاستفهام والواو للحال تقديره أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا ومع كوننا كارهين قالوا نعم ثم قال شعيب (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم) وهو قسم على تقدير حذف اللام أى والله لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم (بعد اذ نجانا الله منها) خلصنا الله فان قلت كيف قال شعيب ان عدنا فى ملتكم والكفر على الانبياء عليهم السلام محال قلت أراد عود قومه الا انه نظم نفسه فى جملتهم وان كان بريئا من ذلك اجراء الكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا) وما ينبغى لنا وما يصح (أن نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا) الا أن يكون سبق فى مشيئته أن نعود فيها اذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها (وسع ربنا كل شئ علما) تمييز أى هو عالم بكل شئ فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلب (على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الايمان ويوفقنا لازدياد الايقان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أى احكم والقضاء له الحكومة والقضاء بالحق يفتح الام المغلق فلذا سمى قاضيا ويسمى أهل عمان القاضى فتاحا (وأنت خير الفاتحين) كقوله وهو خير الحاكمين

أراد انه غنى عن حاكمهم وقاضيهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ما كنت أدرى ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول تعال أفاتحك يعنى أقاضيك وهذا قول قتادة والسدى وابن جريج وجمهور المفسرين ان الفاتح هو القاضى والحاكم سمى بذلك لانه يفتح أغلاق الاشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى يتفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذابا يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح برادبه الكشف والتمييز (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) يعنى وقال جماعة من اشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه (انكم اذا لخاسرون) يعنى انكم لمغبونون فى فعلكم (فأخذتهم الرجفة) يعنى الزلزلة الشديدة (فاصبحوا فى دارهم جاثمين) قال ابن عباس وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حر شديد امن جهنم فاخذ بانفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا فى الاسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم وهى الظلة فوجدوا الها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم القيها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد فى المقلى وصاروا رمادا وروى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها وقال قتادة بعث الله شعيبا الى أصحاب الايكة والى أهل مدين فاما أصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فاخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعا قال ابو عبد الله البجلى كان ابوجاد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به

كان هدم ركنى * هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه * هلك نار تحت ظله
جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) يعنى كان لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أى اقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل فى معنى الآية كان لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يعنى خسروا أنفسهم بهلاكهم (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) يعنى انه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون) مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه لانه ينهاكم عنهما ويأمركم على الايفاء والتسوية وجواب القسم الذى وطئته اللام فى لئن اتبعتم وجواب الشرط انكم اذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فاخذتهم الرجفة) الزلزلة (فاصبحوا فى دارهم جاثمين) ميتين (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها غنى بالمكان أقام (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) لا من قالوا لهم انكم اذا لخاسرون وفى هذا الابتداء معنى الاختصاص كانه قيل الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بان أهلكوا كان لم يقيموا فى دارهم لان الذين اتبعوا شعيبا قد أنجاهم الله الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون وفى التكرير مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم (فتولى عنهم) بعد أن نزل بهم العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم

ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله (فكيف آسى) يعني أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا باهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم أو أراد لقد أعذرت لكم في الابلاغ والتحذير مما حل بكم فلم تصدقوني فكيف آسى عليكم (وما أرسلنا في قرية من نبي) يقال لكل مدينة قرية وفيه حذف أي فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) الضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم أو هما نقصان النفس والمال (لعلهم يضرعون) ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة والصحة (حتى عفوا) كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات اذا كثر ومنه قوله عليه السلام واعفوا اللحى (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا نحو ذلك وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه (فاخذناهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بنزول العذاب والالم في

فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا باهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم أو أراد لقد أعذرت لكم في الابلاغ والتحذير مما حل بكم فلم تصدقوني فكيف آسى عليكم (وما أرسلنا في قرية من نبي) يقال لكل مدينة قرية وفيه حذف أي فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) الضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم أو هما نقصان النفس والمال (لعلهم يضرعون) ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة والصحة (حتى عفوا) كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات اذا كثر ومنه قوله عليه السلام واعفوا اللحى (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا نحو ذلك وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه (فاخذناهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بنزول العذاب والالم في

(ولو أن أهل القرى) اشارة الى أهل القرى التى دل عليها وما ارسلنا فى قرية من نبى كانه قال ولو ان اهل تلك القرى الذين كذبوا اهلكوا (آمنوا) بدل كفرهم (واتقوا) الشرك مكان ارتكابه (لفتحنا عليهم) لفتحنا امامهم (بركات من السماء والارض) اراد المطر والنبات اولا آتيناهم بالخير من كل وجه (ولكن كذبوا) الانبياء (فاخذناهم بما كانوا يكسبون) بكفرهم وسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام للجنس (افأمن اهل القرى) يريد الكفار منهم (ان يأتيهم بأسنا) عذابنا (بياتا) ليلا اى وقت بيات يقال بات بياتا (وهم نائمون او امن اهل القرى ان يأتيهم ١٥٥ بأسنا ضحى) نهارا واو الضحى فى الاصل ضوء الشمس اذا أشرقت والفاء والواو فى أفامن وأوأمن حرفا عطف دخل عليهما همزة الانكار والمعطوف عليه فاخذناهم بغتة وقوله ولو أن اهل القرى الى يكسبون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وانما عطفت بالفاء لان المعنى فعلوا وصنعوا فاخذناهم بغتة بعد ذلك أمن اهل القرى ان يأتيهم باسنا بياتا وأمنوا ان ياتيهم باسنا ضحى اوامن شامى وحجازى على العطف بأو والمعنى انكار الامن من احد هذين الوجهين من اتيان العذاب ليلا اوضحى فان قلت كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف وهو بنا فى الاستفهام قلت التنافى فى المفرد لا فى عطف جملة على جملة لانه على استئناف جملة بعد جملة (وهم يلعبون) يشتغلون بما لا يجدى لهم (افامنوا) تكرير لقوله أفامن اهل القرى (مكر الله) اخذه العبد من حيث لا يشعر وعن الشبلى قدس الله روحه العزيز عز وجل (ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا) لما بين الله تعالى فى هذه الآية الاولى ان الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه بين فى هذه الآية انهم لو آمنوا يعنى بالله وبرسله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعنى ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) فبركات السماء المطر وبركات الارض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والانعام والارزاق والامن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه على عباده وأصل البركة ثبوت الخير الالهى فى الشئ وسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة فى نبات الارض لانه نشأ عن بركات السماء وهى المطر وقال البغوى أصل البركة المواظبة على الشئ أى تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الارض ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا) يعنى فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعنى الرسل (فأخذناهم) يعنى بانواع العذاب (بما كانوا يكسبون) يعنى أخذناهم بسبب كسبهم الاعمال الخبيثة قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وتهديد وزجر والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام فى كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا (ان يأتيهم بأسنا) يعنى عذابنا (بياتا) يعنى ليلا (وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) يعنى نهارا الان الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) يعنى وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم والمقصود من الآية ان الله خوفهم بنزول العذاب وهم فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لانه الوقت الذى يغلب على الانسان التشاغل فيه بامور الدنيا وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل ان يكون المراد خوضهم فى كفرهم وذلك لعب أيضا لانه يضر ولا ينفع (أفامنوا مكر الله) يعنى استدراجه اياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل المراد به أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمى هذا العذاب مكرا لنزوله وهم فى غفلة عنه لا يشعرون به (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) يعنى انه لا يأمن ان يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا الا من خسر فى آخرته وهلك مع الهالكين (أولم يهد) يعنى أولم يبين (للذين يرثون الارض من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يعنى لو نشاء

مكروهم تركه اياهم على ما هم عليه وقالت ابنة الربيع بن خيثم لابيها مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال يا بنتاه ان أباك يخاف البيات أراد قوله ان يأتيهم باسنا بياتا (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) الا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا الى النار (أو لم يهد) يبين (للذين يرثون الارض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) ان لو نشاء مرفوع بانه فاعل يهد وان مخففة من الثقيلة أى أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم فى ديارهم ويرثونهم أرضهم هذا الشأن وهو أنا لو

أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم (ونطبع) أى ونختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) يعنى لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الايمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفا على الماضى ولفظه لفظ المستقبل والمعنى ولو شئنا طبعنا على قلوبهم (تلك القرى) يعنى هذه القرى التى ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك من أنبائها) يعنى نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا اليهم لتعلم يا محمد انا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش ان يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) يعنى لاهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) يعنى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) اختلف أهل التفسير فى معنى ذلك فقيل معناه فما كان هؤلاء المشركون الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند ارسالنا اليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فاقروا باللسان واضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدى قال السدى آمنوا كرها يوم أخذ الميثاق وقال مجاهد فما كانوا ليؤمنوا بعد اهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرسل بما سبق لهم فى علم الله انهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال أبى بن كعب كان سبق لهم فى علمه يوم أقروا له بالميثاق انهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما ابدى لهم ربهم وان لا يتأولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فان علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفى ذلك قال تعالى ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين قال نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصى حيث خلقهم فى صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال الطبرى وأولى الاقوال بالصواب قول ابى بن كعب والربيع بن أنس وذلك ان من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبدا وقد كان سبق فى علم الله ممن هلك من الامم الذين قص خبرهم فى هذه السورة انهم لا يؤمنون أبدا فاخبر عنهم انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به فى سابق علمه قبل مجىء الرسل عند مجيئهم اليهم (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) يعنى كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية واهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لاكثرهم من عهد) يعنى وما وجدنا لاكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذى عهدناه اليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس انما اهلك الله اهل القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به (وان وجدنا اكثرهم لفاسقين)

نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا بالاهلاك لانه بمعنى التبيين (ونطبع) مستأنف أى ونحن نختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) الوعظ (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) كقوله هذا بعلى شيخا فى انه مبتدا وخبر وحال او تكون القرى صفة تلك ونقص خبرا والمعنى تلك القرى المذكورة من قوم نوح الى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ولها انباء غيرها لم نقصها عليك (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فما كانوا ليؤمنوا) عند مجىء الرسل بالبينات (بما كذبوا من قبل) بما كذبوا من آيات الله من قبل مجىء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا الى آخر اعمارهم بما كذبوا به اولا حين جاءتهم الرسل اى استمروا على التكذيب من لدن مجىء الرسل اليهم الى ان ماتوا مصرين مع تتابع الآيات واللام لتأكيد النفى (كذلك) مثل ذلك الطبع الشديد (يطبع الله على قلوب الكافرين) لما علم منهم انهم يختارون الثبات على الكفر (وما وجدنا لاكثرهم من عهد) الضمير للناس على الاطلاق يعنى ان أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه فى الايمان والآية اعتراض او للامم المذكورين فانهم كانوا اذا عاهدوا الله فى ضر ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن ثم أنجاهم نكثوا (وان) الشأن والحديث (وجدنا أكثرهم لفاسقين) لخارجين عن

أى

دخول ان المخففة واللام الفارقة ولا يجوز ذلك الا في المبتدا والخبر والافعال الداخلة عليهما (ثم بعثنا من بعدهم) الضمير للرسل في قوله ولقد جاءتهم رسلهم او للامم (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (الى فرعون وملئه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا اجرى الظلم مجرى الكفر لانهما من واد واحد ان الشرك لظلم عظيم او فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن أو

أي وما وجدنا أكثرهم الا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعني ثم بعثنا بعد الانبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام (موسى بآياتنا) يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام (الى فرعون وملئه) قيل ان كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل اليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ أشراف قومه وانما خصوا بالذكر لانه اذا آمن الاشراف آمن الاتباع (فظلموا بها) يعني فجحدوا بها لان الظلم وضع الشئ في غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أي انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين) يعني ان موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه الى الله تعالى والى الايمان به وقال له اني رسول أي مرسل اليك والى قومك من رب العالمين يعني ان الله الذي خلق السموات والارض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذي أرسلني اليك (حقيق) أي واجب (على أن لا أقول على الله الا الحق) يعني اني رسول والرسول لا يقول على الله الا الحق في وصفه وتنزيهه وتوحيده وانه لا اله غيره (قد جئتكم ببينة من ربكم) يعني ببرهان على صدقي فيما أدعي من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهي العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى (فأرسل معي بني اسرائيل) يعني خل عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بني اسرائيل واستعملهم في الاعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الاعمال الشاقة (قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) يعني ان فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة ان كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك فاتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت (فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) أي بين

أو لانه اذا وجب الايمان بها فكفروا بدل الايمان كان كفرهم بها ظلما حيث وضعوا الكفر غير موضعه وهو موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) حيث صاروا مغرقين (وقال موسى يا فرعون) يقال للملوك مصر الفراعنة كما يقال للملوك فارس الاكاسرة وكأنه قال يا ملك مصر واسمه قابوس أو الوليد بن مصعب بن الريان (اني رسول من رب العالمين) اليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) أي أنا حقيق على قول الحق أي واجب على قول الحق ان أكون قائله والقائم به حقيق على نافع أي واجب على ترك القول على الله الا الحق أي الصدق وعلى هذه القراءة تقف على العالمين وعلى الاول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول وعلى بمعنى الباء كقراءة أبي أي اني رسول خليق بان لا أقول أو يعلق على بمعنى الفعل في الرسول أي اني رسول

حقيق جدير بالرسالة ارسلت على ان لا اقول على الله الا الحق (قد جئتكم ببينة من ربكم) بما يبين رسالتي (فأرسل معي بني اسرائيل) فخلهم يذهبوا معي راجعين الى الارض المقدسة التي هي وطنهم وذلك ان يوسف عليه السلام لما توفي غلب فرعون على نسل الاسباط واستعبدهم فأنقذهم الله بموسى عليه السلام وكان بين اليوم الذي دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي دخله موسى اربعمائة عام مسى حفص (قال ان كنت جئت بآية) من عند من ارسلك (فأت بها ان كنت من الصادقين) فأتني بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها (فالقى) موسى عليه السلام (عصاه) من يده (فاذا هي) اذا هذه للمفاجاة وهي من ظروف المكان بمنزلة ثمة وهنالك (ثعبان) حية عظيمة (مبين) ظاهر أمره روي انه كان ذكرا فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل في الارض والاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب واحدث ولم يكن احد

والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بانه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه فى آية أخرى بانه جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين أنها كانت فى عظم الجثة كالثعبان العظيم وفى خفة الحركة كالحية الصغيرة وهى الجان قال ابن عباس والسدى ان موسى لما القى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض ولحيها الاعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث وقيل انه أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقيل انها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضا فمات منهم فى ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذى أرسلك أن تأخذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فعادت فى يده عصا كما كانت وفى كون الثعبان مبينا وجوه الاول انه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن تمويه السحرة وتخييلهم الوجه الثانى انهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فلذلك قال ثعبان مبين أى بين الوجه الثالث ان ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التى أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام فى أنه رسول من رب العالمين وقوله تعالى (ونزع يده) النزع فى اللغة عبارة عن اخراج الشئ عن مكانه والمعنى انه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه (فاذا هى بيضاء للناظرين) قال ابن عباس وغيره أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص وقيل ان موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت ابطه فاذا هى بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها الى جيبه فأخرجها فاذا هى كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية أخرى بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص والمعنى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب منه

* (فصل فى بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل) * اعلم أن الله تبارك وتعالى كان قادرا على خلق المعرفة والايمان فى قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل اليهم رسلا تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة مع الانبياء وجائز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالانبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل واذا جاز هذا فى دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم فى جميع ما أتوا به لان المعجز مع التحدى من النبى قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدى فاطيعوه واتبعوه ولان معجز النبى شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لان الخلق عجزوا عن

قيل ذلك وحمل على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فقال بعضهم بعضا فصاح فرعون يا موسى خذه وانا أومن بك فأخذه موسى فعاد عصا

(ونزع يده) من جيبه (فاذا هى بيضاء للناظرين) أى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب الناس للنظر اليه وروى انه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها فى جيبه ونزعها فاذا هى بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس وكان موسى عليه السلام آدم شديد الادمة

الاتيان بمثلها وهى على ضربين فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دل على انه من فعل الله ودل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم كتمنى الموت فى قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم انه من عند الله ودل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم الضرب الثانى ما هو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى وقلب العصا حية واخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الاصابع وغير ذلك من المعجزات التى عجز البشر عن مثلها فاذا أتى النبى بشئ من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم أن ذلك من عند الله وان الله عز وجل هو الذى أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع ان الله تعالى قادر على خلق الاشياء وابداعها من غير أصل سبق لها واخراجها من العدم الى الوجود وأنه قادر على قلب الاعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم قوله عز وجل (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا) يعنى موسى (لساحر عليم) يعنى انه ليأخذ باعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا صارت حية وهو يرى الشئ بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا ان هذا لساحر عليم فان قلت قد أخبر الله تعالى فى هذه السورة أن هذا الكلام من قول الملا لفرعون وقال فى سورة الشعراء قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما قلت لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون فى سورة الشعراء وقيل يحتمل ان فرعون قال هذا القول ثم ان الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فاخبر الله عز وجل هنا عن الملا وأخبر هناك عن فرعون وقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعنى يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر (فماذا تأمرون) يعنى فاى شئ تشيرون أن نفعل به وقيل ان قوله فماذا تأمرون من قول الملا لان كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم والمعنى فماترون أن نفعل به والقول الاول أصح لسياق الآية التى بعدها وهو قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) يعنى أخر أمرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والارجاء التأخير فى اللغة وقيل معنى أرجئه احبسه وأخاه وهذا القول ضعيف لان الارجاء فى اللغة هو التأخير لا الحبس ولان فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى (وأرسل فى المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اى أقام به يعنى مدائن صعيد مصر (حاشرين) يعنى رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل الى هذه المدائن رجالا من أعوانك وهم الشرط يحشرون اليك من فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة باقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا انه ساحر فذلك قوله (يأتوك) يعنى الشرط (بكل ساحر

(قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل الى الناس العصا حية والآدم أبيض وهذا الكلام قد عزى الى فرعون فى سورة الشعراء وانه قاله للملا وهنا عزى اليهم فيحتمل انه قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله وقولهم هنا أو قاله ابتداء فنقله منه الملا وقالوه لاتباعهم (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعنى مصر (فماذا تأمرون) تشيرون من آمرته فامرنى بكذا اذا شاورته فأشار عليك برأى وهو من كلام فرعون قاله للملا فقالوا له ان هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم (قالوا أرجه) بسكون الهاء عاصم وحمزة اى أخوا احبس أى أخر أمره ولا تعجل أو كانه هم بقتله فقالوا أخر قتله واحبسه ولا تقتله لئلا يبين سحره عند الخلق (وأخاه) هرون (وأرسل فى المدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر

وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار ان الساحر هو المبتدى فى صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذى يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار الذى يدوم سحره و يعمل فى كل وقت (عليم) يعنى ماهرا بصناعة السحر وقال ابن عباس رضى الله عنهما وابن اسحق والسدى ان فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته فى العصا قال انا لا نقاتل موسى الا بمن هو أشد منه سحرا فاتخذ غلمانا من بنى اسرائيل و بعث بهم الى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كبيرا واعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة فجاؤا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لا يطيقه سحر أهل الارض الا أن يكون أمر من السماء فانه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون فى مملكته فلم يترك ساحرا الا أتى به واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بنى اسرائيل وقال الكلبى كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثنى عشر ألفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال السدى كانوا بضعا وثمانين ألفا و يقال رئيس القوم شمعون وقيل يوحنا قوله عزوجل (وجاء السحرة فرعون) يعنى لما اجتمعوا جاؤا الى فرعون (قالوا ان لنا لأجرا) يعنى جعلا وعطاء تكرمنا به (ان كنا نحن الغالبين) يعنى لموسى قال الامام فخر الدين الرازى ولقائل أن يقول كان حق الكلام ان يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا اذ جاؤا فاجيب بقوله قالوا أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين يعنى لموسى (قال نعم) يعنى قال لهم فرعون لكم الاجر والعطاء (وانكم لمن المقربين) يعنى ولكم المنزلة الرفيعة عندى مع الاجر والمعنى ان فرعون قال للسحرة انى لا أقتصر معكم على الاجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة انى اجعلكم من المقربين عندى قال الكلبى تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج من عندى (قالوا) يعنى السحرة (يا موسى اما ان تلقى) يعنى عصاك (واما ان نكون نحن الملقين) يعنى عصينا وحبالنا فى هذه الآية دقيقة لطيفة وهى ان السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الادب حيث قدموه على انفسهم فى الالقاء لاجرم ان الله عزوجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ان من عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب اولا واظهروا ما يدل على رغبتهم فى ذلك (قال) يعنى قال لهم موسى (القوا) يعنى انتم فقدمهم على نفسه فى الالقاء فان قلت كيف جاز لموسى ان يأمر بالالقاء وقد علم انه سحر وفعل السحر غير جائز قلت ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فيه اجوبة احدها ان معناه ان كنتم محقين فى فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الجواب الثانى انما امرهم بالالقاء لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا احبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى فى عصاه الجواب الثالث ان موسى علم انهم لا بد ان يلقوا تلك الحبال والعصى وانما وقع التخيير فى التقديم والتأخير

علىم) سحار مهموزة وعلى أى يأتوك بكل ساحر عليم مثله فى المهارة أو بخير منه (وجاء السحرة فرعون) يريد فارسل اليهم فحضروا (قالوا ان لنا لاجرا) على الخبر واثبات الاجر العظيم جازى وحفص ولم يقل فقالوا لانه على تقدير سؤال سائل ما قالوا اذ جاؤه فاجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا فجعلا على الغلبة والتنكير للتعظيم كانهم قالوا لا بد لنا من أجر عظيم (ان كنا نحن الغالبين قال نعم) ان لكم لاجرا (وانكم لمن المقربين) عندى فتكونون أول من يدخل وآخر من يخرج وكانوا ثمانين ألفا أو سبعين ألفا أو بضعة وثلاثين ألفا (قالوا يا موسى اما ان تلقى) عصاك (واما ان نكون نحن الملقين) لما معنا وفيه دلالة على ان رغبتهم فى ان يلقوا قبله حيث اكد ضميرهم المتصل بالمنفصل وعرف الخبر (قال) لهم موسى عليه السلام (القوا) تخييرهم اياه ادب حسن راعوه معه كما يفعل المناظرون قبل ان يتحاوروا فى الجدال وقد شوغ لهم موسى ما رغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم واعتمادا على ان المعجزة لن يغلبها سحر ابدا

والتأخير فاذن لهم فى التقديم لتظهر معجزته أيضا بغلبتهم لانه لو ألقى أولا لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) يعنى حبالهم وعصيهم (سحروا أعين الناس) يعنى صرفوا أعين الناس عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام التى هى فعل الله وذلك لان السحر قلب الاعين وصرفها عن ادراك ذلك الشئ والمعجزة قلب نفس الشئ عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى (واسترهبوهم) يعنى أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى (وجاؤا) يعنى السحرة (بسحر عظيم) وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى امثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات ويقال ان الارض كانت سبخة فلما ألقيت انبعثت منها الماء فصارت كلها حيات وأفاعى ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لاجل سحرهم لانه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى انهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بان كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) يعنى فالقاها (فاذا هى تلقف) يعنى تبتلع (ما يأفكون) يعنى ما يكذب فيه السحرة لان أصل الافك قلب الشئ عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفاك لانه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل قال المفسرون أوحى الله عز وجل الى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فالقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلع ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هى تلقف يعنى تبتلع كل شئ أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) يعنى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) يعنى من السحر وذلك ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما انفقدت وتلاشت فى عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله وقدرته (فغلبوا هنالك) يعنى فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه

(فلما ألقوا سحروا أعين الناس) اروها بالحيل والشعوذة وخيلوا اليها ما الحقيقة بخلافه روى انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى امثال الحيات قد ملأت الارض وركب بعضها بعضا (واسترهبوهم) وأرهبوهم ارهابا شديدا كانهم استدعوا رهبتهم بالحيلة (وجاؤا بسحر عظيم) فى باب السحر أو فى عين من رآه (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف) تبتلع تلقف حفص (ما يأفكون) ما موصولة أو مصدرية يعنى ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق الى الباطل ويزورونه أو افكهم تسمية للمأفوك بالافك روى انها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت واعدم الله بقدرته تلك الاجرام العظيمة أو فرقها اجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فحصل وثبت (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر (فغلبوا هنالك) أى فرعون وجنوده والسحرة

(وانقلبوا صاغرين) وصاروا اذلاء مبهوتين (وألقي السحرة ساجدين) وخروا سجدا لله كأنما ألقاهم ملق لشدة

(وانقلبوا صاغرين) يعني ورجعوا أذلين مقهورين (وألقي السحرة ساجدين) يعني ان السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس في قدرتهم مقابلته وعلموا انه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك ان الله عز وجل ألهمهم معرفته والايمان به (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون اياي تعنون فقالوا بل (رب موسى وهرون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بي ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأؤمنن بك وقيل ان الحبال والعصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو الا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه فان قلت كان يجب أن يأتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان قلت لما قذف الله عز وجل في قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم اليه وعلى ما ألهمهم من الايمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك ايمانهم وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا وانه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبهم بادروا الى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم انهم أظهروا الايمان باللسان قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون قوله عز وجل (قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم) يعني قال فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل ان آمركم به وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة) يعني ان هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يعتضد بكبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله (لتخرجوا منها أهلها) وتستولوا عليها أنتم (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد يعني فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو ان تقطع احدى اليدين واحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع (ثم لأصلبنكم أجمعين) يعني على شاطئ نيل مصر قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من صلب وأول من قطع الايدي والارجل فرعون (قالوا) يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل (انا الى ربنا منقلبون) يعني انا الى ربنا راجعون واليه صائرون في الآخرة (وما تنقم منا) وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء معناه وما ألجأك الى ذلك من ذنب تعذبنا عليه (الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم دعوا الى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون اياهم فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبرا وأي صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) يعني واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قال الكلبي ان فرعون قطع أيديهم

خرورهم أولم يتما لكوا عما رأوا فكأنهم القوا فكانوا أول النهار كفارا سحرة وفي آخره شهداء برة (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) هو بدل مما قبله (قال فرعون آمنتم به) على الخبر حفص وهذا توبيخ منه لهم وبهمزتين كوفي غير حفص فالاولى همزة الاستفهام ومعناه الانكار والاستبعاد (قبل ان آذن لكم) قبل اذني لكم (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) ان صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل ان تخرجوا الى الصحراء لغرض لكم وهو ان تخرجوا من مصر القبط وتسكنوا بني اسرائيل (فسوف تعلمون) وعيد أجمله ثم فصله بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) هو أول من قطع من خلاف وصلب (قالوا انا الى ربنا منقلبون) فلا بد لنا بالموت لانقلابنا الى الآخرة بد أو حتف أو اناجميعا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب الى الله فيحكم بيننا (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) وما تعيب منا الا الايمان بآيات الله أرادوا وما تعيب منا الا ما هو أصل المناقب والمفاخر وهو الايمان ومنه قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصب صبا ذريعا وأرجلهم والمعنى هب لنا صبرا واسعا واكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء افراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الاسلام

وأرجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى لا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى) يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى (وقومه) من بني اسرائيل (ليفسدوا في الارض) يعني أرض مصر وأرادوا بالافساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله (ويذرك وآلهتك) يعني وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلا وقال السدي كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى والاولى أن يقال ان فرعون كان دهريا منكرا الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه هو المطاع والمخدوم في الارض فلهذا قال أنا ربكم الاعلى وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك والاهتك بكسر الالف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لان فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالآلهة الشمس والكواكب لانه كان يعبدها قال الشاعر

تروحنا من اللعباء قصرا * وأعجلنا الالاهة ان نؤبا

أراد بالالاهة الشمس (قال) يعني فرعون مجيبا لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) يعني نتركهن أحياء وذلك أن قوم فرعون لما أرادوا اغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى انزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيأ مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزة فعدل الى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان قد ترك القتل في بني اسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون أعيدوا عليهم القتل فاعادوا القتل على بني اسرائيل والمعنى أن فرعون قال انما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقل شوكته ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله (وانا فوقهم قاهرون) يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني اسرائيل ما نزل شكوا الى موسى ما نزل بهم (قال موسى لقومه) يعني لما شكوا اليه (استعينوا بالله واصبروا) يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم (ان الارض لله) يعني أرض مصر وان كانت الارض كلها لله تعالى (يورثها من يشاء من عباده) وهذا اطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني اسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بني اسرائيل أرضهم وبلادهم بعد اهلاكهم وهو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم وقيل أراد الجنة يعني ان عاقبة المتقين الصابرين الجنة

أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين اهلها لانه وافق السحرة على الايمان ستمائة ألف نفر (ويذرك وآلهتك) عطف على ليفسدوا قيل صنع فرعون لقومه اصناما وأمرهم ان يعبدوها تقربا اليه كما يعبد عبدة الاصنام الاصنام ويقولون ليقربونا الى الله زلفى ولذلك قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملا (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون) سنقتل جازى أي سنعيد عليهم قتل الابناء ليعلموا انا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وانهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ولئلا يتوهم العامة انه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم الى اتباعه (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون سنقتل أبناءهم تسلية لهم ووعدا بالنصر عليهم (ان الارض) اللام للعهد أي أرض مصر أو للجنس فيتناول أرض مصر تنا ولا أوليا (لله يورثها من يشاء من عباده) فيه تمنيته اياهم أرض مصر (والعاقبة للمتقين) بشارة بان الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط

واخليت هذه الجملة عن الواو لانها جملة مستأنفة بخلاف قوله وقال الملا لانها معطوفة على ما سبقها من قوله قال الملأ من قوم فرعون

(قالوا أوذينا من قبل ان تاتينا ومن بعد ما جئتنا) يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى الى أن استنبئ واعادته عليهم بعد ذلك وذلك اشتكاء من فرعون واستبطاء لوعد النصر (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض) تصريح بما رمز اليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو

(قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بني اسرائيل والمعنى أن بني اسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تاتينا يعني بالرسالة وذلك أن بني اسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الاعمال الشاقة الى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار واعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تاتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر والجواب عن هذا الايهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تاتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى مجيبا لهم (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) يعني فرعون وقومه (ويستخلفكم في الارض) يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم (فينظر كيف تعملون) يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم قال الزجاج فيرى وقوع ذلك منهم لان الله تعالى لا يجازيهم بما علمه منهم وانما يجازيهم على ما يقع منهم قوله عز وجل (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) يعني بالقحط والجدب تقول العرب مستهم السنة يعني أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال اجدبوا قال الشاعر

* ورجال مكة مسنتون عجاف *

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ومعنى الآية ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) يعني وإتلاف الغلات بالآفات قال قتادة أما السنون فلاهل البوادي وأما نقص الثمرات فلاهل الامصار (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير ثم بين الله تعالى انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا فقال تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) يعني القحط والجدب والمرض والبلاء والشدة (يطيروا) يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا فادغمت التاء في الطاء لانها من طرف اللسان وأصول الثنايا (بموسى ومن معه) بلاء

تعملون) فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم وعن عمرو ابن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم يوجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي فينظر كيف تعملون

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) سني القحط وهن سبع سنين والسنة من الاسماء الغالبة كالدابة والنجم (ونقص من الثمرات) قيل السنون لاهل البوادي ونقص الثمرات للامصار (لعلهم يذكرون) ليتعظوا فينيبوا على أن ذلك لاصرارهم على الكفر ولان الناس في حال الشدة أضرع خدودا وارق أفئدة وقيل عاش فرعون أربعمائة سنة لم يمكروها في ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدة وجع أو وجع أوحى الى ادعى الربوبية (فاذا جاءتهم الحسنة) الصحة والخصب (قالوا لنا هذه) أي هذه التي نستحقها (وان تصبهم سيئة) جدب ومرض (يطيروا) أصله يتطيروا فادغمت التاء في الطاء لانها من طرف اللسان وأصول الثنايا (بموسى ومن معه) بلاء

تشاءموا بهم وقالوا هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابنا وانما دخل اذا في الحسنة وعرفت الحسنة وان في السيئة ونكرت السيئة لان جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته وأما السيئة فلا تقع الا في الندرة ولا يقع الا شيء منها

بلاء الاحين رأيناهم وماذلك الا بشؤم موسى وقومه قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم يرمكروها قط ولو كان حصل له فى تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط (ألا انما طائرهم عند الله) يعنى ان نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضى الله عنهما طائرهم ماقضى لهم وقدر عليهم من عند الله وفى رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه انه انما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعنى ان ما أصابهم من الله تعالى وانما قال أكثرهم لا يعلمون لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب ولا يضيفونها الى القضاء والقدر قوله تعالى (وقالوا) يعنى قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية) يعنى من عند ربك فهى عندنا سحر وهو قولهم (لتسحرنا بها) يعنى لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى (فارسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فاخذهم أولا بالسنين وهو النحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتى وان قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله عليهم المطر من السماء و بيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى اسرائيل شئ وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعملوا شيأ ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وقال مجاهد وعطاء الطوفان الموت وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى وهم أول من عذبوا به ثم بقى فى الارض وقال مقاتل الطوفان الماء طافا فوق حروثهم وفى رواية ابن عباس رضى الله عنهما ان الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيأ لم ينبته قبل ذلك من الكلا والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا لما كان هذا الماء الا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فاكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الابواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والامتعة وأكل مسامير الحديد التى فى الابواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بنى اسرائيل

(ألا انما طائرهم) سبب خيرهم وشرهم (عند الله) فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة قيل كل من عند الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أصل مهما ماما فما الاولى للجزاء ضمت اليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء فى قولك متى ما تخرج أخرج أينما تكونوا فاما ذهبن بك الا أن الالف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصرى وهو فى موضع النصب بتأتنا أى ايما شئ ومن آية تبيين لمهما والضمير فى به و بها راجع الى مهما الا ان الاول ذكر على اللفظ والثانى انث على المعنى لانها فى معنى الآية وانما سموها آية اعتبارا لتسميه موسى أو قصدوا بذلك الاستهزاء (فأرسلنا عليهم الطوفان) ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل قيل طفا الماء فوق حروثهم وذلك انهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر احد أن يخرج من داره وقيل دخل الماء فى بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل من الماء قطرة أو هو الجدرى أو الطاعون

من ذلك شيء فعجبوا وضحكوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعا موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام خرج الى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا لقد بقي لنا ما هو كافينا فنحن بتاركي ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فاقاموا شهرا في عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ان القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي القمل الدبى وهو صغار الجراد الذي لا اجنحة له وقال أبو عبيدة والحمنان وهو ضرب من الجراد وقال عطاء الخراساني هو القمل نفسه وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم قال أصحاب الاخبار أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يمشي الى كثيب رمل اعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين الشمس فمشى الى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم وثمارهم فاكلها كلها ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فاذا أكل أحدهم طعاما ملأ فلا قال سعيد بن المسيب القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة اجربة الى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلما رأوا ان البلاء قد أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم واشفار عيونهم ولزم جلودهم كالجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا يا موسى انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعد ما قام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا الى أخبث ما كانوا عليه من الاعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن انه ساحر منا اليوم فجعل الرمل دواب فدعا موسى عليهم بعد ما اقاموا شهرا في عافية فارسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وافنيتهم واطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد اناء ولا طعاما الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ الى حلقه فاذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم وكان أحدهم اذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب الى شقه الآخر واذا أراد أن يأكل سبقته الضفدع الى فيه ولا يمضغ أحدهم عجينا الا امتلأ ضفادع ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديدا وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون وسمعت واطاعت وجعلت تقذف بانفسها في القدور وهي تغلي على النار وفي التنانير وهي تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا الى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا

هذه المرة تتوب ولا تعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عزوجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعة من السبت الى السبت فأقاموا شهرا في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا الى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عزوجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والانهار يجدونه دما عبيطا فشكوا ذلك الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب الا الدم فقال سحركم فقالوا من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيأ من الماء الا دما عبيطا فكان فرعون يجمع بين القبطي والاسرائيلي على اناء واحد فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما ويفرغان الجرة فيهما الماء فيخرج للقبطي دما وللاسرائيلي ماء حتى ان المرأة من آل فرعون تأتي الى المرأة من بني اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فمي فتفعل ذلك فيصير دما ثم ان فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صارت ماء ودما فشكوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون الا الدم وقال زيد بن أسلم ان الدم الذي سلط الله عزوجل عليهم كان الرعاف فاتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا اليه ما يلقون وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان (والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يعني يتبع بعضها بعضا وتفصيلها ان كل عذاب كان يقوم عليهم اسبوعا وبين كل عذابين مدة شهر (فاستكبروا) يعني عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا قوما مجرمين) يعني آل فرعون قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز) يعني ولما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفا قاموا وهم لا يدفنون (ق) عن اسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني اسرائيل أو على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وقوله تعالى (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) يعني بما أوصاك وقيل بما نبأك وقيل بما عهد عندك من اجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) يعني العذاب الذي وقع بنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل) يعني لنصدقن بما جئت به ولنخلين بني اسرائيل حتى يذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) يعني بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام (الى أجل هم بالغوه) يعني الى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت اهلاكهم بالغرق في اليم (اذا هم ينكثون) يعني اذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به واعلم ان ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات هي معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك ان العذاب كان مختصا بآل فرعون دون بني اسرائيل ولم يدخل بيوت بني اسرائيل منها شئ (والقمل) وهي الدبى وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها أو البراغيث أو كبار القردان (والضفادع) وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى اذا تكلم الرجل تقع في فيه (والدم) أي الرعاف وقيل مياههم انقلبت دما حتى ان القبطي والاسرائيلي اذا اجتمعا على اناء فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما وقيل سال عليهم النيل دما (آيات) حال من الاشياء المذكورة (مفصلات) مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل انها من آيات الله أو مفرقات بين كل آيتين شهر (فاستكبروا) عن الايمان بموسى (وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز) العذاب الاخير وهو الدم أو العذاب المذكور واحدا بعد واحد (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) ما مصدرية أي بعهده عندك وهو النبوة والباء تتعلق بادع أي ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل) الى حد من الزمان (هم بالغوه) لامحالة فيعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله (اذا هم ينكثون)

جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث ولم يؤخروه

فاختصاصه بالقبطى دون الاسرائيلى معجز وكون بنى اسرائيل فى أمان منه وعافية وقوم فرعون فى شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المساكن معجز أيضا فان اعترض معترض وقال ان الله تعالى علم من حال آل فرعون انهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالبها عليهم واظهارا لكثير منها فالجواب على مذهب أهل السنة ان الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل واما على قول المعتزلة فى رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون ان بعضهم كان يؤمن بتوالى تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده قوله عز وجل (فانتقمنا منهم) يعنى كافأناهم عقوبة لهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب (فاغرقناهم فى اليم) والمعنى انه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الاجل الذى أجل لهم انتقم منهم بان أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم فى اليم يعنى البحر واليم الذى لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه قال الازهرى اليم معروف لفظة سريانية تعربها العرب ويقع اسم اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه فى اليم والمراد به نيل مصر وهو عذب (بأنهم كذبوا بآياتنا) يعنى أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا (وكانوا عنها) يعنى عن آياتنا (غافلين) يعنى معرضين وقيل كانوا عن حلول النقمة بهم غافلين ولما كان الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزا لان الغفلة ليست من فعل الانسان قوله عز وجل (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) يعنى ومكنا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهوان فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بنى اسرائيل فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم (مشارق الارض ومغاربها) يعنى أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها وقيل أراد بمشارق الارض ومغاربها الارض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وقيل أراد جميع جهات الارض وهو اختيار الزجاج قال لان داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بنى اسرائيل وقد ملكا الارض وقوله عز وجل (التى باركنا فيها) يدل على أنها الارض المقدسة يعنى باركنا فيها بالثمار والاشجار والزروع والخصب والسعة (وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل) يعنى وتمت كلمة الله وهى وعده إياهم بالنصر على عدوهم والتمكين فى الارض من بعدهم وقيل كلمة الله هى قوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض الآية والحسنى صفة للكلمة وهى تأنيث الاحسن وتمامها انجازما وعدهم به من تمكينهم فى الارض واهلاك عدوهم (بما صبروا) يعنى انما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من انجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم (ودمرنا) يعنى وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال (ما كان يصنع فرعون وقومه) فى أرض مصر من العمارات والبنيان

(فانتقمنا منهم) هو ضد الانعام كما أن العقاب هو ضد الثواب (فأغرقناهم فى اليم) هو البحر الذى لا يدرك قعره أو هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيم لان المنتفعين به يقصدونه (بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) هم بنو اسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الارض ومغاربها) يعنى أرض مصر والشام (التى باركنا فيها) بالخصب وسعة الارزاق وكثرة الانهار والاشجار (وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل) هو قوله عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض أو نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض الى ما كانوا يحذرون والحسنى تأنيث الاحسن صفة للكلمة وعلى صلة تمت أى تمت عليهم واستمرت من قولك تم على الامر اذا مضى عليه (بما صبروا) بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله اليه ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج (ودمرنا) أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات وبناء القصور

(وما كانوا يعرشون) من الجنات أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وبضم الراء شامي وأبو بكر وهذا آخر قصة فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله ثم أتبعه قصة بني إسرائيل وما أحدثوه بعد

والبنيان (وما كانوا يعرشون) يعني يسقفون من ذلك البنيان وقال مجاهد ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن وما كانوا يعرشون من الثمار والاعناب قوله عز وجل (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) يعني وقطعنا ببني اسرائيل البحر بعد اهلاك فرعون وقومه واغراقهم فيه يقال حاز الوادي وجاوزه اذا قطعه وخلفه وراء ظهره وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) يعني فمر بنو اسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله قال ابن جريج كانت تلك الاصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل وقال قتادة كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الاقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم (قالوا) يعني قال بنو اسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال (يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة) يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت الها نعبده ونعظمه قال البغوي رحمه الله ولم يكن ذلك شكا من بني اسرائيل في وحدانية الله تعالى وانما معناه اجعل لنا شيأ نعظمه ونتقرب بتعظيمه الى الله تعالى وظنوا ان ذلك لا يضر بالديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني اسرائيل وذلك انهم توهموا انه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعنادهم غير الله تعالى لهم جهلهم على ان قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (قال انكم قوم تجهلون) يعني تجهلون عظمة الله تعالى وانه لا يستحق أن يعبد سواه لانه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم أخرجه الترمذي وقوله تعالى (ان هؤلاء متبر ما هم فيه) أي مهلك والتتبير الاهلاك (وباطل ما كانوا يعملون) البطلان عبارة عن عدم الشئ اما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضرا لانه عمل لغير الله تعالى فكان باطلا لا نفع فيه (قال أغير الله أبغيكم الها) لما قال بنو اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيبا لهم على سبيل التعجب والانكار عليهم أغير الله أبغيكم

انقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وغير ذلك ليتسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رآه من بني اسرائيل بالمدينة (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) روى انهم عبروا مع موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله فرعون وقومه فصاموه شكرا لله (فأتوا على قوم) فمروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) يواظبون على عبادتها وكانت تماثيل بقر وبكسر الكاف حمزة وعلي (قالوا يا موسى اجعل لنا الها) صنما نعكف عليه (كما لهم آلهة) أصنام يعكفون عليها وما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها قال يهودي لعلي رضي الله عنه اختلفتم بعد نبيكم قبل ان يجف ماؤه فقال قلتم اجعل لنا الها ولم تجف أقدامكم (قال انكم قوم تجهلون) تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده (ان هؤلاء) يعني عبدة تلك التماثيل (متبر) مهلك من التبار (ما هم فيه) أي يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي وفي ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم خبر المبتدا من الجملة الواقعة خبرا لها وسم

٢٢ ن ني لعبدة الاصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة (وباطل ما كانوا يعملون) أي ما عملوا من عبادة الاصنام باطل مضمحل (قال أغير الله أبغيكم الها) أي أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودا

(وهو فضلكم على العالمين) حال اى على عالمى زمانكم (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أنجاكم شامى (يسومونكم سوء العذاب) يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة اذا طلبها وهو استئناف لا محل له أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يقتلون نافع (وفى ذلكم) أى فى الانجاء أو فى العذاب (بلاء) نعمة أو محنة (من ربكم عظيم وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) لاعطاء التوراة (وأتممناها بعشر) روى ان موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهى شهر ذى القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فأوحى الله اليه اما علمت ان خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فأمره ان يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك (فتم ميقات ربه) ما وقت له من الوقت وضربه له (أربعين ليلة) نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد والعقد أجمل ذكر الاربعين فى البقرة وفصلها هنا (وقال موسى لاخيه هرون) هو عطف بيان لاخيه (اخلفنى فى قومى) كن خليفتى فيهم (وأصلح) ما يجب أن يصلح من امور بنى اسرائيل (ولا تتبع سبيل المفسدين) ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه (ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذى وقتناه وحددناه ومعنى اللام الاختصاص أى اختص مجيئه لميقاتنا

الها يعنى أطلب لكم وأبغى لكم الها (وهو فضلكم على العالمين) والمعنى أن الاله ليس هو شيأ يطلب ويلتمس ويختار بل الاله هو الذى فضلكم على العالمين لانه القادر على الانعام والافضال فهذا هو الذى يستحق ان يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعنى على عالمى زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التى لم تحصل لغيرهم وان كان غيرهم أفضل منهم قوله عز وجل (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) هذه الآية تقدم تفسيرها فى سورة البقرة والفائدة فى ذكرها فى هذا الموضع انه تعالى هو الذى أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة قوله عز وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يعنى وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهى ذو القعدة (وأتممناها بعشر) يعنى عشر ذى الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد قال المفسرون ان موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى اسرائيل اذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون ان أتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل ان ينزل عليه الكتاب الذى وعد به بنى اسرائيل فأمره ان يصوم ثلاثين يوما فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذى الحجة وقال له أما علمت ان خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فكانت فتنة بنى اسرائيل فى تلك العشر التى زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل ان الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام ان يصوم ثلاثين يوما ويعمل فيها ما يتقرب به الى الله ثم كلمه وأعطاه الالواح فى العشر التى زادها على هذا قال وأتممناها بعشر وهذا التفصيل الذى ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله فى سورة البقرة وهو قوله تعالى واذ واعدنا موسى أربعين ليلة فذكره هناك على الاجمال وذكره هنا على التفصيل وقوله تعالى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) يعنى فتم الوقت الذى قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لان الميقات هو الوقت الذى قدر ان يعمل فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج (وقال موسى لاخيه هرون اخلفنى فى قومى) يعنى كن أنت خليفتى فيهم من بعدى حتى أرجع اليك (وأصلح) يعنى وأصلح أمور بنى اسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الرفق بهم والاحسان اليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) يعنى ولا تسلك طريق المفسدين فى الارض ولا تطعهم والمقصود من هذا الامر التأكيد لان هرون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبى وكقولك للقاعد قم بمعنى دم على ما أنت عليه من القعود قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) يعنى للوقت الذى وقتناه

أن يأتي فيه لما جاءنا وهو قوله (وكلمه ربه) وفي هذه الآية دليل على ان الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس في كلام الله تعالى فقال الزمخشري كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منظوما في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في الالواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لان الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول اني أنا الله لا الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم الى ان كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم وذهب جمهور المتكلمين الى ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا ان موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الازلية الحقيقية وقالوا كما انه لا يبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف ان الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله وحقيقته قال أهل السير والاخبار لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفي القصة ان الله تعالى انزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهوام الارض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما في الهواء ورأى العرش بارزا وادناه ربه حتى سمع صريف الاقلام على الالواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عز وجل واشتاق الى رؤيته (قال رب أرني أنظر اليك) قال الزجاج فيه اختصار تقديره ارني نفسك انظر اليك وقال ابن عباس معناه اعطني انظر اليك وانما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بان الله تعالى لا يرى في الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق في بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل انما سأل الرؤية ظنا منه بانه تعالى يرى في الدنيا فتعالى الله عن ذلك (قال لن ترانى) يعني ليس لبشر ان يراني في الدنيا ولا يطيق النظر الي في الدنيا ومن نظر الي في الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام الهي سمعت كلامك فاشتقت الى النظر اليك ولا أن انظر اليك ثم اموت احب الي من ان أعيش ولا أراك وقال السدي لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله ابليس الخبيث في الارض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس اليه ان مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال رب ارني انظر اليك قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام لن ترانى

* (فصل) * وقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى ان ترانى قالوا ان تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة

(وكلمه ربه) بلا واسطة ولا كيفية وروى انه كان يسمع الكلام من كل جهة وذكر الشيخ في التأويلات ان موسى عليه السلام سمع صوتا لا على كلام الله تعالى وكان اختصاصه باعتبار انه أسمعه صوتا تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسبا لأحد من الخلق وغيره يسمع صوتا مكتسبا للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله (قال رب ارنى انظر اليك) ثاني مفعولي ارنى محذوف أي ارنى ذاتك انظر اليك يعني مكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك ارنى مكى وبكسر الراء مختلسة أبو عمرو وبكسر الراء مشبعة غيرهما وهو دليل لاهل السنة على جواز الرؤية فان موسى عليه السلام اعتقد ان الله تعالى يرى حتى سأله واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر (قال لن ترانى) بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية وهو دليل لنا أيضا لانه لم يقل لن أرى ليكون نفيا للجواز ولو لم يكن مرئيا لأخبر بأنه ليس بمرئي اذ الحالة حالة الحاجة الى البيان

والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود ولن يتمنوه أبدا مع انهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك وقوله بالتيها كانت القاضية فان قالوا ان لن معناها تأكيد النفي كلا التي تنفي في المستقبل قلنا ان صح هذا التأويل فيكون معنى لن ترانى محمولا على الدنيا أى لن ترانى في الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فانه قد ثبت في الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيامة في الدار الآخرة وأيضا فان موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفا بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفي الآية دليل على انه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا ان الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضا فان الله عز وجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وانما قلنا ذلك لانه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) وهو أمر جائز الوجود في نفسه واذا كان كذلك ثبت ان رؤيته جائزة الوجود لان استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلى اذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالا والله أعلم بمراده قال وهب ومحمد بن اسحق لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذى عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تتبع أفواههم بالتسبيح والتقديس باصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى رب انى كنت عن هذا غنيا ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية ان اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه بمثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وبدنه ثم قال لقد ندمت على مسئلتى فهل يخبرنى مما أنا فيه شئ فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا موسى اصبر لما سالت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تتبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة ان اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شئ من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقتهم كالثلج الابيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقار بهم شئ من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران اصبر لما سالت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة ان اهبطوا على موسى

(ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه) بقى على حاله (فسوف ترانى) وهو دليل لنا أيضا لانه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن وتعليق الشئ بما هو ممكن يدل على امكانه كما ان تعليقه بالممتنع يدل على امتناعه والدليل على انه ممكن قوله جعله دكا ولم يقل اندك وما أوجده تعالى كان جائزا ان لا يوجد لو لم يوجده لانه مختار في فعله ولانه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالا لعاتبه كما عاتب نوحا عليه السلام بقوله انى أعظك أن تكون من الجاهلين حيث سأل انجاء ابنه من الغرق

فاعترضوا عليه فهبطوا عليهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم ببصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة ان اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة ابد الآبدين لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا ادري أأنفلت مما انا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان اقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم قد أوشكت يا ابن عمران ان يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة ابد الآبدين فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ليس معه روحه فارسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل الأمة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت انه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما اعظمك واعظم ملائكتك أنت رب الارباب ومالك الملوك والاله العظيم لا يعدل بك شيء ولا يقوم للك شيء رب تبت اليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما اجلك يا رب العالمين فذلك قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال ابن عباس ظهر نور ربه للجبل فصار ترابا واسم الجبل زبير وقال الضحاك أظهر الله عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ما تجلى للجبل من عظمة الله تعالى الا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدي ما تجلى الا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الابهام على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضا عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال حماد هكذا وأمسك بطرف ابهامه على انملة اصبعه اليمنى فساخ الجبل وخر موسى عليه السلام صعقا وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدي ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا يعني مستويا بالارض وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملا هائلا وقال الكلبي جعله دكا يعني كسرا جبالا صغارا وقيل انه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة

(فلما تجلى ربه للجبل) أي ظهر وبان ظهورا بلا كيف قال الشيخ أبو منصور رحمه الله معنى التجلي للجبل ما قاله الاشعري انه تعالى خلق في الجبل حياة وعلما ورؤية حتى رأى ربه وهذا نص في اثبات كونه مرئيا وبهذه الوجوه يتبين جهل منكري الرؤية وقولهم بان موسى عليه السلام كان عالما بأنه لا يرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فطلب الرؤية ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي باطل اذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا اليك ثم يقول له لن يروني ولانهما لو لم تكن جائزة لما أخر موسى عليه السلام الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سمعه لما فيه من التقرير على الكفر وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره ألا ترى انهم لما قالوا له اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله انكم قوم تجهلون (جعله دكا) مدكوكا مصدر بمعنى المفعول كضرب الامير والدق والدك أخوان دكاء حمزة وعلى أي مستوية بالارض لا أكمة فيها ولا ناقة دكاء لا سنام لها

بالمدينة وهى أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهى ثور وثبير وحراء وقال تعالى (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن يعنى مغشيا عليه وقال قتادة يعنى ميتا والاول أصح لقوله (فلما أفاق) والميت لا افاقة له انما يقال أفاق من غشيته قال الكلبى صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر وقال الواقدى لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات ما لابن عمران وسؤال الرؤية وفى بعض الكتب ان ملائكة السموات أتوا موسى وهو فى غشيته فجعلوا يركلونه ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة فلما أفاق يعنى من غشيته ورجع عقله اليه وعرف انه سأل أمرا عظيما لا ينبغى له (قال سبحانك) يعنى تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) يعنى من مسئلتى الرؤية بغير اذنك وقيل من سؤال الرؤية فى الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك يعنى من سؤالى ما ليس لى وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك يعنى من هذا السؤال وحسنات الابرار سيئات المقربين (وأنا أول المؤمنين) يعنى بانك لا ترى فى الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعنى من بنى اسرائيل * بقى فى الآية سؤالات الاول ان الرؤية عين النظر فكيف قال أرنى أنظر اليك وعلى هذا يكون التقدير أرنى حتى أراك والجواب منه ان معنى قوله أرنى اجعلنى متمكنا من رؤيتك حتى أنظر اليك وأراك * السؤال الثانى كيف قال لن ترانى ولم يقل لن تنظر الى حتى يكون مطابقا لقوله أنظر اليك والجواب ان النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذى لا رؤية معه السؤال الثالث كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله ولكن انظر الى الجبل بما قبله والجواب ان المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وان أحدا لا يقوى على رؤيته تعالى الا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى انه لما ظهر أثر التجلى للجبل اندك وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لانه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده قوله عز وجل (قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) يعنى قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام يا موسى انى اخترتك واتخذتك صفوة والاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى انى فضلتك واجتبيتك على الناس وفى هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لان الله تعالى عدد عليه نعمه التى أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت منعت من الرؤية التى طلبت فقد اعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها وهى الاصطفاء على الناس برسالاتى وبكلامى يعنى من غير واسطة لان غيره من الرسل منع كلام الله تعالى الا بواسطة الملك فان قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتى مع ان كثيرا من الانبياء قد ساواه فى الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين أحدهما ذكره البغوى فقال لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله اصطفيتك على الناس وان شاركه

(وخر موسى صعقا) حال أى سقط مغشيا عليه (فلما أفاق) من صعقته (قال سبحانك تبت اليك) من السؤال فى الدنيا (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك وبانك لا تعطى الرؤية فى الدنيا مع جوازها وقال الكعبى والاصم معنى قوله ارنى أنظر اليك ارنى آية اعلم بها بطريق الضرورة كانى أنظر اليك لن ترانى لن تطيق معرفتى بهذه الصفة ولكن انظر الى الجبل فانى أظهر له آية فان ثبت الجبل لتجليها واستقر مكانه فسوف تثبت لها وتطيقها وهذا فاسد لانه قال أرنى أنظر اليك ولم يقل اليها وقال لن ترانى ولم يقل لن ترى آيتى وكيف يكون معناه لن ترى آيتى وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكا (قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس) اخترتك على أهل زمانك (برسالاتى) هى أسفار التوراة برسالاتى جمع (وبكلامى) وبتكليمى اياك

فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتي وان كان قد شاور غيره اذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيما وفي هذا الجواب نظر لان من جملة من اصطفاه الله برسالته محمد اصلى الله عليه وسلم وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثاني ذكره الامام فخر الدين الرازي فقال ان الله تعالى بين انه خصه بمجموع أمرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت انه انما حصل التخصيص ههنا لانه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وانما كان الكلام بغير واسطة سببا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لان من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه برواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضا لان محمدا صلى الله عليه وسلم اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى امته الصلوات وخاطبه بيا محمد يدل عليه قوله فاوحى الى عبده ما أوحى ورفعه الى حيث سمع صريف الاقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الانبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضا والذي يعتمد في الجواب عن هذا السؤال ان الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا في زمانه وذلك انه لم يكن في ذلك الوقت أعلى منصبا ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك على انه اصطفاه على ناس زمانه كما اصطفى قومه على عالمي زمانهم وهو قوله تعالى يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين قال المفسرون يعني على عالمي زمانهم وقوله تعالى (خذ ما آتيتك) يعني ما فضلتك وأكرمتك به (وكن من الشاكرين) يعني على انعامي عليك وفي القصة ان موسى عليه الصلاة والسلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع احد ان ينظر اليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته انا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فاخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله ان يجعلني زوجتك في الجنة قال ذلك لك ان لم تتزوجي بعدي فان المرأة لآخر أزواجها قوله تعالى (وكتبنا له في الالواح) قال ابن عباس يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى في ألواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء في الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الالواح من خشب وقال الكلبي من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال الربيع بن أنس كانت الالواح من زبرجد وقال وهب أمره الله بقطع الواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صريف الاقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي الحجة وكان طول الالواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة فأعطاه

(خذ ما آتيتك) أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم قيل خر موسى صعقا يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر ولما كان هرون وزيرا وتابعا لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه السلام (وكتبنا له في الالواح) الالواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح وقيل سبعة وكانت من زمرد وقيل من خشب نزلت من السماء فيها التوراة

الله تعالى التوراة يوم النحر وهذا أقرب الى الصحيح واختلفوا فى عدد الالواح فروى عن ابن عباس انها كانت سبعة ألواح وروى عنه انها لوحان واختاره الفراء قال وانما جمعت على عادة العرب فى اطلاق الجمع على الاثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح وقال مقاتل كانت تسعة وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة وهى وقر سبعين بعيرا يقرؤ الجزء منها فى سنة ولم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعنى لم يحفظها أو يقرأها عن ظهر قلبه الا هؤلاء الاربعة وقال الحسن هذه الآية فى التوراة بألف آية يعنى قوله وكتبنا له فى الالواح (من كل شئ) يعنى يحتاج اليه من أمر ونهى (موعظة) يعنى نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته (وتفصيلا لكل شئ) يعنى وتبيينا لكل شئ من الامر والنهى والحلال والحرام والحدود والاحكام مما يحتاج اليه فى امور الدين وروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه قال كتب له يعنى فى التوراة لا تشرك بى شيأ من أهل السماء ولا من أهل الارض فان كل ذلك خلقى ولا تحلف باسمى كاذبا فان من حلف باسمى كاذبا فلا أزكيه ووقر والديك وروى البغوى باسناد الثعلبى عن كعب الاحبار ان موسى عليه الصلاة والسلام نظر فى التوراة فقال انى أجد امة خير الامم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال رب اجعلهم امتى قال هى امة محمد يا موسى فقال رب انى لا أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس الحكماء اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم امتى قال هى أمة محمد قال رب انى أجد فى التوراة امة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم امتى قال هى أمة محمد قال يا رب انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله واذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يا رب انى أجد امة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة بمثلها وان عملها كتبت بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم امتى قال هى أمة محمد قال يا رب انى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم الا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال رب انى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون فى صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار أحد منهم أبدا الا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء البحر فاجعلهم امتى قال هى أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى أعطاه الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم وامته قال يا ليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله اليه ثلاث آيات رضيه بهن يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى

(من كل شئ) فى محل النصب على أنه مفعول كتبنا (موعظة وتفصيلا لكل شئ) بدل منه والمعنى كتبنا له كل شئ كان بنو اسرائيل محتاجين اليه فى دينهم من المواعظ وتفصيل الاحكام وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقرا بعير لم يقرأها كلها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى

و بكلامى الى قوله سأريكم دار الفاسقين ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضى موسى كل الرضا وقوله تعالى (فخذها بقوة) يعنى وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام اذ كتبنا له فى الالواح من كل شئ خذها بجد واجتهاد وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لان من أخذ شيأ بضعف نية أداه الى الفتور (وأمر قومك ياخذوا بأحسنها) قال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من قومه فامر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله وأمر قومك يأخذوا باحسنها يدل على أن بين التكليفين فرقا فليكون فى هذا الفصل فائدة وهى أن التكليف كان على موسى أشد لانه تعالى لم يرخص له مارخص لغيره من قومه فان قلت ظاهر قوله تعالى ياخذوا باحسنها يدل على أن فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله ياخذوا باحسنها قلت ان التكليف كله حسن وبعضه أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو احسن وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فامروا أن يأخذوا بالاشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم فى الثواب فهو كقوله اتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقيل ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والاحسن الاخذ بالاشد والاشق على النفس وقيل معناه باحسنها بحسنها وكلها حسن وقوله تعالى (سأريكم دار الفاسقين) قال مجاهد يعنى مصير كم فى الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم وقال قتادة سأدخلكم الشام فاريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها وقال عطية العوفى يعنى دار فرعون وقومه وهى مصر وقال السدى يعنى منازل الكفار وقال الكلبى هى منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها اذا سافروا وقوله عز وجل (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادى ويحاربون أوليائى سأصرفهم عن قبول آياتى والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بى وقيل معناه ساصرفهم عن اعنادهم الحق وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه ساصرفهم عن التفكر فى خلق السموات والارض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لاهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التى أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والاكثرون على أن الآية عامة وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن الله تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته وقبول الحق من يشاء ويوفق بالتفكر فى آياته وقبول الحق من يشاء لانه القادر على ما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم افضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون الا لله عز وجل لانه هو الذى له القدرة والفضل الذى ليس لاحد سواه فالتكبر فى حق الله عز وجل صفة مدح وفى حق المخلوقين صفة ذم لانه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر اظهار كبر النفس على غيرها فهو

(فخذها) فقلنا له خذها عطفا على كتبنا والضمير للالواح أو لكل شئ لانه فى معنى الاشياء (بقوة) بجد وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل (وأمر قومك ياخذوا باحسنها) أى فيها ما هو حسن واحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر فرهم أن يأخذوا بما هو ادخل فى الحسن وأكثر للثواب كقوله واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم (سأريكم دار الفاسقين) دار فرعون وقومه وهى مصر ومنازل عاد وثمود والقرون الهالكة كيف أقفرت منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم أوجهنم (ساصرف عن آياتى) عن فهمها قال ذو النون قدس الله روحه أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن (الذين يتكبرون) يتطاولون على الخلق ويأنفون عن قبول الحق وحقيقته التكلف للكبرياء التى اختصت بالبارى عزت قدرته (فى الارض بغير الحق) هو حال أى يتكبرون غير محقين لان التكبر بالحق لله وحده

(وان يروا كل آية) من الآيات المنزلة عليهم (لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) طريق صلاح الامر أو طريق الهدى الرشد
حمزة وعلى وهما كالسقم والسقم (لا يتخذوه ١٧٨ سبيلا وان يروا سبيل الغى) الضلال (يتخذوه سبيلا) ومحل (ذلك) الرفع
أى ذلك الصرف (بانهم كذبوا
(بآياتنا) بسبب تكذيبهم
(وكانوا عنها غافلين) غفلة عناد
واعراض لا غفلة سهو وجهل
(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء
الآخرة) هو من اضافة المصدر
الى المفعول به أى ولقائهم
الآخرة ومشاهدتهم أحوالها
(حبطت أعمالهم) خبر والذين
(هل يجزون الا ما كانوا
يعملون) وهو تكذيب
الاحوال بتكذيب الارسال
(واتخذ قوم موسى من بعده)
من بعد ذهابه الى الطور (من
حليهم) وانما نسب اليهم مع أنها
كانت عوارى فى أيديهم لان
الاضافة تكون لادنى ملابسة
وفيه دليل على أن من حلف أن
لا يدخل دار فلان فدخل دارا
استعارها يحنث على أنهم قد
ملكوها بعد الهلكين كملكوا
غيرها من املاكهم وفيه
دليل على ان الاستيلاء على
أموال الكفار يوجب زوال
ملكهم عنها ثم المتخذ هو
السامرى ولكنهم رضوا به فاسند
الفعل اليهم والحلى جمع حلى
وهو اسم ما يتحسن به من
الذهب والفضة حليهم حمزة
وعلى للاتباع (عجلا) مفعول
اتخذ (جسدا) بدل منه أى
بدنا ذا لحم ودم كسائر الاجساد

صفة ذم فى حق جميع العباد وقوله يتكبرون من التكبر لا من الكبر أى يفتعلون
التكبر يرون انهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون فى الارض بغير الحق
بل بالباطل (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) يعنى طريق الحق
والهدى والسداد والصواب (لا يتخذوه سبيلا) يعنى لا يختاروه لانفسهم طريقا
يسلكونه الى الهداية (وان يروا سبيل الغى) يعنى طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك
بانهم كذبوا بآياتنا) يعنى ذلك الذى اختاروه لانفسهم من ترك الرشد واتباع الغى
بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده (وكانوا عنها غافلين) يعنى عن التفكر
فيها والاتعاظ بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) يعنى ولقاء الدار الآخرة التى
فيها الثواب والعقاب (حبطت أعمالهم) يعنى بطلت فصارت كان لم تكن والمعنى انه
قد يكفر فى الدين بتكذيبه بآيات الله من يعمل البر والاحسان والخير فى دين الله تعالى
بهذه الآية ان ذلك ليس ينفعهم مع كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وانكارهم الدار
الآخرة والبعث (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) يعنى هل يجزون فى العقبى الا جزاء
العمل الذى كانوا يعملونه فى الدنيا وقوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) يعنى من
بعد انطلاق موسى الى الجبل لمناجاة ربه عز وجل (من حليهم) يعنى التى استعاروها
من قوم فرعون وذلك ان بنى اسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلى
ليتزينوا به فى عيدهم فبقى عندهم الى أن أهلك الله فرعون وقومه فبقى الحلى لبنى
اسرائيل ملكا لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أيبس موسى عليهم جمع
السامرى ذلك الحلى وكان رجلا مطاعا فى بنى اسرائيل فلذلك قال تعالى واتخذ قوم
موسى والاتخاذ هو واحد فنسب الفعل الى الكل لانه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه
وكان السامرى رجلا صائغا فصاغ لهم (عجلا جسدا) يعنى من ذلك الحلى وهو الذهب
والفضة وألقى فى ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلا جسدا
لحما ودما (له خوار) هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور
أهل التفسير وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل ان ذلك الصوت
كان لخفيق الريح وذلك انه جعله مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على وضع مخصوص
فاذا هبت الريح دخلت فى تلك الانابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر والقول الاول
أصح لانه كان يخور وقيل انه خار مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا وكلما خار سجدوا
له واذا سكت رفعوا رؤسهم قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدى
كان يخور ويمشى (ألم يروا) يعنى الذين عبدوا العجل وقيل ان بنى اسرائيل كلهم
عبدوا العجل الا هرون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى واتخذ قوم موسى من
بعده وهذا يفيد العموم وقيل ان بعضهم عبد العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله
واتخذ قوم موسى انه خرج على الاغلب وكذا قوله ألم يروا (انه) يعنى العجل الذى عبدوه

(له خوار) هو صوت البقر والمفعول الثانى محذوف أى الهاشم عجب من عقولهم السخيفة فقال (ألم يروا) حين اتخذوه الها (انه) (لا يكلمهم

لايكلمهم ولايهديهم سبيلا) لايقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لايختاروه على من لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته وهو الذى هدى الخلق الى سبيل الحق بما أركز فى العقول من الادلة وبما أنزل فى الكتب ثم ابتدأ فقال (اتخذوه) الها فاقدموا على هذا الامر المنكر (وكانوا ظالمين ولما سقط ١٧٩ فى أيديهم) ولما اشتد ندمهم على عبادة

(لايكلمهم ولايهديهم سبيلا) يعنى ان هذا العجل لايمكنه أن يتكلم بصواب ولايهدى الى رشد ولايقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لايصلح لان يعبد (اتخذوه وكانوا ظالمين) يعنى لانفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذى يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذى لايضر ولاينفع ولا يتكلم ولايهديهم الى رشد وصواب قوله عزوجل (ولما سقط فى أيديهم) يعنى ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر سقط فى يده وذلك لان من شأن من اشتد ندمه على أمر ان يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن النزول من أعلى الى أسفل (ورأوا أنهم قد ضلوا) يعنى وتيقنوا انهم على الضلالة فى عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) يعنى يتب علينا ويتجاوز عنا (لنكونن من الخاسرين) يعنى الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة فى غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه من الذنب وندم على ماصدر منه ورغب الى الله تعالى فى اقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على مافرط منه وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم وهو قوله تعالى (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا) يعنى ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه الى قومه بنى اسرائيل رجع غضبان أسفا الان الله تعالى كان قد أخبره انه قد فتن قومه وأن السامرى قد أضلهم فكان موسى فى حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الاسف أشد الغضب وقال ابن عباس والسدى الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدى والقولان متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ماتكره ممن هو دونك غضبت واذا جاءك ماتكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والاخرى غضبا فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان على قومه لاجل عبادتهم العجل أسفا حزينا الان الله تعالى فتنهم وان الله تعالى كان قد أعلمه بذلك فحزن لاجل ذلك (قال) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام لقومه (بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس الفعل فعلتم بعد فراقى اياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأتباعه أو لهرون والمؤمنين من بنى اسرائيل فعلى الاحتمال الاول فى انه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثانى وهو أن يكون الخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم منى الامر بتوحيد الله تعالى واخلاص

العجل وأصله ان من اشتد ندمه ان يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها الان فاه وقع فيها وسقط مسند الى فى أيديهم وهو من باب الكناية وقال الزجاج معناه سقط الندم فى أيديهم أى فى قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل فى يده مكروه وان استحال ان يكون فى اليد تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى بالعين (ورأوا انهم قد ضلوا) وتبينوا ضلالهم تبينا كانهم أبصروه بعيونهم (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين المغبونين فى الدنيا والآخرة (ولما رجع موسى) من الطور (الى قومه) بنى اسرائيل (غضبان) حال من موسى (أسفا) حال أيضا أى حزينا (قال بئسما خلفتمونى) قمتم مقامى وكنتم خلفائى (من بعدى) والخطاب لعبدة العجل من السامرى واشياعه أو لهرون ومن معه من المؤمنين ويدل عليه قوله اخلفنى فى قومى

والمعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله أو حيث لم تكفوا عن عبادة غير الله وفاعل بئس مضمر يفسره ماخلفتمونى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ومعنى من بعدى بعد قوله خلفتمونى من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله ونفى الشرك عنه أو من بعد ما كنت احمل بنى اسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة البقرة حين قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء ان يسيروا بسيرة المستخلف

(أعجلتم) أسبقتم بعبادة العجل (أمر ربكم) وهو اتيانى لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة وأصل العجلة طلب الشئ قبل حينه وقيل عجلتم بمعنى تركتم (وألقى الالواح) ١٨٠ ضجرا عند استماعه حديث العجل غضبا لله وكان فى نفسه شديد الغضب وكان هرون ألين منه جانبا ولذلك كان احب الى بنى اسرائيل من موسى فتكسرت فرفعت ستة اسباعها وبقى سبع واحد وكان فيما رفع تفصيل كل شئ وفيما بقى هدى ورحمة (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه غضبا عليه حيث لم ينههم عن عبادة العجل (يجره اليه) عتابا عليه لاهوانا له وهو حال من موسى (قال ابن أم) بنى الابن مع الام على الفتح كخمسة عشر وبكسر الميم حمزة وعلى وشامى لان أصله أمى فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة وكان ابن أمه وأبيه وانما ذكر الام لانها كانت مؤمنة ولان ذكرها ادعى الى العطف (ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) أى انى لم آل جهدا فى كفهم بالوعظ والانذار ولكنهم استضعفونى وهموا بقتلى (فلا تشمت بى الاعداء) الذين عبدوا العجل أى لا تفعل بى ما هو امنيتهم من الاستهانة بى والاساءة الى (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) اى قرينا لهم بغضبك على فلما اتضح له عذر أخيه (قال رب اغفر لى ولاخى) ليرضى أخاه وينفى الشماتة عنه باشراكه معه فى الدعاء والمعنى اغفر لى ما فرط منى فى حق أخى ولاخى ان كان فرط فى حسن الخلافة (وأدخلنا فى رحمتك) عصمتك فى الدنيا وجنتك فى الآخرة (وأنت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل) الها (سينالهم غضب من ربهم) هو ما امروا به من قتل أنفسهم توبة وذلة

العبادة له ونفى الشركاء عنه وحمل بنى اسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء ان يسيروا بسيرة سلفهم وقوله (أعجلتم أمر ربكم) معنى العجلة التقدم بالشئ قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشئ فى أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام وعجلت اليك رب لترضى ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له وقال الحسن أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الاربعين وذلك انهم قدروا انه ان لم يأت على رأس الثلاثين فقدمات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل وقال الكلبى معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم * واذ كر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع الى قومه غضبان أسفا ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى (وألقى الالواح) يعنى التى فيها التوراة وكان حاملها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الاخبار كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الالواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقى سبع واحد فرفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال والحرام وروى ان الله تعالى أخبر موسى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام ان ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع الى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة (وأخذ برأس أخيه يجره اليه) قيل انه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الانبارى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه هرون يلومه ومد يده الى رأسه لشدة موجدته عليه اذ لم يلحق به فيعرفه خبر بنى اسرائيل فيرجع ويتلافاهم فاعلمه هرون عليه السلام انه انما أقام بين اظهرهم خوفا على نفسه من القتل وهو قوله تعالى (قال) يعنى هرون (ابن أم) انما قال هرون لموسى ابن أم وان كانا لاب وام ليرقئه ويستعطفه عليه (ان القوم) يعنى الذين عبدوا العجل (استضعفونى) اى استذلونى وقهرونى (وكادوا يقتلوننى) اى وقاربوا أو هموا ان يقتلونى (فلا تشمت بى الاعداء) أصل الشماتة الفرح بليه من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سره عكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما تنال منى من مكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يعنى الذين عبدوا العجل (قال رب اغفر لى) يعنى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هرون قال رب اغفر لى ما صنعت الى أخى هرون يريد ما أظهر من الموجدة عليه فى وقت الغضب (ولاخى) يعنى واغفر لاخى هرون ان كان وقع منه تقصير فى الانكار على عبدة العجل (وأدخلنا) يعنى جميعا (فى رحمتك) يعنى فى سعة رحمتك (وأنت أرحم الراحمين) وهذا فيه دليل على الترغيب فى الدعاء لان من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبته (ان الذين اتخذوا العجل) يعنى الها عبدوه من دون الله (سينالهم غضب من ربهم)

وذلة فى الحياة الدنيا) يعنى سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك فى عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين فى هذه الآية قولان أحدهما ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادته وعلى هذا القول ففى الآية سؤال وهو أن أوائل الاقوام الذين اتخذوا العجل تابوا الى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمرهم الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة والجواب ان ذلك الغضب انما حصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم انفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطا فان قلت السين فى قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضى قلت هذا الكلام انما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله فى ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقوعه وهو القتل الذى أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج فى هذه الآية ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهذا الذى قاله ابن جريج وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلافه القول الثانى ان المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة فى الدنيا الجزية وقال عطية العوفى سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بنى النضير وبنى قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول ففى تقرير الآية وجهان الاول ان العرب تعير الابناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك فى المناقب فتقول للابناء فعلتم كذا وفعلتم كذا وانما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك ههنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم اتخذوا العجل وان كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا فى زمنه بانهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا الوجه الثانى ان تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى ان الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه وقوله تعالى (وكذلك نجزى المفترين) يعنى وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل الها نجزى كل من افترى على الله كذبا أو عبد غيره وقال ابو قلابة هى والله جزاء كل مفتر الى يوم القيامة ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا فى كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن أنس ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيآت) يعنى عملوا الاعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه (ثم تابوا من بعدها) يعنى ثم رجعوا الى الله من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) يعنى وصدقوا بالله تعالى وانه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب (ان ربك) يا محمد أو يا أيها الانسان التائب (من بعدها) يعنى من بعد توبتهم (لغفور رحيم) يعنى أنه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفى الآية

(وذلة فى الحياة الدنيا) خروجهم من ديارهم فالغربة تذل الاعناق أو ضرب الجزية عليهم (وكذلك نجزى المفترين) الكاذبين على الله ولا فرية أعظم من قول السامرى هذا الهكم واله موسى (والذين عملوا السيآت) من الكفر والمعاصى (ثم تابوا) رجعوا الى الله (من بعدها وآمنوا) وأخلصوا الايمان (ان ربك من بعدها) أى السيآت أو التوبة (لغفور) لستور عليهم محاءا ما كان منهم (رحيم) منعم عليهم بالجنة وان مع اسمها وخبرها خبر والذين وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم عظم جناياتهم أولا ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وان عظمت فعفوه اعظم وما كان الغضب لشدته كانه هو الآمر لموسى بما فعل قيل

دليل على ان السيآت باسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وتقدير الآية ان من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) يعنى سكن لان السكوت أصله الامساك عن الشئ ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير فى سكون الغضب لان الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالا على ما فى نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلما به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول ادخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى ادخلت رأسى فى القلنسوة والقول الاول أصح لانه قول أهل اللغة والتفسير (أخذ الالواح) يعنى التى ألقاها قال الامام فخر الدين وظاهر هذا يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شئ (وفى نسختها) النسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نقلت ما فى الاصل الى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الالواح لانها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل أراد بها النسخة المكتتبة من الالواح التى أخذها موسى بعد ما تكسرت وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما ألقى موسى الالواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وفيهما ما فى الاولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال ان الالواح لم تتكسر واخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفى نسختها المكتوب فيها (هدى ورحمة) قال ابن عباس يعنى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) يعنى للخائفين من ربهم قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الاختيار افتعال من لفظ الخيار يقال اختار الشئ اذا اخذ خيره وخياره والمعنى واختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ فى العربية لدلالة الكلام عليه قال أصحاب الاخبار ان موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليختلف منكم رجلان فقاما حتى اقتتلا لمن تعمد منكم مثل أجر من خرج فتعدى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وقيل انهم لم يعدوا الاثنين شيخا فاوحى الله اليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فاصبحوا شيوخا فامرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم الى ميقات ربه واختلف أهل التفسير فى ذلك الميقات فقيل انه الميقات الذى كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك انه لما خرج الى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهى المراد من الرجفة المذكورة فى هذه الآية وقال السدى ان الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار

(ولما سكت عن موسى الغضب) وقال الزجاج معناه سكن وقرئ به (أخذ الالواح) التى ألقاها (وفى نسختها) وفيما نسخ منها أى كتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) دخلت اللام لتقدم المفعول وضعف عمل الفعل فيه باعتباره (واختار موسى قومه) أى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل (سبعين رجلا) قيل اختار من اثنى عشر سبطا من كل سبط ستة فبلغوا اثنين وسبعين رجلا فقال ليختلف منكم رجلان فتعدى كالب ويوشع (لميقاتنا) لاعتذارهم عن عبادة العجل

موسى من قومه سبعين رجلا ثم ذهب بهم الى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان
قالوا ان نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فارناه فاخذتهم الصاعقة
فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبني اسرائيل اذا أتيتهم
وقد اهلكت خيارهم رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي وقال محمد بن اسحق اختار
موسى من بني اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم
واسالوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم
ثم خرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال
السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا
نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشي
الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى اذا كلمه ربه وقع على
جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم
حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجودا فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا
تفعل فلما فرغ من أمره انكشف عن موسى الغمام فاقبل اليهم فقالوا له لن نؤمن لك
حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهي الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه
ويدعوه ويرغب اليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي وقال ابن عباس كان
الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا بهم
فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا
فكره الله ذلك من دعائهم فاخذتهم الرجفة قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياي
وقيل انما أخذتهم الرجفة من اجل انهم ادعوا على موسى انه قتل هرون قال علي بن
أبي طالب انطلق موسى وهرون الى سفح جبل فنام هرون على سرير فتوفاه الله فلما
رجع موسى الى بني اسرائيل قالوا له أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه وكان هرون
حسن الخلق محببا في بني اسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين
رجلا فلما انتهوا اليه قالوا يا هرون من قتلك قال ما قتلني أحد ولكن الله توفاني فاخذتهم
الرجفة فجعل موسى يرجع يمينا وشمالا ويقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي
الآية قال فاحياهم الله عز وجل وقيل انما اخذتهم الرجفة لانهم لم ينكروا على قومهم
لا لانهم كانوا من عبدته قال ابن عباس انما تابوا لهم الرجفة لانهم لم يزايلوا القوم حين
نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم
ثم أحياهم وقال مجاهد واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا الميقات الموعد فلما
أخذتهم الرجفة بعدان خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن
يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى انهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم
وقال محمد بن كعب القرظي لم يستجب لهم من أجل انهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يامروهم
بالمعروف فاخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله وقوله تعالى (فلما أخذتهم
الرجفة) أصل الرجف الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغير والهلاك ولهذا

(فلما أخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة

اختلفوا فى تلك الرجفة التى حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فعظم الروايات التى تقدمت انهم ماتوا بسبب تلك الرجفة وقال وهب بن منبه لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى فلما أخذتهم الرجفة (قال) يعنى موسى (رب) أى يارب (لو شئت اهلكتهم من قبل) يعنى من قبل عبادتهم العجل (وايای) وذلك انه خاف أن يتهمه بنو اسرائيل على السبعين اذا رجع اليهم وما هم معه ولم يصدقوه بانهم ماتوا فقال رب لو شئت اهلكتهم من قبل يعنى قبل خروجهم الى الميقات وايای معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) قال الفراء نظر موسى انهم اهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعنى عبدة العجل وانما هلكوا بسبب مسئلتهم الرؤية وهى قولهم أرنا الله جهرة وهذا قول الكلبى وجماعة وقال جماعة من أهل العلم لا يجوز أن يظن موسى ان الله تعالى يهلك قوما بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أى لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الانبارى وقال المبرد هذا استفهام استعطاف أى لا تهلكنا (ان هى الا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى هى تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك أى اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا الا ان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال الواحدى وهذه الآية من المجمع الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر (أنت ولينا) يعنى أنت يارب ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أى لا ولى لنا ولا ناصر ولا حافظ الا أنت (فاغفر لنا) سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله ان هى الا فتنتك وهذا اقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفى هذا اقدام على الحضرة المقدسة ولهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه (وارحمنا) أى واشملنا برحمتك التى وسعت كل شئ (وأنت خير الغافرين) يعنى أن كل من سواك انما يغفر الذنب طلبا للثناء الجميل اولدفع ضرر واما أنت يارب فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فانت خير الغافرين قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) يعنى قال موسى فى دعائه واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهى ثواب الاعمال الصالحة وفى الآخرة أى واكتب لنا فى الآخرة مغفرة لذنوبنا (انا هدنا اليك) قال ابن عباس معناه تبنا اليك وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه

(قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) بما كان منهم من عبادة العجل (وايای) لقتلى القبطى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) (أتهلكنا بما فعل الجهال منا وهم اصحاب العجل (ان هى الا فتنتك) أنت لاؤك وهو راجع الى قوله انا قد فتنا قومك من بعدك فقال موسى هى تلك الفتنة التى اخبرتنى بها وهى ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء وتبلوكم بالشر والخير فتنة (تضل بها) بالفتنة (من تشاء) من علمت منهم اختيار الضلالة (وتهدى منهم من تشاء) من علمت منهم اختيار الهدى (أنت ولينا) مولانا القائم بامورنا (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين لنا واكتب لنا) وأثبت لنا واقسم (فى هذه الدنيا حسنة) عاقبة وحياة طيبة ووتوفيقا فى الطاعة (وفى الآخرة) الجنة (انا هدنا اليك) تبنا اليك وهاد اليه يهود اذا رجع وتاب والهود جمع هائد وهو التائب

سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم (قال) يعني قال الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام (عذابي أصيب به من أشاء) يعني من خلقي وليس لاحد علي اعتراض لان الكل ملكي وعبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لاحد عليه اعتراض (ورحمتي وسعت كل شئ) يعني ان رحمته سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتي وسعت كل شئ تطاول ابليس اليها وقال أنا من ذلك الشئ فنزعها الله تعالى من ابليس فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فأيس ابليس منها وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الامة فقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الآية وقال نوف البكالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى أجعل لك الارض مسجدا وطهورا تصلون حيث ادركتكم الصلاة الا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم واجعلكم تقرؤن التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي الا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها الا نظرا قال الله تعالى فسأكتبها للذين يتقون الى قوله المفلحون فجعلها الله تعالى لهذه الامة فقال موسى رب اجعلني نبيهم قال نبيهم منهم قال اجعلني منهم قال انك لن تدركهم قال موسى يا رب اتيتك بوفد بني اسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون فرضي موسى أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر معاصيه لان جميع التكاليف محصورة في نوعين الاول التروك وهي الاشياء التي يجب على الانسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها والية الاشارة بقوله تعالى للذين يتقون والثاني الافعال المأمور بها وتلك الاعمال بدنية وقلبية أما البدنية فاليها الاشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وان كانت في حق المال لكن يختص البدن باخراجها والاعمال القلبية كالايمان والمعرفة واليها الاشارة بقوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون وقوله عز وجل (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) ذكر الامام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين أحدهما ان المراد بذلك ان يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة اذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل ان يبعث الى الخلق وفي قوله والانجيل ان المراد وسيجدونه مكتوبا في الانجيل لان من المحال ان يجدوه فيه قبل ما أنزل الله الانجيل الوجه الثاني ان المراد من لحق من بني اسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى ان هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم

(قال عذابي) من صفته أني (أصيب به من أشاء) أي لا أعفو عنه (ورحمتي وسعت كل شئ) أي من صفة رحمتي انها واسعة تبلغ كل شئ ما من مسلم ولا كافر الا وعليه أثر رحمتي في الدنيا (فسأكتبها) أي هذه الرحمة (للذين يتقون) الشرك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ويؤتون الزكاة) المفروضة (والذين هم بآياتنا) جميع كتبنا (يؤمنون) لا يكفرون بشئ منها (الذين يتبعون الرسول) الذي نوحي اليه كتابا مختصا به وهو القرآن (النبي) صاحب المعجزات (الامي الذي يجدونه) اي يجدون نعته أولئك الذين يتبعونه من بني اسرائيل (مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

رحمة الآخرة الا اذا اتبعوه قال وهذا القول أقرب لان اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية ان هذه الرحمة لا يفوز بها من بني اسرائيل الا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع ذلك متبعا للنبي صلى الله عليه وسلم في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني اسرائيل خاصة وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فانهم قالوا المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بني اسرائيل أو غيرهم واجمع المفسرون على أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصفه بكونه رسولا لانه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ثم وصفه بكونه نبيا وهذا أيضا من أعلى المراتب واشرفها وذلك يدل على انه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالأمي قال ابن عباس هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الامي هو الذي على صفة أمة العرب لان العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أميا وصح في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب قال أهل التحقيق وكونه صلى الله عليه وسلم كان أميا من أكبر معجزاته وأعظمها وبيانه انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرأ عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى وقيل انه لو كان يحسن الكتابة ثم انه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهما فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان اميا وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الاولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وأيضا فان الكتابة تعين الانسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم انه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل في معنى الامي الذي هو منسوب الى أمه كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمي أميا لانه منسوب الى أم القرى وهي مكة وقوله تعالى الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يعني يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبة عندهم يعرفها علماؤهم واحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وتدحصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال اجل انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح به

أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا

(شرح غريب الفاظ الحديث)

اللفظ السيئ الخلق والغليظ الجافي القاسي وقوله سخاب بالسين والصاد وهو كثير الصياح في الاسواق والاعوجاج ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذي لا يصل اليه شيء ينفعه شبهه بالاغلف كانه في غلاف وروى البغوي بسنده عن كعب الاحبار قال اني أجد في التوراة مكتوبا محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح أمته الحامدون يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على انصافهم ويغضون أطرافهم صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء مناديهم ينادي في جو السماء ولهم في جوف الليل بدوي كدوي النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) يعني بالايمان وتوحيد الله (وينهاهم عن المنكر) يعني عن الشرك بالله وقيل المعروف ما عرف في الشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد وبمكارم الاخلاق وصلة الارحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) يعني بذلك ما كان محرما عليهم في التوراة من الطيبات وهو لحوم الابل وشحم الغنم والمعز والبقر وقيل هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وقيل هي المستلذات التي تستطيبها الانفس (ويحرم عليهم الخبائث) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس فان الاصل في المضار الحرمة لامالة دليل متصل بالحل (ويضع عنهم اصرهم) يعني ثقلهم وأصل الاصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله والمراد بالاصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني اسرائيل ان يعملوا بما في التوراة من الاحكام فكانت تلك الشدائد (والاغلال التي كانت عليهم) يعني ويضع الاثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وان صلاتهم لا تجوز الا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني اسرائيل شبهت بالاغلال مجازا لان التحريم يمنع من الفعل كما ان الغل يمنع من الفعل وقيل شبهت بالاغلال التي تجمع اليد الى العنق كما ان اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الاثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) يعني بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعزروه) يعني وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه وهو قوله (ونصروه) يعني على اعدائه (واتبعوا النور الذي

(وينهاهم عن المنكر) عبادة الاصنام وقطيعة الارحام (ويحل لهم الطيبات) ما حرم عليهم من الاشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أو ما طاب في الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما حل كسبه من المكاسب (ويحرم عليهم الخبائث) ما يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من المكاسب الخبيثة (ويضع عنهم اصرهم) هو الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم وقطع الاعضاء الخاطئة آصارهم شامي على الجمع (والاغلال التي كانت عليهم) هي الاحكام الشاقة نحو بيت القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت وشبهت بالغل لازومها لزوم الغل (فالذين آمنوا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) وعظموه أو منعوه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو وأصل العزر المنع ومنه التعزير لانه منع عن معاودة القبيح كالحد فهو المنع (ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي القرآن ومع متعلق بأنزل أو باتبعوا

أنزل معه) يعني القرآن سمي القرآن نورا لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم (أولئك هم المفلحون) يعني هم الناجون الفائزون بالهداية قوله تعالى (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد للناس اني رسول الله اليكم جميعا لا الى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته الى كافة الخلق لان قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بأن يقول اني رسول الله اليكم جميعا وهذا يقتضي كونه مبعوثا الى جميع الناس (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر واسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ومسجدا فايما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وفي رواية أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقوله في الرواية الاولى وبعثت الى كل أحمر وأسود قيل أراد بالاحمر العجم وبالاسود العرب وقيل أراد بالاحمر الانس وبالاسود الجن فعلى هذا تكون رسالته صلى الله عليه وسلم عامة الى كافة الخلق من الانس والجن (م) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت على الانبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيون وقوله تعالى (الذي له ملك السموات والارض) لما أمر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا اردفه بما يدل على صحة دعواه يعني ان الذي له ملك السموات والارض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني اليكم وأمرني بأن أقول لكم اني رسول الله اليكم جميعا (لا اله الا هو يحيي ويميت) وصف الله نفسه بالالهية وانه لا شريك له فيها وانه القادر على احياء خلقه واماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على ارسال الرسل الى خلقه (فآمنوا بالله ورسوله) لما أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول للناس اني رسول الله اليكم جميعا أمر الله جميع خلقه بالايمان به وبرسوله وذلك لان الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه فقال تعالى (النبي الامي) تقدم معناهما (الذي يؤمن بالله وكلماته) قال قتادة يعني آياته وهو القرآن وقال مجاهد والسدي أراد بكلماته عيسى بن مريم لانه خلق بقوله كن فكان وقيل هو على العموم يعني يؤمن بجميع كلمات الله تعالى (واتبعوه) يعني واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل المتابعة على قسمين متابعة في الاقوال ومتابعة في الافعال أما المتابعة في الاقوال فبأن يمتثل التابع جميع ما أمره المتبوع على طريق الامر والنهي والترغيب والترهيب

(أولئك هم المفلحون) الفائزون بكل خير والناجون من كل شر (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم) بعث كل رسول الى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم الى كافة الانس وكافة الجن (جميعا) حال من اليكم (الذي له ملك السموات والارض) في محل النصب باضمار أعني وهو نصب على المدح (لا اله الا هو) بدل من الصلة وهي له ملك السموات والارض وكذلك (يحيي ويميت) وفي لا اله الا هو بيان لاهليته قبلها لان من ملك العالم كان هو الاله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالالهية اذ لا يقدر على الاحياء والاماتة غيره (فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته) أي الكتب المنزلة (واتبعوه

وأما المتابعة في الافعال فبان يقتدى به في جميع أفعاله وآدابه الا ما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت بالدليل انه من خصائصه فلا متابعة فيه وقوله تعالى (لعلكم تهتدون) يعني لكي تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب في متابعتكم اياه قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعني من بني اسرائيل (أمة) أي جماعة (يهدون بالحق) يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون اليه (وبه يعدلون) يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون ويتصفون واختلفوا في هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بني اسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فانهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واعترض على هذا بانهم كانوا قليلين ولفظ الامة يقتضي الكثرة واجيب عنه بانهم لما كانوا مختصين في الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما في قوله ان ابراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس اليه وقال السدي وابن جريج وجماعة من المفسرين ان بني اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله ان يفرق بينهم وان يبعدهم عنهم ففتح الله لهم نفقا في الارض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس سار وا في السرب سنة ونصفا رواه الطبري وحكى البغوي عن الكلبي والضحاك والربيع قالوا هم قوم خلف الصين يأتي الشرق على نهر يسمى نهر الاردن ليس لاحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويحيون بالنهار ويزرعون ولا يصل اليهم أحد منا وهم على الحق وذكر لنا ان جبريل ذهب بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الامي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى أوصانا ان من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم موسى واقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم ان يقيموا امكانهم وكانوا يستون فأمرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه الاول قولهم ان أحدا منا لا يصل اليهم واذا كان كذلك فمن ذا الذي أوصل خبرهم الينا الوجه الثاني قولهم ان جبريل ذهب بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت الى قول الاخباريين والقصاص في ذلك الوجه الثالث قولهم انهم بلغوا النبي صلى الله عليه وسلم سلام موسى وقد صح في حديث المعراج انه سلم عليه في السماء السادسة وأيضا قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فاذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار في تفسير هذه الآية انها اما ان تكون نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده قوله

لعلكم تهتدون) ولم يقل فآمنوا بالله وبي بعد قوله انى رسول الله اليكم لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في الالتفات من مزية البلاغة وليعلم ان الذي وجب الايمان به هو هذا الشخص الموصوف بانه النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أو غيري اظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) أي يهدون الناس محقين أو بسبب الحق الذي هم عليه (وبه يعدلون) وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون قيل هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج أو هم عبد الله بن سلام وأضرابه

(وقطعناهم) وصيرناهم قطعا اى فرقا ومميزنا بعضهم من بعض (اثنتى عشرة أسباطا) كقولك اثنتى عشرة قبيلة والاسباط أولادا لولد جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام نعم ميز ما عدا العشرة مفسرة وكان ينبغى أن يقال اثنى عشر سبطا لكن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة وكل قبيلة اسباط لا سبط فوضع اسباط موضع قبيلة (أمما) بدل من اثنتى عشرة أى وقطعناهم أمما لان كل اسباط كانت أمة عظيمة وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر) فضرب (فانبجست) فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم) هو اسم جمع غير تكسير (وظللنا عليهم الغمام) وجعلناه ظليلا عليهم فى التيه (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقلنا لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا) أى وما رجع الينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم اليهم (واذ قيل لهم) واذكر اذ قيل لهم (اسكنوا هذه القرية) بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم) تغفر لكم مدنى وشامى خطيئاتكم مدنى خطاياكم أبو عمرو خطيئتكم شامى (سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء

تعالى (وقطعناهم) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل (اثنتى عشرة اسباطا) يعنى من أولاد يعقوب لان يعقوب هو اسرائيل وأولاده الاسباط وكانوا اثنى عشر ولدا (أمما) يعنى جماعات وقبائل (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) يعنى فى التيه (ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست) يعنى فانفجرت وقيل عرفت وهو الانبجاس (منه) أى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل أناس مشربهم) يعنى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) يعنى فى التيه يقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) هو الترنجبين (والسلوى) جنس من الطير جعل الله ذلك طعاما لهم فى التيه (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا كلوا (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فى الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فاجوا ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لان المكلف اذا أمر بشئ فترك وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعله ذلك فهذا قال وما ظلمونا يعنى وما أدخلوا علينا فى ملكنا وسلطاننا نقصا بمسئلتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعنى بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة وقوله تعالى (واذ قيل لهم) يعنى واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لهم يعنى لبنى اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) يعنى بيت المقدس وقال فى سورة البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لان كل ساكن فى موضع لابد له من الدخول اليه (وكلوا منها حيث شئتم) يعنى وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وقولوا حيث شئتم وأين شئتم وقال فى البقرة فكلوا بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما ان الدخول حالة مقتضية للاكل عقبه فحسن دخول الفاء التى هى للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤا وانما قال فى سورة البقرة رغدا ولم يقله هنا لان الاكل عقب الدخول ألذ وأكمل فامر الاكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغدا هناك بخلافه هنا (وقولوا حطة) أى حط عنا ذنوبنا (وادخلوا الباب سجدا) وقال فى البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة فى ذلك لان المقصود من ذلك تعظيم أمر الله واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير (نغفر لكم) يعنى نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وانما قال هنا خطيئاتكم وفى البقرة خطاياكم لان المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة اذا أتوا بالدعاء والتضرع (سنزيد المحسنين) وقال فى سورة البقرة وسنزيد بالواو ومعناه انه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب واسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) يعنى فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بنى اسرائيل فقالوا قولا غير الذى قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا ان يقولوا حطة فقالوا حنطة فى شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء) يعنى بعثنا عليهم عذابا من السماء أهلكهم ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا

والاسباط أولادا لولد جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام نعم ميز ما عدا العشرة مفسرة وكان ينبغى أن يقال اثنى عشر سبطا لكن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة وكل قبيلة اسباط لا سبط فوضع اسباط موضع قبيلة (أمما) بدل من اثنتى عشرة أى وقطعناهم أمما لان كل اسباط كانت أمة عظيمة وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر) فضرب (فانبجست) فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم) هو اسم جمع غير تكسير (وظللنا عليهم الغمام) وجعلناه ظليلا عليهم فى التيه (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقلنا لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا) أى وما رجع الينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم اليهم (واذ قيل لهم) واذكر اذ قيل لهم (اسكنوا هذه القرية) بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم) تغفر لكم مدنى وشامى خطيئاتكم مدنى خطاياكم أبو عمرو خطيئتكم شامى (سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء

بما كانوا يظلمون) ولا تناقض بين قوله اسكنوا هذه القرية وكلوا منها في هذه السورة وبين قوله في سورة البقرة ادخلوا هذه القرية فكلوا لوجود الدخول والسكنى وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض اثباته وقوله نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخل بذلك لانه استئناف مرتب على قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين وكذلك زيادة منهم زيادة بيان وأرسلنا وأنزلنا ويظلمون ويفسقون من واد واحد (واسألهم) واسأل اليهود (عن القرية) أيله أو مدين وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم (التي كانت حاضرة البحر) قريبة منه (اذ يعدون في السبت) اذ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه اذ يعدون في محل الجر بدل من القرية والمراد بالقرية أهلها كانه قيل واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت وهو من بدل الاشتمال (اذ تأتيهم) منصوب بيعدون أو بدل بعد بدل (حيتانهم) جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها (يوم سبتهم شرعا) ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد والمعنى اذ يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذا قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم امر السبت ويدل عليه (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) ويوم ظرف لا تأتيهم (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم ٢ (قوله هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب) في نسخة هي ايلة بين مصر والمدينة والعرب تسمى المدينة قرية وقال الزهري الخ اه

و بين قوله في سورة البقرة أنزلنا لانهما لا يكونان الا من أعلى الى أسفل وقيل بينهما فرق وهو أن الانزال لا يشعر بالكثرة والارسال يشعر بذلك فكانه تعالى بدأ بانزال العذاب قليلا ثم أرسله عليهم كثيرا (بما كانوا يظلمون) يعني ان ارسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله وقال في البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما انهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضا في تفسير سورة البقرة قوله عز وجل (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام لانه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله عز وجل اليه واخباره اياهم بحالهم وانما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على اقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكار نبوته ومعجزاته ليس شيئا قد حدث منهم في زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا لاسلافهم في قديم الزمان وفي الاخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم في قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم أمر الله عز وجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس ٢ هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وفي رواية عن ابن عباس قال هي مدين وقال وهب هي ما بين مدين وعيون يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقرية منه (اذ يعدون في السبت) يعني يتجاوزون حد الله فيه وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك (اذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) يعني الحيتان (كذلك نبلوهم) يعني مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم (بما كانوا يفسقون) يعني ان ذلك الابتلاء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به قال أهل التفسير ان اليهود أمروا بيوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وهو ان الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد فلما أراد الله أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت يظرون اليها في البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر الى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس اليهم الشيطان وقال ان الله انما نهاكم عن الاصطياد وانما نهاكم عن الاكل فاصطادوا وقيل انه وسوس اليهم انكم انما نهيتم عن الاخذ فاتخذوا حياضا على ساحل البحر وسوقوا اليها الحيتان يوم السبت فاذا كان يوم الاحد أخذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم انهم تجرؤا

على السبت وقالوا ما نرى السبت الا قد حل لنا فاصطادوا فيه وكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزابا ثلاثة وكانوا نحوا من سبعين ألفا فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلثهم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا في زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشانا لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي بينهم فاذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا اليهم فصاروا القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فبكى الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى (واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم) واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين ان أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يعني أنهم لا يوهم على موعظة قوم يعلمون انهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم معذرة الى ربكم يعني ان موعظتنا اياهم معذرة الى ربكم لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فوعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله (ولعلهم يتقون) أي وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم ان أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد ان لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا والمعنى لم تعظونا وقد علمتم ان الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه والقول الاول أصح لانهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة الى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية وقوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أي فلما تركوا ما وعظوا به (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الناهية (وأخذنا الذين ظلموا) يعني الفرقة المعتدية العاصية (بعذاب بئيس) أي شديد وجيع من البأس وهو الشدة (بما كانوا يفسقون) يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا روى عكرمة عن ابن عباس قال أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة فقلت له جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به

(واذ قالت) معطوف على اذ يعدون وحكمه كحكمه في الاعراب (أمة منهم) جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم لآخرين لا يقلعون عن وعظهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) وانما قالوا ذلك لعلمهم ان الوعظ لا ينفع فيهم (قالوا معذرة الى ربكم) أي موعظتنا ايلاء عذر الى الله لئلا ننسب في النهي عن المنكر الى التفريط معذرة خفض على انه مفعول له أي وعظناهم للمعذرة (ولعلهم يتقون) ولطمعنا في أن يتقوا (فلما نسوا) أي أهل القرية لما تركوا (ما ذكروا به) ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما نسيه (أنجينا الذين ينهون عن السوء) عن العذاب الشديد (وأخذنا الذين ظلموا) الراكبين للمنكر والذين قالوا لم تعظون من الناجين فعن الحسن نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان (بعذاب بئيس) شديد يقال بؤس يبؤس باسا اذا اشتد فهو بئيس بئس شامي بيس مدني بيئس على وزن فيعل أبو بكر غير حماد (بما كانوا يفسقون)

وأمر لى بيردين فكسانيهما وقال نجت السا كتة وقال يمان بن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية فى ترك النهى عن المنكر وقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعنى عن تركما نهوا عنه وتمردوا فى العصيان من اعتدائهم فى السبت واستحلالهم ماحرم الله عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يعنى صاغرين مبعدين من كل خير قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالا ونساء وقال ابن عباس جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شبان القوم صاروا قردة وان المشيخة داروا خنازير قيل انهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا قوله تعالى (واذ تأذن ربك) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ومعنى تأذن آذن والأذان الاعلام يعنى أعلم ربك وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم ربك (ليبعثن عليهم) اللام فى قوله ليبعثن جواب القسم لان قوله واذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه جزما وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا فى الضمير فى عليهم الى من يرجع فقيل يقتضى أن يكون راجعا الى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم ان الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لان الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذى بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسنحاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب وقيل المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعثه الله عليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته فالزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود الى يوم القيامة وأورد على هذا بأن فى آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لان اليهود اتباعه وأشياعه وأجيب عنه بان ذلك العز الذى يحصل لهم هو فى نفسه غاية الذلة لانهم يدعون الهية الدجال فيزدادون كفرا على كفرهم فاذا هلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعا فذلك هو الذلة والصغار المشار اليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وهذا نص فى أن العذاب انما يحصل لهم فى الدنيا مستمرا عليهم الى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالاهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فاذا أفضوا الى الآخرة كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى (ان ربك لسريع العقاب) يعنى لمن أقام على الكفر ففيه دليل على انه يجمع لهم مع ذلك الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وانه لغفور رحيم) يعنى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام قوله تعالى (وقطعناهم فى الارض أمما) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل فى الارض جماعات متفرقة فلا تجد بلدا الا

فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى جعلناهم قردة أذلاء مبعدين وقيل فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا والعذاب البئيس هو المسخ قيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون والجمهور على انها ماتت بعد ثلاث وقيل بقيت وتناسلت (واذ تأذن ربك) أى أعلم وأجرى مجرى فعل القسم ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله (ليبعثن عليهم) أى كتب على نفسه ليسلطن على اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم) من يوليهم (سوء العذاب) فكانوا يؤدون الجزية الى المجوس الى ان بعث محمد صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر (ان ربك لسريع العقاب) للكفار (وانه لغفور رحيم) للمؤمنين (وقطعناهم فى الارض) وفرقناهم فيها فلا تخل بلد عن فرقة (امما

منهم الصالحون) الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين (ومنهم دون ذلك) ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الفسقة ومحل دون ذلك الرفع وهو صفة لموصوف محذوف أي ومنهم ناس منحطون عن الصلاح (وبلوناهم بالحسنات والسيآت) بالنعم والنقم والخصب والجدب (لعلهم يرجعون) ينتهون فيتوبون (فخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف) وهم الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلف بدل السوء بخلاف الخلف فهو الصالح (ورثوا الكتاب) التوراة ووقفوا على ما فيها من الاوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الادنى) هو حال من الضمير في ورثوا والعرض المتاع أي حطام هذا الشئ الادنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الاحكام وعلى تحريف الكلام وفي قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير (ويقولون سيغفر لنا) لا يؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند الى الاخذ أو الى الجار والمجرور أي لنا

وفيه من اليهود طائفة وجماعة قال ابن عباس كل أرض يدخلها قوم من اليهود (منهم الصالحون) يعني من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني اسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وانما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبري ولم يذكر غيره وروى البغوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بالصالحين الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود وآمنوا به والصحيح ما ذكره الطبري يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف انما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بني اسرائيل وقوله تعالى (ومنهم دون ذلك) يعني الذين كفروا من بني اسرائيل وبدلوا وغيروا (وبلوناهم) يعني جميعا الصالح وغيره وهي بلوى اختبار وامتحان (بالحسنات) يعني الخصب والعافية (والسيآت) يعني الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) يعني لكي يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعاني كل واحدة من الحسنات والسيآت اذا فسرت بالنعم والشدة تدعو الى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكرا فيرغب في الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها قوله تعالى (فخلف من بعدهم) يعني من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) يعني خلف سوء يعني حدث من بعدهم وتبدل منهم يدل سوء يقال منه هو خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فأكثر ما يقال في المدح بفتح اللام وفي الذم بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا ✻ لاولنا في طاعة الله تابع

فسكن اللام في قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد في الذم

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ✻ وبقيت في خلف كجلد الاجرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد يقال خلف اللبن اذا فسد وتغير في السقاء ويقال للردي من القول خلف وخلف الشئ تغير ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله (ورثوا الكتاب) يعني انتقل اليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة (يأخذون عرض هذا الادنى) العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى انهم كانوا يأخذون الرشا في الاحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الاحكام ويعلمون انها حرام ثم انهم مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه (ويقولون سيغفر لنا) يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الاماني الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني

اخرجه

(وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق المذكور فى الكتاب (أن لا يقولوا على الله الا الحق) أى أخذ عليهم الميثاق فى كتابهم أن لا يقولوا على الله الا الصدق وهو عطف بيان لميثاق الكتاب (ودرسوا ما فيه) وقرؤا ما فى الكتاب وهو عطف على ألم يؤخذ عليهم لانه تقرير فكانه قيل أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا والمحارم (أفلا يعقلون) انه كذلك وبالتاء مدنى وحفص (والذين يمسكون بالكتاب) يمسكون أبو بكر والامساك والتمسيك والتمسك الاعتصام والتعلق بشئ (وأقاموا الصلاة) خص الصلاة مع ان التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة لانها عماد الدين والذين مبتدأ والخبر (انا لا نضيع أجر المصلحين) أى انا لا نضيع أجرهم وجاز أن يكون مجرورا عطفا على للذين يتقون وانا لا نضيع اعتراض (واذ نتقنا الجبل فوقهم) واذ كر اذ قلعناه ورفعناه كقوله ورفعنا فوقكم الطور (كأنه ظلة) هى كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب (وظنوا انه واقع بهم) وعلموا انه ساقط عليهم وذلك انهم ابوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخا فى فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الايسر وهو ينظر بعينه اليمنى الى الجبل فرقا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هى السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة وقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب

أخرجه الترمذى وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام دان نفسه يعنى حاسبها فى الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية قوله وتمنى على الله الاماني لان اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) وهذا اخبار عن حرصهم على الدنيا واصرارهم على الذنوب والمعنى انهم اذا أتاهم شئ من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون على الله المغفرة وان وجدوا من الغد مثله أخذوه قال السدى كانت بنو اسرائيل لا يستقضون قاضيا الا ارتشى فى الحكم فيقال له ما بالك ترتشى فيقول سيغفر لى فيطعن عليه الآخرون فاذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضا يقول الله عز وجل وان يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) يعنى ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين فى أحكامهم العهود والمواثيق فى الكتاب وهو التوراة (ان لا يقولوا على الله الا الحق) يعنى انا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود فى ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها (ودرسوا ما فيه) يعنى ما فى الكتاب والمعنى انهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق فى الكتاب لانهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به (والدار الآخرة) يعنى وما فى الدار الآخرة مما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا فى الاحكام (خير للذين يتقون) يعنى يتقون الله ويخافون عقابه (أفلا يعقلون) يعنى افلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما فى الآخرة خير وأبقى لانها دار المتقين (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به واستمسكت به وامسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من احلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك باحكامه نزلت هذه الآية فى الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لانهم تمسكوا بالكتاب الاول ولم يحرفوه ولم يغيروه فاداهم ذلك التمسك الى الايمان بالكتاب الثانى وهو القرآن (واقاموا الصلاة) يعنى وداوموا على اقامتها فى مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله وبرسوله (انا لا نضيع أجر المصلحين) قوله عز وجل (واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة) يعنى واذكر يا محمد اذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى اسرائيل كانه ظلة يعنى جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الانسان كالسقف ونحوه (وظنوا) أى وعلموا وايقنوا (انه واقع بهم) يعنى الجبل (خذوا) يعنى وقلنا لهم خذوا واضمار القول كثير فى القرآن وكلام العرب (ما آتيناكم) يعنى

التوراة (بقوة) يعني بجهد واجتهاد (واذكروا مافيه) يعني واعملوا بما فيه من الاحكام (لعلكم تتقون) قال أصحاب الاخبار ان بني اسرائيل لما أبوا ان يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلا عظيما حتى صار على رؤسهم كالظلة فلما نظروا الى الجبل فوق رؤسهم خروا ساجدين فسجد كل واحد منهم على حده وحاجبه الايسر وجعل ينظر بعينه اليمنى الى الجبل خوفا أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود الا على شق وجوههم الايسر قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الآية قال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم فاكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح * وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى واذ أخذ ربك يعني واذكر يا محمد اذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وانما لم يذكر ظهر آدم وان كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لان الله تعالى اخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الابناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم انهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء ثم للعلماء في تفسير هذه الآية

(بقوة) وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه (واذكروا مافيه) من الاوامر والنواهي ولا تنسوه (لعلكم تتقون) ما أنتم عليه (واذ أخذ ربك من بني آدم) أي واذكر اذ أخذ (من ظهورهم) بدل من بني آدم والتقدير واذ أخذ ربك من ظهور بني آدم (ذريتهم) ومعنى أخذ ربك اياهم من ظهورهم اخراجهم من أصلاب آبائهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى)

مذهبان أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ما جاءت به الروايات عن السلف فيما روى عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري باسانيد فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وعن ابن عباس في هذه الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضا قال ان أول ما أهبط الله آدم الى الارض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين زاد في رواية عنه فجف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وفي رواية عنه قال لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه انه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم وفي رواية عنه قال ان الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فاخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وتكفل لهم بالارزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر وفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الاول ومن مات صغيرا ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وقال ابن عباس أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم اعادها في صلبه فليس أحد من الخلق الا وقد تكلم فقال ربي الله وان القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه وقال السدي أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم انه مسح صفحة ظهره اليمنى فاخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فاخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فاعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها وقال محمد بن كعب القرظي أقر له بالايمان والمعرفة الارواح قبل خلق أجسادها وقال مقاتل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فاخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فاخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم

أعادهم جميعا فى صلب آدم فاهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعا وروى أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعا اعلموا انه لا اله لكم غيرى وأنا ربكم لا رب لكم غيرى فلا تشركوا بى شيأ فانى سأنتقم ممن أشرك بى ولم يؤمن بى وانى مرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فاخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر اليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال انى أحب أن أشكر فلما أقر رهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم الى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لأمثال الذر عقلا وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى فى النملة قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وكما قال وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وقال ابن الانبارى مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال أوبى معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبى صلى الله عليه وسلم وكذلك الشجرة حتى سمعت لامره وانقادت ومعنى قوله ألست بربكم على هذا التفسير قال الله سبحانه وتعالى للذرية ألست بربكم فهو ايجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعنى قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له واقرار منهم له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية (شهدنا) فيه قولان أحدهما انهم لما أقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا على اقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لان كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف والقول الثانى ان قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الاقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده وقوله سبحانه وتعالى (أن يقولوا) وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية (يوم القيامة انا كنا عن هذا) يعنى الميثاق (غافلين) وقرئ أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أى الذرية انا كنا عن هذا غافلين والمذهب الثانى فى معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفا فى أصلاب الآباء وهم أولاد بنى آدم فاخرج الذرية الى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الاشهاد صاروا كانهم قالوا بلى وأشهدهم على انفسهم انه ربهم وذلك بما اظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التى تضطرهم الى ان يعلموا انه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك الى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على انفسنا انك انت ربنا وخالقنا فعلى هذا

شهدنا) هذا من باب التمثيل ومعنى ذلك انه نصب لهم الادلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة فكانه أشهدهم على انفسهم وقررهم وقال لهم ألست بربكم وكانهم قالوا بلى انت ربنا شهدنا على انفسنا واقررنا بوحدانيتك (ان يقولوا) مفعول لاى فعلنا ذلك من نصب الادلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة ان يقولوا (يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) لم ننبه عليه

القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور فى كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذى يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية واذ يأخذ ربك من بنى آدم ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذى يكون به الفهم والتكليف الذى به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة فان قلت فما المختار من هذين المذهبين فى تفسير هذه الآية قلت المذهب الاول هو المختار لانه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فان قلت اذا كان المختار فى تفسير هذه الآية هو مذهب السلف فى ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لاخذ الميثاق عليهم كما ورد فى الحديث أيضا فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول قلت قد صح الحديث بان الله مسح ظهر آدم فاخرج ذريته واخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم فى تفسير ألفاظ الآية من أن الله اخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما فى الخارج وكلهم باجمعهم من ظهر آدم الذى هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث اذ ليس فى معنى ألفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير اليه والاخذ به جمعا بين الآية والحديث وحكى الواحدى عن صاحب النظم انه قال ليس بين قوله عليه الصلاة والسلام ان الله مسح ظهر آدم فاخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لانه تعالى اذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لان ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بانه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها بالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره فائدة أخذ الميثاق عليهم فى القدم أن من مات منهم صغيرا أدخل الجنة باقراره بالميثاق الاول وهذا على قول من يقول ان أطفال المشركين يدخلون الجنة اذا ماتوا صغارا فاما من لا يحكم لهم بالجنة فانه يقول من كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وانما أقروا بالمعرفة كرها فلم يغن عنهم ذلك شيأ ومن بلغ وعقل لم يغن عنه اقراره بالميثاق الاول شيأ حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بان الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤا به من عنده وانما فعل ذلك لئلا يقول الكفار انا كنا عن هذا الميثاق أو الايمان بان الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم انما أشرك آباؤنا ونحن ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون منا فنكون قد ورثنا منهم الكفر والضلال وسننا فيهم سنة السوء فنستحق العذاب بذلك وحاصل هذا الكلام أن الله تعالى أزاح علة الكفار بما ركب فيهم من العقول وبما نصب لهم من الادلة على توحيده وصدق رسله وبما أنزل عليهم من الكتب وبما أخذ عليهم من الميثاق فلم يبق لاحد منهم عذر ولا علة ولا حجة ولا شبهة وقال الزجاج معنى الآية واذ أخذ ربك من بنى آدم من أصلابهم ذرياتهم أى أخرج من كل صلب ما يتوالد منه ويكون من ذريته وقال ابن الانبارى معنى من ظهورهم من ظهر كل واحد منهم ذريته التى تكون منه وقال ابن عباس ان الله تعالى مسح آدم بيمينه فاخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره بيمينه فاخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال عليه الصلاة والسلام ان الله اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وقال ابن عباس أيضا ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر فجعل يعرض عليه كل نسمة خلقها من ذريته من الى يوم القيامة فيقول اللهم من هذا فيقول هذا ابنك فلان فيعجبه فيقول اللهم زده من عمره فيقول هذا ابنك داود فيقول اللهم زده من عمره فيقول لا أزيده من عمره الا من عمرك فيقول اللهم زده من عمرى فيقول هذا ابنك سليمان فيقول اللهم زده من عمره فيقول لا أزيده من عمره الا من عمرك فيقول اللهم زده من عمرى فيقول هذا ابنك محمد فيقول اللهم زده من عمره فيقول لا أزيده من عمره الا من عمرك فيقول اللهم زده من عمرى فيقول هذا ابنك أحمد فيقول اللهم زده من عمره فيقول لا أزيده من عمره الا من عمرك فيقول اللهم زده من عمرى فيقول هذا ابنك فلان

الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء والتكليف فقامت الحجة عليهم لامدادهم بالرسل واعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم ايضا يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات وقوله تعالى (أو يقولوا) يعنى الذرية (انما أشرك آباؤنا من قبل) يعنى انما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون انما أشرك آباؤنا من قبل (وكنا ذرية من بعدهم) يعنى وكنا أبناءهم فاقتدينا بهم فى الشرك (أفتهلكنا) يعنى افتعذبنا (بما فعل المبطلون) قال المفسرون هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة انما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا فى غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعا الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة واما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب اهل النظر قالوا معناه ان الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا انما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لان نصب ادلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم فى الاعراض عنه والاقبال على تقليد الآباء فى الشرك وقوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات) يعنى ليتدبرها العباد فيرجعوا الى الحق والايمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله (ولعلهم يرجعون) يعنى عن الشرك الى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه قوله عز وجل (واتل عليهم) يعنى واقرأ على قومك يا محمد (نبأ) يعنى خبر (الذى آتيناه آياتنا) اختلفوا فيه فقال ابن عباس هو بلعم ابن باعوراء وقال مجاهد بالعام بن باعر وقال ابن مسعود هو بلعم بن ابر قال عطية قال ابن عباس انه كان من بنى اسرائيل وفى رواية اخرى عنه انه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء * وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن اسحق والسدى وغيرهم من اصحاب الاخبار والسير قالوا ان موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل ارض كنعان من ارض الشام اتى قوم بلعام اليه وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد وان معه جنودا كثيرة وانه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى اسرائيل وانت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا فقال ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وانا أعلم من الله ما أعلم وانى ان فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربى وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه فى المنام فاتى فى المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه انى قد آمرت ربى فنهانى أن ادعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يوح اليه شئ فقال قد آمرت ربى فلم يوح الى شئ فقالوا له لو كره ربك ان تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم

(أو يقولوا) او كراهة ان يقولوا على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم فى الاعراض عنه والاقتداء بالآباء كما لا عذر لآبائهم فى الشرك وادلة التوحيد منصوبة لهم (افتهلكنا بما فعل المبطلون) اى كانوا السبب فى شركنا لتأسيسهم الشرك وتركهم سنة لنا (وكذلك) ومثل ذلك التفصيل البليغ (نفصل الآيات) لهم (ولعلهم يرجعون) عن شركهم نفصلها الى هذا ذهب المحققون من اهل التفسير منهم الشيخ ابو منصور والزجاج والزمخشرى وذهب جمهور المفسرين الى ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر واخذ عليهم الميثاق انه ربهم بقوله ألست بربكم فاجابوه بلى قالوا وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها وقال ابن عباس رضى الله عنهما أخرج الله من ظهر آدم ذريته وأراه اياهم كهيئة الذر وأعطاهم العقل وقال هؤلاء ولدك آخذ عليهم الميثاق أن يعبدونى قيل كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف وقيل بعد النزول من الجنة وقيل فى الجنة والحجة للاولين انه قال من بنى آدم من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم ولا يالا نتشذ كر ذلك فانى يصير حجة ذرياتهم مدنى وبصرى وشامى ان تقولوا أو تقولوا أبو عمرو (واتل عليهم) على اليهود (نبأ الذى آتيناه آياتنا) هو عالم من علماء بنى اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله يزالوا

يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسبان فلما سار على اتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى أزلقها فاذن الله عز وجل لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب اما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهي هذا ويحك أتذهب الى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع لخلي الله سبيل الاتان فانطلقت به حتى اذا أشرفت به على جبل حسبان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء الا صرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله به لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي الا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ثم قال جعلوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى عسكر بني اسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور على رجل من عظماء بني اسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام وقال اني لا أظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله اني لا أطيعك في هذا ثم قام ودخل بها الى قبته فوقع عليها فارسل الله عز وجل الطاعون على بني اسرائيل في ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هرون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا فظا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني اسرائيل فاخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما مضطجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما الى السماء وقد أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته واسند الحربة الى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني اسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة الى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك سبعون ألفا في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو اسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه اياها بذراعه واسناده اياها الى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لانه كان بكر العيزار وفي بلعام أنزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الآية وقال مقاتل ان ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام انه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الاتان فضربها فقالت

لم تضربني وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع الى الملك فاخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لاصلبنك فدعا على موسى بالاسم الاعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني اسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يارب بأي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه على فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فان قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها ان موسى عليه السلام دعا على بلعام بان ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على انسان بالكفر بعد الايمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه أحدها منع صحة هذه القصة لانها من الاسرائيليات ولا يلتفت الى ما يسطره أهل الاخبار اذا خالف الاصول الوجه الثاني ان سبب وقوع بني اسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا الها فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لا دعاء بلعام عليهم الوجه الثالث على تقدير صحة هذه القصة وان موسى عليه السلام دعا على بلعام ان موسى عليه السلام لم يدع عليه الا بعد أن ثبت عنده ان بلعام كفر وارتد عن الايمان بدعائه على موسى وايثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الاخبار في كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم ان الله سبحانه وتعالى مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ما قتل اقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فارعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة أخيها فقالت بينما هو راقد اتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد احدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه أوعى قال وعى قال اذكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال خير اريد بي فصرف عني ثم غشي عليه فلما افاق من غشيته قال شعرا

كل عيش وان تطاول دهرا ✻ صائر أمره الى ان يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ✻ في ظلال الجبال ارعى الوعولا
ان يوم الحساب يوم عظيم ✻ شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم انشديني من شعر اخيك فانشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فانزل الله عز وجل واتل عليهم

نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية وفى رواية عن ابن عباس انها نزلت فى البرصوص وهو رجل من بنى اسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها أولاد فقالت له اجعل لى منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى اسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس فى نساء بنى اسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاءت بنوها الى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الامر قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها الى حالها الاول فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعا والقولان الاولان أشهر وقال الحسن وابن كيسان نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى آتيناه آياتنا قال ابن عباس كان يعلم اسم الله الاكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيأ الا أعطاه وقال السدى كان يعلم اسم الله الاعظم وفى رواية أخرى عن ابن عباس انه أوتى كتابا وقيل ان الله آتاه حجة وأدلة وهى الآيات التى أوتيها (فانسلخ منها) يعنى خرج من الآيات التى كان الله آتاه اياها كما تنسلخ الحية من جلدها وقال ابن عباس نزع منه العلم (فأتبعه الشيطان) يعنى لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه فى معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه قوله تعالى (فكان من الغاوين) يعنى من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه وقوله سبحانه وتعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يعنى رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التى أوتيها وقال ابن عباس لرفعناه بعمله بها وقال مجاهد وعطاء معناه ولو شئنا لرفعناه عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه أخلد الى الارض) يعنى ولكنه سكن الى الدنيا ومال اليها ورضى بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والارض هنا عبارة عن الدنيا لان الارض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به فى الدنيا فالدنيا كلها هى الارض (واتبع هواه) يعنى انه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه وآخرته ووقع فى هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لان الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الاعظم وجعل دعاءه مستجابا ثم انه لما اتبع هواه وركن الى الدنيا ورضى بها عوضا عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذى يسلم من الميل الى الدنيا واتباع الهوى الا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصره بعيوب نفسه عن كعب بن مالك الانصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذئبان جائعان ارسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه أخرجه الترمذى * ثم ضرب الله عز وجل مثلا لهذا الرجل الذى آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى (فمثله كمثل الكلب ان تحمل

(فانسلخ منها) خرج من الآيات بان كفر بها ونبذها وراء ظهره (فأتبعه الشيطان) فلحقه الشيطان وادركه وصار قرينا له (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين روى ان قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فابى فلم يزالوا به حتى فعل وكان يحفظ اسم الله الاعظم (ولو شئنا لرفعناه) الى منازل الابرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه اخلد الى الارض) مال الى الدنيا ورغب فيها (واتبع هواه) فى ايثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها (فمثله كمثل الكلب ان تحمل

عليه) أي تزجره وتطرده (يلهث أو تتركه) غير مطرود (يلهث) والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك ان سائر الحيوان لا يكون

عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث اذا ادلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الاعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لان الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لان التمثيل به على انه يلهث على كل حال ان حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائما فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم انه مال اليها وطلبها كانت حاله كحال الكلب اللاهث وقيل ان العالم اذا توصل بعلمه الى طلب الدنيا فانه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لاجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش الى الفوز بحظوظ له من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي ادلع لسانه من اللهث في غير حاجة ولا ضرورة ومعنى ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي ان شددت عليه وأهجته لهث وان تركته على حاله لهث لان اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما ان اللهث طبيعة لازمة للكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني ان المثل الذي ضربناه للذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فهم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وان تركوا لم يهتدوا أيضا بل هم ضلال في كل حال ثم قال سبحانه وتعالى (فاقصص القصص) وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني فاقصص القصص يا محمد على قومك أي أخبار من كفر بآيات الله (لعلهم يتفكرون) يعني فيتعظون وقيل هذا المثل للكفار مكة وذلك انهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم الى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الله والى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (وأنفسهم كانوا يظلمون) يعني بتكذيبهم بآياتنا قوله عز وجل (من يهد الله فهو المهتدي) يعني من يرشده الله الى دينه فهو المهتدي وقيل معناه من يتول الله هدايته وارشاده فهو المهتدي (ومن يضلل) يعني ومن يتول الضلالة (فأولئك هم الخاسرون) يعني في الآخرة وفي الآية دليل على ان الله سبحانه وتعالى هو الهادي

الكلام ان يقال ولكنه اخلد الى الارض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه ابلغ وحط ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا في الحالين وقيل لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب وقيل معناه هو ضال وعظا أو ترك وعن عطاء من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح ان طرد او ترك (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه (فاقصص القصص) اي قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم (لعلهم يتفكرون) فيحذرون مثل عاقبته اذا سار وا نحو سيرته (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) اي مثل القوم فحذف المضاف وفاعل ساء مضمر اي ساء المثل مثلا وانتصاب مثلا على التمييز (وأنفسهم كانوا يظلمون) معطوف على كذبوا فيدخل في حيز الصلة اي الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم انفسهم او منقطع عن الصلة اي وما ظلموا الا انفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص اي وخصوا انفسهم بالظلم لم يتعد الى غيرها (من يهد الله فهو المهتدي) حمل على اللفظ (ومن يضلل) اي ومن يضلله (فأولئك هم الخاسرون) حمل على المعنى ولو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن اذ البيان ثابت في حق

المضل وقوله سبحانه وتعالى (ولقد ذرأنا) يعنى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله سبحانه وتعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها واستدل البغوى على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك يا عائشة ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى اصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين ان من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا وأجاب العلماء عنه بانه لعله صلى الله عليه وسلم نهاها عن المبادرة الى القطع من غير ان يكون عندها دليل قاطع كما انكر على سعد بن أبى وقاص لفظة انى لأراه مؤمنا فقال أو مسلما الحديث ويحتمل انه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل ان يعلم ان أطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك قال به وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة ويستدل له باشياء منها خبر ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى ان الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها لان الله سبحانه وتعالى بين بصريح اللفظ أنه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله عز وجل لان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم أن له من يضطره الى ذلك العمل الموجب الى دخول النار وهو الله عز وجل وقيل اللام فى جهنم للعاقبة أى عاقبتهم جهنم ثم وصفهم فقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) يعنى لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه فى اللغة الفهم والعلم بالشىء ثم صار علما على اسم العلم فى الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال فقه الرجل يفقه فهو فقيه اذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون بها فى آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لاعراضهم عن الحق وتركهم قبوله (ولهم أعين لا يبصرون بها) يعنى لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها فى آيات الله وادلة توحيده (ولهم آذان لا يسمعون بها) يعنى لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها قال أهل المعانى ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا شك فيه وانما وصفهم الله عز وجل بانهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع

الفريقين فدل انه من الله تعالى التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبر آيات الله والله تعالى علم منهم اختيار الكفر فشاء منهم الكفر وخلق فيهم ذلك وجعل مصيرهم جهنم لذلك ولا تنافى بين هذا وبين قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون لانه انما خلق منهم للعبادة من علم انه يعبده وأما من علم انه يكفر به فانما خلقه لما علم أنه يكون منه فالحاصل ان من علم منه فى الازل انه يكون منه العبادة خلقه للعبادة ومن علم منه ان يكون منه الكفر خلقه لذلك وكم من عام يراد به الخصوص وقول المعتزلة بان هذه لام العاقبة اى لما كان عاقبتهم جهنم جعل كأنهم خلقوا لها فرارا عن ارادة المعاصى عدول عن الظاهر (لهم قلوب لا يفقهون بها) الحق ولا يتفكرون فيه (ولهم أعين لا يبصرون بها) الرشد (ولهم آذان لا يسمعون بها)

وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك ان المراد بذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم فى الآخرة وحاصل هذا الكلام انهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم فى أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها * وانى ان أشاء بها سميع

فانه اثبت له صمما مع وجود السمع قال مجاهد لهم قلوب لا يفقهون بها شيأ من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق ثم ضرب لهم مثلا فقال سبحانه وتعالى (أولئك كالانعام) يعنى ان الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية كالانعام وهى البهائم التى لا تفهم ولا تعقل وذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركون فى هذه الحواس الثلاثة التى هى القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الانعام التى لا تدرك شيأ ثم قال تعالى (بل هم أضل) يعنى بل ان الكفار أضل من الانعام لان الانعام تعرف ما يضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الانعام ولان الانعام لم تعط القوة العقلية والانسان قد أعطيها فاذا لم يستعمل العقل فيما ينفعه صار أخس حالا من الانعام وقيل ان الانعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل فصارت الانعام أفضل منه ثم قال الله تعالى (أولئك هم الغافلون) يعنى عن ضرب هذه الامثال لهم قوله سبحانه وتعالى (ولله الاسماء الحسنى) قال مقاتل ان رجلا دعا الله فى صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركى مكة قال ابن الجوزى هو ابو جهل ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فانزل الله هذه الآية ولله الاسماء الحسنى والحسنى تانيث الاحسن ومعنى الآية ان اسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد ان فيها ما ليس بحسن والمعنى ان الاسماء الحسنى ليست الا لله لان هذا اللفظ يفيد الحصر وقيل ان الاسماء الفاظ دالة على معان فهى انما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن فى حق الله تبارك وتعالى الا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهى محصورة فى نوعين احدهما عدم افتقاره الى غيره الثانى افتقار غيره اليه وانه هو المسمى بالاسماء الحسنى (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر وفى رواية من أحصاها وفى رواية أخرى لله تسعة وتسعون اسما مائة الا واحدا لا يحفظها أحد الا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر قال البخارى أحصاها حفظها وفى رواية الترمذى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم

الوعظ (أولئك كالانعام) فى عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر (بل هم أضل) من الانعام لانهم كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول فالانعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارها وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار وكيف يستوى المكلف المامور والمخلى المعذور فالآدمى روحانى شهوانى سماوى ارضى فان غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات وان غلب هواه روحه فاقته بهائم الارض (أولئك هم الغافلون) الكاملون فى الغفلة (ولله الاسماء الحسنى) التى هى أحسن الاسماء لانها تدل على معان حسنة فمنها ما يستحقه بحقائقه كالقديم قبل كل شئ والباقى بعد كل شئ والقادر على كل شئ والعالم بكل شئ والواحد الذى ليس كمثله شئ ومنها ما تستحسنه الانفس لآثارها كالغفور والرحيم والشكور والحليم ومنها ما يوجب الخلق به كالفضل والعفو ومنها ما يوجب مراقبة الاحوال كالسميع والبصير والمقتدر ومنها ما يوجب الاجلال كالعظيم والجبار والمتكبر

القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم
العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير
الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم
الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد
المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد
الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاوّل الآخر الظاهر الباطن
الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذوالجلال
والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور
الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور قال الترمذى حدثنابه غير
واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه الامن حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل
الحديث قال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله
عليه وسلم ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء التى فى هذا الحديث قال ابن الاثير
وفى روايه ذكرها رزين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله ولله الاسماء الحسنى
فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال ان لله
تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما الحديث قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله
تعالى اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه سبحانه وتعالى وليس
معناه انه ليس له اسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود من الحديث ان هذه
التسعة والتسعين اسما من احصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة
باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء فى الحديث الآخر أسألك بكل اسم
سميت به نفسك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن
العربى المالكى عن بعضهم ان لله ألف اسم قال ابن العربى وهذا قليل وقوله صلى الله
عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخارى أن معناه حفظها وهو قول
أكثر المحققين وبعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل المراد من
الاحصاء العدد أى عدها فى الدعاء بها وقيل معناه من اطاقها وأحسن المراعاة لها
والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى
أحصاها أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر فى مدلولها معتبرا متدبرا ذاكرا
راغبا راهبا معظما لها ولمسماها ومقدسا لذات الله سبحانه وتعالى وان يخطر بباله عند
ذكر كل اسم الوصف الدال عليه وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه فى وصف
الله تعالى أنه الواحد الذى لا شريك له ولا نظير وفيه تفضيل الوتر فى الاعمال لان أكثر
الطاعات وتر وفيه دليل على أن اشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لاضافة الاسماء اليه
فيقال الرؤف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الرؤف والكريم
واللطيف الله وقد قيل ان لفظة الله هو الاسم الاعظم قال أبو القاسم القشيرى فيه دليل
على أن الاسم هو المسمى اذ لو كان غيره لكانت الاسماء لغيره وقد قال ولله الاسماء الحسنى

فادعوه بها وقال الامام فخر الدين الرازى دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لانها تدل على ان أسماء الله كثيرة لان لفظ الاسماء لفظ الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت ان أسماء الله كثيرة ولاشك أن الله واحد فلزم القطع بان الاسم غير المسمى وأيضا قوله سبحانه وتعالى ولله الاسماء الحسنى يقتضى اضافة الاسماء الى الله واضافة الشئ الى نفسه محال وقال غيره الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشئ المسمى به فهو غيره وقال أهل اللغة انما جعل الاسم تنويها على المعنى لان المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لان التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشئ والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر قال العلماء وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه ايضا وقوله سبحانه وتعالى (فادعوه بها) يعنى ادعوا الله باسمائه التى سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنه يجوز أن يقال ياجواد ولا يجوز أن يقال ياسخى ويجوز أن يقال ياعالم ولا يجوز أن يقال ياعاقل ويجوز أن يقال ياحكيم ولا يجوز أن يقال ياطبيب وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ويخلص النية فى دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسئلة مع رجاء الاجابة ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فاذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تاثير عظيم (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) معنى الالحاد فى اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة وقال ابن السكيت الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه يقال ألحد فى الدين الحادا اذا عدل عنه ومال الى غيره قال المحققون الالحاد يقع فى أسماء الله تعالى على وجوه احدها اطلاق اسماء الله عز وجل على غيره وذلك ان المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها اسماء من اسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الاله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد الوجه الثانى وهو قول أهل المعانى ان الالحاد فى أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان اسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد فى الشرع بل ندعوا الله باسمائه التى وردت فى الكتاب والسنة على وجه التعظيم الوجه الثالث مراعاة حسن الادب فى الدعاء فلا يجوز أن يقال ياضار يامانع ياخالق القردة على الانفراد بل يقال ياضار يانافع يامعطى ياخالق الخلق الوجه الرابع ان لا يسمى الله العبد باسم لا يعرف معناه فانه ربما سماه باسم لا يليق اطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز ان يسمى به لما فيه من الغرابة وقوله سبحانه وتعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) يعنى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد فى أسماء الله عز وجل قوله عز وجل (وممن خلقنا أمة) يعنى جماعة وعصابة (يهدون بالحق وبه يعدلون) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه

(فادعوه بها) فسموه بتلك الاسماء (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الاسماء الحسنى وذلك ان يسموه بما لا يجوز عليه نحو ان يقولوا ياسخى يارفيق لانه لم يسم نفسه بذلك وهو من الالحاد فى اسمائه بالجسم والجوهر والعقل والفاعل يلحدون حمزة ويحدون الحد مال (سيجزون ما كانوا يعملون) للجنة لانه فى مقابلة (وممن خلقنا) (امة يهدون بالحق وبه يعدلون) فى أحكامهم دليل هم العلماء والدعاة الى الدين وفيه دلالة على ان اجماع كل عصر حجة

عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ق) عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتي أمة قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وفي الآية دليل على انه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي اليه (والذين كذبوا بآياتنا) يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والاول أولى لان صيغة العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه منه (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) قال الازهري سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعم ما يغتبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم الى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بجرم أو قدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادون بذلك تماديا في الغي والضلال ويتدرجون في الذنوب والمعاصي فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه وقال الضحاك معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة وقال الكلبي نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها وقال سفيان الثوري نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر روى ان عمر بن الخطاب لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فاني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال أهل المعاني الاستدراج أن يتدرج الشيء الى الشيء في خفية قليلا قليلا ومنه درج الصبي اذا قارب بين خطاه في المشي ومنه درج الكتاب اذا طواه شيأ بعد شيء (وأملي لهم) يعني وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم والاملاء في اللغة الامهال واصل المدة والمعنى انى اطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا اعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (ان كيدي متين) يعني ان اخذي شديد والمتين من كل شيء هو القوي الشديد وقال ابن عباس معناه ان مكري شديد قال المفسرون نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم في ليلة واحدة وفي هذه الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وان الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله سبحانه وتعالى (أولم يتفكروا ما بصاحبهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعني من جنون قال قتادة ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلة فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان اني لكم نذير مبين وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت الى الصباح فانزل الله عز وجل أولم يتفكروا والتفكر التأمل واعمال الخاطر في عاقبة الامر والمعنى أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة والجنة حالة من الجنون وادخال الفظة من في قوله من جنة يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه لانهم رأوا انه صلى الله عليه وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم) سنستدنيهم قليلا قليلا الى ما يهلكهم (من حيث لا يعلمون) ما يراد بهم وذلك ان يوالي الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي فكلما جدد الله عليهم نعمة ازداد وابطرا وجددوا معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين ان ترادف النعم أثرة من الله تعالى وتقريب وانما هو خذلان منه وتبعيد وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد والاستنزال درجة بعد درجة (وأملي لهم) عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السين أي امهلهم (ان كيدي متين) أخذي شديد سماه كيدا لانه شبيه بالكيد من حيث انه في الظاهر احسان وفي الحقيقة خذلان ولما نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم الى الجنون نزل (أولم يتفكروا ما بصاحبهم) محمد عليه السلام وما نافية بعدوقف أي أولم يتفكروا في قولهم ثم نفى عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم (من جنة) جنون

(ان هو الا نذير مبين) منذر من الله موضح انذاره (أولم ينظروا) نظر استدلال (فى ملكوت السموات والارض) الملكوت الملك العظيم (وما خلق الله من شئ) وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشئ من أجناس لا يحصرها العدد (وأن عسى) ان مخففة من الثقيلة وأصله وأنه عسى ٢١٠ والضمير ضمير الشان وهو فى موضع الجر بالعطف على ملكوت والمعنى أولم

مشتغلا بالدعاء الى الله عز وجل وانذارهم باسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى (ان هو) يعنى ما هو (الا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى الى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى (أولم ينظروا) يعنى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ) والمقصود التنبيه على ان الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والارض بل كل شئ خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية ❊ تدل على انه واحد

(وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا الى النار واذا كان الامر كذلك وجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز بالنعيم المقيم (فبأى حديث بعده) يعنى بعد القرآن (يؤمنون) يعنى يصدقون والمعنى فبأى كتاب بعد الكتاب الذى جاءه محمد صلى الله عليه وسلم يصدقون وليس بعد محمد نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علة اعراضهم عن الايمان فقال سبحانه وتعالى (من يضلل الله فلا هادى له) يعنى ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم فلو هداهم لآمنوا (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ويتركهم فى ضلالتهم وعماديهم فى الكفر يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلا قوله عز وجل (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فأسر الينا متى الساعة فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس قال جبل بن أبى قشير وشمويل بن زيد وهما من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى الساعة فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الساعة يعنى عن خبر القيامة سميت ساعة لانها تقوم فى ساعة غفلة وبغتة أو لان حساب الخلائق يتقضى فيها فى ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها قال ابن عباس يعنى منتهاها أى متى وقوعها قال والساعة الوقت الذى تموت فيه الخلائق وأصل الارساء الثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت (قل) أى قل لهم يا محمد (انما علمها عند ربى) أى لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه الا الله استأثر الله بعلمها فلم يطلع عليه أحدا وفى حديث الايمان والاسلام والاحسان وسؤال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم قال فاخبرنى عن الساعة قال ما المسؤل

يتظروا فى ان الشان والحديث عسى (أن يكون قد اقترب أجلهم) ولعلهم يموتون عما قريب فسارعوا الى النظر وطلب الحق وما يتحينهم قبل مفاجأة الاجل وحلول العقاب (فبأى حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به وهو متعلق بعسى ان يكون قد اقترب أجلهم كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فعاجلهم لا يبادرون الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون ان يؤمنوا به (من يضلل الله فلا هادى له) أى يضله الله (ويذرهم) بالياء عراقى وبالجزم حمزة وعلى عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم الباقون بالنون (فى طغيانهم) كفرهم (يعمهون) يتحيرون ولما سألت اليهود أو قريش عن الساعة متى تكون نزل (يسئلونك عن الساعة) وهى من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لانها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (ايان) متى واشتقاقه من أى فعلان عنها منه لان معناه أى وقت (مرساها) ارساؤها مصدر مثل المدخل بمعنى الادخال أو وقت ارسائها أى اثباتها والمعنى متى يرسيها الله (قل انما علمها عند ربى) أى علم وقت ارسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدا من ملك مقرب ولا نبى مرسل ليكون ذلك ادعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الاجل الخاص وهو وقت الموت لذلك

عنها بأعلم من السائل قال المحققون وسبب اخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لانهم اذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف واشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم الى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية (لايجليها لوقتها الاهو) قال مجاهد لا يأتي بها الاهو وقال السدى لا يرسلها لوقتها الاهو والتجلية اظهار الشئ بعد خفائه والمعنى لا يظهرها لوقتها المعين الا الله ولا يقدر على ذلك غيره (ثقلت فى السموات والارض) يعنى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والارض فكل شئ خفى فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب (لاتأتيكم الا بغتة) يعنى فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها واللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج قوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه يعنى يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوط اذا طينه وأصله من اللصوق والاكلة بضم الهمزة اللقمة وقوله سبحانه وتعالى (يسئلونك كأنك حفى عنها) يعنى يسألك قومك عن الساعة كأنك حفى بهم بمعنى بار بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسئلونك عنها كأنك حفى بهم قال ابن عباس يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس محمدا صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون ان محمدا صلى الله عليه وسلم حفى بهم فاوحى الله عز وجل اليه انما علمها عندى استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكا ولا رسولا وقيل معناه يسألونك عنها كأنك حفى بها أى عالم بها من قولهم احفيت فى المسئلة اذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها (قل) يعنى قل يا محمد (انما علمها عند الله) يعنى استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا الله عز وجل فان قلت قوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانيا يسئلونك كأنك حفى عنها فيه تكرار قلت ليس فيه تكرار لان السؤال الاول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثانى سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار فان قلت عبر عن الجواب فى السؤال الاول بقوله تعالى علمها عند ربى وعن الجواب فى السؤال الثانى بقوله تعالى علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين فى الجوابين قلت فيه فرق لطيف وهو انه لما كان السؤال الاول واقعا عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربى ولما كان السؤال الثانى واقعا عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لانه أعظم الاسماء (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعنى لا يعلمون ان علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وقيل ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذى من أجله اخفى علم وقت قيامها المغيب عن

(لايجليها لوقتها الاهو) لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها الاهو وحده (ثقلت فى السموات والارض) أى كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل علمه أو ثقلت فيها لان أهلها يخافون شدائدها وأهوالها (لاتأتيكم الا بغتة) فجأة على غفلة منكم (يسئلونك كأنك حفى عنها) كأنك عالم بها وحقيقته كأنك بليغ فى السؤال عنها لان من بالغ فى المسئلة عن الشئ والتنقير عنه استحكم علمه فيها وأصل هذا التركيب المبالغة ومنه احفاء الشارب أو عنها متعلق بيسئلونك أى يسألونك عنها كأنك حفى اى عالم بها (قل انما علمها عند الله) وكرر يسئلونك وانما علمها عند الله للتاكيد ولزيادة كأنك حفى عنها وعلى هذا تكرير العلماء فى كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة منهم محمد بن الحسن رحمه الله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) انه المختص بالعلم بها

(قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) هو اظهار للعبودية وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي انا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كلما لي ذلك الا ما شاء ما لكي من النفع لي والدفع عني (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شئ منها ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب وقيل الغيب الاجل والخير العمل والسوء الوجل وقيل لاستكثرت لاعددت من الخصب للجدب والسوء الفقر وقد رد (ان أنا الا نذير وبشير) ان أنا الا عبد ارسلت نذيرا وبشيرا وما من شأني ان أعلم الغيب واللام في (لقوم يؤمنون) يتعلق بالنذير والبشير لان النذارة والبشارة انما ينفعان فيهم أو بالبشير وحده والمتعلق بالنذير محذوف أي الانذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هي نفس آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من اضلاعه (ليسكن اليها) ليطمئن ويميل لان الجنس الى الجنس أميل خصوصا اذا كانت بعضا منه كما يسكن الانسان الى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه وذكر ليسكن بعد ما أنث في قوله واحدة وخلق منها زوجها ذهابا الى معنى النفس ليبين ان المراد بها آدم (فلما تغشاها) جامعها (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والاذى ولم تستثقله كما يستثقله انها (فمرت به) فضت به الى وقت ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق او حملت حملا خفيفا يعني النطفة فمرت به فقامت به وقعدت

الخلق قوله سبحانه وتعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) قال ابن عباس ان أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل ان يغلو فنشتري به فنربح فيه عند الغلاء وبالارض التي يريد أن تجدب فترحل عنها الى ما قد اخصبت فانزل الله عز وجل قل لا أملك اي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعا أي اجتلاب نفع بان أربح فيها أشتريه ولا ضرا يعني ولا اقدر ان أدفع عن نفسي ضرا نزل بها بان أتحول الى الارض الخصبة وأترك الجدبة (الا ما شاء الله) يعني ان أملكه واقدر عليه (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرت من المال (وما مسني السوء) يعني الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج معناه لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب يريد وقت الموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح وقيل ان أهل مكة لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الاولى وهذه الآية ومعناه أنا لا أدعي علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالاخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب فان قلت قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت أحاديث في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير قلت يحتمل أن يكون قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع والادب والمعنى لا أعلم الغيب الا أن يطلعني الله عليه ويقدرني ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى على أشياء من المغيبات فاخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله وما مسني السوء يعني الجنون وذلك انهم نسبوه الى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسني السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسني السوء يعني قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم الساعة (ان أنا الا نذير) يعني ما أنا الا رسول أرسلني الله اليكم أنذركم وأخوفكم عذابه ان لم تؤمنوا (وبشير) يعني وأبشر بثوابه (لقوم يؤمنون) يعني يصدقون قوله عز وجل (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) يعني وخلق منها زوجها حواء قد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم في أول سورة النساء (ليسكن اليها) يعني ليأنس بها ويأوي (فلما تغشاها) يعني واقعها وجامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها وتجللها (حملت حملا خفيفا) يعني النطفة والمني لان أول ما تحمل النطفة وهي خفيفة عليها (فمرت به) يعني

انها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها (فلما أثقلت) أى صارت الى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها (دعوا الله ربهما) يعنى ان آدم وحواء دعوا الله ربهما (لئن آتيتنا صالحا) يعنى لئن أعطيتنا بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على انعامك علينا قال المفسرون لما أهبط آدم وحوّاء الى الارض القيت الشهوة فى نفس آدم فاصاب حوّاء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاهما ابليس فقال لهما ما الذى فى بطنك قالت ما أدرى قال انى أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا أتدرين فى الارض الا بهيمة أو نحوها قالت انى أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك أو من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا فى غم من ذلك ثم عادا اليها ابليس فقال لهما انى من الله بمنزلة فان دعوت الله ان يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس فى الملائكة الحرث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذى قد علمت فعاودها ابليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحرث وقال ابن عباس كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فاتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فولدت فسمياه عبد الحرث فعاش عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت حوّاء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فسمته فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم عن قتادة وقال وقد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحى الشيطان يعنى من وسوسته وحديثه كما جاء انه خدعهما مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الارض قال ابن عباس لما ولد له أول ولد أتاه ابليس فقال انى سأنصح لك فى شأن ولدك هذا تسميه عبد الحرث وكان اسمه فى السماء الحرث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك انى أطعتك فى أكل الشجرة فاخرجتنى من الجنة فان أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال أطعنى والامات كلمات الاول فعصاه فمات ولده فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحرث فلم يزل به حتى سماه عبد الحرث فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال ابن عباس أشركاه فى طاعته فى غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه وقال قتادة أشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة وقال عكرمة ما اشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فاتاهما الشيطان فقال ان سركما ان يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرئ شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة وقال أبو عبيدة معناه حظا ونصيبا وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعنى ابليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعنى جعلا له شريكا اذ سميا ولدهما عبد الحرث قال العلماء ولم يكن ذلك شركا فى العبادة ولا أن الحرث رب لهما لان آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصدا بتسميتهما الولد بعبد الحرث ان الحرث كان

(فلما أثقلت) حان وقت ثقل حملها (دعوا الله ربهما) دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيق بان يدعى ويتجأ اليه فقالا (لئن آتيتنا صالحا) لئن وهبت لنا ولدا سويا قد صلح بدنه أو ولدا ذكرا لا ان الذكورة من الصلاح (لنكونن من الشاكرين) لك والضمير فى آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما (فلما آتاهما صالحا) أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوى (جعلا له شركاء) أى جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وكذلك (فيما آتاهما) أى آتى أولادهما اياه

سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به انه مملوك كما قال الشاعر * وانى لعبد الضيف ما دام ثاويا * أخبر عن نفسه انه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وانما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده وقد يطلق اسم الرب بغير الالف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام اعزر مصر انه ربى أحسن مثواى أراد به التربية ولم يرد به انه ربه ومعبوده فكذلك هنا وانما أخبر عن آدم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما لان حسنات الابرار سيئات المقربين ولان منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لانه نظر الى السبب ولم ينظر الى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه قال العلماء وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ثم ابتدأ فى الخبر عن الكفار بقوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) نزه نفسه سبحانه وتعالى عن اشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعانى ولو أراد به ما سبق فى معنى الآية فستقيم أيضا من حيث انه كان الاولى بهما ان لا يفعلا ما أتيا به من الاشراك فى التسمية فكان الاولى ان يسميا عبد الله لا عبد الحرث وفى معنى الآية قول آخر وهو انه راجع الى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الاولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء الى الابناء بقوله ثم اتخذتم العجل واذ قتلتم نفسا فعير به اليهود الذين كانوا موجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق بقوله هو الذى خلقكم من نفس واحدة أى خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها أى وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن الا ان القول الاول أصح لانه قول السلف مثل ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم من المفسرين وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك وقوله سبحانه وتعالى (أيشركون) قرئ بالتاء على خطاب الكفار وقرئ بالياء على الغيبة (ما لا يخلق شيأ) يعنى ابليس والاصنام (وهم يخلقون) أى وهم مخلوقون فان قلت كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون قلت ان لفظة ما تقع على الواحد والاثنين والجمع فهى من صيغ الوحدان بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله ما لا يخلق رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى فان قلت كيف جمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس قلت لما اعتقد عابدو الاصنام انها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على ما يعتقدونه ويتصورنه وقوله تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) يعنى ان الاصنام لا تقدر على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر المعونة على الاعداء

والمعنى

(فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى أشركا لهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم آل قصى أى هو الذى خلقكم من نفس واحدة قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن اليها فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الاربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الدار والضمير فى يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك شركا مدنى وأبو بكر أى ذوى شرك وهم الشركاء (أيشركون ما لا يخلق شيأ) يعنى الاصنام (وهم يخلقون) أجريت الاصنام مجرى أولى العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم اياها آلهة والمعنى أيشركون ما لا يقدر على خلق شئ وهم يخلقون لان الله خالقهم أو الضمير وهم يخلقون للعابدين أى أيشركون ما لا يخلق شيأ وهم مخلوقون فليعبدوا خالقهم أو للعابدين والمعبودين وجمعهم كأولى العلم تغليبا للعابدين (ولا يستطيعون لهم) لعبدتهم (نصرا)

والمعنى ان المعبود الذى تجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع ودفع الضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل ان يعبدها ثم قال تعالى (ولا أنفسهم ينصرون) يعنى ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروها فان من أراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وان تدعوهم الى الهدى) يعنى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى (لا يتبعوكم) لان الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم ادعوتموهم) الى الدين والهداية (أم انتم صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالين لا يؤمنون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما بين فى الآية المتقدمة عجز الاصنام بين فى هذه الآية انه لا علم لها بشئ البتة والمعنى ان هذه الاصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها انها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها الى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون وذلك ان المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا الاصنامهم فاذا لم تكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للاصنام أو سكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال قوله سبحانه وتعالى (ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم) يعنى ان الاصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون انما هى مملوكة لله أمثالهم وقيل انها مسخرة مذللة مثل ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل فى قوله سبحانه وتعالى عبادا أمثالكم انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الاول اصح وفيه سؤال وهو انه وصفها بانها عباد مع انها جماد والجواب ان المشركين لما ادعوا ان الاصنام تضر وتنفع وجب ان يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال عز وجل (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى كونها آلهة وجواب آخر وهو ان هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى ان صارى هذه الاصنام التى تعبدونها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلم عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيدا ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) يعنى ان قدرة الانسان المخلوق انما تكون بهذه الجوارح الاربعة فانها آلات يستعين بها الانسان فى جميع أموره والاصنام ليس لها من هذه الاعضاء والجوارح شئ فهم مفضلون عليها بهذه الاعضاء لان الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشى وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة افضل من العين العاجزة عن الادراك والاذن السامعة أفضل من الاذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان ان الانسان أفضل من هذه الاصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها البتة لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالانسان العاقل الافضل ان يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل الذى لا فضل له البتة ولا يضر ولا ينفع

ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم (وان تدعوهم) وان تدعوا هذه الاصنام (الى الهدى) الى ما هو هدى ورشاد والى أن يهدوكم أى وان تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى (لا يتبعوكم) الى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله لا يتبعوكم نافع (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) عن دعائهم فى انه لا فلاح معهم ولا يجيبونكم والعدول عن الجملة الفعلية الى الاسمية لرؤس الآى (ان الذين تدعون من دون الله) أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة (عبادا أمثالكم) أى مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوهم) لجلب نفع أو دفع ضر (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (ان كنتم صادقين) فى أنهم آلهة ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال (ألهم ارجل يمشون بها) مشيكم (أم لهم أيد يبطشون بها) بتناولون بها (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) أى فلم تعبدون ما هو دونكم

فامتنع بهذه الحجة كون الاصنام آلهة ثم قال تعالى (قل ادعوا شركاءكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الاصنام التى تعبدونها حتى يتبين عجزها (ثم كيدون) يعنى أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله فى استكمال الحجة عليهم لانهم لما قرعوا بعبادة من لا يملك ضرا ولا نفعا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل ان معبودى يملك الضر والنفع فلو اجتهدتم فى كيدى لم تصلوا الى ضرى لان الله يدفع عنى وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون (فلا تنظرون) أى لا تمهلون واعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم (ان ولى الله) يعنى ان الذى يتولى حفظى وينصرنى عليكم هو الله (الذى نزل الكتاب) يعنى القرآن والمعنى كما أيدنى بانزال القرآن على كذلك يتولى حفظى وينصرنى (وهو يتولى الصالحين) يعنى يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر قال ابن عباس يريد الصالحين الذين لا يعدلون بالله شيأ ولا يعصونه وفى هذا مدح للصالحين لان من تولاه الله بحفظه فلا يضره شئ قوله عز وجل (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) هذه الآية قد تقدم تفسيرها والفائدة فى تكريرها ان الآية الاولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذى يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الاصنام وهى ليست كذلك فلا تكون معبودة وقوله سبحانه وتعالى (وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون يعنى ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين الى أن هذه الآية أيضا واردة فى صفات الاصنام لانها جماد لا تنظر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر قوله تعالى (خذ العفو) العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى اقبل الميسور من اخلاق الناس ولا تستقص عليهم فيستعصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء وقال مجاهد يعنى خذ العفو من اخلاق الناس واعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الاشياء والعفو التساهل فى كل شئ (خ) عن عبد الله بن الزبير قال ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف الا فى أخلاق الناس وفى رواية قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وكذا فى جامع الاصول وفى الجمع بين الصحيحين للحميدى قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأخذ العفو من أخلاق الناس أو كما قال وقال ابن عباس يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم فأتوك به من شئ فخذه وكان هذا قبل ان تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت اليه وقال السدى خذ العفو اى الفضل من المال نسختها آية الزكاة وقال الضحاك خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل ان تفرض الصدقة المفروضة (وأمر بالعرف) يعنى وأمر بكل ما أمرك الله به وهو كل ما عرفته بالوحى من الله عز وجل وكل ما يعرفه الشارع وقال

(قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون) جميعا أنتم وشركاؤكم بالياء يعقوب وافقه ابو عمرو فى الوصل (فلا تنظرون) فانى لا ابالى بكم وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك وبالياء يعقوب (ان ولى) ناصرى عليكم (الله الذى نزل الكتاب) أوحى الى وأعزنى برسالته (وهو يتولى الصالحين) ومن سنته ان ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم (والذين تدعون من دونه) من دون الله (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك) يشبهون الناظرين اليك لانهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته الى الشئ ينظر اليه (وهم لا يبصرون) المرئى (خذ العفو) هو ضد الجهد أى ما عفا لك من اخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام يسروا ولا تعسروا (وأمر بالعرف) بالمعروف والجميل من الافعال او هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع

عطاء وأمر بقول لا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) امر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل ان يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الامر بالاعراض عنهم منسوخا بآية القتال قال بعضهم أول هذه الآية وآخرها منسوخ ووسطها محكم يريد بنسخ اولها أخذ الفضل من الاموال فنسخ بفرض الزكاة والامر بالمعروف محكم والاعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روى انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسأل ثم رجع فقال ان ربك يأمرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوي بغير سند وقال جعفر الصادق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية اجمع لمكارم الاخلاق من هذه عن عائشة قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال قوله عز وجل (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) قال ابن زيد لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم فكيف بالغضب يا رب فانزل الله عز وجل واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب وقيل النزغ الانزعاج وأكثر ما يكون عند الغضب واصله الازعاج بالحركة الى الشر والافساد يقال نزغت بين القوم اذا أفسدت بينهم وقال الزجاج النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى واما يصيبنك يا محمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نخسة (فاستعذ بالله) يعني فاستجر بالله والجأ اليه في دفعه عنك (انه سميع) يعني لدعائك (عليم) بحالك وقيل ان الشيطان يجد مجالا في حمل الانسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيظ فأمر الله بالالتجاء اليه والتعوذ به في تلك الحالة فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض

(فصل واحتج الطاعنون في عصمة الانبياء بهذه الآية) فقالوا لو كان النبي معصوما لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج الى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه الاول ان معنى الكلام ان حصل في قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وانه لم يحصل ذلك له البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو بريء من الشرك البتة والوجه الثاني على تقدير انه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن قبولها وثبوتها في قلبه (م) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي الا ان الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير قال الشيخ محيي الدين النووي روي فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فاسلم انا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه ان القرين أسلم من الاسلام يعني صار مؤمنا لا يأمرني الا بخير

(وأعرض عن الجاهلين) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم وفسرها جبريل عليه السلام بقوله صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك وعن الصادق أمر الله نبيه عليه السلام بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) واما يخسنك منه نخس أي بان يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به (فاستعذ بالله) ولا تطعه والنزغ النخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو اريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب كقول أبي بكر رضي الله عنه ان لي شيطانا يعتريني (انه سميع) لنزغه (عليم) بدفعه

قال الخطابى الصحيح المختار الرفع ورجح القاضى عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرنى الا بخير قال القاضى عياض واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه وفى هذا الحديث اشارة الى التحذير من فتنة القرين ووسوسته واغوائه أعلمنا انه معنا ليحترز عنه بحسب الامكان والله أعلم الوجه الثالث يحتمل أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ومعناه واما ينزغنك أيها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله قوله سبحانه وتعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف) وقرئ طيف (من الشيطان) وهما لغتان ومعناه الشئ يلم بالانسان وقيل بينهما فرق فالطائف ما يطوف حول الانسان والطيف الوسوسة وقيل الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللم والمس وقال الازهرى الطيف فى كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لان الغضبان يشبه المجنون وقيل سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا لانه لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال فذكر فى الآية الاولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور فى هذه الآية لان حالة الشيطان مع الانبياء أضعف من حاله مع غيرهم (تذكروا) يعنى عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه (فاذا هم مبصرون) يعنى انهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر وقال السدى اذا زلوا تابوا وقال مقاتل هو الرجل اذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف انه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل (واخوانهم) يعنى واخوان الشياطين من المشركين (يمدونهم) أى يمدهم الشياطين (فى الغى) قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أى يطيلون لهم فى الاغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة (ثم لا يقصرون) يعنى لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر فى ضلالته لا يتذكر ولا يرعوى وقال ابن عباس الانس لا يقصرون عما يعملون من السيآت ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون على فعل الانس والشياطين جميعا قوله عز وجل (واذا لم تأتهم بآية) يعنى واذا لم تأت المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة (قالوا) يعنى قال المشركون (لولا اجتبيتها) يعنى افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام اذا اختلقته وافتعلته وقال الكلبى كان أهل مكة يسألون النبى صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذا أخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعنى هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (انما أتبع ما يوحى الى من ربى) يعنى القرآن الذى أنزل على وليس لى ان اقترح الآيات والمعجزات (هذا بصائر من ربكم) يعنى هذا القرآن حجج وبرهان وأصل البصائر من الابصار وهو ظهور الشئ حتى يبصره الانسان

(ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان) طيف مكى وبصرى وعلى أى لمة منه مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفا وعن أبى عمرو هما واحد وهى الوسوسة وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان وان عادة المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان والمام بوسوسته (تذكروا) ما أمر الله به ونهى عنه (فاذا هم مبصرون) فأبصروا السداد ودفعوا وسوسته وحقيقته ان يفروا منه الى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله (واخوانهم) واما اخوان الشياطين من شياطين الانس فان الشياطين (يمدونهم فى الغى) أى يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم ويمدونهم من الامداد من جنى (ثم لا يقصرون) ثم لا يمسكون عن اغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا وجاز ان يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به الى الجاهلين والاول أوجه لان اخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا وانما جمع الضمير فى اخوانهم والشياطين مفرد لان المراد به الجنس (واذا لم تأتهم بآية) مقترحة (قالوا لولا اجتبيتها) هلا اخترتها أى اختلقتها كما اختلقت ما قبلها (قل انما أتبع ما يوحى الى من ربى) ولست بمقترح لها (هذا بصائر من ربكم) هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق

ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب (وهدى) يعنى وهو هدى (ورحمة) يعنى وهو رحمة من الله (لقوم يؤمنون) وهنا لطيفة وهى الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك ان الناس متفاوتون فى درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية فى علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن فى حق الاولين وهم السابقون بصائر وفى حق القسم الثانى وهم المستدلون هدى وفى حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة قوله تعالى (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى واذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعنى اصغوا اليه باسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعنى عند قراءته والانصات السكوت للاستماع يقال نصت وانصت وانتصت بمعنى واحد واختلف العلماء فى المحال التى أمر الله عز وجل بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له اذا قرئ لان قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر وظاهر الامر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء فى ذلك أقوال القول الاول وهو قول الحسن وأهل الظاهر ان تجرى هذه الآيات على العموم ففى أى وقت وأى موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت والقول الثانى انها نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة روى عن ابى هريرة انهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فامروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن وقال عبد الله كنا نسلم بعضنا على بعض فى الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان فقال لما جاء القرآن واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا القول الثالث انها نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الامام روى عن ابى هريرة قال نزلت هذه الآية فى رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود انه سمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرف قال اما آن لكم ان تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما امركم الله وقال الكلبى كانوا يرفعون اصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار القول الرابع انها نزلت فى السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد الانصات للامام يوم الجمعة وقال عطاء وجب الصمت فى اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الامام وهو يخطب وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لان الآية مكية والخطبة انما وجبت بالمدينة واتفقوا على انه يجب الانصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روى عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قلت لصاحبك أنصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت اخرجاه فى الصحيحين واختلف العلماء فى القراءة خلف الامام فذهب جماعة الى ايجابها سواء جهر الامام بالقراءة او اسر يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ وهو قول الاوزاعى

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا

واليه ذهب الشافعي وذهب قوم الى انه يقرأ فيما أسر الامام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الامام فيه يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد واسحق وذهب قوم الى أنه لا يقرأ سواء اسر الامام أو جهر يروى ذلك عن جابر واليه ذهب أصحاب الرأى حجة من لا يرى القراءة خلف الامام ظاهر هذه الآية وجه من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال ان الآية تدل على الامر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الامام فحملناه مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعا بين دلائل الكتاب والسنة وجه من أوجب القراءة خلف الامام في صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة في غير الفاتحة لان دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الامام ولم يفرق بين السرية والجهرية قالوا واذا قرأ الفاتحة خلف الامام تتبع سكتاته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روى عن عبادة بن الصامت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله اى والله قال لا تفعلوا الا بام القرآن فانه لا صلاة لمن لم يقرأ بها أخرجه الترمذي بطوله وأخرجاه في الصحيحين اقصر منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثا غير تمام فقيل لابي هريرة انا نكون وراء الامام قال اقرأ بها في نفسك وذكر الحديث وقوله سبحانه وتعالى (لعلكم ترحمون) يعني لكي يرحمكم بكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه قوله عز وجل (واذكر ربك في نفسك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لانه عام لسائر المكلفين قال ابن عباس يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سرا في نفسك والفائدة فيه أن انتفاع الانسان بالذكر انما يكمل اذا وقع الذكر بهذه الصفة لان ذكر النفس اقرب الى الاخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس ان يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله واذا كان الذكر باللسان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل (تضرعا) يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة اذا خضع وذل واستكان لغيره (وخيفة ودون الجهر من القول) يعني وخوفا والمعنى تضرع الى وخف عذابي وقال مجاهد وابن جريج امر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وههنا لطيفة وهي ان قوله سبحانه وتعالى واذكر ربك في نفسك فيه اشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لان لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والاحسان فاذا تذكر العبد انعام الله عليه واحسانه اليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعا وخيفة وهذا مقام الخوف فاذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوى ايمانه والمستحب ان يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فاذا قارب الموت ودنا آخر أجله

لعلكم ترحمون) ظاهره وجوب الاستماع والانصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجهور الصحابة رضي الله عنهم على انه في استماع المؤتم وقيل في استماع الخطبة وقيل فيهما وهو الاصح (واذكر ربك في نفسك) هو عام في الاذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك (تضرعا وخيفة) متضرعا وخائفا (ودون الجهر من القول) ومتكلما كلاما دون الجهر لان الاخفاء ادخل في الاخلاص وأقرب الى حسن التفكر

فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه عن أنس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله وانى أخاف ذنوبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف أخرجه الترمذى وقوله سبحانه وتعالى (بالغدو) جمع غدوة (والآصال) جمع أصل وهى ما بين صلاة العصر الى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذى هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول اعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذى هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (ولا تكن من الغافلين) يعنى عما يقربك الى الله عز وجل وقيل ان أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى المغرب فاستحب له الذكر فى هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله فى هذين الوقتين ليكون فى جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله عز وجل من صلاة أو ذكر قوله عز وجل (ان الذين عند ربك) يعنى الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذكر فى حالة التضرع والخوف أخبر ان الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم (لا يستكبرون عن عبادته) وطاعته لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل (ويسبحونه) يعنى وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا (وله يسجدون) لا لغيره فان قلت التسبيح والسجود داخلان فى قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لانهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر قلت أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة انهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم انهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هى تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبى عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين فى عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرأ السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته فى غير وقت صلاة (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويلتا امر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود فأبيت فلى النار (م) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله

(بالغدو والآصال) لفضل هذين الوقتين وقيل المراد ادامة الذكر باستقامة الفكر ومعنى بالغدو باوقات الغدو وهى الغدوات والآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشى (ولا تكن من الغافلين) من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه (ان الذين عند ربك) مكنة ومنزلة لا مكانا ومنزلا يعنى الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) لا يتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لا يليق به (وله يسجدون) ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره والله أعلم

صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الانفال)

مدنية كلها الا سبع آيات منها نزلت بمكة وهي من قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخر سبع آيات والاصح انها نزلت بالمدينة وان كانت الواقعة مكية وهي خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (يسئلونك عن الانفال) (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الانفال قال نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا علينا فانا كنا ردأ لكم ولو انكشفتم انكشفتم الينا فتنازعوا فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الانفال الآية قال أهل التفسير قام أبو اليسر بن عمرو الانصاري أخو بني سلمة فقال يا رسول الله انك وعدت أن من قتل قتيلا فله كذا وكذا وانا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله ما منعنا أن نظاب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو لكن كرهنا ان تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبوك فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا رسول الله ان الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبق لاصحابك كبير شئ فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الانفال وقال محمد بن اسحق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر ان نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم باحق منا فنزلت هذه الآية وروى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال سألت عبادة بن الصامت عن الانفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا وجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا عن بواء يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص قال لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله ان الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى ان يعطى هذا من لا يبلى بلائي فجاءني الرسول فقال انك سألتني وليس لي وانه قد صار لي وهو لك فنزلت يسئلونك عن الانفال الآية اخرجه ابو داود

(سورة الانفال مدنية وهي خمس أو ست أو سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسئلونك عن الانفال)

والترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة واذا فيها سيف فاخذته فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلني هذا السيف فانا من قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت ان ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت اليه فقلت أعطنيه قال فشد علي صوته رده من حيث أخذته فانزل الله عزوجل يسئلونك عن الانفال وقال ابن عباس كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شئ وما أصاب سرايا المسلمين من سبي أتوه به فمن حبس منه ابرة أو سلكا فهو غلول * واما التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الانفال استفتاء يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الانفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال طلب وقوله عن الانفال أي من الانفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة أي يسئلونك الانفال والانفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم انفالا لانها زيادة من الله عزوجل لهذه الامة على الخصوص وأكثر المفسرين على انها نزلت في غنائم بدر وقال عطاء هي ما شذ عن المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء (قل الانفال لله والرسول) أي قل لهم يا محمد ان الانفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاآ واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله واعلموا ان ما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولم شاء ثم نسخها الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فاباحها الله لهذه الامة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد انها محكمة وهي احدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الانفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله واعلموا ان ما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فغنمنا ابلا فأصاب كل واحد منا اثنى عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللامام ان ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس (فاتقوا الله) يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أي أصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك ان كنتم مؤمنين لان الايمان يستلزم الطاعة

ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف تقسم ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا فقيل له قل لهم هي لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ليس لاحد غيره فيها حكم ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول ان حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها وليس الامر في قسمتها مفوضا الى رأي احد (فاتقوا الله) في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله (وأصلحوا ذات بينكم) احوال بينكم يعني ما بينكم من الاحوال حتى تكون احوال ألفة ومحبة واتفاق وقال الزجاج معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل اي فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما امر الله ورسوله به قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه نزلت فينا معشر اصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء (واطيعوا الله ورسوله) فيما امرتم به في الغنائم وغيرها (ان كنتم مؤمنين) كاملي الايمان (انما المؤمنون) انما الكاملون الايمان (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) نزعت لذكره استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه وسلطانه

بين فى هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله انما المؤمنون الصادقون فى ايمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل اذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال أهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لانهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه اشد خوف وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته فى ذكر الله فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية وجلت قلوبهم يعنى خافت وقال فى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما قلت لا منافاة بين هاتين الحالتين لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من بلوغ اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمع فى آية واحدة وهى قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله رجاء ثوابه وهذا حاصل فى قلب المؤمنين ثم قال تعالى (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) يعنى واذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى انه كلما جاءهم شئ من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك ايمانا وتصديقا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدى ان كل من كانت الدلائل عنده أكثر واقوى كان ايمانه ازيد لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد ايمانه الوجه الثانى هو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الاقرار تصديقا وايمانا ومن المعلوم ان من صدق انسانا فى شيئين كان أكبر من يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة اتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة فى ايمانهم واختلف الناس فى ان الايمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة لاجماع اهل اللغة على ان الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال ان الايمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهى التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح والاركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين احدهما ان قوله زادتهم ايمانا صريح فى ان الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثانى انه ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من احوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها اماطة

(واذا تليت عليهم آياته) اى القرآن (زادتهم ايمانا) ازدادوا بها يقينا وطمانينة لان تظاهر الادلة اقوى للدلول عليه واثبت لقدمه اوزادتهم ايمانا بتلك الآيات لانهم لم يؤمنوا باحكامها قبل

الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكانت له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فتلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان للايمان فرائض وشرائع وشرائط وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع أمورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه * واعلم ان المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد فى شئ من أموره الا على الله عز وجل واعلم ان هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البر والقربات ثم قال تعالى (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لا شك فى ايمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر وقال قتادة استحقوا الايمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى انما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الاوصاف فيه وهذا يتعلق بمسئلة أصولية وهى ان العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل ان يقول انا مؤمن واختلفوا فى انه هل يجوز له ان يقول أنا مؤمن حقا أم لا فقال أصحاب الامام أبى حنيفة الاولى ان يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين * الاول ان المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها ان يكون المؤمن مؤمنا حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله * الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال اولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى ان يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله واحتجوا على صحة هذا القول بوجوه * الاول ان الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك فى أحد اجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية

فى فهو مؤمن حقا وقد احتج عبد الله على أحد فقال ايش اسمك فقال أحد فقال أتقول أنا أحد حقا أو أنا أحد ان شاء الله فقال أنا أحد حقا فقال حيث سماك والدك لا تستثنى وقد سماك الله فى القرآن مؤمنا تستثنى

الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكانت له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فتلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان للايمان فرائض وشرائع وشرائط وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع أمورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه * واعلم ان المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد فى شئ من أموره الا على الله عز وجل واعلم ان هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البر والقربات ثم قال تعالى (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لا شك فى ايمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر وقال قتادة استحقوا الايمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى انما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الاوصاف فيه وهذا يتعلق بمسئلة أصولية وهى ان العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل ان يقول انا مؤمن واختلفوا فى انه هل يجوز له ان يقول أنا مؤمن حقا أم لا فقال أصحاب الامام أبى حنيفة الاولى ان يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين * الاول ان المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها ان يكون المؤمن مؤمنا حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله * الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال اولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى ان يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله واحتجوا على صحة هذا القول بوجوه * الاول ان الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك فى أحد اجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية

وعن الحسن رحمه الله أن رجلا سأله أمؤمن أنت قال ان كنت تسألنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا مؤمن وان كنت تسألنى عن قوله انما المؤمنون الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وعن الثورى من زعم انه مؤمن بالله حقا ثم لم يشهد انه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية أى كما لا يقطع بانه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بأنه مؤمن حقا وبهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن ان شاء الله وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يقول ذلك وقال لقتادة لم تستثنى فى ايمانك قال اتبعا لابراهيم فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال له هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى وعن ابراهيم التيمى قلت أنا مؤمن حقا فان صدقت اثبت عليه وان كذبت فكفرك أشد من كذبك وعن ابن عباس رضى الله عنهما من لم يكن منافقا

فيجب ان يقول أنا مؤمن ان شاء الله وان كان اعتقاده واقراره صحيحا وعند أصحاب أبي حنيفة أن الايمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الايمان فلم يلزم حصول الشك الوجه الثاني ان قولنا أنا مؤمن ان شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن اذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار روى ان أبا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت في ايمانك فقال قتادة اتباعا لابراهيم عليه السلام في قوله والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به في قوله أولم تؤمن قال بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول ان ابراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبي فطلب مزيد الطمأنينة * الوجه الثالث ان الله سبحانه وتعالى ذكر في أول الآية انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر يعني انما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافا خمسة وهي الخوف من الله والاخلاص لله والتوكل على الله والايمان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وايتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال أولئك هم المؤمنون حقا يعني أن من أتى بجميع هذه الاوصاف كان مؤمنا حقا ولا يمكن لاحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الاولى له ان يقول أنا مؤمن ان شاء الله وقال ابن أبي نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت فقال الحسن ان كنت سألتني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا بها مؤمن وان كنت سألتني عن قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا وقال علقمة كنا في سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما تحيتهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيأ قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم ان المؤمنين هم أهل الجنة وقال سفيان الثوري من زعم انه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد انه في الجنة فقد أمن بنصف الآية دون النصف الآخر الوجه الرابع ان قولنا أنا مؤمن ان شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق بأهل القبور * الوجه الخامس ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن ان يقول أنا مؤمن ان شاء الله فالمراد صرف هذا الاستثناء الى الخاتمة وأجاب أصحاب هذا القول وهم أصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنهم عن استدلال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم ان المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله بان الفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا أن الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك

الاوصاف

(لهم درجات) مراتب بعضها فوق بعض على قدر الاعمال (عند ربهم ومغفرة) وتجاوز لسيئاتهم (ورزق كريم) صاف عن كدالا كتساب وخوف الحساب الكاف فى (كما أخرجك ربك) فى محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر والتقدير قل الانفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك وهم كارهون (من بيتك) يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لانها مهاجره ومسكنه فهى فى اختصاصها ٢٢٧ كاختصاص البيت بساكنه (بالحق) اخراجا ملتبسا بالحكمة والصواب (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) فى موضع الحال أى اخرجك فى حال كراهتهم وذلك ان عير قريش اقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها اربعون راكبا منهم ابوسفيان فاخبر جبريل النبى عليه السلام فاخبر أصحابه فاعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع اهل مكة وهو النفير فى المثل السائر لا فى العير ولا فى النفير فقيل له ان العير اخذت طريق الساحل ونجت فابى وسار بمن معه الى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال العير احب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل

الاوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتى بتلك الاوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضا ان من أتى بتلك الاوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (لهم درجات عند ربهم) يعنى لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت احوالهم فى الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم فى الجنة لان درجات الجنة على قدر الاعمال قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها باعمالهم وقال الربيع بن أنس درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام اخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا فى احداهن لوسعتهم (ومغفرة) يعنى ولهم مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى ما أعدلهم فى الجنة وصفه بكونه كريما لان منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالاكرام والتعظيم قوله سبحانه وتعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) اختلفوا فى المراد بهذه الكاف ما هو فقال المبرد تقديره قل الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان كرهوا وقيل معناه امض لامر ربك فى الانفال وان كرهوا كما مضت لامر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما أن اخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق هو خير لكم وان كره فريق منكم وقيل هو راجع الى قوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حقا حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هى متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على أى امض على الذى أخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذى أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك فى الحق وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر يا محمد اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الاخراج اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الاخراج هو خروجه من المدينة الى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعنى بالوحى لطلب المشركين (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) يعنى للقتال وانما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم

فقالوا يا رسول الله علينا بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فاحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ابين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو امض لما أمرك الله فانا معك حيث أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله أبشروا فإن الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وكانت الكراهة من بعضهم لقوله وان فريقا من المؤمنين لكارهون قال الشيخ ابو منصور رحمه الله يحتمل انهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادا ويحتمل ان يكونوا مخلصين وان يكون ذلك كراهة طبع لأنهم غير متأهبين له (يجادلونك في الحق) الحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقي النفير لا ايثارهم عليه تلقي العير (بعد ما تبين) بعد اعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم ينصرون وجدالهم قولهم ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا فنستعد وذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسارعون بهم الى الظفر والغنيمة بحال من يعتسف الى القتل ويساق على الصغار الى الموت وهو مشاهد لاسبابه ناظر اليها لا يشك فيها وقيل كان خوفهم لقلة العدد وانهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فرسان (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) اذ منصوب باذكروا واحدى مفعول ثان (أنها لكم) بدل من احدى الطائفتين وهما العير والنفير والتقدير واذ يعدكم الله ان احدى الطائفتين لكم

وسلاحهم (يجادلونك في الحق) وذلك ان المؤمنين لما ايقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم نعلمنا اناتلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم (بعد ما تبين) يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيأ الا بامر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد (كأنما يساقون الى الموت) يعني لشدة كراهتهم القتال (وهم ينظرون) يعني الى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر الى القتل ويساق الى الموت وهو ينظر اليه ويعلم أنه آتيه قوله عز وجل (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير (أنها لكم) يعني احدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحاق والسدي أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام في عير قريش في أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ومعهم تجارة كثيرة وهي اللطيمة يريد باللطيمة الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة حتى اذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فندب أصحابه اليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدد وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك انهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه الى مكة وأمره أن يأتي قريشا يستنفرهم ويخبرهم أن محمدا في أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام افزعتها فبعثت الى اخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت ان يدخل على قومك منها شر ومصيبة قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا اقبل على بعيره حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم في ثلاث فاري الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ بمثلها يا على صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوي حتى اذا كانت باسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها الا ودخلها منها فلقة فقال العباس والله ان هذه لرؤيا فظيعة فاكتمها ولا تذكرها لاحد ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقا للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه اياها فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدث به قريش بمكة قال العباس فعمدت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رآني أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل الينا قال العباس فلما فرغت من طوافي أقبلت اليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وماذاك قال الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال

انفروا

انفروا فى ثلاث فستتربصون بكم هذه الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ نكتب عليكم كتابا بانكم أكذب أهل بيت فى العرب قال العباس فوالله ما كان منى اليه من كبير شئ الا انى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا أتتنى فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشئ مما سمعت قال قلت قد والله فعلت ما كان منى اليه من شئ وايم الله لأتعرضن له فان عاد لأكفينكنه قال فعدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى انى قد فاتنى شئ أحب ان أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله انى لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فاقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذا خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت فى نفسى ماله لعنه الله أكل هذا فرقا منى ان اشاتمه قال فاذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وقد جدع بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبى سفيان وقد عرض لها محمد فى أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلنى عنه وشغله عنى ما جاء من الامر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من أشراف قريش أحد الا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بنى بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشئ تكرهونه فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له ذفران فاتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فاخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا للانصار يدعى أريقط فاتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وقال ان الله وعدكم احدى الطائفتين انها لكم اما العير واما قريش وكانت العير أحب اليهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فى طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وانما يريد الانصار وذلك لانهم عدد الناس وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله انا برآء من ذمامك حتى تصل الى

دارنا فاذا وصلت الينا فانت فى ذمامنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه
بالمدينة من عدوه وان ليس عليهم أن يسير وا معه الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال
أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك
عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق
لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا
عدونا وعدوك انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا
ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد
ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عز وجل قد وعدنى احدى
الطائفتين والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم (م) عن أنس بن مالك ان عمر بن الخطاب
حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر
بالامس يقول هذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء
الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى قال عمر فوالذى بعثه بالحق
ما أخطؤا الحدود التى حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا فى بئر بعضهم على
بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يا فلان بن فلان
ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فانى قد وجدت ما وعدنى الله حقا
فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم باسمع لما أقول منهم
غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيأ فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يعدكم الله احدى
الطائفتين أنها لكم يعنى طائفة أبى سفيان مع العير وطائفة أبى جهل مع النفير (وتودون)
أى وتريدون وتتمنون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) والمعنى وتتمنون أن العير التى
ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح (و يريد
الله ان يحق الحق) اى يظهر الحق و يعليه (بكلماته) يعنى بامره اياكم بالقتال وقيل
بعداته التى سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه (و يقطع دابر الكافرين) أى
و يستأصلهم حتى لا يبقى منهم احد (ليحق الحق) يعنى ليثبت الاسلام (و يبطل الباطل)
يعنى وينفى الكفر (ولو كره المجرمون) يعنى المشركين وفى الآية سؤالان الاول ان قوله
و يريد الله ان يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه والجواب انه ليس فيه تكرير
لان المراد بالاول تثبيت ما وعد فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالاعداء والمراد بالثانى
تقوية القرآن والدين واظهار مناار الشريعة لان الذى وقع يوم بدر من نصر المؤمنين
مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا السبب
قرنه بقوله و يبطل الباطل يعنى الذى هو الشرك * السؤال الثانى الحق حق لذاته
والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وابطال الباطل والجواب ان المراد من
تحقيق الحق اظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من ابطال ذلك الباطل اظهار كون ذلك

(وتودون ان غير ذات الشوكة
تكون لكم) أى العير وذات
الشوكة ذات السلاح والشوكة
كانت فى النفير لعددهم وعدتهم
أى تتمنون أن تكون لكم
العير لانها الطائفة التى لا سلاح
لها ولا تريدون الطائفة الاخرى
(و يريد الله أن يحق الحق) أى
يثبته و يعليه (بكلماته) بآياته
المنزلة فى محاربة ذات الشوكة
وبما أمر الملائكة من نزولهم
للنصرة وبما قضى من قتلهم
وطرحهم فى قليب بدر (و يقطع
دابر الكافرين) آخرهم والدابر
الآخر فاعل من دبر اذا أدبر
وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال
يعنى انكم تريدون الفائدة
العاجلة وسفساف الامور
والله تعالى يريد معالى الامور
ونصرة الحق وعلو الكلمة
وشتان ما بين المرادين ولذلك
اختار لكم الطائفة ذات
الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم
وأعزكم وأذلهم (ليحق الحق)
متعلق بيقطع أو بمحذوف
تقديره ليحق الحق (و يبطل
الباطل) فعل ذلك والمقدر
متأخر لافيد الاختصاص أى
لما فعله الا لهذا وهو اثبات الاسلام
واظهاره وابطال الكفر ومحقه
وليس هذا بتكرار لان الاول
تمييز بين الارادتين وهذا بيان
لمراده فيما فعل من اختيار
ذات الشوكة على غيرها لهم
ونصرتهم عليها (ولو كره المجرمون) المشركون

الباطل باطلا وذلك باظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم قوله عزوجل (اذ تستغيثون ربكم) أى واذكر يا محمد اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفى المستغيثين قولان أحدهما انه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهرى والقول الثانى انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثنى عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم آتنى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الارض فما زال يهتف بربه ما ماديديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه أبو بكر فاخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك سينجز لك ما وعدك فانزل الله عزوجل اذ تستغيثون ربكم (فاستجاب لكم أنى ممدكم بالف من الملائكة مردفين) فامده الله بالملائكة قال سماك حدثنى ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم اذ نظر الى المشرك أمامه خر مستلقيا فنظر اليه فاذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فاخضر ذلك أجمع وجاء الخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعنى فاجاب دعاءكم أنى ممدكم أصله بانى ممدكم أى مرسل اليكم مددا وردفا لكم بالف من الملائكة مردفين يعنى يردف بعضهم بعضا يعنى يتبع بعضهم بعضا روى انه نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة وميكائيل عليه السلام فى خمسمائة فى صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه وقال أبو بكر ان الله ينجز لك ما وعدك خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب يعنى آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر من الايام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا انه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام فى سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح انهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس فى الذى ضربه بالسوط فخطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا وقيل انهم لم يقاتلوا وانما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما جعله الله الا بشرى) يعنى وما جعل الله الارداف بالملائكة

ذلك (اذ تستغيثون ربكم) بدل من اذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل واستغاثتهم انهم لما علموا انه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أى ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا وهى طلب الغوث وهو التخليص من المكروه (فاستجاب لكم) فأجاب وأصل (أنى ممدكم) بانى ممدكم فحذف الجار وساط عليه استجاب فنصب محله (بالف من الملائكة مردفين) مدنى غيره بكسر الدال وفتحها فالكسر على انهم أردفوا غيرهم والفتح على انه اردف كل ملك ملكا آخر يقال ردفه اذا تبعه وارد فته اياه اذا أتبعته (وما جعله الله) اى الامداد الذى دل عليه ممدكم (الا بشرى) الا بشارة لكم

بالنصر (ولتطمئن به قلوبكم) يعني انكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم فكان الامداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكينا منكم ورباطا على قلوبكم (وما النصر ٢٣٢ الامن عند الله) اى ولا تحسبوا النصر من الملائكة فان الناصر هو الله لكم وللملائكة أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الاسباب الامن عند الله والمنصور من نصره الله واختلف فى قتال الملائكة يوم بدر فقيل نزل جبريل عليه السلام فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضى الله عنه وميكائيل فى خمسمائة على الميسرة وفيها على رضى الله عنه فى صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص قال من قبل الملائكة قال فهم غلبونا لا أنتم وقيل لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والاول واحد كاف فى اهلاك أهل الدنيا (ان الله عزيز) بنصر أوليائه (حكيم) يقهر اعدائه (اذ يغشاكم) بدل ثان من اذ يعدكم أو منصوب بالنصر أو باضمار اذكر يغشيكم مدنى (النعاس) النوم والفاعل هو الله على القراءتين يغشاكم النعاس مكى وأبو عمرو (أمنة) مفعول له أى اذ تنعسون أمنة يعنى أمنا أى لأمنكم أو مصدر اى فامنتم امنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس (منه) صفة لها اى امنة حاصلة لكم من الله (و ينزل) بالتخفيف مكى و بصرى و بالتشديد غيرهم (عليكم من السماء ماء) مطرا (ليطهركم به) بالماء من لفظة الحدث والجنابة (و يذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته اليهم وتخويفه اياهم من العطش أو الجنابة من الاحتلام لانه من الشيطان وقد وسوس اليهم ان لا صبر مع الجنابة (وليربط على قلوبكم) بالصبر

الا بشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وهذا يحقق انهم انما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الاول وانهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الايام وقوله تعالى (وما النصر الا من عند الله) يعنى أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدتكم وفيه تنبيه على ان الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى فى جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) يعنى أنه تعالى قوى منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ و يغلبه (حكيم) يعنى فى تدبيره و نصره ينصر من يشاء و يخذل من يشاء من عباده قوله سبحانه وتعالى (اذ يغشاكم النعاس أمنة منه) أى واذكروا اذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أى أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود النعاس فى القتال أمنة من الله وفى الصلاة من الشيطان والفائدة فى كون النعاس أمنة فى القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الامن وازالة الخوف وقيل انهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة فى حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل فى كون هذا النوم كان أمنة من الله انه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل ان ذلك النعاس كان فى حكم المعجزة لانه أمر خارق للعادة وقوله سبحانه وتعالى (و ينزل عليكم من السماء ماء) يعنى المطر (ليطهركم به) وذلك ان المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم الى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال ترعمون أنكم على الحق وفيكم نبى الله وانتم أولياء الله وقد علبكم المشركون على الماء وانتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون ان تظهروا على عدوكم فانزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وملؤا الاسقية واطفا الغبار ولبد الارض حتى ثبتت عليها الاقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت انفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعنى من الاحداث والجنابة (و يذهب عنكم رجز الشيطان) يعنى وسوسته التى القاها فى قلوبكم (وليربط على قلوبكم) يعنى بالنصر واليقين والربط فى اللغة الشد وكل من صبر على امر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدى و يشبه ان تكون

لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل ان لفظة على ليست بصلة لانها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها (ويثبت به الاقدام) يعني ان ذلك المطر لبد الارض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الاقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبيت الاقدام بالصبر وقوة القلب لان من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء وقوله سبحانه وتعالى (اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم) يعني أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى الملائكة الذين أمدهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اني معكم بالنصر والمعونة (فثبتوا الذين آمنوا) أي قووا قلوبهم واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كان للشيطان قوة في القاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة في القاء الالهام في قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقي الشيطان وسوسة وما يلقي الملك الهاما فهذا هو التثبيت وقيل ان ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله ناصركم عليهم (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) يعني الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين (فاضربوا فوق الاعناق) قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وقيل هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلا بما قبله قال ابن الانباري ما كانت الملائكة تعرف تقاتل بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق قال عكرمة يعني الرؤس لانها فوق الاعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الاعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الاعناق فتكون فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) يعني كل مفصل وقال ابن عباس يعني الاطراف وهي جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لان بها صلاح الاحوال التي يمكن الانسان أن يبين ما يريد ان يعمله بيديه وانما خصت بالذكر من دون سائر الاطراف لاجل ان الانسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح في الحرب وقيل انه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الاعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الاعضاء فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الانسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الانسان عن الحرب لان بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله روى عن أبي داود المازني وكان شهد بدرا قال اني لاتبع رجلا من المشركين لاضربه اذ وقع رأسه قبل ان يصل اليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وروى عكرمة عن ابي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قد دخل علينا أهل البيت فاسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب

(ويثبت به الاقدام) أي بالماء اذ الاقدام كانت تسوخ في الرمل أو بالربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال (اذ يوحي) بدل ثالث من اذ يعدكم أو منصوب بثبت (ربك الى الملائكة أني معكم) بالنصر (فثبتوا الذين آمنوا) بالبشرى وكان الملك يسير أمام الصف في صورة رجل ويقول أبشروا فان الله ناصركم (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) هو امتلاء القلب من الخوف والرعب شامي وعلى (فاضربوا) أمر للمؤمنين أو للملائكة وفيه دليل على انهم قاتلوا (فوق الاعناق) أي أعالي الاعناق التي هي المذابح تطييرا للرؤس أو أراد الرؤس لانها فوق الاعناق يعني ضرب الهام (واضربوا منهم كل بنان) هي الاصابع يريد الاطراف والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى لان الضرب اما أن يقع على مقتل أو غير مقتل فأمرهم ان يجمعوا

قومه ويكره خلافهم وكان يكتم اسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر و بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا قال أبو رافع وكنت رجلا ضعيفا أعمل القداح وانحتها فى حجرة زمزم فوالله انى لجالس أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة اذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره الى ظهرى فبينما هو جالس اذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب الى يا ابن أخى فعندك الخبر اليقين فجلس اليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب يا ابن أخى اخبرنى كيف كانت أحوال الناس قال لا شئ والله ان كان الا أن لقيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤا وايم الله مالمت الناس انا لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض والله لا يليقان هم شئ ولا يقوم لهم شئ قال أبو رافع فرفعت طرف الحجرة بيدى وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فثاورته فاحتملنى فضرب بى الارض ثم برك على صدرى وكنت رجلا ضعيفا فقامت اليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه أن غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتله وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذى أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بنى سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى اليسر كيف أسرت العباس قال يا رسول الله لقد أعانى عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة النبوية وقوله سبحانه وتعالى (ذلك) يعنى الذى وقع من القتل والاسر يوم بدر (بانهم شاقوا الله ورسوله) يعنى بانهم خالفوا الله ورسوله والمشاقة اخالفة وأصلها المجانبة كانهم صاروا فى شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) يعنى ان الذى نزل بهم فى ذلك اليوم من القتل والاسر شئ قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ثم قال تعالى (ذلكم) اشارة الى القتل والاسر الذى نزل بهم (فذوقوه) يعنى عاجلا فى الدنيا الان ذلك يسير بالاضافة الى المؤجل الذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب وهو قوله (وان للكافرين عذاب النار) يعنى فى الآخرة عن ابن عباس قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شئ قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال صدقت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) يعنى مجتمعين متزاحفين بعضكم الى بعض والتزاحف التدانى فى القتال وأصل الزحف مشى مع جر الرجل

عليهم النوعين (ذلك) اشارة الى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره (بانهم شاقوا الله ورسوله) اى ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أى مخالفتهم وهى مشتقة من الشق لان كلا المتعادين فى شق خلاف شق صاحبه وكذا المعاداة والمخاصمة لان هذا فى عدوة وخصم أى جانب وذا فى عدوة وخصم (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) والكاف فى ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد وفى ذلكم للكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع على ذلكم العقاب أو العقاب (ذلكم فذوقوه) والواو فى (وأن للكافرين عذاب النار) بمعنى مع أى ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذى لكم فى الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) حال من الذين كفروا والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كانه يزحف أى يدب دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا لاسمى بالمصدر

كانبعاث الصبي قبل ان يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم الى بعض في القتال زحفا لانها تمشي كل طائفة الى صاحبتها مشارويدا وذلك قبل التداني للقتال وقال ثعلب الزحف المشي قليلا قليلا الى الشئ (فلا تولوهم الادبار) يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولي ظهره ودبره (ومن يولهم يومئذ دبره) يعني ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال (الامتحرفا لقتال) يعني الامنقطعا الى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود اليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها وقوله تعالى (أو متحيزا الى فئة) يعني أو منضما وصائرا الى جماعة من المؤمنين يريد ون العود الى القتال (فقد باء بغضب من الله) يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب الا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز الى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله (وماواه جهنم وبئس المصير)

(*فصل في حكم هذه الآية) *اختلف العلماء في ذلك فقال أبو سعيد الخدري هذا في أهل بدر خاصة لانه ما كان يحو زلهم الانهزام يوم بدر لان النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون اليها دون النبي صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا انحازوا الى المشركين ولانها اول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم امر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فاما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وقال عبد الله بن عمر كنا في جيش يعنينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال لا بل أنتم الكرارون انا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو والحيص الهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر الى عمر بن الخطاب فقال لو انحاز الى كنت له فئة أنا فئة كل مسلم وقال بعضهم حكم الآية عام في حق كل من ولى ظهره منهزما بدليل قوله يا أيها الذين آمنوا وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وان كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث من الكبائر الفرار من الزحف وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى الآن خفف الله عنكم فليس لقوم ان يفروا من مثليهم فنسخت بذلك الا في هذه العدة وعلى هذا اكثر أهل العلم ان المسلمين اذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم و يولوهم ظهورهم وان كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم ان يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية انهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا و يقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية

(فلا تولوهم الادبار) فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أي اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا أن تدانوهم في العدد أو تساووهم أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أي اذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا) مائلا (لقتال) وهو الكر بعد الفر يخيل عدوه انه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب (أو متحيزا) منضما (الى فئة) الى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل في يولهم (فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم و بئس المصير) ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وكان القاتل منهم يقول تفاخرا قتلت وأسرت قيل لهم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) والفاء جواب لشرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فانتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ولما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل

والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعنى بنصره اياكم وتقويتكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده اياكم بالملائكة قال الزمخشرى الفاء فى قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) قال أهل التفسير والمغازى لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم رواياقريش وفيهم أسلم غلام اسود لبنى الحجاج وأبو يسار غلام لبنى العاص بن سعد فاخذوهما وأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندرى قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى الف ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء الى الوادى فقال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى فاتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعنى قبحت الوجوه فلم يبق مشرك الا ودخل فى عينيه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شئ فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم وبحصاة فى ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله عزوجل ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى اذ ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كفا من الحصى فى وجوه جيش فلا تبقى عين الا وقد دخل فيها من ذلك شئ فصورة الرمى صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عزوجل فلهذا المعنى صح النفى والاثبات وقيل فى معنى الآية وما بلغت اذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل ومارميت بالرعب فى قلوبهم اذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم حتى انهزموا (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) يعنى وليتم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والاجر والثواب فقد أجمع المفسرون على ان البلاء هنا بمعنى النعمة (ان الله سميع) يعنى لدعائكم (عليم) يعنى باحوالكم وقوله تعالى (ذلكم) يعنى الذى ذكرت من أمر القتل والرمى والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذى فعلنا (وأن الله) يعنى واعلموا ان الله مع ذلك (موهن) اى مضعف (كيد الكافرين) يعنى مكرهم وكيدهم قوله عزوجل

بعينه فانهزموا قيل (ومارميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) يعنى ان الرمية التى رميتها انت لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها لما بلغ اثرها الا ما يبلغه أثر رمى البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الاثر العظيم وفى الآية بيان أن فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله تعالى خلقا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة لانه اثبت الفعل من العبد بقوله اذ رميت ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله ولكن الله رمى ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بتخفيف لكن شامى وحمزة وعلى (وليبلى المؤمنين) وليعطيهم (منه بلاء حسنا) عطاء جميلا والمعنى وللاحسان الى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل الا لذلك (ان الله سميع) لدعائهم (عليم) باحوالهم (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الامر ذلكم (وان الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المراد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين موهن كيد شامى وكوفى غير حفص موهن كيد حفص

(ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم أينا كان أقطع لرحمه وأظلم يعني نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم قاطعا للرحم فأحنه اليوم وقيل انه قال اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا ومعنى الآية ان تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعني جاءكم حكم الله بنصره المظلوم على الظالم والحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق) عن عبد الرحمن بن عوف قال اني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فاذا أنا بغلامين من الانصار حديثة اسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك اليه يا ابن أخي قال أخبرت انه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سوادة حتى يموت الاعجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت الى أبي جهل يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما انا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ما صنع أبو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد فاخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت أبا جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني عن عبد الله بن مسعود قال مررت فاذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الآخر قال ولا أعلى رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيأ حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصرا قال انه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل أعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني ان تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال السدي والكلبي كان المشركون لما خرجوا الى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ما سألوه فكان النصر لاهدى الفئتين وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله ابن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من

غيرهم (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ان تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لاهل مكة لانهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا اللهم ان كان محمد على حق فانصره وان كنا على الحق فانصرنا وقيل ان تستفتحوا خطاب للمؤمنين وان تنتهوا للكافرين أي

غزوة بدر أمر بابي جهل بن هشام ان يلتمس في القتلى فقال اللهم لا يعجزك فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي واني لاسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بابي جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فربه عبد الله ابن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل اخزاك الله يا عدو الله قال وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدبرة قلت لله ولرسوله روى عن ابن مسعود انه قال قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذي لا اله غيره فقلت نعم والذي لا اله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال أبي بن كعب هذا خطاب لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل للمسلمين ان تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون قلت استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر لان هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا الله بيدر وسأله انجاز ما وعده من احدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه قال الله سبحانه وتعالى مجيبا له ان تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وانجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من اجابة دعائكم وانجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين هذا اذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الاعداء أما اذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع أن يراد به الكفار أما قوله سبحانه وتعالى (وان تنتهوا فهو خيرا لكم) فهو خطاب للكفار يعني وان تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خيرا لكم في الدين والدنيا أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والاسر (وان تعودوا نعد) يعني وان تعودوا القتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) يعني جماعتكم (شيأ) يعني لا تغني عنكم شيأ (ولو كثرت) يعني جماعتكم (وان الله مع المؤمنين) يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا

(وان تنتهوا) عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو) اى الانتهاء (خيرا لكم) وأسلم (وان تعودوا) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) جمعكم (شيأ ولو كثرت) عددا (وان الله مع المؤمنين) بالفتح مدني وشامي وحفص أي ولان الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك وبالكسر غيرهم وتؤيده قراءة عبد الله وان الله مع المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا

(قوله في الحاشية وتؤيده قراءة الخ كذا بالاصل ولا يظهر التأييد الا بحذف الواو والابتداء بان أو قرن الخبر باللام كما لا يخفى اه

أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لان المعنى وأطيعوا الله ورسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه ولان طاعة الرسول وطاعة الله شئ واحد من يطع الرسول فقد أطاع الله فكان رجوع الضمير الى أحدهما كرجوعه اليهما كقولك الاحسان والاجمال لا ينفع فى فلان أو يرجع الضمير الى الامر بالطاعة أى ولا تولوا عن هذا الامر وامتثاله وأصله ولا تتولوا فحذف احدى التاءين تخفيفا (وأنتم تسمعون) أى وأنتم تسمعونه أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أى تصدقون لانكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أى ادعوا السماع وهم المنافقون وأهل الكتاب (وهم لا يسمعون) لانهم ليسوا بمصدقين فكانهم غير سامعين والمعنى انكم تصدقون بالقرآن والنبوة فاذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الامور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن ثم قال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أى ان شر من دب على وجه الارض البهائم وان شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لانهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل (ولو علم الله فيهم) فى هؤلاء الصم البكم (خيرا) صدقا ورغبة (لاسمعهم) لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين (ولو أسمعهم لتولوا) عنه أى ولو أسمعهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا (وهم معرضون) عن الايمان (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) وحد الضمير أيضا كما وحده

أطيعوا الله ورسوله) يعنى فى أمر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس (ولا تولوا عنه) يعنى عن الرسول صلى الله عليه وسلم لان التولى لا يصح الا فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا فى حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته فى الجهاد (وأنتم تسمعون) يعنى القرآن يتلى عليكم (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لا يسمعون) يعنى وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) يعنى ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عند الله (الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق به فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) يعنى لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وانما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) يعنى سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الامام فخر الدين ان ما كان حاصلا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلاجرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خيرا لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعلم وتفهم (ولو أسمعهم) يعنى بعد أن علم انه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى (لتولوا وهم معرضون) يعنى لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم احى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى ولو أحيا لهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يعنى أجيبوهما بالطاعة والانقياد لامرهما (اذا دعاكم) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وانما وحد الضمير فى قوله تعالى اذا دعاكم لان استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لله تعالى وانما يذكر احدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب لان كل من أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه اليه وهذه الآية تدل على انه لا بد من الاجابة فى كل ما دعا الله ورسوله اليه (خ) عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله انى كنت أصلى فقال صلى الله عليه وسلم ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم ذكر الحديث عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على ابى بن كعب وهو يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبى فالتفت أبى ولم يجبه وصلى أبى وخفف ثم انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام

فما قبله لان استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض (لما يحييكم) من علوم الديانات والشرائع لان العلم حياة كما ان الجهل موت قال الشاعر

لا تعجبن الجهول حلته
فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم أو للشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أى يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من اخلاص القلب فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله أو بينه وبين مشتهاه بقبله من طول الحياة فيقصح عزائمه (وأنه اليه تحشرون) واعلموا انكم اليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب واخلاص الطاعة (واتقوا فتنة) عذابا (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) هو جواب للامر اى ان أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وجاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الامر لان فيه معنى النهى كما اذا قلت انزل عن الدابة لا تطرحك وجاز لا تطرحنك ومن فى منكم للتبعيض

مامنعك يا أبى ان تجيبنى اذ دعوتك فقال يا رسول الله انى كنت فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم ألم تجد فيما أوحى الله الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود ان شاء الله تعالى وذكر الحديث أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الاجابة مختصة بالنبى صلى الله عليه وسلم فعلى هذا ليس لاحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لامر مهم لا يحتمل التاخير فله أن يقطع صلاته وقوله تعالى (لما يحييكم) يعنى اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم قال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال قتادة هو القرآن لانه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن اسحق هو الجهاد لان الله أعزهم به بعد الذل وقيل هو الشهادة لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ان يؤمن أو يكفر الا باذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لان أحوال القلوب اعتقادات ودواعى وتلك الاعتقادات والدواعى لابد أن تتقدمها الارادة وتلك الارادة لابد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك ان المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك فقلنا يا رسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه الترمذى وهذا الحديث من أحاديث الصفات فيجب على المرء المسلم ان يمره على ما جاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم وقيل فى معنى الآية ان الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدرى ما يصنع ولا يعقل شيأ وقيل ان القوم لما دعوا الى القتال والجهاد وكانوا فى غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جراءة وقوله تعالى (وانه اليه تحشرون) يعنى فى الآخرة فيجزى كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصى قوله سبحانه وتعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لما أخبر الله عز وجل انه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء فى الفتن والمعنى واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة ان لم تتقوها اصابتكم جميعا الظالم وغير الظالم قال الحسن نزلت هذه الآية فى على وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما نرى انا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها يعنى

ما كان منهم فى يوم الجمل وقال السدى ومجاهد والضحاك وقتادة هذا فى قوم مخصوصين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس أمر الله عزوجل المؤمنين ان لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوى بسنده عن عدى بن عدى الكندى قال حدثنى مولى لنا انه سمع جدى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذى ذكره ابن الاثير فى جامع الاصول عن عدى بن عميرة الكندى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها أخرجه أبو داود عن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا الا اصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا أخرجه أبو داود وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به فان قلت ظاهر قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة الى من لم يذنب قلت انه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفى ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لانه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع من أنواع المصلحة والله أعلم بمراده وقوله سبحانه وتعالى (واعلموا ان الله شديد العقاب) فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التى حذره الله منها وقوله عزوجل (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض) لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يا معشر المؤمنين المهاجرين اذ أنتم قليل يعنى فى العدد مستضعفون فى الارض يعنى فى أرض مكة فى ابتداء الاسلام (تخافون ان يتخطفكم الناس) يعنى كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب بن منبه يعنى فارس والروم (فآواكم) يعنى الى المدينة (وأيدكم بنصره) يعنى وقواكم بالانصار وقال الكلبى وقواكم يوم بدر بالملائكة (ورزقكم من الطيبات) يعنى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) يعنى تشكرون الله على نعمه عليكم قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) قال الزهرى والكلبى نزلت هذه الآية فى أبى لبابة هرون بن عبد المنذر الانصارى من بنى عوف بن مالك وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ما صالح عليه اخوانهم بنى النضير على ان يسيروا الى اخوانهم الى أذرعات وأريحاء من أرض الشام

(واعلموا ان الله شديد العقاب) اذا عاقب (واذكروا اذ أنتم قليل) اذ مفعول به لا ظرف أى واذكروا وقت كونكم اقلة اذلة (مستضعفون فى الارض) أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش (تخافون أن يتخطفكم الناس) لان الناس كانوا لهم أعداء مضادين (فآواكم) الى المدينة (وأيدكم بنصره) بظاهرة الانصار وبامداد الملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم ولم تحل لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله) بان تعطلوا فرائضه (والرسول) بان لا تسنوا به

فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعطيهم ذلك الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان منا صحا لهم لان ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى انتزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه يعنى انه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة والله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال اما لو جاءنى لاستغفرت له اما اذ فعل مافعل فانى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة ان من تمام توبتى ان أهجر دار قومى التى اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تصدق به فنزل فيه يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وقال السدى كانوا يسمعون السر من النبى صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فاتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان أبا سفيان فى مكان كذا وكذا فسار النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه ان أبا سفيان فى موضع كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين اليه أن محمدا يريد كم فخذوا حذركم فنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول (وتخونوا أماناتكم) ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا اماناتكم (وأنتم تعلمون) يعنى انها أمانة وقيل معناه وانتم تعلمون ان ماعلتم من الاشارة الى الحلى خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لان من خان شيأ فقد نقصه والخيانة ضد الامانة وقيل فى معنى الآية لا تخونوا الله والرسول فانكم اذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم وقال ابن عباس معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هى ما يخفى عن اعين الناس من فرائض الله تعالى والاعمال التى ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا ان دين الله اماناة فادوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب وقوله عز وجل (واعلموا انما أموالكم واولادكم فتنة) قيل هذا مما نزل فى ابى لبابة وذلك لان أمواله واولاده كانت فى بنى قريظة فلذلك قال ما قال خوفا عليهم وقيل انه عام فى جميع الناس وذلك انه لما كان الاقدام على الخيانة فى الامانة هو حب المال والولد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله واعلموا انما أموالكم واولادكم فتنة على انه يجب على العاقل ان يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لان ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى

(وتخونوا) جزم عطف على لا تخونوا أى ولا تخونوا (أماناتكم) فيما بينكم بأن لا تحفظوها (وأنتم تعلمون) تبعة ذلك وباله أو وأنتم تعلمون انكم تخونون يعنى ان الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ومعنى الخون النقص كما ان معنى الايفاء التمام ومنه تخونه اذا انتقصه ثم استعمل فى ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل فى شئ فقد ادخلت عليه النقصان فيه (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى سبب الوقوع فى الفتنة وهى الاثم والعذاب او محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم

على حدوده (وان الله عنده اجر عظيم) فعليكم ان تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا فى الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) نصرا لانه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر باذلال حزبه والاسلام باعزاز أهله او بيانا وظهورا يشهرار كم ويثبت صيتكم وآثاركم فى اقطار الارض من قولهم سطع الفرقان أى طلع الفجر أو مخرجا من الشبهات وشرحا للصدور أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الاديان وفضلا وزينة فى الدنيا والآخرة (ويكفر عنكم سيآتكم) أى الصغائر (ويغفر لكم ذنوبكم) أى الكبائر (والله ذو الفضل العظيم) على عباده (واذ يمكر بك الذين كفروا) لما فتح الله عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم والمعنى واذكر اذ يمكرون بك وذلك ان قريشا لما اسلمت الانصار فرقوا ان يتفاقم أمره فاجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره فدخل عليهم ابليس فى صورة شيخ وقال انا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت ان أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البختري رأيى ان تحبسوه فى بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون فقال ابليس بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين اظهركم فلا يضركم ما صنع واستراحتم فقال ابليس بئس الرأى يفسد قومكم غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل لعنه الله أنا أرى ان تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا فتفرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره ان لا يبيت فى مضجعه واذن له الله فى الهجرة فامر عليا فنام فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك امر تكرهه وباتوا مترصدين فلما أصبحوا ثاروا الى مضجعه فابصروا عليا فبهتوا وخيب الله سعيهم واقتصوا أثره فابطل

وهذا من اعظم الفتن وروى البغوى بسنده عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم أتى بصبى فقبله وقال اما انهم مبخلة مجبنة وانهم لمن ريحان الله وأخرج الترمذى عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن احد ابنى ابنته وهو يقول انكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله قال الترمذى لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان الله أى لمن رزق الله والريحان فى اللغة الرزق وقوله تعالى (وان الله عنده أجر عظيم) يعنى لمن أدى الامانة ولم يخن وفيه تنبيه على ان سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد وقوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) يعنى بطاعته وترك معاصيه (يجعل لكم فرقانا) يعنى يجعل لكم نورا وتوفيقا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من اصله لانه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة قال مجاهد يجعل لكم مخرجا فى الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا فى الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أى يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن اسحق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفئ باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بان يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه (ويكفر عنكم سيآتكم) يعنى ويمح عنكم ما سلف من ذنوبكم (ويغفر لكم) يعنى ويستر عليكم بان لا يفضحكم فى الدنيا ولا فى الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) لانه هو الذى يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فانه اذا وعد بشئ وفى به قيل انه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل معناه ان بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عنده غيره قوله سبحانه وتعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لان هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل ان يهاجر الى المدينة والمعنى واذكر يا محمد اذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعا ان قريشا فرقوا لما اسلمت الانصار ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر

فاجتمع نفر من كفار قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رؤسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الاسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف فاعترضهم ابليس فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا له من أنت قال أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت ان أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقالوا ادخل فدخل فقال أبو البختري أما أنا فارى ان تاخذوا محمدا وتحبسوه فى بيت مقيدا وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله ابليس وهو الشيخ النجدى وقال بئس الرأى رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقام هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى فقال أما أنا فارى ان تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع اذا غاب عنكم واستراحتم منه فقال ابليس اللعين ما هذا لكم برأى تعمدون الى رجل قد افسد احلامكم ففرقتموه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسيرهم اليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقال أبو جهل والله لاشيرن عليكم برأى ما أرى غيره انى أرى ان تاخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسطا فتيا ثم نعطى كل فتى سيفا صارما ثم يضربوه جميعا ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها وانهم اذا أرادوا ذلك قالوا العقل فنؤدى قريش ديته فقال ابليس اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبى جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل صلى الله عليه وسلم النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره ان لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه واذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج الى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ان يبيت فى مضجعه وقال له اتشح ببردتى فانه لن يخلص اليك منهم أمر تكرهه ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا الى قوله فهم لا يبصرون ومضى الى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وامانته قالوا وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبى صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا اليه ليقتلوه فرأوه عليا فقالوا له أين صاحبك قال لا أدرى فاقتفوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث فى الغار ثلاثا ثم خرج الى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وأصل

المكر

الله مكرهم (ليثبتوك) ليحبسوك ويوثقوك (أو يقتلوك) بسيوفهم (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) ويخفون المكايد له (ويمكر الله) ويخفي الله ما أعدلهم حتى يأتيهم بغتة (والله خير الماكرين) أحكم مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا

المكر احتيال في خفية (ليثبتوك) أي ليحبسوك ويوثقوك لان كل من شد شيأ وأوثقه فقد أثبته لانه لا يقدر على الحركة (أو يقتلوك) يعني كما أشار عليهم أبو جهل أو يخرجوك يعني من مكة (ويمكرون) يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك (ويمكر الله) يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكرا لانه في مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق والمعنى انهم احتالوا في ابطال امر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره (والله خير الماكرين) فان قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم قلت يحتمل ان يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل أن يكون المراد ان مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل ان فعل الله خير مطلقا قوله عز وجل (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) نزلت في النضر بن الحرث ابن علقمة من بني عبد الدار وذلك انه كان يختلف الى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي اليه وهو يقرأ ويصلي فقال النضر بن الحرث قد سمعنا يعني مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذي لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدي وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا (ان هذا الا أساطير الاولين) يعني أخبار الماضين قوله سبحانه وتعالى (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) نزلت في النضر بن الحرث أيضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال وأنا أقول الحق قال فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا اله الا الله قال وأنا أقول لا اله الا الله ولكن هذه بنات الله يعني الاصنام ثم قال اللهم ان كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعني ان كان الذي يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم يعني مثل ما عذبت به الامم الماضية وفي النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل في النضر ابن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر وقال سعيد بن جبير قتل

كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته فقال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل (واذا تتلى عليهم آياتنا) أي القرآن (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين) وهذا صلف منهم ووقاحة لانهم دعوا الى ان يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به (واذ قالوا اللهم ان كان هذا) أي القرآن (هو الحق من عندك) هذا اسم كان وهو فصل والحق خبر كان روى ان النضر لما قال ان هذا الا أساطير الاولين قال له النبي عليه السلام ويلك هذا كلام الله فرفع النضر رأسه الى السماء وقال ان كان هذا هو الحق من عندك (فأمطر علينا حجارة من السماء) أي ان كان القرآن هو الحق فعاقبنا على انكاره بالسجيل كما فعلت باصحاب الفيل (أو ائتنا بعذاب أليم) بنوع آخر من جنس العذاب الاليم فقتل يوم بدر صبرا وعن معاوية انه قال لرجل من سبا ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومي

قومك قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم الى الحق ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا له

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدى وعقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك ان الذى قال ذلك أبو جهل (ق) عن أنس قال قال أبو جهل اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت ومالهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام قوله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اختلفوا فى معنى هذه الآية فقال محمد بن اسحق هذه الآية متصلة بما قبلها وهى حكاية عن المشركين وذلك انهم قالوا ان الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكره جهالتهم وغرتهم واستقتالهم على أنفسهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم قال تعالى ردا عليهم ومالهم الا يعذبهم الله وان كنت بين أظهرهم وان كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام وقال آخرون هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل اخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واختلفوا فى معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقى بمكة من المسلمين يستغفرون فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعنى المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم الا يعذبهم الله وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع الى المشركين وذلك انهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك وقال زيد بن رومان قالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا نادوا على ما قالوا فقالوا اغفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدى معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أى لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو تركوا الذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لا أعاقبك وأنت تطيعنى أى أطعنى حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أى يسلمون يعنى لو أسلموا لما عذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية انه يؤمن ويستغفر مثل أبى سفيان ابن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون أى وفى أصلابهم من يستغفر وقيل فى معنى الآية ان الكفار لما بالغوا وقالوا ان كان محمد محقا فى قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله سبحانه وتعالى ان محمدا محق فى قوله وانه مع ذلك لا يمطر على أعدائه ومنكرى نبوته

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اللام لتأكيد النفى والدلالة على ان تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم لانك بعثت رحمة للعالمين وسنته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال مادام نبيهم بين أظهرهم وفيه اشعار بأنهم مرصدون بالعذاب اذا هاجرهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) هو فى موضع الحال ومعناه نفى الاستغفار منهم أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم او معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين

حجارة من السماء مادام بين أظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم وأورد على هذا أنه اذا كانت اقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال فى غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فالجواب ان المراد من العذاب الاول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثانى وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بايديكم هو عذاب القتل والسبى والاسر وذلك دون عذاب الاستئصال قال أهل المعانى دلت هذه الآية على ان الاستغفار أمان وسلامة من العذاب عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أنزل على أمانين لامتى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة أخرجه الترمذى وقوله سبحانه وتعالى (وما لهم الا يعذبهم الله) يعنى أى شئ يمنعهم من أن يعذبهم يعنى بعد خروجك من بين أظهرهم لانه سبحانه وتعالى بين فى الآية الاولى انه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبين فى هذه الآية انه معذبهم ثم اختلفوا فى هذا العذاب فقيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل أراد به عذاب الآخرة وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثانى العذاب بالسيف وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة وقال الحسن الآية الاولى وهى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله وما لهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لان الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لاجله يعذبهم فقال تعالى (وهم يصدون عن المسجد الحرام) يعنى وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن اولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعنى ليسوا أولياء المسجد الحرام (ان أولياؤه الا المتقون) يعنى المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن أكثرهم) يعنى المشركين (لا يعلمون) ذلك قوله عز وجل (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) لما ذكر الله عز وجل ان الكفار ليسوا اولياء للبيت الحرام ذكر عقيبه السبب فى ذلك وهو ان صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء فى اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو اذا صفر والمكاء اسم طير ابيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر يألف الريف سمى بذلك لكثرة مكائه يعنى صفيره والتصدية التصفيق وفى أصله واشتقاقه قولان أحدهما انه من الصدى وهو الصوت الذى يرجع من الجبل ثم يجيب المتكلم ولا يرجع الى شئ الثانى قال أبو عبيدة أصله تصددة فابدلت الياء من الدال قال الازهرى والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى اخبرانهم جعلوا مكان الصلاة التى أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت * صلاتهم التصدى والمكاء * قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير

(وما لهم ألا يعذبهم الله) اى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم وما لهم الا يعذبهم الله (وهم يصدون عن المسجد الحرام) وكيف لا يعذبون وحالهم انهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية واخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصدو كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل (وما كانوا أولياءه) وما استحقوا مع اشراكهم وعداوتهم للدين ان يكونوا ولاة أمر الحرم (ان أولياؤه الا المتقون) من المسلمين وقيل الضميران راجعان الى الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك كانه استثنى من كان يعلم وهو يعاند أو اراد بالاكثر الجميع كما راد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء) صفيرا كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت وهو فعال من مكا يمكو اذا صفر (وتصدية) وتصفيقا تفعلة من الصدى وذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وكانوا يفعلون نحو ذلك اذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته يخلطون عليه

وقال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله المكاء والتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفرا وقال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بني عبد الدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس أصح لان الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة فان قلت كيف سماهما صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة قلت انهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع وقوله سبحانه وتعالى (فذوقوا العذاب) يعني عذاب القتل والاسر في الدنيا وقيل يثبت لهم في الآخرة فذوقوا العذاب (بما كنتم تكفرون) يعني بسبب كفركم في الدنيا (قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة وقال الكلبي ومقاتل نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الاسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزائر فلما أسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حزام وقال الحكم بن عتبة نزلت في أبي سفيان بن حرب حين انفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالا وقال ابن ابزى استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره الى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن امية في رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وابناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثارا بمن اصيب منا ففيهم نزلت ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله اى ليصرفوا الناس عن الايمان بالله ورسوله وقيل ينفقون اموالهم على امثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (فسينفقونها) يعني اموالهم في ذلك الوجه (ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) يعني ما انفقوا من اموالهم يكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لان اموالهم تذهب

(فذوقوا العذاب) عذاب القتل والاسر يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بسبب كفركم ونزل في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) اى كان غرضهم في الانفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) ثم تكون عاقبة انفاقها ندما وحسرة فكأن ذا انفاقها تصير ندما وتنقلب حسرة (ثم يغلبون) آخر الامر وهو من دلائل النبوة لانه اخبر عنه قبل وقوعه فكان كما اخبر

ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون (والذين كفروا) يعني منهم لان فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من المنفقين أموالهم (الى جهنم يحشرون) يعني يساقون الى النار (ليميز الله الخبيث من الطيب) يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فانه قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به انفاق الكفار في سبيل الشيطان وانفاق المؤمنين في سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) يعني بعضه فوق بعض (فيركمه جميعا) يعني فيجمعه جميعا ويضم بعضه الى بعض حتى يتراكم (فيجعله في جهنم) يعني الخبيث (أولئك) اشارة الى المنفقين في سبيل الشيطان أو الى الخبيث (هم الخاسرون) يعني انهم خسروا الدنيا والآخرة لانهم اشتروا بأموالهم عقاب الآخرة قوله سبحانه وتعالى (قل) يعني قل يا محمد (للذين كفروا ان ينتهوا) يعني عن الشرك (يغفر لهم ما قد سلف) يعني ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الاسلام (وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين) يعني في اهلاك أعدائه ونصر أوليائه ومعنى الآية ان هؤلاء الكفار ان انتهوا عن الكفر ودخلوا في دين الاسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وان عادوا الى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الاولين باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على ان الاسلام يجب ما قبله واذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته أمه يعني بذلك أنه ليس عليه ذنب قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجو أن لا يجز عن هدم ما بعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عباس يعني حتى لا يكون شرك وقال الحسن حتى لا يكون بلاء (ويكون الدين كله لله) يعني تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليها قاتل نبي الله صلى الله عليه وسلم واليها دعا وقال محمد بن اسحق في قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله يعني لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصا ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الانداد والشركاء (فان انتهوا) يعني عن الشرك وافتتان المؤمنين وايذائهم (فان الله بما يعملون بصير) يعني فان الله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل اليهم ثوابهم (وان تولوا) يعني وان أعرضوا عن الايمان وأصروا على الكفر وعادوا الى قتال المؤمنين وايذائهم (فاعلموا) يعني أيها المؤمنون (أن الله مولاكم) يعني ان الله وليكم وناصركم عليهم وحافظكم (نعم المولى ونعم النصير) يعني ان الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير قوله عز وجل

(والذين كفروا) والكافرون منهم (الى جهنم يحشرون) لان منهم من أسلم وحسن اسلامه واللام في (ليميز الله الخبيث) الفريق الخبيث من الكفار (من الطيب) أي من الفريق الطيب من المؤمنين متعلقة بيحشرون ليميز حمزة وعلي (ويجعل الخبيث) الفريق الخبيث (بعضه على بعض فيركمه جميعا) فيجمعه (فيجعله في جهنم) أي الفريق الخبيث (أولئك) اشارة الى الفريق الخبيث (هم الخاسرون) أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) أي أبي سفيان وأصحابه (ان ينتهوا) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام (يغفر لهم ما قد سلف) لهم من العداوة (وان يعودوا) لقتاله (فقد مضت سنة الاولين) بالاهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى أو معناه ان الكفار اذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في ان المرتد اذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الى ان لا يوجد فيهم شرك قط (ويكون الدين كله لله) ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله بما يعملون بصير) يثيبهم على اسلامهم (وان تولوا) أعرضوا عن الايمان ولم ينتهوا (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته (نعم المولى) لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره والمخصوص بالمدح محذوف

(واعلموا ان ماغنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول) الغنم الفوز بالشئ يقال غنم يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفئ اسمان لمسمى واحد أم يختلفان فى التسمية فقال عطاء بن السائب الغنيمة ماظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوة وأما الارض فهى فئ وقال سفيان الثورى الغنيمة ماأصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة والفئ ماصولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنيمة ماأخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفئ عام لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة وقيل ان الفئ والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشئ واحد والصحيح أنهما يختلفان فالفئ ماأخذ من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ماأخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى واعلموا أن ماغنمتم من شئ يعنى من أى شئ كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر المفسرون والفقهاء ان قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما اضافه لنفسه تعالى لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه ان سهما منه لله مفرد الان الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعى قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسه لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقى خمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال أبو العالية يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف الى الكعبة والقول الاول أصح أى ان خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فى حياته واليوم هو لصالح المسلمين وما فيه قوة الاسلام وهذا قول الشافعى وأحمد وروى الاعمش عن ابراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال أبو حنيفة سهم النبى صلى الله عليه وسلم بعده مردود فى الخمس فيقسم الخمس على الاربعة الاصناف المذكورين فى الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقوله سبحانه وتعالى (ولذى القربى) يعنى ان سهما من خمس الخمس لذوى القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لاتحل لهم الصدقة وقال محمد وعلى بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعى رحمه الله تعالى هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل منه شئ وان كانوا اخوة ويدل عليه ماروى عن جبير بن مطعم قال جئت أنا وعثمان ابن عفان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفى رواية أعطيت بنى المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفى رواية قال جبير ولم يقسم النبى صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل شيأ أخرجه البخارى وفى رواية

(واعلموا أن ماغنمتم) مامعنى الذى ولايجوز أن يكتب الا مفصولا اذ لو كتب موصولا لوجب أن تكون ما كافة وغنمتم صلته والعائد محذوف والتقدير الذى غنمتموه (من شئ) بيانه قيل حتى الخيط والمخيط (فان لله خمسه) والفاء انما دخلت لما فى الذى من معنى المجازاة وأن وما عملت فيه فى موضع رفع على انه خبر مبتدا تقديره فالحكم أن لله خمسه (وللرسول ولذى القربى)

أبي داود ان جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لاخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيأ وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفي رواية النسائي قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال اخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا اسلام وانما نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم الى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وهو قول مالك والشافعي وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي الى انه غير ثابت قالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف الى فقراء ذوي القربى مع هذه الاصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيرا على غني لان النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة فيرانهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الانثى فيعطى الذكر سهمين والانثى سهما وقوله سبحانه وتعالى (واليتامى) جمع يتيم يعني ويعطى من خمس الخمس لليتامى واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة اليه (والمساكين) وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين (وابن السبيل) وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة اليه فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النفل للفرس سهمين وللرجل سهما وفي رواية نحوه باسقاط لفظ النفل أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسهم للرجل ولفرسه ثلاثة اسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول اكثر اهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي واحمد واسحق وقال ابو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند ابي حنيفة يتخير الامام في العقار بين ان يقسمه بينهم وبين ان يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول ومن

واليتامى والمساكين وابن السبيل) فالخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله وسهم لذوي قرابته من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل واما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته وكذلك سهم ذوي القربى وانما يعطون لفقرهم ولا يعطى اغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان على ستة لله والرسول سهمان وسهم لاقاربه فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء رضي الله عنهم ومعنى لله وللرسول لرسول الله كقوله والله ورسوله احق ان يرضوه

قتل من المسلمين مشركا فى القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن أبى قتادة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه أخرجه الترمذى
وأخرجه البخارى ومسلم فى حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس
وسلاح والفرس الذى كان راكبه ويجوز للامام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة
لزيادة غناء وبلاء يكون منهم فى الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم اسوة
الجماعة فى سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل
بعض من يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى عامة الجيش * عن حبيب بن سلمة
الفهرى قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع فى البدأة والثلث فى
الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء فى ان النفل من أين يعطى فقال قوم
من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب
وبه قال الشافعى وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت
قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خيرة وبرة من جنب بعير فقال أيها الناس
انه لا يحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه
النسائى وقال قوم هو من الاربعة الاخماس بعد افراز الخمس كسهام الغزاة وهو
قول احمد واسحق وذهب قوم الى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب
للقاتل وأما الفىء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا
ركاب بان صالحهم على مال يؤدونه وكذلك الجزية وما أخذ من اموالهم اذا دخلوا
دار الاسلام للتجارة أو يموت أحد منهم فى دار الاسلام ولا وارث له فهذا كله فىء
ومال الفىء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة حياته وقال عمران الله
سبحانه وتعالى قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يخص به أحدا
غيره ثم قرأ عمر وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه
وسلم خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقى يجعله مجعل
مال الله فى الكراع والسلاح واختلف أهل العلم فى مصرف الفىء بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال قوم هو للائمة بعده وللامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه قولان
احدهما انه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم فى ديوان الجهاد لانهم هم القائمون مقام
النبى صلى الله عليه وسلم فى ارهاب العدو والقول الثانى انه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة
فيعطون منه كفايتهم ثم بالاهم فالاهم من المصالح واختلف اهل العلم فى تخميس الفىء
فذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الى انه يخمس وخمسه لاهل الخمس من
الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة اخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الاكثرون الى انه
لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا وجميع المسلمين فيه حق * عن مالك بن انس
قال ذكر عمر يوما الفىء فقال ما انا احق بهذا الفىء منكم وما احد منا احق به من الآخر
الا اناء على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقدمه
والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته اخرجه ابو داود واخرج البغوى بسنده
عنه انه سمع عمر بن الخطاب يقول ما على وجه الارض مسلم الا له فى هذا الفىء حق

(ان كنتم آمنتم بالله) فاعملوا به وارضوا بهذه القسمة فالايمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم (وما أنزلنا) معطوف على بالله أى ان كنتم آمنتم بالله وبالمنزل (على عبدنا يوم الفرقان) يوم بدر (يوم التقى الجمعان) الفريقان من المسلمين والكافرين والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وهو بدل من يوم الفرقان (والله على كل شئ قدير) يقدر على ان ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر (اذ أنتم) بدل من يوم الفرقان او التقدير اذكروا اذ انتم (بالعدوة) شط الوادى وبالكسر فيهما مكى وابو عمرو (الدنيا) القربى الى جهة المدينة تأنيث الادنى (وهم بالعدوة القصوى) البعدى عن المدينة تانيث الاقصى وكلتاهما فعلى من بنات الواو والقياس قلب الواو ياء كالعليا ٢٥٣ تأنيث الاعلى واما القصوى فكالقود فى

الا ما ملكت أيمانكم وقوله سبحانه وتعالى (ان كنتم آمنتم بالله) يعنى واعلموا أيها المؤمنون ان خمس الغنيمة مصروف الى من ذكر فى هذه الآية من الاصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته (وما أنزلنا على عبدنا) يعنى وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم والذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسئلونك عن الانفال الآية (يوم الفرقان) يعنى يوم بدر قال ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل فيه بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) يعنى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شئ قدير) يعنى على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم قوله سبحانه وتعالى (اذ أنتم) أى اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين اذ أنتم (بالعدوة الدنيا) يعنى بشفير الوادى الادنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الادنى (وهم) يعنى المشركين (بالعدوة القصوى) يعنى بشفير الوادى الاقصى من المدينة مما يلى مكة والقصوى تأنيث الاقصى (والركب أسفل منكم) يعنى أبا سفيان وأصحابه وهم عير قريش التى خرجوا لاجلها وكانوا فى موضع أسفل من موضع المؤمنين الى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم) يعنى أنتم والمشركون (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار لمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) يعنى ولكن الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) يعنى من نصر أوليائه واعزاز دينه واهلاك أعدائه واعداء دينه (ليهلك من هلك عن بينة) يعنى ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (ويحيى من حى عن بينة) يعنى ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه

مجيئه على الاصل (والركب) أى العير وهو جمع راكب فى المعنى (أسفل منكم) نصب على الظرف أى مكانا أسفل من مكانكم يعنى فى أسفل الوادى بثلاثة أميال وهو مرفوع المحل لانه خبر المبتدا (ولو تواعدتم) أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد لتلتقون فيه للقتال (لاختلفتم فى الميعاد) لخالف بعضكم بعضا فيثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ويثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسببه له (ولكن) جمع بينكم بلا ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) من اعزاز دينه واعلاء كلمته واللام تتعلق بمحذوف أى ليقضى الله أمرا كان ينبغى ان يفعل وهو نصر أوليائه وقهر اعدائه وبذلك قال الشيخ أبو منصور رحمه الله القضاء يحتمل

الحكم اى ليحكم ما قد علم أنه يكون كائنا أو ليتم أمرا كان قد أراده وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة وهو عز الاسلام وأهله وذل الكفر وحزبه ويتعلق بيقضى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) حى نافع وأبو عمرو فالادغام لالتقاء المثلين والاظهار لان حركة الثانى غير لازمة لانك تقول فى المستقبل يحيا والادغام أكثر استعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك ان وقعة بدر من الآيات الواضحة التى من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها ولهذا ذكر فيها امرا كثرة الفريقين وان العير كانت أسفل منهم مع أنهم قد علموا ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والاسباب بل بالله تعالى وذلك

خبار تسوخ فيها الارجل ولا يمشي فيها الا بتعب ومشقة وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان (وان الله لسميع) لاقوالهم (عليم) بكفر من كفر وعقابه وبايمان من آمن وثوابه (اذ يريكهم الله) نصب باضمار اذكر أو هو متعلق بقوله لسميع عليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك (في منامك قليلا) أي في رؤياك وذلك ان الله تعالى أراه اياهم في رؤياه قليلا فاخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم وهبتم الاقدام (ولتنازعتم في الامر) أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار (ولكن الله سلم) عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف (انه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع (واذ يريكموهم) الضمير ان مفعولان أي واذ يصيركم اياهم (اذ التقيتم) وقت اللقاء (في اعينكم قليلا) هو نصب على الحال وانما قللهم في أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا وقال ابن مسعود رضي الله عنه لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي أتراهم سبعين قال أراهم مائة وكانوا ألفا (ويقللكم وسلم في أعينهم) حتى قال قائل منهم انما هم أكلة جزور وقيل قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم قلة مبالاتهم ثم تفجأهم الكثرة فيهتموا ويهابوا ويجوز أن يبصروا الكثير

وقال محمد بن اسحق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لان الهلاك هو الكفر والحياة هي الايمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي من اهتدى على بينة (وان الله لسميع عليم) يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية قوله عز وجل (اذ يريكهم الله) يعني واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ يريك المشركين (في منامك) يعني في نومك (قليلا) قال مجاهد أراه الله في منامه قليلا فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا وقال محمد بن اسحق فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم وقيل لما أرى الله النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في منامه قليلا فأخبر بذلك أصحابه قالوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت في اليقظة والمراد من المنام العين لانها موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيرا اذ كرت ذلك لاصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم (ولتنازعتم في الامر) يعني اختلفتم في أمر الاقدام عليهم أو الاحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الامر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجادبة كل واحد الى ناحية والمعنى لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم (ولكن الله سلم) يعني ولكن الله سلمكم من التنازع والخلافة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل (انه عليم بذات الصدور) يعني انه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس معناه انه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل (واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا) يعني ان الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي تراهم سبعين قال أراهم مائة فاسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا ألفا (ويقللكم في أعينهم) يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين قال السدي قال ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن اذ بزل لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلهم انما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقلتهم في عينيه ثم قال فلا تقتلوهم وارتبطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه والحكمة في تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم والتقوي بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة في تقليل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالوا في الاستعداد والتاهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم * فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل * قلت ذلك ممكن في القدرة الالهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه

قليلا بان يستر الله بعضهم بستر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما ٢٠ احدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديك واحد فقال مالي لا أرى هذين الديكين أربعة (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) ليتم ما أراد من نصر أوليائه وقهر أعدائه (وإلى الله ترجع الامور) فيحكم فيها بما يريد ترجع شامي وحمزة وعلي (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة) إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها لان المؤمنين ما كانوا يلقون الا الكفار واللقاء اسم غالب للقتال (فاثبتوا) لقتالهم ولا تفروا (واذكروا الله كثيرا) في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم (لعلكم تفلحون) تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه اشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه اشغل ما يكون قلبا وأكثر ما يكون هما وان تكون نفسه مجتمعة لذلك وان كانت متوزعة عن غيره (وأطيعوا الله ورسوله) في الامر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما (ولا تنازعوا فتفشلوا) فتجبنوا وهو منصوب باضمار أن ويدل عليه (وتذهب ريحكم) أي دولتكم يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة ونفذ أمره شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها وقيل لم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله وفي

وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) يعني أمرا كائنا من اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله واذلال كلمة الشرك وخذلان أهله * فان قلت قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا وقال في هذه الآية ليقضي الله أمرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار * قلت المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره في هذه الآية لانه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضا للحكمة التي قضاها فلذلك قال ليقضي الله أمرا كان مفعولا (وإلى الله ترجع الامور) يعني في الآخرة فيجازي كل عامل على قدر عمله فالمحسن بإحسانه والمسيء باساءته أو يغفر قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) يعني جماعة كافرة (فاثبتوا) يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي (واذكروا الله كثيرا) يعني كونوا اذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم والسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بان يذكروه في أشد الاحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على ان الانسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده ان يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى (لعلكم تفلحون) يعني وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر * فان قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم انها ناسخة لآية التحرف والتحيز * قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو (ولا تنازعوا فتفشلوا) يعني ولا تختلفوا فان التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يعني قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم احد وقال السدي جراءتكم وجدكم وقال مقاتل حدتكم وقال الاخفش وأبو عبيدة دولتكم والريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود وقوله سبحانه وتعالى (واصبروا) يعني عند لقاء عدوكم ولا تهزموا عنهم (ان الله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة (ق) عن عبد الله بن أبي أوفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال أيها الناس لا تتمنوا لقاء

الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (فاصبروا) في القتال مع العدو وغيره (ان الله مع الصابرين) أي معينهم وحافظهم

العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) يعني فخرا وأشرا وقيل البطر الطغيان في النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها في المفاخرة على الاقران وكثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعمة وان صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها (ورئاء الناس) الرياء اظهار الجميل ليراه الناس مع ابطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق ان النفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر والرياء اظهار الطاعة مع ابطان المعصية (ويصدون عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا الى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به قال ابن عباس ان أبا سفيان لما رأى انه قد أخرج غيره أرسل الى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونصنع الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فمضوا زادا غيره قال فلما وافوا بدرا سقوا كؤوس المنايا عوضا عن الخمور وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين ان يكونوا امثالهم والمعنى لا يكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الناس ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم وموازرة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا الا لله تعالى ولا تطلبوا غيره وقوله تعالى (والله بما يعملون محيط) فيه وعيد وتهديد يعني انه تعالى عالم بجميع الاشياء لا يخفى عن علمه شيء لانه محيط بأعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين تم اسمه تعالى (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ زين الشيطان يريد ابليس للمشركين أعمالهم الخبيثة (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم) قال بعضهم كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير ان يتحول في صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه ان قريشا لما أجمعت على المسير الى بدر ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جار لكم من ان يأتيكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا سراعا وقال ابن عباس جاء ابليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول ابي سفيان ان ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى أبو جهل وقال حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وتنحر الجزور وتعزف علينا القيان وتسمع بها العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس باطعامهم فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهاهم ان يكونوا امثالهم بطرين مرائين باعمالهم وان يكونوا من اهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين اعمالهم لله والبطران تشغله كثرة النعمة عن شكرها (ويصدون عن سبيل الله) دين الله (والله بما يعملون محيط) عالم وهو وعيد (واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) واذكر اذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسوس اليهم انهم لا يغلبون وغالب مبني لحذ ولا رجل ولكم في موضع رفع خبر لا تقديره لا غالب كائن لكم (واني جار لكم) اي مجير لكم ايهمهم ان طاعة الشيطان مما يجيرهم

للمشركين

للمشركين لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول
الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل
جبريل عليه السلام الى ابليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين
انتزع ابليس يده ثم ولى مدبرا وشعته فقال الرجل ياسراقة اترعم انك جار لنا فقال
انى أرى مالا ترون انى أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقوله
انى جار لكم يعنى مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أى التقى الجمعان رأى ابليس
الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله ابليس انه لا طاقة له بهم (نكص على عقبيه
وقال انى برىء منكم) يعنى رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال الكلبى
لما التقى الجمعان كان ابليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم
وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحرث
افرارا من غير قتال وجعل يمسكه فدفع فى صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة
قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى انكم تقولون انى هزمت الناس
فوالله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا خلف
لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطانا قال الحسن فى قوله (انى أرى مالا ترون) قال
رأى ابليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى
يده اللجام يقود الفرس ماركب وقال قتادة قال ابليس انى أرى مالا ترون وصدق وقال
انى أخاف الله وكذب مابه مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا منعة فاوردهم وأسلمهم
وتلك عادة عدو الله ابليس لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل
انه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف ان يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه
وقيل معناه (انى أخاف الله) اعلم صدق وعده لاوليائه لانه كان على ثقة من أمر ربه
وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة (والله شديد
العقاب) قيل معناه انى أخاف الله لانه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول
ابليس وقيل تم كلامه عند قوله انى أخاف الله وقوله تعالى والله شديد العقاب ابتداء
كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به عن طلحة
ابن عبيد الله بن كرز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مارؤى الشيطان يوما هو
فيه اصغر ولا ادحر ولا احقر ولا اغيظ منه فى يوم عرفة وماذاك الا لما يرى من تنزل
الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا مارأى يوم بدر قالوا قد رأى جبريل ينزع
الملائكة أخرجه مالك فى الموطأ قوله ولا ادحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور
وهو الابعاد والطرد مع الاهانة وقوله ينزع الملائكة أى يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم
بعضهم على بعض والوازع هو الذى يتقدم ويتأخر فى الصف ليصلحه فان قلت كيف
يقدر ابليس على أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى
شيطانا قلت ان الله عز وجل أعطاه قوة واقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة واقدرهم
على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير

(فلما تراءت الفئتان) فلما تلاقى الفريقان (نكص) الشيطان هاربا (على عقبيه) أى رجع القهقرى (وقال انى برىء منكم) أى رجعت عما ضمنت لكم من الامان روى ان ابليس تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم فى جند من الشياطين معه رايته فلما رأى الملائكة تنزل نكص فقال له الحرث بن هشام اتخذلنا فى هذه الحالة فقال (انى أرى مالا ترون) أى الملائكة وانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا انه الشيطان (انى أخاف الله) أى عقوبته (والله شديد العقاب) اذ كروا

(اذ يقول المنافقون) بالمدينة (والذين فى قلوبهم مرض) هو من صفة المنافقين أو أريد والذين هم على حرف ليسوا بثابتى الاقدام فى الاسلام (غر هؤلاء دينهم) يعنون ان المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء ألف ثم قال جوابا لهم (ومن يتوكل على الله) يكل اليه أمره (فان الله عزيز) غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى (حكيم) لا يسوى بين وليه وعدوه (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت لان لو ترد المضارع الى معنى الماضى كما ترد ان الماضى الى معنى الاستقبال (اذ) نصب على الظرف (يتوفى الذين كفروا) يقبض أرواحهم (الملائكة) فاعل (يضربون) حال منهم (وجوههم) اذا أقبلوا (وأدبارهم) ظهورهم واستاههم اذا أدبروا أو وجوههم عند الاقدام وأدبارهم عند الانهزام وقيل فى يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء و يضربون خبر والاول الوجه لان الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بالواسطة دليله قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء (وذوقوا) ويقولون لهم ذوقوا معطوف على يضربون (عذاب الحريق) أى مقدمة عذاب النار أو ذوقوا عذب الآخرة بشارة لهم به أو يقال لهم يوم القيامة ذوقوا وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا (ذلك بما قدمت أيديكم) أى كسبتموه ورد على الجبرية وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره (وأن الله) عطف عليه أى ذلك العذاب بسببين بسبب كفركم ومعاصيكم وبان الله (ليس بظلام للعبيد) لان تعذيب الكفار من العدل وقيل ظلام للتكثير لاجل العبيد أو لنفى أنواع الظلم الكاف فى

الصورة تغير الحقيقة قوله عز وجل (اذ يقول المنافقون) يعنى من أهل المدينة (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقو الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء دينهم) يعنى ان هؤلاء كفر قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الاسلام على ذلك وحملهم على قتال أنفسهم رجاء الثواب فى الآخرة فقتلوا جميعا يوم بدر وقال مجاهد ان فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث ابن زمعة بن الاسود بن المطلب وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله) يعنى ومن يسلم أمره الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه (فان الله) حافظه وناصره لانه (عزيز) لا يغلبه شئ (حكيم) فيما قضى وحكم فيوصل الثواب الى أوليائه والعقاب الى أعدائه قوله عز وجل (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) يعنى ولو عاينت يا محمد وشاهدت اذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا لهم فى ذلك الوقت (يضربون وجوههم وأدبارهم) اختلفوا فى وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم بسياط من نار وقيل ان الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وقال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم وقال ابن جريج يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعنى يضربون جميع أجسادهم (وذوقوا عذاب الحريق) يعنى وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار فى جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق (ذلك) يعنى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما قدمت أيديكم) يعنى انما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصى فان قلت اليد ليست محلا للكفر وانما محله القلب لان الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضى ان فاعل هذا الكفر هى اليد وذلك ممتنع قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لان اليد آلة العمل والقدرة هى المؤثرة فى العمل فاليد كناية عن القدرة وقوله تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من خلقه الا بجرم اجترمه لانه لا يظلم أحدا من خلقه وانما نفى الظلم عن نفسه مع انه يعذب الكافر على كفره والعاصى على عصيانه لانه يتصرف فى ملكه

(كدأب آل فرعون) في محل الرفع أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داوموا عليه (والذين من قبلهم) من قبل قريش اومن قبل آل فرعون (كفروا) ٢٥٩ تفسير لدأب آل فرعون (بآيات

ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم اليه فلا يتوهم منه توهم انه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وان الله ليس بظلام للعبيد لانهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء قوله تعالى (كدأب آل فرعون) يعني ان عادة هؤلاء الكفار في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب في اللغة ادامة العمل يقال فلان يدأب في كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لان الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها قال ابن عباس معناه ان آل فرعون أيقنوا ان موسى عليه السلام نبي من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون (والذين من قبلهم) يعني من قبل آل فرعون (كفروا بآيات الله) يعني عادة الامم السالفة هو كفرهم بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) يعني بسبب كفرهم وذنوبهم (ان الله قوي) يعني في أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله (شديد العقاب) يعني لمن كفر به وكذب رسله (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) يعني أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بان أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث اليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بان تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا ما بانفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدي نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى الى الانصار (وأن الله سميع) يعني لاقوال خلقه لا يخفى عليه شئ من كلامهم (عليم) يعني بما في صدورهم من خير وشر فيجازي كل واحد على عمله (كدأب آل فرعون) يعني ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم) يعني أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعني الاولين والآخرين فان قلت ما الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية قلت فيها فوائد منها ان الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الاول لان الآية الاولى فيها ذكر أخذهم وفي الآية الثانية ذكر اغراقهم فهذه تفسير للاولى الفائدة الثانية انه ذكر في الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية انهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الاولى اشارة الى انهم أنكروا آيات الله وجحدوها وفي الآية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة ان تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الاغراق بيان للاخذ بالذنوب قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله) يعني في علمه وحكمه

الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب) والمعنى جروا على عادتهم في التكذيب فاجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب (ذلك) العذاب أو الانتقام (بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) بسبب ان الله لم يصح في حكمته ان يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة لكن لما تغيرت الحال المرضية الى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة الى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول اليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث اليهم بالآيات فكذبوه وسعوا في اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وأن الله سميع) لما يقول مكذبوا الرسل (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد اولان في الاولى الاخذ بالذنوب بلا بيان ذلك وهنا بين ان ذلك هو الاهلاك والاستئصال (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) وفي قوله بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق (فاهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون) بماء البحر (وكل) وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصي (ان شر الدواب عند الله

(الذين كفروا فهم لا يؤمنون) وا لمعنى ان شر الدواب من الانس الكفار المصرون على الكفر نزلت في يهود بني قريظة وهط كعب بن الاشرف (الذين عاهدت منهم) قيل من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل هي للتبعيض لان المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والاشراف (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) قال المفسرون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا وما لؤا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لا يتقون) يعني انهم لا يخافون الله في نقض العهد لان عادة من يرجع الى دين وعقل وحزم ان ينتهي نقض العهد حتى يسكن الناس الى قوله ويثقوا بكلامه فبين الله عز وجل ان من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب (فاما تثقفنهم في الحرب) يعني فاما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية انك اذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد ففعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخاف من وراءهم من أهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (واما تخافن) يعني واما تعلمن يا محمد (من قوم) يعني معاهدين (خيانة) يعني نقضا للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير (فانبذ) أي فاطرح (اليهم) يعني عهدهم وارم به اليهم (على سواء) يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك اياهم انك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون انك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) يعني في نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا فاذا هو عمرو بن عنبسة فارسل اليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد من هادنهم الامام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الامام عن نبذ العهد واعلامهم بالحرب وان ظهرت الخيانة بامارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الامام أن ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لان قريظة كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه

وسلم

(الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أي أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الايمان (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا أي الذين عاهدتهم من الذين كفروا وجعلهم شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرين الناكثون للعهود (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) في كل معاهدة (وهم لا يتقون) لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار (فاما تثقفنهم في الحرب) فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فشرد بهم من خلفهم) ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم وقال الزجاج افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم (لعلهم يذكرون) لعل المشردين من وراءهم يتعظون (واما تخافن من قوم) معاهدين (خيانة) نكثا بامارات تلوح لك (فانبذ اليهم) فاطرح اليهم العهد (على سواء) على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ اليهم أي حاصلين على استواء في العلم (ان الله لا يحب الخائنين) الناقضين

وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وباصحابه فههنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب واما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للامام الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة وقوله تعالى (ولا تحسبن) قرئ بالتاء على الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يا محمد (الذين كفروا سبقوا) يعنى فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعنى خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) يعنى انهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما فى الدنيا بالقتل واما فى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمه الله انهم لا يعجزونه قوله عز وجل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه وفى المراد بالقوة أقوال أحدها انها جميع أنواع الاسلحة والآلات التى تكون لكم قوة فى الحرب على قتال عدوكم * الثانى انها الحصون والمعاقل * الثالث الرمى وقد جاءت مفسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا ان القوة الرمى ثلاثا أخرجه مسلم (خ) عن أبى اسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش اذا أكثبوكم يعنى غشوكم وفى رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفى رواية اذا أكثبوكم فعليكم بالنبل (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه (م) عن فقيم اللخمى قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعانه قال قلت وماذاك قال سمعته يقول من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا أو قد عصى عن أبى نجيح السلمى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر أخرجه النسائى والترمذى بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضا عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى عمله الخير والرامى به والممد به وفى رواية ومنبله فارموا واركبوا وان ترموا أحب الى من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمودا الا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أى نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة

للعهود (ولا يحسبن) بالياء وفتح السين شامى وحمزة ويزيد وحفص وبالتاء وفتح السين أبو بكر وبالتاء وكسر السين غيرهم (الذين كفروا سبقوا) فاتوا وافلتوا من أن يظفر بهم (انهم لا يعجزون) انهم لا يفوتون ولا يحدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم انهم شامى اى لانهم وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير ان المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح فمن قرأ بالتاء فالذين كفروا مفعول أول والثانى سبقوا ومن قرأ بالياء فالذين كفروا فاعل وسبقوا مفعول تقديره ان سبقوا فحذف ان وان مخففة من الثقيلة أى انهم سبقوا فسد مسد المفعولين أو يكون الفاعل مضمرا أى ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومن ادعى تفرد حمزة بالقراءة ففيه نظر لما بينا من عدم تفرده بها وعن الزهرى انها نزلت فيمن أفلت من قتل المشركين (وأعدوا) أيها المؤمنون (لهم) لناقضى العهد أو لجميع الكفار (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها وفى الحديث الا ان القوة الرمى قالها ثلاثا على المنبر وقيل هى

تركها او كفرها أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي مختصرا الى نبله (خ) عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا بني اسمعيل فان أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بني فلان فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالكم لا ترمون فقالوا كيف نرمي وأنت معهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا وأنا معكم كلكم القول الرابع ان المراد بالقوة جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم ألا ان القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي من القوة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا ههنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به الا ما نه من فروض الكفايات وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) يعني اقتناءها وربطها للغزو في سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمي المكان الذي يخص باقامة حفظه فيه رباطا والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للعراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به روي ان رجلا قال لابن سيرين ان فلانا أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل ويربطها في سبيل الله وقال عكرمة القوة الحصون ومن رباط الخيل يعني الاناث ووجهه هذا ان العرب ترتبط الاناث من الخيل بالافنية للنسل وروي ان خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال الا الاناث لعلمه بصهيلها وعن ابن سيرين قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وناث الخيل عند الشنات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الاناث لانها أقوى على الكر والفر والعدو وقد كانت الخاربة عليها أولى من الاناث وقيل ان اقتنا الخيل عام فيتناول الفحول والاناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله (ق) عن عروة بن الجعد البارقي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل في نواصيها الخير الى يوم القيامة (خ) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل لثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله زاد في رواية لاهل الاسلام فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأروائها حسنات ولو انها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد ان يسقيها كان ذلك له حسنات فهي لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لاهل الاسلام

الحصون (ومن رباط الخيل) هو اسم للخيل التي ترتبط في سبيل الله او هو جمع ربيط كفصيل وفصال وخص الخيل من بين ما يتقوى به كقوله جبريل وميكال

فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل على فيها شئ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذى يشد به الفرس وقت الرعى والاستثان الجرى والشرف الشوط الذى تجرى فيه الفرس وقوله تغنيا يعنى استغناء بها عن الطلب لما فى أيدى الناس أما حق ظهورها فهو ان يحمل عليها منقطعا الى أهله وأما حق رقابها فقيل أراد به الاحسان اليها وقيل أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله نواء لاهل الاسلام البراء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة اذا عاديته وقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) يعنى تخوفون بذلك الربط عدو الله وعدوكم يعنى الكفار من أهل مكة وغيرهم وقال ابن عباس تحزنون به عدو الله وعدوكم وذلك لان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الاسلام او بذل الجزية للمسلمين وقوله تعالى (وآخرين من دونهم) يعنى وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد هم بنو قريظة وقال السدى هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بألسنتهم لا اله الا الله (الله يعلمهم) يعنى انهم منافقون وأورد على هذا القول ان المنافقين لا يقاتلون لاظهارهم كلمة الاسلام فكيف يخوفون بأعداد القوة ورباط الخيل وأجيب عن هذا الايراد ان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان فى ذلك ارهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبرى قال لان الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك ان المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بأنهم مشركون ولانهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعنى يعلم أحوالهم وأما كونهم دونكم ويعضد هذا القول ما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وان الشيطان لا يحمل أحدا فى داره فرس عتيق ذكر هذا الحديث ابن الجوزى وغيره من المفسرين بغير اسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن وقوله سبحانه وتعالى (وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله) قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام فى كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره (يوف اليكم) يعنى أجره فى الآخرة ويعجل لكم عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) يعنى وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيأ قوله تبارك وتعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك ان يقبلوا منهم الصلح ان مالوا اليه وسألوه فقال تعالى وان جنحوا للسلم يعنى مالوا الى السلم يعنى المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أى مل اليها يعنى الى المصالحة روى عن الحسن وقتادة ان هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل انها غير منسوخة لكنها تتضمن الامر بالصلح اذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الامام أن يصالح اعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز ان يهادنهم

(ترهبون به) بما استطعتم (عدو الله وعدوكم) أى أهل مكة (وآخرين من دونهم) غيرهم وهم اليهود او المنافقون أو أهل فارس او كفرة الجن فى الحديث ان الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارا فيها فرس عتيق وروى ان صهيل الخيل يرهب الجن (لا تعلمونهم) لا تعرفونهم بأعيانهم (الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم) يوفر عليكم جزاؤه (وأنتم لا تظلمون) فى الجزاء بل تعطون على التمام (وان جنحوا) مالوا اجنح له واليه مال (للسلم) للصلح ويكسر السين أبو بكر وهو مؤنث بأنث ضدها وهو الحرب (فاجنح لها) فمل اليها

سنة كاملة وان كانت القوة للمشركين جازان يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم انهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة وقوله تعالى (وتوكل على الله) يعني فوض أمرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك في جميع أحوالك (انه هو السميع) يعني لاقوالهم (العليم) يعني بأحوالهم قوله عز وجل (وان يريدوا ان يخدعوك) يعني يغدروا بك فارتجاهد يعني بني قريظة والمعنى وان أرادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم (فان حسبك الله) يعني فان الله كافيك بنصره ومعونته (هو الذي أيدك بنصره) يعني هو الذي قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفي سائر أيامك (وبالمؤمنين) يعني وأيدك بالمؤمنين يعني الانصار فان مات اذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذي أيدك بنصره لان أسبابه باطنة غير معلومة وأما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان أسبابه ظاهرة بريد أنه وهب المؤمنين والله سبحانه وتعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي ألفهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وذلك ان العرب كانت بينهم الحمية الشديدة والانفة العظيمة وليس في نفوس القوم العصبية والانصار على الضد منهم من أدنى شئ حتى ان رجلا من قبيلة لطم رجلا من قبيلة قال عند أهل قبيلته حتى يدركه ثأره فلهم لا يكاد يتألف منهم اثنان الا نادرا فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا به وصدقوه واتبعوه فألبت تلك الحمية والانفة قلوبهم واجتمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك النعرات والتحاسد بالمودة والاخوة فصاروا بنعمة الله واخوانا وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها وكانوا أعداء الرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا قاتلوا من عنده وصحبوه وهم الاوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والالفة وهذا أمر لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه وفيه قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فاغناكم الله بي وفي الآية دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد وذلك لان تلك الالفة والمحبة انما حصلت بسبب الايمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله (انه عزيز حكيم) يعني انه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف في القلوب فيقلبها من العداوة الى المحبة ومن النفرة الى الالفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست

(وتوكل على الله) ولا تخف من ابطانهم المكر في جنوحهم الى السلم فان الله كافيك وعاصمك من مكرهم (انه هو السميع) لاقوالك (العليم) باحوالك (وان يريدوا أن يخدعوك) بمكروا وبغدروا (فان حسبك الله) كافيك الله (هو الذي أيدك) قواك (بنصره وبالمؤمنين) جميعا أو بالانصار (وألف بين قلوبهم) قلوب الاوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة (لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أي بلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق في اصلاح ذات بينهم منفق في اصلاح ذات بينهم ما في الارض من الاموال لم يقدر عليه (ولكن الله ألف بينهم) بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته فاحدث بينهم التوادد والتحابب واماط عنهم التباغض والتماقت (انه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) الواو بمعنى مع وما بعده منصوب والمعنى كفاك وكفى اتباعك من المؤمنين الله ناصرا او يجوز ان يكون في محل الرفع أي كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين قيل أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة

وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال فعلى هذا القول أراد بقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين يعني الى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الانصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والانصار ومعنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبوعك من المؤمنين قوله عز وجل (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) يعني حثهم على قتال عدوهم والتحريض في اللغة الحث على الشيء بكثرة التزيين وتسهيل الحطب فيه كأنه في الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك (ان يكن منكم عشرون) يعني رجلا (صابرون) يعني عند اللقاء محتسبين أنفسهم (يغلبوا مائتين) يعني من عددهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الامر فكأنه تعالى قال ان يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على ان المراد بهذا الخبر الامر قوله الآن خفف الله عنكم لان النسخ لا يدخل على الاخبار انما يدخل على الامر فدل ذلك على ان الله سبحانه وتعالى أوجب أولا على المؤمنين هذا الحكم وانما حسن هذا التكليف لان الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر هان عليه الثبات مع الاعداء (وان يكن منكم مائة) يعني صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار وذلك (بانهم قوم لا يفقهون) يعني ان المشركين لا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا اصدقتموهم في القتال فانهم لا يثبتون معكم (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) (خ) عن ابن عباس قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين وفي رواية أخرى عنه قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا أن قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم في الآية الاولى وكان هذا الامر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفا يعني في قتال الواحد للعشرة فان تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله فرد من العشرة الى الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم ان يفروا فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) يعني بالنصرة والمعونة قال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك قوله تعالى (ما كان

على الامر من الحرض وهو أن يهلكه المرض حتى يشفي على الموت (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) هذه عدة من الله وبشارة بان الجماعة من المؤمنين ان صبروا غلبوا عشرة امثالهم من الكفار بعون الله وتأييده (بانهم قوم لا يفقهون) بسبب ان الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله قيل كان عليهم ان لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ضعفا عاصم وحمزة (فان يكن منكم مائة صابرة) بالياء فيهما كوفي وافقه البصري في الاولى والمراد الضعف في البدن (يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) وتكرير مقاومة الجماعة لا كثرمنها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على ان الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت اذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والالف الالفين (ما كان

 في المائتين والمائة الالف وكذلك بين مقاومة المائة

لنبي أن تكون له أسرى) روى عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم بدر وجيء بالاسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون في هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك قدمهم فاضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود الا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما رأيتني في يوم أخوف ان تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل عليه ما كان لنبي ان تكون له أسرى حتى يثخن في الارض الآية أخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي وأخرج مسلم في افراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الاسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الاسارى فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى ان تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم الى الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى ان تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة

(لنبي) ما صح له ولا استقام (ان يكون له أسرى) ان تكون بدري

الكفر وصناديده فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ابو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان فقلت يا رسول الله اخبرنى من اى شئ تبكى انت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبى الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض الى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدى فى مسنده عن عمر ابن الخطاب من افراد مسلم زيادة فيه أما تفسير الآية فقوله تعالى ما كان لنبى أن يكون له أسرى يعنى ما كان ينبغى ولا يجب لنبى وقال أبو عبيدة معناه لم يكن لنبى ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبى أن يحبس كافرا قدر عليه وصار فى يده أسيرا للفداء والمن والاسرى جمع أسير واسارى جمع الجمع (حتى يثخن فى الارض) الاثخان فى كل شئ عبارة عن قوته وشدته يقال أثخنه المرض اذا اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ فى قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فاذا حصل ذلك فله أن يقدم على الاسر فيأسر الاسارى (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يعنى تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا باخذكم الفداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانه لا ثبات لها ولا دوام فكانها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فانها دائمة لا انقطاع لها وقوله سبحانه وتعالى (والله يريد الآخرة) يعنى انه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لانها دائمة بلا زوال ولا انقطاع (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) يعنى فى تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى فى الاسارى فاما منا بعد واما فداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا استعبدوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا أعتقوهم قال الامام فخر الدين ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما فداء نزيل حكم الآية التى نحن فى تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لا يجوز تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم

(فصل) قد استدل بهذه الآية من يقدح فى عصمة الانبياء وبيانه من وجوه الاول ان قوله ما كان لنبى أن يكون له أسرى صريح فى النهى عن أخذ الاسارى وقد وجد ذلك يوم بدر الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم الوجه الثالث ان النبى صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب الوجه الرابع ان النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان لاجل أخذ الفداء

والكثافة يعنى حتى يذل الكفر باشاعة القتل فى أهله ويعز الاسلام بالاستيلاء والقهر ثم الاسر بعد ذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه وعقيل فاستشار النبى عليه السلام ابا بكر فيهم فقال قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر رضى الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه السلام مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم حيث قال ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا باحد فلما أخذوا الفداء نزلت الآية (تريدون عرض الدنيا) متاعها يعنى الفداء سماه عرضا لقلة بقائه وسرعة فنائه (والله يريد الآخرة) أى ما هو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالاثخان فى القتل (والله عزيز) بقهر الاعداء (حكيم) فى عتاب الاولياء

(لولا كتاب من الله) لولا حكم من الله (سبق) ان لا يعذب أحدا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادا منهم لانهم نظروا فى ان استبقاءهم ربما كان سببا للاسلام واهيب لمن وراءهم اوما كتب الله فى اللوح أن لا يعذب اهل بدر او كان لا يؤاخذ قبل البيان والاعذار وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكرى القياس كتاب مبتدأ ومن الله صفته أى لولا كتاب ثابت من الله وسبق صفة اخرى له وخبر المبتدا محذوف اى لولا كتاب بهذه الصفة فى الوجود وسبق لا يجوز أن يكون خبرا لان لولا لا يظهر خبرها ابدا (لمسكم) لنالكم واصابكم (فيما اخذتم) من فداء الاسرى (عذاب عظيم) روى ان عمر رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وابو بكر يبكيان فقال يارسول الله اخبرنى فان وجدت بكاء بكيت وان لم اجد بكاء تباكيت فقال ابكى على اصحابك فى اخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم ادنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى انه عليه السلام قال لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ لانه كان الاثخان فى القتل احب الى (فكلوا مما غنمتم) روى انهم امسكوا عن الغنائم ولم يمدوا ايديهم اليها فنزلت وقيل هو اباحة للفداء لانه من جملة الغنائم والفاء لتسبيب والسبب محذوف ومعناه قد أحللت لكم الغنائم فكلوا (حلالا) مطلقا عن العتاب والعقاب بهذه من حل العقال وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا (طيبا) لذيذا هنيأ أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع

وخوف العذاب وقرب نزوله والجواب عن الوجه الاول ان قوله سبحانه وتعالى ما كان لنبى ان تكون له اسرى حتى يثخن فى الارض يدل على انه كان الاسر مشروعا ولكن بشرط الاثخان فى الارض وقد حصل لان الصحابة رضى الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الاثخان فى الارض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الاسر بعد الاثخان وقد حصل والجواب عن الوجه الثانى ان الامر بالقتل انما كان مختصا بالصحابة لاجماع المسلمين ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه واذا ثبت ان الامر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لا من النبى صلى الله عليه وسلم والجواب عن الوجه الثالث وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم ان أخذ الفداء كان محرما واما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الاسارى والمبادرة اليه ولا يدل على تحريم الفداء اذ لو كان حراما فى علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا والجواب عن الوجه الرابع وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل ان يكون لاجل أن بعض الصحابة لما خالف الامر بالقتل واشتغل بالاسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبى صلى الله عليه وسلم خوفا واشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الاسر وأخذ الفداء والله أعلم قوله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الانبياء والامم فكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر اسرع المؤمنون فى أخذ الغنائم والفداء فانزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق يعنى لولا قضاء من الله سبق فى اللوح المحفوظ بانه يحل لكم الغنائم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا من شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق انه لا يضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وانه لا ياخذ قوما فعلوا جهلا الا بعد النهى لاصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل ان تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد من حضر بدرا الا وأحب الغنائم الا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ فانه قال يارسول الله كان الاثخان فى القتل أحب الى من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) يعنى فقد أحللت لكم الغنائم واخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا روى انه لما نزلت الآية الاولى كف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ايديهم عما اخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنائم

بهذه الآية لهذه الامة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الامم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي (ق) عن ابي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم احل الله لنا الغنائم وذلك بان الله رأى ضعفنا وعجزنا فاحلها لنا وقوله سبحانه وتعالى واتقوا الله ان الله غفور رحيم) يعني وخافوا الله ان تعودوا وان تفعلوا شيأ من قبل أنفسكم قبل ان تاموا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما اقدمتم عليه من هذا الذنب ورحيم وقيل في قوله واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية قوله سبحانه وتعالى (يا ايها النبي قل لمن في ايديكم) نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فاراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيأ وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين اوقية من فدائه فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا اتركه لك وكلف فداء ابني اخيه عقيل ابن ابي طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تتركني اتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين الذهب الذي دفنته ام الفضل وقلت خرجت من مكة وقلت لها اني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فان حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم يعني بنيه فقال العباس وما يدريك يا ابن أخي قال اخبرني به ربي قال العباس اشهد انك لصادق وأشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله لم يطلع عليه احد الا الله وأمر ابني اخيه عقيلا ونوفل ابن الحرث فاسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبي قل لمن في ايديكم (من الاسرى) يعني الذين أسرتموهم واخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) يعني ايمانا وتصديقا (يؤتكم خيرا مما اخذ منكم) يعني من الفداء (ويغفر لكم) يعني ما سلف منكم قبل الايمان (والله غفور) يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) يعني باهل طاعته قال العباس فابدلني الله خيرا مما اخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير اداناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية واعطاني زمزم وما أحب ان لي بها جميع أموال اهل مكة وانا انتظر المغفرة من ربي عز وجل وقوله تعالى (وان يريدوا) يعني الاسارى (خيانتك) يعني ان يكفروا بك (فقد خانوا الله) يعني فقد كفروا بالله (من قبل) وقيل معناه وان نقضوا العهد ورجعوا الى الكفر فقد خانوا الله بذلك (فامكن) يعني فامكن الله المؤمنين (منهم) يوم بدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الامكان وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بانه يتمكن من كل احد يخونه أو ينقض عهده (والله عليم) يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد (حكيم) يعني حكم بانه يجازي كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب قوله عز وجل (رحيم) باحلال ما غنمتم (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم) في ملكتكم كأن ايديكم قابضة عليهم (من الاسرى) جمع أسير من الاساري أبو عمرو وجمع أسرى (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء اما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة (ويغفر لكم والله غفور رحيم) روى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس ان ياخذ منه فاخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني وارجو المغفرة وكان له عشرون عبدا وان أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وكان يقول أنجز الله احد الوعدين وانا على ثقة من الآخر (وان يريدوا) اي الاسرى (خيانتك) بنكث ما بايعوك عليه من الاسلام بالردة أو منع ما ضمنوا من الفداء (فقد خانوا الله من قبل) في كفرهم به ونقض ما اخذ على كل عاقل من ميثاقه (فامكن منهم) فامكنك منهم اي اظفرك بهم كما أيتم يوم بدر فسيمكن منهم ان عادوا الى الخيانة (والله عليم) بالمآل (حكيم) فيما أمر في الحال

(ان الذين آمنوا وهاجروا) من مكة حبا لله ورسوله (وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله) هم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أى آووهم الى ديارهم ونصروهم على اعدائهم وهم الانصار (اولئك بعضهم اولياء بعض) أى يتولى بعضهم بعضا فى الميراث وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة دون ذوى القرابات حتى نسخ ذلك بقوله واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض وقيل أراد به النصرة والمعاونة (والذين آمنوا ولم يهاجروا) من مكة (مالكم من ولايتهم) من توليهم فى الميراث ولايتهم حمزة وقيل هما واحد ٢٧٠ (من شئ حتى يهاجروا) فكان لا يرث المؤمن الذى لم يهاجر من آمن وهاجر وما بقى للذين لم يهاجروا اسم الايمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها من الكبائر الكبيرة لا يخرج من الايمان (وان استنصروكم) أى من أسلم ولم يهاجر (فى الدين فعليكم النصر) أى ان وقع بينهم وبين الكفار قتال وطلبوا معونته فواجب عليكم ان تنصروهم على الكافرين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فانه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لانهم لا يبتدؤن بالقتال اذا الميثاق مانع من ذلك (والله بما تعملون بصير) تحذير عن تعدى حد الشرع (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) ظاهره اثبات الموالاة بينهم ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم واجتناب مباعدتهم ومصارمتهم وان كانوا أقارب وان يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال (الا تفعلوه) أى ان لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا حتى فى التوارث تفضيلا للنسبة الاسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة (تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) تحصل فتنة فى الارض ومفسدة عظيمة لان المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) لانهم صدقوا ايمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن والاسلاح من المال والدنيا لاجل الدين والعقبى

(ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) يعنى ان الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعنى وهجروا ديارهم وقومهم فى ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الاولون وجاهدوا يعنى وبذلوا أنفسهم فى سبيل الله يعنى فى طاعة الله وابتغاء رضوانه (والذين آووا ونصروا) يعنى آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه من المهاجرين واسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الانصار (اولئك) يعنى المهاجرين والانصار (بعضهم أولياء بعض) يعنى فى العون والنصر دون اقربائهم من الكفار وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون اقربائهم وذوى ارحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالارحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعنى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) يعنى من الميراث (حتى يهاجروا) يعنى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) يعنى ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر) يعنى فعليكم نصرهم واعانتهم (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) يعنى فى النصر والمعونة وذلك ان كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعنى فى الميراث وهو أن يرث الكفار بعضهم من بعض (الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) قال ابن عباس الا تأخذوا فى الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج الا تتعاونوا تناصروا وقال ابن اسحق جعل الله المهاجرين والانصار أهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى الا تفعلوه وهو ان يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة فى الارض وفساد كبير فالفتنة فى الارض هى قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) يعنى لا شك فى ايمانهم ولا ريب لانهم حققوا ايمانهم

ايمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال فى نصر الدين (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى فى الجنة * فان قلت ما معنى هذا التكرار * قلت ليس فيه تكرار لانه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى حكم ولاية المهاجرين والانصار بعضهم بعضا ثم ذكر فى هذه الآية ما من به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل ان اعادة الشئ مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولا ثم أعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لانه تعالى ذكر فى هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة أنواع احدها قوله أولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محققين فى طريق الدين وتحقيق هذا القول أن من فارق أهله وداره التى نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمنا حقا النوع الثانى قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على أن لهم مغفرة وأى مغفرة لا يناله غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم النوع الثالث قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شئ شرف وعظم فى بابه قيل له كريم والمعنى ان لهم فى الجنة رزقا لا تلحقهم فيه غضاضة ولا تعب وقيل ان المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولا الى المدينة وهم المهاجرون الاولون ومنهم من هاجر الى أرض الحبشة ثم هاجر الى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله فى الآية الاولى أصحاب الهجرة الاولى وذكر فى الثانية أصحاب الهجرة الثانية والله أعلم بمراده وقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلفوا فى قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهى الهجرة الثانية وقيل من بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والاصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الاولى لان الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار اسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية أخرجاه فى الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة ويجاب عن هذا بان المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة الى المدينة فاما من كان من المؤمنين فى بلد يخاف على اظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر الى بلد لا يخاف فيه على اظهار دينه وقوله تعالى (فأولئك منكم) يعنى انه منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الاولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لان الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الاولين أفضل وأشرف لما صح هذا الالحاق وقوله تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض أى فى الميراث فبين بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله فى كتاب الله يعنى فى حكم الله وقيل أراد به فى اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهى ان قسمة المواريث مذكورة

(لهم مغفرة ورزق كريم) لا منة فيه ولا تنغيص ولا تكرار لان هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم والاولى للامر بالتواصل (والذين آمنوا من بعد) يريد اللاحقين بعد السابقين الى الهجرة (وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) جعلهم منهم تفضلا وترغيبا (وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض) واولوا القرابات اولى بالتوارث وهو ناسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (فى كتاب الله) فى حكمه وقسمته أو فى اللوح او فى القرآن وهو آية المواريث وهو دليل لنا على توريث ذوى الارحام

(ان الله بكل شئ عليم) فيقضى بين عباده بما شاء من أحكامه قسم الناس أربعة اقسام قسم آمنوا وهاجروا وقسم آمنوا ونصروا وقسم آمنوا ولم يهاجروا وقسم كفروا ولم يؤمنوا

(سورة التوبة مدنية وهى مائة وتسع وعشرون آية كوفى ومائة وثلاثون غيره)

لها أسماء براءة التوبة المقشقشة المبعثرة المثيرة الحافرة المنكلة المدمدمة لان فيها التوبة على المؤمنين وهى مقشقشة من النفاق اى تبرئ منه وتبعثر عن اسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتنغصهم وتدمدم عليهم وفى ترك التسمية فى ابتدائها أقوال فعن على وابن عباس رضى الله عنهم ان بسم الله امان وبراءة نزلت لرفع الامان وعن عثمان رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نزلت عليه سورة أو آية قال اجعلوها فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا اين نضعها وكانت قصتها تشبه قصة الانفال لان فيها ذكر العهود وفى براءة نبذ العهود فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابعة من الطوال وهى سبع وقيل اختلف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم الانفال وبراءة سورة واحدة نزلت فى القتال وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة

فى سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الامام أبى حنيفة بهذه الآية فى توريث ذوى الارحام وأجاب عنه الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه بانه لما قال فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بينه فى سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالاحكام التى ذكرها فى سورة النساء من قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقى فللعصبات وقوله سبحانه وتعالى (ان الله بكل شئ عليم) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بكل شئ لا تخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة التوبة)

وهى مدنية باجماعهم قال ابن الجوزى سوى آيتين فى آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فانهما نزلتا بمكة وهى مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعمائة وثمان وثمانون حرفا ولهذه السورة أسماء عشرة سورة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهى المقشقشة قال ابن عمر سميت بذلك لانها تقشقش من النفاق أى تبرئ منه وهى المبعثرة لانها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قال ابن عباس لانها فضحت المنافقين وسورة العذاب قال حذيفة وهى المخزية لان فيها خزى المنافقين وهى المدمدمة سميت بذلك لان فيها هلاك المنافقين وهى المشردة سميت بذلك لانها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهى المثيرة سميت بذلك لانها أثارت مخازى المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هى الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد الا ذكر فيها قال قلت سورة الانفال قال نزلت فى بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بنى النضير أخرجاه فى الصحيحين

(فصل فى بيان سبب ترك كتابة التسمية فى أول هذه السورة) عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية تقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت انها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذى بينهما ان فى الانفال ذكر العهود وفى براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد ابن الحنفية قلت لابى يعنى على بن أبى طالب لم لم تكتبوا فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم

(براءة) خبر مبتدا محذوف اى هذه براءة (من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) من لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة كما فى قولك برئت من الدين أى هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم كما تقول كتاب من فلان الى فلان او مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر الى الذين عاهدتم كقولك رجل من بنى تميم فى الدار والمعنى ان الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وانه منبوذ اليهم (فسيحوا ٢٧٣ فى الارض أربعة أشهر) فسيروا

قال يا بنى ان براءة نزلت بالسيف وان بسم الله الرحمن الرحيم أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لان التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت فى المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لان التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبى بن كعب عن هذا فقال انها نزلت فى آخر القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر فى كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر فى براءة بذلك فضمت الى الانفال لشبهها بها وقيل ان الصحابة اختلفوا فى ان سورة الانفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لانهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) يعنى هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة فى اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة اى انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف ويعملون المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى واما تخافن من قوم خيانة الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به ونبذ اليهم عهودهم قال الزجاج أى قد برئ الله ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذا نكثوا (الى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وان كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم الا انه هو الذى عاقدهم وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا وقوله سبحانه وتعالى (فسيحوا فى الارض) أى فسيروا فى الارض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المشركين وأصل السياحة الضرب فى الارض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الانبارى قوله فسيحوا فيه مضمر أى قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعنى سيحوا فى الارض وأنتم آمنون من القتل والقتال (أربعة أشهر) يعنى مدة أربعة أشهر واختلف العلماء فى هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله

فى الارض كيف شئتم والسيح السير على مهل روى انهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا الا ناسا منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فبقد العهد الى الناكثين وأمروا ان يسيحوا فى الارض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرض لهم وهى الاشهر الحرم فى قوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين وذلك لصيانة الاشهر الحرم من القتل والقتال فيها وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن أسيد وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها الى أبى بكر فقال لا يؤدى عنى الا رجل منى فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فلما كان قبل الترويه خطب أبو بكر

٣٥ ن نى وحثهم على مناسكهم وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس انى رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا فقر أعليهم ثلاثين أو اربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك يا على أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف والاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة

اليهم من العهود التى كانت بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه الى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه الى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود جعله باربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث أدرك و يؤسر الا أن يتوب و يرجع الى الايمان وقيل ان المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا و يحتاطوا لانفسهم و يعلموا انه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام وثالثها سبب المسلمون الى الغدر وكثر العهد وكان ابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فاما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما قال الزهرى الاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لان هذه الآية نزلت فى شوال والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون وقال الكلبى انما كانت الاربعة اشهر عهدا لمن كان له عهد دون الاربعة أشهر فاتم له الاربعة أشهر فاما من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فهذا امر باتمام عهده بقوله تعالى فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسىء ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض فرجع الامر الى ما كان عليه فى بدء الخلق وصار الحج فى ذى الحجة وقال الحسن امر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لا يقاتل الا من قاتله ثم امره بقتال المشركين والبراءة منهم واجلهم اربعة اشهر فلم يكن لاحد منهم اجل اكثر من اربعة اشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الاجل لجميعهم اربعة اشهر واحل دماء جميعهم من اهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الاجل وقال محمد ابن اسحق ومجاهد وغيرهما نزلت فى اهل مكة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على ان يضعوا الحرب عشر سنين يامن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم واعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

لاهم انى ناشد محمدا * حلف ابينا وابيه الاتلدا
كنت لنا اباو كنا ولدا * ثمت اسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا ابدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
ابيض مثل الشمس يسمو صعدا * ان شيم خالف وجهه تربدا
ان قريشا اخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وزعموا أن لست تنجي احدا * وهم اذل وأقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا * وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نصرت ان لم أنصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا احب ان أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر في تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره ان يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يا رسول الله بالي أنت وأمي أنزل في شأني شيء فقال لا ولكن لا ينبغي لاحد ان يبلغ هذا الا رجل من أهلي اما ترضى يا أبا بكر انك كنت معي في الغار وانك معي على الحوض قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحاج وعلي بن أبي طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فاقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج حتى اذا كان يوم النحر قام على ابن أبي طالب رضي الله عنه فاذن في الناس بالذي امر به وقرأ عليهم اول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا بأي شيء بعثت في الحجة قال بعثت باربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ومن لم يكن له عهد فاجله اربعة اشهر ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن ابي هريرة ان ابا بكر بعثه في الحجة التي امره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ثم اردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن ابي طالب فامره ان يؤذن ببراءة قال ابو هريرة فأذن معنا في اهل منى ببراءة ان لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ويوم الحج الاكبر يوم النحر والحج الاكبر انما قيل الحج الاكبر من اجل قول الناس للعمرة الحج الاصغر فنبذ ابو بكر الى الناس في ذلك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وانزل الله في العام الذي نبذ فيه ابو بكر الى المشركين يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله الآية

(فصل) قد يتوهم متوهم ان في بعث علي بن ابي طالب بقراءة اول براءة عزل ابي بكر عن الامارة وتفضيله على ابي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على ان ابا بكر لم يزل اميرا على الموسم في تلك السنة اول حديث ابي هريرة المتقدم ان ابا بكر بعثه في رهط يؤذنون في الناس الحديث وفي لفظ ابي داود والنسائي قال بعثني ابو بكر فيمن يؤذن في يوم النحر بمنى ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثني ابو بكر

والمحرم أو عشرون من ذي الحجة وكانت حرما لانهم أو منوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها والجمهور على اباحة القتال في الاشهر الحرم وان ذلك قد نسخ (واعلموا انكم غير معجزي الله) لا تفوتونه وان أمهلكم (وأن الله مخزي الكافرين) مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب (وأذان من الله ورسوله الى الناس) ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ثم الجملة معطوفة على مثلها والأذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما أن الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء والفرق بين الجملة الاولى والثانية أن الاولى اخبار بثبوت البراءة والثانية اخبار بوجود الاعلام بما ثبت وانما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس لان البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم واما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) يوم عرفة لان الوقوف بعرفة معظم افعال الحج أو يوم النحر لان فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر

فيه دليل على ان أبا بكر كان هو الامير على الناس وهو الذي اقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن في الناس ببراءة بان عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه الا سيد القبيلة أو كبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب الى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لانه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة ازاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذه الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل انما بعث عليا في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على امامة أبي بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لان النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر أميرا على الحاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الامام وعلي المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلي المستمع وكان أبو بكر المتولي أمر الموسم والامير على الناس ولم يكن ذلك لعلي فدل ذلك على تقديم أبي بكر على علي وفضله عليه والله أعلم وقوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزي الله) يعني ان هذا الامهال ليس لعجز منكم ولكن لمصلحة ونطف بكم ليتوب تائب وقيل معناه فسيحوا في الارض أربعة أشهر عالمين انكم لا تعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لانكم في ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه انما امهلكم هذه المدة لانه لا يخاف الفوت ولا يعجزه شئ (وأن الله مخزي الكافرين) يعني بالقتل والعذاب في الآخرة قوله عز وجل (وأذان من الله ورسوله) الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة لانه اعلام بدخول وقتها والمعنى واعلام صادر من الله ورسوله واصل (الى الناس يوم الحج الاكبر) اختلفوا في يوم الحج الاكبر فروى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن علي بن أبي طالب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر اخرجه الترمذي وقال ويروى موقوفا عليه وهو اصح وعن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال اي يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر اخرجه ابو داود ويروى ذلك عن عبد الله بن ابي اوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي وروى ابن جريج عن مجاهد ان يوم الحج الاكبر ايام منى كلها وكان سفيان الثوري يقول يوم الحج الاكبر ايام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمن كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحروب دامت في تلك الايام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله ابن الحرث بن نوفل يوم الحج الاكبر الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الاكبر القران لانه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهري والشعبي

(أن الله برئ من المشركين) أى بان الله حذفت صلة الاذان تخفيفا (ورسوله) عطف على المنوى فى برئ أو على الابتداء وحذف الخبر أى ورسوله برئ وقرئ بالنصب عطفا على اسم ان والجر على ٢٧٧ الجوار أو على القسم كقوله لعمرك وحكى أن

وعطاء الحج الاكبر الحج والحج الاصغر العمرة وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل سمى الحج الاكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر فى خطبته ان الزمان قد استدار وأبطل النسىء وجميع أحكام الجاهلية وقوله سبحانه وتعالى (أن الله برئ من المشركين ورسوله) فيه حذف والتقدير وأذان من الله ورسوله بان الله برئ من المشركين وانما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفى رفع رسوله وجوه الاول انه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير ان الله برئ من المشركين ورسوله أيضا برئ الثانى تقديره برئ الله ورسوله من المشركين الثالث ان الله فى محل الرفع بالابتداء وبرئ خبره ورسوله عطف على المبتدا فان قلت لا فرق بين قولك براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين وبين قوله ان الله برئ من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار * قلت المقصود من الآية الاولى البراءة من العهود ومن الآية الثانية البراءة التى هى نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذى يدل على صحة هذا الفرق انه قال فى أولها براءة من الله ورسوله الى يعنى برئ اليهم وفى الثانية برئ منهم وقوله تعالى (فان تبتم) يعنى فان رجعتم عن شركك وكفركم (فهو خير لكم) يعنى من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) يعنى أعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) فيه وعيد عظيم واعلام لهم بان الله سبحانه وتعالى قادر على انزال العذاب بهم وهو قوله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يعنى فى الآخرة ولفظ البشارة هنا انما ورد على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم قوله سبحانه وتعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) هذا الاستثناء راجع الى قوله تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين يعنى الا من عهد الذين عاهدتهم من المشركين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيئا) يعنى من عهودهم التى عاهدوهم عليها (ولم يظاهروا) يعنى ولم يعاونوا (عليكم أحدا) يعنى من عدوكم وقال صاحب الكشاف وجهه أن يكون مستثنى من قوله فسيحوا فى الارض لان الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا فى الارض الا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم (فاتموا اليهم عهدهم) والاستثناء بمعنى الاستدراك كانه قيل لهم بعد ان أمروا فى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فاتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفى كالغادر (ان الله يحب المتقين) يعنى ان قضية التقوى تقتضى أن لا يسوى بين القبيلتين يعنى الوافى بالعهد والناكث له والغادر

اعرابيا سمع رجلا يقرؤها فقال ان كان الله برئيا من رسوله فانا منه برىء فبلغه الرجل الى عمر فحكى الاعرابى قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية (فان تبتم) من الكفر والغدر (فهو) أى التوبة (خير لكم) من الاصرار على الكفر (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولى والاعراض عن الاسلام (فاعلموا انكم غير معجزى الله) غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من قوله فسيحوا فى الارض والمعنى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا الا الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط العهد أى وفوا بالعهد ولم ينقضوه وقرئ لم ينقضوكم أى عهدكم وهو أليق لكن المشهور أبلغ لانه فى مقابلة التمام (ولم يظاهروا عليكم أحدا) ولم يعاونوا عليكم عدوا (فاتموا اليهم عهدهم) فادوه اليهم تاما كاملا (الى مدتهم) الى تمام مدتهم والاستثناء بمعنى الاستدراك كانه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين لكن الذين

لم ينكثوا فاتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفى كالغادر (ان الله يحب المتقين) يعنى ان قضية التقوى ان لا يسوى بين الفريقين فاتقوا الله فى ذلك .

(فاذا انسلخ) مضى وخرج (الاشهر الحرم) التى أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا (فاقتلوا المشركين) الذين نقضوكم وظاهروا عليكم (حيث وجدتموهم) من حل أو حرم (وخذوهم) وأسروهم والاخذ الاسر (واحصروهم) وقيدوهم وامنعوهم من التصرف فى البلاد (واقعدوا لهم كل مرصد) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف (فان تابوا)

فيه قوله سبحانه وتعالى (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) يعنى فاذا انقضت الاشهر الحرم ومضت وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن اسحق هى شهور العهد سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فاجله الى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوما وقيل انما قيل لها حرم لان الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم * فان قلت على هذا القول هذه المدة وهى الخمسون يوما بعض الاشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فاذا انسلخ الاشهر الحرم * قلت لما كان هذا القدر من الاشهر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجميع والمعنى فاذا مضت المدة المضروبة التى يكون معها انسلاخ الاشهر الحرم (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يعنى فى الحل والحرم وهذا أمر اطلاق يعنى اقتلوهم فى أى وقت وأى مكان وجدتموهم (وخذوهم) يعنى وأسروهم (واحصروهم) أى واحبسوهم قال ابن عباس يريد ان تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف فى بلاد الاسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) يعنى على كل طريق والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو من رصدت الشئ أرصده اذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من أى وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها (فان تابوا) يعنى من الشرك ورجعوا الى الايمان (وأقاموا الصلاة) يعنى وأتموا أركان الصلاة المفروضة (وآتوا الزكاة) الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم (فخلوا سبيلهم) يعنى الى الدخول الى مكة والتصرف فى بلادهم (ان الله غفور) يعنى لمن تاب ورجع من الشرك الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة (رحيم) يعنى بأوليائه وأهل طاعته وقال الحسن بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) يعنى وان استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم ليسمع كلام الله الذى أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب ان آمن وما عليه من العقاب ان أصر على الكفر (ثم أبلغه مامنه) يعنى ان لم يسلم أبلغه الى الموضع الذى يأمن فيه وهو دار قومه وان قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله (ذلك بانهم قوم لا يعلمون) أى لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم يحتاجون الى سماع كلام الله عز وجل قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد أى لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه

عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) فاطلقوا عنهم بعد الاسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم (ان الله غفور) يستر الكفر والغدر بالاسلام (رحيم) برفع القتل قبل الاداء بالالتزام (وان أحد من المشركين استجارك فاجره) أحد مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أى وان استجارك أحد استجارك والمعنى وان جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الاشهر لا عهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ما تدعو اليه من التوحيد والقرآن فامنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة الامر (ثم أبلغه) بعد ذلك (مامنه) داره التى يأمن فيها ان لم يسلم ثم قاتله ان شئت وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى وليس له الاقامة فى دارنا ويمكن من العود (ذلك) أى الامر بالاجارة فى قوله فأجره (بانهم قوم لا يعلمون) بسبب انهم قوم جهلة لا يعلمون ما الاسلام وما حقيقة ما تدعو اليه فلا بد من اعطائهم الامان حتى يسمعوا ويفهموا الحق (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) كيف استفهام فى معنى الاستنكار أى يستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا فى ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا فى قتلهم ثم استدرك ذلك بقوله

وتعالى (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدى ومحمد ابن عباد ومحمد بن اسحق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بنى بكر كانوا دخلوا فى عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة (فما استقاموا لكم) يعنى على العهد (فاستقيموا لهم) يعنى ما أقاموا على العهد ثم انهم لم يستقيموا ونقضوا العهد واعانوا بنى بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم اما أن يسلموا أما ان يلحقوا بأى الأدشاؤا فاسلموا بعد الاربعة الاشهر والصواب من ذلك قول من قال انهم قبائل من بنى بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد الا قريش وبنو الديل من بنى بكر فامر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وانما كان الصواب هذا القول لان هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لان بعد الفتح كيف يقول لشئ قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وانما هم الذين قال الله عز وجل فيهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بنى بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) يعنى انه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد اذا عاهدوا ويتقون نقضه (كيف وان يظهروا عليكم) قيل هذا مردود على الآية الاولى تقديره كيف يكون لهم عهد وان يظهروا عليكم (لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة) وقال الاخفش معناه كيف لا تقتلونهم وهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم ويعلوكم يعلوا عليكم لا يرقبوا أى لا يحفظوا وقيل معناه لا ينتظروا وقيل معناه لا يراعوا فيكم الا قال ابن عباس يعنى قرابة وقيل رحما وهذا معنى قول ابن عباس أيضا وقال قتادة الال الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة وانما كررلتا كيد أو لاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الال هو الله عز وجل ومنه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب ان هذا الكلام لم يخرج من ال يعنى من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه ولا يراعونه ولا ذمة يعنى ولا يحفظون عهدا (يرضونكم بافواههم وتابى قلوبهم) يعنى يطيعونكم بألسنتهم بخلاف ما فى قلوبهم (وأكثرهم فاسقون) فان قلت ان الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر اخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق فى معرض الذم وما الفائدة فى قوله وأكثرهم فاسقون مع ان الكفار كلهم فاسقون قلت قد يكون الكافر عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا خبيث الفسق فى دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا فى العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ فى الذم وانما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لان منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون وقوله تعالى (اشتروا

(الا الذين عاهدتم) أى ولكن الذين عاهدتم منهم (عند المسجد الحرام) ولم يظهر منهم نكث كبنى كنانة وبنى ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم (فما استقاموا لكم) ولم يظهر منهم نكث اى فما أقاموا على وفاء العهد (فاستقيموا لهم) على الوفاء وما شرطية أى فان استقاموا لكم فاستقيموا لهم (ان الله يحب المتقين) يعنى ان التربص بهم من أعمال المتقين (كيف وان يظهروا عليكم) تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى كيف يكون لهم عهد وحالهم انهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق (لا يرقبوا فيكم الا) لا يراعوا حلفا ولا قرابة (ولا ذمة) عهدا (يرضونكم بافواههم) بالوعد بالايمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدا فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) الايمان والوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهد أو متمردون فى الكفر لا مروأة تمنعهم عن الكذب ولا شمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك فى بعض الكفرة من التفادى عنهما (اشتروا) استبدلوا

(باٰيات الله) بالقرآن (ثمنا قليلا) عرضا يسيرا وهو اتباعهم [illegible] الشهوات (فصدوا عن سبيله) فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم (انهم ساء ما كانوا يعملون) أي بئس الصنيع صنيعهم (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) ولا تكرار لان الاول على الخصوص حيث قال فيكم والثاني على العموم لانه قال في مؤمن (واولئك هم المعتدون) المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فاخوانكم) هم فاخوانكم على حذف المبتدا (في الدين) لا في النسب (ونفصل الآيات) نبينها (لقوم يعلمون) يهتمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض كانه قيل وان من تأمل تفصيلها فهو العالم فحرضنا على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها (وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم) أي نقضوا العهود المؤكدة بالايمان (وطعنوا في دينكم) وعابوه (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم وهم رؤساء الشرك أو زعماء قريش الذين هموا باخراج الرسول وقالوا اذا طعن الذمي في دين الاسلام طعنا ظاهرا جاز قتله لان العهد معقود معه على ان لا يطعن فاذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة

أئمة بهمزتين كوفي وشامي الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة أصلها أأمة لانها جمع امام كعماد وأعمدة فنقلت حركة الميم الاولى الى الهمزة الساكنة وادغمت

في الميم الاخرى فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الاصل ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها (انهم لا ايمان لهم) وانما أثبتنا لهم الأيمان في قوله وان نكثوا أيمانهم لانه أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة وهو دليل لنا على ان يمين الكافر لا تكون يمينا ومعناه عند الشافعي رحمه الله انهم لا يوفون بها الان يمينهم عنده حيث وصفها بالنكث لا ايمان شامي أي لا إسلام (لعلهم ينتهون) متعلق بقاتلوا الأئمة الكفر وما بينهما اعتراض أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاؤهم عما هم عليه بعد ما وجد منهم من العظائم وهذا من غاية كرمه على المسيء ثم حرض على القتال فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) التي حلفوها في المعاهدة (وهموا باخراج الرسول) من مكة (وهم بدؤكم) بالقتال والبادئ أظلم فما يمنعكم من ان تقاتلوهم وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب (أتخشونهم) توبيخ على الخشية منهم (فالله أحق أن تخشوه) بان تخشوه فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) فاخشوه أي أن قضية الايمان الكامل ان لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالي بمن سواه ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الامر بقوله (قاتلوهم) ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم وتصح نياتهم بقوله (يعذبهم الله بايديكم) قتلا (ويخزهم) أسرا (وينصركم عليهم) يغلبكم

عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا باخراج الرسول وقيل اراد جميع الكفار وانما ذكر الائمة لانهم الرؤساء والقادة في قتالهم وقتال الاتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ما فوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة اراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فانهم أئمة الكفر في ذلك الزمان والله أعلم بمراده وقوله سبحانه وتعالى (انهم لا أيمان لهم) جمع يمين أي لا عهد لهم وقيل معناه انهم لا وفاء لهم بالعهود وقرئ لا ايمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الامان أي اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم (لعلهم ينتهون) أي لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم ويرجعوا عن الكفر الى الايمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب في ذلك فقال تعالى (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) يعني نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية واعانوا بني بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) يعني من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة (وهم بدؤكم) يعني بالقتال (أول مرة) يعني يوم بدر وذلك انهم قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وقيل أراد به انهم بدؤا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يعني أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله احق أن تخشوه) يعني في ترك القتال (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده وقوله سبحانه وتعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم) يريد بالتعذيب القتل يعني يقتلهم الله بايديكم فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بايديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قلت المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم عذاب الاستئصال يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وأنت فيهم والمراد بقوله فاقتلوهم يعني الذين نقضوا العهد وبدؤا بالقتال فامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم والفرق بين العذابين ان عذاب الاستئصال يتعدى الى المذنب وغير المذنب والى المخالف والموافق وعذاب القتل لا يتعدى الا الى المذنب المخالف وقوله تعالى (ويخزهم) يعني ويذلهم بالقهر والاسر وينزل بهم الذل والهوان (وينصركم عليهم) يعني بان يظفركم بهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعني ويبرئ داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الاذى منهم ومن المعلوم ان من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدي أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر حتى أخذوا ثارهم منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه (ويذهب غيظ قلوبهم) يعني ويذهب وجد قلوبهم مما نالوه من

 في عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) حلفائهم وهم خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويذهب غيظ قلوبهم) لما نالوا منهم من المكروه وقد صدق الله هذه المواعيد كلها فكان دليلا على صحة نبوته

(و يتوب الله على من يشاء) ابتداء كلام واخبار بان بعض أهل مكة يتوب عن كفره وكان ذلك أيضا فقد اسلم ناس منهم كابى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وهى ترد على المعتزلة قولهم ان الله تعالى شاء ان يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باختيارهم (والله عليم) يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان (حكيم) فى قبول التوبة (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أم منقطعة ٢٨٢ والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان أى لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله لوجه الله (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمعنى نفى الوقوع وقد دلت على ان تبين ذلك متوقع كائن وان الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين ولم يتخذوا معطوف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كانه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كقولك ما علم الله فى ما قيل فى زيد ما وجد ذلك منى والمعنى أحسبتم ان تتركوا بلا مجاهدة ولا ابراء من المشركين (والله خبير بما تعملون) من خير وشر فيجازيكم عليه (ما كان للمشركين) ما صح لهم وما استقام (أن يعمروا مساجد الله) مسجد الله مكى وبصرى يعنى المسجد الحرام وانما جمع فى القراءة بالجمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامر جميع المساجد ولان كل بقعة منه مسجد أو أريد جنس المساجد واذا لم يصح الا ان يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ان لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس وهو كذا طريقه بطريق الكناية كما تقول فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفى لقراءته القرآن من تصر بحمل بذلك

بنى بكر روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف الا خزاعة من بنى بكر الى العصر ذكره البغوى بغير سند ثم قال تعالى (و يتوب الله على من يشاء) هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالاول والمعنى ويهدى الله من يشاء الى الاسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه الى الاسلام كما فعل بابى سفيان بن حرب وعكرمة ابن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا (والله عليم) يعنى بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الازلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه الى الاسلام (حكيم) يعنى فى جميع أفعاله قوله عز وجل (أم حسبتم أن تتركوا) هذا من الاستفهام المعترض فى وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدا والمعنى أظننتم أيها المؤمنون ان تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) اراد بالعلم المعلوم لان وجود الشئ يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الامام فخر الدين الرازى ونقل الواحدى عن الزجاج أى العلم الذى يجازى عليه لانه انما يجازى على ما علموا (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم اسرارهم وقال قتادة وليجة يعنى خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء يعنى لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال أبو عبيدة كل شئ أدخلته فى شئ ليس منه فهو وليجة والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة فى القوم اذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهى المؤمنين عن موالاة المشركين وان يفشوا اليهم أسرارهم (والله خبير بما تعملون) يعنى من موالاة المشركين واخلاص العمل لله وحده قوله سبحانه وتعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) يعنى به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضا واعاد ذكره بلفظ الجمع لانه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية ان جماعة من رؤساء كفار قريش اسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل عليهم نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم

نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الاسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين اى ماينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك لان المساجد انما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين أحدهما ان المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها فلو انهدم خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني ان المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمنع الكافر من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن أثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يعني لايدخلون المساجد في حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك ان كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام فلم يزدادوا بذلك من الله الا بعدا وقال الحسن انهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو ان النصراني يسئل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس في رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من أنفسهم (أولئك حبطت أعمالهم) يعني الاعمال التي عملوها في حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني لانها لم تكن لله فلم يكن لها أثر مع الكفر (وفي النار هم خالدون) يعني من مات منهم على كفره قوله عز وجل (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) لما بين الله عز وجل ان الكافر ليس له ان يعمر مساجد الله بين في هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الايمان بالله شرط لمن يعمر المسجد لان المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع ان يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعني وآمن باليوم الآخر وانه حق كأن لان عمارة المسجد لاجل عبادة الله وجزاء أجره انما يكون في الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا فان قلت لم لم يذكر الايمان برسول الله مع ان الايمان به شرط في صحة الايمان قلت ان الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل في الايمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لان من جهته عرف الايمان بالله واليوم الآخر لانه هو الداعي الى ذلك وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فأخبر الله عز وجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما دعا الى الايمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الايمان برسول الله

(شاهدين على أنفسهم بالكفر) باعترافهم بعبادة الاصنام وهو حال من الواو في يعمروا والمعنى ما استقام لهم ان يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته (أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) دائمون (انما يعمر مساجد الله) عمارتها رم ما استرم منها وفرشها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها عما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا لانها بنيت للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم (من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الايمان بالرسول عليه السلام لما علم ان الايمان بالله قرينة الايمان بالرسول لاقترانهما في الاذان والاقامة وكلمة الشهادة وغيرها أو دل عليه بقوله

صلى الله عليه وسلم وقيل انه تبارك وتعالى قال بعد الايمان بالله واليوم الآخر (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أقام الصلاة وآتى الزكوة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان الاعتبار باقامة الصلاة وايتاء الزكاة فى عمارة المساجد ان الانسان اذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لان عمارة المسجد انما تلزم لاقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد الا اذا كان مؤديا للزكاة لان الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الانسان بالنافلة الا بعد كمال الفريضة الواجبة عليه وقوله تعالى (ولم يخش الا الله) يعنى ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس (فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب يعنى واولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التى تؤدى الى الجنة عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان فان الله عز وجل يقول انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية أخرجه الترمذى وقال حديث حسن (ق) عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح النزل مهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا فى الجنة وفى رواية بنى الله له فى الجنة مثله وعن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان أو كبيرا بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه الترمذى عن عمرو بن عبسة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا يذكر الله فيه بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه النسائى قوله سبحانه وتعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام الا ان أعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوم جمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيه فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الى آخرها وقيل قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر ان عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله وان الايمان والجهاد مع نية خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبى ومحمد بن كعب القرظى نزلت فى على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبى شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدى مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال على ما أدرى ما تقولون لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية أجعلتم سقاية الحاج والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهى سقى الحاج وكان العباس ابن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس

(واقام الصلوة وآتى الزكوة) وفى قوله (ولم يخش الا الله) تنبيه على الاخلاص والمراد بالخشية فى أبواب الدين بان لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف اذ المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتأتى ان لا يخشاها وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فاريد نفى تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لاطماعهم فى الانتفاع باعمالهم لان عسى كلها اطماع والمعنى انما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها عند الله دون من سواهم (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولا بد من مضاف محذوف تقديره أجعلتم اهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وقيل المصدر بمعنى الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى انكار ان يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة باعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر لانهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما نزلت جوابا لقول العباس حين اسر فطفق على رضي الله عنه يوبخه بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم تذكر مساوينا وتدع محاسننا فقيل اولكم محاسن فقال نعمر المسجد ونسقي الحاج ونفك العاني وقيل افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلى رضي الله عنه بالاسلام والجهاد فصدق الله تعالى عليا (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم اولئك اعظم درجة عند الله) من اهل السقاية والعمارة (وأولئك هم الفائزون) لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم (يبشرهم ربهم) بشر حزة (برحمة منه ورضوان وجنات) تنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف (لهم فيها) في الجنات (نعيم مقيم) دائم (خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم) لا ينقطع لما أمر الله النبي عليه السلام بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولاخيه ولقرابته انا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع الى ذلك ويحبه ومنهم من تتعلق به زوجته واولاده فيقول تدعنا بلا شئ فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء)

أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعني بناءه وتشييده ومرمته (كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه حذف تقديره كايمان من آمن بالله واليوم الآخر (وجاهد في سبيل الله) أي وكجهاد من جاهد في سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر تقديره أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله (لا يستوون عند الله) يعني لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لان الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملا الا مع الايمان به (والله لا يهدي القوم الظالمين) (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس يا فضل اذهب الى أمك فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقني فقال يا رسول الله انهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعني عاتقه (م) عن بكر بن عبد الله المزني قال كنت حالسا مع ابن عباس عند الكعبة فاتاه اعرابي فقال مالي أرى بني عمكم يستقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل انما قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فاتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله اسامة فقال أحسنتم او أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ ثم ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فان غلى وحمض حرم قوله عز وجل (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) يعني أن من كان موصوفا بهذه الصفات يعني الايمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وانما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الاطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله في الآخرة (وأولئك) يعني من هذه صفتهم (هم الفائزون) يعني بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم ربهم) يعني يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذي يفرح الانسان عند سماعه وتستتبع بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ثم ذكر الخبر الذي يبشرهم به فقال تعالى (برحمة منه ورضوان) وهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده (وجنات لهم فيها نعيم مقيم) يعني ان نعيم الجنة دائم غير منقطع أبدا (خالدين فيها) يعني في الجنان وفي النعيم (أبدا) يعني لا انقطاع له (ان الله عنده أجر عظيم) يعني لمن عمل بطاعته وجاهد في سبيله قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس

ان استحبوا الكفر على الايمان) أى آثروه واختاروه (ومن يتولهم منكم) أى ومن يتول الكافرين (فأولئك هم الظالمون قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) اقاربكم وعشيراتكم أبو بكر (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) فوات وقت نفاقها (ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره) وهو عذاب عاجل أو عقاب آجل اوفتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) والآية تنعى على الناس ماهم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين اذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والابناء والاموال والحظوظ (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وقيل ان المواطن التى نصر الله فيها النبى عليه السلام والمؤمنين ثمانون موطنا وواطن الحرب مقاماتها ومواقفها (ويوم) أى واذكروا يوم (حنين) واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من القلة فساءت رسول الله عليه الصلاة والسلام وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء يعنى بطانة واصدقاء تفشون اليهم اسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهى من آخر القرآن نزولا والاقرب أن يقال ان الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فبين الله أن مقاطعة الرجل أهله واقاربه فى الدين واجبة فالمؤمن لا يوالى الكافر وان كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى (ان استحبوا الكفر على الايمان) يعنى ان اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) يعنى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فانزل الله سبحانه وتعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الادنون من أهل الانسان الذين يعاشرونه دون غيرهم (وأموال اقترفتموها) يعنى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) يعنى بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) يعنى تستوطنونها راضين بسكناها (أحب اليكم من الله ورسوله) يعنى أحب اليكم من الهجرة الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فبين الله سبحانه وتعالى انه يجب تحمل جميع المضار فى الدنيا ليبقى الدين سليما وأخبر انه ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن الجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) أى فانتظروا (حتى يأتى الله بامره) يعنى بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعنى بفتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى الخارجين عن طاعته وفى هذا دليل على أنه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا قوله عز وجل (لقد نصركم الله) النصر المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن كثيرة) يعنى اما كن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة (ويوم حنين) يعنى ونصركم الله فى يوم حنين أيضا فأعلم الله سبحانه وتعالى انه هو الذى يتولى نصر المؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة

هو الى جنب ذى المجاز وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج الى حنين لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة بن عبد يا ليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الانصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش ان نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلة الرجل وفى رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم الى أنفسهم وذكر ابن الجوزى عن سعيد بن المسيب ان القائل لذلك أبو بكر الصديق وحكى ابن جرير الطبرى ان القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد هذه الكلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لانه صلى الله عليه وسلم كان فى جميع أحواله متوكلا على الله عز وجل لا يلتفت الى كثرة عدد ولا الى غيره بل نظره الى ما يأتى من عند الله عز وجل من النصر والمعونة فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الدراري ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا ان الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ف) عن أبى اسحق قال جاء رجل الى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال اشهد على نبى الله صلى الله عليه وسلم ما ولى ولكنه انطلق اخفاء من الناس وحسر الى هذا الحى من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا اقبح القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحرث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب اللهم أنزل نصرك زاد أبو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله اذا احمر الباس نتقى به وان الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ولمسلم عن أبى اسحق قال قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه واخفاؤه حسر ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون فاقبلوا هنالك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم صفهم وروى شعبة عن أبى اسحق قال قال البراء ان هوازن كانوا قوما رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فاقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قوله ولكنه انطلق أخفاء من الناس الاخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم ما يعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذى لا درع عليه يقال اذا رمى القوم باسرهم الى جهة واحدة رميا رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا اذا احمر الباس يعنى اذا اشتد الحرب

والباس بالموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبي كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وأيمن ابن ام أيمن قتل يوم حنين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أيمن أخو اسامة بن زيد لامه أمهما بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته (م) عن العباس بن عبد المطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وانا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم اكفها ارادة ان لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عباس نادا صحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت بأعلى صوتى أين أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة فى الانصار يقولون يا معشر الانصار يا معشر الانصار قال ثم قصرت الدعوة على بنى الحرث بن الخزرج فقالوا يا بنى الحرث بن الخزرج يا بنى الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمى الوطيس قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا قوله حمى الوطيس أى اشتد الحرب قال الخطابى هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبى صلى الله عليه وسلم من العرب وهى مما اقتضبه وأنشأه والوطيس فى اللغة التنور وقوله حدهم كليل أى لا يقطع شيأ (م) عن سلمة بن الاكوع قال نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما انكشفنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن بغلته ثم بصق قبضة من تراب الارض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير أمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وروى ان رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين يوم حنين أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم الا كهيئة الشامة وما كان قتلنا الا بايديهم فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة وروى ان رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حملة شاة ان كشفناهم فيما نحن نسوقهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء واذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه

حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا ورجعوا أكتافنا فكانت
اياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح انها لم تقاتل الا يوم
بدر وانما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوى ان الزهرى قال بلغنى ان
شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله
بطلحة بن عثمان وعثمان بن أبى طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله صلى الله
عليه وسلم على ما فى نفسى فالتفت الى وضرب فى صدرى وقال أعيذك بالله ياشيبة
فارعدت فرائصى فنظرت اليه وهو أحب الى من سمعى وبصرى فقلت أشهد انك
رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطلعك الله على ما فى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا
مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم رجلا من الاشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار الى أوطاس فاقتتلوا
بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب
أميرهم مالك بن عوف النصرى فاتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله واهله فيمن أخذ
وقتل أبو عامر أمير المسلمين قال الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب انهم أصابوا يومئذ ستة
آلاف صبى ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر
فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فاحرم منها بعمرة وقسم
بها غنائم حنين واوطاس وتالف اناسا منهم أبو سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل
ابن عمرو والاقرع بن حابس فاعطاهم (ق) عن انس بن مالك ان ناسا من الانصار
قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله
صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث
بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم فارسل الى الانصار فجمعهم فى قبة من
أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الانصار أما ذوو رأينا يا رسول الله لم يقولوا شيأ
وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا
تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانى اعطى رجالا حديثى عهد بكفر
أتالفهم أفلا ترضون ان تذهب الناس بالاموال وترجعوا الى رحالكم برسول الله صلى
الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا
قال فانكم ستجدون بعدى اثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا
سنصبر زاد فى رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله
على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الانصار
شيأ فكأنهم وجدوا اذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال يا معشر الانصار ألم
أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى كلما
قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال فما منعكم ان تجيبوا رسول الله كلما قال شيأ قالوا

(اذ) بدل من يوم (أعجبتكم كثرتكم) الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت فى مركزه ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام دابته وأبو سفيان ابن الحرث ابن عمه آخذ ابركابه فقال للعباس صح بالناس وكان صيتا فنادى يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بلق فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من تراب فرماهم به ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وكان من دعائه عليه السلام يومئذ اللهم لك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر (فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت) ما مصدرية والباء بمعنى مع أى مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور فى موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أى ملتبسا بها والمعنى لم تجدوا موضعا لقراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم (ثم وليتم مدبرين) ثم انهزمتم (ثم أنزل الله سكينته) رحمته التى سكنوا بها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) يعنى الملائكة وكانوا ثمانية آلاف أو خمسة آلاف او ستة عشر ألفا

الملائكة

الله ورسوله أمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبى الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الانصار شعار والناس دثار (م) عن رافع ابن خديج قال اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباسفيان بن حرب وصفوان بن امية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل انسان مائة من الابل واعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع
فما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن يخفض اليوم لا يرفع

فقال فاتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم ماله منهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معى من ترون وأحب الحديث الى أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما المال واما السبى وقد كنت استأنيت بكم وفى رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد عليهم الا احدى الطائفتين قالوا فانا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فاثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين وانى قد رأيت ان أرد اليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله فقال لهم فى ذلك انا لا ندرى من اذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه انهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذى بلغنا من سبى هوازن وأنزل الله عز وجل فى قصة حنين لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين (اذ أعجبتكم كثرتكم) يعنى حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) يعنى كثرتكم (شيأ) يعنى ان الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن انما يكون بنصر الله ومعونته (وضاقت عليكم الارض بما رحبت) يعنى بسعتها وفضائها (ثم وليتم مدبرين) يعنى منهزمين (ثم أنزل الله سكينته) يعنى بعد الهزيمة والسكينة الطمأنينة والامنة وهى فعيلة من السكون وذلك أن الانسان اذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركا واذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الامن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الامن وقوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) انما كان انزال السكينة على المؤمنين لان الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب فى هذه الواقعة ثم من الله عليهم بانزال السكينة عليهم حتى رجعوا الى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر (وأنزل جنودا لم تروها) يعنى الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لان

الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) يعني بالاسر والقتل وسبي العيال والاموال (وذلك جزاء الكافرين) يعني في الدنيا ثم اذا أفضوا الى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) يعني فيهديه الى الاسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمن عليهم وأطلق سبيهم (والله غفور) لمن تاب (رحيم) بعباده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) قيل أراد بالمشركين عبدة الاصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الاصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشئ القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشئ الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجسا على الذم لان الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم وقيل هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الاول أصح وقال قتادة سماهم نجسا لانهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤن (فلا يقربوا المسجد الحرام) المراد منعهم من دخول الحرم لانهم اذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام أراد به الحرم لانه أسرى به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ قال العلماء وجملة بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام * أحدها الحرم فلا يجوز لكافر ان يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والامام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه بنفسه أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للعاهد دخول الحرم * القسم الثاني من بلاد الاسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي وقيل كلها حجازي وقال ابن الكلبي حد الحجاز ما بين جبل طيئ وطريق العراق سمي حجازا لانه حجز بين تهامة ونجد وقيل لانه حجز بين نجد والسراة وقيل لانه حجز بين نجد وتهامة والشام قال الحربي وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها الا مسلما زاد في رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب أخرجه مالك في الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادي الى أقصى اليمن الى تخوم العراق الى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر الى

(وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبي النساء والذراري (وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وهم الذين أسلموا منهم (والله غفور) يستر كفر العدو بالاسلام (رحيم) بنصر الولي بعد الانهزام (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أي ذوو نجس وهو مصدر يقال نجس نجسا وقذر قذرا لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ولانهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها (فلا يقربوا المسجد الحرام) فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية

أطراف الشام عرضا * والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) يعني العام الذي حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وان لا يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة (وان خفتم عيلة) يعني فقرا وفاقة وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون الى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وان خفتم عيلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال عكرمة فأغناهم الله بان أنزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها (ان شاء) قيل انما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الانسان دائم التضرع والابتهال الى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وان يقطع العبد أمله من كل أحد الا من الله عز وجل فانه هو القادر على كل شئ وقيل ان المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الادب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (ان الله عليم) يعني بما يصلحكم (حكيم) يعني انه تعالى لا يفعل شيأ الا عن حكمة وصواب فمن حكمته ان منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) قال مجاهد نزلت الآية حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بايدي المسلمين وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فان قلت اليهود والنصارى يزعمون انهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم انهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قلت ايمانهم بالله ليس كايمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله وقيل من اعتقد ان عزيرا ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون اكثر الانبياء فليسوا بمؤمنين بالله وامّا ايمانهم باليوم الآخر فليس كايمان المؤمنين وذلك انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد و يعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا يتمخطون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم انه مؤمن وقوله تعالى (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه انهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة وقيل معناه لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما واتوا باحكام من قبل أنفسهم (ولا يدينون دين الحق) يعني ولا يعتقدون صحة الاسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى

النهي عن الحج والعمرة وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا وعند الشافعي رحمه الله يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره وقيل نهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم منه (وان خفتم عيلة) اى فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب (فسوف يغنيكم الله من فضله) من الغنائم أو المطر والنبات أو من متاجر جميع الاسلام (ان شاء) هو تعليم لتعليق الامور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال اليه (ان الله عليم) بأحوالكم (حكيم) في تحقيق آمالكم او عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم وأراد ونزل في أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) لان اليهود مثلثة والنصارى مثلثة (ولا باليوم الآخر) لانهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون ان لا اكل في الجنة ولا شرب (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) لانهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة اولا يعملون بما في التوراة والانجيل (ولا يدينون دين الحق) ولا يعتقدون دين الاسلام الذي هو الحق يقال فلان يدين بكذا اذا اتخذه دينه ومعتقده

ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الاسلام وهو قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم (من الذين أوتوا الكتاب) يعني أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهي ما يعطى المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم (عن يد) يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بايديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع اقرارهم بانعام المسلمين عليهم بقبولها منهم (وهم صاغرون) من الصغار وهو الذل والاهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي اذا أعطى يصفع قفاه وقيل هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أد الحق الله يا عدو الله وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم

* (فصل في بيان أحكام الآية) * اجتمعت الامة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اذا لم يكونوا عربا واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعي الى ان الجزية على الاديان لا على الانساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من عبدة الاوثان بحال واحتج بما روى عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فأخذه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي وهو رجل من العرب يقال انه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والاوزاعي الى أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار الا المرتد وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمي كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الاخذ منهم ويدل عليه ما روى عن نجدة بن عبيدة ويقال عبدة لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه مالك في الموطا عن ابن شهاب قال بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين وان عمر أخذها من مجوس فارس وان عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطا وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن ان النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم دليل على ان رأي الصحابة كان على انها لا تؤخذ من كل مشرك وانما تؤخذ من أهل

(من الذين أوتوا الكتاب) بيان للذين قبله وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية وكذا الترك والهند وغيرهم بخلاف مشركي العرب لما روى الزهري ان النبي عليه السلام صالح عبدة الاوثان على الجزية الا من كان من العرب (حتى يعطوا الجزية) الى أن يقبلوها وسميت جزية لانه يجب على أهلها أن يجزوه أي يقضوه أو هي جزاء على الكفر على التعميل في تذليل (عن يد) اي عن يد مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا أعطى بيده اذا انقاد وقالوا انزع يده عن الطاعة أو حتى يعطوها عن يد الى يد نقدا غير نسيئة لا ممتنعا على يد أحد ولكن عن يد المعطي الى يد الآخذ (وهم صاغرون) أي تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس وأن يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية يا ذمي وان كان يؤديها ويزخ في قفاه وتسقط بالاسلام

الكتاب واختلفوا فى أن المجوس هل هم من أهل الكتاب فروى عن على بن أبى طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فاصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل فى دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فان كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فانهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وان كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فانهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شك كنا فى أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبنى تغلب أقرهم عمر بالجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم فى أهل الكتاب كأهل البدع فى المسلمين وأما قدر الجزية فاقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه و يقبل الدينار من الغنى والفقير والمتوسط و يدل عليه ما روى عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وجهه الى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أى محتلم دينارا أو عدله من المعافرية ثياب تلبس باليمن أخرجه أبو داود فالنبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على انه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وانما تؤخذ من الاحرار البالغين وذهب قوم الى ان على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط دينار بن وعلى كل فقير دينارا وهو قول أصحاب الرأى و يدل عليه ما روى عن أسلم ان عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهما ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك فى الموطا قال أصحاب الشافعى أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار الا بالتراضى فاذا رضى أهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغنى أربعة دنانير قال العلماء انما اقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل وأيضا فان بايديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب اقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وامهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا اليه بان يؤمنوا و يصدقوا اذا رأوا محاسن الاسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه قوله عز وجل (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة ان اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه فى هذه الآية فاخبر عنهم انهم أثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد اشرك به لانه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا انهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وابقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التى بايديهم ولعلهم

(وقالت اليهود) كلهم أو بعضهم (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر كقوله المسيح ابن الله وعزير اسم أعجمى والعجمة وتعريفه امتنع صرفه ومن نون وهو عاصم وعلى فقد جعله عربيا (وقالت النصارى المسيح ابن الله

يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون اليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان ابن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فأنزل الله هذه الآية وقال عبيد بن عمير انما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وانما نسب ذلك الى اليهود لقولهم يا على عادة العرب في ايقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وانما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا واحدا منهم وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال انما قالت اليهود ذلك من أجل ان عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وانساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل اليه ان يرد اليه التوراة فبينما هو يصلي مبتهلا الى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه فاذن في قومه وقال يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتي عزير هذا الا انه ابن الله وقال الكلبي ان بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بني اسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير اذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة سنة قال فاتى ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فنزلت له التوراة في صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فأملل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبي حدثني عن جدي ان التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفا فقالوا ان الله لم يقذف التوراة في قلب عزير الا انه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين ان هذا القول كان فاشيا في اليهود جميعا ثم انه انقطع واندرس فأخبر الله تعالى به عنهم واظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عز وجل اصدق واثبت من انكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون ان دخلنا النار ودخلوا الجنة فاني سأحتال واضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه واظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه أتى الى النصارى فقال لهم من أنت

قال أنا عدوكم يواص فقد نوديت من السماء انه ليس لك توبة حتى تنتصر وقد تبت وانتكث فادخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والاله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له أنت خاصتي وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم اني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم اني سأذبح نفسي تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس والآخر الى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الامام فخر الدين الرازي بعد ان حكى هذه الحكاية والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال (ذلك قولهم بافواههم) يعني انهم يقولون ذلك القول بالسنتهم من غير علم يرجعون اليه قال أهل المعاني لم يذكر الله قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك القول زورا وكذبا لا حقيقة له (يضاهئون) قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) قال قتادة والسدي معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لان المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الامم الحالية الكافرة وقال الحبي يريد أن من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقالة ولكنه بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله (أنى يؤفكون) يعني انى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بان الله واحد أحد جعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى يتعجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل قوله سبحانه وتعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والاحبار العلماء من اليهود والرهبان اصحاب

ذلك قولهم بافواههم) أي قول لا يعضده برهان ولا يستند الى بيان فاهو الا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالالفاظ المهملة (يضاهون قول الذين كفروا من قبل) لابد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا يعني ان الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني انه كفر قديم فيهم غير مستحدث أو الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم يضاهئون عاصم وأصل المضاهاة المشابهة والاكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم امرأة ضهياء وهي التي أشبهت الرجال بانها لا تحيض كذا قاله الزجاج (قاتلهم الله) أي هم أحقاء بان يقال لهم هذا (أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان (اتخذوا) أي أهل الكتاب (أحبارهم) علماءهم (ورهبانهم) نساكهم (اربابا) آلهة (من دون الله) حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يطاع الارباب في أوامرهم ونواهيهم

الصوامع من النصارى أربابا من دون الله يعنى أنهم أطاعوهم فى معصية الله تعالى وذلك انهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالارباب لا أنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الالهية عن عدى بن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال ياعدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيأ استحلوه واذا حرموا عليهم شيأ حرموه أخرجه الترمذى وقال حديث غريب قال عبد الله بن المبارك

وهل بدل الدين الا الملوك * واحبار سوء ورهبانها

(والمسيح ابن مريم) يعنى اتخذوه الها وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الالهية (وما أمروا) يعنى وما أمروا فى الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم (الا ليعبدوا الها واحدا) لانه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لاغيره (لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) أى تعالى الله وتنزه عن ان يكون له شريك فى العبادة والاحكام وان يكون له شريك فى الالهية يستحق التعظيم والاجلال (يريدون) يعنى يريد رؤساء اليهود والنصارى (ان يطفؤا نور الله بأفواههم) يعنى يريد هؤلاء ابطال دين الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم اياه وقيل المراد من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهى امور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذى نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الابد الدالة على صدقه وثالثها ان دينه الذى أمر به وهو دين الاسلام ليس فيه شئ سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه واتباع طاعته والامر بعبادته والتبرئ من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم ان الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين بقوله (ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون) يعنى ويأبى الله الا أن يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولو كره ذلك الكافرون قوله عز وجل (هو الذى أرسل رسوله) يعنى ان الله الذى يأبى الا ان يتم نوره هو الذى أرسل رسوله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) يعنى بالقرآن الذى أنزله عليه وجعله هاديا اليه (ودين الحق) يعنى دين الاسلام (ليظهره) يعنى ليعليه (على الدين كله) يعنى على سائر الاديان وقال ابن عباس الهاء فى ليظهره عائدة الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لايخفى عليه شئ منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة الى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الاسلام على الاديان كلها وهو ان لايعبد الله الا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أهل دين الا دخلوا فى الاسلام ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبى هريرة فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال

(والمسيح ابن مريم) عطف على أحبارهم أى اتخذوه ربا حيث جعلوه ابن الله (وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) يجوز الوقف عليه لان ما بعده يصلح ابتداء ويصلح وصفا لواحدا (لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) تنزيه له عن الاشراك (يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) مثل حالهم فى طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الاشراق ليطفئه بنفخه أجرى ويأبى الله مجرى لايريد الله ولذا وقع فى مقابلة يريدون والا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (هو الذى أرسل رسوله) محمدا عليه السلام (بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الاسلام (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على أهل الاديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين

قال النبي صلى الله عليه وسلم ويهلك في زمانه المال كلها الا الاسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الارض بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله كلمة الاسلام اما بعز عزيز أو بذل ذليل اما ان يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به واما ان يذلهم فيدينون له أخرجه البغوي بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله انى كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ان ذلك تام قال انه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة تتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون الى دين آبائهم قال الشافعي وقد أظهر الله دين رسوله صلى الله عليه وسلم على الاديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الاديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الامين فقهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامين حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها وقتل أهل الكتاب وسبي حتى دان بعضهم بالاسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله (ولو كره المشركون) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان) قد تقدم معنى الاحبار والرهبان وان الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى وفي قوله سبحانه وتعالى ان كثيرا دليل على ان الاقل من الاحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل في قوله تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل انهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الاحكام وقيل انهم كانوا يكتبون بايديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته في كتبهم لانهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه ذهبت عنهم تلك المآكل وقيل ان التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الاحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوها فاسدة باطله ويحرفون معانيها طلبا للرياسة وأخذ الاموال ومنع الناس عن الايمان به وذلك قوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول في دين الاسلام (والذين يكنزون الذهب والفضة) أصل الكنز في اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا في المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب قاله معاوية بن أبي سفيان لان الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع اخراج الحقوق الواجبة منه

(ولو كره المشركون يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس) استعار الاكل للاخذ (بالباطل) أي بالرشا في الاحكام (ويصدون) سفلتهم (عن سبيل الله) دينه (والذين يكنزون الذهب والفضة) يجوز أن يكون اشارة الى الكثير من الاحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم أخذ الرشا وكنز الاموال والضن بها عن الانفاق في سبيل الخير ويجوز أن يراد المسلمون الكنازون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وان كان باطنا وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وان كان ظاهرا ولقد كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه

وقال

وقال ابن عباس والسدى نزلت فى مانعى الزكاة من المسلمين وذلك انه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الاحبار والرهبان فى الحرص على أخذ الاموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيده من جمع المال ومنع حقوق الله منه وقال أبو ذر نزلت فى أهل الكتاب وفينا وفى المسلمين ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بابى ذر فقلت ما أنزلك هذا المنزل قال كنت فى الشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فقال معاوية نزلت فى أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بينى وبينه فى ذلك كلام فكتب الى عثمان يشكونى فكتب الى عثمان ان اقدم المدينة فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال ان شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذى أنزاني هذا المنزل ولو أمر على عبد حبشى لسمعت وأطعت واختلف العلماء فى معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروى عن ابن عمر انه قال له اعرابى اخبرنى عن قول الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل ان تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرا للاموال أخرجه البخارى وفى رواية مالك عن عبد الله ابن دينار قال سمعت عبد الله بن عمر وهو يسئل عن الكنز ما هو فقال هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبرى بسنده عن ابن عمر قال كل مال أديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذى ذكره الله فى القرآن يكوى به صاحبه وان لم يكن مدفونا وروى عن على بن أبى طالب قال أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة وقيل الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه اليه وروى الطبرى بسنده عن أبى امامة قال توفى رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم كيتان كان هذا فى أول الاسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شئ من المال اخراجه لاحتياج غيره اليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة كبر ذلك على المسلمين فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق فقال يا نبى الله انه كبر على أصحابك هذه الآية فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا لتطيب ما بقى من أموالكم وانما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم قال له ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته واذا أمرها أطاعته واذا غاب عنها حفظته أخرجه أبو داود عن ثوبان قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره فقال بعض أصحابه انزلت فى الذهب والفضة فلو علمنا أى المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضله لسان ذاكر

وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على ايمانه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والصحيح من هذه الاقوال القول الاول وهو ماذكرنا عن ابن عمر ان كل مال اديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وان كثر وان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وان قل اذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله الا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ماروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يارسول الله فالابل قال ولا صاحب ابل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه باخفافها وتعضه بافواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه اخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يارسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيأ ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه اخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار اخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو في بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفي بعضها ردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الاولى هي رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى اسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الارض الواسع الاملس والعقصاء هي الشاة الملتوية القرنين وانما استثناها لانها لا تؤلم بضعها وكذا الجلحاء وهي الشاة التي لا قرن لها وكذا العضباء وهي الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول انا مالك انا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية الشجاع الحية والاقرع صفته بطول العمر لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهي صفة خبيث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان في الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان في اللحيين تحت الاذنين وقوله تعالى (ولا ينفقونها في سبيل الله) يعني ولا يؤدون زكاتها وانما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لانه رد الكناية الى المال المكنوز وهي أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية الى الفضة لانها اغلب أموال الناس (فبشرهم بعذاب أليم) يعني الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق) عن أبي ذر قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى

(ولا ينفقونها في سبيل الله) الضمير راجع الى المعنى لان كل واحد منهما دنانير ودراهم فهو كقوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا أو اريد الكنوز والاموال أو معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله * فاني وقيارها بها لغريب * وقيار كذلك وخصا بالذكر من بين سائر الاموال لانهما قانون التمول وأثمان الاشياء وذكرهما دليل على ماسواهما (فبشرهم بعذاب أليم) ومعنى قوله

جلست فلم اتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت واسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما نفدت اخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس هذا لفظ مسلم وفرقه البخاري في موضعين وقوله تعالى (يوم يحمى عليها) يعني على الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة (في نار جهنم فتكوى بها جباههم) يعني بالكنوز جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) قال ابن عباس لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته قال بعض العلماء انما خص هذه الاعضاء بالكي من بين سائر الاعضاء لان الغني صاحب المال اذا أتاه السائل طلب منه شيأ تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع اسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم ان كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم ان كرر الطلب زاغ في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهي النهاية في الرد والغاية في المنع الدال على كراهة الاعطاء والبذل وهذا دأب مانعي البر والاحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الاعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى (هذا ما كنزتم لانفسكم) أي يقال لهم ذلك يوم القيامة (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي فذوقوا عذاب ما كنتم في الدنيا من الاموال وتنعم حق الله منها (ق) عن الاحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش اذ جاء رجل خشن الشعر خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيأ قال فادبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم فقال ان هؤلاء لا يعقلون شيأ هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم اذكرها وزاد البخاري قلت من هذا قالوا أبو ذر قال فقمت اليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل قال ما قلت الا شيأ سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هي المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم واعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف

قوله وزاد البخاري الخ هذه الزيادة لمسلم لا للبخاري اه مصححه

(يوم يحمى عليها في نار جهنم) أن النار تحمى عليها أي توقد وانما ذكر الفعل لانه مسند الى الجار والمجرور وأصله يوم تحمى النار عليها فلما حذفت النار قيل يحمى لانتقال الاسناد عن النار الى عليها كما تقول رفعت القصة الى الامير فان لم تذكر القصة قلت رفع الى الامير (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الاعضاء لانهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم أو معناه يكون على الجهات الاربع مقاديمهم وما خيرهم وجنوبهم (هذا ما كنزتم لانفسكم) يقال لهم هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علم انكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وهو توبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) من غير زيادة والمراد بيان ان أحكام الشرع تبنى على الشهور القمرية المحسوبة بالاهلة دون الشمسية

قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية فكان يقع حجهم تارة فى وقته وتارة فى المحرم وتارة فى صفر وتارة فى غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل ان عدة شهور سنة المسلمين التى يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى ان عدة الشهور عند الله يعنى فى علمه وحكمه اثنا عشر شهرا (فى كتاب الله) يعنى فى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون وقيل أراد بكتاب الله القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذى أوجبه وأمر عباده بالاخذ به (يوم خلق السموات والارض) يعنى ان هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والارض أن السنة اثنا عشر شهرا (منها) يعنى من الشهور (أربعة حرم) وهى رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وانما سميت حرما لان العرب فى الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو ان أحدهم لقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فى هذه الاربعة الاشهر لم يهجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما ولان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيآت أيضا أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الاشهر الحرم (ذلك الدين القيم) يعنى ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعنى حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل أراد بالدين القيم الحكم الذى لا يغير ولا يبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذى لا يزول فالواجب على المسلمين الاخذ بهذا الحساب والعدد فى صومهم وحجهم واعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال اليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله اعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلدة الحرام قلنا بلى قال فاى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض الا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد وقوله تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قيل الكناية فى فيهن ترجع الى جميع الاشهر أى لا تظلموا أنفسكم فى جميع أشهر السنة بفعل المعاصى وترك الطاعات لان المقصود منع الانسان من الاقدام على المعاصى والفساد مطلقا فى جميع الاوقات الى الممات وقيل ان الكناية ترجع الى الاشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا

(فى كتاب الله) فيما أثبته وأوجبه من حكمه أو فى اللوح (يوم خلق السموات والارض) منها أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة للقعود عن القتال وذو الحجة للحج والمحرم لتحريم القتال فيه وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب اياه أى لتعظيمه (ذلك الدين القيم) أى الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية يعنى أن تحريم الاربعة الاشهر هو الدين المستقيم ودين ابراهيم واسمعيل وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسىء فغيروا (فلا تظلموا فيهن) فى المحرم أو فى الاثنى عشر (أنفسكم) بارتكاب المعاصى

فى الاشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وان كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن اسحق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسىء وقيل ان الانفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الاطلاق شاق على النفس لاجرم ان الله خص بعض الاوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الانسان فى تلك الاوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها فى باقى الاوقات فتصير هذه الاوقات الشريفة والاشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصى فى غيرها من الاشهر فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الاشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الامكنة أيضا وقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) يعنى قاتلوا المشركين باجمعكم مجتمعين على قتالهم كما انهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين فى مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الاشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا حراما ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة يعنى فى الاشهر الحرم وفى غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراسانى والزهرى وسفيان الثورى قالوا الا ان النبى صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم فى شوال و بعض ذى القعدة وقال آخرون انه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبى رباح ما يحل للناس ان يغزوا فى الحرم ولا فى الاشهر الحرم وما نسخت الا أن يقاتلوا فيها (واعلموا ان الله مع المتقين) يعنى بالنصر والمعونة على أعدائهم قوله سبحانه وتعالى (انما النسىء زيادة فى الكفر) النسىء فى اللغة عبارة عن التاخير فى الوقت ومنه النسيئة فى البيع ومعنى النسىء المذكور فى الآية هو تأخير شهر حرام الى شهر آخر وذلك أن العرب فى الجاهلية كانت تعتقد حرمة الاشهر الحرم وتعظمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية ور بما وقعت حروب فى بعض الاشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم الى الاشهر الحلال فنسؤا يعنى أخروا تحريم شهر الى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر أخروه الى ربيع الاول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر منى واعلمهم ان أشهر النسىء قد تناسخت باستدارة

(وقاتلوا المشركين كافة) حال من الفاعل أو المفعول (كما يقاتلونكم كافة) جميعا (واعلموا أن الله مع المتقين) أى ناصرهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لاهلها (انما النسىء) بالهمزة مصدر نسأه اذا أخره وهو تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر وذلك انهم كانوا أصحاب حروب وغارات فاذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر حتى رفضوا تخصيص الاشهر الحرم بالتحريم فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر (زيادة فى الكفر) أى هذا الفعل منهم زيادة فى كفرهم

الزمان وعاد الامر الى ما وضع الله عليه حساب الاشهر يوم خلق السموات والارض وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام واختلفوا فى أول من نسأ النسىء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسىء بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكنانى وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس فى الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لا مرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه ان ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر فى هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة من الرماح وان قال حلال عقدوا أوتار القسى وركبوا الاسنة فى الرماح وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بنى كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم

* وفينا نسىء الشهر القلمس * وكانوا يفعلون ذلك اذا اجتمعت العرب فى الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ان أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة ابن خندف والذى صح من حديث أبى هريرة وعائشة ان عمرو بن لحى أول من سيب السوائب وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار فهذا ما ورد فى تفسير النسىء الذى ذكره الله فى قوله انما النسىء زيادة فى الكفر يعنى زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة انهم أمروا بايقاع كل فعل فى وقته من الاشهر الحرم ثم انهم بسبب اغراضهم الفاسدة أخروه الى وقت آخر بسبب ذلك النسىء فأوقعوه فى غير وقته من الاشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة فى كفرهم (يضل به الذين كفروا) قرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسىء الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه ان كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرئ يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا ويضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يضل به الذين كفروا اتباعهم والآخذين بافعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين فى تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) يعنى يحلون ذلك الانساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا ليغيروا فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما فلا يغيرون فيه (ليواطئوا) يعنى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) يعنى انهم ما أحلوا شهرا من المحرم الا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل أن يكون عدد الاشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة فى العدد لا فى الحكم فذلك قوله سبحانه وتعالى (فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل (والله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر أثيم لما سبق له فى الازل انه

(يضل) كوفى غير أبى بكر (به الذين كفروا) بالنسىء والضمير فى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) للنسىء أى اذا احلوا شهرا من الاشهر الحرم عاما رجعوا فحرموه فى العام القابل (ليواطئوا عدة ما حرم الله) ليوافقوا العدة التى هى الاربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين والام تتعلق بيحلونه ويحرمونه أو بيحرمونه فحسب وهو الظاهر (فيحلوا ما حرم الله) أى فيحلوا بواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال أو من ترك الاختصاص للاشهر بعينها (زين لهم سوء أعمالهم) زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة (والله لا يهدى القوم الكافرين) حال اختيارهم الثبات على الباطل

من أهل النار قوله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض) نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاز لغزو الروم وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وثاقلوا فأنزل الله عزوجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم يعني قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا في سبيل الله أي اخرجوا الى الجهاد يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم واذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير اثاقلتم أي تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج الى الغزو الى الارض يعني لزمتم أرضكم ومساكنكم وانما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة الى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت ادراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله (أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة) يعني أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة الا قليل) يعني ان لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الابد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة الى نعيم الآخرة وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لان الله سبحانه وتعالى نص على ان ثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور في الآية الآتية وهي قوله تعالى (الا تنفروا) يعني ان لم تنفروا أيها المؤمنون الى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه (يعذبكم عذابا أليما) يعني في الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا في الآخرة وقيل ان المراد به احتباس المطر في الدنيا قال نجدة بن نفيع سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) يعني خيرا منكم وأطوع قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على انه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه فان سارعوا معه الى الخروج الى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عزوجل وان تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العقبى لهم لئلا يتوهموا ان اعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل الا بهم وهو قوله تعالى (ولا تضروه شيئا) قيل الضمير راجع الى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيأ لانه غني عن العالمين وانما تضرون أنفسكم بتركم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير راجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم

(يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا) اخرجوا (في سبيل الله اثاقلتم) تثاقلتم وهو أصله الا ان التاء أدغمت في الثاء فصارت ثاءا ساكنة فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن أي تباطأتم (الى الارض) ضمن معنى الميل والاخلاد فعدي بالى أي ملتم الى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه أي ملتم الى الاقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الا ورى عنها بغيرها الا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة (أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة) بدل الآخرة (فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة) في جنب الآخرة الا قليل الا تنفروا) الى الحرب (يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيأ) سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين وانه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع وانه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيأ وقيل الضمير في ولا تضروه للرسول

عليه السلام لان الله وعده ان يعصمه من الناس وان ينصره ووعده كائن لا محالة

شيأ فان الله ناصره على أعدائه ولا يخذله (والله على كل شئ قدير) يعنى انه تعالى قادر على كل شئ فهو ينصر نبيه ويعزه دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ قوله عز وجل (الا تنصروه فقد نصره الله) يعنى الا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه الى تبوك فأعلم الله عز وجل انه هو المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه واعلاء كلمته أعانه أو لم يعينوه وانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد (اذ أخرجه الذين كفروا) يعنى انه تعالى نصره فى الوقت الذى أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله (ثانى اثنين) يعنى هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر (اذ هما فى الغار) يعنى اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار والغار نقب عظيم يكون فى الجبل وهذا الغار فى جبل ثور وهو قريب من مكة (اذ يقول لصاحبه لا تحزن) يعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر الصديق لا تحزن وذلك أن أبا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحزن (ان الله معنا) يعنى بالنصر والمعونة قال الشعبى عاتب الله عز وجل أهل الارض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر وقال الحسن بن الفضل من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة اذا أنكر يكون مبتدعا ولا يكون كافرا عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب (ق) عن أبى بكر الصديق قال نظرت الى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محيى الدين النووى معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل فى قوله سبحانه وتعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبى صلى الله عليه وسلم حتى فى هذا المقام وفيه فضيلة لابى بكر وهى من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال على ان الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك روى عن عمر بن الخطاب انه ذكر عنده أبو بكر فقال وددت ان عملى كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار فلما انتهيا اليه قال والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فان كان فيه شئ أصابنى دونك فدخله فكنسه ووجد فى جانبه ثقبا فشق ازاره وسدها به وبقى منها ثقبان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع

(والله على كل شئ) من التبديل والتعذيب وغيرهما (قدير الا تنصروه فقد نصره الله) الا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه الا رجل واحد فدل بقوله فقد نصره الله على انه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت (اذ أخرجه الذين كفروا) أسند الاخراج الى الكفار لانهم حين هموا باخراجه اذن الله له فى الخروج فكأنهم أخرجوه (ثانى اثنين) أحد اثنين كقوله ثالث ثلاثة وهما رسول الله وأبو بكر وانتصابه على الحال (اذ هما) بدل من اذ أخرجه (فى الغار) هو نقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة منها فيه ثلاثا (اذ يقول) بدل ثان (لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) بالنصرة والحفظ قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان نصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بابصارهم عنه وقالوا من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر لانكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة

رأسه فى حجره ونام فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك يا أبا بكر فقال لدغت فداك أبى وأمى فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لا نؤدى الزكاة فقال لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لى اجبار فى الجاهلية وخوار فى الاسلام انه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى أخرجه فى جامع الاصول ولم يرقم عليه علامة لاحد قال البغوى وروى انه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار جعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقال أذكر الطلب فامشى خلفك وأذكر الرصد فامشى بين يديك فلما انتهيا الى الغار قال مكانك يا رسول الله حتى استبرئ الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يا رسول الله فنزل وقال له ان اقتل فانا رجل واحد من المسلمين وان قتلت هلكت الامة

*(ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخارى) عن عائشة قالت لم أعقل أبوى قط الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى اذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجنى قومى فاريد ان اسيح فى الارض فاعبد ربى فقال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم ان أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفى رواية فانفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لابى بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ثم بدا لابى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فافزع ذلك أشراف قريش من المشركين فارسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فاعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا ان يفتن نساءنا وابناءنا فانهه فان أحب ان يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وان أبى الا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا ان نخفرك ولسنا مقرين لابى بكر الاستعلان قالت عائشة فاتى ابن الدغنة الى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاهدت لك

عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتي فاني لا أحب أن تسمع العرب اني اخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني اردد اليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين اني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بارض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فاني ارجو ان يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بابي أنت وأمي قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط اربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينا نحن جلوس يوما في بيت ابي بكر في نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له ابي وامي والله ما جاء به في هذه الساعة الا امر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فاذن له فدخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابي بكر أخرج من عندك فقال انما هم اهلك بابي انت وامي يا رسول الله قال فاني قد اذن لي في الخروج قال أبو بكر الصحبة بابي انت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال ابو بكر فخذ بابي انت وامي يا رسول الله احدى راحلتي هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما احث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت اسماء بنت ابي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن ابي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع امرا يكادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى ابي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فامناه فدفعا اليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فاتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فأخذ بهم طريق السواحل وفي رواية طريق الساحل قال ابن شهاب فاخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن اخي سراقة بن مالك بن جعشم ان اباه اخبره انه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله او اسره فبينا انا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج اقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال يا سراقة اني قد رأيت آنفا اسودة بالساحل أراها محمدا واصحابه قال سراقة فعرفت انهم هم فقلت له انهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة

لهم ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فامرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء اكمة فتحبسها على وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت برجه الارض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم فعثرت بى فرسى فخررت عنها فقمت وأهويت بيدى الى كنانتى فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها اضرهم أم لا فخرج الذى أكره فركبت فرسى وعصيت الازلام تقرب بى حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الارض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالامان فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسالانى الا ان قالا أخف عنا ما استطعت فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فامر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فاخبرنى عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام فكسى الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لامر ينتظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى ان قال باعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرون قال فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله عليه السلام صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل أبو بكر حتى ظلل عليه برداءه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر اسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ان شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله

صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول

هذا الحمال لا حمال خيبر * هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول اللهم ان الاجر أجر الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخاري بطوله * شرح غريب ألفاظ الحديث قولها لم أعقل أبوي الا وهما يدينان الدين يعني انهما كانا ينقادان الى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر الى المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبني ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان أحدهما انه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شئ حتى المعدوم الذي يتعذر كسبه على غيره والقول الثاني انه يملك الشئ المعدوم المتعذر لمن لا يقدر عليه ففيه وصفه بالاحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الارحام والقيام بأمر العيال واقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الانسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده انا لك جار أي حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان والاعلان اظهار الخفي وقوله فينقذف النساء عليه يعني يزدحمن عليه والذمة العهد والامان واخفارها نقضها واللابة الحجل والحرة الارض التي تعلوها حجارة سود يقال افعل الشئ على رسلك بكسر الراء أي على هينتك والراحلة البعير القوي على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفا من أعلاه الى أسفله لئلا يصل الى الارض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة اذا صار حاذقا فاهما واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعي بالغنم اذا دعاها لتجتمع اليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه في الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا في آل فلان اذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والاسودة الاشخاص والاكمة التل المرتفع من الارض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا اذا اعدا عدوا دون الاسراع والكنانة هي الجعبة التي تجعل فيها السهام والازلام القداح التي كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفال والعثان الغبار يقال ما رزأت فلانا شيأ أي ما أصبت منه شيأ والمراد انهم لم يأخذوا منه شيأ وقوله أوفى أي أشرف واطلع والاطم البناء المرتفع كالحصن وقوله مبيضين هو بكسر الياء أي هم ذوو ثياب بيض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعني هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وابقى ذخرا وأدوم منفعة في الآخرة لا حمال خيبر يعني ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها والمعنى ان ذلك الحمل الذي نحمله من اللبن لاجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الحمال بالجيم من التجمل والرواية الاولى أشهر وأكثر والله أعلم

قال

قال الزهري لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضتا في أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل أتت يمامة على فم الغار وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت في بعض التفاسير شعرا وقد نسب الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله

قال النبي ولم يجزع يوقرني * ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيأ فان الله ثالثنا * وقد تكفل لي منه باظهار
وانما كيد من تخشى بوادره * كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم طرا بما صنعوا * وجاعل المنتهى منهم الى النار

وقوله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته عليه) يعني فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس على أبي بكر لان النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك

(فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه) منها ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعا على باطن أبي بكر الصديق في سره واعلانه وانه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله ومنها ان هذه الهجرة كانت باذن الله تعالى فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره ومنها ان الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الارض بقوله تعالى الا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله ومنها ان سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين اذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لابي بكر رضي الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء ان أبا بكر كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر الاحوال ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق الى الايمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر الى الايمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم جاءهم الى النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته الا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنها انه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه في الامامة فكان ثانيه ومنها انه ثانيه في تربته صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها ان الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى اذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها ان الله

(فانزل الله سكينته) ما ألقى في قلبه من الامنة التي سكن عندها وعلم انهم لا يصلون اليه (عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم او على أبي بكر لانه كان يخاف وكان عليه السلام ساكن القلب

سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها انزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (وأيده بجنود لم تروها) يعني وأيد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي أعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى انه نصره وصرف عنه كيد الاعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني كلمة الشرك فهي سفلى الى يوم القيامة (وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) قال ابن عباس هي كلمة لا اله الا الله فهي باقية الى يوم القيامة عالية وقيل ان كلمة الذين كفروا هي ما كانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هي ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعده الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا قوله سبحانه وتعالى (انفروا خفافا وثقالا) يعني انفروا على الصفة التي يخف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة يعني شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال يعني فقراء وثقالا يعني اغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذي لا ضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره ان يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل اليسرة من المال وثقالا أهل العسرة وقيل خفافا يعني من السلاح مقلين منه وثقالا يعني مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعني مسرعين في الخروج الى الغزو سماعة سماع النفير وثقالا يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح ان هذا عام لان هذه الاحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعني على أي حال كنتم فيها * فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الامر كذلك فما معنى هذا الامر * قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم انه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدي نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الامر على الندب قال مجاهد ان أبا أيوب الانصاري شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك فقال سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدني الا خفيفا أو ثقيلا وقال الزهري خرج سعيد ابن المسيب وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له انك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخي

(وأيده بجنود لم تروها) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه أو أيده بالملائكة يوم بدر والاحزاب وحنين (وجعل كلمة الذين كفروا) اي دعوتهم الى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته الى الاسلام (هي) فصل (العليا) وكلمة الله بالنصب يعقوب بالعطف والرفع على الاستئناف أوجه اذ هي لم تزل كانت عالية (والله عزيز) يعز بنصره اهل كلمته (حكيم) يذل اهل الشرك بحكمته (انفروا خفافا) في النفور لنشاطكم له (وثقالا) عنه لمشقته عليكم او خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها او خفافا من السلاح وثقالا منه او ركبانا ومشاة او شبابا وشيوخا او صحاحا ومراضا مهازيل وسمانا او صحاحا ومراضا

استنفرنا

(وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) ايجاب للجهاد بهما ان أمكن أو باحدهما على حسب الحال والحاجة (فى سبيل الله ذلكم) الجهاد (خير لكم) من تركه (ان كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا اليه ونزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين (لو كان عرضا) هو ما عرض لك من منافع الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أى لو كان ما دعوا اليه مغنما (قريبا) سهل المأخذ (وسفرا قاصدا) وسطا متقاربا والقاصد والقصد المعتدل (لاتبعوك) لوافقوك فى الخروج (ولكن بعدت عليهم الشقة) المسافة الشاطة الشاقة (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) من دلائل النبوة لانه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر وبالله متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد فى الوجهين أى سيحلفون يعنى المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا الخرجنا معكم وسيحلفون بالله يقولون لو استطعنا وقوله لخرجنا سد مسد جواب القسم ولو جميعا ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الابدان كانهم تمارضوا (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون أو حال منه أى مهلكين وانتصب انهم يهلكونها بالحلف الكاذب أو حال من لخرجنا أى لخرجنا معكم وان أهلكنا أنفسنا

استغفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الاول انها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه ان هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك وان النبى صلى الله عليه وسلم خلف فى المدينة فى تلك الغزاة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فيه قولان الاول ان الجهاد انما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثانى ان من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بان يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه (ذلكم) يعنى ذلكم الجهاد (خير لكم) يعنى من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه ان الجهاد خير حاصل لكم ثوابه (ان كنتم تعلمون) يعنى ان ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قوله عزوجل (لو كان عرضا قريبا) فيه اضمار تقديره لو كان ما تدعوهم اليه عرضا يعنى غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (وسفرا قاصدا) يعنى سهلا قريبا (لاتبعوك) يعنى لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة والشقة السفر البعيد لانه يشق على الانسان سلوكها ومعنى الآية لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا فى تلك المنافع التى تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم أنهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم أنه اذا رجع النبى عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى (وسيحلفون بالله) يعنى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة (لو استطعنا لخرجنا معكم) يعنى الى هذه الغزوة (يهلكون أنفسهم) يعنى بسبب هذه الايمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على ان الايمان الكاذبة تهلك صاحبها (والله يعلم انهم لكاذبون) يعنى فى أيمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لانهم كانوا مستطيعين الخروج قوله عزوجل (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال الطبرى هذا عتاب من الله عزوجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أى فى اذنه لمن أذن له فى التخلف عنه من المنافقين حين شخص الى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى اذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك قال عمرو بن ميمون الاودى اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشئ فيهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يعيره

٤٠ ن نى والقيناها فى التهلكة بما نحملها على المسير فى تلك الشقة (والله يعلم انهم لكاذبون) فيما يقولون (عفى الله عنك) كناية عن الزلة لان العفو رادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو فى الخطاب وفيه دلالة فضله على سائر الانبياء عليهم السلام حيث لم يذكر مثله لسائر الانبياء عليهم السلام (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه ما لك

بالذنب * (فصل) * استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء وبيانه من وجهين أحدهما انه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب الوجه الثاني انه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الانكار والجواب عن الاول انا لا نسلم ان قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول ان ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الالفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي ابن الجهم يخاطب المتوكل

عفا الله عنك الاحرمة * تعود بفضلك ان أبعدا
ألم تر عبدا عداطوره * ومولى عفا ورشيدا هدى
أقلني أقالك من لم يزل * يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثاني انه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الانكار عليه وبيانه اما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أو لا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو يستحيل ان يتوجه الانكار عليه وان لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الانكار عليه فثبت بهذا أن الانكار يمتنع في حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضي عياض في كتابه الشفا في الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم انه أمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد شاء الله من ذلك بل كان مخيرا في أمرين قالوا وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فاذن لمن شئت منهم فلما اذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم انه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنب قال الداودي انها تكرمة وقال مكي هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندي ان معناه عافاك الله وقيل معناه ادام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الاولى والا كان لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا (حتى يتبين لك الذين صدقوا) يعني في اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) يعني فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة قوله سبحانه وتعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي في أن يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره (والله عليم بالمتقين) يعني الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يعني في التخلف عن الجهاد معك

أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالاذن (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما اذنه للمنافقين وأخذه الفدية من الاسارى فعاتبه الله وفيه دليل جواز الاجتهاد للانبياء عليهم السلام لانه عليه السلام انما فعل ذلك بالاجتهاد وانما عوتب مع ان له ذلك لتركه الافضل وهم يعاتبون على ترك الافضل (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا) ليس من عادة المؤمنين ان يستأذنوك في أن يجاهدوا (بأموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين) عدة لهم بأجزل الثواب (انما يستأذنك

يامحمد من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لقوله (وارتابت قلوبهم) يعني شكت قلوبهم في الايمان وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان أيضا فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم في ريبهم يترددون) يعني ان المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآيات فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه وتعالى ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن في التخلف فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فاذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) يعني الى الغزو معكم (لاعدوا له عدة) لتهيؤا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من السلاح والكراع (ولكن كره الله انبعاثهم) يعني خروجهم الى الغزو معكم (فثبطهم) يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو أن خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم في أذنه لهم بالقعود والجواب عن هذا السؤال ان خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ثم لما بقي فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم فنقول انه صلى الله عليه وسلم أذن لهم قبل تمام الفحص وا كمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال تعالى لم أذنت لهم وقيل انما عاتبه لاجل انه أذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود (وقيل اقعدوا مع القاعدين) معناه انهم لما استأذنوه في القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل ان القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بان ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين الى الجهاد ثم بين سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم الى الغزو ما زادوكم الا فسادا وشرا وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالا والمراد به ههنا الافساد وايقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) يعني المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلا (وارتابت قلوبهم) شكوا في دينهم واضطربوا في عقيدتهم (فهم في ريبهم يترددون) يتحيرون لان التردد بين المتحير كما ان الثبات بين المستبصر (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له) للخروج أو للجهاد (عدة) أهبة لانهم كانوا مياسير وما كان ولو أرادوا الخروج معطيا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل (ولكن كره الله انبعاثهم) نهوضهم للخروج كأنه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم (فثبطهم) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الامر بالتزهيد فيه (وقيل اقعدوا) أي قال بعضهم لبعض أو قاله الرسول عليه السلام غضبا عليهم أو قاله الشيطان بالوسوسة (مع القاعدين) هو ذم لهم والحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شانهم القعود في البيوت (لو خرجوا فيكم ما زادوكم) بخروجهم معكم (الا خبالا) الا فسادا وشرا والاستثناء متصل لان المعنى ما زادوكم شيأ الا خبالا والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور واذا لم

يذكر وقع الاستثناء من الشيء فكان استثناء متصلا لان الخبال بعضه (ولأوضعوا خلالكم) ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وافساد ذات البين يقال وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته اناوالمعنى ولأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد الاسراع بالنمائم لان الراكب أسرع من الماشي ٣١٦ وخط في المصحف ولا أوضعوا بزيادة الالف لان الفتحة كانت

تكتب ألفا قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريبا من نزول القرآن وقد بقي من تلك الالف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفا وفتحها ألفا أخرى ونحوه أولا ذبحته (يبغونكم) حال من الضمير في أوضعوا (الفتنة) أي يطلبون أن يفتنوكم بان يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغازيكم (وفيكم سماعون لهم) أي عاملون يسمعون حديثكم فينقلونه اليهم (والله عليم بالظالمين) بالمنافقين (لقد ابتغوا الفتنة) بصد الناس او بان يفتكوا به عليه السلام ليلة العقبة أو بالرجوع يوم احد (من قبل) من قبل غزوة تبوك (وقلبوا لك الامور) ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تاييدك ونصرك (وظهر امر الله) وغلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) اي على رغم منهم (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) ولا توقعني في الفتنة وهي الاثم بان لا تأذن لي فاني ان تخلفت بغير اذنك أثمت أو لا تلقني في الهلكة فاني اذا خرجت معك هلك مالي وعيالي

وقيل قال الجد بن قيس المنافق قد علمت الانصار اني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر يعني نساء الروم ولكني أعينك بمالي فاتركني (ألا في الفتنة سقطوا) يعني أن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) الآن لان أسباب الاحاطة معهم أو هي تحيط بهم يوم القيامة (ان تصبك) في بعض الغزوات (حسنة) ظفر وغنيمة (تسؤهم وان تصبك مصيبة) نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى يوم أحد (يقولوا قد أخذنا

الامر وشدة السفر وكثرة العدو وقوتهم (ولا أوضعوا خلالكم) يعني ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك انهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد يعني وفيكم عيون لهم يؤدون اليهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم فان قلت كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين قلت يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا رب بما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الاحوال (والله عليم بالظالمين) وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) يعني لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين ورودهم الى الكفر وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول يوم أحد حين انصرف باصحابه عنك (وقلبوا لك الامور) يعني وأجالوا فيك وفي أمرك وفي ابطال دينك الرأي وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك (حتى جاء الحق) يعني النصر والظفر (وظهر أمر الله وهم كارهون) يعني ذلك قوله عز وجل (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الاصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومي اني رجل مغرم بحب النساء واني أخشى ان رأيت بنات بني الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم يكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت ذلك فانزل الله عز وجل فيه ومنهم يعني ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات بني الاصفر وهم الروم (ألا في الفتنة سقطوا) يعني انهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها قوله سبحانه وتعالى (ان تصبك حسنة تسؤهم) يعني ان تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وان تصبك مصيبة) يعني من هزيمة أو شدة (يقولوا) يعني المنافقين (قد أخذنا

أمرنا) الذى نحن مشمولون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم (من قبل) ما وقع (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهاليهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) أى قضى من خير أو شر (هو مولانا) أى الذى يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحق المؤمنين ان لا يتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون بنا) تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) وهما النصرة والشهادة (ونحن نتربص بكم) احدى السوأيين اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود (أو) بعذاب (بايدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) بنا ماذا كرنا (انا معكم متربصون) ماهو عاقبتكم (قل أنفقوا) فى وجوه البر (طوعا أو كرها) طائعين أو مكرهين نصب على الحال كرها حمزة وعلى وهو أمر فى معنى الخبر ومعناه (ان يتقبل منكم) أنفقتم طوعا أو كرها ونحوه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وقوله

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة
لدينا ولا مقلية ان تقلت

أى لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا تلومك أسأت الينا أو أحسنت وقد جاز عكسه فى قولك رحم الله زيدا ومعنى عدم القبول انه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبهم الله وقوله طوعا أى من غير الزام من الله ورسوله وكرها أى ملزمين وسمى الالزام اكراها لانهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه (انكم) تعليل لرد انفاقهم (كنتم قوما

أمرنا) يعنى أخذنا أمرنا بالجد والحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) يعنى من قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) يعنى مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا الا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه فى اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له (هو مولانا) يعنى ان الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعنى فى جميع أمورهم (قل هل تربصون بنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين) يعنى اما النصر والغنيمة واما الشهادة والمغفرة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الغزو والجهاد فى سبيل الله اما ان يغلب عدوه ويفوز بالنصر والغنيمة والاجر العظيم فى الآخرة واما ان يقتل فى سبيل الله فتحصل له الشهادة وهى الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روى عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله وفى رواية تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهاد فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة أخرجاه فى الصحيحين وقوله سبحانه وتعالى (ونحن نتربص بكم) يعنى ونحن ننتظر بكم احدى السوأيين (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) يعنى فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية (أو بايدينا) يعنى أو يصيبكم بأيدى المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم (فتربصوا انا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان انا متربصون مواعيد الله من اظهار دينه واستئصال من خالفه (قل أنفقوا طوعا أو كرها) نزلت فى الجد بن قيس المنافق وذلك انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالى فأنزل الله عز وجل رد اعليه قل أى قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله فى النفاق أنفقوا طوعا أو كرها يعنى أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالانفاق بالزام الله ورسوله اياكم بالانفاق (لن يتقبل منكم) لان هذا الانفاق انما وقع لغير الله وهذه الآية وان كانت خاصة فى انفاق المنافقين فهى عامة فى حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه ثم علل بسبب منع القبول بقوله (انكم) أى لانكم (كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله) أى المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله (ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان يعنى متثاقلين فى الاتيان الى الصلاة وذلك لانهم لا يرجون على فعلها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فلذلك ذمهم مع فعلها (ولا ينفقون الا وهم

فاسقين) متمردين عاتين (وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم) وبالياء حمزة وعلى (الا أنهم كفروا) انهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه أى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون الا وهم

كارهون) لانهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى وصفهم بالطوع فى قوله طوعا وشبه عنهم ههنا لان المراد بطوعهم انهم يبذلونه من غير الزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم وما طوعهم ذلك الا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا) الاعجاب بالشئ ان تسر به سرورا تراض به متعجبا من حسنه والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فان الله انما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها أو بالانفاق منه فى أبواب الخير وهم كارهون له أو بذهاب أموالهم ونفوس أولادهم أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها وكل هذا عذاب (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وتخرج أرواحهم وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ودلت الآية على بطلان القول بالاصلح لانه أخبر ان اعطاء الاموال والاولاد لهم للتعذيب والاماتة على الكفر وعلى ارادة الله تعالى المعاصى لان ارادة العذاب بارادة ما يعذب عليه وكذا ارادة الاماتة على الكفر (ويحلفون بالله انهم لمنكم) من جملة المسلمين (وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) مكانا يلجؤن اليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أو مغارات) أو غيرانا (أو مدخلا) أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل

كارهون) لانهم كانوا يعتقدون الانفاق فى سبيل الله مغرما ومنع ذلك الانفاق مغنما (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم ولا أولادهم) هذا الخطاب وان كان مختصا بالنبى صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والاعجاب السرور بالشئ مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد انه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشئ ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغى للانسان ان لا يعجب بشئ من أمور الدنيا ولذاتها فان العبد اذا كان من الله عز وجل فى استدراج كثر ماله وولده فيكثر اعجابه بحاله وولده فيبطر ويكفر نعمة الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا) فان قلت كيف يكون المال والولد عذابا فى الدنيا وفيهما اللذة والسرور فى الدنيا قلت قال مجاهد وقتادة فى الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة وقيل ان سبب كون المال والولد عذابا فى الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق فى تحصيلهما فاذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق فى حفظهما وبزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا القول لا حاجة الى التقديم والتأخير فى نظم الآية وأورد على هذا القول بان هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بنى آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب فى الدنيا واجيب عن هذا الايراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو ان المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وانه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا فى الدنيا وأما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة له وانه ليس فيها ثواب فبقى ما يحصل له فى الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه فى الدنيا فثبت بهذا الاعتبار ان المال والولد عذاب على المنافقين فى الدنيا دون المؤمنين وقيل ان تعذيبهم بهما فى الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة فى سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد فى الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب فى جمعه وحفظه والكره فى انفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم فى الآخرة على ملك لا يعذره (وتزهق أنفسهم) يعنى وتخرج أنفسهم (وهم كافرون) والمعنى انهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة قوله عز وجل (ويحلفون بالله) يعنى المنافقين (انهم لمنكم) يعنى على دينكم وملتكم (وما هم منكم) يعنى انهم كاذبون فى أيمانهم (ولكنهم قوم يفرقون) يعنى انهم يخافون ان تظهروا على ما هم عليه من النفاق (لو يجدون ملجأ) يعنى حرزا وحصنا ومعقلا يلجؤن اليه وقيل لو وجدوا مهربا لهربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم (أو مغارات) يعنى غيرانا فى الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدخلا) يعنى موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب فى الارض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم

لولوا

(لولوا اليه) والمعنى انهم لو وجدوا مكانا بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهى شر الامكنة وأضيقها لولوا اليه أى لرجعوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) يعنى وهم يسرعون الى ذلك المكان والمعنى ان المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم الى أحد هذه الامكنة لصاروا اليه لشدة بغضهم اياكم قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فيئا أتاه ذو الخويصرة رجل من بنى تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل اذا لم أعدل وفى رواية قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر بن الخطاب أئذن لى فيه فاضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم زاد فى رواية يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين وفى رواية من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلا من أهل البادية حديث عهد باعرابية اتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله ان كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا من يهواه فانزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى ولحده أى عابه (فان أعطوا منها) يعنى من الصدقات (رضوا) يعنى رضوا عنك فى قسمتها (وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) يعنى وان لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا (ولو أنهم رضوا) يعنى ولو ان المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا (ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) يعنى ما نحتاج اليه (انا الى الله راغبون) يعنى فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم واعود عليهم قوله عز وجل (انما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية اعلم ان المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه فى قسم الصدقات بين الله عز وجل فى هذه الآية ان المستحقين للصدقات هؤلاء الاصناف الثمانية وصرفها اليهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشئ ولم يأخذ لنفسه منها شيأ فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات عن زياد بن الحرث الصدائى قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فاتاه رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية اجزاء فان كنت من تلك الاجزاء أعطيتك حقك اخرجه أبو داود

من الدخول (لولوا اليه) لاقبلوا نحوه (وهم يجمحون) يسرعون أسراعا لا يردهم شئ من الفرس الجموح (ومنهم) ومن المنافقين (من يلمزك فى الصدقات) يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) اذا للفاجاة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط وصفهم بان رضاهم وسخطهم لانفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله لانه عليه السلام استعطف قلوب أهل مكة يوم فتحها وغير الغنائم عليهم فتحير المنافقون منه (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وان قل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم انا الى الله فى أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون ثم بين مواضعها التى توضع فيها فقال (انما الصدقات للفقراء والمساكين) قصر جنس الصدقات على الاصناف المعدودة أى هى مختصة بهم لا تتجاوز الى غيرهم كانه قيل انما

*(فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل) *المسئلة الاولى في بيان وجه الحكمة في ايجاب الزكاة على الاغنياء وصرفها الى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه الوجه الاول ان المال محبوب بالطبع وسببه ان القدرة صفة من صفات الكمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة الى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الالهية ايجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل باخراج الزكاة منه الوجه الثاني ان كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل الى شهواتها ولذاتها فاوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة لازالة ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لان التكاليف البدنية غير شاقة على العبد واخراج المال مشق على النفس فاوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة أصحاب الاموال ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها الوجه الرابع ان المال مال الله والاغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فامر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله الى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع الى امتثال الامر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق) عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الخازن المسلم الامين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذي أمر له به أحد المتصدقين الوجه الخامس ان الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالاموال التي بايدي الاغنياء فاوجب الله عز وجل نصيبا للفقراء في ذلك المال تطييبا لقلوبهم الوجه السادس ان المال الفاضل عن حاجة الانسان الاصلية اذا أمسك بقي معطلا عن المقصود الذي لاجله خلق المال فأمر بدفع الزكاة الى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية *(المسئلة الثانية) * الآية تدل على انه لا حق لاحد في الصدقات الا هؤلاء الاصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لان كلمة انما تفيد ان الحصر وذلك لانها مركبة من ان وما فكلمة ان للاثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيد ان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على ان الصدقات لا تصرف الا الى الاصناف الثمانية *(المسئلة الثالثة) *في بيان الاصناف الثمانية فالصنف الاول الفقراء والثاني المساكين وهم المحتاجون الذين لا يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري الفقير الذي لا يسال والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم الى الدرهم والتمرة الى التمرة ولكن الفقير من أبقى نفسه وثيابه ولا يقدر على شئ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته سائلا كان أو غير سائل

هي له لا لغيرهم كقولك انما الخلافة لقريش تريد لا تعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف الى الاصناف كلها وان تصرف الى بعضها كما هو مذهبنا وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين انهم قالوا في أي صنف منها وضعتها اجزأك وعند الشافعي رحمه الله لا بد من صرفها الى الاصناف وهو المروي عن عكرمة ثم الفقير الذي لا يسال لان عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذي يسال لانه لا يجد شيأ فهو أضعف حالا منه وعند الشافعي

فالمسكين

فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير وقال أبو حنيفة وأصحاب الرأى الفقير أحسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعى ومن وافقه ان الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات الى هؤلاء الاصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وانما يبدأ بالاهم فالاهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور والفقار قال لبيد

لما رأى لبد النسور تطايرت ❊ رفع القوادم كالفقير الاعزل

قال ابن الاعرابى الفقير فى هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا ان الفقير انما سمى فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة ومنعه الزمانة من التقلب فى الكسب ولان النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة رواه الترمذى من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا ان المسكين أحسن حالا من الفقير ولان الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لان السفينة من سفن البحر تساوى دنانير كثيرة ولان الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا ان الفقير أسوأ حالا من المسكين وجه أبى حنيفة ومن وافقه على ان المسكين أسوأ حالا من الفقير قوله أو مسكينا ذا متربة بوصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذى لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولان الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضا بقول الراعى

اما الفقير الذى كانت حلوبته ❊ وفق العيال فلم يترك له سبد

واحتج أيضا بقول الاصمعى وأبى عمرو بن العلاء ان الفقير الذى له ما يأكل والمسكين الذى لا شئ له وكذا قال القتبى الفقير الذى له البلغة من العيش والمسكين الذى لا شئ له وقيل الفقير الذى له المسكن والخادم والمسكين الذى لا ملك له وقيل ان كل محتاج الى شئ فهو مفتقر اليه وان كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى أنتم الفقراء الى الله فاثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج اما قوله أو مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه لانه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على انه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة والا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين أنه هو الفقير الذى لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعى انه ذكر الفقير وحده فكل فقير أفرد بالاسم جاز اطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهى معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة ان الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذى كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذى ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة فى طلب القوت عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغنى ولا

لذى مرة سوى أخرجه النسائى وأبو داود وله فى رواية أخرى ولا لذى مرة قوى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار قال أخبرنى رجلان انهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب أخرجه أبو داود والنسائى وأخرجه الشافعى ولفظه ان رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن الصدقة فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لذى قوة مكتسب واختلف العلماء فى حد الغنى الذى يمنع من أخذ الصدقة فقال الاكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعى وقال أصحاب الرأى حده أن يملك مائتى درهم وقال قوم من ملك خمسين درهما أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسئلته فى وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وهذا قول الثورى وابن المبارك وأحمد واسحق وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل أربعين درهما لما روى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف أخرجه أبو داود وكانت الاوقية فى ذلك الزمان أربعين درهما * الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور اعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعى وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد الا أن الشافعى يقول هو أجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح ان الهاشمى والمطلبى لا يجوز أن يكون عاملا على الصدقات لما روى عن أبى رافع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بنى مخزوم على الصدقة فاراد أبو رافع ان يتبعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل لنا الصدقة وان مولى القوم منهم أخرجه الترمذى والنسائى * الصنف الرابع قوله تعالى (والمؤلفة قلوبهم) وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فاما قسم المسلمين فقسمان القسم الاول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى رغبتهم فى الاسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية فى الاسلام وهم أشراف قومهم مثل عدى بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تالفا لقومهم وترغيبا لامثالهم فى الاسلام فيجوز للامام أن يعطى امثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفىء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضا القسم الثانى من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بازاء قوم كفار فى موضع لا تبلغهم جيوش

المسلمين

رحمه الله على العكس (والعاملين عليها) هم السعاة الذين يقبضونها (والمؤلفة قلوبهم) على الاسلام اشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على ان يسلموا وقوم منهم اسلموا فيعطيهم تقريرا لهم على الاسلام

المسلمين الا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بازائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للامام ان يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بازاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها الى الامام فيعطيهم الامام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى ان عدى بن حاتم جاء ابا بكر بثلثمائة من الابل من صدقات قومه فاعطاه ابو بكر منها ثلاثين بعيرا وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم او يرجى اسلامهم فيجوز للامام ان يعطى من يخاف شره أو يرجو اسلامه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن امية لما كان يرى من ميله الى الاسلام اما اليوم فقد أعز الله الاسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن ان يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تالفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى واسحاق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهرى وأبى جعفر محمد بن على وأبى ثور وقال احمد يعطون ان احتاج المسلمون الى ذلك * الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى (وفى الرقاب) قال الزجاج فيه حذف تقديره وفى فك الرقاب وفى تفسير الرقاب أقوال الاول أن سهم الرقاب موضوع فى المكاتبين فيدفع اليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وهو قول اكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعى والزهرى والليث بن سعد ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم القول الثانى وهو مذهب مالك وأحمد واسحق أن سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ماروى عن ابن عباس انه قال لا باس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبى حنيفة واصحابه انه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها فى عتق رقبة ويعان بها مكاتب لان قوله وفى الرقاب يقتضى التبعيض القول الرابع وهو قول الزهرى ان سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة قال أصحابنا الاحوط فى سهم الرقاب أن يدفع الى السيد باذن المكاتب ويدل عليه انه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للاصناف الاربعة المتقدمة بلام الملك فقال انما الصدقات للفقراء وقال فى الصنف الخامس وفى الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهى ان الاصناف الاربعة المتقدم ذكرها يدفع اليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤا واما الرقاب فيوضع نصيبهم فى تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع اليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول فى الغارمين فيصرف نصيبهم فى قضاء ديونهم وفى الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون اليه فى الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف اليه ما يحتاج اليه فى سفره الى بلوغ غرضه * الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى (والغارمين) أصل الغرم فى اللغة لزوم ما يشق على النفس سمى الدين غرما لكونه شاقا على الانسان والمراد بالغارمين هنا

(وفى الرقاب) هم المكاتبون (والغارمين) الذين يعانون منها ركبتهم الديون

المديونون وهم قسمان قسم ادانوا لانفسهم فى غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم اذا لم يكن لهم مال يفى بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا فى المعروف واصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم وان كانوا أغنياء لما روى عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة لغاز فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسير اعانه او لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فاهدى المسكين للغنى أخرجه ابو داود مرسلا لان عطاء بن يسار لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم متصلا ومنها اما من كان دينه فى معصية فلا يعطى من الصدقات شيأ * الصنف السابع قوله تعالى (وفى سبيل الله) يعنى وفى النفقة فى سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون اذا أرادوا الخروج الى الغزو ما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وان كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبى سعيد الخدرى ولا يعطى من سهم سبيل الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز ان يصرف سهم سبيل الله الى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن واليه ذهب احمد بن حنبل واسحق بن راهويه وقال بعضهم ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لان قوله وفى سبيل الله عام فى الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الاول هو الصحيح لاجماع الجمهور عليه * الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى (وابن السبيل) يعنى المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق سمى المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر

أنا ابن الحرب ربتنى وليدا * الى ان شبت وا كتهلت لدانى

فكل مريد سفر اما حاول ليكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال فى البلد الذى يقصده أو لم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع وقوله تعالى (فريضة من الله) يعنى ان هذه الاحكام التى ذكرها فى هذه الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الاشياء فريضة (والله عليم) يعنى بمصالح عباده (حكيم) يعنى فيما فرض لهم لا يدخل فى تدبيره وحكمه نقض ولا خلل * (المسئلة الرابعة) فى احكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على أن المراد بقوله انما الصدقات للفقراء هى الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا فى كيفية قسمتها وفى جواز صرفها كلها الى بعض الاصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء الى انه لا يجوز صرفها كلها الى بعض الاصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة واليه ذهب الشافعى قال يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الاصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة

(وفى سبيل الله) فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن ماله وعدل عن اللام الى فى فى الاربعة الاخيرة للايذان بانهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لان فى الوعاء فنبه على انهم احقاء بان توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها وتكرر فى قوله فى سبيل الله وابن السبيل فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين وانما وقعت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على انهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا بانهم بعداء عنها وعن مصارفها فما لهم وما لها وما سلطهم على التكلم فيها ولمن قاسمها وسهم المؤلفة قلوبهم سقط باجماع الصحابة فى صدر خلافة أبى بكر رضى الله عنه لان الله أعز الاسلام واغنى عنهم والحكم متى ثبت معقولا لمعنى خاص يرتفع وينتهى بذهاب ذلك المعنى (فريضة من الله) فى معنى المصدر المؤكد لان قوله انما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم (والله عليم) بالمصلحة (حكيم)

على السواء لان سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط اذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الاصناف الستة لا يجوز أن تصرف الى أقل من ثلاثة منهم ان وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الاصناف الا واحدا دفع حصة ذلك الصنف اليه مالم يخرج من حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شئ رده الى الباقين وذهب جماعة من العلماء الى أنه لو صرف الكل الى صنف واحد من هذه الاصناف أو الى شخص واحد منهم جاز لان الله سبحانه وتعالى انما سمى هذه الاصناف الثمانية اعلاما منه ان الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية لا ايجابا منه لقسمتها بينهم جميعا وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء واليه ذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى وأحمد بن حنبل قال احمد بن حنبل يجوز أن يضعها فى صنف واحد وتفريقها أولى وقال ابراهيم النخعى ان كان المال كثيرا يحتمل الاجزاء قسمه على الاصناف وان كان قليلا وضعه فى صنف واحد وقال مالك يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الاولى فالاولى من أهل الخلة والحاجة فان رأى الخلة فى الفقراء فى عام قدمهم وان رآها فى صنف آخر فى عام حولها اليهم وكل من دفع اليه شيأ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو ما يحتاج اليه فان حصل أدنى اسم الغنى فلا يعطى بعده شيأ وان كان محترفا لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الامام الشافعى رضى الله عنه ما يدفع الحاجة من غير حد وقال أحمد ابن حنبل لا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهما وقال أبو حنيفة أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتى درهم فان أعطيته اجزأ فان اعطى من يظنه فقيرا فبان انه غنى فهل يجزئ فيه قولان ولا يجوز أن يعطى صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثورى وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعى لا يعطى والدا وان علا ولدا وان سفل ولا زوجة ويعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع اليهم من الزكاة شئ لقوله صلى الله عليه وسلم انا آل بيت لا تحل لنا الصدقة وقال أبو حنيفة تحرم على بنى هاشم ولا تحرم على بنى المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب شئ واحد لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام وتحرم الصدقة على موالى بنى هاشم وبنى المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وقال مالك لا تحرم واختلفوا فى نقل الصدقة من بلد المال الى بلد آخر مع وجود المستحقين فى بلد المال فكرهه أكثر اهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأعلمهم ان الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم الحديث بطوله فى الصحيحين واتفقوا على أنه اذا نقل المال الى بلد آخر واداه الى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض الا ما حكى عن عمر بن عبد العزيز فانه رد صدقة حملت من خراسان الى الشام فردها الى مكانها من خراسان والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون ما لا ينبغى فقال بعضهم

فى القسمة (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو اذن) الاذن الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد سمى بالجارحة التى هى آلة السماع كأن جملته اذن سامعة وايذاؤهم له هو قولهم فيه هو اذن قصدوا به المذمة وانه من أهل سلامة القلوب والغرة فيسره الله تعالى بما هو مدح له وثنا عليه

فقال (قل اذن خير لكم) كقولك رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو اذن ولكن نعم الاذن ويجوز أن يريده اذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس باذن في غير ذلك ثم فسر كونه اذن خير بأنه (يؤمن بالله) أي يصدق بالله لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والانصار وعدى فعل الايمان بالباء الى الله لانه قصد به التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به والى المؤمنين باللام لانه قصد السماع من المؤمنين وان يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده الا ترى الى قوله وما أنت بمؤمن لنا كيف نبئ عن الباء (ورحمة) بالعطف على اذن ورحمة جرة عطف على خير اى هو اذن خير واذن رحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله (للذين آمنوا منكم) اى وهو رحمة للذين آمنوا منكم أي أظهروا الايمان أيها المنافقون حيث يقبل ايمانكم الظاهر ولا يكشف اسراركم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر الى الايمان وشفع لهم في الآخرة بايمانهم في الدنيا (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم) في الدارين (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكاهون بالطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم (والله ورسوله أحق أن يرضوه

لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه ونتكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا انما نقول فانما محمد اذن أي يسمع كل ما يقال له ويقبله وقيل معنى هو اذن أي ذو أذن سامعة وقال محمد بن اسحق نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث وكان نم حديث النبي صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لا تفعل ذلك فقال انما محمد اذن فمن حدثه شيأ صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فانزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو اذن انه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل ما يسمع فاجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (قل اذن خير لكم) يعني هو انه اذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى انه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرئ أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) يعني انه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وانما عدى الايمان بالله بالباء والايمان للمؤمنين باللام لان الايمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى الا بالباء فيقال آمنت بالله والايمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال الا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له (ورحمة) أي هو رحمة (للذين آمنوا منكم) وانما قال منكم لان المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله انه رحمة للمؤمنين الخلصين لا للمنافقين وقيل في كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لانه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) يعني في الآخرة قوله عز وجل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار اسمه عامر بن قيس فنقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله ان ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبي نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم اتوه يعتذرون ويحلفون فانزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ورسوله أحق أن يرضوه) اختلفوا في معنى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لان في رضا الله رضا رسوله صلى الله

الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والاخلاص وقيل يجوز أن يكون المراد برضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله (ان كانوا مؤمنين) يعني ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة قوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا لما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (أنه من يحادد الله ورسوله) يعني انه من يخالف الله ورسوله وأصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اذا صار في غير حده وخالفه في أمره وقيل معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله (فان له نار جهنم) أي فحق أن له نار جهنم (خالدا فيها) يعني على الدوام (ذلك الخزي العظيم) يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة قوله عز وجل (يحذر المنافقون) يعني يخشى المنافقون (ان تنزل عليهم سورة) يعني على المؤمنين (تنبئهم) يعني تخبر المؤمنين (بما في قلوبهم) يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويستهزئون ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني أنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم وقال ابن عباس انزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزؤا) أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم (ان الله مخرج) أي مظهر (ما تحذرون) والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يظهر الى الوجود ما كان المنافقون يستترون ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذ اعلاها وتذاكروا له في ليلة مظلمة فاخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد اضمروا له وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت الينا من يقتلهم فقال اكره أن تقول العرب لما ظفر باصحابه أقبل يقتلهم بل يكفينا هم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عباد قال قلت لعمار رأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فان الرأي يخطئ ويصيب أم عهد عهده اليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ لم يعهده الى الناس كافة وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في أمتي قال شعبة

ان كانوا مؤمنين) أي ان كنتم مؤمنين كما تزعمون فاحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا في حكم شيء واحد كقولك احسان زيد واجماله رفعني أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك (ألم يعلموا انه) ان الامر والشان (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف وهي مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (فان له) على حذف الخبر أي فحق ان له (نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم يحذر المنافقون) خبر بمعنى الامر أي ليحذر المنافقون (أن تنزل عليهم سورة) تنزل بالتخفيف مكي وبصري (تنبئهم بما في قلوبهم) من الكفر والنفاق والضمائر للمنافقين لان السورة اذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم دليله قل استهزؤا أو الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين وصح ذلك لان المعنى يعود اليه (قل استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج ما تحذرون) مظهر ما كنتم تحذرونه أي تحذرون اظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالاسلام واهله حتى قال بعضهم وددت اني قدمت فجلدت مائة وانه لا ينزل فينا شيء يفضحنا

واحسبه قال حدثني حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة جراح من النار يظهر في اكتافهم حتى ينجم من صدورهم قوله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم ان رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك ما القرائنا أرغبنا بطونا ولا أكذبنا ألسنة ولا أجبننا عند اللقاء فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله بن عمر فنظرت اليه يعني الى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة يقول انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ما يلتفت اليه وما يزيده قال محمد بن اسحق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت اخو أميمة بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فاتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله انما كنا نخوض ونلعب فانزل الله فيهم ما تسمعون وقال الكلبي ومقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزآن بالقرآن والرسول والثالث يضحك فقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه يغلب الروم ويفتحها هيهات هيهات ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه أنزل في أصحابنا قرآنا انما هو وقوله وكلامه فاطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث وأصل الخوض الدخول في مائع كالماء مع التلبس ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وانكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على ايقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل ان المنافقين لما قالوا ذلك كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح في قدرة الله وانما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء قوله عز وجل (لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر اليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني قد كفرتم بعد ايمانكم يعني ان الاستهزاء بالله كفر والاقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال

(ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فاطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فاتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله لا والله ما كنا في شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا في شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر أي ولئن سألتهم وقلت لهم لم قلتم ذلك لقالوا انما كنا نخوض ونلعب (قل) يا محمد (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) لم يعبأ باعتذارهم لانهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبانه موجود فيهم حتى وبخوا باخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير وذلك انما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء (لا تعتذروا) لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فانها لا تنفعكم بعد ظهور سركم (قد كفرتم) قد اظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد ايمانكم) بعد

كانوا ثلثمائة والنساء المنافقات مائة وسبعين (بعضهم من بعض) أى كانهم نفس واحدة وفيه نفى ان يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى قولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله ومأهم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال (يأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المعروف) عن الطاعة والايمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمال والصدقات والانفاق فى سبيل الله (نسوا الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (فنسيهم) فترهم من رحمته وفضله (ان المنافقين هم الفاسقون) هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف به المنافقون حين بالغ فى ذمهم (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) فيه دلالة على عظم عذابها وانه بحيث لا يزاد عليه (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين

سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم فان قلت ان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد ايمانكم قلت معناه أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الايمان وذلك ان المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد ايمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد ان كنتم عندهم مؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) ذكر المفسرون ان الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخاشن ابن حمير الاشجعى يقال انه هو الذى كان يضحك ولا يخوض وقيل انه كان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع الى الاسلام وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد انا غسلت انا كفنت انا دفنت فاصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه قوله سبحانه وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) يعنى أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والاعمال الخبيثة كما يقول الانسان لغيره أنا منك وأنت منى اى أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف) يعنى عن الايمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقبضون أيديهم) يعنى عن الانفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير (نسوا الله فنسيهم) هذا الكلام لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملناه على النسيان الحقيقى لم يستحقوا ذما عليه لان النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وأيضا فان النسيان فى حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكر وا فيه وجهين الاول معناه انهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الوجه الثانى أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لان من ترك شيأ لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والايمان به ترهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى (ان المنافقين هم الفاسقون) يعنى هم الخارجون عن الطاعة (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) يقال وعده بالخير وعدا ووعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر (نار جهنم خالدين فيها) فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها (هى حسبهم) يعنى هى كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الايمان والطاعة (ولعنهم الله) يعنى وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه (ولهم عذاب مقيم)

 (ولهم عذاب مقيم) دائم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على اسرارهم الكاف

في (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) محلها رفع أى أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم أى تلذذوا بلاذ الدنيا والخلاق النصيب مشتق من الخلق وهو التقدير أى ماخلق للانسان بمعنى قدر من خير (وخضتم) فى الباطل (كالذى خاضوا) كالفوج الذى خاضوا أو كالخوض الذى خاضوا والخوض الدخول فى الباطل واللهو وانما قدم فاستمتعوا بخلاقهم وقوله كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ليذم الاولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة وطلب الفلاح فى الآخرة ثم شبه بعد ذلك حال الخاطبين بحالهم (أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) فى مقابلة قوله وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين (وأولئك هم الخاسرون) ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال

أى دائم لا ينقطع فان قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه قلت ليس ذلك تكرارا وبيان الفرق من وجهين الاول ان معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار ولقائل ان يقول هذا التأويل مشكل لانه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شئ آخر الى عذاب النار وأجيب عن هذا الاشكال بأن قوله هى حسبهم فى الايلام ولا يمتنع ان يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم الوجه الثانى ان العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم قوله سبحانه وتعالى (كالذين من قبلكم) هذا رجوع عن الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة وقيل انه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لاجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بانهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) يعنى بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) يعنى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للانسان وقدر له من خير كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) وهذا خطاب للحاضرين يعنى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) فان قلت ما الفائدة فى ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الاولين مرة ثم ذكره فى حق المنافقين ثانيا ثم اعادته ذكره فى حق الاولين ثالثا قلت فائدته انه يذم الاولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم فى الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع الى ذكر حال الاولين ثالثا وهذا كما تريد ان تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم فى فعلهم وقوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) معطوف على ما قبله ومستند اليه يعنى وسلكتم فى فعلكم مثل ما سلكوا فى اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (اولئك حبطت أعمالهم) يعنى بطلت أعمالهم (فى الدنيا والآخرة) يعنى ان أعمالهم لا تنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة بل يعاقبون عليها (واولئك هم الخاسرون) والمعنى انه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وقوله تعالى

(ألم يأتهم) رجع من الخطاب الى الغيبة يعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) يعنى خبر (الذين من قبلهم) يعنى الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى (قوم نوح) يعنى أنهم أهلكوا بالطوفان (وعاد) أهلكوا بالريح العقيم (وثمود) أهلكوا بالرجفة (وقوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) يعنى المنقلبات التى جعل الله عاليها سافلها وهى مدائن قوم لوط وانما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم (أتتهم رسلهم بالبينات) يعنى بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتحل لكم النقمة كما حلت لهم (فما كان الله ليظلمهم) يعنى بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى ان الذى استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم قوله عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) لما وصف الله المنافقين بالاعمال الخبيثة والاحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعدلهم من أنواع الوعيد فى الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعدلهم من أنواع الكرامات والخيرات فى الدنيا والآخرة فقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يعنى الموالاة فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض فما الفائدة فى ذلك قلت لما كان نفاق الاتباع وكفرهم انما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والاكابر وحصل بمقتضى الطبيعة أيضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بان بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة وقوله سبحانه وتعالى (يأمرون بالمعروف) يعنى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف فى الشرع من خير وبر وطاعة (وينهون عن المنكر) يعنى عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا فى مقابلة ما وصف به المنافقون وضده (ويقيمون الصلاة) يعنى الصلاة المفروضة ويتمون أركانها وحدودها (ويؤتون الزكوة) يعنى الواجبة عليهم وهو فى مقابلة ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) يعنى فيما يأمرهم به وهو فى مقابلة نسوا الله فنسيهم (أولئك) يعنى المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات (سيرحمهم الله) لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب فى نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعدلهم فى الجنان والسين فى قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد (ان الله عزيز حكيم) وهذا يوجب المبالغة فى الترغيب والترهيب لان العزيز هو الذى

(ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح) هو بدل من الذين (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين) وأهل مدين وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم) فما صح منه ان يظلمهم باهلاكهم لانه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الرسل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى التناصر والتراحم (يأمرون بالمعروف) بالطاعة والايمان (وينهون عن المنكر) عن الشرك والعصيان (ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهى تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد فى سأنتقم منك يوما (ان الله عزيز) غالب على كل شئ قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب (حكيم) واضع كلا موضعه

لا يمتنع عليه شئ أراده فهو قادر على ايصال الرحمة لمن أراد وايصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذى يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والانصاف (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) لما ذكر الله فى الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعدلهم فى نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التى تجرى من تحتها الانهار البساتين التى يتسير فى حسنها الناظر لانه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة فى جنات عدن والمعطوف يجب ان يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم فى جنات عدن ومناظرهم الجنات التى هى البساتين فتكون جنات عدن هى المساكن التى يسكنونها والجنات الاخرى البساتين التى يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما (ومساكن طيبة) يعنى ومنازل يسكنونها طيبة (فى جنات عدن) يعنى فى بساتين خلد واقامة يقال عدن بالمكان اذا اقام به روى الطبرى بسنده عن عمران بن حصين وأبى هريرة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصر من لؤلؤة فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين وفى رواية فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك كله اجمع وروى بسنده عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن داره يعنى دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه ولا يسكنها معه من بنى آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك هكذا رواه الطبرى فان صحت هذه الرواية فلا بد من تاويلها فقوله عدن داره يعنى دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار اصفياء الله التى أعدها الاولياءه وأهل طاعته والمقربين من عباده عن أبى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن أخرجه البخارى ومسلم وقال عبد الله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعنى وسطها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله الا نبى أو صديق أو شهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر فى الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبى عدن اعلى درجة فى الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهى مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الانبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الابيض قال الامام فخر الدين الرازى حاصل هذا الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما انه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة) يطيب فيها العيش وعن الحسن رحمه الله قصورا من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد (فى جنات عدن) هو علم بدليل قوله جنات عدن التى وعد الرحمن وقد عرفت ان الذى والتى وضعا لوصف المعارف بالجمل وهى مدينة فى الجنة

هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده والقول الثاني انه صفة للجنة قال الازهري العدن ماخوذ من قولك عدن بالمكان اذا اقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن وقوله سبحانه وتعالى (ورضوان من الله أكبر) يعني ان رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كل ماسلف ذكره من نعيم الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) اشارة الى ماتقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى يارب وقد اعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا اعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شئ أفضل من ذلك فيقول احل عليكم رضواني فلا اسخط بعده عليكم ابدا قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) يعني بالسيف والمحاربة والقتال (والمنافقين) يعني وجاهد المنافقين واختلفوا في صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف ان المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الاسلام ولما كان الامر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لاظهاره الاسلام فقال ابن عباس أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر في وجهه وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعني اذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وانما قال الحسن وقتادة ذلك لان غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم المنافقون قال الطبري وأولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلابد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة ان الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ عليهم) يعني شدد عليهم بالجهاد والارهاب (ومأواهم جهنم وبئس المصير) يعني ان جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم اليها فان قلت كيف ترك النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم قلت انما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على اظهارها فاما من تكلم بالكفر في السر فاذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال اني مسلم فانه يحكم باسلامه في الظاهر في حقن دمه وماله وولده وان كان معتقدا غير ذلك في الباطن لان الله سبحانه وتعالى أمر باجراء الاحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى لانه العالم باحوالهم وهو يجازيهم في الآخرة بما يستحقون قوله عز وجل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة

لان رضاه سبب كل فوز وسعادة (ذلك) اشارة الى ماوعد أولى الرضوان (هو الفوز العظيم) وحده دون مايعده الناس فوزا (يا أيها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة (واغلظ عليهم) في الجهادين جميعا ولاتحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها (ومأواهم جهنم وبئس المصير) جهنم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فسمع من معه منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم سادتنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس اجل والله ان محمدا صادق وانت شر من الحمير وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ماقال فرفع عامر يده فقال اللهم انزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) يعني ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير أو هي استهزاؤهم فقال الجلاس يارسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس

وحسنت توبته (وكفروا بعد اسلامهم) وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام وفيه دلالة على ان الايمان والاسلام

ابن الزبير نزلت فى الجلاس بن سويد اقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ماجاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التى نحن عليها فقال مصعب اما والله يا عدو الله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت وخفت ان ينزل فى القرآن أو ان تصيبنى قارعة او ان اخلط بخطيئته فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله اقبلت انا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة ان اخلط بخطيئته أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك قال فدعا الجلاس فقال له يا جلاس أقلت ما قال مصعب فحلف ما قال فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ما قالوا الآية وروى عن مجاهد نحوه وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل حجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا ان طلع رجل ازرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمنى انت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء باصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنهم فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ما قالوا ثم نعتهم جميعا الى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الغفارى على الجهنى فقال عبد الله بن أبى ابن سلول للاوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبى صلى الله عليه وسلم فارسل اليه فسأله فحلف بالله ما قاله فانزل الله هذه الآية هذه روايات الطبرى وذكر البغوى عن الكلبى قال نزلت فى الجلاس بن سويد وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه عامر بن قيس فاخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يا رسول الله على فاسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذى لا اله الا هو ما قاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذى لا اله الا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده الى السماء فقال اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يا رسول الله أسمع الله قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وانا استغفر الله وأتوب اليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم يعنى أظهروا كلمة الكفر بعد اسلامهم وتلك الكلمة هى سب النبى صلى الله عليه وسلم فقيل هى كلمة الجلاس ابن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هى كلمة عبد الله بن أبى ابن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وستأتى القصة فى موضعها فى سورة المنافقين ان شاء الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (وهموا بما لم ينالوا) قال مجاهد هم الجلاس

واحد لانه قال وكفروا بعد اسلامهم (وهموا بما لم ينالوا) من قتل محمد عليه السلام أو قتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا ابن أبى وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

(وما نقموا) وما أنكروا وما عابوا (الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله) وذلك انهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فاثروا بالغنائم وقتل الجلاس مولى فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى (فان يتوبوا) عن النفاق (يك) ٣٣٥ الثواب (خيرا لهم) وهي الآية التي تاب عندها

بقتل الذي سمع مقالته خشية ان يفشيها عليه وقيل هم عبد الله بن ابي ابن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا الى المدينة فليخرجن الاعز منها الاذل فلم يناله وقيل هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فاخبره وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فارسل حذيفة لذلك وقال السدي قال المنافقون اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبد الله ابن أبي ابن سلول تاجا فلما صاروا اليه (وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله) يعني وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى ان المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وسلم ان نقموا عليه وقيل انهم بطروا النعمة فنقموا أشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه ليس ينقمون شيأ ولا يتعرفون الا الصنع وهذا كقول الشاعر

ما نقم الناس من أمية الا انهم يحلمون ان غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وانما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيأ فهو كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب قال الكلبي كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام عاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فامر له النبي صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن أبي دية فاخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة ان مولى لبني عدي قتل رجلا من الانصار فقضى له النبي صلى الله عليه وسلم بالدية اثني عشر ألفا وفيه نزلت وما نقموا الا أن اغناهم الله ورسوله من فضله (فان يتوبوا يك خيرا لهم) يعني فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم في العاجل والآجل (وان يتولوا) يعني وان يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) يعني بالخزي والاذلال (والآخرة) أي ويعذبهم في الآخرة بالنار (وما لهم في الارض من ولي ولا نصير) يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي امامة الباهلي قال جاء ثعلبة بن حاطب الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما لك في رسول الله اسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله ادع

الجلاس (وان يتولوا) يصروا على النفاق (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) بالقتل والنار (وما لهم في الارض من ولي ولا نصير) ينجيهم من العذاب (ومنهم من عاهد الله) روى ان ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لاعطين كل ذي حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجمعة والجماعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لاخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسالاه الصدقة فقال ما هذه الا اخية وقال ارجعا حتى أرى رأيي فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال ان الله منعني ان اقبل منك فجعل التراب على رأسه فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها

الى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمن عثمان رضي الله عنه (لئن آتانا من فضله) أي المال (لنصدقن) لنخرجن الصدقة والاصل لنتصدقن وانما ادغمت التاء أدغمت في الصاد لقربها منها

الله ان رزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لاعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمى كما ينمى الدود فكان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة فقالوا يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنما ما يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما استان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية ما هذه الا اخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار اسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رآها قالا ما هذه عليك قال خذاها فان نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية ما هذه الا اخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي قال فانطلقا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فاخبراه بالذي صنع ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية الى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني ان اقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى أبا بكر فقال اقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا لا أقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال اقبل صدقتي فقال لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابو بكر فانا لا اقبلها منك فلم يقبلها ثم ولي عثمان فاتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان واخرجه الطبري ايضا بسنده قال بعض العلماء انما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لان الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على اخلافه ما عاهد الله عليه واهانة له على قوله انما هي جزية أو اخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه اهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى انها واجبة عليه وانه يثاب على اخراجها ويعاقب على منعها وقال ابن عباس ان ثعلبة اتى مجلسا

من مجالس الانصار فاشهدهم لئن آتانى الله من فضله آتيت منه كل ذى حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عمه فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فانزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت فى ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملا قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهم الله بخلا به وقال ابن السائب ان حاطب بن ابى بلتعة كان له مال بالشام فابطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتانى الله من فضله يعنى ذلك المال لاصدقن منه ولاصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله ان ظاهر الآية يدل على ان بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهد الئن رزقنا من فضله بان يوسع علينا فى الرزق لنصدقن يعنى لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته (ولنكونن من الصالحين) يعنى ولنعملن فى ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح باموالهم من صلة الارحام والانفاق فى سبيل الله وجميع وجوه البر والخير واخراج الزكاة ايصالها الى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذى يخل بما يلزمه فى حكم الشرع وقيل ان المراد بقوله لنصدقن اخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين اشارة الى كل ما يفعله أهل الصلاح على الاطلاق من جميع أعمال البر والطاعة (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) يعنى فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيئا (وتولوا) يعنى عما عاهدوا الله عليه (وهم معرضون) يعنى عن العهد (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم) يعنى فاعقبهم الله نفاقا بان صيرهم منافقين يقال أعقبت فلانا ندامة اذا صارت عاقبة أمره الى ذلك وقيل معناه انه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم (الى يوم يلقونه) يعنى انه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة الى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه (بما أخلفوا الله ما وعدوه) يعنى الصدقة والانفاق فى سبيله (وبما كانوا يكذبون) يعنى فى قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفى رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر قال الشيخ محيى الدين النووى هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث ان هذه الخصال قد توجد فى المسلم المصدق الذى ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على ان من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد فى النار فان اخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله اشكالا ولكن اختلف العلماء فى معناه فالذى قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه ان هذه الخصال خصال

(ولنكونن من الصالحين) باخراج الصدقة (فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم (بخلوا به) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد (وتولوا) عن طاعة الله (وهم معرضون) مصرون على الاعراض (فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم) فاورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم لانه كان سببا فيه (الى يوم يلقونه) أى جزاء فعلهم وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) بسبب اخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ومنه جعل خلف الوعد ثلث النفاق

نفاق وصاحبها يشبه المنافقين فى هذه الخصال ويتخلق باخلاقهم فان النفاق هو اظهار مايبطن خلافه وهذا موجود فى صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه فى حق من حدثه ووعده واتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق فى الاسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين فى الدرك الاسفل من النار وقوله صلى الله عليه وسلم كان منافقا خالصا معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فاما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلا فيه هذا هو المختار فى معنى الحديث وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فانهم حدثوا فى ايمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا فى أمر الدين ونصره فاخلفوا وفجروا فى خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ورجع اليه الحسن البصرى بعد ان كان على خلافه وهو مروى عن ابن عباس وابن عمر ورويا أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال القاضى عياض واليه مال أكثر أئمتنا وحكى الخطابى قولا آخر ان معناه التحذير للمسلم ان يعتاد هذه الخصال وحكى أيضا عن بعضهم ان الحديث ورد فى رجل بعينه منافق وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وانما يشير اشارة كقوله صلى الله عليه وسلم مابال أقوام يفعلون كذا والله أعلم وقال الامام فخر الدين الرازى ظاهر هذه الآية يدل على ان نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم ان يبالغ فى الاحتراز عنه فاذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به وقوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) يعنى هؤلاء المنافقين (ان الله يعلم سرهم) يعنى ماتنطوى عليه صدورهم من النفاق (ونجواهم) يعنى ويعلم مايفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم والنجوى هو الخفى من الكلام يكون بين القوم والمعنى انهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لايخفى عليه شئ منها (وان الله علام الغيوب) وهذا مبالغة فى العلم يعنى ان الله عالم بجميع الاشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم قوله عز وجل (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) الآية (ق) عن أبى مسعود البدرى قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مرائى وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا ان الله لغنى عن صاع هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون الا جهدهم الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بار بعة آلاف درهم وقال يارسول الله مالى ثمانية آلاف درهم جئتك بار بعة آلاف فاجعلها فى سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله فى مال عبد الرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدى العجلانى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الانصارى بصاع من تمر وقال يارسول الله بت ليلتى أجر

(ألم يعلموا) يعنى المنافقين (ان الله يعلم سرهم) ما أسروه من النفاق بالعزم على اخلاف ماوعدوه (ونجواهم) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها (وان الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شئ (الذين) محله النصب أو الرفع على الذم أو الجر على البدل من الضمير فى سرهم ونجواهم (يلمزون المطوعين) يعيبون المطوعين المتبرعين (من المؤمنين فى الصدقات) متعلق بيلمزون روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بار بعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فاقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالى فقال عليه السلام بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بمائة وسق من تمر

الكثير من النوعين لان فيها أوتارا ثلاثة وأشفاعا ثلاثة والعشرة كمال الحساب لان ما جاوز العشرة فهو اضافة الآحاد الى العشرة كقولك اثنا عشر وثلاثة عشر الى عشرين والعشرون تكرير العشرة مرتين والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك الى مائة فالسبعون يجمع الكثرة

والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لاقصاه فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى والله أعلم (ذلك) اشارة الى اليأس من المغفرة (بانهم) بسبب انهم (كفروا بالله ورسوله) ولا غفران للكافرين (والله لا يهدى القوم الفاسقين) الخارجين عن الايمان ما داموا مختارين للكفر والطغيان (فرح المخلفون) المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان (بمقعدهم) بقعودهم عن الغزو (خلاف رسول الله) مخالفة له وهو مفعول له أو حال أى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له (وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) أى لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله وكيف لا يكرهونه وما فيهم مانع المؤمنين من باعث الايمان وداعى الايقان (وقالوا لا تنفروا فى الحر) قال بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطا (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) استجهال لهم لان من تصون من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الابد كان أجهل من كل جاهل (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) أى فيضحكون قليلا على فرحهم بتخلفهم فى الدنيا ويبكون كثيرا جزاء فى العقبى الا انه أخرج على لفظ الامر للدلالة على انه حتم واجب لا يكون غيره يروى ان أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقا لهم دمع ولا يكتحلون بنوم (جزاء بما كانوا يكسبون)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرنى الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال انه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد فى رواية فترك الصلاة عليهم وقوله سبحانه وتعالى (ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله) يعنى ان هذا الفعل من الله وهو ترك عفوه عنهم وترك المغفرة لهم من أجل انهم اختاروا الكفر على الايمان بالله ورسوله (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى والله لا يوفق للايمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله قوله عز وجل (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) يعنى فرح المتخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعنى بقعودهم فى المدينة خلاف رسول الله يعنى بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لان الانسان اذا توجه الى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار الى تبوك وأقاموا بالمدينة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بالخروج الى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى (وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) والمعنى انهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لا تنفروا فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر فاجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد فى الحر ان نار جهنم التى هى موعدهم فى الآخرة أشد حرا من حر الدنيا لو كانوا يعلمون قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك فى الصيف فقال رجال يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر فى الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فامره الله تعالى بالخروج (فليضحكوا قليلا) يعنى فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا فى الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه (وليبكوا كثيرا) يعنى مكان ضحكهم فى الدنيا وهذا وان ورد بصيغة الامر الا أن معناه الاخبار والمعنى انهم وان فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم فى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل (جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى ان ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم

وأعمالهم الخبيثة فى الدنيا (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وروى البغوى بسنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا ان تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتفرغ العيون فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت قوله سبحانه وتعالى (فان رجعك الله) يعنى فان ردك الله يا محمد من غزاتك هذه (الى طائفة منهم) يعنى الى المتخلفين عنك وانما قال منهم لانه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقا مثل أصحاب الاعذار (فاستأذنوك للخروج) يعنى فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحققت نفاقهم فى الخروج معك الى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معى أبدا) يعنى فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معى أبدا الا الى غزوة ولا الى سفر (ولن تقاتلوا معى عدوا انكم) يعنى لانكم (رضيتم بالقعود أول مرة) يعنى انكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) يعنى مع المتخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع المخالفين يقال صاحبه خالفه اذا كان مخالفا كثير الخلاف وفى الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لان الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وابعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم اذا خرجوا الى الغزوات قوله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية قال قتادة بعث عبد الله بن أبى ابن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبى الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه نبى الله صلى الله عليه وسلم قال أهلكك حب اليهود فقال يا نبى الله انى لم ابعث اليك لتؤنبنى ولكن بعثت اليك لتستغفر لى وسأله قميصه ان يكفن فيه فأعطاه اياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فحات فكفنه فى قميصه صلى الله عليه وسلم ونفث فى جلده ودلاه فى قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب قال لما مات عبد الله بن أبى ابن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت اليه فقلت يا رسول الله أتصلى على ابن أبى ابن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا اعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عنى يا عمر فلما أكثرت عليه قال انى خيرت فاخترت لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث الا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم وأخرجه الترمذى وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده

من النفاق (فان رجعك الله) أى ردك من تبوك وانما قال (الى طائفة منهم) لان منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة بعد غزوة تبوك (فقل لن تخرجوا معى أبدا) وبسكون الياء حمزة وعلى وأبو بكر (ولن تقاتلوا معى عدوا) معى حفص (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) أول ما دعيتم الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) مع من تخلف بعد وسال ابن عبد الله ابن أبى وكان مؤمنا ان يكفن النبى صلى الله عليه وسلم أباه فى قميصه و يصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضى الله عنه فى ذلك فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وكنت أرجو ان يؤمن به ألف من قومه فنزل (ولا تصل على أحد منهم) من المنافقين يعنى صلاة الجنازة روى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى صلى الله عليه وسلم (مات) صفة لاحد (أبدا) ظرف لتصل وكان عليه السلام اذا دفن الميت وقف على

على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم قال وكان كساعبا ساقميصا قال سفيان وقال أبو هرون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال له ابن عبد الله يارسول الله ألبس عبد الله قميصك الذى يلى جلدك قال سفيان فيرون ان النبى صلى الله عليه وسلم ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفى رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر أتى بالاسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبى صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه فكساه النبى صلى الله عليه وسلم اياه فلذلك نزع النبى صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه

(فصل) قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات ففى حديث ابن عمر المتقدم انه لما توفى عبد الله بن أبى ابن سلول أتى ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعطيه قميصه ليكفنه فيه وان يصلى عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفى حديث عمر بن الخطاب من افراد البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى له ليصلى عليه وفى حديث جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم أتاه بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه قميصه فكفن فيه ثم انه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وليس فى حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولا كما فى حديث عمر وابن عمر ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ثانيا بعدما أدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذى أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم انه صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبى تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا واما قول قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده فى مرضه وانه سأله أن يستغفر له وان يعطيه قميصه وان يصلى عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث فى جلده ودلاه فى حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب الا توفيق ما بين الاحاديث فيكون قوله ونفث فى جلده ودلاه فى قبره جملة منقطعة عما قبلها يعنى انه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعدما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم وقال القرطبى فى شرح صحيح مسلم له ان عبد الله بن أبى ابن سلول كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم وانصرف اليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الاسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا فى المنافقين وأعظمهم نفاقا وأشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى لقد روى عن ابن عباس انهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعنى ولد عبد الله بن أبى من فضلاء الصحابة وأصدقهم اسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبى صلى الله عليه وسلم

يارسول الله انك لتعلم أني من أبر الناس بابي وان أمرتني أن آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على اسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي صلى الله عليه وسلم بشيء ولذلك لما مات أبوه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فاعطاه وسأله أن يصلي عليه فصلى عليه كل ذلك اكراما لابنه عبد الله واسعافا له ولطلبته وقول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبدا و يظهر من هذا السياق ان عمر وقع في خاطره أن الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الالهام والتحديث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبي والذي يظهر لي والله أعلم ان البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت اليه الحديث الى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبي وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الاشكال المتقدم فهو الاولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر فان فيه لو أعلم أني ان زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الاحاديث يفسر بعضها بعضا و يقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو أعلم أني ان زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم اني خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التي فيها التخيير والجواب عن هذا الاشكال ان المنهي عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك وأما استغفاره لاولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم صلى الله عليه وسلم أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وان وقع كان تطييبا لقلوب الاحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهي عنه من المخير فيه وارتفع الاشكال بحمد الله والله أعلم وقال الشيخ محيي الدين النووي انما اعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا صالحا وقد سال ذلك فاجابه اليه وقيل بل اعطاه مكافاة لعبد الله بن أبي المنافق الميت لانه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الايذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال البغوي قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب أن يكافئه بها و يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال صلى الله عليه وسلم وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله اني كنت أرجو ان يسلم به ألف من قومه فيروى أنه أسلم ألف من

قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه وتعالى (ولا تقم على قبره) يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان اذا كفاه أمره وناب عنه فيه (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها فان قلت الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر قلت ان الكافر قد يكون عدلا في نفسه بان يؤدي الامانة ولا يضمر لاحد سوأ وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع واضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر قوله تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الكلام على هذه الآية في مقامين * المقام الاول في وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شان في تقرير ما نزل أولا وتأكيده وارادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وان يعتقد أن العمل به مهم وانما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الاشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير ابدا يفيد التأكيد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل أيضا انما كرر هذا المعنى لانه أراد بالآية الاولى قوما من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الاخرى أقواما آخرين منهم * المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الالفاظ في هاتين الآيتين وذلك انه قال سبحانه وتعالى في الآية الاولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما انه عطف الآية الاولى على قوله ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للاموال والاولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على انهم كانوا معجبين بكثرة الاموال والاولاد وكان اعجابهم باولادهم أكثر فمن اسقاط حرف لا هنا دليل على انه لا تفاوت بين الامرين قال سبحانه وتعالى في الآية الاولى انما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على ان التعليل في احكام الله محال وانه ايما ورد حرف اللام فمعناه ان كقوله سبحانه وتعالى وما امروا الا ليعبدوا الله ومعناه وما امروا الا بان يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الاولى في الحياة الدنيا وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في اسقاط لفظة الحياة التنبيه على ان الحياة الدنيا بلغت في الخسة الى حيث انها لا تستحق ان تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال

دناءتها

فيبرد وعاله تقبل (ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل للنهي أي انهم ليسوا باهل للصلاة عليهم لانهم كفروا بالله ورسوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) التكرير للمبالغة والتأكيد وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد انه مهم ولان كل آية في

دناءتها فهذه جمل فى ذكر الفرق بين هذه الالفاظ والله أعلم بمراده واسرار كتابه قوله عزوجل (واذا أنزلت سورة) يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لان اطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل ان يراد جميع السورة فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لانها مشتملة على الامر بالايمان والامر بالجهاد (أن) اى بان (آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله) فان قلت كيف يامرهم بالايمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت معناه الامر بالدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل ان الامر بالايمان يتوجه على كل أحد فى كل ساعة وقيل ان هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى ان اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير ايمان لا يفيد أصلا فكانه قيل للمنافقين الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولا وتجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها فى الدنيا والآخرة * وقوله سبحانه وتعالى (استاذنك أولوا الطول منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفى تخصيص اولى الطول بالذكر قولان أحدهما ان الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد والقول الثانى انما خص أولى الطول بالذكر لان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى الاستأذان وقالوا يعنى أولى الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) يعنى فى البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت فلا يخرجن منها والمعنى رضوا بان يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) يعنى وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لا يفقهون مراد الله فى الامر بالجهاد قوله سبحانه وتعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وأنفسهم) أى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعنى الرسول والمومنين (وأولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطالب قوله سبحانه وتعالى (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) بيان لما لهم من الخيرات الاخروية قوله سبحانه وتعالى (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) يعنى وجاء المعتذرون من اعراب البوادى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه فى التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين اليه دفاعا عن أنفسهم فقالوا يا نبى الله ان نحن غزونا معك تغير أعراب طيئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبانى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم وقيل هم نفر من بنى غفار رهط خفاف بن ايماء بن رحضة وقيل هم من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا

وان يراد بعضها كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه (أن آمنوا بالله) بان آمنوا أو هى ان المفسرة (وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم) ذوو الفضل والسعة (وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) مع الذين لهم عذر فى التخلف كالمرضى والزمنى (رضوا بان يكونوا مع الخوالف) اى النساء جمع خالفة (وطبع على قلوبهم) ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق (فهم لا يفقهون) ما فى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف من الهلاك والشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وأنفسهم) أى ان تخلف هؤلاء فقد نهض الى الغزو من هو خير منهم (وأولئك لهم الخيرات) تناول منافع الدارين لاطلاق اللفظ وقيل الحور لقوله فيهن خيرات (وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) قوله اعد دليل على انها مخلوقة (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) هو من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى وحقيقته ان يوهم أن له عذرا فيما فعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم

 الذين يعتذرون بالباطل قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف

بعذر فاذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون أى المقصرون يعنى انهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى أن له عذرا ولا عذر له وقيل ان الاصل فى هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء فى الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار فى كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب فى عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد

* ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يعنى فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذى هو التقصير يقال عذر تعذيرا اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل انهم كانوا صادقين فى اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبى عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام قال ان قوما تكلفوا عذرا باطلا فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الاعراب الذين ما جاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله يعنى فى ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعنى فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار وانما قال منهم لانه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص فى ايمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين اصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه قوله عز وجل (ليس على الضعفاء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا باعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الاعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر ان فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح فى بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق فى أصل الخلقة ضعيفا نحيفا ويدل على أن هؤلاء الاصناف هم الضعفاء ان الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى (ولا على المرضى) والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فلما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) يعنى الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لان العاجز عن نفقة الغزو معذور (حرج) أى ليس على هؤلاء الاصناف الثلاثة حرج أى اثم فى التخلف عن الغزو وقال الامام فخر الدين الرازى ليس فى الآية أنه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم انه تعالى شرط على الضعفاء فى جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا نصحوا لله ورسوله) ومعناه أنهم اذا أقاموا فى البلد احترزوا عن افشاء الارجيف

(وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) هم منافقو الاعراب الذين لم يجيؤا ولم يعتذروا فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم) من الاعراب (عذاب اليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار (ليس على الضعفاء) الهرمى والزمنى (ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) هم الفقراء من زمنة وجهينة وبنى عذرة (حرج) اثم وضيق فى التأخر (اذا نصحوا لله ورسوله) بان آمنوا فى السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه

واثارة الفتن وسعوا فى ايصال الخير الى أهل الجهاد هدين الذين خرجوا الى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم واخلصوا الايمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الامور تجرى مجرى النصح لله ورسوله (ماعلى المحسنين من سبيل) أى ليس على من أحسن فنصح الله ولرسوله فى تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى أنه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه وبستنبط من قوله ماعلى المحسنين من سبيل ان كل مسلم يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله الا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) يعنى لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع (رحيم) يعنى انه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو وأصحابه وقال الضحاك نزلت فى عبد الله بن ام مكتوم وكان ضريرا البصر ولما ذكر الله عز وجل هذه الاقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى (ولا على الذين اذا ما أتوك) يعنى ولا حرج ولا اثم فى التخلف عنك على الذين اذا ما أتوك (لتحملهم) يعنى يسألونك الحملان ليبلغوا الى غزوعدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد قال ابن اسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف جرمى بن عمير ومن بنى مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن عمة وعبد الله بن عمرو المزنى وقال البغوى هم ستة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر ابن خنساء وعبد الله بن كعب الانصارى وعلبة بن زيد الانصارى وسالم بن عمير وثعلبة ابن عنمة وعبد الله بن مغفل المزنى قال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ان الله عز وجل قد ندبنا الى الخروج معك فاحملنا فقال لا أجد ما أحملكم عليه وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة أخوة معقل وسويد والنعمان بنو مقرن وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل بل سألوه ان يحملهم على الحفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع) قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل (حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) يعنى على أنفسهم فى الجهاد (انما السبيل) لما قال الله سبحانه وتعالى ماعلى المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له انما السبيل يعنى انما تتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد معك (وهم أغنياء) يعنى قادرين على الخروج معك (رضوا بان يكونوا

(ماعلى المحسنين) المعذورين الناصحين (من سبيل) أى لاجناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم (والله غفور) يغفر لهم تخلفهم (رحيم) بهم (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) لتعطيهم الحمولة (قلت) حال من الكاف فى أتوك وقد قبله مضمرة أى اذا ما أتوك قائلا (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا) هو جواب اذا (وأعينهم تفيض من الدمع) أى تسيل كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من تفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز ويجوز ان يكون قلت لا أجد استئنافا كانه قيل اذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل مالهم تولوا باكين فقيل قلت لا أجد ما أحملكم عليه الا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (حزنا) مفعول له (ألا يجدوا ما ينفقون) لئلا يجدوا وما ينفقون ومحله نصب على انه مفعول له وناصبه حزنا والمستحملون أبو موسى الاشعرى وأصحابه أو البكاؤن وهم ستة نفر من الانصار (انما السبيل على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) وقوله (رضوا) استئناف كانه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بان يكونوا

مع الخوالف) أي بالانتظام في جملة الخوالف (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون يعتذرون اليكم) يقيمون لانفسهم عذرا باطلا (اذا رجعتم اليهم) من هذه السفرة ٣٤٨ (قل لا تعتذروا) بالباطل (لن نؤمن لكم) لن نصدقكم وهو علة للنهي

مع الخوالف) يعني رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم (وطبع الله على قلوبهم) يعني ختم عليها (فهم لا يعلمون) ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو واما في الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذي لا ينقطع قوله سبحانه وتعالى (يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم) يعني يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد اليك واغاذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل انهم اعتذروا اليه والى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون اليكم يعني بالاعذار الباطلة الكاذبة اذا رجعتم اليهم يعني من سفركم (قل) أي قل لهم يا محمد (لا تعتذروا) قال البغوي روي ان المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا (لن نؤمن لكم) يعني لن نصدقكم فيما اعتذرتم به (قد نبأنا الله من أخباركم) يعني قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم (وسيرى الله عملكم ورسوله) يعني في المستانف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل يحتمل انهم وعدوا بأن يتصروا المؤمنين في المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم) يعني فيخبركم (بما كنتم تعملون) لانه هو المطلع على ما في ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد قوله عز وجل (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) يعني اذا رجعتم من سفركم اليهم يعني الى المتخلفين بالمدينة من المنافقين (لتعرضوا عنهم) يعني لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم (فأعرضوا عنهم) يعني فنفوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعني لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعاني ان هؤلاء المنافقين طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت ثم ذكر العلة في سبب الاعراض عنهم فقال تعالى (انهم رجس) يعني ان بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة (ومأواهم) يعني مسكنهم في الآخرة (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يعني من الاعمال الخبيثة في الدنيا قال ابن عباس نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال مقاتل نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا اله الا هو انه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يرضى عنه فانزل الله عز وجل هذه الآية والتي بعدها (يحلفون لكم لترضوا عنهم) يعني يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم (فان ترضوا عنهم) يعني فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) يعني أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبدا وقوله سبحانه وتعالى (الاعراب أشد كفرا ونفاقا) نزلت في سكان البادية يعني ان أهل البدو أشد

عن الاعتذار لا ن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء تصديقهم لانه تعالى اذا أوحى الى رسوله الاعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أتنيبون أم تثبتون على كفركم (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) أي تردون اليه وهو عالم كل سر وعلانيته (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم على حسب ذلك (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم) لتتركوهم ولا توبخوهم (فاعرضوا عنهم) فأعطوهم طلبتهم (انهم رجس) تعليل لترك معاتبتهم أي ان المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لانهم أرجاس لا سبيل الى تطهيرهم (ومأواهم جهنم) ومصيرهم النار يعني وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم (جزاء بما كانوا يكسبون) أي يجزون جزاء كسبهم (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أي غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أي فان رضاكم وحدكم لا ينفعهم اذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها وانما قيل ذلك لئلا يتوهم ان رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم (الاعراب) أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن العلم

كفروا ونفاقا من أهل الحضر قال أهل اللغة يقال رجل عربي اذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ورجل أعرابي اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ ويجمع الاعرابي على الأعراب والأعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الاعراب فالاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب والعرب أفضل من الأعراب لان المهاجرين والانصار وعلماء الدين من العرب والسبب في كون الأعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى (وأجدر) يعني واخلق وأحرى (الا يعلموا) يعني بأن لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعني الفرائض والسنن والاحكام (والله عليم) يعني بما قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) يعني لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على امساكه عقابا انما ينفق خوفا أو رياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى ان من الاعراب من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لانه لا ينفق ذلك الا خوفا من المسلمين أو مراآة لهم ولم يرد بذلك الانفاق وجه الله وثوابه (ويتربص) يعني وينتظر (بكم الدوائر) يعني بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان ابن رباب يعني تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) يعني بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودينه الا ما يسوءهم (والله سميع) يعني لاقوالهم (عليم) يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وارادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا قال نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة وفي رواية أن الاقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وسلم انما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت ان كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها زاد مسلم في رواية له أما اني لم أقلها لكن الله قالها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش والانصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله وقوله سبحانه وتعالى (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة الى الله تعالى (وصلوات الرسول) يعني ويرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى

والعلماء (وأجدر ألا يعلموا) وأحق بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعني حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والاحكام ومنه قوله عليه السلام ان الجفاء والقسوة في الفدادين يعني الاكرة لانهم يغدون أي يصيحون في حروثهم والفديد الصياح (والله عليم) باحوالهم (حكيم) في امهالهم (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) أي يتصدق (مغرما) غرامة وخسرانا لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء المثوبة عنده (ويتربص بكم الدوائر) أي دوائر الزمان وتبدل الاحوال بدور الايام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من أعطاء الصدقة (عليهم دائرة السوء) اي عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعون وقوعها في المسلمين السوء بمكي وأبو عمرو وهو العذاب والسوء بالفتح ذم للدائرة كقولك رجل سوء في مقابلة قولك رجل صدق (والله سميع) لما يقولون اذا توجهت عليهم الصدقة (عليم) بما يضمرونه (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق) في الجهاد والصدقات (قربات) أسبابا للقربة (عند الله) وهو مفعول ثان ليتخذ (وصلوات الرسول) اي دعائه لانه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين بالخير

والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى (ألا انها قربة لهم) يحتمل ان يعود الضمير فى انها الى صلوات الرسول ويحتمل ان يعود الى الانفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقده من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لان الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى الا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها قربة لهم (سيدخلهم الله فى رحمته) وهذه النعمة هى أقصى مرادهم (ان الله غفور) للمؤمنين المتفقين فى سبيله (رحيم) يعنى بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة قوله سبحانه وتعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) اختلف العلماء فى السابقين الاولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبى رباح هم أهل بدر وقال الشعبى هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظى هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى ألا تخبرنى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وأردت الفتن فقال ان الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم واوجب لهم الجنة فى كتابه فقلت له فى أى موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله الا تقرأ والسابقون الاولون الى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم زاد فى رواية فى قوله والذين اتبعوهم باحسان قال شرط فى التابعين شريطة وهى أن يتبعوهم فى أعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأنى لم أقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء فى أول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة أول الخلق اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة على بن أبى طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا فى سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والصحيح انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعى والشعبى وقال الزهرى وعروة بن الزبير أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلى يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان على بن أبى طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهم فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام قال ابن اسحق فلما أسلم أبو بكر اظهر اسلامه ودعا الناس الى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان انسب قريش لقريش واعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو الى الاسلام من يثق به من قومه فاسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاءهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فاسلموا على يده وصلوا معه فبكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق

(الا انها) ان النفقة أو صلوات الرسول (قربة لهم) قربة نافع وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع ترق فى التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الامر وتمكنه وكذلك (سيدخلهم الله فى رحمته) جنته وما فى السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين وان الصدقة منه ممكان اذا خلصت النية من صاحبها (ان الله غفور) يستر عيب الخلل (رحيم) يقبل جهد المقل (والسابقون) مبتدأ (الاولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم وهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو بيعة الرضوان (والانصار) عطف على المهاجرين أى ومن الانصار وهم أهل بيعة العقبة الاولى

الناس الى الاسلام ثم تتابع الناس بعدهم فى الدخول الى الاسلام وأما السابقون من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهى العقبة الاولى وكانوا ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رياب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثنى عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو ابن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الانصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير الى أهل المدينة يعلمهم القرآن فاسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل ان المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة والذى يدل عليه ان الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقى اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين والانصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وانصارا وجب صرف اللفظ المجمل اليه وهو الهجرة والنصرة والذى يدل عليه أيضا أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث ان الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار قوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) قيل هم بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والانصار فى الايمان والهجرة والنصرة الى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين ان النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدرى اذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه أراد بالقرن فى الحديث الاول أصحابه والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا فى مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة والمذكور فى الحديث الثانى هو بيع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن احدا انفق مهما قدر عليه من أعمال البر والانفاق فى سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير الذى انفقه من اعمال الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود فى وقت الحاجة وقوله سبحانه وتعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) يعنى رضى الله عن اعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة (واعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) قوله سبحانه وتعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون) ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوى والواحدى وابن الجوزى انهم

قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما فى المواهب وقوله فى الهامش سبعة تبع فيه الكشاف وهو مخالف لما فى المواهب وما هنا اه مصححه .

وكانوا سبعة نفر وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم باحسان) من المهاجرين والانصار فكانوا سائر الصحابة وقيل هم الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة والخير (رضى الله عنهم) باعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضى (جنات تجرى تحتها الانهار) من تحتها ماكى (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم وممن حولكم) يعنى حول بلدتكم وهى المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم واشجع وغفار

من اعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعني ومن هؤلاء الاعراب منافقون وماذكروه مشكل لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى ومن حولكم من الاعراب منافقون على القليل لان لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم على الاكثر والاغلب ويهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم والله اعلم فانه أطلق القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الاعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي (ومن أهل المدينة) من الاوس والخزرج منافقون (مردوا على النفاق) فيه تقديم وتأخير تقديره ومن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته أي مرن وثبت عليها واعتاده ولم يتب منها قال ابن اسحق لجوافيه وأبوا غيره وقال ابن زيد أقاموا عليه ولم يتوبوا منه (لا تعلمهم) يعني انهم بلغوا في النفاق الى حيث انك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الاسرار (نحن نعلمهم) يعني لكن نحن نعلمهم لانه لا تخفى علينا خافية وان دقت (سنعذبهم مرتين) اختلف المفسرون في العذاب الاول مع اتفاقهم على ان العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا انه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة اما المرة الاولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فاخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثاني هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لان الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الاول هو القتل والسبي وهذا القول ضعيف لان أحكام الاسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى انهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الاولى هي الدبيلة في الدنيا وقد جاء تفسيرها في الحديث بانها خراج من نار تظهر في أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعني تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الاولى هي المصائب في الاموال والاولاد في الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الاولى اقامة الحدود عليهم في الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن اسحق الاولى هي مايدخل عليهم من غيظ الاسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والاخرى عذاب القبر وقيل احداهما ضرب الملائكة وجوههم وادبارهم عند قبض أرواحهم والاخرى عذاب القبر وقيل الاولى احراق مسجدهم مسجد الضرار والاخرى احراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون الى عذاب عظيم يعني عذاب جهنم يخلدون فيه

كانوا انازلين حولها (ومن اهل المدينة) عطف على خبر المبتدا الذي هو ومن حولكم والمبتدا منافقون ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) أي تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف وعلى الوجه الاول لايخلو من أن يكون كلاما مبتدأ وصفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ودل على مهارتهم فيه بقوله (لا تعلمهم) اى يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي مايشكك في امرهم ثم قال (نحن نعلمهم) أي لا يعلمهم الا الله ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يظنون الكفر في سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين (سنعذبهم مرتين) هما القتل وعذاب القبر أو الفضيحة وعذاب القبر أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم (ثم يردون الى عذاب عظيم) أي عذاب النار

قوله عزوجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) فيه قولان أحدهما انهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول ان قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الاعراب منافقون والعطف هو هو يعضده ما نقله الطبري عن ابن عباس انه قال هم الاعراب والقول الثاني وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك واختلف المفسرون في عددهم فروى عن ابن عباس انهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى عنه أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة وقيل كانوا ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون من الضلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله ان لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا اطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله عزوجل هذه الآية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فاطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فانزل الله خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا في ذنبه الذي تاب منه فقال مجاهد نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة ان نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار الى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فانزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال أبو لبابة يا رسول الله ان من توبتي ان أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن انخلع من مالي كله صدقة الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة قالوا جميعا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لان الله سبحانه وتعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم لان لفظة من تقتضي التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتي خبرهم واما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل

(وآخرون) أي قوم آخرون سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم) أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بانهم بئس ما فعلوا وانادمين وكانوا عشرة فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر له انهم أقسموا ان لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلهم فقال وأنا أقسم ان لا احلهم حتى أومر فيهم فنزلت فاطلقهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال ما أمرت ان آخذ من أموالكم شيأ فنزل خذ من أموالهم صدقة

المعانى الاعتراف عبارة عن الاقرار بالشئ ومعناه انهم أقروا بذنوبهم وفيه دقيقة وهى أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم باعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا فان قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا قلت مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فاذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضى من الذنب والعزم على تركه فى المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة وقوله سبحانه وتعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) قيل أراد بالعمل الصالح اقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السئ هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سائر الغزوات والسئ هو تخلفهم عنه فى غزوة تبوك وقيل ان العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسئ ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية فى حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك و روى الطبرى عن أبى عثمان قال ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الامة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم فان قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسئ مخلوطا فما الخلوط به قلت ان الخلط عبارة عن الجمع المطلق فاما قولك خلطته فانما يحسن فى الموضع الذى يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر و يتغير به عن صفته الاصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتذوب الواو وعن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ذكره غالب المفسرين وأنكره الامام فخر الدين الرازى وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لان العمل الصالح والعمل السئ اذا حصلا معا بقى كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فان عندنا القول بالاحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفى القول بالمحابطة وأنه بقى كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس الا الجمع المطلق وقال الواحدى العرب تقول خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيدا وعمرا والواو فى الآية أحسن من الباء لانه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط ألا ترى ان العمل الصالح لا يختلط بالسئ كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما وجمهور المفسرين عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله ان يأتى بالفتح وقد فعل ذلك وقال أهل المعانى لفظة عسى هنا تفيد الطمع والاشفاق لانه أبعد من الاتكال والاهمال وقيل ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل كل ما يفعله على سبيل التفضل والتطول والاحسان فذكر لفظة عسى التى هى للترجى والطمع حتى يكون العبد بين الترجى والاشفاق ولكن هو الى نيل ما يرجوه منه أقرب لانه ختم الآية بقوله (ان الله غفور رحيم) وهذا يفيد انجاز الوعد قوله سبحانه وتعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) قال ابن عباس لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه

(خلطوا عملا صالحا) خروجا الى الجهاد (وآخر سيئا) تخلفا عنه أو التوبة والاثم وهو من قولهم بعت الشاء شاة ودرهما أى شاة بدرهم قالوا واو بمعنى الباء لان الواو للجمع والباء للالصاق فتناسبان أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك خلطت الماء باللبن لانك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به واذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما كانك قلت خلطت الماء باللبن واللبن بالماء (عسى الله أن يتوب عليهم (ان الله غفور رحيم) ولم يذكر توبتهم لانه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة (خذ من أموالهم صدقة) كفارة لذنوبهم وقيل هى الزكاة (تطهرهم) عن الذنوب وهو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو لغيبة المؤنث والتاء فى (وتزكيهم) للخطاب لامحالة (بها) بالصدقة والتزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه أو بمعنى الانماء والبركة فى المال

انطلق أبو لبابة وصاحباه فأتوا بأموالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا آخذ شيأ منها حتى أومر به فأنزل الله عز وجل خذ من أموالهم صدقة الآية وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم هو راجع الى هؤلاء الذين تابوا وذلك انهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبرا في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم ان الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن اسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يأخذها منهم وقال بعضهم ان الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذها من الاغنياء ودفعها الى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على ايجاب أخذ الزكاة اما حجة أصحاب القول الاول فانهم قالوا ان الآيات لابد وأن تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها ولان جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها انها نزلت في شأن التائبين واما أصحاب القول الاخير فانهم قالوا المناسبة حاصلة أيضا على هذا التقدير وذلك انهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا ان السبب الموجب للتخلف هو حب المال أمروا باخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا ان الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا لا يمنع هذا صحة ما قلناه لانهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين باخراج الزكاة أولى ثم في هذه الآية أحكام الاول قوله سبحانه وتعالى خذ من أموالهم صدقة الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم أي خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الأئمة ويجوز للامام أو نائبه ان يأخذ الزكاة من الاغنياء ويدفعها الى الفقراء الحكم الثاني قوله من أموالهم ولفظة من تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق الا الصدقة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها في أخذ الزكاة الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم ان الزكاة انما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها الا من البالغ دون الصبي فوجب ان تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي بانه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال الاول أن معناه خذ يا محمد من أموالهم صدقة فانك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام القول الثاني ان يكون تطهرهم متعلقا بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فانها طهرة لهم وانما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء ان الصدقة من أوساخ الناس

فاذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الاوساخ وكان ذلك الاندفاع جاريا مجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها القول الثالث أن تجعل التاء في قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة القول الرابع ان معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعني ترفع منازلهم عن منازل المنافقين الى منازل الابرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أي تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم الحكم الخامس قوله سبحانه (وصل عليهم) يعني ادع لهم واستغفر لهم لان أصل الصلاة في اللغة الدعاء قال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه السنة للامام اذا أخذ الصدقة ان يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت وقال بعضهم يجب على الامام ان يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع وقيل يجب على الامام ويستحب للفقير ان يدعو للمعطي وقال بعضهم يستحب ان يقول اللهم صل على فلان ويدل عليه ما روى عن عبد الله ابن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى أخرجاه في الصحيحين وقوله سبحانه وتعالى (ان صلاتك) وقرئ صلواتك على الجمع (سكن لهم) يعني ان دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقيل ان الله قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل ان السكن ما سكنت اليه النفس والمعنى ان صلواتك توجب سكون نفوسهم اليها والمعنى ان الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم (والله سميع) يعني لاقوالهم اولدعائك لهم (عليم) يعني بنياتهم (ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) هذه صيغة استفهام الا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا ان الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل ان المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة وبذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فانزل الله هذه الآية ترغيبا لهم في التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لا فرق بين عن عباده ومن عباده اذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك ومنك وقيل بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقوله سبحانه وتعالى (ويأخذ الصدقات) يعني يقبلها ويثيب عليها وانما ذكر لفظ الاخذ ترغيبا في بذل الصدقة واعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها ولما كان هو المجازي عليها والمثيب بها أسند الاخذ الى نفسه وان كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله سبحانه وتعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق

(وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم والسنة ان يدعو المصدق لصاحب الصدقة اذا أخذها (ان صلواتك) صلاتك كوفي غير أبي بكر قيل الصلاة أكثر من الصلوات لانها للجنس (سكن لهم) يسكنون اليه وتطمئن قلوبهم بان الله قد تاب عليهم (والله سميع) لدعائك او سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم (عليم) بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم (ألم يعلموا) المراد المتوب عليهم أي ألم يعلموا قبل ان يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم (ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) اذا صحت (ويأخذ الصدقات) ويقبلها اذا صدرت عن خلوص النية وهو للتخصيص أي ان ذلك ليس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها اليه

أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله لفظ مسلم وفي البخاري من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب وفي رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل وأخرجه الترمذي ولفظه ان الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربي الصدقات وقوله من كسب طيب أي حلال وذكر اليمين والكف في الحديث كناية عن قبول الصدقة وان الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطي لان من عادة الفقير اذا والسائل اخذ الصدقة بكفه اليمين فكان المتصدق قد وضع صدقته في القبول والاثابة وقوله فتربو أي تكبر يقال ربا الشيء يربو اذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها الفتي من المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة الى أن ينفصل عنها وقوله سبحانه وتعالى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لقوله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده وتبشير لهم بان الله هو التواب الرحيم قوله عز وجل (وقل) أي قل يا محمد لهؤلاء التائبين (اعملوا) يعني لله بطاعته واداء فرائضه (فسيرى الله عملكم) فيه ترغيب عظيم للطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (ورسوله والمؤمنون) يعني ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعمالكم أيضا أما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على اعمالكم واما رؤية المؤمنين فيما يقذف الله عز وجل في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) يعني وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) اي فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من خير او شر فيجازيكم على اعمالكم قوله سبحانه وتعالى (وآخرون مرجون) اي مؤخرون والارجاء التأخير (لامر الله) يعني لحكم الله فيهم قال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة اقسام اولهم المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه والقسم الثاني التائبون وهم الذين سارعوا الى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم ابو لبابة واصحابه فقبل الله توبتهم والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون الى ان يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لامر الله والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث ان القسم الثاني سارعوا الى التوبة فقبل الله توبتهم والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا الى التوبة فاخر الله امرهم نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع وستأتي قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك انهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل ابو لبابة واصحابه

(وان الله هو التواب) كثير قبول التوبة (الرحيم) بعفو الحوبة (وقل) لهؤلاء التائبين (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أي فان عملكم لا يخفى خيرا كان أو شرا على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم أو غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة فقد روي انه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا الا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت وقوله تعالى فسيرى الله وعيد لهم وتحذير من عاقبة الاصرار والذهول عن التوبة (وستردون الى عالم الغيب) ما يغيب عن الناس (والشهادة) ما يشاهدونه (فينبئكم بما كنتم تعملون) تنبئة تذكير ومجازاة عليه (وآخرون مرجون لامر الله) بغير همز مدني وكوفي غير أبي بكر مرجؤن غيرهم من ارجيته أي وارجأته اذا أخرته ومنه المرجئة أي وآخرون من المتخلفين موقوفون الى أن يظهر أمر الله فيهم

(اما يعذبهم) ان أصروا ولم يتوبوا (واما يتوب عليهم) ان تابوا وهم ثلاثة كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع والضابط مكة تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا في قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا (والله عليم) برجائهم (حكيم) في ارجائهم واما للشك وهو راجع الى العباد أي خافوا عليهم العذاب وارجوا لهم الرحمة روى انه عليه السلام أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السواري واظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحد الا ينظر اليهم فوّضوا أمرهم ٣٥٨ الى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله (والذين اتخذوا مسجدا) تقديره ومنهم الذين اتخذوا والذين بغير واو مدني وشامي وهو مبتدأ خبره محذوف أي جازينا هم روى أن بني عمرو ابن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبني مسجدا ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب اذا قدم من الشام وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله الى يوم حنين فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بنينا مسجد الذي العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلي لنا فيه فقال اني على جناح سفر واذا قدمنا من تبوك ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام وسماه (ضرارا) مفعول له وكذا ما بعده أي مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا) وتقوية للنفاق (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فارادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم (وارصادا لمن) واعدادا لاجل من (حارب الله ورسوله) وهو الراهب اعدوه له ليصلي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مسجد بني مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار (من قبل) متعلق بحارب أي من قبل بناء

فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى (اما يعذبهم واما يتوب عليهم) يعني ان أمرهم الى الله تعالى ان شاء عذبهم بسبب تخلفهم وان شاء غفر لهم وعفا عنهم (والله عليم) يعني بما في قلوبهم (حكيم) يعني بما يقضي عليهم قوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلا من أهل النفاق ودبيعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره اخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الازعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبخرج بنو هذا المسجد ضرارا يعني مضارة للمؤمنين وكفرا يعني لكفر وافيه بالله ورسوله (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك فقالوا يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وانا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو بالبركة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني على جناح سفر ولو قدمنا ان شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه وقوله سبحانه وتعالى (وارصادا لمن حارب الله ورسوله) يعني انهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه ارصادا يعني انتظارا واعدادا لمن حارب الله ورسوله (من قبل) يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به فقال له النبي صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية دين ابراهيم فقال أبو عامر فانا عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لست عليها قال أبو عامر بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين

وسماه الناس أبا عامر الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر الفاسق للنبي صلى الله عليه وسلم لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس أبو عامر وخرج هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فاخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى وارصادا يعني انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه اذا رجع من الشام من قبل يعني ان أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) يعني الذين بنوا المسجد (ان أردنا) يعني ما أردنا ببنائه (الا الحسنى) يعني الا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم (والله يشهد انهم لكاذبون) يعني في قيلهم وحلفهم روى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذي أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فانزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظروني حتى اخرج اليكم بنار فدخل أهله فاخذ من سعف النخل فاشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فاحرقوه وهدموه وتفرق عنه اهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروى ان بني عمرو ابن عوف الذين بنوا مسجد قباء اتوا عمر بن الخطاب في خلافته فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية ان يؤمهم في مسجدهم فقال لا ونعمة عين أليس هو امام مسجد الضرار قال مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد صليت فيه وانا لا اعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن فصليت بهم ولا أحسب الا انهم يتقربون الى الله ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء قال عطاء لما فتح الله على عمر بن الخطاب الامصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ان لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس معناه لا تصل فيه أبدا منع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ان يصلي في مسجد الضرار (لمسجد أسس على التقوى) اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعني بنى أصله ووضع أساسه على التقوى يعني على تقوى الله عز وجل (من أول يوم) يعني من أول يوم بني ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى (أحق ان تقوم فيه) يعني مصليا واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد

هذا المسجد يعني يوم الخندق (وليحلفن) كاذبين (ان أردنا الا الحسنى) ما اردنا ببناء هذا المسجد الا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين (والله يشهد انهم لكاذبون) في حلفهم (لا تقم فيه أبدا) للصلاة (لمسجد أسس على التقوى) اللام للابتداء وأسس نعت له وهو مسجد قباء اسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة (من أول يوم) من أيام وجوده قيل القياس فيه من لانه لابتداء الغاية في الزمان ومن لابتداء الغاية في المكان والجواب ان من عام في الزمان والمكان (أحق أن تقوم فيه)

رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني مسجد المدينة ويدل عليه ما روى عن أبي سعيد الخدري قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين اسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصى فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة أخرجه مسلم (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان قوائم منبري هذا رواتب في الجنة أخرجه النسائي قوله رواتب يعني ثوابت يقال رتب بالمكان اذا قام فيه وثبت وفي رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة انه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ويدل على أنهم أهل قباء ما روى عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيهم رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الاصول من رواية أبي داود والترمذي موقوفا على أبي هريرة ورواه البغوي من طريق أبي داود مرفوعا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ما روى عن ابن عمر قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتي قباء راكبا وماشيا زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله أخرج الرواية الاولى والزيادة البخاري ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخاري عن سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج حتى يأتي هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان له كعدل عمرة أخرجه النسائي عن أسيد بن ظهير ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الصلاة في مسجد قباء كعمرة أخرجه الترمذي وقوله سبحانه وتعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) يعني من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين قال عطاء ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبري بسنده عن عويم بن ساعدة وكان من أهل بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل قباء اني أسمع الله عز وجل قد احسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور قالوا يا رسول الله ما نعلم شيئا الا ان جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء ان الله سبحانه وتعالى قد احسن عليكم الثناء في الطهور فما تصنعون قالوا انا نغسل عنا اثر الغائط والبول وقال الامام فخر الدين الرازي المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه الاول ان التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه

مصليا (فيه رجال يحبون ان يتطهروا

والله يحب المطهرين) قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال امؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يا رسول الله انهم لمؤمنون وانا معهم فقال عليه السلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء قالوا نعم قال عليه السلام مؤمنون انتم ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الانصار ان الله عز وجل قد اثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يا رسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبي عليه السلام رجال يحبون ان يتطهروا قيل هو عام في التطهر عن النجاسات كلها وقيل هو التطهر من الذنوب ٣٦١ بالتوبة ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون

ومدحه الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وماذا لك الا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية الوجه الثالث ان طهارة الظاهر انما يحصل لها أثر عند الله اذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل انه محمول على كلا الامرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الاحداث والنجاسات بالماء (والله يحب المطهرين) فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لانفسهم من المداومة على محبة الطهارة قوله سبحانه وتعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه والمعنى ان الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه (خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) الشفا هو الشفير وشفا كل شئ حرفه ومنه يقال أشفى على كذا اذا دانا منه وقرب ان يقع فيه والجرف المكان الذي أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقال أبو عبيد الجرف هو الهوة وما جرفه السيل من الاودية فيحفر بالماء فيبقى واهيا هار رثى هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل هو من هار يهار اذا تهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في أثر بعض كما يهار الرمل والشئ الرخو (فانهار به) يعني سقط بالباني (في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) والمعنى ان بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار واذا كان كذلك كان أسرع الى السقوط في نار جهنم ولان الباني الاول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء والباني الثاني قصد ببنائه الكفر

عليه حرص المحب للشئ ومعنى محبة الله اياهم انه يرضى عنهم ويحسن اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه (أفمن أسس بنيانه) وضع أساس ما يبنيه (على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) هذا سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ام من أسسه على قاعدة هي اضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لانه جعل مجازا عما يبنى في التقوى والشفا الجرف والشفير وجرف الوادي جانبه الذي يحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا والهار الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه فعل قصر عن فاعل

تكلف من خالف والفه ليس بألف فاعل انما هي عينه وأصله هور فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره أفمن أسس بنيانه أمن أسس بنيانه شامي ونافع جرف شامي وحمزة ويحيى هار بالامالة أبو عمرو وحمزة في رواية ويحيى (فانهار به في نار جهنم) فطاح به الباطل في نار جهنم ولما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل رشح المجاز لفظي بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور ان المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها قال جابر رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار (والله لا يهدي القوم الظالمين) لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على

نفاقهم (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم (الا ان تقطع قلوبهم)

والنفاق واضرار المسلمين فكان بناؤه أخس البناء وكانت عاقبته الى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع فى النار ولقد ذكر لنا انه حفرت بقعة منه فرؤى الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة) يعنى شكا ونفاقا (فى قلوبهم) والمعنى ان ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة فى قلوبهم لان المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد وا غما وحزنا وبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك سبب الريبة فى قلوبهم وقيل انهم كانوا يحسبون انهم محسنون فى بنائه كما حسب العجل الى بنى اسرائيل فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لاى سبب أمر بتخريبه وقال السدى لا يزال هدم بنيانهم ريبة أى حزازة وغيظا فى قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) أى تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء اما بالسيف واما بالموت والمعنى ان هذه الريبة باقية فى قلوبهم الى ان يموتوا عليها (والله عليم) يعنى بأحوالهم وأحوال جميع عباده (حكيم) يعنى فيما حكم به عليهم قوله عز وجل (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) الآية قال محمد بن كعب القرظى لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال أشترط لربى ان تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا اذا فعلنا ذلك فلنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة قال ابن عباس بايعوه بالجنة قال أهل المعانى لا يجوز أن يشترى الله شيأ هو له فى الحقيقة لان المشترى انما يشترى ما يملك والاشياء كلها ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن أنفسناه وخلقها وأموالنا هو رزقنا اياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء الى الطاعة والجهاد وذلك لان المؤمن اذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل أو انفق ماله فى سبيل الله عوضه الله الجنة فى الآخرة جزاء لما فعل فى الدنيا فجعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة والمراد باشتراء الاموال انفاقها فى سبيل الله وفى جميع وجوه البر والطاعة (يقاتلون فى سبيل الله) هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الامر أى قاتلوا فى سبيل الله (فيقتلون ويقتلون) يعنى فيقتلون أعداء الله ويقتلون فى طاعة الله وسبيله (وعدا عليه حقا) يعنى ذلك الوعد بان لهم الجنة وعدا على الله حقا (فى التوراة والانجيل والقرآن) يعنى ان هذا الوعد الذى وعده الله تعالى للمجاهدين فى سبيله قد أثبته فى التوراة والانجيل كما أثبته فى القرآن وفيه دليل على ان الامر بالجهاد موجود فى جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل (ومن أوفى بعهده من الله) يعنى لا أحد أوفى بالعهد من الله (فاستبشروا ببيعكم الذى

قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء فحينئذ يسلون عنه واما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ثم يجوز ان يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة عنها ويجوز أن يراد حقيقة تقطعها وما هو كائن منه بقتلهم أو فى القبور أو فى النار أو معناه الا ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم) بعزائمهم (حكيم) فى جزاء جرائمهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) مثل الله اثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشراء وروى تاجرهم فاغلى لهم الثمن وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابى وهو يقرؤها فقال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله نخرج الى الغزو واستشهد (يقاتلون فى سبيل الله) بيان محل التسليم (فيقتلون ويقتلون) أى تارة يقتلون العدو وطورا يقتلهم العدو فيقتلون ويقتلون حمزة وعلى (وعدا عليه) مصدر أى وعدهم بذلك وعدا (حقا) صفته أخبر بان هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت قد أثبته (فى التوراة والانجيل والقرآن) وهو دليل على ان أهل كل ملة امروا بالقتال ووعدوا عليه ثم قال (ومن اوفى بعهده من الله) لان اخلاف الميعاد قبيح بايعتم لا يقدم عليه الكريم مناقيض بأكرم الاكرمين ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن منه وأبلغ (فاستبشروا ببيعكم الذى

بايعتم به) يعنى فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذى بايعتم الله به (وذلك) يعنى هذا البيع (هو الفوز العظيم) لانه رابح فى الآخرة قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال ان الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم قوله سبحانه وتعالى (التائبون) قال الفراء استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الاولى وانقطاع الكلام وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون الى آخرهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين ترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للاول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعنى المؤمنين المذكورين فى قوله ان الله اشترى وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعنى الذين تابوا من الشرك وبرؤا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق وقيل التائبون من جميع المعاصى لان لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل * واعلم ان التوبة المقبولة انما تحصل بامور أربعة أولها احتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها فى المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص فى توبته (العابدون) يعنى المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهى أن تكون العبادة خالصة لله تعالى (الحامدون) يعنى الذين يحمدون الله تعالى على كل حال فى السراء والضراء روى البغوى بغير سند عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة انما سمى الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الازهرى قيل للصائم سائح لان الذى يسيح فى الارض متعبد لا زاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عن الاكل وقيل أصل السياحة استمرار الذهاب فى الارض كالماء الذى يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهى وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون فى سبيل الله ويدل عليه ما روى عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال ان سياحة امتى الجهاد فى سبيل الله ذكره البغوى بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لانهم ينتقلون من بلد الى بلد فى طلبه وقيل ان السياحة لها أثر عظيم فى تهذيب النفس وتحسين اخلاقها لان السالك لابد أن يلقى أنواعا من الضر والبؤس ولابد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين فى سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار

بايعتم به) فافرحوا به غاية الفرح فانكم تبيعون فانيا ببا ق (وذلك هو الفوز العظيم) قال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها (التائبون) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين أو هو مبتدأ خبره (العابدون) أى الذين عبدوا الله وحده واخلصوا له العبادة وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وعن الحسن هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق (الحامدون) على نعمة الاسلام (السائحون) الصائمون لقوله عليه السلام سياحة أمتى الصيام أو طلبة العلم لانهم يسيحون فى الارض يطلبونه فى مظانه أو السائرون فى الارض للاعتبار

قدرة الله تعالى فيتفكر فى ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته (الراكعون الساجدون) يعنى المصلين وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لانهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلى من غير المصلى بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلى وغيره (الآمرون بالمعروف) يعنى يأمرون الناس بالايمان بالله وحده (والناهون عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل انهم يأمرون الناس بالحق فى أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحسن اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو فى والناهون عن المنكر فان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى فى صفة الجنة وفتحت أبوابها وقيل فيه وجه آخر وهو ان الموصوفين بهذه الصفات الستة هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعنى هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر (والحافظون لحدود الله) قال ابن عباس يعنى القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون الى أمره ونهيه فلا يضيعون شيأ من العمل الذى ألزمهم به ولا يرتكبون منهياتهم عنه (وبشر المؤمنين) يعنى بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به اذا وفوا لله تعالى بعهده فانه موف لهم بما وعدهم من ادخال الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الافعال التسع وهو قوله تعالى التائبون الى آخر الآية بان له الجنة وان لم يغز قوله عز وجل (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) الآية واختلف أهل التفسير فى سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت فى شأن أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم والد على وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روى عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى امية بن المغيرة فقال أى عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى امية بن المغيرة أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم اناعلى ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لك مالم انه عنك فانزل الله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى وانزل الله فى أبى طالب انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء أخرجاه فى الصحيحين فان قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية فى شأن أبى طالب وذلك ان وفاته كانت بمكة أول الاسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهى من آخر القرآن نزولا قلت الذى نزل فى أبى طالب قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت فقال النبى صلى الله عليه وسلم

(الراكعون الساجدون) المحافظون على الصلوات (الآمرون بالمعروف) بالايمان والمعرفة والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصى ودخلت الواو للايذان بان السبعة عقد تام أو للتضاد بين الامر والنهى كما فى قوله ثيبات وأبكارا (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه أو معالم الشرع (وبشر المؤمنين) المتصفين بهذه الصفات وهم عليه السلام ان يستغفر لابى طالب فنزل (ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) أى ما صح له الاستغفار فى حكم الله وحكمته

لاستغفرن لك مالم أنه عنك كما فى الحديث فيحتمل انه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له فى بعض الاوقات الى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسراره كتابه (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء الآية وفى رواية قال لولا تعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية (ق) عن أبى سعيد الخدرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه وفى رواية يغلى منه دماغه من حرارة نعليه (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك قال هو فى ضحضاح من نار ولولا انا لكان فى الدرك الاسفل من النار وفى رواية قال قلت يا رسول الله ان عمك أبا طلب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال نعم وجدته فى غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح وقال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى جمت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وروى الطبرى بسنده عن بريدة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظنى انه قال قبر أمه فجلس اليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يا رسول الله انا رأينا ما صنعت قال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فاذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يؤذن لى فدارؤى با كيا أكثر من يومئذ وحكى ابن الجوزى عن بريدة قال ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف اليهم فقالوا ما أبكاك قال مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى أن استغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربى أن استغفر لها فزجرت زجرا فأبكانى ثم دعا براحلته فركبها فما سار الا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحى فنزلت ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى الآية (ق) عن أبى هريرة قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى فى أن استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فاذن لى فزوروا القبور فانها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبى صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله هذه الآية وروى الطبرى بسنده عنه قال ذكر لنا ان رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الارحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلى والله لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله عز وجل ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية ثم عذر الله ابراهيم فقال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الآية عن على بن أبى طالب قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له

أتستغفر لابويك وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائي والترمذي وقال حديث حسن وأخرجه الطبري وقال فيه فأنزل الله عز وجل وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ما كان ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لان الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز ان يطلب منه ما لا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى لان النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ثم ذكر الله عز وجل سبب المنع فقال تعالى (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) يعني تبين لهم انهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضا فقد قال تبارك وتعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده أما قوله سبحانه وتعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه) فمعناه وما كان طلب ابراهيم لابيه المغفرة من الله الا من أجل موعدة وعدها ابراهيم اياه ان يستغفر له رجاء اسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما أنزل الله خبر عن ابراهيم انه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر ابراهيم لابيه فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فانزل الله عز وجل قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم الى قوله الاقول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك يعني ان ابراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار لانه انما استغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الموعد الذي وعده ان يسلم (فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه) فعلى هذا الهاء في اياه راجعة الى ابراهيم والوعد كان من أبيه وذلك ان أبا ابراهيم وعد ابراهيم ان يسلم فقال ابراهيم سأستغفر لك ربي يعني اذا أسلمت وقيل ان الهاء راجعة الى الاب وذلك ان ابراهيم وعد أباه ان يستغفر له رجاء اسلامه ويؤكد هذا قوله سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضا قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه يعني فلما ظهر لابراهيم وبان له ان أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل ان الله سبحانه وتعالى أوحى الى ابراهيم ان أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة انه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول ابراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم يا رب انك وعدتني ان لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى اني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا ابراهيم ما تحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والانثى ذيخة وقوله تبارك وتعالى (ان ابراهيم لاواه حليم) جاء

(من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم) من بعد ما ظهر لهم انهم ماتوا على الشرك ثم ذكر عذر ابراهيم فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أي وعد أبوه اياه ان يسلم أو هو وعد أباه ان يستغفر وهو قوله لاستغفرن لك دليله قراءة الحسن وعدها أباه ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله اعطاءه الاسلام الذي به يغفر له (فلما تبين) من جهة الوحي (له) لابراهيم (انه) ان أباه (عدو لله) بان يموت كافرا وانقطع رجاؤه عنه (تبرأ منه) وقطع استغفاره (ان ابراهيم لاواه) هو المتأوه شفقا وفرقا ومعناه انه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر (حليم) هو الصبور على البلاء الصفوح عن الاذى لانه كان يستغفر لابيه وهو يقول لارجمنك

في الحديث ان الاواه الخاشع المتضرع وقال ابن مسعود الاواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الاواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الاواه الموقن وقال كعب الاحبار هو الذي يكثر التأوه وكان ابراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وقال عقبة بن عامر الاواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه انه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة وقال الزجاج انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الاواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت كنفس الصعداء والفعل منه أوه وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه اوه والسبب فيه ان عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض ما به من الحزن والشدة وأما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو اتاه بمكروه ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم بأبيه حين قال له لئن لم تنته لارجمنك فأجابه ابراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقال ابن عباس الحليم السيد وانما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى انه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له اصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم في هذه الحالة أيضا وقوله سبحانه وتعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم) يعني وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به وبرسوله وذلك انه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر منهم فاعلمهم ان ذلك ليس بضائرهم (حتى يبين لهم ما يتقون) يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن يقدم اليهم النهي عن ذلك الفعل فأما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل ان جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فانزل الله عز وجل هذه الآية وبين انه لا يؤاخذهم بعمل الا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه وقال مجاهد ببيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وببيانه لهم في معصيته وطاعته عامة وقال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في أمر المنسوخ وذلك ان قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم واسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة ورجعوا الى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة الى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك الى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت الى الكعبة فقالوا يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فانزل الله عز وجل وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ (ان الله بكل شئ عليم) يعني انه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عند مماتها كم

(وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين انه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للاسلام ولا يخذلهم الا اذا قدموا عليه بعد بيان خطره وعلمهم بانه واجب الاجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي فاما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف (ان الله بكل شئ عليم

عن الاستغفار للمشركين و يعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه (ان الله له ملك السموات والارض) يعنى انه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والارض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء (يحيي ويميت) يعنى انه تعالى يحيي من يشاء على الايمان ويميته عليه و يحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض عليه لاحد عليه فى حكمه وعبيده (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) يعنى انه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم و ينصركم عليهم قوله عزوجل (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار) الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار ومعنى توبته على النبى صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته باذنه للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك وهو كقوله سبحانه وتعالى عفا الله عنك لم اذنت لهم فهو من باب ترك الافضل لا انه ذنب يوجب عقابا وقال أصحاب المعانى هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فان لله خمسه ومعنى هذا ان ذكر النبى بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والانصار فى ضم توبتهم الى توبة النبى صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول الى اسم الله فى قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف وأما معنى توبة الله على المهاجرين والانصار فلاجل ما وقع فى قلوبهم من الميل الى القعود عن غزوة تبوك لانها كانت فى وقت شديد وربما وقع فى قلوب بعضهم انا لا نقدر على قتال الروم و كيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع فى قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية وقيل ان الانسان لا يخلو من زلات وتبعات فى مدة عمره اما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا ما شاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التى حصلت لهم فى ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لاجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة فى تلك الغزوة مع النبى صلى الله عليه وسلم وانما ضم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم تنبيها على عظم مراتبهم فى الدين وانهم قد بلغوا الى الرتبة التى لاجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم (الذين اتبعوه) فى تلك الغزوة من المهاجرين والانصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبى صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك فى سبعين ألفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل (فى ساعة العسرة) يعنى فى وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيه يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه و يعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء و يفعل صاحبه كذلك حتى تأتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم

ان الله له ملك السموات والارض يحيي و يميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير لقد تاب الله على النبى) أى تاب عليه باذنه للمنافقين فى التخلف عنه كقوله عفا الله عنك (والمهاجرين والانصار) فيه بعث للمؤمنين على التوبة وانه ما من مؤمن الا وهو محتاج الى التوبة والاستغفار حتى النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار (الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) فى غزوة تبوك ومعناه فى وقتها والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق وكانوا فى عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة حتى اقتسم التمرة اثنان ورب ما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ومن الماء حتى نحروا الابل وعصروا كرشها وشربوه وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط

و يقينهم رضى الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله ان الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع الله قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعا حتى أرسل الله سحابة فطرت فلؤنا ما معهم من الاوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبرى عن عمر قوله تعالى (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) يعنى من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التى نالتهم والزيغ فى اللغة الميل وقيل هم بعضهم ان يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التى نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر فى قلوبهم فلاجل ذلك قال تعالى (ثم تاب عليهم) يعنى انه سبحانه وتعالى علم اخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الانابة والتوبة فان قلت قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار قلت انه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا انه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم اتبعه بقوله (انه بهم رؤف رحيم) تأكيد الذلك ومعنى الرؤف فى صفة الله تعالى انه الرفيق بعباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا فى المعنى قال الخطابى قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة قوله سبحانه وتعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع وكلهم من الانصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لامر الله وفى معنى خلفوا قولان أحدهما انهم خلفوا عن توبة أبى لبابة وأصحابه وذلك انهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبى لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثانى انهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها واما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روى عن ابن شهاب الزهرى قال أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ان عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك غير انى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد

(من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) عن الثبات على الايمان او عن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه وفى كاد ضمير الشان و الجملة بعده فى موضع النصب وهو كقولهم ليس خلق الله مثله أى ليس الشان خلق الله مثله يزيغ حمزة وحفص (ثم تاب عليهم) تكرير للتوكيد (انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة) أى وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن امية وهو

شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب ان لى بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتاهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب الا ظن ان ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فانا اليها اصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فارجع ولم أقض شيأ فأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك اذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيأ ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت ان ارتحل فأدركهم فيا ليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت اذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى انى لا أرى لى اسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق او رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فاذا هو أبو خيثمة الانصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت انى لن انجو منه بشئ أبدا فاجمعت صدقه فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لى تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يا رسول الله انى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم

حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عقبى الله وفي رواية عفو الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت ان أرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن امية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا ففيهما اسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس او قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فاشهد الصلاة وأطوف في الاسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريبا منه واسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتي نظر الي واذا التفت نحوه اعرض عني حتى اذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم اني أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة اذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له الي حتى جاءني فدفع الي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فاذا فيه اما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى اذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي واذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك ان تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل الى صاحبي مثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر قال فجاءت امرأة هلال بن امية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان هلال ابن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره ان اخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت انه والله ما به حركة الى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا قال

فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن امية ان تخدمه قال فقلت لا استاذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وانا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل عنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت سمعت صوت صارخ اوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر قال فخررت ساجدا وعرفت انه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى ساع من اسلم قبلي واوفى على الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما اياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت اتأم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا فوجا يهنؤني بالتوبة ويقولون لينهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس فقام الي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام الي رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله فقال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ان من توبتي ان انخلع من مالي صدقة الى الله والى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فاني امسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله ان الله انما انجاني بالصدق وان من توبتي ان لا احدث الا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت ان احدا من المسلمين ابلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مما ابلاني الله ووالله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومي هذا واني لارجو أن يحفظني الله فيما بقي قال فانزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة حتى بلغ انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد ان هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا أكون كذبته فاهلك كما هلك الذين كذبوا ان الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لاحد فقال الله سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فان

ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه أيانا واراء جاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه وفي رواية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الامر فما من شئ أهم الي من ان أموت فلا يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ولا يسلم على قال وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الاخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بامري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت افلا أرسل اليه فابشره قال اذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا أخرجه البخاري ومسلم * شرح غريب هذا الحديث قوله حين توائقنا على الاسلام التوائق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل أو الناقة القويان على الحمل والسفر وقوله وري بغيرها يقال وري عن الشئ اذا أخفاه وأظهر غيره والمفازة البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها قوله فخلاها وبا التخفيف يعني كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والاهبة الجهاز وما يحتاج اليه المسافر قوله فأنا اليها أصعر هو بالعين المهملة أي أميل والصعر الميل قوله وتفارط الغزو أي تباعد ما بيني وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار اليه بالعيب يقال فلان ينظر في عطفيه اذا كان معجبا بنفسه ويقال زال به السراب يزول اذا ظهر شخص الانسان خيالا فيه من بعد والسراب هو ما يظهر للانسان في البرية في وقت الهاجرة كانه ماء والمبيض بكسر الباء لابس البياض قوله كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه اللهم اجعله أبا خيثمة أي لتوجدنه هذا الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله الذي لمزه المنافقون يعني عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره الى وطنه قوله حضرني بثي البث أشد الحزن كانه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أي زال وذهب عني واجمعت صدقه أي عزمت عليه لقد أعطيت جدلا أي فصاحة وقوة في الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله فمازالوا يؤنبونني أي يلومونني أشد اللوم قوله حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي أعرف معناه تغير على كل شئ من الارض وتوحشت علي وصارت كانها أرض لا أعرفها وقوله فأما صاحباي فاستكانا يعني خضعا وسكنا قوله تسورت حائط أبي قتادة أي علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والانباط الفلاحون

والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والاطراح وقوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أى فقصدت بالصحيفة التى أرسل بها ملك غسان فاحرقتها فى التنور وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت اتأمم يعنى أقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس يتلألأ برق وجهه اذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله أنخلع من مالى أى أخرج منه جميعه واتصدق به كما يخلع الانسان قميصه قوله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى البلاء والابتلاء يكون فى الخير وفى الشر واذا أطلق كان فى الشر غالبا فاذا أريد به الخير قيد به كما قيدهنا بقوله أحسن مما أبلانى أى انعم على قوله ان لا أكون كذبته هكذا هو فى جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فاهلك هو بكسر اللام وار جاؤه أمرنا تأخيره وقوله فى الرواية الاخرى يحطمكم الناس أى يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعنى باقى الليل وقوله وآذان بتوبة الله علينا أى أعلم والاذان الاعلام والله أعلم قوله عز وجل (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) يعنى بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى انه ضاق عليهم المكان بعد ان كان واسعا (وضاقت عليهم أنفسهم) يعنى من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم (وظنوا) يعنى وأيقنوا وعلموا (أن لا ملجأ) يعنى لا مفزع ولا مفر (من الله الا اليه) ولا عاصم من عذابه الا هو (ثم تاب عليهم) فيه اضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه فرجعهم ثم تاب عليهم وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لانه قد ذكر توبتهم فى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار أى وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا وقوله تعالى (ليتوبوا) معناه ان الله سبحانه وتعالى تاب عليهم فى الماضى ليكون ذلك داعيا لهم الى التوبة فى المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل ان أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا الى حالتهم الاولى يعنى الى عادتهم فى الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك (ان الله هو التواب) يعنى على عباده (الرحيم) بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والاحسان وانه لا يجب على الله تعالى شئ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) يعنى فى مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) يعنى مع من صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا فى البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعنى مع أبى بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك باخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لان الصدق يهدى الى الجنة والكذب الى

عطف على النبى (الذين خلفوا) عن الغزو (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) برحبها أى مع سعتها وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا (وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لانها حرجت من فرط الوحشة والغم (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله الا الى استغفاره (ثم تاب عليهم) بعد خمسين يوما (ليتوبوا) ليكونوا من جملة التوابين (ان الله هو التواب الرحيم) عن أبى بكر الوراق انه قال التوبة النصوح ان تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فى ايمانهم دون المنافقين أو مع الذين لم يتخلفوا أو مع الذين صدقوا فى دين الله نية وقولا وعملا والآية تدل على أن الاجماع حجة لانه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم

(قوله واصل الوطء الكسر كذا بالاصل والصواب أصل الحطم كما هو ظاهر اه)

الفجور كما ورد فى الحديث وقال ابن مسعود اياكم والكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيأ ثم لا ينجزه اقرؤا ان شئتم وكونوا مع الصادقين وروى ان أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الانصار فى يوم السقيفة وذلك ان الانصار قالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر يا معشر الانصار ان الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الانصار أنتم هم فقال أبو بكر ان الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا ان نكون معكم نحن الامراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين قوله سبحانه وتعالى (ماكان لاهل المدينة) يعنى لسا كنى المدينة من المهاجرين والانصار (ومن حولهم من الاعراب) يعنى سكان البوادى من مزينة وجهينة وأسلم واشجع وغفار وقيل هو عام فى كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم أولى (ان يتخلفوا عن رسول الله) يعنى اذا غزا وهذا ظاهره خبر ومعناه النهى أى ليس لهم ان يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يرغبوا) يعنى ولا ان يرغبوا (بانفسهم عن نفسه) يعنى ليس لهم ان يكرهوا لانفسهم ما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لانفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه فى حال الشدة والمشقة وقال الحسن لا يرغبوا بانفسهم ان يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بانهم لا يصيبهم) فى سفرهم وغزواتهم (ظمأ) أى عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) يعنى مجاعة شديدة (فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار) يعنى ولا يضعون قدما على الارض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم (ولا ينالون من عدو نيلا) يعنى اسرا أو قتلا أو هزيمة أو غنيمة ونحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (الا كتب لهم به عمل صالح) يعنى الا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قدر اقتضاه لهم وقبله منهم (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعنى ان الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد أحسن فى عمله واطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه ان يجازيه على احسانه وعمله الصالح وفى الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيآت الا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا بنفسه لم يكن لاحد ان يتخلف عنه الا بعذر فاما غيره من الائمة والولاة فيجوز ان شاء من المؤمنين ان يتخلف عنه اذا لم يكن للمسلمين اليه ضرورة وقال الوليد بن مسلم سمعت الاوزاعى وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون فى هذه الآية انها الاول هذه الامة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الاسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل واباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان

المراد بهذا النفى النهى وخص هؤلاء بالذكر وان استوى كل الناس فى ذلك لقربهم منه ولا يخفى عليهم خروجه (ولا يرغبوا) ولا ان يضنوا (بانفسهم عن نفسه) عما يصيب نفسه أى لا يختاروا ابقاء أنفسهم على نفسه فى الشدائد بل أمروا بان يجعلوه فى البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه فى كل شدة (ذلك) النهى عن التخلف (بأنهم) بسبب انهم (لا يصيبهم ظما) عطش (ولا نصب) تعب (ولا مخمصة) مجاعة (فى سبيل الله) فى الجهاد (ولا يطؤن موطئا) ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم واخفاف رواحلهم وأرجلهم (يغيظ الكفار) يغضبهم ويضيق صدورهم (ولا ينالون من عدو نيلا) ولا يصيبون منهم اصابة بقتل أو اسر أو جرح أو كسر او هزيمة (الا كتب لهم به عمل صالح) عن ابن عباس رضى الله عنهما الكل روعة سبعون ألف حسنة يقال نال منه اذا رزأه ونقصه وهو عام فى كل ما يسوءهم وفيه دليل على ان من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك وعلى ان المدد يشارك الجيش فى الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم وقد اسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب والموطئ اما مصدر كالمورد واما مكان فمعنى يغيظ الكفار يغيظهم وطؤه (ان الله لا يضيع اجر المحسنين) اى انهم محسنون والله لا يبطل ثوابهم

المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدى عن عطية انه قال وما كان لهم ان يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم وأمرهم وقال هذا هو الصحيح لانه لا تتعين الطاعة والاجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا اذا أمر وكذا غيره من الائمة والولاة قالوا اذا ندبوا أو عينوا لانا لو سوغنا للمندوب ان يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لادى ذلك الى تعطيل الجهاد والله أعلم وقوله عز وجل (ولا ينفقون) يعنى فى سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) يعنى تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) يعنى ولا يجاوزون فى مسيرهم واديا مقبلين أو مدبرين فيه (الا كتب لهم) يعنى كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم (ليجزيهم الله) يعنى يجازيهم (أحسن ما كانوا يعملون) قال الواحدى معناه باحسن ما كانوا يعملون وقال الامام فخر الدين الرازى فيه وجهان الاول ان الاحسن من صفة افعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الاحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والثانى ان الاحسن صفة للجزاء أى يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وافضل وهو الثواب وفى الآية دليل على فضل الجهاد وانه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية وما فيها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه الا جهاد فى سبيلى وايمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن ادخله الجنة أو ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا ان أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فاحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت ان أغزو فى سبيل الله فاقتل ثم أغزو فاقتل ثم أغزو فاقتل لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار (م) عن أبى مسعود الانصارى البدرى قال جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف اخرجه الترمذى والنسائى

(ولا ينفقون نفقة) فى سبيل الله (صغيرة) ولو تمرة (ولا كبيرة) مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة (ولا يقطعون واديا) أى أرضا فى ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذ السيل وهو فى الاصل فاعل من ودى اذا سال ومنه الودى وقد شاع فى الاستعمال بمعنى الارض (الا كتب لهم) من الانفاق وقطع الوادى (ليجزيهم الله) متعلق بكتب اى اثبت فى صحائفهم لاجل الجزاء (احسن ما كانوا يعملون) اى يجزيهم على كل واحد جزاء احسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لاجرهم

والنسائى قوله سبحانه وتعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس انها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين اجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واجهدوهم فانزل الله عزوجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم انهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عشائرهم وحذر قومهم ان يفعلوا فعلهم اذا رجعوا اليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم وفى رواية أخرى عن ابن عباس انه قال كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا ان نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا اذا انطلقنا اليهم فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم الى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا اذا اتوا قومهم نادوا ان من اسلم فهو منا وينذرونهم حتى ان الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون اليه من أمر الدين وان ينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويدعوهم الى الاسلام وينذروهم النار ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فاصابوا من الناس معروفا ومن الحطب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم الا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم تحرجوا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عزوجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير وقعدت طائفة (ليتفقهوا فى الدين) ليسمعوا ما أنزل الله (ولينذروا قومهم) من الناس (اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيرون الا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد نزل فى بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا فى الدين يقول ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا اذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الاقوال كلها الطبرى وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال انها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال انها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الاول فقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى الغزو لم يتخلف عنه الا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) اللام لتأكيد النفى أى ان نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للافضاء الى المفسدة (فلولا نفر) فحين لم يكن نفير الكافة فهلا نفر (من كل فرقة منهم طائفة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق فى تحصيلها (ولينذروا قومهم) وليجعلوا مرمى همتهم الى التفقه انذار قومهم وارشادهم (اذا رجعوا اليهم) دون الاعراض الخسيسة من التصدر والترؤس والتشبه بالاظلة فى المراكب والملابس (لعلهم يحذرون) ما يجب اجتنابه وقيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث بعثا بعد غزوة تبوك بعد ما أنزل فى المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم الى النفير وانقطعوا جميعا عن التفقه فى الدين فامروا ان ينفر من كل فرقة منهم طائفة الى الجهاد ويبقى سائرهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذى هو الجهاد الاكبر اذ الجهاد بالحجاج أعظم أثرا من الجهاد بالنصال

فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا تخلف عن شئ من الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغى للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم الى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب أن ينقسموا قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون الى الجهاد لان ذلك الوقت كانت الحاجة داعية الى انقسام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قسمين قسم للجهاد وقسم لتعلم العلم والتفقه فى الدين لان الاحكام والشرائع كانت تتجدد شيأ بعد شئ فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون ما نزل من الاحكام وما تجدد من الشرائع فاذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعنى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا الى الجهاد اذا رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعنى مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة وقيل ان التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ومعنى ذلك ان الفرقة النافرة اذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وان الله يريد اعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وان الفئة القليلة قد غلبت جمعا كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير الى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول ان هذا النوع لا يعد تفقها فى الدين ويمكن أن يجاب عنه بانهم اذا علموا ان الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة فى ايمانهم فيكون ذلك فقها فى الدين وأما الاحتمال الثانى وهو أن يقال ان هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البوادى فاصابوا معروفا ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نرى كم الا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرجا فقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ويبلغوا ذلك الى النافرين لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون يعنى بأس الله ونقمته اذا خالفوا أمره وفى الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق الى الحق وارشادهم الى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الاخسرين أعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما انا قاسم ويعطى الله ولم يزل أمر هذه الامة مستقيما حتى تقوم الساعة وحتى يأتى أمر الله

والضمير فى ليتفقهوا للافرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما

(ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد أخرجه الترمذى وأصل الفقه فى اللغة الفهم يقال فقه الرجل اذا فهم وفقه فقاهة اذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفى الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم باحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ذكره البغوى بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة اذا صار له مال يجب فى مثله الزكاة وعلم أحكام الحج اذا وجب عليه وأما فرض الكفاية من الفقه فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا واذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا واذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث عن أبى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم أخرجه الترمذى مع زيادة فيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة أخرجه الترمذى عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبى صلى الله عليه وسلم قال العلم ثلاثة وماسوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة أخرجه ابو داود والآية المحكمة هى التى لا اشتباه فيها ولا اختلاف فى حكمها وما ليس بمنسوخ والسنة القائمة هى المستمرة الدائمة التى العمل بها متصل لا يترك والفريضة العادلة هى التى لا جور فيها ولا حيف فى قضائها قال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما فى ملكوت السموات واخرجه الترمذى موقوفا وقال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه طلب العلم أفضل من صلاة النافلة قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب فالاقرب اليهم فى الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا سكان الشام والشام أقرب الى المدينة من العراق وقال بعضهم هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فامروا بقتال اهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء انه قال نزلت هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة لقوله سبحانه وتعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ لانه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة ارشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد

حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم وعلى الاول الضمير للطائفة النافرة الى المدينة للتفقه (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم) يقربون منكم (من الكفار) القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الاقرب فالاقرب أوجب وقد حارب النبى صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم الشام والشام أقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم

وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم فى دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم انتقل الى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم فى الشام فكان فتح الشام فى زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد وقوله سبحانه وتعالى (وليجدوا فيكم غلظة) يعنى شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا ان الله مع المتقين) يعنى بالعون والنصرة قوله عزوجل (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا) يعنى واذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعنى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعنى السورة ايمانا يعنى تصديقا ويقينا وانما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال الله سبحانه تعالى (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يعنى تصديقا ويقينا وقربة من الله ومعنى الزيادة ضم شئ الى آخر من جنسه مما هو فى صفته فالمؤمنون اذا اقروا بنزول سورة من القرآن عن ثقة واعترفوا انها من عند الله عزوجل زادهم ذلك الاقرار والاعتراف ايمانا وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الايمان فى أول سورة الانفال (وهم يستبشرون) يعنى ان المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيأ بعد شئ لانهم كلما نزل ازدادوا ايمانا وذلك يوجب مزيد الثواب فى الآخرة وكما تحصل الزيادة فى الايمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة فى الكفر وهو قوله سبحانه وتعالى (واما الذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل يحتاج الى العلاج (فزادتهم) يعنى السورة من القرآن (رجسا الى رجسهم) يعنى كفرا الى كفرهم وذلك انهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الاول وسمى الكفر رجسا لانه أقبح الاشياء وأصل الرجس فى اللغة الشئ المستقذر (وماتوا) يعنى هؤلاء المنافقون (وهم كافرون) يعنى وهم جاحدون لما أنزل الله عزوجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد فى هذه الآية الايمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من اصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ان الايمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب وكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود قوله سبحانه وتعالى (أولا يرون) قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على انه خبر عن المنافقين المذكورين فى قوله فى قلوبهم مرض (أنهم يفتنون) يعنى يبتلون (فى كل عام مرة أو مرتين) يعنى بالامراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم وقيل انهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل

(وليجدوا فيكم غلظة) شدة وعنفا فى المقال قبل القتال (واعلموا ان الله مع المتقين) بالنصرة والغلبة (واذا ما انزلت سورة) ماصلة مؤكدة (فمنهم) فمن المنافقين (من يقول) بعضهم لبعض (أيكم زادته هذه) السورة (ايمانا) انكارا واستهزاء بالمؤمنين وايكم مرفوع بالابتداء وقيل هو قول المؤمنين للحث والتنبيه (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يقينا وثباتا أو خشية او ايمانا بالسورة لانهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلا (وهم يستبشرون) يعدون زيادة التكليف بشارة الشريف (واما الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق فهو فساد يحتاج الى علاج كالفساد فى البدن (فزادتهم رجسا الى رجسهم) كفرا مضموما الى كفرهم (وماتوا وهم كافرون) هو اخبار عن اصرارهم عليه الى الموت (أولا يرون) يعنى المنافقين وبالتاء خطاب للمؤمنين (انهم يفتنون) يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما (فى كل عام مرة أو مرتين)

أنهم ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين (ثم لا يتوبون) يعني من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله (ولا هم يذكرون) يعني ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين (واذا ما أنزلت سورة) يعني فيها عيب المنافقين وتوبيخهم (نظر بعضهم الى بعض) يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض اشارة (هل يراكم من أحد) يعني هل أحد من المؤمنين يراكم ان قمتم من مجلسكم فان لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وان علموا ان أحدا يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال (ثم انصرفوا) يعني عن الايمان بتلك السورة النازلة وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون (صرف الله قلوبهم) يعني عن الايمان وقال الزجاج أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بانهم قوم لا يفقهون) يعني لا يفقهون عن الله دينه ولا شيأ فيه نفعهم قوله سبحانه وتعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) هذا خطاب للعرب يعني لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شئ من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح هكذا ذكره الطبري وذكر البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شئ ما ولدني الا نكاح كنكاح أهل الاسلام قال قتادة جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم يعني من مضر ها وربيعتها ويمانيها فما من ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان واليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه الى عرب اليمن وهم القحطانية فان آمنة لها نسب في الانصار وان كانت من قريش والانصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبا فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والامانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والاخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهري من أنفسكم بفتح الفاء ومعناه انه من أشرفكم وأفضلكم (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه (م) عن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ان قريشا جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير

ثم لا يتوبون) عن نفاقهم (ولا هم يذكرون) لا يعتبرون أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوبون بما يرون من دولة الاسلام ولا هم يذكرون بما يقع بهم من الاصطلام (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا للوحي وسخرية به قائلين (هل يراكم من أحد) من المسلمين لننصرف فانا لا نصبر على استماعه ويعلمنا الضحك فخاف الافتضاح بينهم أو اذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين اشار بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ان قمتم من حضرته عليه السلام (ثم انصرفوا) عن حضرة النبي عليه السلام مخافة الفضيحة (صرف الله قلوبهم) عن فهم القرآن (بانهم) بسبب انهم (قوم لا يفقهون) لا يتدبرون حتى يفقهوا (لقد جاءكم رسول) محمد عليه السلام (من انفسكم) من جنسكم ومن نسبكم عربي

قبيلة ثم تحير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا أخرجه الترمذي وقيل ان قوله سبحانه وتعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم اذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والاخذ عنه وقوله سبحانه وتعالى (عزيز عليه ماعنتم) أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم وقيل يشق عليه ضلالكم (حريص عليكم) يعني حريص على ايمانكم وايصال الخير اليكم وقال قتادة حريص على هدايتكم وان يهديكم الله (بالمؤمنين رؤف رحيم) يعني أنه صلى الله عليه وسلم رؤف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وانا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وقد سماه الله رؤفا رحيما قال الحسن بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لاحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه الا النبي صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال سبحانه وتعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم قوله سبحانه وتعالى (فان تولوا) يعني فان أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب (فقل حسبي الله) يعني يكفيني الله وينصرني عليكم (لا اله الا هو عليه توكلت) يعني لا على غيره وبه وثقت (وهو رب العرش العظيم) انما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لانه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفا له كما يقال بيت الله روى عن أبي بن كعب انه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة آخر القرآن نزولا وفي رواية عنه قال أحدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم

(تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام)

نزلت بمكة الا ثلاث آيات وهي قوله سبحانه وتعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك الى آخر الثلاث آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة وفي رواية أخرى عن ابن عباس ان فيها من المدني قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية وقال مقاتل هي مكية الا آيتين وهي قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته والتي تليها وهي مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وأربعة آلاف وأربعة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر) قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه الروحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم ابن عبد الله وقال قتادة الر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية (تلك آيات الكتاب) المراد من لفظ تلك الاشارة الى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير

قرشي مثلكم (عزيز عليه ماعنتم) شديد عليه شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب (حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لاحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم (فان تولوا) فان أعرضوا عن الايمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض اليه أمورك فهو كافيك معهم وناصرك عليهم (لا اله الا هو عليه توكلت) فوضت أمري اليه (وهو رب العرش) وأعظم خلق الله خلقا فالاهل السماء وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز عن أبي آخر آية نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم الآية

(سورة يونس عليه السلام مائة وتسع آيات مكية)

وكذا ما بعدها الى سورة النور

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) وخمسة أمثالها حمزة وعلي وأبو عمرو وهو تعديد للحروف على طريق التحدي (تلك آيات الكتاب) اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب

تلك الآيات هى آيات الكتاب وهو القرآن الذى أنزله الله اليك يا محمد وذلك ان الله عز وجل وعده ان ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل ان لفظة تلك للاشارة الى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى ان تلك الآيات هى آيات الكتاب الحكيم وفيه قول آخر ان المراد بآيات الكتاب التى قبل القرآن حكاه الطبرى عن قتادة وروى عن مجاهد انها التوراة والانجيل فعلى هذا القول يكون التقدير ان الآيات المذكورة فى هذه السورة هى الآيات المذكورة فى التوراة والانجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة فى هذه السورة وهذا وان كان له وجه فهو ضعيف لان التوراة والانجيل لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار اليهما وقيل المراد من الآيات حروف الهجاء التى منها الر سميت آيات لانها افتتاح السور وسر القرآن (الحكيم) يعنى المحكم الحلال والحرام والحدود والاحكام فعيل بمعنى مفعول وقيل الحكيم بمعنى الحاكم كفعيل بمعنى فاعل لان القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام وقيل حكيم بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى مفعول قال الحسن حكم فيه بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وقيل ان الحكيم هو الذى يفعل الحكمة والصواب فمن حيث انه يدل على الاحكام صار كأنه هو الحكيم فى نفسه قوله سبحانه وتعالى (أكان للناس عجبا) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية ان الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم وقال سبحانه وتعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا الآية والهمزة فى أكان همزة استفهام ومعناه الانكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجبا (أن أوحينا الى رجل منهم) والعجب حالة تعترى الانسان من رؤية شئ على خلاف العادة وقيل العجب حالة تعترى الانسان عند الجهل بسبب الشئ ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد صلى الله عليه وسلم منهم يعنى من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته (أن أنذر الناس) يعنى خوفهم بعقاب الله تعالى ان أصروا على الكفر والمخالفة والانذار اخبار مع تخويف كما أن البشارة اخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلف عبارات المفسرين وأهل اللغة فى معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال الضحاك ثواب صدق وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وفى رواية أخرى عن ابن عباس انه قال سبقت لهم السعادة فى الذكر الاول يعنى فى اللوح المحفوظ وقال زيد بن أسلم هو شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة وقيل لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد والفائدة فى هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شئ أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله فى

لانكار التعجب والتعجيب منه (أن أوحينا) اسم كان وعجبا خبره واللام فى للناس متعلق بمحذوف هو صفة لعجبا فلما تقدم صار حالا (الى رجل منهم أن أنذر الناس) بان أنذروا وهى مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا ان لهم) بان لهم ومعنى اللام فى للناس انهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه والذى تعجبوا منه أن يوحى الى بشر وأن يكون رجلا من أثناء رحالهم دون عظيم من عظمائهم فقد كانوا يقولون العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبى طالب وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان وكل واحد من هذه الامور ليس بعجب لان الرسل المبعوثين الى الامم لم يكونوا الا بشرا مثلهم وارسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضا لان الله تعالى انما يختار للنبوة من جمع أسبابها والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من أسبابها والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا انما العجب والمنكر فى العقول تعطيل الجزاء (قدم صدق عند ربهم) أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة ولما كان السعى والسبق بالقدم سميت المساعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد

وباعالان صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدم فى الخير واضافتها الى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق

مقعد صدق ومدخل صدق وقال أبو عبيدة كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم فى الاسلام وقدم فى الخير ولفلان عندى قدم صدق وقدم سوء قال حسان بن ثابت

لنا القدم العليا اليك وخلفنا ✻ لاوّلنا فى طاعة الله تابع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة ✻ لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب فى اطلاق لفظ القدم على هذه المعانى ان السعى والسبق لا يحصل الا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وقال ذو الرمة

لكم قدم لا ينكر الناس أنها ✻ مع الحسب العادى طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لا ينكرها الناس وقال آخر

صل لذى العرش واتخذ قدما ✻ تنجيك يوم العثار والزلل

وقوله سبحانه وتعالى (قال الكافرون ان هذا لساحر مبين) وقرئ لساحران مبين وفيه حذف تقديره أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم فلما جاءهم بالوحى وأنذرهم قال الكافرون ان هذا الساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وانما نسبوه الى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التى لا يقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها ومن قرأ لساحر فانهم عنوا به القرآن المنزل عليه وانما نسبوه الى السحر لان فيه الاخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك قوله عز وجل (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم تفسير هذا فى سورة الاعراف بما فيه كفاية وقوله سبحانه وتعالى (يدبر الامر) قال مجاهد يقضيه وحده وقيل معنى التدبير تنزيل الامور فى مراتبها وعلى أحكام عواقبها وقيل انه سبحانه وتعالى يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر فى ادبار الامور وعواقبها لئلا يدخل فى الوجود ما لا ينبغى وقيل معناه انه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والارض فلا يحدث حدث فى العالم العلوى ولا فى العالم السفلى الا بارادته وتدبيره وقضائه وحكمته (ما من شفيع الا من بعد اذنه) يعنى لا يشفع عنده شافع يوم القيامة الا من بعد ان يأذن له فى الشفاعة لانه عالم بمصالح عباده وبمواضع الصواب والحكمة فى تدبيرهم فلا يجوز لاحد أن يسأله ما ليس له به علم فاذا أذن له فى الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش فى قولهم ان الاصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فاخبر الله سبحانه وتعالى انه لا يشفع أحد عنده الا باذنه لان له التصرف المطلق فى جميع العالم (ذلكم الله ربكم) يعنى الذى خلق هذه الاشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه (فاعبدوه) أى فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لانه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة (أفلا تذكرون) يعنى أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى قوله سبحانه وتعالى (اليه مرجعكم جميعا) يعنى الى ربكم الذى خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعا

العظمة أو مقام صدق أو سبق السعادة (قال الكافرون ان هذا) الكتاب (لسحر مبين) مدنى وبصرى وشامى ومن قرأ لساحر فهذا اشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل عجزهم واعترافهم به وان كانوا كاذبين فى تسميته سحرا (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود (يدبر) يقضى ويقدر على مقتضى الحكمة (الامر) أى أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والارض والعرش ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات والارض والاستواء على العرش اتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وانه لا يخرج أمر من الامور عن قضائه وتقديره وكذلك قوله (ما من شفيع الا من بعد اذنه) دليل على عزته وكبريائه (ذلكم) العظيم الموصوف بما وصف به (الله ربكم) وهو الذى يستحق العبادة (فاعبدوه) وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من انسان أو ملك فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع (أفلا تذكرون) أفلا تتدبرون فتستدلون بوجود المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع (اليه مرجعكم جميعا) حال أى

أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع (وعد الله حقا) يعنى وعدكم الله ذلك وعدا حقا (انه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فانه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه وفى هذه الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكرى البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفرقها بالموت والبلاء وتركب تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة أخرى وكلام يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن فى المرة الاولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى واذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصى وهو قوله سبحانه وتعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) يعنى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيأ (والذين كفروا لهم شراب من حميم) هو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذى جعل الشمس ضياء) يعنى ذات ضياء (والقمر نورا) يعنى ذا نور واختلف العلماء أصحاب الكلام فى ان الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق انه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لاصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية اذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لانها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء ولانهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على ان الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر (وقدره منازل) قيل الضمير فى وقدره يرجع الى الشمس والقمر والمعنى قدرهما منازل أو قدر سيرهما منازل لايجاوزانها فى السير ولا يقصران عنها وانما وحد الضمير فى وقدره للايجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقيل الضمير فى وقدره يرجع الى القمر وحده لان سير القمر فى المنازل اسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لان الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشرع هى السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلا وهى الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فهذه منازل القمر وهى مقسومة على اثنى عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة (لتعلموا عدد السنين) يعنى قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها (والحساب) يعنى ولتعلموا

لا ترجعون فى العاقبة الا اليه فاستعدوا للقائه والمرجع الرجوع أو مكان الرجوع (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله اليه مرجعكم (حقا) مصدر مؤكد لقوله وعد الله (انه يبدأ الخلق ثم يعيده) استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع اليه (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الحكمة بابتداء الخلق واعادته هو جزاء المكلفين على اعمالهم (بالقسط) بالعدل وهو متعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم أى بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا اذ الشرك ظلم ان الشرك لظلم عظيم وهذا أوجه لمقابلة قوله (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ولوجه كلامى (هو الذى جعل الشمس ضياء) الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكسرة ما قبلها وقلبها قبل همزة لانها للحركة أجل (والقمر نورا) والضياء أقوى من النور فلذا جعله للشمس (وقدره) وقدر القمر أى وقدر مسيره (منازل) أو وقدره ذا منازل كقوله والقمر قدرناه منازل (لتعلموا عدد السنين) أى عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور (والحساب) وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين

والشهور (ماخلق الله ذلك) المذكور الاملتبسا (بالحق) الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثا (يفصل الآيات) مكى وبصرى وحفص وبالنون غيرهم (لقوم يعلمون) فيتفعون بالتامل فيها (ان فى اختلاف الليل والنهار) فى مجىء كل واحد منهما خلف الآخر أوفى اختلاف لونيهما (وماخلق الله فى السموات والارض) من الخلائق (لآيات لقوم يتقون) خصهم بالذكر لانهم يحذرون الاخرة ٣٨٦ فيدعوهم الحذر الى النظر (ان الذين لايرجون لقاءنا) لايتوقعونه أصلا ولايخطرونه ببالهم لغفلتهم عن التفطن للحقائق أولا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء أولايخافون سوء لقائنا الذى يجب أن يخاف (ورضوا بالحيوة الدنيا) من الآخرة وآثروا القليل الفانى على الكثير الباقى (واطمأنوا بها) وسكنوا فيها سكون من لايرجو عنها فينواشديدا وأملوا بعيدا (والذين هم عن آياتنا غافلون) لايتفكرون فيها ولا وقف عليه لان خبران (أولئك مأواهم النار) فاولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثان والنار خبره والجملة خبر أولئك والباء فى (بما كانوا يكسبون) يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام وهو جوزوا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يسددهم بسبب ايمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدى الى الثواب ولذا جعل (تجرى من تحتهم الانهار) بيانا له وتفسيرا اذ التمسك بسبب السعادة كالوصول اليها أو يهديهم فى الآخرة بنور ايمانهم الى طريق الجنة ومنه الحديث ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الانبارى يجوز أن يكون المعنى ان الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم (تجرى من تحتهم الانهار) يعنى بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به انه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجرى بامرهم (فى جنات النعيم) يعنى ذلك لهم فى جنات النعيم (دعواهم فيها) أى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أى دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتيهم الطعام فاذا فرغوا قالوا الحمد لله رب العالمين فهذا دعواهم وتحيتهم (وتحيتهم فيها سلام) أى تحية بعضهم لبعض أو تحية الملائكة لهم أو تحية الله لهم بالسلام كقوله سلام قولا من رب رحيم (وآخر دعواهم) فى الجنة (أن الحمد لله رب العالمين) أى دعاؤهم لان اللهم نداء الله ومعناه اللهم انا نسبحك أى يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذا بذكره لا عبادة

حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها (ماخلق الله ذلك الا بالحق) يعنى للحق واظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا (يفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته (ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) تقدم تفسير هذه الآية فى نظائرها (ان الذين لايرجون لقاءنا) يعنى لايخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لايرجو فلانا بمعنى لايخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى مالكم لاترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفه والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لايطمعون فى ثوابنا (ورضوا بالحيوة الدنيا) يعنى اختاروها وعملوا فى طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها (واطمأنوا بها) يعنى وسكنوا اليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التى حصلت فى قلوب الكفار من الميل الى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم يصل ذلك الى قلوبهم (والذين هم عن آياتنا غافلون) قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقال ابن عباس عن آياتنا يعنى عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون أى معرضون (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يعنى من الكفر والتكذيب والاعمال الخبيثة قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يعنى يهديهم ربهم الى الجنان بايمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط الى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا ان المؤمن اذا خرج من قبره يصور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الانبارى يجوز أن يكون المعنى ان الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم (تجرى من تحتهم الانهار) يعنى بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به انه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجرى بامرهم (فى جنات النعيم) يعنى ذلك لهم فى جنات النعيم (دعواهم فيها) أى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أى دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم (متعلق بتجرى أوحال من الانهار (دعواهم فيها سبحانك اللهم) أى دعاؤهم لان اللهم نداء الله ومعناه اللهم انا نسبحك أى يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذا بذكره لا عبادة

سبحانك اللهم فيأتونهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحيفة فى كل صحيفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين وقيل ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفى رواية التسبيح والحمد أخرجه مسلم قوله جشاء أى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا وقوله سبحانه وتعالى (وتحيتهم فيها سلام) يعنى يحيى بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) قد ذكرنا ان جماعة من المفسرين جعلوا التسبيح والتحميد على احوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشئ واذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقيل انهم يفتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر فى الحديث قوله سبحانه وتعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) يعنى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم فى الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه فى نفس أو مال قال ابن عباس هذا فى قول الرجل لاهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه (استعجالهم بالخير) يعنى كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم اجابة دعائهم بالخير (لقضى اليهم أجلهم) يعنى لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشئ قبل وقته والاستعجال طلب العجلة وقال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء السؤال يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشر الذى يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم يعنى لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعى بالخير ولا يستجيب له فى الشر وقيل ان هذه الآية نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) يعنى فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت (فى طغيانهم) يعنى فى تمردهم وعتوهم (يعمهون) يعنى يترددون (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

تحية الله لهم (وآخر دعواهم) وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح (ان الحمد لله رب العالمين) ان يقولوا الحمد لله رب العالمين أن مخففة من الثقيلة وأصله انه الحمد لله رب العالمين والضمير للشان قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير اشعارا بسرعة اجابته لهم والمراد أهل مكة وقولهم فامطر علينا حجارة من السماء أى ولو عجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم اليه (لقضى اليهم أجلهم) لاماتوا واهلكوا لقضى اليهم اجلهم شامى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم) شركهم وضلالهم (يعمهون) يترددون ووجه اتصاله بما قبله ان قوله ولو يعجل الله متضمن معنى نفى التعجيل كانه قيل ولا نعجل لهم الشر ولا نقضى اليهم أجلهم فنذرهم فى طغيانهم اى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم الزاما للحجة عليهم

اللهم انى اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر اغضب كما يغضب البشر فايما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة قوله عز وجل (واذا مس الانسان الضر) أى الشدة والجهد والمراد بالانسان فى هذه الآية الكافر (دعانا لجنبه) أى على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) ير يد جميع حالاته لان الانسان لا ينفك عن احدى هذه الحالات الثلاث والمعنى ان المضرور لا يزال داعيا فى جميع حالاته الى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أو قاعدا أو قائما وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى اذا مس الانسان الضر لجنبه أو مسه قاعدا أو مسه قائما وهذا القول فيه بعد لان ذكر الدعاء الى هذه الاحوال أقرب من ذكر الضر (فلما كشفنا عنه ضره) يعنى فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعناه عنه (مر) يعنى على طريقته الاولى قبل مس الضر (كأن لم يدعنا) فيه حذف تقديره كانه لم يدعنا وانما أسقط الضمير على سبيل التخفيف (الى ضر مسه) والمعنى انه استمر على حالته الاولى قبل أن يمسه الضر ونسى ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يعنى مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك باقدار الله اياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد فى كل شئ وانما سمى الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه وضيعها فى عبادة الاصنام وأتلف ماله وضيعه فى البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الاصنام وسدنتها يعنى خدامها وقال ابن جريج فى قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعنى من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم وبيان مقصود الآية ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع فى جميع حالاته مجتهدا فى الدعاء طالبا من الله ازالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع الى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فاما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا لله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء فى جميع أوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن اذا ابتلى ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل فى جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن ان الله تبارك وتعالى مالك الملك على الاطلاق حكيم فى جميع افعاله وله التصرف فى خلقه بما يشاء و يعلم انه ان أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل قوله سبحانه وتعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يعنى أهلكنا الامم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة (لما ظلموا) يعنى لما أشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) يعنى فكذبوهم (وما

(واذا مس الانسان) أصابه والمراد به الكافر (الضر دعانا) أى دعا الله لازالته (لجنبه) فى موضع الحال بدليل عطف الحالين أى (أو قاعدا أو قائما) عليه أى دعانا مضطجعا وفائدة ذكر هذه الاحوال ان المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر فهو يدعونا فى حالاته كلها كان مضطجعا عاجزا عن النهوض أو قاعدا لا يقدر على القيام أو قائما لا يطيق المشى (فلما كشفنا عنه ضره) أزلنا ما به (مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) أى مضى على طريقته الاولى قبل مس الضر ونسى حال الجهد وأمر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع اليه كانه لا عهد له به والاصل كانه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشان (كذلك) مثل ذلك التزيين (زين للمسرفين) للمجاوزين الحد فى الكفر زين الشيطان بوسوسته (ما كانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر واتباع الكفر (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) اشركوا وهو ظرف لاهلكنا والواو فى (وجاءتهم رسلهم) للحال أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم (بالبينات) بالمعجزات (وما

كانوا يؤمنوا) ان يقوا ولم يهلكوا لان الله علم منهم انهم يصرون على كفرهم وهو عطف على ظلموا أو اعتراض واللام لتاكيد النفي يعني أن السبب في اهلاكهم تكذيبهم للرسل وعلم الله انه لا فائدة في امهالهم بعد ان ألزموا الحجة ببعثة الرسل (كذلك) مثل ذلك الجزاء يعني الاهلاك (نجزي القوم المجرمين) وهو وعيد لاهل مكة على اجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) الخطاب للذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم أي استخلفناكم في الارض بعد القرون التي أهلكناها (لننظر كيف تعملون) أي لننظر أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب عملكم وكيف في محل النصب بتعملون لا بننظر لان معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبا لاعتبار بما ضيكم أم الاغترار بما فيكم قال عليه السلام الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) حال (قال الذين لا يرجون لقاءنا) لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد لاهل الطغيان (ائت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك (أو بدله) بان تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فامر بان يجيب عن التبديل لانه داخل تحت قدرة الانسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وان يسقط ذكر الآلهة بقوله (قل ما يكون لي) ما يحل لي (ان أبدله من تلقاء نفسي) من قبل نفسي

كانوا يؤمنوا) يعني هذه الامم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤا به من عند الله (كذلك نجزي القوم المجرمين) يعني كما أهلكنا الامم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) الخطاب لاهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الارض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم (لننظر كيف تعملون) يعني خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون قال أهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى اظهارا للعدل لانه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ذكره الواحدي والرازي (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء قوله سبحانه وتعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني واذا قرئ على هؤلاء المشركين آياتنا الذي انزلناه اليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) قال قتادة قال ذلك مشركو مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قال هؤلاء للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فائت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم يأته الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الامام فخر الدين الرازي اعلم أن اقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين أحدهما انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء الثاني أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كان كاذبا في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لا يكون الا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يجيبهم بقوله (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء (ما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي) يعني ان هذا الذي طلبتموه من التبديل

(ان أتبع الا ما يوحى الى) لا أتبع الا وحى الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل لان الذى اتيت به من عند الله لا من عندى فابدله (انى أخاف ان عصيت ربى) ٣٩٠ بالتبديل من عند نفسى (عذاب يوم عظيم) اى يوم القيامة وأما الاتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الانسان وقد ظهر لهم العجز عنه الانهم كانوا لا يعترفون بالعجز ويقولون لو شاء لقلنا مثل هذا ولا يحتمل أن يريدوا بقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحى لقوله انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم وغرضهم فى هذا الاقتراح الكيد اما اقتراح ابدال قرآن بقرآن ففيه انه من عندك وانك قادر على مثله فاردد مكانه آخر وأما اقتراح التبديل فلاختبار الحال وانه ان وجد منه تبديل فاما ان يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخر وامنه فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) يعنى ان تلاوته ليست الا بمشيئة الله واظهاره أمرا عجيبا خارجا عن العادات وهو أن يخرج رجل أمى لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتابا فصيحا يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحونا بعلوم الاصول والفروع والاخبار عن الغيوب التى لا يعلمها الا الله (ولا أدراكم به) ولا أعلمكم الله بالقرآن على لسانى (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) من قبل نزول القرآن أى فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفونى متعاطيا شيأ من ذلك وهو ولا قدرت عليه ولا كنت موصوفا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه (أفلا تعقلون) فتعلموا انه ليس الا من عند الله لا من مثلى وهذا جواب عما سوه تحيث قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه

ليس الى وما ينبغى لى ان أغيره من قبل نفسى ولم أومر به (ان أتبع الا ما يوحى الى) يعنى فيما آمركم به أو انهاكم عنه وما أخبركم الا ما يخبرنى الله به وان الذى أتيتكم به هو من عند الله لا من عندى (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم يا محمد انى اخشى من الله ان خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك ان يعذبنى بعذاب عظيم فى يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت قوله سبحانه وتعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) يعنى لو شاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يأمرنى بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) قال ابن عباس ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) يعنى فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى الى هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشئ ووجه هذا الاحتجاج أن كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا أحواله وانه كان أميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحى وذلك أربعون سنة ثم بعد الاربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الاحكام والآداب ومكارم الاخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم ان هذا لم يحصل الا بوحى من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله (أفلا تعقلون) يعنى ان هذا القرآن من عند الله أوحاه الى لا من قبل نفسى (ق) عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفى صلى الله عليه وسلم وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة وفى رواية ان النبى صلى الله عليه وسلم اقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيأ وثمان سنين يوحى اليه وأقام بالمدينة عشرا وتوفى وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن عائشة قالت توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة أخرجاه فى الصحيحين (م) عن أنس قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ازهر اللون ليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحى وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحى وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء أخرجاه فى الصحيحين قال الشيخ محيى الدين النووى وورد فى عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن ستين سنة

سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهى أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على ان أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقى عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ورواية الخمس متأولة أيضا بأنها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعنى صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعنى نور الملائكة او نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحى من الله عزوجل وقوله ليس بالابيض الامهق المراد به الشديد البياض كالون الجص وهو كدر يه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص والمراد انه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة قوله عزوجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى فزعم ان له شريكا وولدا والمعنى انى لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه فى قولى ان هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم ان له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه ان هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد فى الدنيا أظلم على نفسه منى من حيث انى افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه الى وجب أن يقال ليس أحد فى الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث انكم أنكرتم ان يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى (او كذب بآياته) يعنى بجحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد (انه لا يفلح المجرمون) يعنى المشركين وهذا وعيد وتأكيد لما سبق (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) يعنى و يعبد هؤلاء المشركون الاصنام التى لا تضرهم ان عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم ان عبدوها لانها جمادات وجماد لا تضر ولا تنفع وان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع ويحيى ويميت وهذه الاصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع (ويقولون هؤلاء) يعنى الاصنام التى يعبدونها (شفعاؤنا عند الله) قال أهل المعانى توهموا ان عبادتها أشد فى تعظيم الله من عبادتهم اياه وقالوا السنا باهل ان نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الاصنام فانها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وفى هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون انها تشفع لهم فى الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس والثانى أنها تشفع لهم فى الدنيا فى اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت (قل) أى قل لهم يا محمد (أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض) يعنى اتخبرون الله ان له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا فى السموات ولا فى الارض وهذا على طريق الالزام والمقصود نفى علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لعلمه الله وحيث لم يكن معلوما لله وجب ان لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور فى العرف فان الانسان اذا أراد نفى شئ حصل فى نفسه يقول ما علم الله ذلك منى مقصوده انه ما حصل ذلك الشئ منه قط ولا وقع (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والاضداد والانداد وتعالى أن يكون له شريك فى السموات والارض ولا يعلمه قوله سبحانه وتعالى

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يحتمل ان يريد افتراء المشركين على الله فى أنه ذو شريك وذو ولد وان يكون تفاديا مما أضافوه اليه من الافتراء (او كذب بآياته) بالقرآن فيه بيان ان الكاذب على الله والمكذب بآياته فى الكفر سواء (انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله مالا يضرهم) ان تركوا عبادتها (ولا ينفعهم) ان عبدوها (ويقولون هؤلاء) أى الاصنام (شفعاؤنا عند الله) أى فى أمر الدنيا ومعيشتها لانهم كانوا لا يقرون بالبعث واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت اويوم القيامة ان يكن بعث ونشور (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو انبأ بما ليس بمعلوم لله واذا لم يكن معلوما له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيأ وقوله (فى السموات ولا فى الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو معدوم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه ذاته عن ان يكون له شريك وبالتاء حمزة وعلى وما موصولة او مصدرية أى عن الشركاء الذين تشركونهم به او عن

(وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) يعنى فتفرقوا الى مؤمن وكافر يعنى كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام ويدل على ذلك ان آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الاسلام الى ان قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا وقيل بقوا على ذلك الى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل انهم كانوا على دين الاسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الاسلام من عهد ابراهيم الخليل عليه السلام الى ان غيره عمرو بن لحى فعلى هذا القول يكون المراد من الناس فى قوله وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة وقيل كان الناس أمة واحدة يعنى فى الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وتقديره انه لا مطمع فى أن يصير الناس على دين واحد فانهم كانوا أولا على الكفر وانما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس امة واحدة وليس فى الآية ما يدل على أى دين كانوا من ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل معناه انهم كانوا فى أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا فى الاديان والى هذا الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه او يمجسانه والمراد بالفطرة فى الحديث فطرة الاسلام قوله سبحانه وتعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى انه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلا وقضى بذلك فى سابق الازل قال الكلبى هى امهال هذه الامة وانه لا يهلكهم بالعذاب (لقضى بينهم) يعنى بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك يعنى مضت فى حكمة الله انه لا يقضى عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم فى الدنيا فادخل المؤمنين الجنة بايمانهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الاجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله انه لا يؤاخذ أحدا الا بعد اقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التى سبقت من الله هى قوله ان رحمتى سبقت غضبى ولولا رحمته لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ولكن اخرهم برحمته الى يوم القيامة ثم يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعنى فى الدنيا (ويقولون) يعنى كفار مكة (لولا انزل عليه آية من ربه) يعنى هلا انزل على محمد ما اقترحه عليه من الآيات (فقل) أى فقل لهم يا محمد (انما الغيب لله) يعنى ان الذى سألتموني عنه هو من الغيب وانما الغيب لله لا يعلم أحد ذلك الا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية الا هو (فانتظروا) يعنى نزولها (انى معكم من المنتظرين) وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار الحق على المبطل انى معكم من المنتظرين قوله عز وجل (واذا أذقنا الناس رحمة) يعنى رخاء ونعمة (من بعد ضراء مستهم) يعنى من بعد شدة وبلاء وضيق فى العيش أصابهم والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك ان الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم ان الله سبحانه وتعالى رحمهم فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد

اشراكهم (وما كان الناس الا امة واحدة) حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير ان يختلفوا بينهم وذلك فى عهد آدم عليه السلام الى ان قتل قابيل هابيل او بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا (فاختلفوا) فصاروا ملالا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم بينهم الى يوم القيامة (لقضى بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) فيما اختلفوا فيه وليميز الحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهى ان هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب (ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه) اى آية من الآيات التى اقترحوها (فقل انما الغيب لله) أى هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن انزال الآيات المقترحة لا غير (فانتظروا) نزول ما اقترحتموه (انى معكم من المنتظرين) لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات (واذا أذقنا الناس) أهل مكة (رحمة) خصبا وسعة (من بعد ضراء مستهم) يعنى القحط

والجوع (اذا لهم مكر فى آياتنا) أى مكروا بآياتنا بدفعها وانكارها روى انه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فلما رحمهم طفقوا يطعنون فى آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه فاذا الاولى للشرط والثانية جوابها وهى للمفاجأة وهو كقوله وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون أى وان تصبهم سيئة قنطوا واذا أذقنا الناس رحمة مكروا والمكر اخفاء الكيد وطيه من المجارية المذكورة المطوية الخافى ومعنى مسهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وانما قال (قل الله أسرع مكرا) ولم يصفهم بسرعة المكر لان كلمة المفاجأة دلت على ذلك كانه قال واذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا اليه قبل أن يغسلوا رؤسهم من مس الضراء (ان رسلنا) يعنى الحفظة (يكتبون ما تمكرون) اعلام بان ما تظنونه خافيا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم وبالياء سهل (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالارجل والدواب والفلك الجارية فى البحار أو يخلق فيكم السير ينشركم شامى (حتى اذا كنتم فى الفلك) أى السفن (وجرين) أى السفن (بهم) بمن فيها رجوع من الخطاب الى الغيبة للمبالغة

ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد أى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ما روى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله اعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب أخرجاه فى الصحيحين قوله على أثر سماء كانت من الليل أى مطر كان قد وقع فى الليل وسمى المطر سماء لانه يقطر من السماء والانواء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون فى الجاهلية انه لا بد عند ذلك من وجود مطر اورياح كما يزعم المنجمون أيضا فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لانه ناء أى ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبى عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده اذا اعتقد ان النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلا فهو جاهل يعنى الدلالة وأما من اسند ذلك الى العادة التى يجوز تخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لان المكر عبارة عن صرف الشئ عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون فى دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد (قل الله أسرع مكرا) أى قل لهم يا محمد الله اعجل عقوبة وأشد اخذا واقدر على الجزاء وان عذابه فى هلاككم أسرع اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر اشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) يعنى الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الاعمال القبيحة السيئة الى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يعنى هو الله الذى يسيركم يعنى يحملكم فى البر على ظهور الدواب وفى البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادى لكم فى السير فى البر والبحر طلبا للمعاش أو هو المهيئ لكم أسباب السير فى البر والبحر (حتى اذا كنتم فى الفلك) يعنى السفن ولفظة الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقديرهما مختلفان فان أريد بها الواحد كان كبناء قفل وان أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) يعنى وجرت السفن بركابها فان قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود منه المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم مزيد الانكار والتقبيح وقال غيره ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل ان الالتفات فى الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب (بريح طيبة)

(بريح طيبة) لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة

(وفرحوا بها) بتلك الريح لليونها واستقامتها (جاءتها) أى الفلك أو الريح الطيبة أى تلقتها (ريح عاصف) ذات عصف أى شديدة الهبوب (وجاءهم الموج) هو ما علا على الماء (من كل مكان) من البحر أو من جميع أمكنة الموج (وظنوا أنهم أحيط بهم) أهلكوا وجعل احاطة العدو بالحى ٣٩٤ مثلا فى الاهلاك (دعوا الله مخلصين له الدين) من غير اشراك به لانهم لا يدعون حينئذ معه غيره يقولون (لئن أنجيتنا من هذه) الاهوال أو من هذه الريح (لنكونن من الشاكرين) لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ولم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما فى حيزها كانه قيل يسيركم حتى اذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجىء الريح العاصف وتراكم الامواج والظن بالهلاك والدعاء بالانجاء وجواب اذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لان دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك فهو ملتبس به (فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض) يفسدون فيها (بغير الحق) باطلا أى مبطلين (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) أى ظلمكم يرجع اليكم كقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها (متاع الحيوة الدنيا) حفص أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم غيره بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله فبغى عليهم ومعناه انما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر أو متاع خبر مبتدا مضمر أى هو متاع الحياة الدنيا وفى الحديث أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ الا باهله ومن نكث فانما

يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة (وفرحوا بها) يعنى وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة لان الانسان اذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك (جاءتها ريح عاصف) قيل ان الضمير فى جاءتها يرجع الى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف شديدة فاقلبتها وقيل الضمير فى جاءتها يرجع الى الفلك يعنى جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ومعنى عصفت الريح اشتدت وأصل العصف السرعة وانما قال عاصف لانه أراد به ذات عصوف أو لاجل ان لفظ الريح قد يذكر (وجاءهم الموج من كل مكان) يعنى وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (وظنوا أنهم أحيط بهم) يعنى وظنوا ان الهلاك قد أحاط بهم وأحدق وقيل المراد من الظن اليقين أى وأيقنوا انه الهلاك وقيل بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه (دعوا الله مخلصين له الدين) يعنى انهم أخلصوا فى الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحدا سواه من آلهتهم وقيل فى معنى هذا الاخلاص العلم الحقيقى لا الاخلاص الايمان لانهم كانوا يعلمون حقيقة انه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا الا الله تعالى فكانوا اذا وقعوا فى شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء (لئن أنجيتنا) أى قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا (من هذه) يعنى من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) يعنى من الشاكرين لك على انعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) يعنى فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا انهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها (اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق) يعنى أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا فى الارض فتجاوزوا فيها الى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصى على ظهرها وأصل البغى مجاوزة الحد قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل الى الاحسان والفرض الى التطوع والثانى مذموم وهو مجاوزة الحق الى الباطل أو الى الشبهة قال صاحب الكشاف فان قلت ما معنى قوله بغير الحق والبغى لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) يعنى ان وبال بغيكم راجع عليكم (متاع الحيوة الدنيا) قيل هو كلام مبتدا والمعنى ان بغى بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغى بعضكم على بعض الا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها فى سرعة انقضائها والبغى من منكرات

الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال

ياصاحب البغي ان البغي مصرعة * فارجع فخير مقال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعكم) يعني يوم القيامة (فنبئكم) أي فنخبركم (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها قوله عز وجل (انما مثل الحياة الدنيا) يعني في فنائها وزوالها (كماء أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به) أي بالمطر (نبات الارض) قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون (مما يأكل الناس) يعني من الحبوب والثمار (والانعام) يعني ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور (وازينت) أي وتزينت (وظن أهلها) يعني أهل تلك الارض (انهم قادرون عليها) يعني على جدادها وقطافها وحصادها وارد الكناية الى الارض والمراد النبات اذا كان مفهوما وقيل رده الى الثمرة والغلة وقيل الى الزينة (أتاها أمرنا) أي قضاؤنا بهلاكها (ليلا أو نهارا) يعني في الليل أو النهار (فجعلناها حصيدا) يعني محصودة مقطوعة (كان لم تغن بالامس) يعني كان لم تكن تلك الاشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الارض وأصله من غنى فلان بالمكان اذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك انه تعالى لما قال يا ايها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحيوة الدنيا أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الارض وتجبر فيها وركن الى الدنيا وأعرض عن الآخرة لان النبات في أول بروزه من الارض ومبدا خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوى وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشئ وجعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولاشك ان الارض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم ان الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الارض صاعقة أو بردا أو ريحا فجعلها حصيدا كان لم تكن من قبل قال قتادة ان المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ووجه التمثيل ان غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ولان المتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لان الزرع اذا انتهى وتكامل في الحسن الى الغاية القصوى أتته آفة فتلفه بالكلية ثم ان الله سبحانه وتعالى قادر على اعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على ان من قدر على اعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على اعادة الاموات احياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم

ينكث على نفسه (ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فنخبركم به ونجازيكم عليه (انما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) من السحاب (فاختلط به) بالماء (نبات الارض) أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا (مما يأكل الناس) يعني الحبوب والثمار والبقول (والانعام) يعني الحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه (وازينت) وتزينت به وهو أصله وأدغمت التاء في الزاي وهو كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين (وظن أهلها) أهل الارض (أنهم قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها (أتاها أمرنا) عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم (ليلا أو نهارا فجعلناها) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله (كان لم تغن) كان لم يغن زرعها أي لم يلبث حذف المضاف في هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى (بالامس) هو مثل في الوقت القريب

كأنه قيل كأن لم تغن آنفا (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) فينتفعون بضرب الامثال وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه ان الحياة صفوها شبيهتها وكدرها شبيهتها كما ان صفو الماء في أعلى الاناء قال ألم تران العمر كاس سلافة * فاوله صفو وآخره كد روحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على ٣٩٦ اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس وارياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلف وثمام الاثم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب وانماع اللعب ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فيزايله الحياة مغترا كالهيج النبات مصفرا فتغيب جثته في الرمس كان لم تغن بالامس الى أن يعود بديع البعث وموعد العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولابد من ترك مازاد كما لابد من أخذ الزاد وآخذ المال لايخلو من زلة كما ان خائض الماء لاينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فادون النصاب كفحاض ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لايمكن الا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلات فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال عليه السلام الزكاة قنطرة الاسلام وكذا المال يساعد الاوغاد دون رجلي الامجاد كما ان الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك المال لايجتمع الا بكد البخيل كما ان الماء لايجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولايبقى كالماء في الكف (والله يدعو الى دار السلام) هي الجنة أضافها الى اسمه تعظيما لها أو السلام السلامة لان أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم الا قليلا سلاما سلاما (ويهدي من يشاء) ويوفق من يشاء (الى صراط مستقيم) الى الاسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية والمعنى يدعو العباد كلهم الى دار السلام ولايدخلها الا المهديون

فيثيب الطائع ويعاقب العاصي (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يعني كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفناكم حكمها كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سببا موجبا لزوال الشك والشبهة من القلوب قوله سبحانه وتعالى (والله يدعو الى دار السلام) لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وانها فانية زائلة لامحالة دعا الى داره دار السلام قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه انه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغير وقيل انه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لان الخلق سلموا من ظلمه وقيل انه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لايقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات الا هو وقيل دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة والمعنى ان من دخلها فقد سلم من جميع الآفات كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد وقيل سميت الجنة دار السلام لان الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم قيل ان من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم الى جنته التي هي دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لايدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه (ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم) يعني والله يهدي من يشاء من خلقه الى صراطه المستقيم وهو دين الاسلام عم بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالدعوة ثانيا استغناء عن الخلق واظهارا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) عن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا ان لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مادبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المادبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المادبة فقالوا أولوها يفقهها فقال العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفي رواية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني رأيت في المنام كان جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند

رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا وعن النواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الابواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو الى دار السلام و يهدى من يشاء الى صراط مستقيم والابواب التي على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى) قال ابن عباس للذين شهدوا أن لا اله الا الله الجنة وقيل معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه واطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه الحسنى قال ابن الانباري الحسنى في اللغة تأنيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها وقيل معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى (وزيادة) اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال القول الاول ان الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر الى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الاشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي و يدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روى عن صهيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما اعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى زاد في رواية ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أخرجه مسلم وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن أبي بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر الى وجه الله وعن أبي موسى الاشعري قال اذا كان يوم القيامة بعث الله الى أهل الجنة منادا ينادي هل أنجز لكم الله ما وعدكم به فينظرون الى ما اعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول الله للذين احسنوا الحسنى وزيادة النظر الى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة وذكره بمعناه وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقي من حقكم شئ لم تعطوه قال فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شئ أعطوه ثم قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر الى وجه ربهم فهذه الاخبار والآثار قد دلت على ان المراد بهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تبارك وتعالى وأما المعقول فنقول ان الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو الى دار السلام

(للذين احسنوا) آمنوا بالله ورسله (الحسنى) المثوبة الحسنى وهي الجنة (وزيادة) رؤية الرب عز وجل كذا عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس وأبي موسى الاشعري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم وفي بعض التفاسير أجمع المفسرون على ان الزيادة النظر الى الله تعالى وعن صهيب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا الم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيرفع الحجاب فينظرون الى الله تعالى فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم ثم تلا للذين أحسنوا الحسنى وزيادة والعجب من صاحب الكشاف انه ذكر هذا الحديث لابهذه العبارة وقال انه حديث مدفوع مع انه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح وقيل الزيادة المحبة في قلوب العباد وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان

فثبت بهذا أن المراد من لفظة الحسنى هي الجنة واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرا مغايرا للكل ما في الجنة من النعيم والا لزم التكرار واذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فأثبت لاهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضا فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى وقالت المعتزلة لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية لان الدلائل العقلية دلت على ان رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولان الاخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولان جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم أجاب اصحابنا عن هذه الاعتراضات بان الدلائل العقلية قد دلت على امكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة واذا امكن وجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الاحاديث الصحيحة باثبات الرؤية وجب المصير اليها واجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا احاطة وأجيب عن قولهم ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بان المزيد عليه اذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه واذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب ان الزيادة عليها تكون شيأ مغايرا لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية وأجيب عن قولهم ولان جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بانه معارض بقول جماعة من المفسرين بان الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله اعلم القول الثاني في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن ابي طالب انه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها اربعة ابواب القول الثالث ان الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف الى تمام العشرة والى سبعمائة قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى ولدينا مزيد يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله قال قتادة كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف القول الرابع ان الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد القول الخامس قول ابن زيد ان الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى (ولا يرهق وجوههم) يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة (قتر) أي كآبة ولا كسوف ولا غبار وقال ابن عباس هو سواد الوجوه (ولا ذلة) يعني ولا هوان قال ابن ابي ليلى هذا بعد نظرهم الى ربهم تبارك وتعالى (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يعني ان هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبدا قوله سبحانه وتعالى (والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها) اعلم انه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعدلهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من اقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيآت يعني والذين عملوا السيآت

(ولا يرهق وجوههم) ولا يغشى وجوههم (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا) عطف على للذين أحسنوا أي وللذين كسبوا (السيآت) قبون الشرك (جزاء سيئة بمثلها) الباء زائدة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أو التقدير جزاء سيئة مقدرة بمثلها

والمراد

(وترهقهم ذلة) ذل وهوان (مالهم من الله) من عقابه (من عاصم) أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أى جعل عليها غطاء من سواد الليل

والمراد بها الكفر والمعاصى جزاء سيئة بمثلها يعنى فلهم جزاء السيئة التى عملوها مثلها من العقاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما واما السيآت فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى (وترهقهم ذلة) قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله اياهم (مالهم من الله من عاصم) يعنى مالهم مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) يعنى كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا لموقف الحساب وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسئلوا وفى هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين (أنتم وشركاؤكم) يعنى أنتم أيها المشركون والاصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله (فزيلنا بينهم) يعنى ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا فان قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضى بعد قوله ثم نقول للذين اشركوا وهو منتظر فى المستقبل فما وجهه قلت السبب فيه ان الذى حكم الله فيه بانه سيكون صار كالكائن الآن قوله (وقال شركاؤهم) يعنى الاصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله وانما سماهم شركاؤهم لانهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم أو لانه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم فقد صاروا شركاء فى هذا الخطاب (ما كنتم ايانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين فان قلت كيف صدر هذا الكلام من الاصنام وهى جماد لا روح فيها ولا عقل لها قلت يحتمل ان الله سبحانه وتعالى خلق لها فى ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فان قلت اذا أحياهم الله فى ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم قلت الكل محتمل ولا اعتراض على الله فى شئ من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة الا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة فان قلت ان الاصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها قلت قد تقدمت هذه المسئلة وجوابها فى تفسير سورة الانعام ونقول هنا قال مجاهد تكون فى يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فتقول الآلهة والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم انكم تعبدوننا فيقولون والله ايانا كم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين) والمعنى قد علم الله وكفى به شهيدا انا ما علمنا انكم كنتم تعبدوننا وما كنا من عبادتكم ايانا من دون الله الا غافلين ما شعرنا بذلك انما قوله سبحانه وتعالى (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى فى ذلك المقام

مفعول ثان لأغشيت قطعا من كى وعلى من قوله بقطع من الليل وعلى هذه القراءة مظلما صفة لقطعا وعلى الاول حال من الليل والعامل فيه اغشيت لان من الليل صفة لقطعا فكان افضاؤه الى الموصوف كافضائه الى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل (اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ويوم نحشرهم) أى الكفار وغيرهم (جميعا) حال (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) أكد به الضمير فى مكانكم ليسد مسد قوله الزموا (وشركاؤكم) عطف عليه (فزيلنا) ففرقنا (بينهم) وقطعنا اقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا (وقال شركاؤهم) من عبدوه من دون الله من اولى العقل او الاصنام ينطقها الله عزوجل (ما كنتم ايانا تعبدون) انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمرو كم ان تتخذوا لله أندادا فاطعتموهم وهو قوله و يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم الى قوله بل كانوا يعبدون الجن (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى كفى الله شهيدا وهو تمييز (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) ان

مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) فى ذلك المكان أولى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلوا كل نفس) تختبر وتذوق (ما أسلفت) من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن انافع أم ضار أمقبول أم مردود

وقال الزجاج تعلم كل نفس ماقدمت تتلو جزوعلى أى تتبع ما أسلفت لان عمله هو الذى يهديه الى طريق الجنة أو النار أو تقرأ فى صحيفتها ماقدمت من خير اوشر كذا عن الاخفش (وردوا الى الله مولاهم الحق) ربهم الصادق فى ربوبيته لانهم كانوا يتولون مالس لر بوبيته حقيقة أوالذى يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذى لايظلم أحدا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله أو بطل ٤٠٠ عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة (قل من

أوذلك الموقف أوذلك الوقت على معنى استعارة اطلاق اسم المكان على الزمان وفى قوله تبلوقرا آت قرئ بتاءين ولهما معنيان أحدهما انه من تلاه اذا تبعه أى تتبع كل نفس ما أسلفت لان العمل هو الذى يهدى النفس الى الثواب أوالعقاب الثانى أن يكون من التلاوة والمعنى أن كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أوشر وقرئ تبلوا بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تختبر وتعلم والبلوالاختبار ومعناه اختبارها ما أسلفت يعنى أنه ان قدم خيرا أوشرا قدم عليه وجوزى به (وردوا الى الله مولاهم الحق) الرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا الى ما يظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى أمرهم فان قلت قد قال الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى وأن الكافرين لامولى لهم فما الفرق قلت المولى فى اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى و بطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه فى الدنيا وهو قولهم ان هذه الاصنام تشفع لنا قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السماء والارض) أى قل يا محمد هؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والارض يعنى النبات (أم من يملك السمع والابصار) يعنى ومن أعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يعنى انه تعالى يخرج الانسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة و كذلك يخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه انه يخرج المؤمن من الكافر وهو الكافر من المؤمن والقول الاول اقرب الى الحقيقة (ومن يدبر الامر) يعنى ان مدبر أمر السموات ومافيهما ومدبر أمر الارض ومافيها هو الله تعالى وذلك قوله (فسيقولون الله) يعنى انهم يعترفون ان فاعل هذه الاشياء هو الله واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) أى قل لهم يا محمد (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الاصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتقدر على شئ من هذه الامور (فذلكم الله ربكم الحق) يعنى فذلكم الذى يفعل هذه الاشياء و يقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لاهذه الاصنام (فماذا بعد الحق الا الضلال) يعنى اذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية ان الله هو الحق وجب أن يكون ماسواه ضلالا وباطلا (فانى تصرفون) يعنى اذا عرفتم هذا الامر الظاهر الواضح فكيف تنقلبون العدول عن الحق الى الضلال الباطل (كذلك) أى كما ثبت انه ليس بعد الحق الا الضلال (حقت) أى وجبت (كلمت ربك) فى الازل (على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) قيل المراد بكلمة

يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات (أم من يملك السمع والابصار) من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة أومن يحميهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما الطيفان يؤذيهما أدنى شئ (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها (ومن يدبر الامر) ومن يلى تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الحصر (فسيقولون الله) فحينئذ يقولون عند سؤالك أن القادر على هذه هو الله (فقل أفلا تتقون) الشرك فى العبودية اذا عرفتم بالربوبية (فذلكم الله) أى من هذه قدرته هو الله (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه لمن حقق النظر (فماذا بعد الحق الا الضلال) أى لاواسطة بين الحق والضلال فمن تخطى الحق وقع فى الضلال (فانى تصرفون) عن الحق الى الضلال وعن التوحيد الى الشرك (كذلك) مثل ذلك الحق (حقت كلمات ربك) كلمات شامى ومدنى أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أوكما حق انهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك (على الذين فسقوا) تمردوا فى كفرهم وخرجوا الى الحد الاقصى فيه (انهم لايؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان أوحق عليهم كلمة الله ان أيمانهم غير كائن اوراد بالكلمة العذاب وانهم لايؤمنون

تعليل أى لانهم لايؤمنون (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) انما ذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالاعادة لانه لظهور برهانها جعل أمرا مسلما على أن فيهم من يقر بالاعادة أو يحتمل اعادة غير البشر كاعادة الليل والنهار واعادة الانزال والنبات (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أمر نبيه بان يتوب عنهم فى الجواب يعنى انهم لاتدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم (فانى تؤفكون) فكيف تصرفون ٤٠١ عن قصد السبيل (قل هل من شركائكم من

الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ انهم لايؤمنون وقضاؤه لايرد ولايدافع (قل هل من شركائكم) أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الاصنام التى تزعمون انها آلهة (من يبدأ الخلق) يعنى من يقدر على أن ينشئ الخلق على غير مثال سبق (ثم يعيده) أى ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة وهذا السؤال استفهام انكار (قل) اى قل أنت يامحمد (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) يعنى ان الله هو القادر على ابتداء الخلق واعادته (فانى تؤفكون) يعنى فانى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الامر الواضح وعدلوا عنه الى غيره (قل) أى قل يامحمد (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) يعنى هل من هذه الاصنام من يقدر على أن يرشد الى الحق فاذا قالوا لا ولابد لهم من ذلك (قل) أى قل لهم أنت يامحمد (الله يهدى للحق) يعنى ان الله هو الذى يرشد الى الحق لاغيره (أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى الا أن يهدى) يعنى ان الله هو الذى يهدى الى الحق فهو أحق بالاتباع وهذه الاصنام التى لاتهتدى الا أن تهدى فان قلت الاصنام جماد لاتتصور هدايتها ولا أن تهدى فكيف قال الا أن يهدى قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوها الاول أن معنى الهداية فى حق الاصنام الانتقال من مكان الى مكان فيكون المعنى انها لاتنتقل من مكان الى مكان آخر الا أن تحمل وتنقل فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الاصنام الوجه الثانى أن ذكر الهداية فى حق الاصنام على وجه المجاز وذلك ان المشركين لما اتخذوا الاصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وان كان الامر ليس كذلك الوجه الثالث يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الاصنام والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدى الى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق الى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فانهم لايقدرون على هداية غيرهم الا اذا هداهم الله الى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره وقوله سبحانه وتعالى (فما لكم كيف تحكمون) قال الزجاج فما لكم كلام تام كانه قيل لهم أى شئ لكم فى عبادة هذه الاصنام ثم قال كيف تحكمون يعنى على أى حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لانفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شركاء وقيل معناه بئسما حكمتم اذ جعلتم لله شريكا من ليس بيده منفعة ولامضرة ولاهداية (وما يتبع أكثرهم الا ظنا) يعنى وما يتبع

يهدى الى الحق) يرشد اليه (قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى الا أن يهدى) يقال هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة وعلى أمن لايهدى بمعنى يهتدى لايهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكى وشامى وورش وباشمام الهاء فتحة أبو عمرو وبكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير يحيى والاصل يهتدى وهو قراءة عبد الله فادغمت التاء فى الدال وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيى لاتباع مابعدها وبسكون الهاء وتشديد الدال مدنى غير ورش والمعنى أن الله وحده هو الذى يهدى للحق بما ركب فى المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر فى الادلة التى نصبها لهم وبما وفقهم وألهمهم ووفقهم على الشرائع بارسال الرسل فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادا

٥١ ن ى لله أحد يهدى الى الحق مثل هداية الله ثم قال أفمن يهدى الى الحق أحق بالاتباع أم الذى لايهدى أى لايهتدى بنفسه أولايهدى غيره الا ان يهديه الله وقيل معناه أم من لايهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا ان يهدى الا ان ينقل اولايهتدى ولا يصح منه الاهتداء الا ان ينقله الله من حالة الى ان يجعله حيا ناطقا فيهديه (فما لكم كيف تحكمون) بالباطل حيث تزعمون انهم انداد الله (وما يتبع اكثرهم) فى قولهم للاصنام انها آلهة وانها شفعاء عند الله والمراد بالاكثر الجميع (الا ظنا) بغير

اكثرهؤلاء المشركين الا مالا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم فى شك منه وريبة وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميع المشركين يتبعون الظن فى دعواهم ان الاصنام تشفع لهم وقيل المراد بالاكثر الرؤساء (ان الظن لا يغنى من الحق شيأ) يعنى ان الشك لا يغنى عن اليقين شيأ ولا يقوم مقامه وقيل فى الآية ان قولهم ان الاصنام آلهة وانها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعنى انها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيأ (ان الله عليم بما يفعلون) يعنى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين قوله سبحانه وتعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) يعنى وما كان ينبغى لهذا القرآن ان يختلق ويفتعل لان معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شئ يمكن أن يفترى به على الله لان المفترى هو الذى يأتى به البشر وذلك ان كفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فاخبر الله عز وجل ان هذا القرآن وحى أنزله الله عليه وانه مبرأ عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه أحد الا الله تعالى ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل وتقرير هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لتدحوا فيه اعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك ان ما فيه من القصص والاخبار مطابقة لما فى التوراة والانجيل مع القطع بانه ما علم ما فيهما ثبت بذلك انه وحى من الله أنزله عليه وانه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى قوله ولكن تصديق الذى بين يديه يعنى من أخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ما أخبر (وتفصيل الكتاب) يعنى وتبيين ما فى الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والاحكام (لا ريب فيه من رب العالمين) يعنى ان هذا القرآن لا شك فيه انه من رب العالمين وانه ليس مفترى على الله وانه لا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعنى أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام انكار وقيل أم بمعنى الواو اى ويقولون افتراه (قل) اى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فاتوا بسورة مثله) يعنى بسورة شبيهة به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم عرب مثلى فى الفصاحة والبلاغة فان قلت قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة فاتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فاتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزا فى نفسه فقيل لهم فاتوا بسورة من مثله يعنى مع انسان أمى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه فى عدم الكتابة والقراءة واما قوله سبحانه وتعالى فاتوا بسورة مثله اى فاتوا بسورة

دليل وهو اقتداؤهم باسلافهم ظنا منهم انهم مصيبون (ان الظن لا يغنى من الحق) وهو العلم (شيأ) فى موضع المصدر اى أغناء (ان الله عليم بما يفعلون) من اتباع الظن وترك الحق (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى افتراء من دون الله والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله فى علو أمره واعجازه مفترى (ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة (وتفصيل الكتاب) وتبيين ما كتب وفرض من الاحكام والشرائع من قوله كتاب الله عليكم (لا ريب فيه من رب العالمين) داخل فى حيز الاستدراك كانه قال ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين ويجوز ان يراد ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب فى ذلك فيكون من رب العالمين متعلقا بتصديق وتفصيل ويكون لا ريب فيه اعتراضا كما تقول زيد لا شك فيه كريم (ام يقولون افتراه) بل أيقولون اختلقه (قل) ان كان الامر كما تزعمون (فاتوا) أنتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم فانتم مثلى فى العربية

(وادعوا من استطعتم من دون الله) أي وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين) أنه افتراه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) بل سارعوا الى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل ان يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل ان يتدبروه ويقفوا على تأويله ٤٠٣ ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف

دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ومعنى التوقع في ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للاباء وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع الى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع ليؤذن انهم علموا بعد علو شأنه واعجازه لما كرر عليهم التحدي وجربوا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيا وحسدا (كذلك) مثل ذلك التكذيب (كذب الذين من قبلهم) يعني كفار الامم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدبرها عنادا وتقليدا للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعني انه كتاب معجز من جهتين من جهة نظمه ومن جهة ما فيه من الاخبار بالغيوب فتسرعوا الى التكذيب به قبل ان ينظروا في نظمه وبلوغه حد الاعجاز وقبل ان يجربوا اخباره بالمغيبات وصدقه

تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني ان السورة في نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه (ان كنتم صادقين) يعني في قولكم ان محمدا افتراه ثم قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعني القرآن أي كذبوا بما لم يعلموه قال عطاء يريد انه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لانهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل انهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الامم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لان القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على استيعابها وتحصيلها (ولما يأتهم تأويله) يعني انهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول اليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في القرآن به من العقوبة والمعنى انهم لم يعلموا ما تؤول اليه عاقبة أمرهم وقيل معناه انهم لم يعلموه تنزيلا ولا علموه تأويلا فكذبوا به وذلك لانهم جهلوا القرآن وعلموا علم تأويله (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الامم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الامم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر ان تفعل مثل فعله قوله عز وجل (ومنهم من يؤمن به) يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن (ومنهم من لا يؤمن به) لعلم الله السابق فيه انه لا يؤمن (وربك أعلم بالمفسدين) يعني الذين لا يؤمنون (وان كذبوك) يعني وان كذبك قومك يا محمد (فقل) أي فقل لهم (لي عملي) يعني الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) يعني الشرك وجزاء عقابه (أنتم بريئون مما أعمل وانا بري مما تعملون) قيل المراد منه الزجر والرجوع وقال مقاتل والكلبي هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الامام فخر الدين الرازي وهو بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا قوله تعالى (ومنهم) يعني ومن هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) يعني باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك

وكذبه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ومنهم من يؤمن به) بالنبي أو بالقرآن أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) لا يصدق به ويشك فيه أو يكون للاستقبال أي ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر (وربك أعلم بالمفسدين) بالمعاندين أو المصرين (وان كذبوك) وان تمادوا على تكذيبك ويئست من اجابتهم (فقل لي عملي) جزاء عملي (ولكم عملكم) جزاء أعمالكم (أنتم بريئون مما أعمل وانا بري مما تعملون) فكل مؤاخذ بعمله (ومنهم من يستمعون اليك) ومنهم ناس يستمعون اليك اذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع .

ولكنهم لا يعون ولا يقبلون فهم كالصم (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) اتطمع انك تقدر على اسماع الصم ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع في صماخه دوي الصوت فاذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تم الامر (ومنهم من ينظر اليك) ٤٠٤ ومنهم ناس ينظرون اليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون (أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس واما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ولكن الناس حمزة وعلي أي لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جماداً وهم أحياء (ويوم نحشرهم) و بالياء حفص (كان لم يلبثوا الا ساعة من النهار) استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الامر عليهم كأن لم يلبثوا حال منهم أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا الا ساعة وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم ويتعارفون بينهم حال بعد حال أو مستأنف على تقدير هم يتعارفون بينهم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) على ارادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هي شهادة من الله على خسرانهم والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الايمان بالكفر (وما كانوا مهتدين) للتجارة عارفين بها وهو استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم (وامانرينك بعض

(أفأنت تسمع الصم) يعني كما انك لا تقدر على اسماع الصم فكذلك لا تقدر على اسماع من اصم الله سمع قلبه (ولو كانوا لا يعقلون) يعني ان الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال اذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضا كالصم الذين لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه لعدم التوفيق (ومنهم من ينظر اليك) يعني بابصارهم الظاهرة (أفأنت تهدي العمي) يريد عمى القلوب (ولو كانوا لا يبصرون) لان الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيأ من الهدى وفي هذه تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل انك لا تقدر ان تسمع من سلبته السمع ولا تقدر ان تهدي من سلبته البصيرة لا تقدر ان توفق للايمان من حكمت عليه ان لا يزمن (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) قال العلماء لما حكم الله عز وجل على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية ان تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه لانه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالما وانما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم) يعني واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم (كان لم يلبثوا الا ساعة من النهار) يعني كانهم لم يلبثوا في الدنيا الا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كانهم لم يلبثوا في قبورهم الا قدر ساعة من النهار والوجه الاول أولى لان حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور لي وقت الحشر فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو انهم لما لم ينتفعوا باعمارهم في الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله وسبب استقلال الكفار مدة مقامهم في الدنيا انهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا باعانة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل انهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم في الدنيا لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا (يتعارفون بينهم) يعني يعرف بعضهم بعضا اذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم ينقطع المعرفة بينهم اذا عاينوا أهوال يوم القيامة وفي بعض الآثار ان الانسان يوم القيامة يعرف من يحبه ولا يقدر ان يكلمه هيبة وخشية وقيل ان أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف بعضهم بعضا وفي بعضها ينكر بعضهم بعضا لهول ما يعاينون في ذلك اليوم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي (وما كانوا مهتدين) يعني الى ما يصلحهم ويحجبهم من هذا الخسار (وامانرينك) يعني يا محمد (بعض الذي

الذى نعدهم) يعنى ما نعدهم به من العذاب فى الدنيا فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك سنراه فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (فالينا مرجعهم) يعنى فى الآخرة وفيه دليل على ان الله يرى رسوله صلى الله عليه وسلم أنواعا من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم فى حال حياته فى الدنيا وقد أراه ذلك فى يوم بدر وغيره من الايام وسيريه ما أعدلهم من العذاب فى الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم يعنى انه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة قوله عز وجل (ولكل أمة رسول) لما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال الانبياء مع امهم كذلك فقال تعالى ولكل أمة يعنى قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعنى مبعوثا اليهم يدعوهم الى الله والى طاعته والايمان به (فاذا جاء رسولهم) فى هذا الكلام اضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى بينهم بالقسط) يعنى حكم بينهم بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما انه فى الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى أرسل الى كل امة رسولا للتبليغ الرسالة واقامة الحجة وازالة العذر فاذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم وبين رسلهم فى الدنيا فيهلك الكافرين وينجى رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلا لانا لو لما لان قبل مجىء الرسول لا يكون ثوابا ولا عقابا والقول الثانى ان وقت القضاء فى الآخرة وذلك ان الله اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة فى اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى من جزاء أعمالهم شيأ ولكن يجازى كل أحد على قدر عمله وقيل معناه انهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيآتهم (ويقولون) يعنى هؤلاء الكفار (متى هذا الوعد) يعنى الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) يعنى فيما تعدوننا به وانما قالوا بلفظ الجمع لان كل امة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى ان كنتم صادقين أنت واتباعك يا محمد أو ذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم (قل) أى قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا) يعنى لا أملك لنفسى دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك (الا ما شاء الله) يعنى أن اقدر عليه أو املكه والمعنى ان انزال العذاب على الاعداء واظهار النصر للاولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه الا الله فتعيين الوقت الى الله سبحانه وتعالى يحسب مشيئته ثم اذا حضر ذلك الوقت الذى وقته الله تحدوث هذه الاشياء فانه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة ووقت معين (اذا جاء أجلهم) يعنى اذا انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لا يتأخرون عن ذلك الاجل الذى أجل لهم ولا يتقدمونه (قل) أى قل يا محمد

الذى نعدهم) من العذاب (او نتوفينك) قبل عذابهم (فالينا مرجعهم) جواب نتوفينك وجواب نريك محذوف أى واما نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك او نتوفينك قبل ان نريكه فنحن نريكه فى الآخرة (ثم الله شهيد على ما يفعلون) ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كانه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وقيل ثم هنا بمعنى الواو (ولكل امة رسول) يبعث اليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم الى دين الحق (فاذا جاء رسولهم) بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه (قضى بينهم) بين النبى ومكذبيه (بالقسط) بالعدل فانجى الرسول وعذب المكذبين أو ولكل امة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان قضى بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) لا يعذب احد بغير ذنبه ولما قال وامانرينك بعض الذى نعدهم أى من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل (ويقولون متى هذا الوعد) أى وعد العذاب (ان كنتم صادقين) أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبى والمؤمنين (قل) يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا) من مرض او فقر (ولا نفعا) من صحة أو غنى (الا ما شاء الله) استثناء منقطع اى ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب (لكل امة أجل اذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) لكل امة وقت معلوم للعذاب مكتوب فى اللوح فاذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا (قل

أرأيتم ان أتاكم عذابه (بياتا) الذى تستعجلونه (بياتا) نصب على الظرف أى وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون (او نهارا) وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا يستعجل منه المجرمون) أى من العذاب والمعنى ان العذاب كله مكروه موجب للنفور فأى شئ تستعجلون منه وليس شئ منه يوجب الاستعجال والاستفهام فى ماذا يتعلق بارأيتم لان المعنى اخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال او تعرفوا الخطأ فيه ولم يقل ماذا يستعجلون منه لانه اريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الاجرام او ماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط نحو ان أتيتك ماذا تطعمنى ثم تتعلق الجملة بارأيتم او (أثم اذا ما وقع) العذاب (آمنتم به) جواب الشرط وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى ان اتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء فى افامن اهل القرى او امن أهل القرى (آلآن) على ارادة القول اى قيل لهم اذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به (وقد كنتم به تستعجلون) اى بالعذاب تكذيبا واستهزاء الآن بحذف الهمزة التى بعد اللام والقاء حركتها على اللام نافع (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المضمر قبل آلآن (ذوقوا عذاب الخلد) اى الدوام (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) من الشرك والتكذيب (ويستنبئونك) ويستخبرونك فيقولون (أحق هو) وهو استفهام على جهة الانكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود (قل) يا محمد (أى وربى) نعم والله (انه لحق) ان العذاب كائن لا محالة (وما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة (ولو ان لكل نفس ظلمت) كفرت وأشركت وهو صفة لنفس أى ولو ان لكل نفس ظالمة (ما فى الارض) فى الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها (لافتدت به) لجعلته فدية لها يقال فداه فافتدى ويقال افتداه أيضا بمعنى فداه (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) واظهروها من قولهم اسر الشئ اذا أظهره او أخفوها عجزا عن النطق لشدة الامر فأسر من الاضداد (وقضى بينهم بالقسط)

هؤلاء المشركين من قومك (أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا) يعنى ليلا يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل والسبب فيه ان الانسان فى الليل لا يكون الا فى البيت غالبا فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل (أو نهارا) يعنى فى النهار (ماذا يستعجل منه المجرمون) يعنى ما الذى يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى انهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله ماذا يستعجل منه المجرمون يعنى أى شئ يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلا قبيحا ماذا جنيت على نفسك (أثم اذا ما وقع) يعنى اذا ما نزل العذاب ووقع (آمنتم به) يعنى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع (آلآن) فيه اضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أى حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون) يعنى تكذبون به واستهزاء (ثم قيل للذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) يعنى فى الدنيا من الاعمال قوله سبحانه وتعالى (ويستنبئونك أحق هو) يعنى ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة (قل أى وربى) أى قل لهم يا محمد نعم وربى (انه لحق) يعنى ان الذى أعدكم به حق لا شك فيه (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين من العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) يعنى اشركت (ما فى الارض) يعنى من شئ (لافتدت به) يعنى يوم القيامة والافتداء بمعنى البذل لما يرجو به من العذاب الا انه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه (واسروا الندامة) يعنى يوم القيامة وانما جاء بلفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة لان أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى والاسرار يكون بمعنى الاخفاء وبمعنى الاظهار فهو من الاضداد فلهذا اختلفوا فى قوله وأسروا الندامة فقال أبو عبيدة معناه وأظهروا الندامة لان ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا يعنى أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والاتباع خوفا من ملامتهم اياهم وتعييرهم لهم (لما رأوا العذاب) يعنى حين عاينوا العذاب واسروه (وقضى بينهم بالقسط) يعنى وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والاتباع

وقيل بين الكفار لاحتمال ان بعضهم قد ظلم بعضا فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى (وهم لا يظلمون) يعنى فى الحكم لهم وعليهم بان يخفف من عذاب المظلوم ويشدد فى عذاب الظالم (الا ان لله ما فى السموات والارض) يعنى ان كل شئ فى السموات والارض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شئ يفتدى به من عذاب الله يوم القيامة لان الاشياء كلها لله وهو أيضا ملك لله فكيف يفتدى من هو مملوك لغيره بشئ لا يملكه (ألا ان وعد الله حق) يعنى ما وعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصى حق لا شك فيه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعنى حقيقة ذلك (هو يحيى ويميت) يعنى الذى يملك ما فى السموات والارض قادر على الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) يعنى بعد الموت للجزاء قوله عز وجل (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) قيل أراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الاصح وهو اختيار الطبرى قد جاءتكم موعظة من ربكم يعنى القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة ما يدعو الى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة والقرآن داع الى كل خير وصلاح بهذا الطريق (وشفاء لما فى الصدور) يعنى أن القرآن ذو شفاء لما فى القلوب من داء الجهل وذلك لان داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع فى بدن الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) يعنى وهو هدى من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) يعنى ونعمة على المؤمنين لانهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم (قل بفضل الله وبرحمته) الباء فى بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الافضال ويكون معنى الآية على هذا يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهو القرآن بافضال الله عليكم ورحمته بكم وارادته الخير لكم ثم قال سبحانه وتعالى (فبذلك فليفرحوا) أشار بذلك الى القرآن لان المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ وأشار الى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا اشارة الى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والانعام فليفرحوا قال الواحدى الفاء فى قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر * فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى * فالفاء فى قوله فاجزعى زائدة وقال صاحب الكشاف فى معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح فانه لا مفروح به أحق منهما والفرح لذة فى القلب بادراك المحبوب والمشتهى يقال فرحت

بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم (وهم لا يظلمون) ثم اتبع ذلك الاعلام بان له الملك كله بقوله (ألا ان لله ما فى السموات والارض) فكيف يقبل الفداء وانه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب او العقاب فهو حق لقوله (الا ان وعد الله) بالثواب او بالعذاب (حق) كائن (ولكن أكثرهم لا يعلمون) هو يحيى ويميت) هو القادر على الاحياء والاماتة لا يقدر عليهما غيره (واليه ترجعون) والى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد والموعظة التى تدعو الى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب فما فى القرآن من الاوامر والنواهى داع الى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب اذ الامر يقتضى حسن المأمور به فيكون مرغوبا وهو يقتضى النهى عن ضده وهو قبيح وعلى هذا فى النهى (وشفاء لما فى الصدور) أى صدوركم من العقائد الفاسدة (وهدى) من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) لمن آمن به منكم (قل) يا محمد (بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا

فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير ولايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا
فحذف احد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كانه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح أو بفضل
الله ورحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والاسلام فى الحديث من هداه الله للاسلام وعلمه القرآن ثم شكا
الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه الى يوم يلقاه وقرأ الآية (هو خير مما يجمعون) وبالتاء شامى فلتة فرحوا يعقوب (قل
أرأيتم) اخبرونى (ما أنزل الله لكم من رزق) ٤٠٨ ما منصوب بانزل او بأرأيتم أى اخبرونيه (فجعلتم منه حراما وحلالا)

بكذا اذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح فى اللذات البدنية الدنيوية
واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله
ورحمته أى ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالايمان وسكون
النفس اليه (هو خير مما يجمعون) يعنى من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب
أهل المعانى فى هذه الآية وأما مذهب المفسرين فغير هذا فان ابن عباس والحسن
وقتادة قالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن
ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل
فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن فعلى هذا الباء
فى بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته
(قل) أى قل يا محمد لكفار مكة (أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق) يعنى من زرع وضرع
وغيرهما وعبر عما فى الارض بالانزال لان جميع ما فى الارض من خير ورزق فانما هو من
بركات السماء (فجعلتم منه) يعنى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) يعنى ما حرموه على
أنفسهم فى الجاهلية من الحرث والانعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى قال
الضحاك وهو قوله سبحانه وتعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا (قل آلله
اذن لكم) يعنى قل لهم يا محمد آلله اذن لكم فى هذا التحريم والتحليل (ام على الله تفترون)
يعنى بل انتم كاذبون على الله فى ادعائكم ان الله أمرنا بهذا (وما ظن الذين يفترون على الله
الكذب يوم القيامة) يعنى اذا لقوه يوم القيامة أيحسبون انه يتركهم ولا يجازيهم
على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفترى على الله
الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) يعنى ببعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال
والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) يعنى لا يشكرون الله على ذلك الفضل
والاحسان بل سجاه وتعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن) الخطاب
للنبى صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والامر الذى يتفق ويصلح ولا
يقال الا فيما يعظم من الاحوال والامور وجمع الشؤن تقول العرب ما شأن فلان أى
ما حاله والشان اسم اذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا اذا كان معناه القصد
والذى فى هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه وما تكون يا محمد
فى شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن فى شان من شؤن الدنيا وحوائجك ويجوز

فيعضتموه وقلتم هذا حلال
وهذا حرام كقوله ما فى بطون
هذه الانعام خالصة لذكورنا
ومحرم على أزواجنا نعم الارزاق
تخرج من الارض ولكن لما
نبطت أسبابها بالسماء نحو
المطر الذى به تنبت الارض النبات
والشمس التى بها النضج ونبع
الثمار أضيف انزالها الى
السماء (قل آلله اذن لكم) متعلق
بارأيتم وقل تكرير للتوكيد
والمعنى اخبرونى آلله اذن لكم
فى التحليل والتحريم فأنتم
تفعلون ذلك باذنه (ام على الله
تفترون) ام أنتم تكذبون على
الله فى نسبة ذلك اليه أو الهمزة
للانكار وام منقطعة بمعنى بل
أتفترون على الله تقريرا للافتراء
والآية زاجرة عن التجوز فيما
يسئل من الاحكام وباعثة
وجوب الاحتياط فيه وان لا
يقول أحد فى شئ جائز أو غير جائز
الا بعد ايقان واتقان والافهو
مفتر على الديان (وما ظن الذين
يفترون على الله الكذب)
ينسبون ذلك اليه (يوم القيامة)
منصوب بالظن وهو ظن واقع
فيه اى اى شئ ظن المفترين فى
ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالاحسان والاساءة وهو وعيد عظيم حيث ابهم أمره (ان الله لذو فضل على الناس) حيث انعم عليهم بالعقل ورجهم بالوحى وتعليم الحلال والحرام (ولكن اكثرهم لا يشكرون) هذه النعمة ولا يتبعون
ما هدوا اليه (وما تكون فى شأن) ما نافية والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والشأن الامر (وما تتلوا منه) من التنزيل كانه
قيل وما تتلوا من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له أو من الله عز وجل

أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشئ وما تتلو منه من قرآن اختلفوا في الضمير في منه الى ماذا يعود فقيل يعود الى الشأن اذ تلاوة القرآن شأن من شؤن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم شؤنه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وما تكون في شأن الا انه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته وقيل انه راجع الى القرآن لانه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشئ منه لان لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير في منه راجع الى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وأما قوله سبحانه وتعالى (ولا تعملون من عمل) فانه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته داخلون فيه ومرادون به لان من المعلوم انه اذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على انهم داخلون في الخطاب بين الاولين وقوله سبحانه وتعالى (الا كنا عليكم شهودا) يعني شاهدين لاعمالكم وذلك لان الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ لانه لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وهو شاهد عليه (اذ تفيضون فيه) يعني ان الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون في ذلك العمل والافاضة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه وقال ابن الانباري معناه اذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنشرون فيه يقال أفاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب عن ربك) يعني وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شئ لانه عالم به وشاهد عليه وأصل العزوب البعد يقال منه كلام عازب اذا كان بعيدا المطلب (من مثقال ذرة) يعني وزن ذرة والمثقال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهي خفيفة الوزن جدا (في الارض ولا في السماء) فان قلت لم قدم ذكر الارض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ وما فائدة ذلك قلت كان حق السماء أن تقدم على الارض كما في سورة سبأ الا انه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على اهل الارض وأحوالهم وأعمالهم ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الارض على السماء في هذا الموضع لهذه الفائدة (ولا أصغر من ذلك) يعني من الذرة (ولا أكبر) يعني منها (الا في كتاب مبين) يعني في اللوح المحفوظ قوله سبحانه وتعالى (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اعلم انا نحتاج أولا في تفسير هذه الآية ان نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله فقال هم الذين اذا رؤا ذكر الله وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الايمان الا بالتقوى وقال قوم هم المتحابون في الله ويدل على ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله

(ولا تعملون) أنتم جميعا (من عمل) أي عمل (الا كنا عليكم شهودا) شاهدين رقباء نحصي عليكم (اذ تفيضون فيه) تخوضون من أفاض في الامر اذا اندفع فيه (وما يعزب عن ربك) وما يبعد ويغيب و بكسر الزاي على حيث كان (من مثقال ذرة) وزن نملة صغيرة (في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) رفعهما حمزة على الابتداء والخبر (الا في كتاب مبين) يعني اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفي الجنس وقدمت الارض على السماء هنا وفي سبا قدمت السموات لان العطف بالواو وحكمه حكم التثنية (ألا ان أولياء الله) هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة أو هم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذي آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه أو هم المتحابون في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها أو هم المؤمنون المتقون بدليل الآية الثانية (لا خوف عليهم) اذا خاف الناس (ولا هم يحزنون) اذا حزن

عليه وسلم ان من عباد الله لأناسا ما هم بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتقاطعونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الاشعري قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لله عبيدا ليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يا رسول الله عنهم من هم قال فرأيت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم ارحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى ان أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم هكذا ذكره البغوي بغير سند وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله عبادا يغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الغبطة نوع من الحسد الا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة ان الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه وقال أبو بكر الاصم أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة اليه وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب الى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك في طاعة الله وان اجتهد اجتهد فيما يقربه الى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله فهذه صفة أولياء الله واذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا وقال المتكلمون ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة واليه الاشارة بقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون وهو أن الايمان مبني على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى

هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى لا خوف عليهم يعني في الآخرة اذا خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها قال بعض المحققين زوال الخوف والحزن عنهم انما يحصل لهم في الآخرة لان الدنيا لا تخلو من هم وغم وانكاد وحزن قال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله واذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لان مقام الولاية والمعرفة يمنعه من أن يخاف أو يحزن وأما قوله سبحانه وتعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فقد تقدم تفسيره وانه صفة لاولياء الله وقوله سبحانه وتعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) اختلفوا في هذه البشرى فروى عن عبادة بن الصامت قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا قال هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له أخرجه الترمذي وله عن رجل من أهل مصر قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى في الحياة الدنيا قال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له قال الترمذي حديث حسن (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يبق بعدي من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة لفظ البخاري ولمسلم اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزأ من النبوة والرؤيا ثلاث الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه قال بعض العلماء ووجه هذا القول انا اذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة وظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة الا لهم وذلك لان ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فانه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم ان معرفة الله في القلب لا تفيد الا الحق والصدق فاذا رأى الولي رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولي قال الخطابي في هذه الاحاديث تو كيد لامر الرؤيا وتحقيق منزلتها وانما كانت جزأ من أجزاء النبوة في حق الانبياء دون غيرهم وكان الانبياء عليهم السلام يوحى اليهم في منامهم كما يوحى اليهم في اليقظة قال الخطابي قال بعض العلماء معنى الحديث ان الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة وقال الخطابي وغيره في معنى قوله الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة أقام النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من ستة وأربعين جزأ وقيل ان المنام لعل أن يكون فيه اخبار بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في جانب النبوة لانه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الاحكام ولا يخبر بغيب أبدا فاذا وقع لاحد في المنام

الناس (الذين آمنوا) منصوب باضمار أعني أو لانه صفة لاولياء أو مرفوع على انه خبر مبتدا محذوف أي هم الذين آمنوا (وكانوا يتقون) الشرك والمعاصي (لهم البشرى في الحياة الدنيا) ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير موضع من كتابه وعن النبي صلى الله عليه وسلم هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وعنه عليه السلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهذا الأن مدة الوحي ثلاث وعشرون سنة وكان في ستة أشهر منها يؤمر في النوم بالانذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين ستة جزء من ستة وأربعين جزأ أو هي محبة الناس له والذكر الحسن أو لهم البشرى عند النزع بان يرى مكانه في الجنة (وفي الآخرة) هي الجنة

الاخبار بغيب يكون هذا القدر جزأ من النبوة لأنه نبي واذا وقع ذلك لاحد في المنام يكون صدقا والله أعلم وقيل في تفسير الآية ان المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ماروى عن أبي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه الى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الارض هذا كله اذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم والا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين اذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها الى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى (لا تبديل لكلمات الله) يعني لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد (ذلك هو الفوز العظيم) يعني ما وعدهم به في الآخرة (ولا يحزنك قولهم) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم اياك (ان العزة لله جميعا) يعني أن القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم وقال سعيد بن المسيب ان العزة لله جميعا فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا منافاة بين الآيتين فان عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين باعزاز الله اياهم فثبت بذلك ان العزة لله جميعا وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فاخبر الله سبحانه وتعالى ان جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) لاقوالكم ودعائكم (العليم) بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية قوله سبحانه وتعالى (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) الا كلمة تنبيه معناه انه لا مالك لاحد في السموات ولا في الارض الا الله عز وجل فهو يملك من في السموات ومن في الارض فان قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه ألا ان لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك قلت ان لفظة ما تدل على ما لا يعقل

(لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لاقواله ولا خلاف لمواعيده (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين في الدارين (هو الفوز العظيم) وكلتا الجملتين اعتراض ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام كما تقول فلان ينطق بالحق والحق أبلج وتسكت (ولا يحزنك قولهم) تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وابطال أمرك (أن العزة) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل ان العزة (لله) ان الغلبة والقهر في ملكه لا يملك أحد شيأ منهما الا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم ويقصرك عليهم كتب الله لاغلبن أنا ورسلي انا لننصر رسلنا وأوبه يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قولهم لئلا يصير ان العزة مقول الكفار (جميعا) حال (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من في السموات ومن في الارض) يعني العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم لمؤدن ان هؤلاء اذا كانوا له وفي مملكته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكا له فيها فاحراء هم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ند ولا شريك

(ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) مانافية أى ومايتبعون حقيقة الشركاء وان كانوا يسمونها شركاء لان شركة الله فى الربوبية محال (ان يتبعون الا الظن) الاظنهم انهم شركاء الله (وان هم الا يخرصون) يحزرون ويقدرون أن يكون شركاء تقديرا باطلا أو استفهامية أى وأى شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الاول بيتبع وكان حقه ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون أو موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله مايتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب التردد فى النهار (والنهار مبصرا) مضيأ لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع مدكر معتبر (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلتهم الحمقاء (هو الغنى) علة لنفى الولد لانه انما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به والكل أمارة الحاجة فمن كان غنيا غير محتاج كان الولد منه منفيا ولان الولد بعض الوالد فيستدعى أن يكون مركبا وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج الى الغير فكان حادثا فاستحال القديم أن يكون له ولد (له مافى السموات ومافى الارض) ملكا ولا تجتمع البنوة معه (ان عندكم من سلطان بهذا) ماعندكم حجة بهذا القول والباء حقها ان تتعلق بقوله ان عندكم على أن يجعل القول مكانا

ولفظة من تدل على من يعقل فجموع الآيتين يدل على ان الله عز وجل يملك جميع من فى السموات ومن فى الارض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفى ملكه وقيل ان لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن فى السموات الملائكة العقلاء ومن فى الارض الانس والجن وهم العقلاء أيضا وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا كان هؤلاء العقلاء المميزون فى ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الاولى أن يكونوا فى ملكه اذا ثبت هذا فتكون الاصنام التى يعبدها المشركون أيضا فى ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحا فى جعل الاصنام شركاء لله معبودة دونه (ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) لفظة ما استفهامية معناه وأى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى أنهم ليس لهم على شئ لانهم يعبدونها على انها شركاء الله تشفع لهم وليس الامر على مايظنون وهو قوله سبحانه وتعالى (ان يتبعون الا الظن) يعنى ان فعلهم ذلك ظن منهم انها تشفع لهم وانها تقربهم الى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له (وان هم الا يخرصون) يعنى ان هم الا يكذبون فى دعواهم ذلك قوله عز وجل (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) يعنى هو الله ربكم الذى خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الابصار الى النهار وانما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم ومايفهمونه قال جرير

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ✻ ونمت وما ليل المطى بنائم

فأضاف النوم الى الليل ووصفه به وانما عنى نفسه وانه لم يكن نائما هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب الى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وابصر النهار يعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء قوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يعنى يسمعون سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق هذه الاشياء كلها هو الاله المعبود المنفرد بالواحدانية فى الوجود (قالوا) يعنى المشركين (اتخذ الله ولدا) يعنى به قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد (هو الغنى) يعنى انه سبحانه وتعالى هو الغنى عن جميع خلقه فكيف يليق به جلاله اتخاذ الولد وانما يتخذ الولد من هو محتاج اليه والله تعالى هو الغنى المطلق وجميع الاشياء محتاجة اليه وهو غنى عنها (له مافى السموات ومافى الارض) يعنى انه مالك مافى السموات ومافى الارض وكلهم عبيده وفى قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم ولما نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالانكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى (ان عندكم من سلطان بهذا) يعنى انه لا حجة عندكم

بسلطان كقولك ما عندكم بارضكم موز كانه قيل ان عندكم فيما تقولون سلطان ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال
(أتقولون على الله ما لا تعلمون قل ان الذين يفترون ٤١٤ على الله الكذب) باضافة الولد اليه (لا يفلحون) لا يفوزون من النار
ولا يفوزون بالجنة (متاع فى الدنيا) أى اغترارهم هذا منفعة قليلة فى الدنيا حيث يتمتعون به رياستهم فى الكفر ومناصبة النبى صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به (ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد) المخلد (بما كانوا يكفرون) بكفرهم (واتل عليهم) واقرأ عليهم (نبأ نوح) خبره مع قومه والوقف عليه لازم اذ لو وصل لصار اذ ظرفا لقوله واتل بل التقدير واذكر (اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم) عظم وثقل كقوله وانها لكبيرة الا على الخاشعين (مقامى) مكانى يعنى نفسه كقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين أظهركم ألف سنة الا خمسين عاما أو مقامى (وتذكيرى بآيات الله) لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكثهم بينا وكلامهم مسموعا (فعلى الله توكلت) أى فوضت أمرى اليه (فأجمعوا أمركم) من أجمع الامر اذا نواه وعزم عليه (وشركاءكم) الواو بمعنى مع أى فاجمعوا أمركم مع شركائكم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى ملتبسا عليكم وهما والهم والغمة كالكرب والكربة أو ملتبسا فى خفية والغمة الستر من غمه اذا ستره ومنه الحديث لا غمة فى فرائض الله أى لا ستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولا يكن قصدكم الى اهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونى به (ثم اقضوا امضوا
على هذا القول البتة ثم بالغ فى الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعنى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان (قل ان الذين يفترون على الله الكذب) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل و يزعمون ان له ولدا (لا يفلحون) يعنى لا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء فى النعمة والمعنى ان قائل هذا القول لا يفلح فى سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف تام يعنى قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم فى الدنيا وهى أيام يسيرة بالنسبة الى طول مقامهم فى العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعهم) يعنى بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يعنى ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون فى الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله قوله سبحانه وتعالى (واتل عليهم نبأ نوح) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى بيان قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة بمن سلف من الانبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وان الكفار من قومه اذا سمعوا هذه القصص وما جرى للكفار الامم الماضية من العذاب والهلاك فى الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم الى الايمان ولما كان قوم نوح أول الامم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وانه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعنى واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح (اذ قال لقومه يا قوم) وهم بنو قابيل (ان كان كبر) يعنى ثقل (عليكم مقامى) يعنى فيكم (وتذكيرى بآيات الله) يعنى ووعظى اياكم بآيات الله وقيل معناه ان كان ثقل وشق عليكم طول مقامى فيكم وذلك انه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيرى بآيات الله يعنى ووعظى بآيات الله وحجه وبيناته فعزموا على قتلى وطردى (فعلى الله توكلت) يعنى فهو حسبى وكفى (فأجمعوا أمركم) يعنى فأحكموا أمركم واعزموا عليه قال الفراء الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وقال ابن الانبارى المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيئا الا أحضروه (وشركاءكم) يعنى وادعوا شركاءكم يعنى آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وانما حسنهم على الاستعانة بالاصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) يعنى لا يكن أمركم عليكم خفيا مبهما ولكن ليكن أمركم ظاهرا منكشفا من قولهم غم الهلال فهو مغموم اذا خفى والتبس على الناس (ثم اقضوا) ثم

الى) ذلك الامر الذى تريدون بى أى أدوا الى ما هو حق عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه أو اصنعوا ما امكنكم (ولا تنظرون) ولا تمهلونى (فان توليتم) فان أعرضتم عن تذكيرى ونصحى (فما سألتكم من أجر) فأوجب التولى أو فما سألتكم من أجر ففاتنى ذلك بتوليكم (ان أجرى الا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى ما نصحتكم الا لله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة منع أخذ الاجر على تعليم القرآن والعلم الدينى (وأمرت أن أكون من المسلمين)

امضوا (الى) بما فى انفسكم من مكروه وما تو عدونى به من قتل وطردوا فرغوا منه تقول العرب قضى فلان اذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون (ولا تنظرون) أى ولا تؤخرونى ولا تمهلونى بعد اعلامكم اياى ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام انه كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله وانه كان واثقا بنصره أياه غير خائف من كيدهم عالما منه بانهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وان مكرهم لا يصل اليه (فان توليتم) يعنى فان أعرضتم عن قولى وقبول نصحى (فما سألتكم من أجر) يعنى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فاذا لم أخذ على تبليغ الدعوة الى الله شيأ كان أقوى تأثيرا فى النفس (ان أجرى الا على الله) أى ما ثوابى وجزائى على تبليغ الرسالة الا على الله (وامرت أن أكون من المسلمين) يعنى انى أمرت بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لامر الله ولكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة (فكذبوه) يعنى فكذبوا نوحا عليه السلام (فنجيناه ومن معه فى الفلك) يعنى فى السفينة (وجعلناهم خلائف) يعنى وجعلنا الذين نجيناهم معه فى الفلك سكان الارض بعد الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى فانظر يا محمد أو يا أيها الانسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك (ثم بعثنا من بعده) يعنى من بعد نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل (فجاؤهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) يعنى ان اولئك الاقوام والامم التى جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعنى مثل اغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم فى التكذيب قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعنى من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) يعنى اشراف قومه (بآياتنا فاستكبروا) يعنى عن الايمان بما جاءه به موسى وهرون (وكانوا قوما مجرمين) يعنى مستكسبين للاثم (فلما جاءهم الحق من عندنا) يعنى فلما جاء فرعون وقومه الحق الذى جاء به موسى من عند الله (قالوا ان هذا لسحر مبين) يعنى ان هذا الذى جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل احد (قال موسى

من المسلمين لاوامره ونواهيه ان أجرى بالفتح مدنى وشامى وابو عمرو وحفص (فكذبوه) فداموا على تكذيبه (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف) يخلفون الهالكين بالغرق فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له (ثم بعثنا من بعده) من بعد نوح عليه السلام (رسلا الى قومهم) أى هودا وصالحا وابراهيم ولوطا وشعيبا (فجاؤهم بالبينات) بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم (فما كانوا ليؤمنوا) فاصروا على الكفر بعد المجىء (بما كذبوا به من قبل) من قبل مجيئهم يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث اليهم أحد (كذلك نطبع) مثل ذلك الطبع نختم (على قلوب المعتدين) المجاوزين الحد فى التكذيب (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا) بالآيات التسع (فاستكبروا) عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق من عندنا) فلما عرفوا انه هو الحق وانه من عند الله (قالوا) لجهلهم الشهوات (ان هذا لسحر مبين) وهم يعلمون ان الحق أبعد شئ من السحر (قال موسى

أتقولون للحق لما جاءكم) هو انكار ومقولهم محذوف أى هذا ثم استأنف انكار سحر آخر فقال (أسحر هذا) خبر ومبتدأ (ولا يفلح الساحرون) أى لا يظفر (قالوا أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الاصنام أو عبادة فرعون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك لان الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو (فى الارض) أرض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدقين فيما جئتمانا به ويكون حيادويحيى (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) بسحار حمزة وعلى (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) ما موصولة واقعة مبتدأ وجئتم به صلتها والسحر خبر أى الذى جئتم به هو السحر لا الذى سماه فرعون وقومه سحرا من آيات الله أو السحر بعد وقف أبو عمرو على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما الاستفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر (ان الله سيبطله) يظهر بطلانه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبته بل يدمره (ويحق الله الحق) ويثبته (بكلماته) بأوامره وقضاياه أو يظهر الاسلام بعداته بالنصرة (ولو كره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى) فى أول امره (الا ذرية من قومه

أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار يعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال (ولا يفلح الساحرون) يعنى حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا (قالوا) يعنى قال قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) يعنى لتصرفنا وتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا) يعنى من الدين (وتكون لكما الكبرياء) يعنى الملك والسلطان (فى الارض) يعنى فى أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا (وما نحن لكما بمؤمنين) يعنى بمصدقين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) يعنى ان فرعون أراد ان يعارض معجزة موسى بانواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) انما أمرهم موسى بالقاء ما معهم من الحبال والعصى التى فيها سحرهم ليظهر الحق و يبطل الباطل و يتبين ان ما أتوا به فاسد (فلما ألقوا) يعنى ما معهم من الحبال والعصى (قال موسى ما جئتم به السحر) يعنى الذى جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم (ان الله سيبطله) يعنى يهلكه و يظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) يعنى لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه (ويحق الله الحق) يعنى ويظهر الله الحق و يقويه ويعليه (بكلماته) يعنى بوعده الصادق لموسى انه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة (ولو كره المجرمون) قوله سبحانه وتعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى انه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان كثير الاهتمام بايمان قومه وكان يغتم بسبب اعراضهم عن الايمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى ان له اسوة بالانبياء عليهم الصلاة والسلام لان الذى جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه الا ذرية والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا فى هاء الكناية فى قومه فقيل انها راجعة الى موسى واراد بهم قوم موسى وهم بنو اسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده قال مجاهد هم أولاد يعقوب الذين ارسل اليهم موسى هلك الآباء وبقى الابناء وقيل هم قوم تجوا مع قتل فرعون وذلك ان فرعون لما امر بقتل ابناء بنى اسرائيل كانت المرأة فى بنى اسرائيل اذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشؤا بين القبط فلما كان اليوم الذى غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ما من ذرية من قومه يعنى من بنى اسرائيل وقيل انها راجعة الى فرعون يعنى الذرية من قوم فرعون روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطته قال الفراء سموا ذرية لان آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وامهاتهم

على خوف من فرعون) الا طائفة من ذراري بني اسرائيل كانه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك انه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف أو الضمير في قومه لفرعون والذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وماشطته والضمير في (وملئهم) يرجع الى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر أولانه ذو أصحاب يأتمرون له أو الى الذرية أي على خوف من فرعون ٤١٧ وخوف من أشراف بني اسرائيل لانهم كانوا يمنعون

من بني اسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأحواله في الايمان وذلك كما يقال لاولاد فارس الذين دخلوا الى اليمن الابناء لان أمهاتهم من غير جنس الآباء (على خوف من فرعون وملئهم) الملأ الاشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن اشرافهم وهم ملأ الذرية لانه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني اسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وانما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له (أن يفتنهم) أي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وانما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لان قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لامره (وان فرعون لعال في الارض) يعني انه لغالب قهار متكبر فيها (وانه لمن المسرفين) يعني من المجاوزين الحد لانه كان عبد الهوى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل (وقال موسى) يعني لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) يعني فبه ثقوا ولامره فسلموا فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) يعني ان كنتم مستسلمين لامره قيل انما أعيد قوله ان كنتم مسلمين بعد قوله ان كنتم آمنتم بالله لارادة ان كنتم موصوفين بالايمان القلبي وبالاسلام الظاهري ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لامره من كمال الايمان وان من كان يؤمن بالله فلا يتوكل الا على الله لا على غيره (فقالوا) يعني قال قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا انا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقولوا قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ولو ظنوا أنهم خير منا فيفتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة وله عز وجل (وأوحينا الى موسى وأخيه) هرون (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يعني اتخذا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا اذا اتخذه مباءة أي وطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون اليها للصلاة والعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) اختلف أهل التفسير في معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التي يصلى فيها وسموا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم الى القبلة واختلفوا في هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على

أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم دليله قوله (أن يفتنهم) يريد أن يعذبهم فرعون (وان فرعون لعال في الارض) لغالب فيها قاهر (وانه لمن المسرفين) في الظلم والفساد وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) فالية أسندوا أمركم في العصمة من فرعون (ان كنتم مسلمين) شرطا في التوكل الاسلام وهو أن يسلموا نفوسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط (فقالوا على الله توكلنا) انما قالوا ذلك لان القوم كانوا مخلصين لاجرم أن الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط والى الاخلاص (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) موضع فتنة لهم أي عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أي يضلوننا والفاتن المضل عن الحق (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أي من تعذيبهم وتسخيرهم (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) تبوأ المكان اتخذه مباءة كقولك توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعا يرجعون اليه للعبادة والصلاة فيه (واجعلوا بيوتكم قبلة) أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون الى الكعبة وكانوا في أول الامر مأمورين بان يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا

تعيينها الا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة لموسى وهرون وهو قول مجاهد أيضا قال ابن عباس قالت بنو اسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا تامع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة الى جهة بيت المقدس وقيل أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي مقابلة يعني يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا في بيوتكم قبلة تصلون اليها فان قلت انه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب في أول الآية بقوله سبحانه وتعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم انه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه قلت انه سبحانه وتعالى أمر موسى وهرون بان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الانبياء فخصا بالخطاب لذلك ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم بالخطاب الجميع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة (وأقيموا الصلوة) يعني في بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بني اسرائيل من فرعون وقومه اذا صلوا في الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذوهم فامرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا في بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو اسرائيل لا يصلون الا في الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهرون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الاعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر المؤمنين) يعني بانه لا يصل اليهم مكروه قوله سبحانه وتعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحيوة الدنيا) لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى ان القوم مصرون على الكفر والعناد والانكار لما جاءه أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم التي كانت سبب اصراره على ما يوجب الدعاء عليه ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها الاجرم أن موسى لما أخذ في الدعاء قدم هذه المقالة فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحيوة الدنيا والزينة عبارة عما يتزين به كاللباس والدواب والغلمان واثاث البيت الفاخر والاشياء الجميلة والمال مزاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى (ربنا ليضلوا عن سبيلك) اختلفوا في هذه اللام فقال الفراء هي لام كي فعلى هذا يكون المعنى ربنا انك جعلت هذه الاموال سبب الضلال لهم لانهم بطروا وطغوا في الارض واستكبروا عن الايمان وقال الاخفش انما هي لما يؤل اليه الامر والمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هي لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الانباري هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا انك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس ازالة أثر الشئ بالمحو ومعنى اطمس على أموالهم ازل صورها

يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك في أول الاسلام بمكة (وأقيموا الصلوة) في بيوتكم حتى تأمنوا (وبشر المؤمنين) يا موسى ثني الخطاب أولا ثم جمع ثم وحد آخرا لان اختيار مواضع العبادة مما يفوض الى الانبياء ثم جمع لان اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها ولمن بشر بها (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) هو ما يتزين به من لباس أو حلى أو فرش أو اثاث أو غير ذلك (وأموالا) أي نقدا ونعما وضيعة (في الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) ليضلوا الناس عن طاعتك كوني ولا وقف على الدنيا لان قوله ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار الاول للالحاح في التضرع قال الشيخ أبو منصور رحمه الله اذا علم منهم انهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله وهو كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما فتكون الآية حجة على المعتزلة (ربنا اطمس على أموالهم) أي أهلكها وأذهب آثارها لانهم يستعينون بنعمتك على معصيتك والطمس المحو والهلاك قيل صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيأتها منقوشة وقيل وسائر أموالهم

كذلك (واشدد على قلوبهم) اطبع على قلوبهم واجعلها قاسية (فلا يؤمنوا) جواب الدعاء الذى هو اشدد (حتى يروا العذاب الاليم) الى ان يروا العذاب الاليم وكان كذلك فانهم لم يؤمنوا الى الغرق وكان ذلك ايمان يأس فلم يقبل وانما دعا عليهم بهذا لما أيس من ايمانهم وعلم بالوحى انهم لا يؤمنون فاما قبل ان يعلم بانهم لا يؤمنون فلا يسع له ان يدعو بهذا الدعاء لانه أرسل اليهم ليدعوهم الى الايمان وهو يدل على ان الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرا (قال قد أجيبت دعوتكما) قيل كان موسى عليه السلام يدعو وهرون يؤمن فثبت ان التامين دعاء فكان الخفاؤه أولى والمعنى ان دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن فى وقته (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق الاجابة وحكمة الامهال فقد كان بين الدعاء والاجابة أربعون سنة ولا تتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية شامى وخطأه بعضهم لان النون الخفيفة واجبة السكون وقيل هو اخبار عما يكونان عليه وليس بنهى أو هو حال وتقديره فاستقيما غير متبعين (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) هو دليل لنا على خلق الافعال (فأتبعهم فرعون وجنوده) فلحقهم يقال تبعته حتى أتبعته (بغيا) تطاولا (وعدوا) ظلما وانتصبا على الحال أو على المفعول له

وهيأتها وقال مجاهد لهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا ان أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظى صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله فى فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لان موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا وأثلاثا وقيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شئ من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهى حجارة وقال السدى مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والاطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) يعنى اربط على قلوبهم واطبع عليها واقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للايمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الايمان قال الواحدى وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) يعنى الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه قال موسى قبل ان يأتى فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الايمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الايمان قال بعض العلماء انما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم ان سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لا يؤمنون وذلك ان الله سبحانه وتعالى كتب عليهم فى الازل انهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم (قال) الله عز وجل لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) انما نسب الدعاء اليهما وان الداعى هو موسى وحده لان هرون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لانه طلب وسؤال أيضا ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى فى الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيبت دعوتكما (فاستقيما) يعنى على تبليغ الرسالة وامضيا لامرى الى ان يأتيهم العذاب (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) يعنى ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى فان وعدى لا خلف فيه ووعيدى نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الاجابة أربعون سنة قال الامام فخر الدين الرازى واعلم ان هذا النهى لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه قوله عز وجل (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) أى قطعنا ببنى اسرائيل البحر وعبرناهم اياه حتى جاوزوه وعبروه (فأتبعهم فرعون وجنوده) يعنى لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أى ظلما وعدوانا وقيل البغى طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغيا فى القول وعدوا فى الفعل قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك انه لما أجاب الله دعاء موسى وهرون أمرهما بالخروج ببنى اسرائيل من مصر فى الوقت الذى أمرهما أن يخرجا فيه بهم وبين لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلا عنهم

فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده فى طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين الخلاص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الارض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه فى عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الالوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بنى اسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا فى البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى (حتى اذا أدركه الغرق قال) يعنى فرعون (آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان فى مهل قال العلماء ايمانه غير مقبول وذلك ان الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لاجرم لم ينفعه ما قال فى ذلك الوقت وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى فلهذا قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك فى ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) يعنى آلآن تتوب وقد أضعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والخطاب لفرعون بهذا وجبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل ان القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد فى الارض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم نجيك ببدنك والقول الاول أشهر ويعضده ما روى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وانا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة ان تدركه الرحمة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وفى رواية أخرى عنه عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذكر أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر ان جبريل عليه السلام جعل يدس فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا اله الا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

(فصل فى الكلام على هذا الحديث) لانه فى الظاهر مشكل فيحتاج الى بيان وايضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففى الطريق الاول عن ابن زيد بن جدعان وهو وان كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فانه كان شيخا نبيلا

(حتى اذا أدركه الغرق) ولا وقف عليه لان (قال آمنت) جواب اذا (انه) بكسر الهمزة وعلى على الاستئناف بدل من آمنت وبالفتح بتغيرهما على حذف الباء التى هى صلة الايمان (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) وفيه دليل على ان الايمان والاسلام واحد حيث قال آمنت ثم قال وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات فى ثلاث عبارات حرصا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفى فى حالة الاختيار (آلآن) أتؤمن بالساعة فى وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك قيل قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن (وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) من الضالين المضلين عن الايمان روى أن جبريل عليه السلام أتاه بفتيا ما قول الامير فى عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق فى البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه

صدوقا ولكنه كان سيئ الحفظ و يغلط وقد احتمل الناس حديثه وانما يخشى من حديثه اذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف في هذا الحديث لان في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الاسناد على شرط البخاري ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وان كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا أن لهذا الحديث أصلا وان رواته ثقات ليس فيهم متهم وان كان فيهم من هو سيئ الحفظ فقد تابعه عليه غيره فان قلت في الحديث الثاني شك في رفعه لانه قال فيه ذكر أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت ليس بشك في رفعه انما هو جزم بان أحد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدي بن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه أحدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حما البحر أي من طين البحر كما في الرواية الاخرى

(فصل) ووجه اشكاله ما اعترض به الامام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال هل يصح أن جبريل أخذ يلأ فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه والجواب الاقرب انه لا يصح لان في تلك الحالة اما أن يقال التكليف هل كان ثابتا أم لا فان كان ثابتا لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وان كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب الى جبريل فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر ولرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بامر ربك فهذا وجه الاشكال الذي أورده الامام على هذا الحديث في كلام أكثر من هذا والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض عليه لاحد وأما قول الامام ان التكليف هل كان ثابتا في تلك الحالة أم لا فان كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فان هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر فانهم يقولون ان الله يحول بين الكافر والايمان ويدل على ذلك قوله تعالى واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وقوله تعالى وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة فاخبر الله سبحانه وتعالى انه قلب أفئدتهم مثل تركهم الايمان به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الايمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله ومن المنكرين لخلق الافعال من اعترف أيضا أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله

ويطبع على قلبه ويمنعه من الايمان فاما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فان غاية ما يقال فيه ان الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الايمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق وروده للايمان لما جاءه وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فانما فعل ذلك بامر الله لا من تلقاء نفسه فاما قول الامام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا اذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا وأما اذا كان جبريل انما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لامر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل عليه السلام اما أن يتصرف بامر الله فلا يفعل الا ما أمر الله به واما أن يفعل ما شاء من تلقاء نفسه لا بامر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه اعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهى عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر انه أمره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا وقوله وان كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب الى جبريل فائدة فجوابه أن يقال ان للناس في تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال أصلا وقد زال الاشكال والقول الثاني ان أفعاله تبارك وتعالى لها غاية تحسب المصالح لاجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب وان ايمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكن تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تحصيل ما قد قضى عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى عليه السلام لما دعا ربه بان فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم والايمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه ليأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتحقق اجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله فيكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون واما قوله لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر فجوابه ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجبريل انما يتصرف بامر الله ولا يفعل الا ما أمره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فانما رضي بالامر لا بالمأمور به فاي كفر يكون هنا وايضا فان الرضا بالكفر انما يكون كفرا في حقنا لانا

مأمورون بازالته بحسب الامكان فاذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لخالفتنا ما أمرنا به واما من ليس مأمورا كأمرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فانه اذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه وعلى هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فرعون كان ساخطا الكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذا لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان فجوابه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وأما قوله وان قيل ان جبريل انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه انه انما فعل ذلك بأمر الله منفذا لامر الله والله أعلم بمراده واسرار كتابه قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) أى نلقيك على نجوة من الارض وهى المكان المرتفع قال أهل التفسير لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو اسرائيل ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلوبهم من الرعب لاجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو اسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا أبدا ومعنى قوله ببدنك يعنى نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كانه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك وقيل أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه (لتكون لمن خلفك آية) يعنى عبرة وموعظة وذلك انهم ادعوا ان مثل فرعون لا يموت أبدا فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لانه كان فى غاية العظمة فصار الى نهاية الخسة والذلة ملقى على الارض لا يهابه أحد (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) قوله عز وجل (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) يعنى أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر واغراق عدوهم فرعون والمعنى أنزلناهم منزلا محمودا وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشئ اذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وفى المراد بالمكان الذى بوأوا قولان أحدهما انه مصر فيكون المراد ان الله أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره والقول الثانى انه أرض الشام والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) يعنى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) يعنى فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم

التى لا روح فيك وانما أنت بدن أو يبدنك كاملا سويا لم ينقص منه شئ ولم يتغير أو عريانا لست الا بدنا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه بابدانك وهو مثل قولهم هو باجرامه أى ببدنك كله وافيا بأجزائه أو بدروعك لانه ظاهر بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو اسرائيل وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يغرق وقيل أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه وقيل لمن خلفك لمن يأتى بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته وان ما كان يدعيه من الربوبية محال وانه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره الى ما ترون لعصيانه ربه فما الظن بغيره (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام (ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا) فى دينهم (حتى جاءهم العلم) أى التوراة وهم اختلفوا فى تأويلها كما اختلف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى تأويل الآيات من القرآن أو المراد العلم بمحمد واختلاف بنى اسرائيل

وهم أهل الكتاب اختلافهم فى صفته انه هو أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم أنه هو

اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذى كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفى كون القرآن سببا للحدوث الاختلاف وجهان الاول ان اليهود كانوا يخبرون ببعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم والوجه الثانى أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون وقوله تعالى (ان ربك) يعنى يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى من أمرك وأمر نبوتك فى الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجد نبوتك النار قوله سبحانه وتعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) الشك فى موضوع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الانسان لوجود أمارتين أو لعدم الامارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكا فاذا قيل فلان شك فى هذا الامر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب فى قوله فان كنت فى شك أنه للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد فى شك مما أنزلنا اليك يعنى من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعنى القرآن (فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) يعنى علماء أهل الكتاب يخبرونك أنا مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل وانك نبى يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه ههنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما أنزل عليه أو فى نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك واذا كان شاكا فى نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه فما الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضى عياض فى كتابه الشفاء فانه أورد هذا السؤال ثم قال احذر يثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من اثبات شك النبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى اليه فانه من الشر فمثل هذا لا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم جملة بل قد قال ابن عباس لم يشك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصرى وحكى عن قتادة انه قال بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا تم كلام القاضى عياض رحمه الله ثم اختلفوا فى معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين أحدهما ان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشرك فثبت ان المراد به غيره ومن أمثلة العرب * اياك أعنى واسمعى ياجاره * فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد يا أيها الانسان الشاك ان كنت فى شك مما أنزلنا اليك على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل الذين يقرؤن الكتاب يخبروك بصحته ويدل على

(ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يميز المحق من المبطل ويجزى كلا جزاءه (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) لما قدم ذكر بنى اسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بالعلم قد جاءهم لان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب فى التوراة والانجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أراد ان يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وبالغ فى ذلك فقال فان وقع لك شك فرضا وتقديرا وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع الى حلها بالرجوع الى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء فسل علماء أهل الكتاب فانهم من الاحاطة بصحة ما أنزل اليك بحيث يصلحون لمراجعته مثلك فضلا عن غيرك فلما ورد وصف الاخبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشك فيه

صحة هذا التاويل قوله تعالى فى آخر هذه السورة قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى الآية فبين ان المذكور فى هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور فى تلك الآية على سبيل التصريح وأيضا لو كان النبى صلى الله عليه وسلم شاكا فى نبوته لكان غيره أولى بالشك فى نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل ان الله سبحانه وتعالى علم ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يا رب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفى بما أنزلته على من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج ان الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله فان كنت فى شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبى اذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا فى هذا الخطاب كان الاعتراض وجوه والسؤال واردا وقيل ان لفظة ان فى قوله فان كنت فى شك للنفى ومعناه وما أنت فى شك مما أنزلنا اليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقينا والقول الثانى ان هذا الخطاب ليس هو للنبى صلى الله عليه وسلم البتة ووجه هذا القول ان الناس كانوا فى زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تمجد وتعالى فان كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله الضمير فى قوله فان كنت وهو يريد الجمع لانه خطاب لجنس الانسان كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم لم يرد فى الآية انسانا بعينه بل أراد الجمع واختلفوا فى المسؤل عنه فى قوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك من هم فقال المحققون من أهل التفسير هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لانهم هم الموثوق باخبارهم وقيل المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لان المقصود من هذا السؤال الاخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مكتوب عندهم صفته ونعته فاذا اخبروا بذلك فقد حصل المقصود والاول أصح وقال الضحاك يعنى أهل التقوى وأهل الايمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبى صلى الله عليه وسلم (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره اقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بانك رسول الله حقا وان أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك (فلا تكونن من الممترين) يعنى من الشاكين فى صحة ما أنزلنا اليك (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) يعنى بدلائله وبراهينه الواضحة (فتكون من الخاسرين) يعنى الذين خسروا أنفسهم واعلم ان هذا كله على ما تقدم من ان ظاهره خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا ان المراد به غيره والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (ان الذين حقت عليهم) يعنى وجبت عليهم (كلمات ربك) يعنى حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى خلقت

والبراهين اللائحة ان ما أتاك هو الحق الذى لا مجال فيه للشك (فلا تكونن من الممترين) الشاكين ولا وقف عليه للعطف (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله أو هو على طريقة التهييج والالهاب كقوله فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد انه الحق أو خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أى وان كنتم فى شك مما أنزلنا اليكم كقوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب اذا عز اخوك فهن أوان للنفى أى فما كنت فى شك فسل أى ولا تأمرك بالسؤال لانك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى فان قلت انما يجىء ان للنفى اذا كان بعده الا كقوله ان الكافرون الا فى غرور قلت ذلك غير لازم الا ترى الى قوله ان امسكهما من أحد من بعده فان للنفى وليس بعده الا (ان الذين حقت عليهم كلمات ربك)

 ثبت عليهم قول الله الذى كتبه فى اللوح وأخبر به الملائكة انهم يموتون كفارا أو قوله لاملأن جهنم الآية

ولا وقف على (لا يؤمنون) لان (ولو جاءتهم كل آية) تتعلق بما قبلها (حتى يروا العذاب الاليم) اى عند اليأس فيؤمنون
ولا ينفعهم أو عند القيامة ولا يقبل منهم (فلولا كانت قرية آمنت) فهلا كانت قرية واحدة من القرى

هؤلاء للنار ولا أبالي وقال قتادة سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه في الازل (لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) فانهم لا يؤمنون بها (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان لان الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وصرفهم عن الايمان فلا ينفعهم شيء قوله سبحانه وتعالى (فلولا) يعني فهلا (كانت قرية) وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لان في الاستفهام معنى الجحد والمراد هل كانت قرية (آمنت) يعني عند معاينة العذاب (فنفعها ايمانها) يعني في حال اليأس (الا قوم يونس) هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فانهم آمنوا فنفعهم ايمانهم في ذلك الوقت وهو قوله (لما آمنوا) يعني لما أخلصوا الايمان (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين) يعني الى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا وقال الاكثرون انهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون الا بعد لوقوع أو اذا قرب وقوعه (ذكر القصة في ذلك) على ما ذكره عبد الله ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا ان قوم يونس كانوا بقرية تينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان بالله وترك عبادة الاصنام فدعاهم فابوا عليه فقيل له اخبرهم ان العذاب مصبحهم الى ثلاث فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليك كذبا فانظر فان بات فيكم الليلة فليس بشيء وان لم يبت فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قال ابن عباس ان العذاب كان اهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الاسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض الى البعض فحن الاولاد الى الامهات والامهات الى الاولاد وعلت الاصوات وعجوا جميعا الى الله وتضرعوا اليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا الى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قال ابن مسعود بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم فيما بينهم حتى ان كان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال لما غشي قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم

التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الايمان قبل المعاينة ولم تؤخر كما أخر فرعون الى ان أخذ بمحتفه (فنفعها ايمانها) بان تقبل الله ايمانها منها بوقوعه في وقت الاختيار (الا قوم يونس) استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس أو متصل والجملة في معنى النفي كانه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين) الى آجالهم روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم الى بعض وأظهروا الايمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا الى المكان الذي نزل بهم العذاب الى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم قولوا ياحي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم وعن الفضيل قدس الله روحه قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله

فقالوا له انه قد نزل بنا العذاب فانظر ما ترى قال قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين وقال الفضيل ابن عياض انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيأ فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف أرجع اليهم فيجدوني كذابا وكان من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتي القصة في سورة والصافات ان شاء الله تعالى فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته قلت أجاب العلماء عن هذا باجوبة أحدها ان ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد الجواب الثاني ان فرعون ما آمن الا بعد ما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشروهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية الجواب الثالث ان الله عز وجل علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ما صدق في ايمانه ولا اخلص فلم يقبل منه ايمانه والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يا محمد لآمن بك وصدقك من في الارض كلهم جميعا ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص ان يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله عز وجل انه لا يؤمن به الا من سبقت له من الله السعادة في الذكر الاول ولم يضل الا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الاول وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فاخبره الله أنه لا يؤمن به الا من سبقت له العناية الازلية فلا تتبع نفسك على ايمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يعني ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لاحد سوانا (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى ان تؤمن وتصدق الا بقضاء الله لها بالايمان فان هدايتها الى الله وهو الهادي المضل وقال ابن عباس معناه باذن الله بامر الله وقال عطاء بمشيئة الله قوله تعالى (ويجعل) قرئ بالنون على سبيل التعظيم أي ونحن نجعل وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله (الرجس) يعني العذاب وقال ابن عباس يعني السخط (على الذين لا يعقلون) يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه قوله عز وجل (قل انظروا) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر (ماذا في السموات والارض) يعني ماذا خلق الله في السموات والارض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها آية لعباده وغاربة وانزال المطر من السماء وفي الارض الجبال والبحار والمعادن والانهار والاشجار

نظر استدلال واعتبار (وما تغني الآيات والنذر) أي وما تجدي الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع

مطبقين عليه لا يختلفون فيه اخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته انه لو شاء لآمن من في الارض كلهم ولكنه شاء ان يؤمن به من علم منه اختيار الايمان به وشاء الكفر ممن علم انه يختار الكفر ولا يؤمن به وقول المعتزلة المراد بالمشيئة مشيئة القسر والالجاء أي لو خلق فيهم الايمان جبرا لآمنوا لكن قد شاء أن يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا دليله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أي ليس اليك مشيئة الاكراه والجبر في الايمان انما ذلك الى فاسد لان الايمان فعل العبد وفعله ما يحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتاويله عندنا ان الله تعالى لطفا لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم انهم لا يؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق والاستفهام في أفأنت بمعنى النفي أي لا تملك أنت يا محمد ان تكرههم على الايمان لانه يكون بالتصديق والاقرار ولا يمكن الاكراه على التصديق (وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله) بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه (ويجعل الرجس) أي العذاب أو السخط أو الشيطان أي ويسلط الشيطان (على الذين لا يعقلون) لا ينتفعون بعقولهم ونجعل جادويحيي (قل انظروا)

والثمار (وماتغنى الآيات) مانافية (والنذر) والرسل المنذرون أوالانذارات (عن قوم لايؤمنون) لايتوقع ايمانهم وهم الذين لايعقلون (فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوامن قبلهم) يعنى وقائع الله فيهم كايقال أيام العرب لوقائعها (قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا) معطوف على كلام محذوف يدل عليه الامثل أيام الذين خلوامن قبلهم كانه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا على حكاية الاحوال الماضية (والذين آمنوا) ومن آمن معهم (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) أى مثل ذلك الانجاء ننجى المؤمنين منكم ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض أى وحق ذلك علينا حقا ننجى بالتخفيف على وحفص (قل يا أيها الناس) يا اهل مكة (ان كنتم فى شك من دينى) وصحته وسداده فهذا دينى فاستمعوا وصفه ثم وصف دينه فقال (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله). أى الاصنام (ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم) يميتكم وصفه بالتوفى ليريهم انه الحقيق بان يخاف ويتقى ويعبد دون مالا يقدر على

والثبات كل ذلك آيات دالة على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية * تدل على انه واحد

(وماتغنى الآيات والنذر) يعنى الرسل (عن قوم لايؤمنون) وهذا فى حق أقوام علم الله أنهم لايؤمنون لماسبق لهم فى الازل من الشقاء (فهل ينتظرون) يعنى مشركى مكة (الامثل أيام الذين خلوامن قبلهم) يعنى من مضى من قبلهم من الامم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى وذكرهم بايام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يامحمد الا يوما يعاينون فيه العذاب مثل ما فعلنا بالامم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعا فان كانوا ينتظرون ذلك العذاب (فقل فانتظروا) يعنى قل لهم يامحمد فانتظروا العذاب (انى معكم من المنتظرين) يعنى هلاككم قال الربيع بن أنس خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم انه اذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) يعنى من العذاب والهلاك (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) يعنى كما أنجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يامحمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بانه حق واجب من حيث الوعد والحكم لانه واجب بسبب الاستحقاق لانه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيأ قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يامحمد لهؤلاء الذين أرسلناك اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم فى شك من دينى) يعنى الذى أدعوكم اليه وانما حصل الشك لبعضهم فى أمره صلى الله عليه وسلم لما رأى الآيات التى كانت تظهر على يد النبى صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال ان كنتم فى شك من دينى الذى أدعوكم اليه فلا ينبغى لكم أن تشكوا فيه لانه دين ابراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وانما ينبغى لكم ان تشكوا فى عبادتكم لهذه الاصنام التى لا أصل لها البتة فان أصررتم على ما أنتم عليه (فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله) يعنى هذه الاوثان وانما وجب تقديم هذا النفى لان العبادة هى غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لاخس الاشياء وهى الحجارة التى لا تنفع من عبدها ولا تضر من تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الاماتة والاحياء وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) والحكمة فى وصف الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام بهذه الصفة ان المراد ان الذى يستحق العبادة فأعبده انا وأنتم هو الذى خلقكم أولا ولم تكونوا شيأ ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقى وقيل لما كان الموت أشد الاشياء على النفس ذكر فى هذا المقام ليكون اقوى فى الزجر والردع وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم

شئ (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى بان أكون يعنى ان الله أمرنى بذلك بمبارك فى من العقل وبما أوحى الى فى كتابه (وأن أقم وجهك للدين) أى وأوحى الى أن أقم ليشا كل قوله أمرت أى استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم اليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا (حنيفا) حال من الدين أو الوجه (ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) ان دعوته (ولا يضرك) ان خذلته (فان فعلت) فان دعوت من دون الله مالا ينفعك

ولا يضرك فكنى عنه بالفعل ايجازا (فانك اذا من الظالمين) اذ اجزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كان سائلا سأل عن تبعة عبادة الاوثان وجعل من الظالمين لانه لا ظلم أعظم من الشرك (وان يمسسك الله بضر) يصيبك (بضر) مرض (فلا كاشف له) لذلك الضر (الا هو) الا الله (وان يردك بخير) عافية (فلا راد لفضله) فلا راد لمراده (يصيب به) بالخير (من يشاء من عباده) قطع بهذه الآية على عباده طريق لرغبة والرهبة الا اليه والاعتماد الا عليه (وهو الغفور) المكفر بالبلاء (الرحيم) المعافى بالعطاء أتبع النهى عن عبادة الاوثان ووصفها بانها لا تنفع ولا تضر ان الله هو الضار النافع الذى ان أصابك بضر لم يقدر على كشفه الا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذى لا شعور به وكذا ان أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والاحسان فكيف بالاوثان وهو الحقيق اذا بان توجه اليه العبادة دونها وهو

ونصرنى عليكم (وأمرت أن أكون من المؤمنين) يعنى وأمرنى ربى أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح اتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الواو فى قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهى يعنى أقم نفسك على دين الاسلام حنيفا يعنى مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفى وقيل أراد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته الى طلب الدين الحنيفى غير مائل عنه (ولا تكونن من المشركين) يعنى ولا تكونن ممن يشرك فى عبادة ربه غيره فيهلك وقيل ان النهى عن عبادة الاوثان قد تقدم فى الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهى على معنى زائد وهو ان من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وانه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغى له أن يلتفت الى غيره بالكلية وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) يعنى ان عبدته ودعوته (ولا يضرك) يعنى ان تركت عبادته (فان فعلت) يعنى ما نهيتك عنه فعبدت غيرى أو طلبت النفع ودفع الضر من غيرى (فانك اذا من الظالمين) يعنى لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها وهذا الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيأ البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الانسان من دون الله مالا ينفعك الآية قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعنى وان يصبك الله بشدة وبلاء (فلا كاشف له) يعنى لذلك الضر الذى أنزله بك (الا هو) يعنى لا غيره (وان يردك بخير) يعنى بسعة ورخاء (فلا راد لفضله) يعنى فلا دافع لرزقه (يصيب به) يعنى بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده) قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر الاوثان وبين انها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى انه هو القادر على ذلك كله وان جميع الكائنات محتاجة اليه وجميع الممكنات مستندة اليه لانه هو القادر على كل شئ وانه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله (وهو الغفور الرحيم) وفى الآية لطيفة أخرى وهى ان الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك انه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها الان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعنى ان جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على رده لانه هو الذى يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعنى الساتر لذنوب

أبلغ من قوله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته وانما ذكر المس فى أحدهما والارادة فى الآخر كانه أراد أن يذكر الامرين الارادة والاصابة فى كل واحد من الضر والخير وانه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فاوجز الكلام بان ذكر المس وهو الاصابة فى أحدهما والارادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على انه قد ذكر الاصابة بالخير فى قوله يصيب به من يشاء من عباده

عباده الرحيم يعني بهم قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعني القرآن والاسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله عز وجل (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه) لان نفع ذلك يرجع اليه (ومن ضل فانما يضل عليها) أي على نفسه لان وباله راجع اليه فمن حكم الله له بالاهتداء في الازل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشئ أبدا (وما أنا عليكم بوكيل) يعني وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف (واتبع ما يوحى اليك) يعني الامر الذي يوحيه الله اليك يا محمد (واصبر) يعني على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك (حتى يحكم الله) يعني ينصرك عليهم باظهار دينك (وهو خير الحاكمين) يعني انه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه واظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام)

وهي مكية في قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفي رواية عن ابن عباس انها مكية غير آية وهي قوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هي مكية الا قوله سبحانه وتعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى ان الحسنات يذهبن السيآت وهي مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا عن ابن عباس قال قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وفي رواية غيره قال قلت يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية قال بعض العلماء سبب شيبه صلى الله عليه وسلم من هذه السور المذكورة في الحديث لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر كتاب أحكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع (ثم فصلت) يعني بينت وقال الحسن أحكمت آياته بالامر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس قال أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالامر والنهي وقال قتادة أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظما رصينا محكما بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل ان آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الاحكام والمواعظ والقصص والاخبار عن المغيبات وقال مجاهد فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي

(قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (قد جاءكم الحق) القرآن أو الرسول (من ربكم فمن اهتدى) اختار الهدى واتبع الحق (فانما يهتدي لنفسه) فانه نفع باختياره لا نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) ومن آثر الضلال فاضر لا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم انما أنا بشير ونذير (واتبع ما يوحى اليك واصبر) على تكذيبهم وايذائهم (حتى يحكم الله) لك بالنصرة عليهم والغلبة (وهو خير الحاكمين) لانه المطلع على السرائر فلا يحتاج الى بينة وشهود

(سورة هود عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب) أي هذا كتاب فهو خبر مبتدا محذوف (أحكمت آياته) صفة له أي نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم (ثم فصلت) كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والاحكام والمواعظ والقصص أو جعلت فصولا سورة سورة وآية آية أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة أو فصل فيها ما يحتاج اليه العباد أي بين وخص وليس معنى ثم التراخي في الوقت ولكن في الحال

محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فان قلت كيف عم الآيات هنا بالاحكام وخص بعضها فى قوله منه آيات محكمات قلت ان الاحكام الذى عم به هنا غير الذى خص به هناك فعنى الاحكام العام هنا انه لا يتطرق الى آياته التناقض والفساد كاحكام البناء فان هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالاحكام الخاص المذكور فى قوله منه آيات محكمات ان بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضا لم ينسخها غيره وقيل احكمت آياته اى معظم آياته محكمة وان كان قد دخل النسخ على البعض فاجرى الكل على البعض لان الحكم للغالب واجراء الكل على البعض مستعمل فى كلامهم تقول أكلت طعام زيد وانما أكلت بعضه وقوله تعالى (من لدن حكيم) يعنى احكمت آيات الكتاب من عند حكيم فى جميع افعاله (خبير) يعنى بأحوال عباده وما يصلحهم (الا تعبدوا الا الله) هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الانداد والاصنام وما كانوا يعبدون والرجوع الى الله تعالى والى عبادته والدخول فى دين الاسلام (انني لكم منه) أى قل لهم يا محمد انني لكم من عند الله (نذير) ينذركم عقابه ان ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه (وبشير) يعنى وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) اختلفوا فى بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا اليه لان الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية الى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا اليه فى المستقبل وقال الفراء ثم هنا بمعنى الواو لان الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد (يمتعكم متاعا حسنا) يعنى انكم اذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به فى أمن وسعة وخير قال بعضهم المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور (الى أجل مسمى) يعنى يمتعكم متاعا حسنا الى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم فان قلت قد ورد فى الحديث ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقد يضيق على الرجل فى بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى قلت أما قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن فهو بالنسبة الى ما اعد الله له فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فانه فى سجن فى الدنيا حتى يفضى الى ذلك المعد له واما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة الى ما اعد الله له فى الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذى لا ينقطع فهو فى الدنيا فى جنة حتى يفضى الى ما اعد الله له فى الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن فى بعض الاوقات فانما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن فى جميع أحواله فى عيشة حسنة لانه راض عن الله فى جميع أحواله وقوله سبحانه وتعالى (ويؤت كل ذى فضل فضله)

(من لدن حكيم خبير) صفة أخرى لكتاب أو خبر بعد خبر او صلة لاحكمت وفصلت اى من عنده احكامها وتفصيلها (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له اى لئلا تعبدوا او ان مفسرة لان فى تفصيل الآيات معنى القول كانه قيل قال لا تعبدوا الا الله او أمركم ان لا تعبدوا الا الله (انني لكم منه نذير وبشير) أى من الله (وان استغفروا ربكم) أى أمركم بالتوحيد والاستغفار (ثم توبوا اليه) أى استغفروه من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة (يمتعكم متاعا حسنا) بطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة (الى أجل مسمى) الى ان يتوفاكم (ويؤت كل ذى فضل فضله) ويعط فى الآخرة كل من كان له فضل فى العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا ينقص

أى ويعط كل ذى عمل صالح فى الدنيا اجره وثوابه فى الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت حسناته ودرجاته فى الجنة لان الدرجات تكون على قدر الاعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيآته كان من أهل الأعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده اعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله فى المستقبل لطاعته (وان تولوا) يعنى وان اعرضوا عما جئتهم به من الهدى (فانى أخاف عليكم) أى فقل لهم يا محمد انى اخاف عليكم (عذاب يوم كبير) يعنى عذاب النار فى الآخرة (الى الله مرجعكم) (يعنى فى الآخرة فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسىء على اساءته (وهو على كل شئ قدير) يعنى من ايصال الرزق اليكم فى الدنيا وثوابكم وعقابكم فى الآخرة قوله سبحانه وتعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت فى الاخنس ابن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره فنزلت ألا انهم يثنون صدورهم يعنى يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب اذا طويته وقال عبد الله بن شداد ابن الهاد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عز وجل ان استطاعوا (ألا حين يستغشون ثيابهم) يعنى يغطون رؤسهم بثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور) ومعنى الآية على ما قاله الازهرى ان الذين اضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم فى كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخارى فى افراده عن محمد بن عباس ابن جعفر المخزومى انه سمع ابن عباس قرأ الا انهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان اناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء وان يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم وقوله سبحانه وتعالى (وما من دابة فى الارض) الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض وأطلق لفظة الدابة على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوانات (الا على الله رزقها) يعنى هو المتكفل برزقها وصلاحه لا على سبيل الوجوب فهو الى مشيئته ان شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى من أى من الله رزقها

منه شيأ (وان تولوا) وان تتولوا (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة (الى الله مرجعكم) رجوعكم (وهو على كل شئ قدير) فكان قادرا على اعادتكم (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق، و ينحرفون عنه لان من أقبل على الشئ استقبله بصدره ومن أزور عنه وانحرف ثنى عنه صدره طوى عنه كشحه (ليستخفوا منه) ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على اذوارهم (ألا حين يستغشون ثيابهم) يتغطون بها أى يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى لا تفاوت فى علمه بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده قيل نزلت فى المنافقين (انه عليم بذات الصدور) بما فيها (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) تفضيلا لا وجوبا

وقال مجاهد ما جاء هامن رزق فمن الله ورب عالم يرزقها فتموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى اليه فى ليل أو نهار ومستودعها المكان الذى تدفن فيه بعد الموت وقال ابن مسعود مستقرها أرحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقيل المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر (كل فى كتاب مبين) أى كل ذلك مثبت فى اللوح المحفوظ قبل خلقها قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) يعنى قبل خلق السموات والارض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم تعدد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ضمرة ان الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ماخلق وماهو خالق وماهو كائن من خلقه الى يوم القيامة ثم ان ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شأ من خلقه وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء على أى شئ كان الماء قال على متن الريح وقال وهب ابن منبه ان العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والارض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات فى يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الارض منها ثم خلق الاقوات فى يومين والسموات فى يومين والارض فى يومين ثم فرغ آخر الخلق فى اليوم السابع قال بعض العلماء وفى خلق جميع الاشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لان البناء الضعيف اذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والارض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران ابن حصين قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب فأتى ناس من بنى تميم فقال اقبلوا البشرى يابنى تميم فقالوا بشرتنا فأعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يارسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الامر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شئ قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وكتب فى الذكر كل شئ ثم أتانى رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فاذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت انها ذهبت ولم أقم عن أبى رزين العقيلى قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل ان يخلق خلقه قال كان فى عماء ماتحته هواء وماتحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذى وقال قال أحمد يريد بالعماء انه ليس معه شئ قال أبو بكر البيهقى فى كتاب الاسماء والصفات له قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شئ قبله يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله وكان عرشه على الماء يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب فى الذكر كل شئ وقوله فى عماء وجدته فى كتاب عماء مقيدا بالمد فان كان فى الاصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله فى عماء أى فوق سحاب مدبرا له وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى أأمنتم من

(ويعلم مستقرها) مكانها من الارض ومسكنها (ومستودعها) حيث كانت مودعة قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة (كل فى كتاب مبين) كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها فى اللوح يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين (وهو الذى خلق السموات والارض) وما بينهما (فى ستة أيام) من الاحد الى الجمعة تعليما للتأنى (وكان عرشه على الماء) أى فوقه يعنى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والارض الا الماء وفيه دليل على ان العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والارض قيل بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحا فاقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لاهل الافكار

(ليبلوكم) أي خلق السموات والارض وما بينهما للممتحن فيهما ولم يخلق هذه الاشياء لانفسها (أيكم أحسن عملا) أكثر شكرا وعنه عليه السلام أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فمن شكر وأطاع اثابه ومن كفر وعصى عاقبه ولما أشبه ذلك اختبارا لمختبر قال ليبلوكم أي ليفعل بكم ما يفعل المبتلي لاحوالكم كيف تعملون (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) أشار بهذا الى القرآن لان القرآن هو الناطق بالبعث فاذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته انكار ما فيه من البعث وغيره ساحر حمزة وعلي يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل (ولئن أخرنا عنهم العذاب) عذاب الآخرة أو عذاب يوم بدر (الى أمة) الى جماعة من الاوقات (معدودة) معلومة أو قلائل والمعنى الى حين معلوم (ليقولن ما يحبسه) ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء (ألا يوم يأتيهم) العذاب (ليس) العذاب (مصروفا عنهم) ويوم منصوب بمصروفا أي ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم (وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) العذاب الذي كانوا به يستعجلون وانما وضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان على وجه الاستهزاء (ولئن أذقنا الانسان) هو للجنس (منا رحمة) نعمة من صحة وسعة ومن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم (ثم نزعناها منه) ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم (انه ليؤس) شديد اليأس من ان يعود اليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه (كفور) عظيم الكفران

في السماء يعني من فوق السماء وقال تعالى لأصلبنكم في جذوع النخل يعني على جذوعها وقوله ما فوقه هواء أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله وما تحته هواء أي ما تحت السحاب هواء وقد قيل ان ذلك العمى مقصور والعمى اذا كان مقصورا فمعناه لا شيء ثابت لانه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال في جوابه كان قبل ان يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أي ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لان ذلك اذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروي صاحب الغريبين قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء هذا آخر كلام البيهقي وقال ابن الاثير العماء في اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولا بد في الحديث من حذف مضاف تقديره اين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى وكان عرشه على الماء وحكى عن بعضهم في العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن وقال الازهري قال أبو عبيد انما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم والا فلا ندري كيف كان ذلك العماء قال الازهري فنحن نؤمن به ولا نكلف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفي رواية فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل ان يخلق السموات والارض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة قوله فرغ يريد اتمام خلق المقادير لانه كان مشغولا ففرغ منه لان الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وقوله سبحانه وتعالى (ليبلوكم) يعني ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) يعني بطاعة الله وأورع عن محارم الله (ولئن قلت) يعني ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) يعني للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعنون القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة) يعني الى أجل محدود وأصل الامة في اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى الى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) يعني أي شيء يحبس العذاب وانما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون انه ليس بشيء قال الله عز وجل (الا يوم يأتيهم) يعني العذاب (ليس مصروفا عنهم) أي لا يصرفه عنهم شيء (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) يعني ونزل بهم وبال استهزائهم قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) يعني رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا (ثم نزعناها منه) يعني سلبناه ذلك كله واصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به (انه ليؤس كفور) يعني يئوس من رحمة الله آيسا من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولا قليل الشكر

لربه قال بعضهم يا ابن آدم اذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فان نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فانه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) يعني ولئن نحن أنعمنا على الانسان وبسطنا عليه من العيش (ليقولن) يعني الذي أصابه الخير والسعة (ذهب السيآت عني) يعني ذهب الشدائد والعسر والضيق وانما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجراءة عليه لانه لم يضف الاشياء كلها الى الله وانما أضافها الى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال (انه لفرح فخور) اى انه أشر بطر والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهي عنه ثم استثنى فقال تبارك وتعالى (الا الذين صبروا وعملوا الصالحات) قال الفراء هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فانهم ليسوا كذلك فانهم ان نالتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا عليها (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعني لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة قوله عز وجل (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى اليك ربك ان تبلغه الى من أمرك ان تبلغ ذلك اليه (وضائق به صدرك) يعني ويضيق صدرك بما يوحى اليك فلا تبلغه اياهم وذلك ان كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يترك ذكر آلهتهم ظاهرا فانزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية واجمع المسلمون على انه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فانه معصوم فيه من الاخبار عن شئ منه بخلاف ما هو به لا خطأ ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وانه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل الله عليه الى أمته ولم يكتم منه شيأ وأجمعوا على انه لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيانة في الوحي والانذار ولا يترك بعض ما أوحي اليه لقول أحد لان تجويز ذلك يؤدي الى الشك في اداء الشرائع والتكاليف لان المقصود من ارسال الرسول التبليغ الى من أرسل اليه فاذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله واذا ثبت هذا وجب ان يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك شيأ آخر وى ما ذكره المفسرون وللعلماء في ذلك أجوبة أحدها قال ابن الانباري قد علم الله سبحانه وتعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ مما يوحى اليه اشفاقا من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسوله صلى الله عليه وسلم في متابعة الابلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية الثاني ان هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريضه على اداء ما أنزله اليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه الثالث ان الكفار كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وان يلقى اليهم ما لا يقبلونه ويستهزؤن به فامره الله سبحانه

لما سلف له من التقلب في نعمة الله تعالى عليه (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله (ليقولن ذهب السيآت عني) أي المصائب التي ساءتني (انه لفرح) أشر بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر (الا الذين صبروا) في المحنة والبلاء (وعملوا الصالحات) وشكروا في النعمة والرخاء (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشادا لانهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وكانوا لا يعتدون بالقرآن و يتهاونون به فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى اليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) أي لعلك تترك أن تلقيه اليهم وتبلغه اياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به (وضائق به صدرك) بان تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على انه ضيق عارض غير ثابت لانه عليه السلام كان أفسح الناس صدرا ولانه أشكل بتارك

وتعالى بتبليغ ما أوحى اليه وان لا يلتفت الى استهزائهم وأن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شئ من الوحى والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم ان كل واحد من طرفى الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر فى باب الترك أعظم سهل عليه الاقدام على الفعل وقيل ان الله سبحانه وتعالى مع علمه بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ من الوحى هيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم الى قبول قوله بقوله فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أى لعلك تترك ان تلقيه اليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أى بان تتلوه عليهم (ان يقولوا) يعنى مخافة ان يقولوا (لولا انزل عليه كنز) يعنى يستغنى به وينفقه (أو جاء معه ملك) يعنى يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبى أمية المخزومى والمعنى انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فى قولك بانك رسول الله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وأنت عزيز عنده مع انك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغنى به أنت وأصحابك وهلا أنزل عليك ملكا يشهد لك بالرسالة فنزول الشبهة فى أمرك فاخبر الله عزوجل انه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عزوجل (انما أنت نذير) تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك (والله على كل شئ وكيل) يعنى انه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعنى بل يقول كفار مكة اختلقه يعنى ما أوحى اليه من القرآن (قل) أى قل لهم يا محمد (فاتوا بعشر سور مثله مفتريات) لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال صلى الله عليه وسلم هبوا انى اختلقته من عند نفسى ولم يوح الى شئ وان الامر كما قلتم وأنتم عرب مثلى من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فاتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذى جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فانكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى فاتوا بعشر سور مثله مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه فان قلت قد تحداهم بان يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قال فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز قلت قد قال بعضهم ان سورة هود نزلت قبل سورة يونس وانه تحداهم أولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال ان سورة يونس نزلت أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فاتوا بسورة مثله يعنى مثله فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد وقوله فى سورة هود فاتوا بعشر سور مثله يعنى فى مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بان يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) اعلم انه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين أحدهما أمر وخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل

(أن يقولوا) مخافة أن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) هلا أنزل عليه ما اقترحناه من الكنز لننفقه والملائكة لنصدقه ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه (انما أنت نذير) أى ليس عليك الا أن تنذرهم بما أوحى اليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك ان ردوا أو قبلوا (والله على كل شئ وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل فتوكل عليه وكل أمرك اليه وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت الى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم (أم يقولون) أم منقطعة (افتراه) الضمير لما يوحى اليك (قل فاتوا بعشر سور) تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخابر فى الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما اكتب فاذا تبين له العجز عن ذلك قال قد اقتصرت منك على سطر واحد (مثله) فى الحسن والجزالة ومعنى مثله امثاله ذهابا الى مماثلة كل واحدة منها له (مفتريات) صفة لعشر سور لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله أرخى معهم العنان وقال هبوا انى اختلقته من عند نفسى فاتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فانتم عرب فصحاء مثلى (وادعوا من استطعتم) الى المعاونة على المعارضة (ان كنتم صادقين) إنه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم)

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو) أى أنزل ملتبسا بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز للخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه وأعلموا عند ذلك ان لا اله الا الله وحده وان توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم وانما جمع الخطاب بعد افراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله قل لان الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يحدثونهم أولان الخطاب للمشركين والضمير فى وان لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا انما أنزل بعلم الله أى باذنه أو بامره (فهل أنتم مسلمون) متبعون للاسلام بعد هذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا على انه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق وهم الكفار أو المنافقون (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) وحبط فى الآخرة ما صنعوه أو صنعهم أى لم يكن لهم ثواب لانهم لم يريدوا به الآخرة انما أرادوا به الدنيا وقد وفى اليهم ما أرادوا (و باطل ما كانوا يعملون) أى كان عملهم فى نفسه باطلا لانه لم يعمل لغرض صحيح

فأتوا بعشر سور مثله مفتريات والثانى أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل ان يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار فى المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون فى معنى الآية على قولين أحدهما انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فما دعوتموهم اليه من المعارضة وعجزوا عنه (فاعلموا انما أنزل بعلم الله) يعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لانهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند الله وقيل الخطاب فى قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبى صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثانى ان قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك انه سبحانه وتعالى لما قال فى الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل فى هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأنه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وأن لا اله الا هو) يعنى الذى أنزل القرآن هو الله الذى لا اله الا هو لا من تدعون من دونه (فهل أنتم مسلمون) فيه معنى الامر أى أسلموا وأخلصوا لله العبادة وان حملنا معنى الآية على انه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أى دوموا على ما أنتم عليه من الاسلام قوله عز وجل (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البر نزلت فى كل من عمل عملا يبتغى به غير الله عز وجل (نوف اليهم أعمالهم فيها) يعنى أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم فى الرزق ويدفع عنهم المكاره فى الدنيا ونحو ذلك (وهم فيها لا يبخسون) يعنى انهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) يعنى و بطل ما عملوا فى الدنيا من أعمال البر (و باطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله واختلف المفسرون فى المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس انها فى اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقال الضحاك من عمل عملا صالحا فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك أعطى على ذلك أجرا فى الدنيا وهو أن يصل رحما أو يعطى سائلا أو يرحم مضطرا ونحو هذا من أعمال البر فيعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا يوسع عليه فى المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره فى الدنيا وليس له فى الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار الآية وهذه حالة الكافر فى الآخرة وقيل نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لانهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل ان حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر

والمنافق الذى هذه صفته والمؤمن الذى يأتى بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد فى هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لان قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه أخرجه مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعنى ريحها أخرجه أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤن باعمالهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال البغوى وروينا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء أخرجه بغير سند والرياء هو أن يتظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذى لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوى وقيل هذا فى الكفار يعنى قوله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها اما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وروينا عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا أخرجه البغوى بغير سند قوله سبحانه وتعالى (أفمن كان على بينة من ربه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر فى هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أى لكن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار وانما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كمن هو فى ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذى أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالبينة اليقين يعنى انه على يقين من ربه انه على الحق (ويتلوه شاهد منه) يعنى ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا فى الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وابراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين انه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبى صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبى صلى الله عليه وسلم وروى عن محمد بن الحنفية قال قلت لابى يعنى على بن

والعمل الباطل لا ثواب له (أفمن كان على بينة من ربه) أفمن كان يريد الحياة الدنيا لكن كان على بينة من ربه أى لا يعتبونهم فى المنزلة ولا يتاربونهم يعنى ان بين الفريقين تباينا بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أى على برهان من الله وبيان ان دين الاسلام حق وهو دليل العقل (ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد) يشهد بحقيته وهو القرآن (منه) من الله أو من

ابى طالب رضى الله تعالى عنه انت التالى قال وما تعنى بالتالى قلت قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت انى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان اللسان لما كان يعرب عما فى الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لان اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم ويسدده وقال الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن لان اعجازه وبلاغته وحسن نظمه يشهد للنبى صلى الله عليه وسلم بنبوته ولانه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر وقال الحسين بن على وابن زيد الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان من نظر الى النبى صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال على بن أبى طالب ما من رجل من قريش الا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أى آية نزلت فيك فقال على ما تقرأ الآية التى فى هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد على بن أبى طالب وقوله منه يعنى من النبى صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف هذا الشاهد وهو على لاتصاله بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعنى الانجيل وهو اختيار الفراء والمعنى ان الانجيل يتلو القرآن فى التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والامر بالايمان به وان كان قد نزل قبل القرآن وقوله سبحانه وتعالى (ومن قبله) يعنى ومن قبل نزول القرآن وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (كتاب موسى) يعنى التوراة (اماما ورحمة) يعنى انه كان اماما لهم يرجعون اليه فى أمور الدين والاحكام والشرائع وكونه رحمة لانه الهادى من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة وقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يعنى ان الذين وصفهم الله بانهم على بينة من ربهم هم المشار اليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد الذين اسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن يكفر به) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم (من الاحزاب) يعنى من جميع الكفار وأصحاب الاديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وغيرهم والاحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الانبياء (فالنار موعده) يعنى فى الآخرة روى البغوى بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الامة ولا يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى ارسلت به الا كان من اصحاب النار قال سعيد بن جبير ما بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت وصداقه فى كتاب الله عز وجل حتى بلغنى هذا الحديث لا يسمع بى أحد من هذه الامة الحديث قال سعيد فقلت أين هذا فى كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ومن قبله كتاب موسى الى قوله سبحانه وتعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال فالاحزاب أهل الملل كلها ثم قال سبحانه وتعالى (فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك) فيه قولان أحدهما أن معناه فلا تك فى شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله من قوله تعالى أم يقولون افتراه

القرآن فقد مر ذكره آنفا (ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة أى ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام (اماما) كتابا مؤتما به فى الدين قدوة فيه (ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل عليهم اليهم وهما حالان (أولئك) أى من كان على بينة (يؤمنون به) بالقرآن (ومن يكفر به) بالقرآن (من الاحزاب) يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) مصيره ومورده (فلا تك فى مرية) شك (منه) من القرآن أو من الموعد (انه الحق من ربك)

ولكن أكثر الناس لا يؤمنون
ومن أظلم ممن افترى على الله
كذبا أولئك يعرضون على
ربهم) يحبسون في الموقف
وتعرض أعمالهم (ويقول
الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على
ربهم) ويشهد عليهم الاشهاد
من الملائكة والنبيين بانهم
الكذابون على الله بانه اتخذ
ولدا وشريكا (ألا لعنة الله على
الظالمين) الكاذبين على ربهم
والاشهاد جمع شاهد كاصحاب
وصاحب أو شهيد كشريف
واشراف (الذين يصدون عن
سبيل الله) يصرفون الناس عن
دينه (ويبغونها عوجا) يصفونها
بالاعوجاج وهي مستقيمة
او يبغون أهلها ان يعوجوا
بالارتداد (وهم بالآخرة هم
كافرون) هم الثانية لتأكيد
كفرهم بالآخرة واختصاصهم
به (أولئك لم يكونوا) أي ما كانوا
(معجزين في الارض) بمعجزين
الله في الدنيا ان يعاقبهم لو أراد
عقابهم (وما كان لهم من دون
الله من أولياء) من يتولاهم
فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه
ولكنه أراد انظارهم وتاخير
عقابهم الى هذا اليوم وهو من
كلام الاشهاد (يضاعف لهم
العذاب) لانهم أضلوا الناس
عن دين الله يضعف مكي وشامي
(ما كانوا يستطيعون السمع)
أي استماع الحق (وما كانوا
يبصرون) الحق

والقول الثاني انه راجع الى قوله ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده يعني فلا تك
في شك من أن النار موعد من كفر من الاحزاب والخطاب في قوله فلا تك في مرية للنبي
صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا
القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعني
لا يصدقون بما أوحينا اليك أو من أن موعد الكفار النار قوله عز وجل (ومن أظلم ممن
افترى على الله كذبا) يعني أي الناس أشد تعديا ممن اختلق على الله كذبا فكذب عليه
وزعم أن له شريكا أو ولدا وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع
الظلم لان قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ورد في معرض المبالغة (أولئك)
يعني المفترين على الله الكذب (يعرضون على ربهم) يعني يوم القيامة فيسألهم عن
أعمالهم في الدنيا (ويقول الاشهاد) يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم قاله
مجاهد وقال ابن عباس هم الانبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة الاشهاد الخلق
كلهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) يعني في الدنيا وهذه الفضيحة تكون في الآخرة
لكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) يعني يقول الله ذلك يوم القيامة
فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازني قال بينما ابن عمر يطوف
بالبيت اذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن اخبرني ما سمعت من رسول الله صلى الله
عليه وسلم في النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من
ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف
رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب
حسناته وفي رواية ثم تطوى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد
وفي رواية فينادي بهم على رؤوس الاشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم
الا لعنة الله على الظالمين قوله سبحانه وتعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) هذه الآية
متصلة بما قبلها والمعنى الا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن
سبيل الله يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله الذي هو دين الاسلام (ويبغونها
عوجا) يعني ويطلبون الفاء الشبهات في قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة
دين الاسلام (وهم بالآخرة هم كافرون) يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون
البعث بعد الموت وينكرونه (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لم يكونوا معجزين في
الارض) قال ابن عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الارض والمعنى انهم
لا يعجزون الله اذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم بل كلهم في قبضته وملكه
لا يقدرون على الامتناع منه اذا طلبهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يعني وما
كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله اذا أراد بهم سوأ أو عذابا
(يضاعف لهم العذاب) يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله
وانكارهم البعث بعد الموت (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) قال
قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولا يبصرون خيرا فيأخذون

به وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى انه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة اما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهو طاعته وما كانوا يبصرون واما في الآخرة فانه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم (أولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني ان هؤلاء الذين هذه صفتهم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني وبطل كذبهم وافكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم ان الملائكة والاصنام تشفع لهم (لاجرم) يعني حقا وقال الفراء لا محالة (أنهم في الآخرة هم الاخسرون) لانهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت اخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عز وجل يعني ان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فاذا فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام انهم يأتون بالاعمال الصالحة مطمئنين الى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الاعمال أو يكونون مطمئنين الى ذكره سبحانه وتعالى واذا فسرنا الاخبات بالخشوع والخضوع كان معناه انهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع (أولئك) يعني الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أخبر عن حالهم في الآخرة بانهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال قوله سبحانه وتعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالاعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والاصم وهو الذي لا يسمع شيأ البتة والبصير وهو الذي يبصر الاشياء على ماهيتها والسميع وهو الذي يسمع الاصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه (هل يستويان مثلا) قال الفراء لم يقل هل يستوون لان الاعمى والاصم في حيز كانهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع في حيز كانهما واحد وهما من وصف المؤمن (أفلا تذكرون) يعني فتتعظون قوله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين) يعني أن نوحا عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله اليهم اني لكم أيها القوم نذير مبين يعني

الله (وضل عنهم) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو (ما كانوا يفترون) من الآلهة وشفاعتها (لاجرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) بالاصد والصدود وفي لاجرم أقوال أحدها ان لا رد لكلام سابق أي ليس الامر كما زعموا ومعنى جرم كسب وفاعله مضمر وأنهم في الآخرة في محل النصب والتقدير كسب قولهم خسرانهم في الآخرة وثانيها ان لاجرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقا وأن في موضع رفع بانه فاعل لحق أي حق خسرانهم وثالثها أن معناه لا محالة (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) واطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الارض المطمئنة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) شبه فريق الكافرين بالاعمى والاصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع (هل يستويان) يعني الفريقين (مثلا) تشبيها وهو نصب على التمييز (أفلا تذكرون) فتنتفعون بضرب المثل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين) أي باني والمعنى أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله اني لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كان والمعنى على الكسر وبكسر الالف شامي ونافع وعاصم وحمزة على اراة القول

(أن لا تعبدوا الا الله) أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير (اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وصف اليوم بأليم من الاسناد المجازي لوقوع الالم فيه (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يريد الاشراف لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة (ما نراك الا بشرا مثلنا) أرادوا انه كان ينبغي ان يكون ملكا أو ملكا (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) اخساؤنا جمع الارذل ٤٤٢ (بادي) وبالهمزة أبو عمرو (الرأي) و بغيرهمز ابو عمرو أي اتبعوك

بين النذارة تخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره وهو قوله سبحانه وتعالى (أن لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) يعني مؤلم وجميع قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة وليث بعده وقومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يعني الاشراف والرؤساء من قوم نوح (ما نراك) يا نوح (الا بشرا مثلنا) يعني آدميا مثلنا الافضل لك علينا لان التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتماله الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدعوة الى الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك و يظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يتأتى ذلك الا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله الى عباده ثم قال سبحانه وتعالى اخبارا عن قوم نوح (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) يعني سفلتنا والرذل الدون من كل شئ قيل هم الحاكة والاساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا ان الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الحاملين وهم اتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم في الدين (بادي الرأي) يعني انهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك ولو تفكروا لما اتبعوك وقيل معناه ظاهر الرأي يعني انهم اتبعوك ظاهرا من غير أن يتفكروا باطنا (وما نرى لكم علينا من فضل) يعني بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة (بل نظنكم كاذبين) قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم (قال) يعني نوحا (يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي) يعني على بيان ويقين من ربي بالذي انذرتكم به (وآتاني رحمة من عنده) يعني هديا ومعرفة ونبوة (فعميت عليكم) يعني خفيت والبست عليكم (أنلزمكموها) الهاء عائدة على الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعني انا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا (وأنتم لها كارهون) وهذا استفهام معناه الانكار أي لا أقدر على ذلك والذي

ظاهر الرأي أو أول الرأي من بدا يبدو اذا ظهر أو بدأ يبدأ اذا فعل الشئ أولا وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف اليه مقامه أرادوا ان اتباعهم لك شئ عن لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك وانما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الاسباب الدنيوية لانهم كانوا جهالا كما كانوا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الاشراف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالاسلام يعتقدون ذلك و يبنون عليه اكرامهم واهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحدا من الله وانما يبعده ولا يرفعه بل يضعه (وما نرى لكم علينا من فضل) في مال ورأى عنوا نوحا وأتباعه (بل نظنكم كاذبين) أي نوحا في الدعوة ومتبعيه في الاجابة والتصديق يعني تواطأتم على الدعوة والاجابة تسببا للرياسة (قال يا قوم أرأيتم) أخبروني (ان كنت على بينة) برهان (من ربي) وشاهد منه يشهد لصحة دعواي (وآتاني رحمة من عنده) يعني النبوة (فعميت عليكم) اي خفيت اقدر

فعميت حمزة وعلي وحفص اي اخفيت اي فعميت عليكم البينة فلم تهتدوا كما لا يعمى على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته ان الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره (أنلزمكموها) اي الرحمة (وأنتم لها كارهون) لا تريدونها والواو دخلت هنا تتمة للميم وعن أبي عمرو اسكان الميم ووجهه ان الحركة لم تكن

الاخلسة خفيفة فظنها الراوى سكونا وهو لحن لان الحركة الاعرابية لا يسوغ طرحها الا فى ضرورة الشعر (وياقوم لا اسئلكم عليه) على تبليغ الرسالة لانه مدلول قوله انى لكم نذير (مالا) أجرا يثقل عليكم ان اديتم أو على ان أبيتم (ان اجرى) أقدر عليه ان أدعوكم الى الله وليس لى أن اضطركم الى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك (و ياقوم لا أسئلكم عليه مالا) يعنى لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا (ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) وذلك انهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك لانهم يعتقدون (انهم ملاقوا ربهم) فلا طردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) يعنى عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه انكم تجهلون ان هؤلاء المؤمنين خير منكم (و ياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم) يعنى من يمنعنى من عذاب الله ان طردتهم عنى لانهم مؤمنون مخلصون (أفلا تذكرون) يعنى فتتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) هذا عطف على قوله لا أسئلكم عليه مالا والمعنى لا أسألكم عليه مالا ولا أقول لكم عندى خزائن الله يعنى التى لا يفنيها شئ فادعوكم الى اتباعى عليها لأعطيكم منها وقال ابن الانبارى الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق وانما وجب أن يكون هذا جوابا من نوح عليه السلام لهم لانهم قالوا ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وادعوا ان المؤمنين انما اتبعوه فى ظاهر ما يرى منهم وهم فى الحقيقة غير متبعين له فقال مجيبا لهم ولا أقول لكم عندى خزائن الله التى لا يعلم منها ما ينطوى عليه عباده وما يظهرونه الا هو وانما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الاول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله وبين قوله (ولا اعلم الغيب) يعنى ولا ادعى علم ما يغيب عنى مما يسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول ايمانهم فى الظاهر ولا يعلم ما فى ضمائرهم الا الله (ولا أقول انى ملك) وهذا جواب لقولهم مانراك الا بشرا مثلنا أى لا ادعى انى من الملائكة بل أنا بشر مثلكم ادعوكم الى الله وابلغكم ما أرسلت به اليكم

* (فصل) استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء قال لان نوحا عليه السلام قال ولا أقول انى ملك لان الانسان اذا قال انا لا أدعى كذا وكذا لا يحسن الا اذا كان ذلك الشئ أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب ان نوحا عليه السلام انما قال هذه المقالة فى مقابلة قولهم مانراك الا بشرا مثلنا لما كان فى ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر انما يكونون من الملائكة فاعلمهم ان هذا ظن باطل وان الرسل الى البشر انما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى ولا أقول انى ملك ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الانبياء والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) يعنى تحتقرونهم وتستصغر أعينكم يعنى المؤمنين وذلك لما قالوا انهم اراذلنا من الرذالة وهى الخسة (لن يؤتيهم الله خيرا) يعنى توفيقا وهداية وايمانا وأجرا (الله أعلم بما فى أنفسهم) يعنى من الخير والشر (انى اذا لمن الظالمين) يعنى ان طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لايمانهم يعنى انى ان فعلت هذا فاكون قد ظلمتهم وانا لا أفعله فانا من الظالمين

مدنى وشامى وابو عمرو وحفص (الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معه (انهم ملاقوا ربهم) فيشكونى اليه ان طردتهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) تنسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم او انهم خير منكم (وياقوم من ينصرنى من الله) من يمنعنى من انتقامه (ان طردتهم أفلا تذكرون) تتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) فادعى فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلى بقولكم ومانرى لكم علينا من فضل (ولا أعلم الغيب) حتى أطلع على ما فى نفوس اتباعى وضمائر قلوبهم وهو معطوف على عندى خزائن أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول انا أعلم الغيب (ولا أقول انى ملك) حتى تقولوا الى ما أنت الا بشر مثلنا (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فى الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم (الله أعلم بما فى أنفسهم) من صدق الاعتقاد وانما على قبول ظاهر اقرارهم اذ لا أطلع على خفى اسرارهم (انى اذا لمن الظالمين) ان قلت شيأ من ذلك والازدراء افتعال من زرى عليه اذا عابه واصله تزترى فابدلت التاء دالا

(قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) فى وعيدك (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) اى ليس الاتيان بالعذاب الى وانما هو الى من كفرتم به (وما أنتم بمعجزين) اى لم تقدروا على الهرب منه (ولا ينفعكم نصحى) هو اعلام موضع الغى ليتقى والرشد ليتقفى ولكى انى نصحى مدنى وأبو عمرو (ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) أى يضلكم وهذا شرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما فى الحكم لما عرف تقديره ان كان الله يريد ان يغويكم لا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم وهو دليل بين لنافى ارادة المعاصى (هو ربكم) فيتصرف فيكم على قضية ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون افتراه (قل ان افتريته فعلى اجرامى) أى ان صح انى افتريته فعلى عقوبة اجرامى أى افترائى يقال أجرم الرجل اذا أذنب (وأنا برىء) اى ولم يثبت ذلك وأنا برىء منه ومعنى (مما تجرمون) من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم ومعاداتكم (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) اقناط من ايمانهم وانه غير متوقع وفيه دليل على ان للايمان حكم التجدد كانه قال ان الذى آمن يؤمن فى حادث الوقت وعلى ذلك تخرج الزيادة التى ذكرت فى الايمان بالقرآن (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتآس افتعال من البؤس وهو الحزن والفتر والمعنى فلا تحزن بما وقيل فعلوه من تكذيبك وايذائك فقد حان وقت الانتقام من اعدائك (واصنع الفلك باعيننا) هو فى موضع الحال اى

(قالوا يانوح قد جادلتنا) يعنى خاصمتنا (فاكثرت جدالنا) يعنى خصومتنا (فاتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعنى فى دعواك انك رسول من الله الينا (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعنى قال نوح لقومه حين استعجلوه بانزال العذاب ان ذلك ليس الى انما هو الى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء ان أراد انزال العذاب بكم (وما أنتم بمعجزين) يعنى وما انتم بفائتين ان أراد الله نزول العذاب بكم (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم) يعنى ولا ينفعكم انذارى وتحذيرى اياكم عقوبته ونزول العذاب بكم (ان كان الله يريد ان يغويكم) يعنى يضلكم وقيل يهلكم وهذا معنى وليس بتفسير لان الاغواء يؤدى الى الهلاك (هو ربكم) يعنى انه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه (واليه ترجعون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم (أم يقولون افتراه) أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود الى الوحى الذى جاءهم به (قل ان افتريته) أى اختلقته (فعلى اجرامى) أى اثم اجرامى والاجرام اقتراف السيئة وا كتسابها يقال جرم واجرم بمعنى انه اكتسب الذنب وافتعله (وأنا برىء مما تجرمون) يعنى من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على ان هذا من محاورة نوح قومه فهى من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل أم يقولون يعنى المشركين من كفار مكة افتراه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة فى قصة نوح ثم رجع الى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى البلد ويلقونه فى بيت يظنون انه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله وروى ان شيخا منهم جاء متكئا على عصاه ومعه ابنه فقال يا بنى لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت أمكنى من العصا فاخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) يعنى فلا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما كانوا يفعلون) يعنى بسبب كفرهم وافعالهم حينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبد الله بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبسطون نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتى قرن الا كان الخبث من الذى قبله ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا واجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا نوح الى الله عز وجل فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه (واصنع الفلك) يعنى السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع (باعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا

اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا باعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ

وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) يعني بامرنا (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) يعني بالطوفان والمعنى ولا تخاطبني في امهال الكفار فاني قد حكمت باغراقهم وقيل ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل ان جبريل أتى نوحا فقال له ان ربك يأمرك ان تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجارا فقال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى (ويصنع الفلك) يعني كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحا بعمل السفينة أقبل على عملها ولهى عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ القار وكل ما يحتاج اليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون به وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة واعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوي وزعم أهل التوراة أن الله أمره ان يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وان يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله في السماء ثلاثين ذراعا والذراع الى المنكب وان يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى ففعله نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها في السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه في البطن الاعلى وجعل معه ما يحتاج اليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها وروى عن الحسن أنه كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الاول أشهر وهو ان طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك وقال كعب الاحبار عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروى أنها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للانس والطبقة العليا للطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفار فاقبلوا على الروث فاكلوه فلما أفسد الفار في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى اليه ان اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة والقط فاقبلا على الفار فاكلاه قوله سبحانه وتعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه) أي جماعة من قومه (سخروا منه) يعني استهزؤا به وذلك انهم قالوا ان هذا الذي كان يزعم انه نبي قد صار نجارا وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال اصنع بيتا يمشي على الماء فضحكوا منه (قال) يعني نوح لقومه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) يعني ان تستجهلونا في صنعنا فانا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه فان قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام ان تسخروا منا فانا نسخر منكم في صنعته عن الصواب (ووحينا وانا نوحي اليك ونلهمك كيف تصنع عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فاوحى الله اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك (انهم مغرقون) محكوم عليهم بالاغراق وقد قضي به وجف القلم فلا سبيل الى كفه (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يا نوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم) عند رؤية الهلاك (كما تسخرون) منا عند رؤية الفلك روى أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع ألفا ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعا أو ستمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب نوح ومن معه في البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزا بين الرجال والنساء

كما تسخرون قلت انما سمى هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج فى مشاكلة الكلام كما فى قوله سبحانه وتعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى انا نرى عجب بسخريتكم بنا اذا نزل بكم العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (فسوف تعلمون) يعنى فسترون (من يأتيه) يعنى أينا يأتيه نحن أو أنتم (عذاب يخزيه) يعنى يهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يعنى فى الآخرة فالمراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثانى عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذى لا انقطاع له قوله عز وجل (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور) يعنى وعلى والفور الغليان وفارت القدر اذا غلت والتنور فارسى معرب لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء فى القرآن بهذا اللفظ نحو طبوا بما يعرفون وقيل ان لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربى وعجمى وقيل ان لفظ التنور أصله أعجمى فتكلمت به العرب فصار عربيا مثل الديباج ونحوه واختلفوا فى المراد بهذا التنور فقال عكرمة والزهرى هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء قد فار على وجه الارض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الامر العظيم وقال على فار التنور أى طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد والشعبى ان التنور هو الذى يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس ايضا وهذا القول أصح لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة فى اسم الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه فان قلت الالف واللام فى لفظ التنور للعهد وليس هنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الامر والمعنى اذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك قلت لا يبعد ان يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام وقال الحسن كان تنورا من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار الى نوح وقيل له اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت واصحابك واختلفوا فى موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فاخبرته وكان ذلك فى ناحية الكوفة وكان الشعبى يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة قال الشعبى اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس انه كان بالهند قال والفوران الغليان (قلنا احمل فيها) يعنى قلنا لنوح احمل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) الزوجان كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن الآخر كالذكر والانثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا وأنثى فحشر الله سبحانه وتعالى اليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه فى كل جنس منها فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى يده اليسرى فيجعلهما فى السفينة (وأهلك) أى واحمل أهلك وولدك وعيالك (الا من سبق عليه القول) يعنى بالهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان (ومن

(فسوف تعلمون من يأتيه) من فى محل نصب بتعلمون أى فسوف تعلمون الذى يأتيه (عذاب يخزيه) ويعنى به اياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) وينزل عليه (عذاب مقيم) وهو عذاب الآخرة (حتى) هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله ويصنع الفلك أى وكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد وما بينهما من الكلام حال من يصنع أى يصنعها والحال انه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا وقال استئناف على تقدير سؤال سائل أو قال جواب وسخروا بدل من مر أو صفة لملأ (اذا جاء أمرنا) عذابنا (وفار التنور) هو كناية عن اشتداد الامر وصعوبته وقيل معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار الى نوح عليه السلام وقيل التنور وجه الارض (قلنا احمل فيها) فى السفينة (من كل زوجين اثنين) تفسيره فى سورة المؤمنين (وأهلك الا من سبق عليه القول) عطف على اثنين وكذا (ومن

آمن) أي واحمل اهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول انه من أهل النار وما سبق عليه القول بذلك الا لعلم بانه يختار الكفر بتقديره وارادته جل خالق العباد عن ٤٤٧ أن يقع في الكون خلاف ما أراد (وما

آمن) يعني واحمل معك من آمن بك من قومك (وما آمن معه الا قليل) اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الاعمش كانوا سبعة نوح وبنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجالا وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم قال الطبري والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل وما آمن معه الا قليل فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحدد عددا معددا فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار ادخل صدره فتعلق ابليس بذنبه فلم تثقله رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فيهض فلا يستطيع حتى قال له ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما اذا دخلك علي يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله قال لابد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة هكذا نقله البغوي وقال الامام فخر الدين الرازي وأما الذي يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يغرق من الغرق وايضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه قال البغوي وروى عن بعضهم ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا احملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك ان لا تضر احدا ذاكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه في السفينة الا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيأ قوله سبحانه وتعالى (وقال اركبوا فيها) يعني وقال نوح لمن حمل معه اركبوا في السفينة (بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم) يعني بسم الله اجراؤها وارساؤها قال الضحاك كان نوح اذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فتجري وكان اذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فترسو أي تقف وهذا تعليم من الله لعباده انه من أراد أمرا فلا ينبغي له ان يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سببا للنجاح والفلاح في سائر الامور (وهي تجري بهم في موج كالجبال) الموج ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح شبه سبحانه وتعالى

آمن معه الا قليل) قال علية السلام كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وقيل كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجالا ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) بسم الله متصل باركبوا حالا من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله او قائلين بسم الله وقت اجرائها ووقت ارسائها امالان المجرى والمرسى للوقت واما لانهما مصدران كالاجراء والارساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم خفوق النجم ويجوز أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهي مبتدأ وخبر يعني ان نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم اخبرهم بان مجراها ومرساها بذكر اسم الله أي بسم الله اجراؤها وارساؤها وكان اذا أراد ان تجري قال بسم الله فجرت واذا أراد ان ترسو قال بسم الله فرست مجريها بفتح الميم وكسر الراء من جرى اما مصدرا ووقت جزة وعلى وحفص وبضم الميم وكسر الراء أبو عمرو والباقون بضم الميم وفتح الراء (ان ربي لغفور) لمن آمن منهم (رحيم) حيث خلصهم (وهي تجري بهم) متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كانه قيل فركبوا فيها يقولون بسم الله وهي تجري بهم اي السفينة تجري وهم فيها (في موج كالجبال) يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر

وغمرة وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها (ونادى نوح ابنه) كنعان وقيل يام والجمهور على انه ابنه الصلبي وقيل كان ابن امرأته (وكان في معزل) عن أبيه وعن السفينة مفعل من عزله عنه اذا نحاه وأبعده أو في معزل عن دين أبيه (يا بني) بفتح الياء عاصم اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة من قولك يا بنيا غيره بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة (اركب معنا) في السفينة أي أسلم واركب (ولا تكن مع الكافرين قال ساوي) الجأ (الى جبل يعصمني من الماء) يمنعني من الغرق (قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) الا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم من الطوفان الا من رحم الله أي الامكان من رحم الله من المؤمنين وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة أو هو استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله ما لهم به من علم الا اتباع الظن (وحال بينهما الموج) ٤٤٨ بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه (فكان من المغرقين) فصارا أو فكان

في علم الله (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) انشفي وشربي والبلع النشف (ويا سماء أقلعي) امسكي (وغيض الماء) نقص من غاضه اذا نقصه وهو لازم ومتعد (وقضي الامر) وأنجز ما وعد الله نوحا من اهلاك قومه (واستوت) واستقرت السفينة بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر (على الجودي) وهو جبل بالموصل (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أي سحقا لقوم نوح الذين غرقوا يقال بعد بعدا وبعد اذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك خص بدعاء السوء والنظر في هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول ان الله تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا ان نردما انفجر من الارض الى بطنها فارتد وان نقطع طوفان السماء فانقطع وان نغيض الماء النازل من السماء فغيض وان نقضي أمر نوح وهو انجازما كنا وعدناه من اغراق قومه فقضى وان نسوي السفينة على الجودي فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالامور الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ في تكون المقصود تصوير الاقتداره العظيم وأن السموات والارض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لارادته فيها تغييرا وتبديلا كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لامره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل وقيل على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال مجازا يا سماء يا أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبيه المذكور ثم استعار لغور الماء في الارض البلع الذي هو اعمال الجاذبة في

بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء يا سبحان الله المطر اربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر يعني صار الماء نصفين نصفا من السماء ونصفا من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شيء وروي انه لما كثر الماء في السكك خافت أم صبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء الى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فاغرقهما فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي (ونادى نوح ابنه) يعني كنعان وكان كافرا (وكان في معزل) يعني عن نوح لم يركب معه (يا بني اركب معنا) يعني في السفينة (ولا تكن مع الكافرين) يعني فتهلك معهم (قال) يعني قال كنعان (ساوي) يعني سآتي وأصير (الى جبل يعصمني) يعني يمنعني (من الماء قال) يعني قال له نوح (لا عاصم) يعني لا مانع (اليوم من أمر الله) يعني من عذابه (الا من رحم) يعني الا من رحمه الله فينجيه من الغرق (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يعني كنعان (وقيل) يعني بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح (يا أرض ابلعي ماءك) أي اشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي (وغيض الماء) أي نقص ونضب يقال غاض الماء اذا نقص وذهب (وقضي الامر) يعني وفرغ من الامر وهو هلاك قوم نوح (واستوت) يعني واستقرت السفينة (على الجودي) أو هو جبل بالجزيرة بقرب الموصل (وقيل بعدا) يعني هلاكا (للقوم الظالمين)

المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفي ثم استعار الماء للغذاء تشبيها له بالغذاء لتقوّي الارض بالماء في الانبات كتقوّي الآكل بالطعام ثم قال ماءك باضافة الماء الى الارض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالارض كاتصال الملك بالمالك ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم التأتي ثم قال وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا ولم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال بعدا كلم يصرح بقائل يا أرض و يا سماء سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكوّن قاهر وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله فلا يذهب اوهامهم الى ان يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها السالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلما لانفسهم اظهارا للمكابرة والحفظ وان ذلك العذاب الشديد ما كان الا لظلمهم * ومن جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها وذلك انه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام اظهار العظمة والملكوت وابداء العزة والجبروت وهو بعد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرضي لزيادة التهاون اذ الاضافة تستدعي القرب ولم يقل ٤٤٩ يا أيتها الارض للاختصار واختير لفظ الارض والسماء لكونهما أخف وادور واختير ابلعي على ابتلعي لكونه اخصر وللتجانس بينه و بين أقلعي وقيل أقلعي ولم يقل عن المطر ولكذا لم يقل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت و يا سماء أقلعي فأقلعت اختصارا واختير غيض على غيض وقيل الماء دون أن يقال ماء الطوفان والامر ولم يقل أمر نوح وقومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودي أي أقرت على نحو قيل وغيض اعتبارا للبناء الفعل للفاعل مع السفينة في

قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع اليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروي أن نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق و بقي موضعه فطافت السفينة به سبعا وأودع الحجر الاسود جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكرا لله تعالى و بنوا قريبا بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهي أوّل قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وسبب نجاته من الهلاك ان نوحا عليه السلام احتاج الى خشب ساج لاجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام الى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك فان قلت كيف اقتضت الحكمة الالهية والكرم العظيم اغراق من لم يبلغوا الحلم من الاطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم قلت ذكر بعض المفسرين ان الله عز وجل أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم

٥٧ ن في قوله وهي تجري بهم ارادة للطابقة ثم قيل بعدا للقوم ولم يقل ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر الى تركيب الكلام وأما من حيث النظر الى ترتيب الجمل فذلك انه قدم النداء على الامر فقيل يا أرض ابلعي و يا سماء أقلعي ولم يقل ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى الترشيح ثم قدم أمر الارض على أمر السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ثم أتبع وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ثم ذكر ما هو المقصود وهو قوله وقضي الامر أي أنجز الموعود من اهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه في الفلك وعلى هذا فاعتبر * ومن جهة الفصاحة المعنوية وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف وتأدية لها مخصصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشبك الطريق الى المرتاد ومن جهة الفصاحة اللفظية فالفاظها على ما ترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء في السلاسة وكالغسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته الا أدرك لطائف لا تسع

الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فاعلم المتروك أكثر من المسطور (ونادى نوح ربه فقال رب) نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله رب مع ما بعده من اقتضاء ٤٠٠ وعده في تنجية أهله (ان ابني من أهلي) أي بعض أهلي لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيبه فهو بعض أهله (وان وعدك الحق) وان كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في انجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي (وأنت أحكم الحاكمين) أي أعلم الحكام وأعدلهم اذ لا فضل لحاكم على غيره الا بالعلم والعدل وهو غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زماننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر (قال يا نوح انه ليس من أهلك) ثم علل لانتفاء كونه من أهله بقوله (انه عمل غير صالح) وفيه ايذان بان قرابة الدين غارة لقرابة النسب وان نسيبك في دينك وان كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك ومن لم يكن على دينك وان كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة في ذمه كقولها

* فانما هي اقبال وادبار *

أو التقدير انه ذو عمل وفيه اشعار بانه انما انجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لانهم أهله وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته عمل غير صالح على قال الشيخ أبو منصور رحمه الله كان عند نوح عليه السلام ان ابنه كان على دينه لانه كان ينافق والا لا يحتمل أن يقول ابني من أهلي ويسأله نجاته وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فكان يسأله على الظاهر الذي عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف

يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوي لانه يرد عليه اغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضا اهلاك اطفال الامم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح والجواب الشافي عن هذا كله ان الله سبحانه وتعالى متصرف في خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله عز وجل (ونادى نوح ربه) أي دعاه وسأله (فقال رب ان ابني من أهلي) يعني وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي (وان وعدك الحق) يعني الصدق الذي لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) يعني انك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك (قال) يعني قال الله تعالى (يا نوح انه) يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته (ليس من أهلك) اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولدا حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال انه ليس من أهلك وقال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلي ولم يقل مني وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين انه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الاولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا النقل الجمهور لما صح عن ابن عباس أنه قال ما بغت امرأة نبي قط ولان الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى ونادى نوح ابنه ونوح صلى الله عليه وسلم أيضا نص عليه بقوله يا بني اركب معنا وهذا نص في الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وانما خالف هذا الظاهر من خالفه لانه استبعد أن يكون ولد نبي كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبي وكان قابيل كافرا وأخرج ابراهيم من صلب آزر وهو نبي وكان آزر كافرا فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي فهو المتصرف في خلقه كيف يشاء فان قلت فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا قلت قد ذكر بعضهم أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافرا فلذلك ناداه وعلى تقدير انه يعلم كفره انما حمله على أن ناداه رقة الابوة ولعله اذا رأى تلك الاهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فاجابه الله عز وجل بقوله انه ليس من أهلك يعني انه ليس من أهل دينك لان أهل الرجل من يجمعه واياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الاحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح انه ليس من أهلك (انه عمل غير صالح) قرأ الكسائي ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك

والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه ان سؤالك اياى أن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لأن طلب نجاة الكافر بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى انه عمل غير صالح ويجوز أن يعود الضمير فى أنه على ابن نوح أيضا ويكون التقدير على هذه القراءة ان ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء

* فانما هى اقبال وادبار * قال الواحدى وهذا قول ابى اسحق يعنى الزجاج وأبى بكر بن الانبارى وأبى على الفارسى قال أبو على ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان اذا كثر منه فعلى هذا الحذف (فلا تسألنى ما ليس لك به علم) وذلك ان نوحا عليه السلام سأل ربه انجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم ان ذلك محظور ولا صرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسئلة وأعلمه ان ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألنى ما ليس لك به علم بجواز مسئلته (انى أعظك) يعنى انهاك (ان تكون من الجاهلين) يعنى لمثل هذا السؤال (قال) يعنى قال نوح (رب انى أعوذ بك) يعنى ألجأ اليك واعتذر اليك (أن أسألك ما ليس لى به علم) يعنى انك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عنى فاعتذر اليك من مسئلتى ما ليس لى به علم (والا تغفر لى) يعنى جهلى واقدامى على سؤال ما ليس لى به علم (وترحمنى) يعنى برحمتك التى وسعت كل شئ (أكن من الخاسرين)

*(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الانبياء) *وبيانه ان قوله انه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألنى ما ليس لك به علم وقوله سبحانه وتعالى انى أعظك ان تكون من الجاهلين يدل على ان ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه *والجواب ان الله عز وجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بان ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك فى وعد الله سبحانه وتعالى فاقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له انه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذى هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى انه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فاشفق نوح من اقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ الى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأله المغفرة والرحمة لان حسنات الابرار سيئات المقربين وليس فى الآيات ما يقتضى صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تاويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (قيل يا نوح اهبط) أى انزل من السفينة أو من الجبل الى الارض (بسلام) أى بامن وسلامة (منا وبركات عليك) البركة هى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا ان الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين الى يوم القيامة فكل العالم من ذريته أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه فى السفينة غيرهم (وعلى أمم ممن معك) يعنى وعلى ذرية أمم

له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله ليس من أهلك أى من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والظاهر (فلا تسألن) اجتزأ بالكسرة عن الياء كوفى تسألنى بصرى تسألنى مدنى تسألن شامى فحذف الياء واجتزأ بالكسر والنون نون التأكيد تسالن مكى (مالا يس لك به علم) بجواز مسئلته (انى أعظك ان تكون من الجاهلين) هو كما نهى رسولنا بقوله فلا تكونن من الجاهلين (قال رب انى أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لى به علم) أى من ان أطلب منك فى المستقبل ما لا علم لى بحقيته تأدبا بادبك واتعاظا بموعظتك (والا تغفر لى) ما فرط منى (وترحمنى) بالعصمة عن العود الى مثله (أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا) بتحية منا او بسلامة من الغرق (وبركات عليك) هى الخيرات النامية وهى فى حقه بكثرة ذريته وأتباعه فقد جعل أكثر الانبياء من ذريته وأئمة الدين فى القرون الباقية من نسله (وعلى أمم ممن معك) من للبيان فستراد الامم الذين كانوا معه فى السفينة لانهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم أو لابتداء الغاية أى على أمم ناشئة ممن معك وهى الامم الى آخر الدهر وهو الوجه

(وأمم) رفع بالابتداء (سنمتعهم) في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش صفة والخبر محذوف تقديره ومن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان من معك يدل عليه (ثم يمسهم منا عذاب أليم) أي في الآخرة والمعنى ان السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك ومن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون الى النار وكان نوح عليه السلام ابا الانبياء والخلق بعد الطوفان منه ومن كان معه في السفينة وعن محمد بن كعب دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر ٤٥٢ (تلك) اشارة الى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهي (من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) أخبار أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة اليك مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) الوقت أو من قبل ان يحاكي اليك واخبارك بها (فاصبر) على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه (ان العاقبة) في الفوز والنصر والغلبة (للمتقين) عن الشرك (والى عاد أخاهم) واحدا منهم وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا أي وأرسلنا الى عاد أخاهم (هودا) عطف بيان (قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (مالكم من اله غيره) بالرفع نافع صفة على محل الجار والمجرور وبالجر على على اللفظ (ان أنتم الا مفترون) تفترون على الله الكذب باتخاذكم الاوثان له شركاء (ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني) مامن رسول الا واجه قومه بهذا القول لان شأنهم النصيحة والنصيحة لا يعضها الا حسم المطامع ومادام يتوهم شئ منها لم تنجع ولم تنفع (أفلا تعقلون) اذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجرا الا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك (و ياقوم استغفروا ربكم) آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) حال أي كثيرة الدرور (و يزدكم قوة الى قوتكم) انما قصد استمالتهم الى الايمان بكثرة المطر وزيادة القوة لانهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شئ الى الماء

من كانوا معك في السفينة والمعنى وبركات علينا وعلى قرون ممن معك ستجيء من بعدك من ذريتهم أولادك وهم المؤمنون قال محمد بن كعب القرظي دخل في هذا كل مؤمن الى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) هذا ابتداء كلام أي وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا الى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب أليم) يعني في الآخرة (تلك من أنباء الغيب) هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان هذه القصة التي أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب (نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) يعني من قبل نزول القرآن عليك فان قلت ان قصة نوح كانت مشهورة معروفة في العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا قلت يحتمل ان يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها وجواب آخر وهو انه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها (فاصبر) يا محمد على أذى مشركي قومك كما صبر نوح على أذى قومه (ان العاقبة) يعني النصر والظفر على الاعداء والفوز بالسعادة الاخروية (للمتقين) يعني للمؤمنين قوله عز وجل (والى عاد) يعني وارسلنا الى عاد (أخاهم هودا) يعني أخاهم في النسب لا في الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) يعني وحدوا الله ولا تشركوا معه شيأ في العبادة (مالكم من اله غيره) يعني انه تعالى هو الهكم لا هذه الاصنام التي تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع (ان أنتم الا مفترون) يعني ما أنتم الا كاذبون في عبادتكم غيره (ياقوم لا أسئلكم عليه) يعني على تبليغ الرسالة (أجرا) يعني جعلا آخذه منكم (ان أجري) يعني ما ثوابي (الا على الذي فطرني) يعني خلقني فانه هو الذي يرزقني في الدنيا و يثيبني في الآخرة (أفلا تعقلون) يعني فتتعظون (ويا قوم استغفروا ربكم) أي آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الايمان لانه هو المطلوب أولا (ثم توبوا اليه) يعني من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم (يرسل السماء عليكم مدرارا) يعني ينزل المطر عليكم متتابعا مرة بعد مرة في أوقات الحاجة اليه وذلك ان بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فامسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فأخبرهم هود عليه السلام انهم ان آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله اليهم المطر فاحيا به بلادهم كما كانت أول مرة (و يزدكم قوة الى قوتكم) يعني شدة مع شدتكم وقيل معناه انكم ان آمنتم

وكانوا ممدين بما أوتوا من شدة البطش والقوة وقيل أراد القوة بالمال او على النكاح وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود عليه السلام المطر والاولاد على الايمان والاستغفار وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما انه وفد على معاوية فلما خرج قال له بعض حجابه اني رجل ذو مال ولا يولد لي علمني شيأ لعل الله يرزقني ولدا فقال الحسن عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فباغ ذلك معاوية فقال له لا سألته م قال ذلك فوفد وفدة اخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم بأموال وبنين (ولا تتولوا) ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم اليه (مجرمين) مصرين على اجرامكم وآثامكم (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة) كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أنزل عليه آية من ربه مع فوت آياته الحصر (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) هو حال من الضمير في تاركي آلهتنا كانه قيل وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك (وما نحن لك بمؤمنين) وما يصح من أمثالنا ان يصدقوا مثلك فيما يدعوهم اليه اقناطا له من الاجابة (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ان حرف نفي فنفى جميع القول الا قولا واحدا وهو قولهم اعتراك أصابك بعض آلهتنا بسوء بخنون وخبل وتقديره ما نقول قولا الا هذه المقالة أي قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء (قال اني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه) أي من اشراككم آلهة من دونه والمعنى اني أشهد الله اني بريء مما تشركون واشهدوا انتم ايضا اني بريء من ذلك وحي به على لفظ الامر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد علي اني لا احبك تهكما به واستهانة بحاله (فكيدوني جميعا) انتم وآلهتكم (ثم لا تنظرون) لا تمهلون فاني لا ابالي بكم وبكيدكم ولا اخاف معرتكم وان تعاونتم علي وكيف تضرني آلهتكم وما هي الا جماد لا يضر ولا ينفع وكيف تنتقم مني اذا نالت منها وصددت عن عبادتها بان تخبلني وتذهب بعقلي (اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أي مالكها ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ومن كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه والاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربي على صراط مستقيم) ان ربي على الحق لا يعدل عنه أو ان

يقوكم بالاموال والاولاد وذلك انه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام ان آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالا ويعيد أرحام الامهات الى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالاموال والاولاد وقيل تزدادون قوة في الدين الى قوة الابدان (ولا تتولوا مجرمين) يعني ولا تعرضوا عن قبول قولي ونحمي حال كونكم مشركين (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة) أي ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) يعني وما نترك عبادة آلهتنا لاجل قولك (وما نحن لك بمؤمنين) يعني بمصدقين (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يعني أنك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا الا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لانك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا تحمل أمرك الا على هذا (قال) يعني قال هود مجيبا لهم (اني أشهد الله) يعني على نفسي (واشهدوا) يعني واشهدوا انتم ايضا على (اني بريء مما تشركون من دونه) يعني هذه الاصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني جميعا) يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم واصنامكم التي تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع (ثم لا تنظرون) يعني ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك انه كان وحيدا في قومه فقال لهم هذه المقالة ولم يبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت الا ثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى (اني توكلت على الله ربي وربكم) يعني انه فوض أمره الى الله واعتمد عليه (ما من دابة) يعني تدب على الارض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) يعني انه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لان من اخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للجاورة قيل انما خص الناصية بالذكر لان العرب تستعمل ذلك كثيرا في كلامهم فاذا وصفوا انسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخر اعليه خاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم (ان ربي على صراط مستقيم)

ربى يدل على صراط مستقيم (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) هو في موضع فقد ثبتت الحجة عليكم (ويستخلف ربى قوما غيركم) كلام مستأنف أى ويهلككم الله ويجئ بقوم آخرين يخلفونكم فى ديارهم وأموالكم

يعنى ان ربى وان كان قادرا وأنتم فى قبضته كالعبد الذليل فانه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف والعدل فيجازى المحسن باحسانه والمسئ بعصيانه وقيل معناه ان دين ربى هو الصراط المستقيم وقيل فيه اضمار تقديره ان ربى يحملكم على صراط مستقيم (فان تولوا) يعنى تتولوا عنى تعرضوا عن الايمان بما أرسلت به اليكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) يعنى انى لم يقع منى تقصير فى تبليغ ما أرسلت به اليكم انما التقصير منكم فى قبول ذلك (ويستخلف ربى قوما غيركم) يعنى انكم ان أعرضتم عن الايمان وقبول ما ارسلت به اليكم يهلككم الله و يستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه و يعبدونه وفيه اشارة الى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد (ولا تضرونه شيأ) يعنى بتوليكم انما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربى على كل شئ حفيظ) يعنى انه سبحانه وتعالى حافظ لكل شئ فيحفظنى من أن تنالونى بسوء قوله سبحانه وتعالى (ولما جاء أمرنا) يعنى باهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) وذلك أن العذاب اذا نزل قديما المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) يعنى الريح التى أهلكت بها عادا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية ايام حسوما وهى الايام المحسات فاهلكتهم جميعا وانجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيأ وقيل المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى انه تعالى كما انجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لانه أعظم من عذاب الدنيا (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد ردد الى القبيلة وفيه اشارة الى قبورهم وآثارهم كانه قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعنى المعجزات التى أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعنى هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أو لان من كذب برسول فقد كذب كل الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يعنى أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع فى نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذى لا يقبل الحق ولا يتبعه (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) يعنى أردفوا اللعنة تتبعهم وتلحقهم وتصرف معهم واللعنة الطرد والابعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) يعنى وفى يوم القيامة ايضا تتبعهم اللعنة كما تتبعهم فى الدنيا ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذى استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) يعنى هلاكا لهم وقيل بعدا عن الرحمة فان قلت اللعنة معناها الابعاد من الرحمة ويوم القيامة) لما كانوا تابعين لهم دون الرسل حملت اللعنة تابعة لهم فى الدارين (ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد) تكرار لما مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تنويل لامرهم و بعث على الاعتبار بهم والحذر من

مثل حالهم والدعاء ببعدا بعده لاكهم وهود عاما بالهلاك للدلالة على انهم كانوا مستأهلين له (قوم هود) عطف بيان لعاد وفيه فائدة لان عادا عادان الاولى القديمة التى هى قوم هود والقصة فيهم والاخرى ارم (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض) لم ينشئكم منها الاهو وانشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم (واستعمركم فيها) وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها ٥٥٥ أو استعمركم من العمر أى أطال أعماركم فيها

الابعاد والهلاك فما الفائدة فى قوله الا بعدا لعاد لان الثانى هو الاول بعينه قلت العائدة فيه ان التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وأنهم كانوا مستحقين له (قوم هود) عطف بيان لعاد فان قلت هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة فى قوله قوم هود قلت ان عادا كانوا قبيلتين عادا الاولى القديمة التى هم قوم هود وعادا الثانية وهم ارم ذات العماد وهم العمالية فاتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو ان المبالغة فى التخصيص تدل على تقوية التأكيد قوله عز وجل (والى ثمود أخاهم صالحا) يعنى وارسلنا الى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة (مالكم من اله غيره) يعنى هو الحكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى (هو انشأكم من الارض) يعنى انه هو ابتدأ خلقكم من الارض وذلك انهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض (واستعمركم فيها) يعنى وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال اعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد اعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم (فاستغفروه) يعنى من ذنوبكم (ثم توبوا اليه) يعنى من الشرك (ان ربى قريب) يعنى من المؤمنين (مجيب) لدعائهم (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) يعنى قبل هذا القول الذى جئت به والمعنى انا كنا نرجوان تكون فينا سيدا لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغنى فقيرهم وقيل معناه انا كنا نطمع ان تعود الى ديننا فلما أظهر دعاءهم الى الله وعاب الاصنام انقطع رجاؤهم منه (أتنهانا ان نعبد مايعبد آباؤنا) يعنى الآلهة (وانا لفى شك مما تدعونا اليه) يعنى من عبادة الله (مريب) يعنى انا مرتابون فى قولك من أرابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس ووقوعها فى التهمة (قال) يعنى قال صالح مجيبا لقومه (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على يقين وبرهان (وآتانى منه رحمة) يعنى نبوة وحكمة (فمن ينصرنى من الله) اى فمن يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) يعنى ان خالفت امره (فما تزيدوننى غير تخسير) قال ابن عباس معناه غير بصارة فى خسارتكم وقال الحسن بن الفضل لم يكن صالح فى خسارة حتى يقول فما تزيدوننى غير تخسير وانما المعنى فما تزيدوننى بما تقولون الا نسبتى الى الخسارة (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) وذلك ان قومه طلبوا ان يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك فأشاروا اليها فدعا الله عز وجل فاخرج

وكانت أعمارهم من ثلثمائة الى ألف وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وعمروا الاعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم فسأل نبى من أنبيائهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى (فاستغفروه) فاسألوه مغفرته بالايمان (ثم توبوا اليه ان ربى قريب) دانى الرحمة (مجيب) لمن دعاه (قالوا ياصالح قد كنت فينا) فيما بيننا (مرجوا قبل هذا) للسيادة والمشاورة فى الامور أو كنا نرجوان تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) حكاية حال ماضية (وانا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد (مريب) موقع فى الريبة من أرابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة) نبوة أتى بحرف الشك مع انه على يقين انه على بينة لان خطابه للجاحدين فكانه قال قدروا

انى على بينة من ربى وانتى نبى على الحقيقة وانظروا ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره (فمن ينصرنى من الله) فمن يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) فى تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الاوثان (فما تزيدوننى) بقولكم أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا (غير تخسير) بنسبتكم اياى الى الخسار أو بنسبتى اياكم الى الخسران (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل ولكم متعلق بآية حالا منها متقدمة لانها لو تأخرت

لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال (فذروها تأكل في أرض الله) أي ليس عليكم رزقها مع ان لكم نفعها (ولا تمسوها بسوء) عقر أو نحر (فيأخذكم عذاب قريب) عاجل (فعقروها) يوم الاربعاء (فقال) صالح (تمتعوا) استمتعوا بالعيش (في داركم) في بلدكم وتسمى البلاد الديار لانه يدار فيها أي يتصرف أو في دار الدنيا (ثلاثة أيام) ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت (ذلك وعد غير مكذوب) أي غير مكذوب فيه

فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به او وعد غير كذب على ان المكذوب مصدر كالمعقول (فلما جاء أمرنا) بالعذاب أو عذابنا (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قال الشيخ رحمه الله هذا يدل على ان من نجى انما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام لا يدخل احد الجنة الا برحمة الله (ومن خزي يومئذ) باضافة الخزي الى اليوم وانجرار اليوم بالاضافة وبفتحها مبنيا وعلى لانه مضاف الى اذ وهو مبني وظروف الزمان اذا أضيفت الى الاسماء المبهمة والافعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف اليه كقوله

على حين عاتبت المشيب على الصبا

والواو للعطف وتقديره ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذله وفضيحته ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وجاز ان يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة (ان ربك هو القوي) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب باهلاك اعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام (فاصبحوا في ديارهم) منازلهم (جاثمين) ميتين (كان لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها (ألا ان ثمودا كفروا ربهم) ثمود معجزة وحفص (ألا بعدا لثمود) على فاصرف للذهاب الى الحي أو الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتانيث بمعنى القبيلة (ولقد جاءت رسلنا) جبريل وميكائيل واسرافيل أو جبريل مع احد عشر ملكا (ابراهيم بالبشرى) هي البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط والاول أظهر (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أمركم سلام سلم حمزة وعلي بمعنى السلام

لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلا يشبهها وقوله ناقة الله اضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام (فذروها تأكل) يعني من العشب والنبات (في أرض الله) يعني فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) يعني بعقر (فيأخذكم) يعني ان قتلتموها (عذاب قريب) يعني في الدنيا (فعقروها) يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها (فقال) يعني فقال لهم صالح (تمتعوا) يعني عيشوا (في داركم) أي في بلدكم (ثلاثة أيام) يعني ثم تهلكون (ذلك) يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) اي هو غير كذب روى انه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الاول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء أمرنا) يعني العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) أي بنعمة منا بان هديناهم الى الايمان فآمنوا (ومن خزي يومئذ) يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ سمي خزيا لان فيه خزي الكافرين (ان ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان ربك يا محمد (هو القوي) يعني هو القادر على انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين (العزيز) يعني القاهر الذي لا يغلبه شئ ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى (وأخذ الذين ظلموا) يعني أنفسهم بالكفر (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا (فاصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني صرعى هلكى (كان لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به (ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الاعراف قوله عز وجل (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كانوا أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الاولى لان أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الاقل وما بعده غير مقطوع به (بالبشرى) يعني بالبشارة باسحق ويعقوب وقيل باهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) يعني ان الملائكة سلموا سلاما (قال) يعني لهم ابراهيم (سلام) أي عليكم أو أمركم

سلام (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) يعنى مشويا والحنيذ هو المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الارض وهو من فعل أهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال ابراهيم عليه السلام البقر وقيل مكث ابراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) يعنى أيدى الاضياف (لا تصل اليه) يعنى الى العجل المشوى (نكرهم) يعنى أنكرهم وأنكر حالهم وانما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس منهم خيفة) يعنى ووقع فى قلبه خوف منهم والوجس هو رعب القلب وانما خاف ابراهيم صلى الله عليه وسلم منهم لانه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ولم يعرف انهم ملائكة وقيل ان ابراهيم عرف انهم ملائكة وانما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والاقرب ان ابراهيم عليه السلام لم يعرف انهم ملائكة فى أول الامر ويدل على صحة هذا انه عليه السلام قدم اليهم الطعام ولو عرف انهم ملائكة لما قدمه اليهم لعلمه ان الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولانه خافهم ولو عرف انهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف ابراهيم عليه السلام (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط وامرأته) يعنى سارة زوجة ابراهيم وهى ابنة هاران بن ناحور وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) يعنى من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة فى خدمة الرسل وابراهيم جالس معهم (فضحكت) أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل فى السرور المجرد وفى التعجب المجرد أيضا وللعلماء فى تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا فى سبب هذا الضحك فقال السدى لما قرب ابراهيم الطعام الى أضيافه فلما كلوا خاف ابراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا انا لا نأكل طعاما الا بثمن قال فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل الى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا فلما رأى ابراهيم وسارة أيديهم لا تصل اليه ضحكت سارة وقالت يا عجبا لاضيافنا نخدمهم بانفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم وقال مقاتل والكلبى ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم وذلك انها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون فى الآية تقديم وتاخير تقديره فبشرناها باسحق فضحكت يعنى تعجبا من ذلك وقيل انها قالت لابراهيم اضمم اليك ابن أخيك لوطا فان العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشرت بعذابهم سرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت القول الثانى فى معنى قوله

(فما لبث ان جاء بعجل) فما لبث فى المجئ به بل عجل فيه او فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة وكان مال ابراهيم البقر (حنيذ) مشوى بالحجارة المحماة (فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم) نكرهم وانكر بمعنى وكانت عادتهم انه اذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه والا خافوه والظاهر انه احس بانهم ملائكة ونكرهم لانه تخوف أن يكون نزولهم لامر انكره الله عليه أو لتعذيب قومه دليله قوله (وأوجس منهم خيفة) أى اضمر منهم خوفا (قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم ارسلوا وانما قالوا لا تخف لانهم رأوا اثر الخوف والتغير فى وجهه (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع تحاورهم او على رؤسهم تخدمهم (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك اهل الخبائث او من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب او فحاضت

فضحكت قال عكرمة ومجاهد أى حاضت فى الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك قال الراغب وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسير القوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها فان جعل ذلك امارة لما بشرت به فحيضها فى الوقت لتعلم ان حملها ليس بمنكر لان المرأة مادامت تحيض فانها تحمل وقال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشئ ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الانبارى قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد

تضحك الضبع لقتلى هذيل * وترى الذئب بها يستهل

قال أراد انها تحيض فرحا وقال الليث فى هذه الآية فضحكت أى طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم فى قوله فضحكت أى حاضت قال ويقال أصله من ضحاك الطلعة اذا انشقت قال وقال الاخطل فيه بمعنى الحيض

تضحك الضبع من دماء سليم * اذ رأتها على محراب تمور

وقال فى المحكم ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها باسحق وضحكت الارنب ضحكا يعنى حاضت حيضا قال

وضحك الارانب فوق الصفا * كمثل دم الخوف يوم اللقا

يعنى الحيض فمازعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر ان يكون الضحك بمعنى الحيض قال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كثرها علم انها تحيض وانما أراد الشاعر تكثر لا كل اللحوم وهذا سهو منه لانه جعل كثرها حيضا وقيل معناه انها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكا وقيل لانها تسر بهم فجعل سرورها ضحكا فان قلت أى القولين أصح فى معنى الضحك قلت ان الله عز وجل حكى عنها انها ضحكت وكلا القولين محتمل فى معنى الضحك فالله أعلم أى ذلك كان وقوله سبحانه وتعالى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) يعنى ومن بعد اسحق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بانها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد ضحكت وجهها أى ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وانما فعلت ذلك تعجبا (قالت ياويلتا) نداء ندبة وأصلها ياويلتاه وهى كلمة يستعملها الانسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجباه (أألد وأنا عجوز) وكانت بنت تسعين سنة فى قول ابن اسحق وقال مجاهد كانت بنت تسع وتسعين سنة (وهذا بعلى) يعنى زوجى والبعل هو المستعلى على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بامرها سمى بعلا لذلك (شيخا) وكان سن ابراهيم يومئذ مائة وعشرين فى قول محمد بن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة (ان هذا لشئ عجيب) لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وانما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما (قالوا) يعنى قالت الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) معناه لا تعجبى من ذلك فان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ فاذا أراد شيأ كان سريعا (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) ارادوا ان هذه وامثالها

(فبشرناها باسحق) وخصت بالبشارة لان النساء أعظم سرورا بالولد من الرجال ولانه لم يكن لها ولد وكان لابراهيم ولد وهو اسمعيل (ومن وراء اسحق) ومن بعده (يعقوب) بالنصب شامى وحمزة وحفص بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أى فبشرناها باسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء اسحق وبالرفع غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبر كما تقول فى الدار زيد (قالت ياويلتا) الالف مبدلة من ياء الاضافة وقرأ الحسن ياويلتى بالياء على الاصل (أألد وأنا عجوز) ابنة تسعين سنة (وهذا بعلى شيخا) ابن مائة وعشرين سنة هذا مبتدأ وبعلى خبره وشيخا حال والعامل معنى الاشارة التى دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذى دل عليه هذا (ان هذا لشئ عجيب) ان يولد لمن هرمين وهو استبعاد من حيث العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله) قدرته وحكمته وانما أنكرت الملائكة تعجبها لانها كانت فى بيت الآيات ومهبط المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها مايزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وان تسبح الله وتمجده مكان التعجب والى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) ارادوا ان هذه وامثالها

مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالانعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب وهو كلام مستأنف علل به انكار التعجب كأنه قيل إياك والتعجب لان امثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم وأهل البيت نصب على النداء أو على الاختصاص (انه حميد) محمود بتجميل النعم (مجيد) ظاهر الكرم بتأجيل النقم (فلما ذهب عن ٤٥٩ ابراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) بالولد (يجادلنا في قوم لوط) أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سرورا بسبب البشرى فزع للمجادلة وجواب لما محذوف تقديره أقبل يجادلنا او يجادلنا جواب لما وانما جيء به مضارعا لحكاية الحال والمعنى يجادل رسلنا ومجادلته اياهم انهم قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله (ان ابراهيم لحليم) غير عجول على كل من أساء اليه أو كثير الاحتمال ممن آذاه الصفوح عن عصاه (أواه) كثير التأوه من خوف الله (منيب) تائب راجع الى الله وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين ان ذلك مما حمله على المجادلة

يعني بيت ابراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته (انه حميد) يعني هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لان يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال (مجيد) ومعناه المنيع الذي لا يرام وقال الخطابي المجيد الواسع الكرم وأصل المجد في كلامهم السعة يقال رجل ماجد اذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم قوله سبحانه وتعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) يعني الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الاكل (وجاءته البشرى) يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى التي جاءته وهي البشارة بالولد (يجادلنا) فيه اضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا (في قوم لوط) لان العبد لا يقدر ان يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة ابراهيم مع الملائكة ان قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال ابراهيم فان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وقيل انما طلب ابراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي قال ابن جريج كان في قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل (ان ابراهيم لحليم أواه منيب) تقدم تفسيره في سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لابراهيم (يا ابراهيم أعرض عن هذا) يعني أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال (انه قد جاء أمر ربك) يعني ان ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) يعني ان العذاب الذي نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا لوطا) يعني هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند ابراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه (سيء بهم) يعني احزن لوطا بمجيئهم اليه وساء ظنه بقومه (وضاق بهم ذرعا) قال الازهري الذرع بوضع موضع الطاقة والاصل فيه ان البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فاذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعا اذ لم يجد من المكروه في ذلك الامر مخلصا وقال غيره معناه ضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف أصله

فيهم رجاء ان يرفع عنهم العذاب ويعلموا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لابيه فقالت الملائكة (يا ابراهيم اعرض عن هذا) الجدال وان كانت الرحمة ديدنك (انه قد جاء أمر ربك) قضاؤه وحكمه (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا يرد بجدال وتغيرذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل وهو آتيهم تقديره وانهم يأتيهم ثم خرجوا من عند ابراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية ابراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ (ولما جاءت رسلنا لوطا) لما أتوه ورأى هيأتهم وجمالهم (سيء بهم) أحزن لانه حسب انهم انس نخاف عليهم حيث قومه وان يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم (وضاق بهم ذرعا) تمييز أي

وضاق بمكانهم صدره (وقال هذا يوم عصيب) شديد روى ان الله تعالى قال لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال اشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فاخبرت بهم قومها (وجاءه قومه يهرعون اليه) يسرعون كأنما يدفعون دفعا (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء (قال ياقوم هؤلاء بناتى) فتزوجوهن أراد ان بنى أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا فى ذلك الوقت كما جاز فى الابتداء فى هذه الامة فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد لوط أن يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) أحل هؤلاء مبتدأ وبناتى عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتى خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر

الا ان يقال ان الذرع كناية عن الوسع والعرب تقول ليس هذا فى مدى يعنون ليس هذا فى وسعى لان الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع فى مكروه لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا عليه السلام لما نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف ان يقصدوهم بمكروه أو فاحشة وعلم أنه سيحتاج الى المدافعة عنهم (وقال) يعنى لوطا (هذا يوم عصيب) أى شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أى شد به مأخوذ من العصابة التى تشد بها الرأس قال قتادة والسدى خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو يعمل فى أرض له وقيل انه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم اما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال اشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل انه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامز وا فيما بينهم فقال لوط ان قومى شر خلق الله تعالى فقال جبريل هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامز وا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ما قال أولا حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل ان الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه فى داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فاخبرت قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم (وجاءه قومه يهرعون اليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون اليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن الاهراع هو مشى بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والخبز (ومن قبل) يعنى ومن قبل مجىء الرسل اليهم قيل ومن قبل مجيئهم الى لوط (كانوا يعملون السيئات) يعنى الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهى اتيان الرجال فى أدبارهم (قال) يعنى قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا انهم غلمان من بنى آدم (ياقوم هؤلاء بناتى) يعنى أزوجكم اياهن وفى أضيافه ببناته قيل انه كان فى ذلك الوقت وفى تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسن بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبى أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب ان شاء الله تعالى والدليل عليه ان بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة ان يعرض الرجل بناته على اعدائه ليزوجهن اياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الانبياء ان يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل انما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق وفى قوله (هن أطهر لكم) سؤال وهو ان يقال ان قوله هن أطهر لكم من باب افعل التفضيل فيقتضى ان يكون الذى يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم انه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال ان هذا جار مجرى قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم

(فاتقوا الله) بايثارهن عليهم (ولا تخزون) ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء وبالياء أبو عمرو في الوصل (في ضيفي) في حق ضيوفي فانه اذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من

ومعلوم ان شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله اعلى وأجل اذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة وقوله (فاتقوا الله) يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان (ولا تخزون في ضيفي) يعني ولا تسوؤني في أضيافي ولا تفضحوني معهم (أليس منكم رجل رشيد) اي صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لا اله الا الله وقال محمد بن اسحق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بازواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه ما لنا في بناتك من حاجة لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ولا نريد ذلك (وانك لتعلم ما نريد) يعني من اتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك (قال) لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوة) أي لو اني اقدر ان اتقوى عليكم (او آوي الى ركن شديد) يعني أو أضم الى عشيرة يمنعوني منكم وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لو وجدت عشيرة لانضممت اليهم قال أبو هريرة ما بعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لاجبته قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه اشد الاركان وأقواها وامنعها ومعنى الحديث أن لوطا عليه السلام لما خاف على اضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو ان لي بكم قوة في الدفع بنفسي او آوي الى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط اظهار العذر عند اضيافه وانه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف ان شاء الله تعالى قال ابن عباس واهل التفسير اغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه وينا شدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم (قالوا يا لوط) ركنك شديد (انا رسل ربك لن يصلوا اليك) يعني بمكروه ففتح الباب ودعانا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستاذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فاذن له فتحول الى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من درمنظوم وهو براق الثنايا اجلى الجبين ورأسه جبك مثل المرجان كانه كالثلج بياضا وقدماه الى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء في بيت لوط أسحر قوم في الارض قد سحرونا وجعلوا يقولون يا لوط كما انت حتى تصبح وستري ما نلقي مناغدا يوعدونه بذلك (فأسر باهلك) يعني ببيتك (بقطع من الليل) قال ابن

من عراقة الكرم وأصالة المروءة (اليس منكم رجل رشيد) اي رجل واحد يهتدي الى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) حاجة لان نكاح الاناث امر خارج عن مذهبنا فمذهبنا اتيان الذكران (وانك لتعلم ما نريد) عنوا اتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة (قال لو ان لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد) جواب لو محذوف اي لفعلت بكم ولصنعت والمعنى لو قويت عليكم بنفسي او اويت الى قوي استند اليه وامتنع به فيحميني منكم فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته روي انه اغلق بابه حين جاؤا وجعل يراددهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب (قالوا يا لوط) ان ركنك لشديد (انا رسل ربك) فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فاذن له فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم فاعماهم كما قال الله تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا

يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة (لن يصلوا اليك) جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لم يصلوا اليه ولم يقدروا على ضرره (فاسر) بالوصل حجازي من سرى (بأهلك بقطع من الليل) طائفة منه او نصفه

(ولا يلتفت منكم أحد) يقلبه الى ما خلف أو لا ينظر الى ما وراءه أو لا يتخلف منكم أحد (الا امرأتك) مستثنى من فاسر بأهلك وبالرفع مكي وأبو عمرو وعلى البدل من أحد وفي اخراجها مع أهله روايتان روي انه أخرجها معهم وأمر ان

عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية من الليل وقال قتادة بعد مضي أوله وقيل انه السحر الاول (ولا يلتفت منكم أحد) يعني ولا يلتفت منكم أحد الى ورائه ولا ينظر الى خلفه (الا امرأتك) فانها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى (انه مصيبها ما اصابهم) فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا (ان موعدهم الصبح) قال لوط انه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له (أليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ان لا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه الا امرأته فانها لما سمعت هدة العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت واقواماه فاخذتها حجارة فاهلكتها معهم (فلما جاء أمرنا) يعني امر نا بالعذاب (جعلنا عاليها سافلها) وذلك أن جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع اهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم يتبعهم لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليها) يعني على شذاذها ومن كان خارجا عنها من مسافريها وقيل بعد ما قلبها امطر عليهم (حجارة من سجيل) قال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه سنك كل فارسي معرب لان العرب اذا تكلمت بشيء من الفارسي صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله في موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن اصل الحجارة طين فشدت وقال الضحاك يعني الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل في سماء الدنيا (منضود) قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض (مسومة عند ربك) صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج عليها سيما لانها كل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الخزع وقال الحسن والسدي كانت مختومة عليها امثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها أي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به (وما هي) يعني تلك الحجارة (من الظالمين) يعني مشركي مكة (ببعيد) قال قتادة وعكرمة يعني ظالمي هذه الامة والله ما أجار الله منها ظالما بعده وفي بعض الآثار ما من ظالم الا وهو يعرض عليه حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل ان الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى ان واحدا منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقا في السماء اربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فاهلكه قوله عز وجل (والى مدين) يعني وارسلنا الى مدين (اخاهم شعيبا) مدين اسم لابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم فعلى هذا يكون التقدير وارسلنا الى أهل مدين فحذف

لا يلتفت منهم احد الا هي فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فادركها حجر فقتلها وروي انه أمر بان يخلفها مع قومها فان هواها اليهم فلم يسر بها واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين (انه مصيبها ما أصابهم) أي ان الامر وروي انه قال لهم متى موعد هلاككم قالوا (ان موعدهم الصبح) فقال أريد اسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها أي اسفل قراها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) هي كلمة معربة من سنك كل بدليل قوله حجارة من طين (منضود) نعت لسجيل أي متتابع أو مجموع معد للعذاب (مسومة) نعت لحجارة أي معلمة للعذاب قيل مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به (عند ربك) في خزائنه او في حكمه (وما هي من الظالمين ببعيد) بشيء بعيد وفيه وعيد لاهل مكة فان جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ظالمي امتك ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عليه حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة أو الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في مسارحهم (والى مدين أخاهم شعيبا) هو اسم مدينتهم أو اسم جدهم مدين بن ابراهيم

المضاف لدلالة الكلام عليه (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى وحدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام يبدؤن بالاهم فالاهم ولما كانت الدعوة الى توحيد الله وعبادته اهم الاشياء قال شعيب اعبدوا الله مالكم من اله غيره ثم بعد الدعوة الى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى الكيل والوزن دعاهم الى ترك هذه العادة القبيحة وهى تطفيف الكيل والوزن فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) النقص فى الكيل والوزن على وجهين احدهما ان يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو استيفاء الكيل والوزن لانفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصانا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله (ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير) قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة ان لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يعنى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) أى أتموهما ولا تطففوا فيهما (بالقسط) أى بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال (ولا تبخسوا الناس) أى ولا تنقصوا الناس (أشياءهم) يعنى أموالهم فان قلت قد وقع التكرار فى هذه القصة من ثلاثة أوجه لانه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرار قلت ان القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج فى المنع منه الى المبالغة فى التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل وهذا غير الاول ومغاير له ولقائل ان يقول النهى ضد الامر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز ان ينهى عن التنقيص ولا يأمر بايفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة فى الامر والنهى واما قوله ثالثا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضا لانه سبحانه وتعالى لما خصص النهى عن التنقيص والامر بايفاء الحق فى الكيل والوزن عمم الحكم فى جميع الاشياء التى يجب ايفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والذرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) يعنى بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم (بقيت الله خير لكم) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعنى طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعنى ما أبقاه لكم من الثواب فى الآخرة خير لكم

أى وأرسلنا شعيبا الى ساكنى مدين أو الى بنى مدين (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال) أى المكيل بالمكيال (والميزان) والموزون بالميزان (انى أراكم بخير) بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها ان تقابل بغير ما تفعلون (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) مهلك من قوله واحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب الاستئصال فى الدنيا أو عذاب الآخرة (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول لزيادة الترغيب فيه وجىء به مقيدا بالقسط أى ليكن الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص كانوا ينقصون من اثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) العثى والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيا منهم فى الارض (بقيت الله) ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم (خير لكم

ان كنتم مؤمنين) بشرط ان تؤمنوا انهم بقية الله خير للكفرة أيضا لانهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف الا ان فائدتها تظهر مع الايمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لا نعماس صاحبها فى غمرات الكفر وفى ذلك تعظيم للايمان وتنبيه على جلالة شأنه أو المراد ان كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به اياكم (وما أنا عليكم بحفيظ) لنعمه عليكم فاحفظوها بترك البخس (قالوا ياشعيب أصلواتك) ٤٦٤ وبالتوحيد كوفى غير أبى بكر

(تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى اموالنا ما نشاء) كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له ما نستفيد بهذا فكان يقول انها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح فقالوا له على وجه الاستهزاء اصلواتك تأمرك ان تأمرنا بترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا او ان نترك التبسط فى أموالنا ما نشاء من ايفاء ونقص وجاز ان تكون الصلوات آمرة مجازا كما سماها الله تعالى ناهية مجازا (انك لانت الحليم الرشيد) اى السفيه الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء أو انك حليم رشيد عندنا ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه) من لدنه (رزقا حسنا) يعنى النبوة والرسالة اوما لا حلالا من غير بخس وتطفيف وجواب أرأيتم محذوف أى اخبرونى ان كنت على حجة واضحة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيصح لى ان لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى والانبياء لا يبعثون الا لذلك يقال خالفنى فلان الى

كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا الطريق عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه وأراد واذا ذهب عنه صادرا ومنه قوله (وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) يعنى ان اسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لا استبد بها دونكم

مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى أحفظ أعمالكم قال بعضهم انما قال لهم شعيب ذلك لانه لم يؤمر بقتالهم (قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) يعنى من الاصنام (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) يعنى من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل انهم كانوا يمرون به فيرونه يصلى فيستهزؤن به ويقولون هذه المقالة وقال الاعمش أقراءتك لان الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعنى أدينك يأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أو ان نفعل فى أموالنا ما نشاء وذلك انهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم انه محرم عليهم وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين (انك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس أرادوا السفيه الغاوى لان العرب قد تصف الشئ بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية وقيل معناه انك لانت الحليم الرشيد فى زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه انك ياشعيب فينا حليم رشيد فلا يحمدك شق عصا قومك ومخالفتهم فى دينهم (قال) يعنى قال لهم شعيب (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على بصيرة وهداية وبيان (ورزقنى منه رزقا حسنا) يعنى حلالا قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما آتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب ان الشرطية محذوف تقديره أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعنى مع هذه النعمة ان أخون فى وحيه أو ان أخالف أمره أو أتبع الضلال او أبخس الناس أشياءهم وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك انهم قالوا له انك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة وقوله (وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتساله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه وارداو أنا اذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما اريد ان أخالفكم الى ما انهاكم عنه أى ان اسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لا ستبد بها دونكم قال الامام فخر الدين الرازى وتحقيق الكلام فيه ان القوم اعترفوا فيها بانه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار

الطريق الاصوب الاصلح فكانه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اخترته لنفسى هو أصوب الطرق واصلحها وهو الدعوة الى توحيد الله وترك البخس والنقصان فاناموا ظب عليها غير تارك لها فاعلموا ان هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا ما أنتم عليه وقال الزجاج معناه أنى لست أنهاكم عن شئ وادخل فيه انما اختار لكم ما أختار لنفسى وقال ابن الانبارى بين ان الذى يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه ولا يناوئ الا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم (ان أريد) يعنى ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه (الا الاصلاح) يعنى فيما بينى وبينكم (ما استطعت) يعنى ما استطعت الا الاصلاح وهو الابلاغ والانذار فقط ولا أستطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله فانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء (وما توفيقى الا بالله) التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك الا الله تعالى فلذلك قال تعالى وما توفيقى الا بالله (عليه توكلت) يعنى على الله اعتمدت فى جميع أمورى (واليه أنيب) يعنى واليه ارجع فيما ينزل من النوائب وقيل اليه ارجع فى معادى روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وقوله تعالى (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى) أى لا يحملنكم خلافى وعداوتى (أن يصيبكم) يعنى عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة (مثل ما أصاب قوم نوح) يعنى الغرق (أو قوم هود) يعنى الريح التى أهلكتهم (أو قوم صالح) يعنى ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعا (وما قوم لوط منكم ببعيد) وذلك انهم كانوا حديثى عهد بهلاكهم وقيل معناه ومادار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم (واستغفروا ربكم) يعنى من عبادة الاصنام (ثم توبوا اليه) يعنى من البخس والنقصان فى الكيل والوزن (ان ربى رحيم) يعنى بعباده اذا تابوا واستغفروا (ودود) قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده اذا أحببته وقيل يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه اليهم وقال الحليمى هو الوالد لاهل طاعته أى الراضى عنهم باعمالهم والمحسن اليهم لاجلها والمادح لهم بها وقال أبو سليمان الخطابى وقد يكون معناه من تودد الى خلقه (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) يعنى ما نفهم ما ندعونا اليه وذلك ان الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لا تعى ولا تفهم ما ينفعها وان كانوا فى الظاهر يسمعون ويفهمون (وانا لنراك فينا ضعيفا) قال ابن عباس وقتادة كان أعمى قال الزجاج ويقال ان حيرا كانوا يسمون المكفوف ضعيفا وقال الحسن وأبو روق ومقاتل يعنى ذليلا قال أبو روق ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا أعمى ولا نبيا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذى يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله (ولولا رهطك) يعنى جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين

وينهى عن المنكر (ما استطعت) ظرف أى مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا (وما توفيقى الا بالله) وما كونى موفقا لاصابة الحق فيما آتى وأذر الا بمعونته وتاييده (عليه توكلت) اعتمدت (واليه أنيب) ارجع فى الشراء والضراء جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين ومنه قوله (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم) أى لا يكسبنكم خلافى اصابة العذاب (مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) وهو الغرق والريح والرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) فى الزمان فهم أقرب الهالكين منكم أو فى المكان فمنازلهم قريبة منكم أو فيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوى وسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم) يغفر لاهل الجفاء من المؤمنين (ودود) يحب اهل الوفاء من الصالحين (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) أى لا نفهم صحة ما تقول والا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الانبياء (وانا لنراك فينا ضعيفا) لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا ان أردنا بك مكروها (ولولا رهطك)

لرجمناك)ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك اظهروا الميل اليهم والاكرام لهم (وما أنت علينا بعزيز) أى لا تغز علينا ولا تكرم من القتل وترفع عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا وقد دل ايلاء ضميره حرف النفى على ان الكلام واقع فى الفاعل لا فى الفعل كانه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا ولذلك (قال) فى جوابهم ٤٦٦ (ياقوم أرهطى اعز عليكم من الله) ولو قيل وما عززت علينا لم

الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة (لرجمناك) يعنى لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول (وما أنت علينا بعزيز) يعنى بكريم وقيل بممتنع منا والمعنى ودمن هذا الكلام وحاصله انهم بينوا لشعيب عليه السلام انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وانهم انما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لاجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لانهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) يعنى أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلى لمكان رهطى عندكم فالاولى ان تحفظونى فى الله ولاجل الله لا لرهطى لان الله أعز وأعظم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) يعنى ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشئ الملقى الذى لا يلتفت اليه (ان ربى بما تعملون محيط) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باحوالكم جميعا لا يخفى عليه منها شئ فيجازيكم بها يوم القيامة (وياقوم اعملوا على مكانتكم) يعنى على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة من الشر (انى عامل) يعنى ما أقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الامر فى قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى (سوف تعلمون) أينا الجانى على نفسه المخطئ فى فعله فان قلت أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها فى قوله سوف تعلمون قلت ادخال الفاء فى قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها فى قوله سوف تعلمون وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كانهم قالوا فما يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعنى عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من ابواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) يعنى بسبب عمله السئ أو اينا الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه (ومن هو كاذب) يعنى فيما يدعيه (وارتقبوا) يعنى وانتظروا العاقبة وما يؤول اليه امرى وأمركم (انى معكم رقيب) أى منتظر والرقيب بمعنى المراقب (ولما جاء أمرنا) يعنى بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه

يصح هذا الجواب وانما قال أرهطى اعز عليكم من الله والكلام واقع فيه وفى رهطه وانهم الاعزة عليهم دونه لانهم وانهم به وهو نبى الله تهاونوا بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله الا ترى الى قوله تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) ونبذتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم فى النسبة الى الامس امسى (ان ربى بما تعملون محيط) قد أحاط باعمالكم علما فلا يخفى عليه شئ منها (و ياقوم اعملوا على مكانتكم) هى بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة أو مصدر من مكن مكانة فهو مكين اذا تمكن من الشئ يعنى اعملوا قارين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى أو اعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لها (انى عامل) على حسب ما يؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أى يفضحه وأينا هو كاذب أو موصولة قد عمل فيها كانه قيل سوف تعلمون الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه والذى هو كاذب فى زعمكم ودعواكم وادخال الفاء فى سوف وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ونزعها وصل تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كانهم قالوا فاذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون والاتيان بالوجهين للتفنن فى البلاغة وأبلغهما الاستئناف (وارتقبوا) وانتظروا العاقبة وما أقول لكم (انى معكم رقيب) منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه

برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا وانما ذكر في آخر قصة عاد ومدين ولما جاء وفي آخر قصة ثمود ولوط فلما جاء لانهما وقعا بعد ذكر الموعد وذلك قوله ان موعدهم الصبح ذلك وعد غير مكذوب فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت واما الاخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما ان تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) الجاثم اللازم لمكانه لا يريم يعني ان جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة (كان لم يغنوا فيها) ٤٦٧ كان لم يقيموا في ديارهم احياء متصرفين

برحمة منا) يعني بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (واخذت الذين ظلموا) يعني ظلموا انفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعا (فاصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني ميتين وهو استعارة من قولهم جثم الطير اذا قعد ولطا بالارض (كأن لم يغنوا فيها) يعني كان لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر ماخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) يعني هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) قال ابن عباس لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) يعني بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته (وسلطان مبين) يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه أيضا قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره وقال الزجاج السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطانا لانه حجة الله في الارض (الى فرعون وملئه) يعني اتباعه وأشراف قومه (فاتبعوا أمر فرعون) يعني ما هو عليه من الكفر وترك الايمان بما جاءهم به موسى (وما أمر فرعون برشيد) يعني وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير (يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار) يعني كما تقدم قومه فادخلهم البحر في الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم والمعنى كما كان قدوتهم في الضلال والكفر في الدنيا فكذلك هو قدوتهم وامامهم في النار (وبئس الورد المورود) يعني وبئس المدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون في تقدمه على قومه الى النار بمن يتقدم على الوارد الى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محمودا عند الواردين لانه يكسر العطش قال في حق فرعون وأتباعه فاوردهم النار وبئس الورد المورود لان الاصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة (وأتبعوا في هذه) يعني في هذه الدنيا (لعنة) يعني طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) يعني وأتبعوا لعنة

مترددين (ألا بعدا لمدين) البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى الرشد ألا ترى الى قوله (كما بعدت ثمود) وقرئ كما بعدت والمعنى في البناءين واحد وهو نقيض القرب الا انهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا وعد وأوعد (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) المراد به العصا لانها ابهرها (الى فرعون وملئه فاتبعوا) اى الملأ (أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره وهو ضلال مبين وذلك انه ادعى الالوهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالظلم والشر الذي لا يأتي الا من شيطان ومثله يعزل عن الالوهية وفيه انهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا ان مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه الى اتباع من ليس في امره رشد قط أو المراد وما أمره باصلاح حين

العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه يوم القيامة) أي يتقدمهم وهم على عقبه تفسير له وايضاحا أي كيف يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى كما استعمل الغي في كل ما يذم ويقال قدمه بمعنى تقدمه (فأوردهم النار) أدخلهم وجيء بلفظ الماضي لان الماضي يدل على أمر موجود قطوع به فكانه قيل يقدمهم فيوردهم النار لا محالة يعني كما كان قدوتهم في الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه (وبئس الورد) المورد (المورود) الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة الى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال بئس الورد المورود الذي يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش والنار ضده (وأتبعوا في هذه) أي الدنيا (لعنة ويوم القيامة) أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة

(بئس الرفد المرفود) رفدهم اى بئس العون المعان او بئس العطاء المعطى (ذلك) مبتدا (من انباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر اى ذلك النبأ بعض انباء القرى المهلكة مقصوص عليك (منها) من القرى (قائم وحصيد) اى بعضها باق وبعضها عاف الاثر كالزرع القائم على ساقه والذى حصد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) باهلاكنا اياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب ٤٦٨ مابه اهلكوا (فما أغنت عنهم آلهتهم) فما قدرت ان ترد عنهم باس الله

(التى يدعون) يعبدون وهى حكاية حال ماضية (من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك) عذابه ولما منصوب بما اغنت (وما زادوهم غير تتبيب) تخسير يقال تب اذا خسر وتبيبه غيره أوقعه فى الخسران يعنى وما افادتهم عبادة غير الله شيأ بل اهلكتهم (وكذلك) محل الكاف الرفع اى ومثل ذلك الاخذ (اخذ ربك اذا اخذ القرى) اى اهلها (وهى ظالمة) حال من القرى (ان اخذه اليم شديد) مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالامهال (ان فى ذلك) فيما قص الله من قصص الامم الهالكة (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) اى اعتقد صحته ووجوده (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له الناس) وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله اذا قلت يجمع له الناس وانما آثر اسم المفعول على فعله لما فى اسم المفعول من دلالته على ثبات

اخرى يوم القيامة مع اللعنة التى حصلت لهم فى الدنيا (بئس الرفد المرفود) يعنى بئس العون المعان وذلك ان اللعنة فى الدنيا رفد للعنة فى الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك انه ترادف عليهم لعنتان لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة وقوله سبحانه وتعالى (ذلك من انباء القرى) يعنى من أخبار أهل القرى وهم الامم السالفة والقرون الماضية (نقصه عليك) يعنى نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب (منها) يعنى من القرى التى أهلكنا أهلها (قائم وحصيد) يعنى منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعنى الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محى أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذى بعضه قائم على سوقه وبعضه قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود (وما ظلمناهم) يعنى بالعذاب والاهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك) يعنى بعذابهم أى لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب (وما زادوهم غير تتبيب) يعنى غير تخسير وقيل غير تدمير (وكذلك أخذ ربك) يعنى وهكذا أخذ ربك (اذا أخذ القرى وهى ظالمة) الضمير فى وهى عائد على القرى والمراد أهلها (ان أخذه أليم شديد) قال أبو موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد فالآية الكريمة والحديث دليل على ان من أقدم على ظلم فانه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والاوبة ورد الحقوق الى أهلها ان كان الظلم للغير فلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية حكمها مختص بظالمى الامم الماضية بل هو عام فى كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم قوله عز وجل (ان فى ذلك لآية) يعنى ما ذكر من عذاب الامم الخالية واهلاكهم لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) يعنى ان اهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه فى الآخرة لانه اذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار فى الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالانموذج مما اعد لهم فى الآخرة اعتبر به فيكون زيادة فى خوفه وخشيته من الله (ذلك يوم مجموع له الناس) يعنى يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الاولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدى رب العالمين (وذلك يوم مشهود) يعنى يشهده أهل السماء وأهل الارض (وما نؤخره الا لاجل معدود) يعنى وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة

معنى الجمع لليوم وانه اثبت أيضا لاستناد الجمع الى الناس وانهم لا يتفكون منه مجموعون للحساب والثواب والعقاب (وذلك اليوم مشهود) اى مشهود فيه فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به أى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه احد (وما نؤخره) اى اليوم المذكور الاجل يطلق على مدة التاجيل كلها وعلى منتهاها والفناء هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها فمعنى قوله وما نؤخره (الا لاجل معدود) الا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف أو ما نؤخر هذا اليوم الا لتنتهى المدة التى ضربناها لبقاء الدنيا

الا الى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد الا الله تعالى (يوم يأت) يعنى ذلك اليوم (لا تكلم نفس الا باذنه) قيل ان جميع الخلائق يسكتون فى ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه الا باذن الله تعالى فان قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وقوله اخبارا عن محاجة الكفار والله ربنا ما كنا مشركين والأخبار أيضا تدل على الكلام فى ذلك اليوم قلت يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففى بعض الاحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الاهوال وفى بعض الاحوال يؤذن لهم فى الكلام فيتكلمون وفى بعضها تخفف عنهم تلك الاهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون وقيل المراد من قوله لا تكلم نفس الا باذنه الشفاعة يعنى لا تشفع نفس لنفس شيأ الا ان يأذن الله لها فى الشفاعة (فمنهم) يعنى فمن أهل الموقف (شقى وسعيد) الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هى معاونة الامور الالهية للانسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة اخروية وهى السعادة القصوى لان نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضا شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهى الشقاوة القصوى لان نهايتها النار فالشقى من سبقت له الشقاوة فى الازل والسعيد من سبقت له السعادة فى الازل (ق) عن على بن أبى طالب قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الانسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشئ بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على ان أهل الموقف قسمان شقى وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقى قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته وهم أصحاب الاعراف فى قول والاطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيآت فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفى القسم الثالث (فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها) أى فى النار من العذاب والهوان (زفير وشهيق) أصل الزفير ترديد النفس فى الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس الى الصدر أو الزفير مده واخراجه من الصدر وقال ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك ومقاتل الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره اذا رده الى صدره وقال أبو العالية الزفير فى الحلق والشهيق فى الجوف خالدين فيها)

(يوم يأت) وبالياء مكى وافقه أبو عمرو ونافع وعلى فى الوصل واثبات الياء هو الاصل اذ لا علة توجب حذفها وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل ونظيره ما كنا نبغ وفاعل يأت ضمير يرجع الى قوله يوم مجموع له الناس لا اليوم المضاف الى يأت ويوم منصوب باذكر أو بقوله (لا تكلم) أى لا تتكلم (نفس الا باذنه) أى لا يشفع أحد الا ماذن الله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (فمنهم) الضمير لاهل الموقف لدلالة لا تكلم نفس عليه وقد مر ذكر الناس فى قوله مجموع له الناس (شقى) معذب (وسعيد) أى ومنهم سعيد اى منعم (فاما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير) هو أول نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره أو هما اخراج النفس وبده والجملة فى موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذى فى النار (خالدين فيها)

السموات والارض والمراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للابد والدليل على ان لها سموات وأرضا قوله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقيل مادام فوق وتحت ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء أو عرش وكل ما أظلك فهو سماء اوهو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب ما لاح كوكب وغير ذلك من كلمات التأبيد (الا ماشاء ربك) هو استثناء من الخلود في عذاب النار وذلك لان أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار وماشاء بمعنى من شاء وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضا لمفارقتهم اياها بكونهم في النار ايا ما فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولا سعدوا سعادة من لا تمسه النار وهو مروي عن ابن عباس والضحاك وقتادة رضي الله عنهم (ان ربك فعال لما يريد) بالشقي والسعيد (واما الذين سعدوا) سعدوا حمزة وعلي وحفص سعدا لازم وسعده يسعده متعد (ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) هو استثناء من

يعني لابثين مقيمين في النار (مادامت السموات والارض) قال الضحاك يعني مادامت سموات الجنة والنار وارضهما ولابد لاهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فاظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فانهم يقولون لا آتيك مادامت السموات والارض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد وقوله سبحانه وتعالى (الا ماشاء ربك) اختلف العلماء في معنى هذين الاستثناءين فقال ابن عباس والضحاك الاستثناء الاول المذكور في أهل الشقاء يرجع الى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة وفي رواية ان الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة أخرجه البخاري ومسلم عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين وفي رواية ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون (خ) عن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع الى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة (ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) ان يدخله النار أولا ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول ان الاستثناءين يرجع كل واحد منهما الى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لان اجماع الامة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها ابدا وقيل ان الاستثناءين يرجعان الى الفريقين السعداء والاشقياء وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه الا ماشاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف الا ألفين أي سوى ألفين وقيل الا بمعنى الواو يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تعجد وتعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أي ولا للذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لم يشأ لانه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لاضربنك

الخلود فى نعيم الجنة وذلك ان لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه أو معناه الامن شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاستثناء فى الآيتين لاهل الجنة ومعناه ماذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصى الذى دخل النار خلود فى النار حيث يخرج منها ولا يكون له أيضا خلود فى الجنة لانه لم يدخل الجنة ابتداء والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الاحاديث المروية فى هذا الباب وكفى به اثما مبينا (عطاء غير مجذوذ) غير مقطوع ولكنه ممتد الى غير نهاية كقوله لهم اجر غير ممنون وهو نصب على المصدر اى اعطوا عطاء قيل كفرت الجهمية باربع آيات عطاء غير مجذوذ أكلها دائم وما عند الله باق لا مقطوعة ولا ممنوعة لما قص الله قصص عبدة الاوثان وذكر ما أحل بهم من نقمة وما اعد لهم من عذابه قال (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) اى فلا تشك بعدما انزل عليك من هذه القصص فى سوء عاقبة عبادتهم لما اصاب امثالهم قبلهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدة بالانتقام منهم ووعيدا لهم ثم قال (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) تريد أن حالهم فى الشرك مثل حال آبائهم وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزل بهم مثله أو هو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية وما فى مما وكما مصدرية أو موصولة اى من عبادتهم وكعبادتهم او مما يعبدون من الاوثان ومثل ما يعبدون منها (وانا لموفوهم نصيبهم) حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم انصباءهم (غير منقوص) حال من نصيبهم اى كاملا (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فاختلف فيه) آمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف فى القرآن وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم. (ولولا كلمة سبقت من ربك) انه لا يعاجلهم بالعذاب (لقضى بينهم) بين قوم موسى أو قومك بالعذاب المستأصل.

الا ان أرى غير ذلك وعزمه ان يضرب به فهذه الاقوال فى معنى الاستثناء ترجع الى الفريقين والصحيح هو القول الاول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ان ربك فعال لما يريد يعنى من اخراج من أراد من النار وادخالهم الجنة فهذا على الاجمال فى حال الفريقين فاما على التفصيل فقوله الا ماشاء ربك فى جانب الاشقياء يرجع الى الزفير والشهيق وتقريره ان يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لانه اذا دخل الاستثناء عليه وجب ان يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء فى جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعنى الا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل ان الاستثناء الاول فى جانب الاشقياء معناه الا ماشاء ربك من ان يخرجهم من حر النار الى البرد والزمهرير وفى جانب السعداء معناه الا ماشاء ربك ان يرفع بعضهم الى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الاول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة فى الجنة ان الامة مجتمعة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها وقوله سبحانه وتعالى فى جانب السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعنى غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار وروى عن ابن مسعود انه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا وعن أبى هريرة نحوه وهذا ان صح عن ابن مسعود وأبى هريرة فالمحمول عند أهل السنة على اخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد اخراجهم منها لانه ثبت بالدليل الصحيح القاطع اخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها او يكون محمولا على اخراج الكفار من حر النار الى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا فوق عذابهم والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) يعنى فلا تك فى شك يا محمد فى هذه الاصنام التى يعبدها هؤلاء الكفار فانها لا تضر ولا تنفع (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) يعنى انه ليس لهم فى عبادة هذه الاصنام مستند الا انهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم (وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) يعنى وانا مع عبادتهم هذه الاصنام نرزقهم الرزق الذى قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل ان يكون المراد من توفية نصيبهم يعنى من العذاب الذى قدر لهم فى الآخرة كاملا موفرا غير ناقص قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (فاختلف فيه) يعنى فى الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى بتأخير العذاب عنهم الى يوم القيامة لكان الذى يستحقونه من تعجيل العقوبة فى الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى (لقضى بينهم) يعنى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم

(وانهم لفي شك منه) من القرآن أو من العذاب (مريب) من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة على الاسناد المجازي (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه يعني وان كلهم أي وان جميع المختلفين فيه وان مشددة (لما) مخفف بصري وعلى ما نزيدة جيء بها ليفصل بها بين لام ان ولام (ليوفينهم) وهو جواب قسم محذوف واللام في لما موطئة للقسم والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم (ربك أعمالهم) ٤٧٢ اي جزاء أعمالهم من ايمان وجحود وحسن وقبيح بعكس الاولى ابو بكر

مخففان مكي ونافع على اعمال المخففة عمل الثقيلة اعتبارا لاصلها الذي هو التثقيل ولان ان تشبه الفعل والفعل يعمل قبل الحذف وبعده نحو لم يكن ولم يك فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل واحسن ما قيل فيه انه من لممت الشيء جمعته لماشم وقف فصار لماشم اجرى الوصل مجرى الوقف وجاز أن يكون مثل الدعوى والثروى وفيه الف التأنيث من المصادر وقرأ الزهري وان كلا لما بالتنوين كقوله اكلا لما وهو يؤيد ما ذكرنا والمعنى وان كلا لما مجموعين اي مجموعين كانه قيل وان كلا جميعا كقوله فسجد الملائكة كلهم اجمعون وقال صاحب الايجاز لما فيه معنى الظرف وقد دخل في الكلام اختصارا كانه قيل وان كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك اعمالهم وقال الكسائي ليس في بتشديد لما علم (انه بما يعملون خبير فاستقم كما أمرت) فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي امرت بها غير عادل عنها

واهلا كلهم (وانهم لفي شك منه) يعني من القرآن ونزوله عليك يا محمد (مريب) يعني انهم قد وقعوا في الريب والتهمة (وان كلا) يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار (انه بما يعملون خبير) يعني الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وان دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين قوله سبحانه وتعالى (فاستقم كما أمرت) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم يعني فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء اليه كما أمرك ربك والامر في فاستقم للتأكيد لان النبي صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أي دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعني ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهي ولا تروغ منه روغان الثعلب (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم (ولا تطغوا) يعني ولا تجاوزوا أمري الى غيره ولا تعصوني وقيل معناه ولا تغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه (انه بما تعملون بصير) يعني انه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها قال ابن عباس ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتني هود وأخواتها (خ) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة قوله ان الدين يسر اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل في الدين وترك التشدد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فان يغالب ولن يتقاوى فسددوا أي اقصدوا السداد من الامور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والروحة الرجوع عشيا والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله شيء من الدلجة اشارة الى تقليله وقوله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) قال ابن عباس لا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال ابو العالية لا ترضوا باعمالهم وقال السدي لا تداهنوا الظلمة

(ومن تاب معك) معطوف على المستتر في استقم وجاز للفاصل يعني فاستقم انت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع الى الله مخلصا (ولا تطغوا) ولا تخرجوا عن حدود الله (انه بما تعملون بصير) فهو مجازيكم فاتقوه قيل ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت أشق عليه من هذه الآية ولهذا قال شيبتني هود (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) ولا تميلوا قال الشيخ رحمه الله هذا خطاب لاتباع الكفرة اي لا تركنوا الى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم اليه

وعن عكرمة لا تطيعوهم وقيل معناه ولا تسكنوا الى الذين ظلموا (فتمسكم النار) يعنى فتصيبكم النار بحرها (ومالكم من دون الله من أولياء) يعنى اعوانا وانصارا يمنعونكم من عذابه (ثم لا تنصرون) يعنى ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غدا فى القيامة ففيه وعيد لمن ركن الى الظلمة أو رضى باعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة فى أنفسهم نعوذ بالله من الظلم قوله عز وجل (وأقم الصلاة طرفى النهار) سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن ابى اليسر قال أتتنى امرأة تبتاع تمرا فقلت ان فى البيت تمرا هو اطيب منه فدخلت معى البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت ابا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فلم اصبر فاتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فلم اصبر فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن اسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من اهل النار قال وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله اليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله ذلك ذكرى للذاكرين قال ابو اليسر فاتيته فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصحابه يا رسول الله الهذا خاصة ام للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وابو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله بن مسعود ان رجلا أصاب من امرأة قبلة فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يا رسول الله الى هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتى وفى رواية فقال رجل من القوم يا نبى الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة عن معاذ بن جبل قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتى الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا أنه لم يجامعها فانزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين فامره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلى قال معاذ فقلت يا رسول الله أهى له خاصة ام للمؤمنين عامة فقال بل للمؤمنين عامة أخرجه الترمذى وقال هذا الحديث ليس بمتصل لان عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفى النهار يعنى صلاة الغداة والعشى وقال مجاهد طرفى النهار يعنى صلاة الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعنى صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعنى صلاة العشاء وقال الحسن طرفى النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفى النهار الغداة والعشى يعنى صلاة الصبح والمغرب قال الامام فخر الدين الرازى كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاشهر أن الصلاة التى فى طرفى النهار هى الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفى النهار هو طلوع الشمس والثانى هو غروبها فالطرف الاول هو صلاة الفجر والطرف الثانى لا يجوز ان يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله تعالى وزلفا من الليل

(فتمسكم النار) وقيل الركون اليهم الرضا بكفرهم وقال قتادة ولا تلحقوا بالمشركين وعن الموفق أنه صلى خلف الامام فلما قرأ هذه الآية غشى عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ولا تطغوا ولا تركنوا وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعى ما من شئ أبغض الى الله من عالم يزور عاملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت قال دعه يموت (ومالكم من دون الله من أولياء) حال من قوله فتمسكم النار أى فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ومعناه ومالكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولا يقدر على منعكم منه غيره (ثم لا تنصرون) ثم لا ينصركم هو لانه حكم بتعذيبكم ومعنى ثم الاستبعاد أى النصرة من الله مستبعدة (وأقم الصلوة طرفى النهار) غدوة وعشية

(وزلفا من الليل) وساعات من الليل جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه اذا قربه وصلاة الغدوة الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر لان ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفي النهار على الظرف لانهما مضافان الى الوقت كقولك أقمت عنده جميع النهار وآتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه (ان الحسنات يذهبن السيئات) ٤٧٤ ان الصلوات الخمس يذهبن الذنوب وفي الحديث ان الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب أو الطاعات قال عليه السلام أتبع السيئة الحسنة تمحها أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (ذلك) اشارة الى فاستقم فما بعده أو القرآن (ذكرى للذاكرين) عظة للمتعظين نزلت في عمرو بن غزية الانصاري بائع التمر قال لامرأته في البيت تمر أجود فدخلت فقبلها فندم فجاء حاكيا باكيا فنزلت فقال عليه السلام هل شهدت معنا العصر قال نعم قال هي كفارة لك فقيل ألله خاصة قال بل للناس عامة (واصبر) على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه الا به (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) جامعا ومشتملا على جميع الاوامر والنواهي من قوله فاستقم الى قوله فاصبر وغير ذلك من الحسنات (فلولا كان من القرون من قبلكم) فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل (أولوا بقية) أولو فضل وخير وسمي الفضل والجودة بقية لان الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا (ينهون عن الفساد في الارض) عجب محمد عليه السلام وأمته أن لم يكن في الامم التي ذكر الله اهلاكهم في هذه السورة جماعة من أولي العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصي (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع

فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر (وزلفا من الليل) يعني وأقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة واصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء (ان الحسنات يذهبن السيئات) يعني ان الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن زاد في رواية ما لم تغش الكبائر وزاد في رواية اخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر (ق) عن أبي هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو ان نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا (خ) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات قال الحسن وما يبقى من الدرن قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط الشرط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام ان لا يعود اليه في المستقبل فاذا حاصت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى وقال مجاهد في تفسير الحسنات انها قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والقول الاول اصحها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد في احدى الروايتين عنه والقرظي والضحاك وجمهور المفسرين (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو اشارة الى القرآن (ذكرى للذاكرين) يعني عظة للمؤمنين المطيعين (واصبر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني واصبر يا محمد على اذى قومك وما تلقاه منهم وقيل معناه واصبر على الصلاة (فان الله لا يضيع اجر المحسنين) يعني اعمالهم قال ابن عباس يعني المصلين قوله سبحانه وتعالى (فلولا كان من القرون) يعني فهلا كان من القرون التي اهلكناهم (من قبلكم) يعني يا امة محمد (اولوا بقية) يعني اولو تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير وقيل معناه اولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان على خصلة محمودة (ينهون عن الفساد في الارض) يعني يقومون بالنهي عن الفساد في الارض والآية للتقريع والتوبيخ يعني لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد في الارض فلذلك اهلكناهم (الا قليلا) هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن انجينا منهم) يعني من آمن من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء كانوا ينهون

أى ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى ومن فى ممن أنجينا للبيان لا للتبعيض لان النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا (واتبع الذين ظلموا) أى

عن الفساد فى الارض (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) يعنى واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى انهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وايثار اللذات على الآخرة ونعيمها (وكانوا مجرمين) يعنى كافرين (وما كان ربك) يعنى وما كان ربك يا محمد (ليهلك القرى بظلم) يعنى لا يهلكهم بظلم منه (واهلها مصلحون) يعنى فى أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات وقيل فى معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعنى يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال فى الدنيا اما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء ان حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد قوله عزوجل (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) يعنى كلهم على دين واحد وشريعة واحدة (ولا يزالون مختلفين) يعنى على أديان شتى ما بين يهودى ونصرانى ومجوسى ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان قد اختلفوا فى دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة أخرجه أبو داود والترمذى بنحوه عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة أخرجه ابو داود قال الخطابى قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق أمتى فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من امته وقال غيره المراد بهذه الفرق اهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا واوظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والاهواء والمراد بالواحدة هى فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وقوله سبحانه وتعالى (الا من رحم ربك) يعنى لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق الى الحق وهداه الى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون (ولذلك خلقهم) قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم قال أشهب سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعنى الذين يرحمهم وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عزوجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحاصل الآية ان الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم اهل

التاركون للنهى عن المنكر وهو عطف على مضمر أى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا (ما أترفوا فيه) أى اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنى ورفضوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) اعتراض وحكم عليهم بانهم قوم مجرمون (وما كان ربك ليهلك القرى) اللام لتأكيد النفى (بظلم) حال من الفاعل أى لا يصح ان يهلك الله القرى ظالما لها (وأهلها) قوم (مصلحون) تنزيها لذاته عن الظلم وقيل الظلم الشرك أى لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون فى المعاملات فيما بينهم لا يضمون الى شركهم فسادا آخر (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) اى متفقين على الايمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك وقالت المعتزلة هى مشيئة قسر وذلك رافع للابتلاء فلا يجوز (ولا يزالون مختلفين) فى الكفر والايمان اى ولكن شاء ان يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك (الا من رحم ربك) الا ناسا عصمهم الله عن الاختلاف فامنوا على دين الحق غير مختلفين فيه (ولذلك خلقهم) اى ولما هم عليه من الاختلاف خلقهم للذى علم انهم يصيرون اليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذى علم انهم يصيرون اليه كذا فى شرح التأويلات

الاتفاق ومصيرهم الى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواما للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية قوله سبحانه وتعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الامم الماضية والقرون الخالية وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (وجاءك) يا محمد (في هذه الحق) اختلفوا في هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الاقرب وهو قول الاكثرين فان قلت فقد جاءه الحق في سور القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر ان لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وانما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) اي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون اذا تذكروا أحوال الامم الماضية وما نزل بهم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله اعملوا ما شئتم (انا عاملون) يعني ما أمرنا به ربنا (وانتظروا) يعني ما يعدكم به الشيطان (انا منتظرون) يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه اما في الدنيا واما في الآخرة (ولله غيب السموات والارض) يعني يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني ان علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الاشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء (واليه يرجع الامر كله) يعني الى الله يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة (فاعبده) يعني ان من كان كذلك كان مستحقا للعبادة لا غيره فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) يعني وثق به في جميع امورك فانه يكفيك (وما ربك بغافل عما تعملون) قال أهل التفسير هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى انه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه منها شئ فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود

والله أعلم بمراده واسراره

كتابه

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة يوسف)

(وتمت كلمة ربك) وهي قوله لأملأن جهنم من المختار الباطل (وكلا) التنوين فيه عوض من المضاف اليه كانه قيل وكل نبأ وهو منصوب بقوله (نقص عليك) وقوله (من أنباء الرسل) بيان لكل وقوله (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا (وجاءك في هذه الحق) اي في هذه السورة أو في هذه الأنباء المقتصة ما هو حق (وموعظة وذكرى للمؤمنين) ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه لان تكاثر الادلة اثبت للقلب (وقل للذين لا يؤمنون) من اهل مكة وغيرهم (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها (انا عاملون) على مكانتنا (وانتظروا) بنا الدوائر (انا منتظرون) ان ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة باشباهكم (ولله غيب السموات والارض) لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم (واليه يرجع الامر كله) فلا بد ان يرجع اليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم يرجع نافع وحفص (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك وكافلك (وما ربك بغافل عما يعملون) وبالتاء مدني وشامي وحفص أي أنت وهم على تغليب المخاطب قيل خاتمة التوراة هذه الآية وفي الحديث من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى